رسائل جامعية (٤٨)

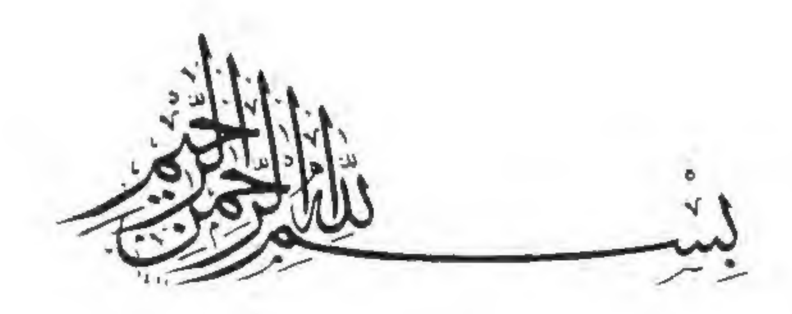
الاستهزاء بالدين

أحكامه وآثاره

إعداد

أحمد بن محمد بن حسن القرشي
كلية المعلمين بمحافظة الطائف
قسم الدراسات الإسلامية

دار ابن الجوزي



أصل هذا الكتاب أطروحة علمية نال بها المؤلف درجة الماجستير بتقدير ممتاز من قسم العقيدة كلية الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى بمكة المكرمة بإشراف فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور عبد الله بن عمر الدميجي.

الطَّبعَةُ الأُولَى
١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

عنوان المؤلف
البريد الالكتروني
algorashe - am @ hotmail .com
ص . ب ٦٨٦٨



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - شارع ابن خلدون - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - ت: ٤٢٦٦٣٣٩ - الإحساء - الهفوف - شارع الجامعة - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٥١٤٨٨٢ - ٦٨١٣٧٠٦ - **بيروت** - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - **القاهرة** - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٣٤٤٩٧٠
البريد الإلكتروني: **aljawzi@hotmail.com - www.jwzi.com**

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أمّا بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار[(١)].

فلك الحمد ربي أن أرسلت إلينا أكرم خلقك «وأفضل من أوذي فيك فصبر، وأجلَّ من ابتليته فرضي وشكر، وأرسلته لخير أمة أخرجت للناس فهديت به كل حائر وأرديت به كل جائر، ومحوت به ظلم البدع والكفر

(١) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يبدأ بها خطبه، أخرجها: أبو داود، كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح، برقم (٢١١٨) (٢/٥٩١)، والترمذي، كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح، برقم (١١٠٥) (٣/٤١٣)، وقال: حديث حسن، والإمام أحمد في «المسند» (١/٥١٠ ـ ٥٦٠)، قال الهيثمي في «المجمع» (٤/٢٨٨): «رجاله ثقات»، وصححه الشيخ الألباني. انظر: «صحيح سنن أبي داود» (٢/٣٩٨) برقم (١٨٦٠)، و«خطبة الحاجة» (ص١٠ ـ ١٤) له.

لا سيما من بلدك الحرام، وخصمت ببراهين دينه الطغاة العظام، وأمرته بأن يورِّثها من بعده من أئمة الأعلام حتى يردوا بها على من عاندهم. . . صلاة وسلاماً دائمين ما قام بنُصْرةِ دينه القويم بعض وارثيه، وبذل نفسه في الله رجاء لما أعده لوارثيه وعارفيه»[١].

ثم أما بعد: فإن من توفيق الله ﷻ وحده، أن يسَّر لي طريقاً ـ أحسب أني ألتمسُ فيه علماً ـ للبحث والدراسة، فالتحقت بقسم العقيدة بجامعة أم القرى ـ الدراسات العليا ـ فوقع اختياري بعد طول تأمل واستشارة لأهل العلم والفضل على موضوع «الاستهزاء»[٢] للأهمية البالغة لهذا الموضوع، لأجل تعلقه بالإيمان والكفر، إذ هو من أعظم النواقض للشهادتين[٣]، وأحسب ـ والله أعلم ـ أن هذا الموضوع لم يبحث في رسالة مستقلة تجمع شتاته، وتكشف عوار المنغمسين في هذا الناقض من نواقض الإسلام والإيمان ـ عافانا الله تعالى منه ـ.

○ أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تكمن أهمية الموضوع في الأسباب التالية:

١ ـ إن أصل دين الإسلام مبني على تعظيم الله تعالى وتعظيم دينه

---

(١) عن مقدمة «الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٣٩) المطبوع بآخر كتاب «الزواجر عن اقتراف الكبائر» كلاهما لابن حجر الهيتمي.

(٢) وقد كان هذا الموضوع قدم للقسم من الأخ الفاضل محمد الحلواني ـ حفظه الله ـ لينال به درجة الدكتوراه فلم يجز من القسم لصغره، فاستأذنت الأخ محمداً لأتقدم به إلى القسم مرة أخرى بعد تعديل وإضافات فأذن لي مشكوراً، فجزاه الله خيراً.

(٣) نواقض الإسلام كثيرة، أوصلها بعضهم إلى أربعمائة ناقض. انظر على سبيل المثال: «كشاف القناع عن متن الاقتناع»، تحت باب: «حكم المرتد». «الدرر السنية» (٨/ ٨٦) جمع العلامة عبد الرحمٰن بن قاسم. قال سماحة الشيخ عبد الله بن حميد: «وللمسألة تفاصيل وبحوث طويلة في كتب العلماء تزيد على أربعمائة باعتبار فروعها ومفردات مسائلها، والله أعلم». «فتاوى الشيخ عبد الله بن حميد» (ص١٥).

وتعظيم رسوله ﷺ، وأن الاستهزاء بشيء من ذلك أو بما يتعلق به مناف لهذا الأصل العظيم ومناقض له أشد المناقضة، فهو من نواقض الإسلام وقواطعه العظام، قال ابن تيمية رحمه الله: «من استخف واستهزأ بقلبه امتنع أن يكون منقاداً لأمره، فإن الانقياد إجلال وإكرام، والاستخفاف إهانة وإذلال، وهذان ضدان، فمتى حصل في القلب أحدهما انتفى الآخر، فعلم أن الاستخفاف والاستهانة به ينافي الإيمان منافاة الضد للضد»[(١)].

فالاستهزاء بشعيرة من شعائر الإسلام، أو بحكم من أحكامه، أو بسنة من سننه، يسلب صاحبه وصف الإيمان، ويسلكه في عداد أعداء الرحمٰن، لأن الاستهزاء أكبر إثماً وأعظم جرماً من مجرد المعصية، فكل إنسان يمكن أن تغلبه نفسه فيقع في المعصية، هذا شيء والاستهزاء بدين الله وشعائره شيء آخر.

٢ ـ الكتاب والسنة مليئان بالحث على تعظيم الله تعالى ورسوله ﷺ وشعائر الدين، مما يدل على خطورة هذا الأمر، وأن الانحراف فيه يُفضي بصاحبه إلى المروق من الدين.

٣ ـ فشو الاستهزاء بالدين في هذا العصر بصورة مذهلة في صفوف المثقفين، ودعاة العلمنة والحداثة والمذاهب الهدامة المخالفة لهدي الإسلام وتعاليمه، وبعض العامة والدهماء الذين يجهلون خطورة ما يتفوَّهون به، وقد يأتون به أحياناً على سبيل الهزل وإضحاك الآخرين.

٤ ـ الإسهام في بيان وكشف الألفاظ والعبارات في الاستهزاء وصوره والتنبيه على خطورته، وبيان مدى انتشاره وكثرة الابتلاء به، وتكمن الخطورة والمصيبة في أنَّ هذا الأمر قد يقع من المسلم ولو بدون قصد.

٥ ـ بيان موقف المسلم من هذه الظاهرة المنتشرة في هذا العصر في المجالس والأندية والصحف والمجلات وبعض الكتب التي تحمل أفكاراً

(١) «الصارم المسلول» (ص٥٢١).

هدامة، والمستفاد من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠]، وسيأتي مزيد بيان لهذا في الباب الثالث إن شاء الله تعالى.

وجعلت عنوان هذه الأطروحة: «**الاستهزاء بالدين أحكامه وآثاره**».

○ منهجي في إعداد الرسالة:

بعد اختيار الموضوع وموافقة القسم عليه، أخذت أتتبع مادته المتناثرة في بطون الكتب والدواوين، فبدأت بجمع الآيات القرآنية من المصحف الشريف ثم أتيت على ما كتبه أهل التفسير عنها بدءاً بالإمام الطبري.. .إلخ، ثم بعد ذلك انصرفت إلى السنة النبوية وجمعت الأحاديث الصحيحة ـ وهي قليلة ـ مع شرحها وبيان معانيها وأتيت على جملة من كتب العقائد المسندة كـ«اللالكائي» وغيره، وغير المسندة ككتب شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، ثم اتجهت إلى كتب السير والتواريخ فأخذت ما وجدته فيها حول الموضوع، وكذلك عرَّجت على ما كتب عن الديانات القديمة كـ«الجواب الصحيح» و«هداية الحيارى» و«الفِصَلْ» وما كتب عن الفِرق الإسلامية المبتدعة الضالة، ثم أتيت على الفكر المعاصر وما كتب حوله من نقد وتقويم، وبيان ما فيه من باطل، فوجدت فيه مادة كثيرة عن الاستهزاء بالدين، وخاصة فيما يتعلق بصوره، وطالعت ـ أيضاً ـ ما كتب في الصحافة من هجوم على الإسلام، وسخرية بأهله، وما كتب في الأدب أيضاً من استهزاء بالدين كما فعل «سلمان رشدي» و«علاء حامد» وغيرهم كثير كأهل الحداثة.

وبعد أن اجتمع عندي مادة كثيرة عن الاستهزاء بالدين وصوره توجهت إلى كتب الفقه، وما كتبه الفقهاء ـ الأئمة الأربعة وأتباعهم ـ من أهل السنة والجماعة في باب حكم المرتد، وذلك لأجل الحكم على «الاستهزاء والمستهزئين»، فوقفت على تلك المراجع العلمية، وجردت ما فيها من كلام

فيما يتعلق بالاستهزاء بالله تعالى ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ودين الإسلام، وأفدت منها كثيراً، حتى اجتمعت لدي مادة البحث، ولا شك أنَّ التطواف في بطون هذه الكتب على مختلف فنونها ومشاربها قد أخذ مني جهداً كبيراً ووقتاً ثميناً، وقد أقرأ عشرات بل مئات الصفحات ولا أعثر فيها على شيء مما يتعلق بالموضوع.

○ ثم شرعت في الكتابة مراعياً الأمور التالية:

١ ـ عزو الآيات القرآنية إلى المصحف الشريف ذاكراً اسم السورة ورقم الآية، كل هذا في صلب الرسالة وبخط مميز «صغير» خشية إثقال الحواشي.

٢ ـ تخريج الأحاديث النبوية، وعزوها إلى مصادرها، فإن كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بهما أو بأحدهما، ذاكراً الكتاب، والباب، ورقم الحديث، والجزء والصفحة من الطبعة التي اعتمدتها، وكذلك بالنسبة للسنن الأربع، أما المسند فأذكر الجزء والصفحة.

وحكمت على الأحاديث في غير الصحيحين ناقلاً كلام أهل هذا الفن: كالذهبي، وابن حجر، والعراقي، والزيلعي، والمناوي، والألباني، وغيرهم.

٣ ـ قمت بإضافة كل قول إلى قائله رجاء الحصول على بركة العلم، وأداء للأمانة وقبولاً لنصيحة الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: «ومن النصيحة أن تضاف الفائدة التي تستغرب إلى قائلها، فمن فعل ذلك بورك له في علمه وحاله، ومن أوهم ذلك وأوهم فيما يأخذ من كلام غيره أنه له فهو جدير أن لا يُنتفع بعلمه، ولا يبارك له في حاله.

ولم يزل أهل العلم والفضل على إضافة الفوائد إلى قائليها، نسأل الله تعالى التوفيق لذلك دائماً»[1].

(١) بستان العارفين (ص٢٩).

٤ ـ قمت بشرح الألفاظ الغريبة الواردة في الأدلة الشرعية وكلام أهل العلم ما أمكنني ذلك، معتمداً على كتب اللغة والغريب، وشروح السنة كـ«فتح الباري» و«شرح النووي» و«معالم السنن» وغيرها.

٥ ـ ترجمت للأعلام غير المشهورين.

٦ ـ صنعت للرسالة فهرس المراجع العلمية، وختمتها بفهرس للمحتوى. وبالله تعالى التوفيق.

○ خطة البحث:

يتكون هذا البحث من تمهيد وأربعة أبواب وخاتمة، هذا عدا المقدمة التي يكون فيها الحديث عن أهمية الموضوع وأسباب اختياره، والفهارس العامة.

أمّا التمهيد: فقد تحدثت فيه عن التعظيم والمحبة إذ هما أساس متين ينبني عليه دين الإسلام، وينهدم بانهدامه، فلا خير في أهل دين يسخرون به، وينتقصونه، ويُصيِّرُونه أهون ما يكون، ولا يعنون بالدفاع عنه، والذود عن حياضه بالنفس والنفيس، كيف لا وسلف هذه الأمة الأول نافحوا عن الإسلام ودكُّوا حصون أهل البدع والزيغ بسيوفهم تارة وبألسنتهم وأقلامهم تارات حتى ثبَّتوا أصوله وشرائعه، فوصل إلينا غير مُبَدَّلٍ ولا منتقص مهان، فواجب الوقت اليوم أن نرفع به رأساً، وندفع عنه أعداءه من زنادقة ووثنيين وكتابيين، ومنافقين مغموصين في النفاق، حتى ترتفع معالمه، وتظهر شعائره وشرائعه، ويكون الدين كله لله.

وقد نبهت في هذا التمهيد إلى مسائل أرى أهمية فهمها ووضعها موضعها الصحيح حتى لا يساء الفهم؛ ويخرج القارئ الكريم برؤية تخالف طريقة أهل السنة والجماعة، لأن الحديث عن مسائل الإيمان ونواقضه يحتاج إلى الدقة والتأني وعدم التعجُّل، واستصحاب قواعد أهل السنة والجماعة في

فهم النصوص الشرعية وكلام أهل العلم المحققين الربانيين أهل التوسط والاعتدال، بغية الاهتداء إلى الحق بدليله.

وأمّا **الباب الأول**: فقد تحدثت فيه عن جانبين مُهِمَّين، أحدهما: تعريف الاستهزاء، وأوضحت معانيه في لغة العرب مستنداً إلى كلامهم وأشعارهم في إيضاح تلك المعاني وربط ذلك كله بالمعنى الاصطلاحي، مستدلاً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية المعنية بموضوع الاستهزاء، غير أن ذلك كله لا يصل بالباحث إلى تعريف جامع مانع واضح لقضية السب والشتم والسخرية والاستهزاء إذ ضبط ذلك لم يرد به الشرع، فوجب الرجوع فيه إلى العرف كما قرر ذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ.

والجانب الثاني: أسباب الاستهزاء: وبينت أن أسباب هذا الجرم الكبير قد تكون أسباباً داخلية «نفسية» ترجع إلى الحقد، والحسد، والكبر، والنفاق، والجهل، وحب المال، وضعف الإيمان وغيرها مِمَا قد يعرض للمسلم والمنافق والكافر. ومن الأسباب ما يكون خارجياً كداء التقليد للأمم السابقة، ودخول جحر الضب وراءهم، أو ما أصاب الأمة المسلمة من الانحراف العقدي في حياتها، وضعف سلطان العلماء والمحتسبين، وتعطيل حَدِّ الردة على الزنادقة المستهزئين والمرتدين.

أمّا **الباب الثاني**: فقد أبرزت فيه صور الاستهزاء قديماً وحديثاً فيما يتعلق بالله ﷻ، وبرسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ودين الإسلام، ما يوضح هذه الظاهرة وانتشارها وكثرة الابتلاء بها، وأن صور الاستهزاء قد تتكرر في أمم وأزمان وإن اختلفت الوسائل والطرائق: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٣].

وذكرت في هذا الباب صوراً من الاستهزاء والتنقص بالصحابة رضي الله عنهم وسائر المؤمنين باعتبارهم حملة هذا الدين لا باعتبار ذواتهم وبشريتهم.

أمّا **الباب الثالث**: فكان حول حكم الاستهزاء، إذ من الإنصاف الحكم

بالعدل، واجتناب مسلك الغلو، ومسلك التفريط والتمييع؛ والصواب يلوح بين هذين المسلكين، وبينت حكم الاستهزاء من حيث الجرم نفسه مدعماً ذلك بالأدلة الشرعية قرآناً وسنة، ونقل إجماع أهل العلم في ذلك، ذاكراً نصوص العلماء والفقهاء من أئمة المذاهب الأربعة وأتباعهم وناقشت شبهات المرجئة ومن حذا حذوهم مُفنِّداً لآرائهم، وآراء بعض من شَذَّ من علماء أهل السنة في هذا الباب، كل هذا في **الفصل الأول**.

أمّا **الفصل الثاني**: فكان عن أقسام المستهزئين، وحكم القعود معهم والموقف منهم، فهناك المستهزئ الكافر «الأصلي» سواءً كان حربياً أو معاهداً أو ذمياً، وهناك المستهزئ الزنديق «المنافق»، وهناك المستهزئ المسلم، فلكلٍّ من هؤلاء أحكام تخصه لا يجوز خلط بعضها في بعض؛ ولا يجوز التهاون في تطبيقها ما دام في الأمة قدرة على ذلك، مع مراعاة ضوابط التكفير وشرائطه بالنسبة للمسلم ومن في حكمه كالمنافق مراعاةً لدماء المسلمين، وحفظاً لحقوقهم التي ثبتت بيقين فلا تزول إلّا بيقين.

وأوضحت ـ أيضاً ـ الموقف من المستهزئين وحكم مجالستهم، لأجل البراءة من أعداء الإسلام، وتميز أهل الإيمان في مواقفهم من أعدائهم الساخرين بربهم ودينهم ورسولهم ﷺ.

أمّا **الباب الرابع**: فحول آثار الاستهزاء والمستهزئين النكدة المدمرة التي أزالت الدول والأمم، وجلبت سخط الله على من فعلها أو رضي بها في الدنيا والآخرة، وأوقفت البعض في الردة والخروج من دائرة الإسلام.

وأوقعت في النفوس من الآثار ما كان سبباً في تشويه حقائق الدين حول العقيدة والشريعة والعبادة والجهاد والأخلاق، وهدمت قداسة الدين وهيبته وعظمته في النفوس.

وختمت هذا الباب بأثر الاستهزاء والمستهزئين على الدعوة الإسلامية من لبس الحق بالباطل، وتنفير البشرية وصدهم عن دعوة الحق بسبب قوة

الشبهات التي تثار حوله، وضعف حملته، وقله المدافعين عنه، ما أعاق مسيرة الدعوة الإسلامية أو أخرها.

وفي **الخاتمة**: استخلصت أهم النتائج والتوصيات التي أرى الأولوية في الاهتمام بها ومحاولة علاجها من قبل الزملاء الباحثين في مجال العقيدة خصوصاً، والتخصص الشرعي عموماً، والله أسأل القبول والإخلاص.

وقد بذلت جهدي، واستفرغت وسعي مستعيناً بالله تعالى، مسترشداً بآراء أهل العلم ونصحهم وتوجيههم، بغية الوصول إلى الحق فيما كتبت من مسائل وموضوعات ومفردات هذا البحث، ولا يفوتني أن أهيب بعلمائنا الأفاضل وطلبة العلم؛ من وقف منهم على كتابي هذا فرأى خطأً علمياً، أو قصوراً في جانب من جوانبه إلا أرسله إلي لأستدركه في طبعات لاحقة، فالعلم رحم بين أهله، فالله الله في صلته بأسلوب النقد البناء، والرفق في التعلم والنصح، وفقني الله وإخواني المسلمين لقبول الحق والرجوع إليه. . . آمين؟.

○ البحوث والدراسات السابقة:

* يمكن تقسيم المؤلفات ـ ضمناً أو استقلالاً ـ في هذا الموضوع إلى قسمين:

أولاً: كلام المتقدمين:

فمن ذلك: القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أواخر كتابه: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ».

ومنها: كتاب شيخ الإسلام أحمد بن عبد السلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ المعروف بـ «الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ»، وهو سفر ضخم من اطلع عليه عرف قيمة هذا الإمام، وقد اعتمدت عليه في معظم ما كتبت من أبواب وفصول هذا الكتاب.

ومنها: كتاب «السيف المسلول على من سبَّ الرسول ﷺ»، لتقي الدين أبو الحسن علي السبكي رحمه الله.

ومنها: كتاب «تنبيه الولاة والحكام على أحكام شاتم خير الأنام أو أحد أصحابه الكرام»، للشريف السيد محمد بن عابدين رحمه الله[1].

ثانياً: كلام المعاصرين: وقد وقفت على رسائل صغيرة الحجم كبيرة الفائدة، كل رسالة تبحث جانباً من جوانب الموضوع.

منها: رسالة «الاستهزاء بالدين وأهله» لفضيلة شيخنا الدكتور: محمد بن سعيد القحطاني، تعرض فيها لخطورة الاستهزاء، وبعض أسبابه، وأنه عقبة من عقبات الدعوة إلى الله تعالى، وذكر بعض الصور فيما يتعلق بالاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ ورسوله ﷺ ودين الإسلام، ثم أتى على عقوبة وجزاء الاستهزاء، وموقف المسلم من المستهزئين، وهذا كله باختصار في ست وتسعين صفحة من القطع الصغير.

ومنها: رسالة «القول المبين في حكم الاستهزاء بالمؤمنين»، تأليف فضيلة الشيخ: عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم، تعرض فيها لحكم الاستهزاء بأهل الإيمان، ونقل فيها الأدلة القرآنية وكلام أهل العلم في المسألة على التفصيل الذي سيأتي في موضعه ـ إن شاء الله تعالى ـ، وذلك في ثنتين وسبعين صفحة من القطع الصغير.

ومنها: ما كتبه فضيلة شيخنا الدكتور: عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف في «رسالة دكتوراه»: بعنوان «نواقض الإيمان القولية والعملية»، حيث بحث موضوع الاستهزاء فيما يتعلق بالله تعالى ـ وبرسوله ﷺ والقرآن الكريم في أجزاء من كتابه، ذكر شيئاً من الأدلة الشرعية ـ قرآناً وسنة ـ ناقلاً كلام أهل العلم في تلك المسائل، وذلك ضمن نواقض الإيمان القولية والعملية الأخرى، وليس استقلالاً.

---

(١) انظر: «مجموعة رسائل ابن عابدين (١/٢٩١ ـ ٣٤٨).

ومنها: رسالة فضيلة الشيخ: عبد الله الجار الله، بعنوان «تحذير المسلمين عن السخرية والاستهزاء بالدين»، وذلك في ثنتين وعشرين صفحة من القطع الصغير، ذكر فيها الآيات والأحاديث في التحذير من هذا الناقض.

ومنها: رسالة الشيخ العلّامة الدكتور: صالح الفوزان ـ حفظه الله ـ بعنوان «الاستهزاء بالدين» في ثمانية وعشرين صفحة من القطع الصغير، تعرض فيها لشمولية دين الإسلام وحكم من استهزأ بالله تعالى ورسوله ﷺ، والمؤمنين، وشيئاً من عقوبة ذلك في الآخرة.

وهناك مقالات طرحت في الموضوع عبر المجلّات الإسلامية أفدت منها بواسطة مركز الملك فيصل للأبحاث، إلّا أنني لم أر ـ حسب علمي ـ في الموضوع غير ما سلف كتاباً أو رسالة علمية تجمع شتاته وتعالج جوانبه.

وفي الختام أحمد الله ـ تبارك وتعالى ـ وأشكره أولاً وآخراً، ظاهراً وباطناً، على ما منّ به ويسّر على إتمام هذا البحث بالصورة التي هو عليها الآن، بعد طول بحث وعناء، وتناثر لمعلوماته، ودقة لمسائله، وسعته وشموله، فله الحمد وحده وله الثناء والمجد والعزة والعظمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وعملاً بقوله ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»(١)، أتقدم بشكري وتقديري لجامعة أم القرى ممثلة في معالي مديرها ووكيليه وفّقهم الله تعالى لكل خير، كما أقدم شكري وامتناني لكلية الدعوة وأصول الدين ممثلة في عميدها السابق وعميدها الحالي وأعضاء المجلس الموقر، وأخص بالشكر

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، برقم (٤٨١١) (٥/١٥٧ ـ ١٥٨)، والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، برقم (١٩٥٤) (٤/٢٩٨ ـ ٢٩٩)، وقال: حديث حسن صحيح. وقال المناوي: «صحيح». «فيض القدير» (٦/٢٩١)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» برقم (٤٠٢٦) (٣/٩١٣).

كذلك فضيلة رئيس قسم العقيدة السابق واللاحق وأعضاء المجلس المحترمين على ما يبذلون من جهود في خدمة العلم وطلابه، كما أشكر القائمين على كلية المعلمين بمحافظة الطائف، وأخص بالذكر سعادة عميدها وأعضاء المجلس، وأشكر رئيس قسم الدراسات القرآنية والإسلامية وأعضاء المجلس المحترمين.

كما أتقدم بالشكر والتقدير لفضيلة الشيخ الدكتور: **عبد الله بن عمر الدميجي** ـ المشرف على الرسالة ـ فله في نفسي أكبر أثر، فقد تعلمت منه الأدب قبل العلم، وأفدت منه كثيراً منهجياً وعلمياً، فقد عشت معه هذه المدة فكان نعم المعين بعد الله تعالى في تصويب الخطأ، وتعديل المعوج، فقد كان لعنايته ومتابعته ودقة عباراته أثرٌ بارزٌ على الرسالة، فأسأل المولى القدير السميع المجيب أن يبارك له في علمه وعمله، وأن ينسأ له في أثره، ويبارك له في ولده، كما أشكر فضيلة الشيخ القاضي: محمد الطيب يوسف، فقد أفدت من مكتبته العامرة بالطائف كثيراً، فأسأل الله تعالى أن يجزيه عني خير الجزاء، كما أشكر الوالدين الكريمين على ما بذلاه من رعاية في الصغر ودعواتٍ صادقة كانت سبباً ـ بعد توفيق الله تعالى ـ في إنجاز هذا البحث، كما أشكر إخوتي الأفاضل، وكل من بذل نصحاً أو مشورة، أو كتاباً أو فائدة علمية، أو مساعدة في المقابلة والتصحيح، فلهم مني جزيل الشكر والدعاء.

وأسأل الله ﷻ أن يتقبل عملي هذا ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يغفر لي جدِّي وهزلي وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، وأن يرزقني الإخلاص في الأقوال والأعمال، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأتباعه إلى يوم الدين.

وكتبه

أحمد بن محمد بن حاسن القرشي

الطائف

تمهيد

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعظيم.

المبحث الثاني: المحبة.

المبحث الثالث: تنبيهات مُهِمَّة.



المبحث الأول

التعظيم

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعظيم الله ـ تبارك وتعالى ـ.

المطلب الثاني: تعظيم الرسول ﷺ.

المطلب الثالث: تعظيم دين الإسلام.

* * * * *

❑ المطلب الأول ❑

تعظيم الله ـ تبارك وتعالى ـ

إن من الواجب تعظيم الله ﷻ، فهو الخالق صاحب الأمر والنهي: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهو الموصوف بصفات الكمال، المتسمِّي بأحسن الأسماء، **قال تعالى**: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ

وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ١ ـ ٣]. **وقال تعالى:** ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

إن عظمة الله ـ جلّ وعلا ـ وكبرياءه وقدرته وقوته لا يمكن أن يصفها الواصفون، ولا أن يتخيلها المتخيلون، وحسبنا في ذلك ما ورد في النصوص الشرعية عن الله ـ تبارك وتعالى ـ وعن رسوله ﷺ فيما صح عنه.

ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر ﵄ **قال: «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1] [الزمر: ٦٧].

وفي إحدى روايات مسلم زاد: **«فيقول: أنا الله ـ ويقبض أصابعه ويبسطها ـ أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول أساقط هو برسول الله ﷺ»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ برقم (٤٨١١)، «فتح» (٨/ ٤١٢ ـ ٤١٣)، وفي كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ برقم «فتح» (١٣/ ٧٤١٤، ٧٤١٥)، وباب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ برقم (٧٤٥١)، «فتح» (١٣/ ٤٤٧)، وباب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، برقم (٧٥١٣)، «فتح» (١٣/ ٤٨٢)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٧٨٦)، «نووي» ١٧/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم برقم (٢٧٨٨)، «نووي» (١٧/ ١٣٨).

قال إمام الأئمة ابن خزيمة(١) رَحِمَهُ اللَّهُ **في هذا الحديث:** «معناه: أن الله ـ جل وعلا ـ يمسك ما ذكر في الخبر على أصابعه، على ما في الخبر سواء قبْل تبديل الله الأرض غير الأرض، لأن الإمساك على الأصابع غير القبض على الشيء»(٢).

قال الشيخ عبد الله الغنيمان: «هذا الحديث يدل على عظمة الله تعالى حيث يضع السموات كلها على أُصبع من أصابع يده الكريمة العظيمة، وعدد المخلوقات المعروفة للخلق بالكبر والعظمة، وأخبر أن كل نوع منها يضعه تعالى على إصبع، وهذا من العلم الموروث عن الأنبياء، المتلقى عن الوحي من الله تعالى، ولهذا صدقه رسول الله ﷺ بل وأعجبه ذلك وسُرّ به، ولهذا ضحك حتى بدت نواجذه، تصديقاً له، كما قال عبد الله بن مسعود، ولا التفات إلى قول من تبنى التعطيل، وصار نصيبه من معرفة هذه الأوصاف الكريمة العظيمة، التي تَعَرَّف الله بها على عباده، هو ما يعرفونه من أنفسهم، فحملهم ذلك على تعطيل الله تعالى من هذا الأوصاف مرة برد هذه النصوص، والطعن في رواتها بلا حجة سوى روايتهم لها، ومرة بتأويلها التأويل الباطل الذي يخرجها من مراد المتكلّم بها، ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، **إلى أن قال:** «وقد آمن المسلمون بهذه النصوص، على ظاهرها، وقبلوها، ولم يتعرضوا لها بتأويل تبعاً لرسول الله ﷺ وصحابته وأئمة الهدى، بل وكل من قَبِل ما جاءت به الرسل، وآمن به»(٣).

---

(١) أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري، الحافظ الحجة الفقيه الشافعي (ت٣٢١هـ). انظر: «السير» (١٤/ ٣٦٥ ـ ٣٨٢) للذهبي، و«طبقات الشافعية» (٣/١٠٩ ـ ١١٠) للسبكي.

(٢) كتاب «التوحيد» (١/ ١٨٥).

(٣) شرح كتاب «التوحيد» (١/ ٣١٠ ـ ٣١١)، وهناك تأويلات باطلة في معنى الحديث ذكرها الحافظ في «الفتح» ونصرها (١٣/ ٤٠٩ ـ ٤١٠)، وتعرض لها الشيخ الغنيمان بالنقد والإبطال، مع بيان واضح لمذهب السلف في مثل هذه الأحاديث، نفس =

هذا جانب من تعظيم الله ـ تبارك وتعالى ـ نفسه، وتعظيم رسوله ﷺ له وإقراره وفرحه عليه الصلاة والسلام بالحق الذي وجده عند اليهود من بقايا دينهم الذي أنزل على موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

أما ما يجب على أهل الإيمان والإسلام من تعظيم الله ـ تبارك وتعالى ـ فهو أمر لا يختلف فيه أهل القبلة، ولكن يختلفون في طريقة ذلك التعظيم فأهل الكلام يزعمون أن تعظيم الله يكون بالتأويل الذي يسلطونه على النصوص الشرعية التي وردت في باب الأسماء والصفات، والمعطلة يرون تعظيم الله ﷻ بنفي الأسماء الحسنى والصفات العليا، نفياً كلياً أو جزئياً.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ بعد أن ذكر طريقة الرسل، ومذهب السلف في باب الأسماء والصفات: «وأما من زاغ وحاد عن سبيلهم من الكفار والمشركين والذين أوتوا الكتاب ومن دخل في هؤلاء من الصابئة والمتفلسفة والجهمية والقرامطة ونحوهم، فإنهم على ضد ذلك، فإنهم يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل، ولا يثبتون إلا وجوداً مطلقاً لا حقيقة له عند التحصيل، وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان يمتنع تحقيقه في الأعيان، فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل، فإنهم يمثلونه بالممتنعات والمعدومات والجمادات، ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلاً يستلزم نفي الذات»(١).

أما أهل الحق والإيمان من أهل السنة والجماعة، فهم أسعد الناس بالدليل واتباع سبيل الرسول ﷺ، الذين دانوا لله ﷻ بالتوحيد في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، لم يفرقوا بين نوع ونوع ولم يهتموا بجانب من التوحيد على حساب الجانب الآخر، بل اعتقدوا الحق الذي جاء عن الله وعن رسول الله، على مراد الله ومراد رسوله، وسلَّموا لنصوص القرآن والسنة:

= المصدر (١/٣١٨ ـ ٣٣٤).

(١) «التدمرية» (ص١٢ ـ ١٦).

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، **وقوله تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في بيان طريقة أهل الحق:

شهدوا بأن الله جل جلاله ... متفرد بالملك والسلطان
وهو الإلٰه الحق لا معبود إلا ... وجهه الأعلى العظيم الشان
بل كل معبود سواه فباطل ... من عرشه حتى الحضيض الداني
وعبادة الرحمٰن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فَلَكُ العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان
فقيام دين الله بالإخلاص والإ ... حسان إنهما له أصلان
لم ينج من غضب الإلٰه وناره ... إلا الذي قامت به الأصلان[1]

ويقول الشيخ سليمان بن سحمان (ت١٣٤٩هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ **في منظومةٍ له:**

وأفرده بالتعظيم والخوف والرجا ... وبالحب والرغبى إليه ووحد[2]

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما كان الله ﷻ أحق بهذا من كل أحد، كان المستحق لأن يعظم ويكبر ويهاب ويحب ويود بكل جزء من أجزاء القلب، ولا يجعل له شريك في ذلك.. فإن حقيقة العبادة: هي الحب والذل، وهذا هو الإجلال والإكرام الذي وصف به نفسه في قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمٰن: ٧٨]، وأصح القولين في ذلك: أن الجلال هو التعظيم، والإكرام: هو الحب، وهو سر قول العبد: لا إله إلا الله، والله

(١) «النونية» (ص٢٦).
(٢) «الدرر السنية» (١/ ٢٩٣) جمع الشيخ: عبد الرحمٰن بن قاسم.

أكبر...»[١].

وعندما يتأمل العبد بعض فرائض الدين الإسلامي وشرائعه وآدابه يجد أنها شُرعت لتعظيم الله ـ جلا وعلا ـ، ففي الأذكار مثلاً ما يلفت أنظار المؤمنين إلى هذا الأصل العظيم، روى مسلم بسنده عن النبي ﷺ: «أنه خرج من عند جويرية حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: **«ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟»**، قالت: نعم، قال النبي ﷺ: **«لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»**[٢].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله **في شرح هذا الحديث**: «فإن ما يقوم بقلب الذاكر حين يقول: «سبحان الله وبحمده عدد خلقه» من معرفته وتنزيهه وتعظيمه من هذا القدر المذكور من العدد أعظم مما يقوم بقلب القائل: «سبحان الله» فقط.

وهذا يسمى الذكر المضاعف، وهو أعظم ثناء من الذكر المفرد، فلهذا كان أفضل منه، وهذا إنما يظهر في معرفة هذا الذكر وفهمه، فإن قول المسبح: «سبحان الله وبحمده عدد خلقه»، يتضمن إنشاء وإخباراً عما يستحقه الرب من التسبيح عدد كل مخلوق كان أو هو كائن، إلى ما لا نهاية له.

فتضمنت الإخبار عن تنزيه الرب وتعظيمه والثناء عليه هذا العدد العظيم، الذي لا يبلغه العادّون، ولا يُحصيه المحصون، وتضمن إنشاء العبد لتسبيح هذا شأنه، لا أنما أتى به العبد من التسبيح هو قدره وعدده، بل أخبر أن ما يستحقه الرب ﷻ من التسبيح: هو تسبيح يبلغ هذا العدد الذي

---

(١) «جلاء الأفهام» (ص١٣٦ ـ ١٣٧).

(٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، برقم (٢٧٢٦)، «نووي» (١٧/ ٤٧ ـ ٤٨).

لو كان في العدد ما يزيد لذكره، فإن تجدد المخلوقات لا ينتهي عدداً، ولا يحصى الحاضر.

وكذلك قوله: «ورضا نفسه»، فهو يتضمن أمرين عظيمين: أحدهما: أن يكون المراد تسبيحاً هو والعظمة والجلال سيان[١] ... ولا ريب أن رضا نفس الرب لا نهاية له في العظمة والوصف. والتسبيح ثناء عليه سبحانه يتضمن التعظيم والتنزيه.

فإذا كانت أوصاف كماله ونعوت جلاله لا نهاية لها ولا غاية، بل هي أعظم من ذلك وأجل، كان الثناء عليه بها كذلك، إذ هو تابع لها إخباراً وإنشاءً، وهذا المعنى ينتظم المعنى الأول من غير عكس.

وإذا كان إحسانه سبحانه وثوابه وبركته وخيره لا منتهى له، وهو من موجبات رضاه وثمرته فكيف بصفة الرضا..

وقوله: «وزنة عرشه»، فيه إثبات للعرش، وإضافته إلى الرب ﷻ وأنه أثقل المخلوقات على الإطلاق، إذ لو كان شيء أثقل منه لوزن به التسبيح، وهذا يَرُدّ على من يقول: إن العرش ليس بثقيل ولا خفيف. وهذا لم يعرف العرش ولا قدَّره حق قدره.

فالتضعيف الأول: للعدد والكمية، **والثاني**: للصفة والكيفية، **والثالث**: للتعظيم، والثقل، وليس للمقدار.

وقوله: «ومداد كلماته»، هذا يعم الأقسام الثلاثة ويشملها، فإن مداد كلماته ﷻ لا نهاية لقدره، ولا لصفته، ولا لِعَدَدِهِ. **قال تعالى**: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا[٢] لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾

---

(١) هذا الأمر الأول الذي ذكره ابن القيم، والأمر الثاني ليس موجوداً في بقية الكلام فلعل فيه سقطاً من المطبوع.

(٢) المداد: الذي يكتب به، إنما سمي به؛ لأنه يستمده من الدواة أو نحوها: أي =

[الكهف: ١٠٩]، **وقال تعالى**: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعنى هذا: أنه لو فرض البحر مداداً، وبعده سبعة أبحر تمده كلها مداداً وجميع أشجار الأرض أقلاماً ـ وهو ما قام منها على ساق من النبات والأشجار المثمرة وغير المثمرة، وتستمد بذلك المداد ـ لفنيت البحار والأقلام، وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد، فسبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته... هذا بعض ما في هذه الكلمات من المعرفة بالله، والثناء عليه بالتنزيه والتعظيم، مع اقترانه بالحمد...»[١].

وعند التأمل والتدبر لشرائع الدين، ولا سيما الأركان الخمسة، يجد العبد هذا الأمر ظاهراً، فالشهادتان أساس هذا التعظيم، فإفراد الله سبحانه بالعبادة وعدم الإشراك به في ربوبيته وألوهيته، أمر أجمعت عليه الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأنزلت من أجله الكتب، **قال تعالى**: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ...﴾ [النحل: ٣٦].

والصلاة التي فرضها الله ﷻ على عباده خمس مرات في اليوم والليلة قائمة على أساس تعظيم الحق ـ جل وعلا ـ **قال تعالى**: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤]، **وقال تعالى**: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧].

والحج ـ أيضاً ـ فرض على الناس لأجل تعظيم الله ﷻ **قال تعالى**: ﴿وَأَذِّن

= يستزيده. انظر: «المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث» (٣/ ١٩٢) للأصفهاني، والمقصود بالدواة: المحبرة التي يوضع فيها الحبر لأجل الكتابة.

(١) «المنار المنيف» (ص٣٥ ـ ٣٨).

فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨]. فكل شيء من آيات الله الكونية والشرعية تدعو إلى تعظيم الله ـ تبارك وتعالى ـ.

❑ المطلب الثاني ❑

تعظيم الرسول ﷺ

جاء في كتاب الله ﷻ آيات كثيرة مُفْصِحة عن جميل ذكر المصطفى ﷺ وبيان محاسنه وتعظيم أمره، والإشادة بقدره، ليعرف العباد منزلة هذا النبي عند ربه ـ جلَّ وعلا ـ.

منها: ما جاء في سياق المدح والثناء؛ **كقوله تعالى**: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وجاء في قراءة ﴿مِّنْ أَنفَسِكُمْ﴾ بفتح الفاء من النفاسة[١] وعلى كِلَا القراءتين فإن ذلك يقتضي مدحاً لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم العرب وخالصها.

وفي «صحيح مسلم» عن واثلة بن الأسقع[٢] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم...**»[٣].

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٠) لابن عطية، و«الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ١٩١) للقرطبي.

(٢) واثلة بن كعب بن عامر، وقيل: ابن عبد العزى بن عبد ياليل بن ناشب الليثي، من أصحاب الصُّفَّة، توفي سنة (٨٣هـ)، وقيل: (٨٥هـ). انظر: «الاستيعاب» (٤/ ١٢٤) لابن عبد البر، و«السير» (٣/ ٣٨٣ ـ ٣٨٧) للذهبي، و«الإصابة» (٦/ ٤٦٢) لابن حجر.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ١٩١) للقرطبي، والحديث أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، برقم (٢٢٧٦)، «نووي» (١٥/ ٤١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَعْلَمَ الله تعالى المؤمنين أو العرب، أو أهل مكة، أو أجمع الناس، على اختلاف المفسرين؛ من المواجه بهذا الخطاب، أنه بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يعرفونه، ويتحققون مكانه، ويعلمون صدقه وأمانته فلا يتهمونه بالكذب وترك النصيحة لهم، لكونه منهم، وأنه لم تكن في العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله ﷺ ولادة أو قرابة... وكونه من أشرفهم، وأرفعهم وأفضلهم على قراءة الفتح، وهذا نهاية المدح، ثم وصفه بعد بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يعنتهم ويضر بهم في دنياهم وأخراهم وعزته ورأفته ورحمته بمؤمنهم، قال بعضهم: أعطاه اسمين من أسمائه: رؤوف رحيم»(١).

ومنها: أن الله ـ جلَّ وعلا ـ أقسم بعظيم قدره، **فقال:** ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتفق أهل التفسير في هذا أنه قَسَمٌ من الله ـ جل جلاله ـ بمدة حياة محمد ﷺ، ثمَّ نقل عن ابن عباس قوله: «وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره»(٢).

ومنها: ما أخبر الله ﷻ به في كتابه العزيز من عظيم قدره وشريف منزلته على الأنبياء، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

---

(١) «الشفا» (١/ ١٥ ـ ١٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٤١)، وأثر ابن عباس أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير (٧/ ٥٢٦)، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي، كما في «الدر المنثور» (٤/ ١٩٢) للسيوطي.

قال ابن كثير رحمه الله: **قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس** رضي الله عنهم: «ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بَعَثَ الله محمداً وهو حي ليُؤْمِنَنَّ بِهِ وَيَنْصُرَنَّهْ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أُمته لئن بُعِثَ محمد وهم أحياء ليُؤْمِنُنَّ به ولَيَنْصُرُنَّه»(١).

وخلاصة القول: في بيان عظمة هذا النبي الكريم ﷺ أن خصال الجلال والكمال البشري فيه نوعان:

أحدهما: ضروري دنيوي، **والثاني:** مكتسب ديني.

قال القاضي عياض رحمه الله: «أما الضروري: فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، مثل ما كان في جِبِلَّته من كمال خلقته، وجمال صورته، وقوة عقله، وصحة فهمه، وفصاحة لسانه وقوة حواسه وأعضائه، واعتدال حركاته، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه (أي: موطنه: مكة المشرفة)، ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه، من غذائه ونومه، وملبسه ومسكنه، ومنكحه، وماله وجاهه...

وأما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلية والآداب الشرعية من الدين، والعلم، والحلم، والصبر، والشكر والعدل، والزهد والتواضع، والعفو والعفة، والجود والشجاعة، والحياء والمروءة، والصمت والتؤدة والوقار والرحمة، وحسن الأدب والمعاشرة، وأخواتها وهي التي جِمَاعُهَا حسن الخلق.

وقد تكون من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجبلّة لبعض الناس وبعضهم لا تكون فيه فيكتسبها» إلى أن قال: «إذا كانت خصال الكمال والجمال ما ذكرناه، ووجدنا الواحد منا يشرف بواحدة منها أو اثنتين

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٥٦٥). وانظر: «جامع البيان» (٣/ ٣٣٠) لابن جرير، و«الشفا» (١/ ٦٠) للقاضي عياض، و«الدر المنثور» (٢/ ٨٤) للسيوطي.

إن اتفقت له.. إما من نسب أو جمال، أو قوة، أو علم،... فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال»[(١)].

هذا خلافاً لما وهبه الله من النبوة والرسالة، والخُلَّة والمحبة، والإسراء والرؤية، والقرب والدنو، والشفاعة والوسيلة، والدرجة الرفيعة العالية، والمقام المحمود... إلخ، فمن كانت هذه صفاته، ومكانته وعظمته عند ربه جل وعلا حقيق أن يحترمه المسلمون ويعزِّروه ويوقِّروه، **قال تعالى**: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٨ ـ ٩].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الله فرض علينا تعزيره وتوقيره؛ وتعزيره: نصره ومنعه، وتوقيره: إجلاله وتعظيمه، وذلك يوجب صون عرضه بكل طريق، بل ذلك أول درجات التعزير والتوقير، ومن أعظم النصر حماية عرضه ممن يؤذيه»[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **في نونيته:**

لكنما التعزير والتوقير   حق للرسول بمقتضى القرآن
والحب والإيمان والتصديق لا   يختص بل حقان مشتركان
هذي تفاصيل الحقوق ثلاثة   لا تجهلوها يا أولي العدوان[(٣)]

وقال ـ أيضاً ـ: «فهو المُجَل المعظَّم المحبوب المكرم، وهذا كمال المحبة أن تقرن بالتعظيم والهيبة، فالمحبة بلا هيبة ولا تعظيم ناقصة، والهيبة والتعظيم من غير محبة ـ كما تكون للغادر الظالم ـ نقص أيضاً، والكمال: أن تجمع المحبة والود والتعظيم والإجلال، وهذا لا يوجد إلا إذا كان في

---

(١) «الشفا» (١/ ٧٧ ـ ٧٩).
(٢) «الصارم المسلول» (ص٢١٧ ـ ٢١٨)، والتعظيم يشمل القلب، واللسان والجوارح، فكل من هذه الأعضاء له وظائف يعظم من خلالها الرسول ﷺ.
(٣) «القصيدة النونية» (ص١٧٣).

المحبوب صفات الكمال التي يستحق أن يعظم لأجلها، ويحب لأجلها(١).

فالإخلال بهذا الأصل العظيم، بالاستهزاء والسخرية لا شك أنه نقض للدين من أساسه، **قال ابن تيمية** رَحِمَهُ اللهُ: «أما انتهاك عرض الرسول ﷺ فإنه مناف لدين الله بالكلية، فإن العِرْض متى انتهك سقط الاحترام والتعظيم، فسقط ما جاء به من الرسالة فبطل الدين، فقيام المدحة والثناء عليه والتعظيم والتوقير له قيام الدين كله، وسقوط ذلك سقوط الدين كله، وإذا كان ذلك وجب علينا أن ننتصر له ممن انتهك عرضه، والانتصار له بالقتل، لأن انتهاك عرضه انتهاك لدين الله»(٢)

❑ المطلب الثالث ❑

تعظيم دين الإسلام

لقد اختار الله ﷻ الإسلام وجعله دين جميع الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] **وقال** ﷻ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

ووصف سبحانه دين الإسلام بأنه مستقيمٌ لا عوج فيه فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم، فإنه لما نهى

---

(١) «جلاء الأفهام» (ص١٣٦). وانظر: «الصارم المسلول» (ص٤٨٥) لابن تيمية.
(٢) «الصارم المسلول» (ص٢١٩). وانظر: المصدر نفسه (ص٣٧٦).

وأمر، حذر هنا من اتباع غير سبيله، فأمر فيها باتباع طريقه على ما نبينه بالأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف...»[(١)]، إلى آخر ما ذكره في بيان سبيل الله تعالى والسبل المخالفة له مما ليس هذا موضع تفصيله.

وقال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذا الصراط الواضح البيِّن المستقيم: «هذا الذي وصيتكم به من الأمر والنهي طريقي وديني الذي ارتضيته لعبادي قويماً لا اعوجاج فيه، فاعملوا به»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، **وقال** ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠]، وقال في السورة نفسها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم: ٤٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذلك الدين القيم، أي التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم»[(٣)].

قال الشيخ عبد الرحمٰن المعلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجماع هذا في أمر واحد وهو معرفة الصراط المستقيم، وقد بيَّنَهُ الله تعالى **بقوله**: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٧]. وقد علمنا أن المنعَم عليهم قطعاً من هذه الأمة هم النبي ﷺ وأصحابه، **وقد قال الله** ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، **وقال تعالى**: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]، فالصراط

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٨٩ ـ ٩٠).
(٢) «محاسن التأويل» (٣/ ٤٦٧).
(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٦٨٩ ـ ٦٩٠).

المستقيم هو ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه...»(١).

وقد ذكر ـ جل وعلا ـ أن من رغب عن دين الإسلام ـ الذي هو ملة الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام فهو من السفهاء، **قال تعالى**: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠]، وذكر سبحانه أن هذا الدين وصى به إبراهيم بنيه، **قال تعالى**: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢]. وكذلك يعقوب وصى بنيه بذلك، **قال تعالى**: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

إذاً فهذا الذي شرعه الله ـ تبارك وتعالى ـ ورضيه لعباده، وأكرمهم به حقيق أن يُعَظَّم ويُجَلّ، **قال ابن عقيل الحنبلي** رَحِمَهُ اللهُ: «لقد عظم الله الحيوان لا سيما ابن آدم حيث أباحه الشرك عند الإكراه فمن قدم حرمة نفسك على حرمته حتى أباحك أن تتوقى عن نفسك بذكره بما لا ينبغي له سبحانه لحقيق أن تعظم شعائره، وتوقر أوامره وزواجره»(٢).

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فالفرح بالله، وبرسوله، وبالإيمان، وبالسنة، وبالعلم، وبالقرآن: من أعلى مقامات العارفين.. فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره،

---

(١) «القائد إلى تصحيح العقائد» (ص٢٤٣).
(٢) نقلاً عن: «الدرر السنية» (٨/٣٦) جمع العلامة عبد الرحمٰن بن قاسم.

فإن فرح العبد بالشيء لا يفرحه حصول له، ولا يحزنه فواته..»[١].

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتعظيم أئمة السنة وعوامها للسنة والحديث وأهله في الأصول والفروع من الأقوال والأعمال: أكثر من أن يذكر هُنَا، وتجد الإسلام والإيمان كلما ظهر كانت السنة وأهلها أظهر وأقوى، وإن ظهر شيء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بحسب ذلك[٢]، مثل دولة المهدي والرشيد ونحوهما ممن كان يعظم الإسلام والإيمان ويغزو أعداءه من الكفار والمنافقين، كان أهل السنة في تلك الأيام أقوى وأكثر، وأهل البدع أذل وأقل، فإن المهدي قتل من الزنادقة من لا يحصى عدده إلا الله، والرشيد كان كثير الغزو والحج.

وكان خلفاء بني العباس أحسن تعاهداً للصلوات في أوقاتها من بني أمية، فإن أولئك كانوا كثيري الإضاعة لمواقيت الصلاة،... لكن كانت البدع في القرون الثلاثة الفاضلة مقموعة، وكانت الشريعة أعز وأظهر، وكان القيام بجهاد أعداء الدين من الكافرين والمنافقين أعظم...»[٣].

وتعظيم الدين وشعائره دليل واضح وبرهان قاطع على تقوى صاحبه، **قال تعالى**: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]. **وقوله تعالى**: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال جماعة من المفسرين: ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/١٥٨).

(٢) وهذه البدع والمفتريات لها من يعظمها في العالم اليوم، فالواجب على المؤمن الموحد إهانتها، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن كل ما عظم بالباطل من مكان أو زمان، أو حجر أو شجر أو بنية يجب قصد إهانته، كما تهان الأوثان المعبودة، وإن كانت لولا عبادتها لكانت كسائر الأحجار». «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٤٧٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٤/٢٠ ـ ٢١).

هاهنا مغاضبه، وما نهى عنه، و«تعظيمها» ترك ملابستها، قال الليث: ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: ما لا يحل انتهاكها، وقال قوم: الحرمات: هي الأمر والنهي، وقال الزجاج: الحرمة: ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه، وقال قوم: الحرمات هاهنا المناسك، ومشاعر الحج زماناً ومكاناً».

والصواب: أن «الحرمات» تعم هذا كله، وهي جمع حرمة، وهي ما يجب احترامه، وحفظه: من الحقوق والأشخاص، والأزمنه، والأماكن، فتعظيمها: توفيتها حقها وحفظها من الإضاعة»[١].

ولا شك أن درجات الناس تتفاوت في تعظيم شعائر الله ودينه، وتتفاوت أعمالهم بسبب قوة هذا التعظيم في قلوبهم وضعفه.

يقول ابن القيم رحمه الله: «والأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والمحبة، والتعظيم والإجلال، وقصد وجه المعبود وحده دون شيء من الحظوظ سواه، حتى لتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في الفضل ما لا يحصيه إلا الله تعالى...»[٢].

ولكن سبق في علم الله ﷻ وقدره أن أقواماً ينقضون هذا الأصل العظيم، ويأتون على بنيانه من القواعد، وذلك بسبب وقوعهم في الاستهزاء والسخرية بالدين وشعائره.

يقول الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رحمه الله: «.. وذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها، وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، فضد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها..»[٣].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٧٤).
(٢) «المنار المنيف» (ص٣٣).
(٣) «تيسير الكريم الرحمٰن» (١/ ٩٣).



المحبة

تمهيد، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: محبة الله ـ تبارك وتعالى ـ

المطلب الثاني: محبة النبي ﷺ.

المطلب الثالث: محبة دين الإسلام.

* * * * *

❑ المطلب الأول ❑

محبة الله ـ تبارك وتعالى ـ

إن أعظم أمة حققت العبودية لله تعالى المقترنة بالمحبة والتعظيم والتذلل، هي أمة محمد ﷺ، فقد ادعى أهل الكتاب المحبة لله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، فردَّ عليهم سبحانه كذبهم هذا، **فقال:** ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ﴾ [المائدة: ١٨]، «فإن تعذيبهم بذنوبهم يقتضي أنهم غير محبوبين ولا منسوبين إليه بنسبة البنوَّه، بل يقتضي أنهم مربوبون مخلوقون، فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه، ومحبوبه لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان»(١).

(١) «العبودية» (ص٣٨) لابن تيمية.

ففرق بين المحبة الشرعية وغير الشرعية، «ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم، وأكمل هذه الأمة في ذلك أصحاب محمد ﷺ ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل»[١].

وقد شابه طوائف من هذه الأمة: أهل الكتاب؛ كالجهمية والصوفية في مسألة المحبة لله ـ جل وعز ـ أما الجهمية فقد أنكرت محبة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ والمؤمنين لله تعالى، ومحبة الله تعالى لأوليائه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعند الجهمية والمعطلة ما من ذلك كله شيء فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شيء، ولا يقرب من ذاته شيء، ولا يحب لذاته، فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة، ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة، وضربت دونهم ودون الله حجب على معرفته ومحبته، فلا يعرفونه ولا يحبونه، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله، ويرمونهم بالأدواء التي هم أحق بها وأهلها وحَسْبُ ذي البصيرة وحياة القلب: ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله ﷻ ومعرفته وتوحيده، والله المستعان»[٢].

أما الصوفية: فقد انحرفوا عن الصراط المستقيم وفارقوا مسلك الرسول ﷺ وأصحابه ﵃ ومن تبعهم بإحسان، إذ محبة هؤلاء لربهم يتولد عنها رغبتهم: «أن الناس كلهم يحبونه ويذكرونه ويعبدونه ويحمدونه، ولا شيء أقر لأعينهم من ذلك، بل هم إلى ذلك بأقوالهم وأعمالهم»[٣]. لكن

---

(١) المصدر السابق (ص٣٩).
(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٣)، وانظر: «فتح المجيد» (ص٣٨٧) للشيخ عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ.
(٣) «روضة المحبين» (ص٢٨٢) بتصرف يسير.

حقيقة مذهبهم في المحبة: **ما قاله عنهم ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقع في كلامهم تخبط قبيح وأحسن أمره أن يكون من السعي المغفور لا المشكور، وكان بعض جهلتهم إذا رأى من يذكر الله أو يحبه يغار وربما سكّته إن أمكنه، ويقول: غيرة الحب تحملني على هذا، وإنما ذلك حسد وبغي وعدوان ونوع معاداة لله، ومراغمة لطريق رسله أخرجوها في قالب الغيرة، وشبهوا محبة الله بمحبة الصور من المخلوقين»(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «... وإنما يغلط من يغلط في هذه من حيث يتوهمون أن العبودية مجرد ذل وخضوع فقط لا محبة معه، وأن المحبة فيها انبساط في الأهواء أو إذلال لا تحتمله الربوبية، فكره من كره من أهل المعرفة والعلم مجالسة أقوام يكثرون الكلام في المحبة بلا خشية، وقال من قال من السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق(٢)، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجي(٣)، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري(٤)، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحّد.

ولهذا وجد في المتأخرين من انبسط في دعوى المحبة حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة والدعوى التي تنافي العبودية، وتدخل العبد في نوع من الربوبية التي لا تصلح إلا لله، ويدعي أحدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين، أو يطلبون من الله ما لا يصلح بكل وجه إلا لله، لا

---

(١) المصدر السابق (ص٢٨٣).

(٢) سيأتي بيان معناه في الباب الثالث عند الحديث عن أقسام المستهزئين ـ إن شاء الله ـ.

(٣) نسبة إلى المرجئة الذين يرون أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

(٤) يعني من الخوارج الذين أخذوا بنصوص الوعيد دون نصوص الوعد، ويقال لهم: الحرورية نسبة إلى حروراء، وهي قرية قرب الكوفة تجمع فيها الخوارج لما خرجوا على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

يصلح للأنبياء والمرسلين... ويقول: أنا محب فلا أؤخذ بما أفعله من أنواع يكون فيها عدوان وجهل، فهذا عين الضلال وهو شبيه بقول اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه...»[١].

وأما المحبة الشرعية السنية فهي التي اجتمع فيها: الخوف والرجاء والحب، فصاحب هذه المحبة مؤمن موحد، فمن حقق العبودية الكاملة المتضمنة للأمر والنهي فقد حقق المحبة، ولذلك كان الرسل والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أعظم محبة لله، لأنهم أهل عبوديته ـ جل وعلا ـ.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: ولفظ «العبودية» يتضمن كمال الذل وكمال الحب، وهذا أعلى الكمال حصل لإبراهيم ومحمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ ولهذا لم يكن له من أهل الأرض خليل (غيرهما، ولكن له أحباب يحبهم ويحبونه)، وقد أخبر ﷻ أنه يحب المتقين، ويحب المحسنين، ويحب المقسطين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص»[٢].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فالمحبة: حقيقة العبودية، وهل تكمن الإنابة بدون المحبة والرضى، والحمد والشكر، والخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلّا صبر المحبين؟ فإنَّه إنما يُتوكل على المحبوب في حصول محابه ومراضيه.

وكذلك الزهد في الحقيقة: هو زهد المحبين، فإنهم يزهدون في محبة ما سوى محبوبهم لمحبته، **وكذلك الحياء في الحقيقة:** إنما هو حياء المحبين، فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم....

فمنكر هذه المسألة ومعطلها من القلوب: معطِّلٌ لذلك كله، وحجابه

---

(١) «العبودية» (ص٣٧ ـ ٣٨).
(٢) المصدر نفسه (ص٣٥).

أكثف الحجب، وقلبه أقسى القلوب، وأبعدها عن الله»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضاً**: «فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطَّلت منازل السير إلى الله، فإنها روح كل مقام ومنزلةٍ وعمل. فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها. بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة، فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتّة، بل هي حقيقة شهادة أنْ لا إلـٰه إلا الله. فإنَّ «الإلـٰه» هو الذي يألهه العباد حُبًّا وذلًّا، وخوفاً ورجاءً وتعظيماً وطاعة له، بمعنى «مألوه» وهو الذي تألهه القلوب، أي: تحبه وتَذِلُّ له»(٢).

وقد ذكر العلماء أصلين عظيمين عليهما مدار العبادة والتوحيد هما: الحب والتعظيم، «وبمشاهدة النعمة يحصل ذلك، ويخبت القلب لطاعة من أنعم بها عليه، وكلّما ازداد العبد علماً بذلك ومعرفة لحقيقة النعمة ومقدارها ازداد طاعة ومحبة وإنابة، وإخباتاً وتوكلاً، ولذلك يُذَّكِرُ تعالى عباده بنعمه الخاصة والعامة، وآلائه الظاهرة والباطنة، ويحث على التفكير في ذلك؛ وأن يعقل العبد عن ربه فيقوم بشكره ويؤدي حقه...»(٣).

وقال الشيخ إسحاق بن عبد الرحمٰن بن حسن [ت: ١٣١٩] رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل الإسلام وقاعدته شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وهي أصل الإيمان بالله وحده، وهي أفضل شعب الإيمان، وهذا الأصل لا بُدَّ فيه من العلم والعمل والإقرار؛ بإجماع المسلمين؛ ومدلوله وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من عبادة ما سواه كائناً من كان؛ وهذا هو الحكمة التي خلقت لها الجن والإنس، وأرسلت لها الرسل، وأنزلت بها الكتب، وهي تتضمن كمال

(١) «مدارج السالكين» (٣/٢٦).
(٢) المصدر السابق (٣/٢٦). وانظر: «الدرر السنية» (٢/١٠٢، ١٤٦، ١٥٤).
(٣) «الدرر السنية» (١/٢٢٩ ـ ٢٣٠).

الذل والحب، وتتضمن كمال الطاعة والتعظيم، وهذا هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً سواه لا من الأولين ولا من الآخرين»[(١)].

إذاً فما دام المسلمون وسطاً في باب المحبة بين الأديان، وأهل السنة والجماعة وسط في هذا الباب بين الفرق، فلا بُدَّ من معرفة العلامات التي يتبيَّن من خلالها مصداقية منهج أهل السنة والجماعة، وصدق مدّعي هذه المحبة الشرعية.

فمن تلك العلامات: تجريد المتابعة للرسول ﷺ، **قال الله تعالى:** ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]، ورد في سبب نزول هذه الآية أنَّ قوماً قالوا على عهد النبي ﷺ: إنّا نحب ربنا، فأمر الله ـ جل وعزّ ـ نبيّه محمداً ﷺ ـ أن يقول لهم: «**إن كنتم صادقين فيما تقولون فاتبعوني فإن ذلك علامة صدقكم فيما قلتم من ذلك، فأنزل الله هذه الآية محنة لعباده**»[(٢)].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا يكون محبّاً لله إلّا من يتبع رسوله، وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية. وكثير ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته، ويدعي من الخيالات ما لا يتسع هذا الموضوع لذكره». إلى أن قال: «فاتباع الشريعة والقيام بالجهاد من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه ويبين من يدعي محبة الله ناظراً على عموم ربوبيته أو متبعاً لبعض البدع المخالفة للشريعة»[(٣)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن علاماتها الانقيادُ لأمر المحبوب وإيثارُه

---

(١) المصدر السابق (٢٥٨/١) جمع العلامة عبد الرحمٰن بن قاسم.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢٣١/٣ ـ ٢٣٢) لابن جرير، و«أسباب نزول القرآن» (ص١٠٥) للواحدي، و«أسباب النزول» (ص٧٦) للسيوطي، و«مدارج السالكين» (٢١/٣ ـ ٢٢) لابن القيم، و«فتح المجيد» (ص٣٨٦) للشيخ عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ.

(٣) «العبودية» (ص٣٩).

على مراد المحب، بل يَتَّحِد مرادُ المحبّ والمحبوب، وهذا هو الاتحاد الصحيح لا الاتحاد الذي يقوله إخوان النصارى من الملاحدة، فلا اتحاد إلَّا في المراد، وهذا الاتحاد علامة المحبة الصادقة بحيث يكون مراد الحبيب والمحبّ واحداً، فليس بمحبٍّ صادقٍ من له إرادةٌ تخالف مراد محبوبه منه،... قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل سبحانه متابعة رسوله سبباً لمحبتهم له، وكونُ العبد محبوباً لله أعلى من كونه محبّاً لله، فليس الشأن أن تُحِبَّ الله، ولكنّ الشأن أن يحبَّك الله. فالطاعة للمحبوب عنوان محبته...»[١].

ومن تلك العلامات ـ أيضاً ـ: الغيرة على حرمات الله وحدوده، وما يكرهه ﷻ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومنها (أي: من علامات المحبة): غيرته لمحبوبه وعلى محبوبه، فالغيرة له أن يكره ما يكره، ويغار إذا عُصِيَ محبوبُه، وانتهك حقُّه وضُيِّع أَمْره، فهذه غيرة المحبّ حقاً، والدينُ كُلُّه تحت هذه الغيرة.

فأقوى الناس ديناً أعظمُهم غيرةً، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنَا أغيرُ منه؛ والله أغيرُ مني**»[٢].

فمحبُّ الله ورسوله يغار لله ولرسوله على قدر محبته وإجلاله، وإذا

---

(١) «روضة المحبين» (ص٢٧٣ ـ ٢٧٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة، أول حديث في الباب «فتح» (٩/ ٢٣٠)، وفي الحدود، باب من رأى مع امرأتِه رجلاً فقتله، برقم (٦٨٤٦)، «فتح» (١٢/ ١٨١)، وفي التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «**لا شخْصَ أغيرُ من الله**»، برقم (٧٤١٦)، «فتح» (١٣/ ٤١١)، ومسلم، كتاب اللعان، برقم (١٤٩٩)، «نووي» (١٠/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦).

خلا قلبُه من الغيرة لله ولرسوله، فهو من المحبَّة أخلى، وإن زعم أنّه من المحبِّين،... وإذا ترحَّلت هذه الغيرة من القلب ترحَّلت منه المحبة، بل ترحَّلَ منه الدين وإن بقيت فيه آثاره، وهذه الغيرة هي أصل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي الحاملة على ذلك، فإن خلت من القلب لم يجاهد، ولم يأمر بالمعروف ولم يَنْهَ عن المنكر، فإنه إنما يأتي بذلك غيرةً منه لربِّه، ولذلك جعل الله ﷻ علامة محبته ومحبوبيَّته الجهاد، **فقال الله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤][(١)]».

وقال ابن القيم ـ أيضاً ـ في معرض الكلام عن أقسام الغيرة: «... والغيرةُ نوعان: غيرة للمحبوب، وغيرةٌ عليه. فأمَّا الغيرة له فهي الحميَّة له، والغضب له إذا استُهِينَ بحقِّه وانْتُقِصَتْ حُرْمَتُه وناله مكروه من عدوِّه، فيغضب له المحبُّ ويَحْمى، وتأخذه الغيرة له بالمبادرة إلى التغيير ومحاربة من آذاه، فهذه غَيْرَة المحبين حقاً، وهي من غَيْرَةِ الرسل وأتباعهم لله ممن أشرك به واستحلَّ محارمه وعصى أمره».

وهذه الغيرة هي التي تحمل على بذل نفس المحب وماله وعرضه لمحبوبه حتى يزول ما يكرهه... والدينُ كُله في هذه الغيرة بل هي الدِّين، وما جاهد مؤمنٌ نفسَه وعدوه ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكرٍ إلا بهذه الغيرة، ومتى خلت من القلب خلا من الدين، فالمؤمن يغار لربه من نفسه، ومن غيره إذا لم يكن له كما يحبّ، والغيرة تصفِّي القلب وتخرج خَبَثَه كما يخرج الكِير[(٢)] خبث الحديد»[(٣)].

---

(١) «روضة المحبين» (ص٢٨١ ـ ٢٨٢). وانظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٢٢).

(٢) كير الحدَّادِ مِنْفَخُه من زِق، أو جلد غليظ ذو حافات. انظر: «مختار الصحاح» (ص٥٨٥) للرازي.

(٣) «روضة المحبين» (ص٣٠١ ـ ٣٠٢)، وانظر كلام ابن القيم رحمه الله عن منزلة الغيرة =

ومن علامة محبة العبد لربه ﷻ دوام ذكره كما **قال تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]، **وقال تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤١]، **وقال ـ جلَّ وعلا ـ**: ﴿... وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ...﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فَمَرَّ على جبل يقال له: جُمْدان، **فقال**: «**سيروا هذا جُمْدان، سبق المفرِّدون**»، قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: «**الذاكرون الله كثيراً والذاكرات**»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد أمر الله ﷻ عباده أن يذكروه على جميع أحوالهم وإن كان ذكرهم، إيّاه مراتب، فأعلاها ذكر القلب واللسان مع شهود القلب للمذكور وجمعيته بكليته بأحبّ الأذكار إليه، ثمَّ دونه ذكر القلب واللسان أيضاً وإن لم يشاهد المذكور، ثُمَّ ذكر القلب وحده، ثمَّ ذكر اللسان وحده، فهذه مراتب الذكر وبعضها أحبُّ إلى الله من بعض.

وقال بعض السلف: إنَّ الله يحبُّ أن يُذْكر على جميع الأحوال إلا حال الجماع وقضاء الحاجة،.. والله تعالى لا يضيع أجر ذكر اللسان المجرَّد، بل يثيب الذاكر وإن كان قلبه غافلاً، ولكن ثواب دون ثواب»[2].

إذا تبين المنهج الشرعي في محبة الله ـ تبارك وتعالى ـ فاعلم أن هناك

= في: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٢ ـ ٥١).

(١) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، برقم (٢٦٧٦)، «نووي» (١٧/ ٧).

(٢) «روضة المحبين» (ص٣١٤ ـ ٣١٥).

ما يضاد هذه المحبة الشرعية، منها شرك المحبة، وقد اعتنى العلماء بهذا النوع من أنواع الشرك الأكبر بياناً له، وتحذيراً من خطورته، ولأجل ذلك عقد الإمام محمد بن عبد الوهاب باباً في هذا المعنى من كتاب التوحيد، فقال: **باب قوله تعالى:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

يقول ابن القيم رحمه الله: «فأخبر أن من أحب من دون الله شيئاً، كما يحب الله تعالى: فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا ندٌّ في المحبة، لا في الخلق والربوبية، فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم» إلى أن قال: «وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم، وهم في النار يقولون لآلهتم وأندادهم، وهي محضرة معهم في العذاب ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨]، ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية، وإنما سوَّوهم به في المحبة والتعظيم.

وهذا ـ أيضاً ـ هو العدل المذكور **في قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، أي يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم»[١].

ومنها: الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ وبرسوله ﷺ ودين الإسلام، فمن سخر بشيء من الدين فقد نقض أصل المحبة الشرعية، لأنه أخل بالأساس الذي يقوم عليه دين الإسلام: المحبة والتعظيم، هذا ما يتعلق بمحبة الله ﷻ وفي المطلب التالي سوف أتعرض إلى محبة النبي ﷺ.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٠ ـ ٢١)، وانظر: «جلاء الأفهام» (ص١٣٦ ـ ١٣٧) كلاهما لابن القيم، و«الدرر السنية» (٢/ ١٥٤ ـ ١٥٥)، و«فتح المجيد» (ص٣٨٦) للشيخ عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ.

❑ المطلب الثاني ❑

محبة الرسول ﷺ

إن محبة الرسول ﷺ أصل من أصول الإيمان، فبها يقوم سوق الإيمان، وبفقدانها ينعدم الإيمان، ولذا أوجب الله ﷻ محبة رسوله ﷺ، **فقال تعالى**: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، فلو لم تكن محبة النبي ﷺ واجبة لما توعد من قَدَّمَ محبة الأمور الثمانية المذكورة في الآية عليها، **يقول القاضي عياض** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكفى بهذا حضاً وتنبيهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها وعظم خطرها، واستحقاقه لها ﷺ، إذ قَرَّعَ تعالى مَنْ مَالُهُ وأهله وولده أحب إليه، من الله ورسوله، وأوعدهم **بقوله تعالى**: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾. ثم فسّقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله»[(١)].

وجاء في السنة ما يؤكد وجوب محبة الرسول ﷺ، ففي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**فوالّذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده**»[(٢)].

وفي الصحيحين عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[(٣)].

---

(١) «الشفا» (٢/ ٥٦٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان برقم (١٤)، «فتح» (١/ ٧٤ ـ ٧٥).

(٣) أخرجه البخاري، المصدر نفسه الكتاب والباب، برقم (١٥)، «فتح» (١/ ٧٥)، وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة الرسول ﷺ، برقم (٦٩)، «نووي» (٢/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥).

قال ابن تيمية ـ عليه رحمة الله ـ: «والمقصود هنا أن كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة كاسم الإيمان، والإسلام والدين والصلاة والصيام والطهارة والحج، وغير ذلك فإنما يكون لترك واجب من ذلك المسمى، ومن ذلك **قوله تعالى**: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، فلما نفي ـ الإيمان ـ حتى توجد هذه الغاية، دلّ على أن هذه الغاية فرض على الناس، فمن تركها كان من أهل الوعيد..»(١).

فقد نفى الإيمان الواجب، حتى يكون الرسول أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين، بل ولا يحصل الإيمان الواجب إلا بأن يكون الرسول أحب إليه من نفسه، كما في الحديث: «**أن عمر بن الخطاب ـ** ﵁ **ـ قال: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي** ﷺ: **الآن يا عمر**»(٢). فمن قال: إن المنفي هو الكمال، فإن أراد الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويعرض للعقوبة فقد صدق، وإن أراد أن المنفي الكمال المستحب، فهذا لم يقع قط في كلام الله تعالى ورسوله ﷺ،...»(٣).

وقال ابن القيم ﵀: «فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله فكيف بمحبته سبحانه؟ وهذا النوع من الحب لا يمكن أن يكون إلا لله ورسوله شرعاً، وإن وجد في الناس من يؤثر محبوبه بنفسه وماله فذاك في الحقيقة

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٧) وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، برقم (٦٦٣٢)، «فتح» (١١/ ٥٣٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٥)، و«فتح المجيد» (ص٣٩٠ ـ ٣٩١).

إنما هو لمحبة غرضه منه...»[(١)].

فهذه المحبة الشرعية التي أوجبها الله على المؤمنين للنبي ﷺ نابعة من محبة الله ﷻ وتابعة لها.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليس للخلق محبة أعظم ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه، فإن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما يحب لأجل الله ويطاع لأجل الله ويتبع لأجل الله.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١][(٢)]. **وقد قَسَّمَ العلماء هذه المحبة الشرعية إلى قسمين: فرض وفضل.**

فالأولى: المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، وتلقيه بالمحبة والرضا والتعظيم والتسليم، وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكلية ثم حسن الإتباع له فيما بلَّغه من ربه، من تصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته فيما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات، ونصرة دينه والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة، فهذا القدر لا بد منه ولا يتم الإيمان بدونه.

والثاني: المحبة التي تقتضي حسن التأسي به، وتحقيق الاقتداء بسنته، في أخلاقه، وآدابه، ونوافله، وتطوعاته، وأكله، وشربه، ولباسه، وحسن معاشرته لأزواجه، وغير ذلك من آدابه الكاملة، وأخلاقه الظاهرة.

والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، واهتزاز القلب من محبته، وتعظيمه، وتوقيره، ومحبة استماع كلامه، وإيثاره على كلام غيره من المخلوقين. ومن أعظم ذلك الاقتداء به في زهده في الدنيا، والاجتزاء باليسير منها، ورغبته

---

(١) «روضة المحبين» (ص٢٨٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦٤٩/١٠).

في الآخرة»[١].

ثمَّ لا بُدَّ من معرفة جملة من علامات محبة الرسول ﷺ[٢] على وجه الاختصار فأقول:

○ من علامات محبته ﷺ:

اتباعه والأخذ بسنته قولاً وعملاً واعتقاداً، لأمر الله ﷻ عباده المؤمنين بذلك، **قال تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: ٢٠]، **وقال تعالى**: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٣]، **وقال تعالى**: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وقال تعالى: مبيّناً موقف المسلم من الأمر والنهي: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ . . .﴾ [الحشر: ٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمركم بخير، وإنما ينهاكم عن شرٍّ»[٣].

ولعظم هذه الطاعة لله سبحانه والمتابعة لرسوله ﷺ لم يكتف الشارع بالأمر بالطاعة فقط، وإنما تَوَعَّدَ من خالف عن أمره، **فقال تعالى**: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

---

(١) «استنشاق نسيم الإنس من نفحات رياض القدس» (ص٣٤ ـ ٣٥) لابن رجب. وانظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٤٦٧ ـ ٤٦٨)، و«حقوق النبي ﷺ على أمته» (١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٧) د. محمد خليفة التميمي.

(٢) انظر حول هذه المسألة: «الشفا» (٢/ ٥٧١ ـ ٥٧٧) للقاضي عياض، و«حقوق النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة» (١/ ٣٢٣ ـ ٣٦٦) د. محمد التميمي، و«محبة الرسول ﷺ بين الإتباع والابتداع» (ص٦٦ ـ ٦٨)، تأليف عبد الرؤوف محمد عثمان.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٢٥).

فقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «أي: عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله، ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان»(١).

وأخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ **قال: «كُلُّ أمتي يدخلون الجنة إلّا من أبى، قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»**(٢).

○ ومن علامات محبته ﷺ:

الإكثار من ذكره والصلاة عليه عملاً **بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾** [الأحزاب: ٥٦]، وامتثالاً لقوله ﷺ: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثمَّ صلوا علي فإنه من صلَّى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً...**» الحديث(٣).

وفي هذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عند حديثه عن فوائد وثمرات الصلاة والسلام على الرسول ﷺ: «الثانية والثلاثون: أنها سبب لدوام محبته للرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقدٌ من عقود الإيمان الذي لا يتمُّ إلَّا به، لِأن العبد كلَّما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضاعف حُبُّه له وتزايد شوقُه إليه، واستولى على جميع قلبه، وإذا أعرض عن ذكره، وإحضاره وإحضار محاسنه بقلبه، نقص حبه من قلبه، ولا شيء أقرَّ لعين المحب من رؤية محبوبه، ولا

---

(١) المصدر نفسه (٣/٤٩١).

(٢) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداءِ بِسُنَنِ رسول الله ﷺ، برقم (٧٢٨٠)، «فتح» (١٣/٢٦٣).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل له الوسيلة، برقم (٣٨٤)، «نووي» (٤/٣٢٨).

أَقَرَّ لقلبه من ذكره، وإحضار محاسنه، فإذا قوي هذا في قلبه، جرى لسانه بمدحه والثناء عليه، وذكر محاسنه، وتكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحب ونقصانه في قلبه،...»[(١)].

ومن علامات محبته ﷺ تمنِّي رُؤيته، والشوق إلى لقائه ولو كان ثمن ذلك بذل المال والأهل وفقدانهما، لما ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**مِنْ أَشَدِّ أمتي لي حُبّاً ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**»[(٢)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: **قال رسول الله ﷺ**: «**والذي نفس محمد في يده ليأتينَّ على أحدكم يوم ولا يراني، ثم لأن يراني معهم أحَبَّ إليه من أهله وماله**»[(٣)].

وكان أشدّ الناس حُبّاً للنبي ﷺ السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، ثُمَّ من دونهم، وقد جاء في مسند الإمام أحمد رحمه الله أنه لَمَّا قدم الأشعريون المدينة كانوا يرتجزون: «غداً نلقى الأحبة، محمداً وصحبه، فلمَّا أن قدموا تصافحوا فكانوا هم أول من أحدث المصافحة»[(٤)].

○ **ومن علامات محبته ﷺ**:

تعلُّم القرآن الكريم وتلاوته، والعناية به، وتعظيمه، **قال القاضي عياض** رحمه الله: «ومنها: أن يحب القرآن الذي أتى به ﷺ، وهَدَى به واهتدى وتخلق به حتى قالت عائشةُ رضي الله عنها: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان

---

(١) «جلاء الأفهام» (ص٣٦٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فيمن يود رؤية النبي ﷺ بأهله وماله، برقم (٢٨٣٢)، «نووي» (١٧/١٧٦).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل النظر إلى النبي ﷺ وتمنيه، برقم (٢٣٦٤)، «نووي» (١٥/١٢٧).

(٤) (٣/١٩١، ٢٧٤)، وقال الشيخ الألباني: إسناده صحيح على شرط مسلم. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٢/٥٠ ـ ٥١)، برقم (٥٢٧).

القرآن»[١]، وحبّه للقرآن تلاوتُه، والعملُ به وتفهمه...»[٢].

وجاء في صحيح البخاري عن عثمان بن عفَّان ﵁ عن النبي ﷺ قال: **«خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه»**[٣].

وفي «صحيح مسلم» بسنده عن النبي ﷺ: **«قال: ... أمَّا بعد ألا أيها الناس فإنَّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربِّي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به...»**[٤].

فالواجب على المسلمين العناية بهذا الكتاب العزيز، وتعظيمه، وتلاوته، وتدبره، وتربية الأجيال وفق تعاليمه وآدابه، والوقوف عند حدوده، والعمل بمحكمه، والإيمان التامّ بمتشابهه.

○ ومن علامات محبته ﷺ:

محبة من أحبهم النبي ﷺ؛ كالصحابة ﵃، وأهل بيته، وسائر المؤمنين، ولهذا عدَّ شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ من أصول أهل السنة والجماعة: الاقتصاد والاعتدال في أمر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ـ وآل بيت نبيه الكريم، عملاً بالنصوص المستفيضة في الكتاب والسنة في بيان فضلهم والثناء عليهم ورضي الله عنهم[٥].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، برقم (٧٤٦)، «نووي» (٦/ ٢٧٢).

(٢) «الشفا» (٢/ ٥٧٦).

(٣) كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه، برقم (٥٠٢٧)، «فتح» (٨/ ٦٩٢).

(٤) كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﵁، برقم (٢٤٠٨)، «نووي» (١٥/ ١٨٨).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٤٠٥ ـ ٤٠٨).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ كما وصفهم الله به في **قوله تعالى:** ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]،.. ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم...»[١].

○ ومن علامات محبته ﷺ:

بغض من أبغض الله ورسوله، وعداوة من عاداه، واتخذ سنته غرضاً لسخريته واستهزائه، **قال تعالى:** ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والمؤمن عليه أن يعادي في الله، ويوالي في الله. فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه ـ وإن ظلمه ـ فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ **إلى قوله:** ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ...﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠]، فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغي، وأمر بالإصلاح بينهم.

فالمؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٥٢).

فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب والإكرام والثواب لأوليائه، ويكون البغض والإهانة والعقاب لأعدائه. وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشرٌّ وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة. استحق الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشرّ. فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا: كاللص الفقير تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة»(١).

وبهذا يتبيّن لنا جلياً عظم حقه ﷺ وما يجب على أمته من محبته المحبة الشرعية التي لا ترفعه فوق منزلته، ولا تحُطُّه عن مرتبة النبوة والرسالة، والله المستعان.

❏ المطلب الثالث ❏

محبة دين الإسلام

دين الإسلام هو الحنيفية ملة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، **قال تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سدّ جميع الطرق إليه إلّا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل، **كما قال تعالى:** ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال

(١) المصدر السابق (٢٨/٢٠٨ ـ ٢٠٩).

في هذه الآية «مخبراً بانحصار الدين المتقبل منه عنده في الإسلام»(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ...﴾ [البقرة: ١٣٠]، **وقال تعالى:** ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ...﴾ [آل عمران: ٨٣].

وهذا الدين الذي رضيه الله لعباده ثلاث مراتب:

الأولى: الإسلام. **والثانية:** الإيمان. **والثالثة:** الإحسان. كما جاء في حديث جبريل الطويل عندما سأل النبي ﷺ عن هذه المراتب وفيه: «... **وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزَّكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً... قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكُتُبِه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يراك**»(٢).

قال الحافظ ابن رجب ـ عليه رحمة الله ـ في شرح هذا الحديث: «فأمَّا الإسلام، فقد فسَّره النبي ﷺ بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل، وأوَّلُ ذلك: شهادة أن لا إله إلَّا الله، وأن محمداً رسولُ الله، وهو عمل اللِّسانِ، ثمَّ إقامُ الصَّلاةِ وإيتاءُ الزَّكاةِ، وصوُم رمضان، وحجُّ البيت لمن استطاع إليه سبيلاً. وهي منقسمة إلى عملٍ بدنيٍّ: كالصلاة والصَّومِ، وإلى عمل ماليٍّ: وهو إيتاء الزَّكاةِ، وإلى ما هو مركَّبٌ منهما: كالحج بالنسبة إلى البعيد عَنْ مكَّة». إلى أن قال: «وأمَّا الإيمانُ، فقد فسَّره النبيُّ ﷺ في هذا الحديث بالاعتقادات الباطِنَة، فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكتِه، وكُتبه،

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٥٣١).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان...، برقم (٨)، «نووي» (١/ ٢٧٠ ـ ٢٧٣).

ورُسُلِهِ، والبعث بعدَ الموتِ، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه»، إلى أن قال: «وأمَّا الإحسانُ، فقد جاءَ ذكرُه في القُرآن في مواضعَ: تارة مقروناً بالإيمان، وتارةً مقروناً بالإسلامِ، وتارةً مقروناً بالتقوى، أو بالعمل.

فالمقرونُ بالإيمان **كقوله تعالى:** ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٣]، **وكقوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠].

والمقرون بالإسلام، **كقوله تعالى:** ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ...﴾ [البقرة: ١١٢]، **وكقوله تعالى:** ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ الآية [لقمان: ٢٢].

والمقرون بالتقوى **كقوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، وقد يذكر مفرداً كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][١].

فهذا الدين الذي شرعه ﷻ لعباده، ورضيه لهم، إذا تمكن في قلوب أهل الإيمان، ورسخ في نفوسهم، وخالطت بشاشته القلوب صار له حلاوة وطعم، يعرفها من ذاقها ـ نسأل الله الكريم من واسع فضله.

أمَّا عن حلاوة الإيمان فقد روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ **قال: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أَحَبَّ إليه مِمَّا سواهما، وأنْ يُحِبَّ المرء لا يحبُّهُ إلَّا لله، وأنْ يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»**[٢].

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٩٨ ـ ١٢٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، برقم (١٦)، «فتح» (١/ ٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهنَّ وجد حلاوة الإيمان، برقم (٤٣)، «نووي» (٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «هذا حديث عظيم أصل من أصول الإسلام، قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: معنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات في رضى الله ﷻ ورسوله ﷺ وإيثار ذلك على عَرَض الدنيا، ومحبة العبد ربَّهُ ﷻ بفعل طاعته وترك مخالفته وكذلك محبة رسول الله ﷺ . . . وذلك أنَّه لا يصح المحبة لله ورسوله ﷺ حقيقة وحب الآدمي في الله ورسوله ﷺ وكراهة الرجوع إلى الكفر إلا لمن قوي بالإيمان يقينه واطمأنت به نفسه وانشرح له صدره وخالط لحمه ودمه، وهذا هو الذي وجد حلاوته، . . والحب في الله، من ثمرات حب الله، قال بعضهم: المحبة مواطأة القلب على ما يرضى الرب سبحانه فيحب ما أحب ويكره ما يكره»[1]. فالذي يرضاه ﷻ لنا هو دين الإسلام فالواجب على المؤمن محبة دين الإسلام بقلبه وجوارحه، ظاهراً وباطناً.

وقد جاء في الحديث ما يَدُلُّ على أن محبة دين الإسلام من علامات وجود الإيمان عند العبد، ففي «صحيح مسلم» عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنَّه سمع رسول الله ﷺ **يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً»**[2]. فطعم الإيمان لا يمكن أن يجده من في قلبه غِلٌّ وحقد على الدين وأهله، بل لا يحصل هذا الطعم، وتلك الحلاوة، إلّا لمن يُحِبُّ دين الإسلام ويعظمه، «فمن رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً وجد حلاوة الإيمان»، «ومعنى رضيت بالشيء قنعت به واكتفيت به ولم أطلب معه غيره، فمعنى الحديث لم يطلب غير الله تعالى، ولم يسعَ في غير طريق الإسلام ولم يسلك إلّا ما يوافق

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣). وانظر: «فتح الباري» (١/ ٧٨) لابن حجر، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٥٠).

(٢) كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، فهو مؤمن، وإن ارتكب المعاصي والكبائر، برقم (٣٤)، «نووي» (٢/ ٣٦١ ـ ٣٦٢).

شريعة محمد ﷺ، ولا شك في أنَّ من كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه، وذاق طعمه، وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: معنى الحديث: صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشته قلبه، لأنَّ من رضي أمراً سهُل عليه، فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى ولذَّت له، والله أعلم»[١].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ: «والرضا بربوبيَّةِ الله يتضمَّنُ الرضا بعبادته وحده لا شريك له، وبالرضا بتدبيره للعبد واختياره له.

والرِّضا بالإسلام ديناً يقتضي اختياره على سائر الأديان. (ولا يكون ذلك إلّا عن محبةٍ وتعظيم لهذا الدين).

والرِّضا بمحمدٍ رسولاً يقتضي الرِّضا بجميع ما جاء به من عند الله، وقبول ذلك بالتَّسليم والانشراح، **كما قال تعالى**: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥][٢].

فالواجب على كُلِّ مسلم أنْ يحبّ ما أَحَبَّهُ الله ورسوله ﷺ محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه من فرائض الدين، وجميع شرائعه.

قال ابن رجب ـ عليه رحمة الله ـ: «فمن أَحَبَّ الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب له ذلك أنْ يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى ما يرضي الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، وأنْ يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض. فإن

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (٢/ ٣٦١).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١١٨ ـ ١١٩).

عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، أوْ ترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه دلَّ ذلك على نقص محبته الواجبة فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة»(١).

ومن أعظم ما يجب على المؤمن الفرح به ومحبته ـ المحبة الشرعية ـ كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وهذا من أعظم النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ﷺ كما ثبت في «صحيح مسلم» بسنده عن تميم الدَّاريّ رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ **قال: «الدين النصيحةُ ثلاثاً»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتِهم»**(٢).

قال الإمام محمد بن نصر المروزي [ت٣٩٤] رحمه الله: «وأمَّا النصيحة لكتاب الله: فَشِدَّةُ حُبِّه، وتعظيم قدره إذ هو كلام الخالق، وشدة الرغبة في فهمه، ثُمَّ شِدَّة العناية في تدبره والوقوف عند تلاوته لطلب معاني ما أحبَّ مولاه أن يفهمه عنه، ويقوم له به بعدما يفهمه، وكذلك الناصح من القلب يتفهم وصية من ينصحه، وإن ورد عليه كتاب منه عني بفهمه، ليقوم عليه بما كتب به فيه إليه، فكذلك الناصحُ لكتاب الله يُعْنَى بفهمه ليقوم بما أمر به كما يحب ويرضى، ثُمَّ ينشر ما فهم منه العباد، ويديم دراسته بالمحبة له، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه»(٣).

وقال النووي رحمه الله: «وأمّا النصحية لكتاب الله تعالى، فالإيمان بأنَّه كلام الله تعالى وتنزيله، لا يشبه شيء من كلام الخلق ولا يقدر على مثله

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/٣٩٦ ـ ٣٩٧).

(٢) كتاب الإيمان، باب بيان أنَّ الدين النصيحة، برقم (٥٥)، «نووي» (٢/٣٩٦ ـ ٣٩٧).

(٣) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/٦٩٣). وانظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٢١) لابن رجب الحنبلي.

أحد من الخلق، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة والذب عنه تأويل المحرفين، وتعرُّض الطاعنين، والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعاء إليه وإلى ما ذكرنا من نصيحته»[١].

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «والنصيحة لكتابه: الإيمان به، والعمل بما فيه وتحسين تلاوته، والتخشُّع عنده، والتعظيم له، وتفهُّمه والتفقُّه فيه، والذبُّ عنه من تأويل الغالين، وطعن الملحدين»[٢].

وأمَّا النصيحة لِسُنَّةِ رسول الله ﷺ فهي كما **قال الإمام محمد بن نصر المروزي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «... وأمَّا بعد وفاته فالعناية بطلب سُنَّته والبحث عن أخلاقه، وآدابه، وتعظيم أمره، ولزوم القيام به، وشدَّة الغضب والإعراض عمن يدين بخلاف سُنَّته، والغضب على من ضيَّعها لأثرة دنيا، وإن كان متديناً بها، وحبّ مَنْ كان منه بسبيل من قرابة، أو صهر، أو هجرة، أو نصرة، أو صحبة ساعة من ليلٍ أو نهارٍ على الإسلام، والتشبه به في زيِّه ولباسه»[٣].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا النصيحة لرسول الله ﷺ؛ فتصديقه على الرسالة والإيمان بجميع ما جاء به وطاعته في أمره ونهيه ونصرته حيّاً وميتاً ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه، وإعظام حَقِّه وتوقيره وإحياء طريقته، وسنَّتِه وبث دعوته، ونشر شريعته ونفي التهمة عنها، واستثارة علومها والتفقه في معانيها والدعاء إليها والتلطف في تعلمها وتعليمها وإعظامها وإجلالها والتأدب عند قراءتها، والإمساك عند الكلام فيها بغير علم،

(١) «شرح صحيح مسلم» (٢/ ٣٩٧).
(٢) «الشفا» (٢/ ٥٨٣).
(٣) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٦٩٣).

وإجلال أهلها لانتسابهم إليها، والتخلق بأخلاقها، والتأدب بآدابها، ومحبة أهل بيته، وأصحابه، ومجانبة من ابتدع في سنته، أو تعرَّض لأحد من أصحابه ونحو ذلك»[١].

(١) «شرح صحيح مسلم» (٢/٣٩٧ ـ ٣٩٨).



المبحث الثالث

تَنْبِيهات مُهِمَّة

- التنبيه الأول.
- التنبيه الثاني.
- التنبيه الثالث.
- التنبيه الرابع.

* * * * *

○ التنبيه الأول:

إنه بسبب الجهل الذي وقع فيه المسلمون، نتيجة بُعدهم عن الدين الصحيح والمنهج القويم الذي كان عليه الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان، اندرس كثير من علوم الدين في بعض الأزمنة والأمكنة، ومن ضمن تلك العلوم المهجورة ما يتعلق بالاستهزاء بالدين والمستهزئين وأحكامهم، وما يجب على المسلمين تجاههم، وما يجب على ولاة الأمر من إقامة الحدود على الزنادقة والمستهزئين، ولذلك عدَّ الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب هذه المسألة من العلوم المهجورة، وترتب على ذلك كثرة الجهل بها حتى عند بعض العلماء، واستهان بها الناس.

ففي سؤال ورد إلى إمام الدعوة وفيه: «قوله: في باب حكم المرتد: «أو استهزأ بالله أو كتبه أو رسله كفر، فما وصف هذا الاستهزاء؟»».

فأجاب الشيخ بعد كلام نفيس، فقال: «... اعلم أن المسائل المهجورة ما يفهمها الإنسان إلا بعد المراجعة وكثرة المذاكرة، ولو كانت واضحة، وهذه المسائل من العلوم المهجورة كما ذكرت...» **إلى أن قال:** «ولا تستنكر الجهل الواضح لهذه المسائل لأجل غربتها، ومما يكشف لك الإشكال ما قدمت لك إجماع العلماء أن هذه كثيرة في زمانهم، وأيضاً بلدانهم أكثر علماء من بلدانكم»[١].

○ **التنبيه الثاني:**

قد يقول قائل: إن بحثك وكلامك فيه، عن الاستهزاء، وهذا أمر حسن لكنك ذكرت صوراً ومقالات فيها شتم لله تعالى ولرسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ولدين الإسلام، فما العلاقة بين الشتم والاستهزاء؟ أم أنهما شيء واحد؟

وللجواب عن هذا الإشكال أورد ما قاله أبو البركات الدردير ـ أحد أئمة المالكية ـ إذ يقول: «السب هو الشتم، وهو كل كلام قبيح، وحينئذٍ فالقذف والاستخفاف بحقه وإلحاق النقص به كل ذلك داخل في السب ومكرر معه...»[٢].

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا المعنى: «وأما الساب

---

(١) «الدرر السنية» (٨/١٠٣ ـ ١٠٥) جمع العلامة عبد الرحمٰن بن قاسم، وانظر: الإعلام بقواطع الإسلام (٢/٣٣٩) المطبوع بآخر كتاب: «الزواجر عن اقتراف الكبائر»، كلاهما لابن حجر الهيتمي.
وما أشار إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب للسائل بأن بعض البلدان أكثر علماء من البعض الآخر، دليل على فقه الشيخ ومعرفته بواقع المجتمعات الإسلامية، واتجاهات علمائها العقدية والدعوية، وأيضاً لا عبرة بالكثرة، فالعبرة بما وافق الكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة قولاً وعملاً واعتقاداً، أما كثرة العلماء من أصحاب المناهج المنحرفة؛ كالرافضة والصوفية وأهل الكلام والجدل وغيرهم، فهؤلاء لا يعتبرون عند أهل السنة والجماعة من أهل العلم، بل يُعَدُّن من علماء الضلالة.

(٢) «حاشية الدسوقي» (٤/٣٠٩).

فإنه مظهر للتنقص والاستخفاف والاستهانة بالله منتهك لحرمته انتهاكاً يعلم هو من نفسه أنه منتهك مستخف مستهزئ. . .»[١].

○ **التنبيه الثالث:**

هل الاستهزاء ذنب منفرد عن الكفر، أم أنه مطابق له؟

يجيب عن هذا السؤال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ فيقول: «السب ذنب منفرد عن الكفر الذي يطابق الاعتقاد، فإن الكافر يتدين بكفره ويقول: إنه حق، ويدعو إليه وله عليه موافقون، وليس من الكفار من يتدين بما يعتقده استخفافاً واستهزاء وسباً لله، وإن كان في الحقيقة سباً، كما أنهم لا يقولون: إنهم ضُلّال جُهال معذبون أعداء الله، وإن كانوا كذلك، وأما الساب فإنه مظهر للتنقص والاستخفاف والاستهانة بالله منتهك لحرمته انتهاكاً يعلم هو من نفسه أنه منتهك مستخف مستهزئ، ويعلم من نفسه أنه قد قال عظيماً، وأن السموات والأرض تكاد تنفطر من مقالته وتخر الجبال، وأن ذلك أعظم من كل كفر، وهو يعلم أن ذلك كذلك»[٢].

ويقول في موضع آخر: «. . . ألا ترى أنه إذا قال: «محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ساحر أو شاعر»، فهو يقول: إن هذا نقص وعيب، وإذا قال: «إن المسيح أو عُزيراً ابن الله»، فليس يقول: إن هذا عيب ونقص، وإن كان هذا عيباً ونقصاً في الحقيقة، وفرق بين قول يقصد به قائله العيب والنقص، وقول لا يقصد به ذلك»[٣].

○ **التنبيه الرابع:**

إيراد مقالات الكفرة والملحدين والزنادقة جائز في حالة الرد وبيان

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٥٥٢).
(٢) المصدر السابق (٥٥٢).
(٣) المصدر السابق (٥٥٧ ـ ٥٥٨).

الباطل وتمحيص الحق، فجهاد أهل الباطل ـ على اختلاف درجاتهم ـ بالقلم واللسان والستان من أعظم القربات إلى الله تعالى.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين... إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعه ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب؛ فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعاً، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء»[(١)].

ويقول شيخ الإسلام في موضع آخر: «وقد ذكر الله في كتابه من كلام الكفار والمنافقين في الأنبياء والمرسلين وأهل العلم والإيمان ما فيه عبرة للمعتبر، وبينة للمستبصر، وموعظة للمتهوك المتحير»[(٢)].

بل وَنُقِلَ الإجماع على جواز ذلك.

قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أجمع السلف والخلف على حكايات مقالات الكفرة والملحدين في كتبهم ومجالسهم لبيانها وردها، وإن كان على وجه الحكايات والأسماء والظرف وأحاديث الناس ومقالاتهم في الغث والسمين، وهو الكلام الجامع لاختلاف الدلالات حُسناً وقبحاً، إذ الغث الهزيل ونوادر السخفاء والخوض في قيل وقال وما لا يعني، فكل هذا ممنوع منه وبعضه أشد في المنع والعقوبة من بعض»[(٣)].

وبعد أن عرفنا في هذا الفصل ما يجب على الأمة الإسلامية من

---

(١) «مجموع الفتاوى» «الحسبة» (٢٨/ ٢٣١ ـ ٢٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ١٧١).

(٣) «الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٨٥) مع الزواجر.

التعظيم والمحبة لله ـ ﷻ ـ ولرسوله ﷺ ولدين الإسلام، وأن هذه المحبة وذلك التعظيم أصل الدين وأساسه وقاعدته، فمتى ما أهينت هذه الأصول واتخذها أعداء الإسلام، وضعفاء الإيمان، سخريةً واستهزاءً، اختلَّ هذا الأصل، وضعف الدين في النفوس، وتعرَّضت الأمة إلى العقاب، والنكبات؛ إذا سكتت عن هذا المنكر العظيم.

وسوف أعرض في أبواب الرسالة ما يتعلق بهذا الأمر، **وهو: الاستهزاء بالدين بدءًا بتعريف الاستهزاء وأسبابه**، ثمَّ صور الاستهزاء، ثم بعد ذلك حكم الاستهزاء وأقسام المستهزئين، وفي ختام البحث آتي على آثار هذا الناقض من نواقض الإسلام والإيمان على المجتمع المسلم في الأفراد والجماعات، راجياً من الله وحده التوفيق والسداد، والإخلاص والصواب.

فإليك الباب الأول، وهو تعريف الاستهزاء وأسبابه.

الباب الأول

تَعْرِيفُ الاسْتِهْزَاءِ وأسبابه




الفصل الأول

تعريف الاستهزاء

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الاستهزاء في اللغة.

المبحث الثاني: ورود لفظ الاستهزاء في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: تعريف الاستهزاء في الشرع.






المبحث الأول

تعريف الاستهزاء في اللغة

الناظر في كتب اللغة والمعاجم يجد لفظ الاستهزاء مشتق من (هَزَأ) وهذا اللفظ يدور حول عدة معانٍ استعملت هذه الكلمة في لغة العرب للدلالة عليها، فهي تدور حول معنى: الموت، والتحريك، والكسر، والاستهزاء، ولكلٍّ من هذه المعاني استعمال يخصه، وسوف أذكر كلام أهل اللغة في كلٍّ من هذه المعاني حتى أصل إلى المقصود، وتحرير المصطلح الذي يتعلق بموضوع البحث.

○ **المعنى الأول:**

جاءت مادة (هَزَأ) بمعنى: الموت، **قال ابن منظور**: «وهَزَأ الرجل، مات، عن ابن الأعرابي: وهَزَأ الرجل إبْلُه هَزْءاً، قتلها بالبَرْدِ.. أَهْزَأَهُ البردُ وأهرَأَه إذا قتله»[1].

وقال الزبيدي: «وعن ابن الأعرابي: هَزَأَ إبلَهُ هَزْءاً: قتلها بالبردِ كهرأها، بالراء كأهزأها رباعياً، **قال ابن سيده**: لكن المعروف بالرَّاء، وأرى الزَّاي تصحيفاً، . . . وهَزَأ زَيْدٌ مات مكانه أي فجأةً، كما قيده الزمخشري في الكشاف. . .»[2].

---

(١) «لسان العرب»، مادة (هزأ) (١/ ١٨٣) لابن منظور. وانظر: «المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث» (٣/ ٤٩٨) للأصفهاني.

(٢) «تاج العروس. . .» (١/ ٥٠٩ ـ ٥١٠). وانظر: «تهذيب اللغة» (٦/ ٣٧٠) للأزهري، «المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث» (٣/ ٤٩٨).

○ **المعنى الثاني:**

وردت مادة (هَزَأ) بمعنى التحريك، **قال الزبيدي:** وعن الأصمعي وغيره: هَزَأ راحِلتَه ونزأها، حرَّكها لِتُسرِع. . . وأهزَأ الرجل إذا دَخَلَ في شدَّة البرد، وأهْزَأتْ به ناقته: أسرعت به، وذِكْرُ الناقة مثالٌ، فلو قال: دابَّته كان أولى»[١].

وقال ابن منظور: «عن الأصمعي وغيره: نزأتُ الرَّاحِلَةَ وهَزَأتها: إذا حرَّكتها»[٢].

○ **المعنى الثالث:**

يأتي هذا اللفظ في لغة العرب أيضاً بمعنى: الكسر، قال ابن منظور: «وهَزَأ الشيءَ يهْزَؤُه هَزْءاً: كَسَره، قال يصف درعاً:

لَهَا عُكَنٌ تَرُدُّ النَّبْلَ خُنْساً   وتهْزَأُ بالمعَابِلِ والقِطَاعِ

عُكَنُ الدرع: ما تثنى منها، **والباء في قوله:** بالمعابل زائدة، هذا قول أهل اللغة.

قال ابن سيده: وهو عندي خطأٌ، إنما تَهْزَأُ ها هنا من الهُزْءِ الذي هو السُّخريُّ، كأن هذا الدرع لمَّا رَدَّتِ النبل خُنْساً جُعِلَتْ هازئةً بها»[٣].

○ **المعنى الرابع:**

يأتي هذا اللفظ: «هَزَأ» في العربية بمعنى الاستهزاء والسخرية وهو المقصود بهذا البحث.

قال ابن فارس:

«هزأ: الهاء والزاء والهمزة كلمة واحدة، يقال: هَزِئ واستهزأ، إذا

(١) «تاج العروس» (١/ ٥١٠) للزبيدي.
(٢) «لسان العرب» (١/ ١٨٣) لابن منظور. وانظر: «تهذيب اللغة» (٦/ ٣٦٩).
(٣) «لسان العرب» (١/ ١٨٣). وانظر: «تاج العروس» (١/ ٥١٠).

سخر»[١]، ويأتي هذا اللفظ متعدياً بـ (مِنْ) تارة وبالباء أخرى، كما جاء في تاج العروس قوله: «(هـ ز أ) هَزَأَ مِنْهُ وهزأ به، كَمَنَعَ وَسَمِعَ يتعدى بمن تارةً وبالباء أخرى، . . . يهزأ هزءاً بالضم، وهُزُءاً بضمتين وَهُزُوءاً بالضم والمد ومهزأة على مفعلة، بضمِّ العين، أي: سخِرَ منه كتهزَّأ واستهزأ به، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤ ـ ١٥]»[٢].

وقال أيضاً: «ويجوز أن يُبدل منها ياءٌ فتقرأ مُستَهْزِيون = فأما مستهزؤون فضعيف لا وجه له إلا شاذاً»[٣].

قال ابن منظور في مادة «هزأ»: «الهُزْءُ والهُزُؤُ: السخرية، هُزِئَ به ومنه وَهَزَأَ يَهْزَأُ فيها هُزْءاً وهُزُؤاً ومَهْزَأَةً، وتَهَزَّأَ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ سخر»[٤].

أما إذا أردنا إطلاق هذا المصطلح على المستهزئ والمستهزأ به، فنجد في كلام العرب رجلٌ هُزَأَةٌ، بالتحريك، يهزأُ بالناس، وهُزْأَةٌ، بالتسكين: يُهْزَأُ به، وقيل: يُهْزَأُ منه.

قال يونس: إذا قال الرجل: هَزِئتُ منك، فقد أخطأ، إنَّما هو هزئتُ بك، واستهزأت بك.

قال أبو عمرو: يقال: سخرت منك، ولا يقال: سخرت بك[٥].

ولفظ السخرية مرادفٌ للفظ الاستهزاء في المعنى اللغوي، وفي كلام

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٦/ ٥٢) لابن فارس.

(٢) «تاج العروس» (١/ ٥٠٩). وانظر: «لسان العرب» (١/ ١٨٣).

(٣) «لسان العرب» (١/ ١٨٣).

(٤) «لسان العرب» (١/ ١٨٣). وانظر: «مختار الصحاح» (ص٦٩٥) للرازي. و«تهذيب اللغة» (٦/ ٣٧٠)، و«معجم متن اللغة»، (٦/ ٦٢٠ ـ ٦٣١).

(٥) «لسان العرب» (١/ ١٨٣)، و«تاج العروس» (١/ ٥٠٩ ـ ٥١٠)، وانظر: «معجم متن اللغة» (٦/ ٦٣٠ ـ ٦٣١) لأحمد رضا، و«تهذيب اللغة» (٦/ ٣٩٦)، و«الصحاح» (١/ ٨٣ ـ ٨٤) للجوهري، و«مختار الصحاح» (ص٦٩٥).

أئمة اللغة، بل وفي كلام الله تعالى حيث قال ـ جل وعلا ـ في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠].

قال ابن عاشور: «وهو مرادف للسخرية في كلام أئمة اللغة، فذكر «استهزئ» أولاً لأنه أشهر، ولمَّا أعيد عبَّر بـ «سخروا»، ولمَّا أعيد ثالث مرة رُجع إلى فعل «يستهزئون»، لأنه أخف من (يسخرون)، وهذا من بديع فصاحة القرآن المعجزة»(١).

وفي «صحيح مسلم» رَحِمَهُ اللَّهُ ما يشهد بالترادف بين اللفظين، وأن كل واحد منهما مرادفٌ للآخر في المعنى اللغوي ـ وحتى الشرعي ـ، قال ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ في حديث آخر أهل النار خروجاً منها: «قال: فيقول: أتسخر بي وأنت الملك، قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه»(٢).

وفي رواية ابن مسعود ـ عند مسلم ـ أيضاً ـ «**فقالوا: ممَّ تضحك يا رسول الله؟ قال: من ضحك ربِّ العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت ربُّ العالمين، فيقول: إني لا أستهزئ منك ولكني على ما أشاء قادر**»(٣).

قال النووي: «واعلم أنه وقع في الروايات: «**أتسخر بي**» وهو صحيح، يقال: سخرتُ منه وسخرت به والأول هو الأفصح الأشهر، وبه جاء القرآن، والثاني فصيح أيضاً، وقد قال بعض العلماء: إنه إنما جاء بالباء لإرادة معناه، كأنه قال: أتهزأ بي، والله أعلم»(٤).

---

(١) «التحرير والتنوير» (٧/ ١٤٧) للطاهر بن عاشور.
(٢) كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجاً، برقم (٣٠٩)، «نووي» (٣/ ٤٣).
(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، برقم (٣١٠)، «نووي» (٣/ ٤١ ـ ٤٢).
(٤) «شرح صحيح مسلم» (٣/ ٤٢). وانظر: «النهاية» (٢/ ٣٥٠) لابن الأثير الجزري حيث جعل معنى: «أتسخر بي وأنت الملك»: أي أتستهزئ بي... إلخ.



المبحث الثاني

ورود لفظ الاستهزاء في القرآن والسنّة

ورد لفظ الاستهزاء في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، فمن استعمالاته في القرآن الكريم بصيغة الفعل المضارع (تَسْتَهْزِئُونَ)، قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

ويستهزئ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾ [البقرة: ١٥].

ويستهزئون: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥]، وغيرها من الآيات[1].

وجاء بصيغة الأمر على سبيل التهكم بالمستهزئين:

استهزئوا: كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

أما بصيغة المضارع المبني للمجهول، فجاء اللفظ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: ١٠، والأنبياء: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ [الرعد: ٣٢]، وغير ذلك من الصيغ.

---

(١) كما في الأنعام أيضاً: ١٠، وهود: ٨، والحجر: ١١، والنحل: ٢٤، والأنبياء: ٤١، والشعراء: ٦، والروم: ١٠، ويس: ٣٠، والزمر: ٤٨، وغافر: ٨٣، والزخرف: ٧، والجاثية: ٣٣، والأحقاف: ٢٦.

أما استعمال لفظ الاستهزاء في السنة النبوية، فقد ورد في عدة من أحاديث المصطفى ﷺ، فمن ذلك: ما رواه أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما **قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: .. وفيه: «... فقال: يا عبد الله لا تستهزئْ بي! فقلت: لا أستهزئ بك، فأخذه كُلَّهُ فاستاقه فلم يترك منه شيئاً،...»** الحديث(١).

وجاء في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: **وفيه: «فقالوا: مِمَّ تضحك يا رسول الله؟ قال: من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت ربُّ العالمين! فيقول: إني لا أستهزئ منك ولكني على ما أشاء قادر»**(٢).

وروى مسلم بسنده عن أُسيد بن جابر أن أهل الكوفة وفدوا إلى عمر، وفيهم رجل ممن كان يسخر بأويس؛ فقال عمر: هل هاهنا أحد من القرنيين، فجاء ذلك الرجل، فقال عمر: **إن رسول الله ﷺ قد قال: «رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له: أُويس، لا يدع باليمن غير أمٍّ له، قد كان به بياض فدعا الله فأذهبه عنه إلا موضع الدينار أو الدرهم فمن لقيه منكم فليستغفر لكم»**(٣).

قال النووي: «... وفيهم رجل يسخر بأويس «أي: يحتقره، ويستهزئ به»، وهذا دليل على أنه يخفي حاله، ويكتم السرَّ الذي بينه وبين الله ﷻ،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، والتوسل بصالح الأعمال، حديث رقم (٣٧٤٣) (١٧/ ٦٠)، «نووي»، وهو عند البخاري «بدون» لفظ «أتستهزئ»، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، برقم (٣٤٦٥)، «فتح» (٦/ ٥٨٤).

(٢) تقدم تخريجه في المطلب الأول.

(٣) كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني رضي الله عنه، برقم (٢٥٤٢)، «نووي» (١٦/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩)، والحديث له ألفاظ متقاربة عند مسلم فيها زيادات وفوائد نافعة.

ولا يظهر منه شيء...»[١].

فمن تأمل هذا الذي سُقته من الآيات والأحاديث يجد أنها لا تخرج عن المعاني اللغوية وبخاصة المعنى الثالث والرابع، لتعلقه بموضوع البحث.

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٦/٣٢٩).



تعريف الاستهزاء في الاصطلاح

هذا من حيث ورود لفظ الاستهزاء في النصوص الشرعية، أما من حيث كلام العلماء في حدِّ الاستهزاء، وتعريفهم له، وهو قليل جداً، إذ أنَّ بعض المصطلحات يَصْعُبُ على أهل العلم وضع حدٍّ لها، بل يرجع في ذلك إلى العرف، فما تعارف الناس أنه استهزاء بالله أو برسوله أو بدينه فهو كذلك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والاسم إذا لم يكن له حدٌّ في اللغة كاسم الأرض والسماء والبحر والشمس والقمر، ولا في الشرع كاسم الصلاة والزكاة والحج والإيمان والكفر فإنه يرجع في حدِّه إلى العرف، كالقبض والحرز والبيع والرهن والكرى ونحوها، فيجب أن يرجع في الأذى والسبِّ والشتم إلى العُرف، فما عدَّه أهل العُرْفِ سباً وانتقاصاً أو طعناً ونحو ذلك فهو من السبِّ، فعلى هذا كلُّ ما لو قيل لغير النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أوجب تعزيراً أو حدّاً بوجه من الوجوه فإنه من باب سبِّ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ»[1].

وقال ابن تيمية ـ أيضاً ـ: «وإذا لم يكن للسبِّ حدٌّ معروف في اللغة ولا في الشرع فالمرجع فيه إلى عُرْفِ الناس، فما كان في العرف سبّاً للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو الذي يجب أن ينزَّل عليه كلام الصحابة

(١) «الصارم المسلول» (ص٥٣٢) لابن تيمية، وانظر: المصدر نفسه، (ص٥٦٣)، و«مجموع الفتاوى» (١٩/٢٣٦)، و«الفرقان» (ص٣١) له.

والعلماء، وما لا فلا...»[(١)].

وقال أيضاً: «... وإن جماع ذلك أن ما يعرف الناس أنه سبٌّ فهو سبٌّ، وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال والاصطلاحات والعادات وكيفية الكلام ونحو ذلك، وما اشتبه فيه الأمر أُلْحِقَ بنظيره وشبهه»[(٢)].

وبعد هذا التقرير والواضح من شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ والذي بيّن فيه أنَّ لفظ الاستهزاء أو السبِّ والشتم والتنقص ليس من السهل وضع حدٍّ له يجمع أطرافه، ويحدد مصطلحه؛ لأنه باب واسع يدخل فيه الأذى والطعن، والتحقير والازدراء، والتنقيص والعيب لله ﷻ عمّا يقول الظالمون والساخرون والمستهزءون علواً كبيراً ـ، ولرسوله ﷺ، ولدين الإسلام، بل المرجع في ذلك إلى العُرْف، فما تعارف الناس أنه سَبٌّ واستهزاء فهو كذلك.

ومع هذا فقد حاول بعض العلماء وضع حدٍّ تقريبي للاستهزاء والسخرية، قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يُضحك منه...»، ثم يحدد القنوات التي يستخدمها الساخرون والمستهزئون، فيقول: «... وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء»[(٣)].

ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: ١]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «الهمّاز بالقول، واللمّازُ بالفعل، يعني يزدري الناس وينتقص بهم...»[(٤)]، وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يهمز بلسانه،

---

(١) المصدر نفسه (ص٥٤١) لابن تيمية، وانظر: ص(٥٤٣).
(٢) المصدر السابق (ص٥٤٣).
(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٣١) للغزالي. وانظر: «تحذير المسلمين عن السخرية والاستهزاء بالدين» (ص١٨) للجار الله.
(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٨٧٢) لابن كثير.

ويلمز بعينه»[١].

ومنه قول الشاعر زياد الأعجم:

تُدلي بودّي إذا لاقيتني كذباً وإن أغيب فأنت الهامز اللُّمَزَه[٢]

قال أبو جعفر: «ويعني باللُّمزة: الذي يعيب الناس، ويطعن فيهم»[٣]، وقال الخازن بعد أن ذكر أقوالاً عن السلف في معنى الآية: «وحاصل هذه الأقاويل يرجع إلى أصل واحد، وهو الطعن وإظهار العيب، وأصل الهمز الكسر[٤] والقبض على الشيء بالعنف، **والمراد منه هنا**: الكسر من أعراض الناس والغض منهم، والطعن فيهم، ويدخل فيه: من يحاكي الناس بأقوالهم، وأفعالهم، وأصواتهم ليضحكوا منه، وهما نعتان للفاعل على نحو سُخَرَةٍ وَضُحَكَةٍ للذي يسخر ويضحك من الناس»[٥].

فيظهر ممّا تقدم أن الاستهزاء معناه: إظهار كل عقيدة، أو فعلٍ، أو قول قصداً، يدُلُّ على الطعن في الدين، والاستخفاف به، والاستهانة بالله ـ تبارك وتعالى ـ ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ[٦].

فقوله: إظهار: يخرج به ما لو أخفى الاستهزاء أو أضمره في نفسه فلا يعتبر، لأن العبد إنما يؤاخذ بعلانيته دون سريرته في الدنيا، أمّا الآخرة فيؤاخذ بهما.

وقوله: قصداً: هذا ليس على إطلاقه إلّا عند الإمام الجرداني ـ وهو

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٢٠/ ١٢٤) للقرطبي. وانظر: «فتح القدير» (٥/ ٤٩٣) للشوكاني.

(٢) «جامع البيان» (١٢/ ٦٨٦) للطبري، والبيت أورده القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٠/ ١٢٤)، وأيضاً: الشوكاني في «فتح القدير» (٥/ ٦٩٣).

(٣) «جامع البيان» (١٢/ ٦٨٦).

(٤) انظر ما تقدم في: «المعاني اللغوية ـ المعنى الثالث» (ص٦٣).

(٥) «لُبَابُ التأويل في معاني التنزيل» (٤/ ٤٦٨) للخازن.

(٦) انظر: «فتح العلّام بشرح مرشد الأنام» (٤/ ٥٣٨) للجرداني.

من الشافعية ـ أمَّا عند جمهور العلماء فلا يعتبر عدم قصده مانعاً من تجريمه بل قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «... فمن استهزأ بالله، أو بكتابه أو برسوله، أو بدينه، كفر ولو هازلاً لم يقصد حقيقة الاستهزاء إجماعاً»[1].

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (ص٦١٧).




الفصل الثاني

أسْبَابُ الاستهزاء

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأسباب الداخلية «نفسية».

المبحث الثاني: «الأَسْبَابُ الخَارِجِيَّة».






المبحث الأول

الأسباب الداخلية «نفسية»

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الحقد.

المطلب الثاني: الحسد.

المطلب الثالث: الكبر.

المطلب الرابع: النفاق.

المطلب الخامس: الجهل.

المطلب السادس: ضعف الإيمان والعقل.

المطلب السابع: حب المال.

* * * * *

❑ المطلب الأول ❑

الحقد من الملأ المستكبرين على الدين وأهله

إن الله ﷻ لما خلق بني آدم وأسكنهم هذه الأرض، قدر سبحانه أن يكون الناس فريقين: أهل الخير والسعادة، وهم أتباع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأهل الشر والفساد، من الملأ المستكبرين ومن سلك طريقهم، وهم أتباع الشيطان. وليس بين الفريقين نقطة التقاء ووفاق، ولا أخوة ومودة، بل على العكس من ذلك فاصل عظيم وهو «البراء» من جهة أهل الإيمان، وفاصل آخر من جهة أهل الكفر والشر، وهو «الحقد والكره للدين وأهله».

لأن أهل الإيمان على طريق واضح مبين: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ . .﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وأهل الحقد والفساد قد سلكوا السبل التي نهى الله عنها بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وأخذَ العهد عليهم بأن لا يتبعوا الشيطان ويسلكوا سبيله كما أخبر ـ جل وعلا ـ: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١]. ولكن الملأ المستكبرين لم يستجيبوا لنداء الله تعالى ولا لدعوة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بل وصل بهم الحقد والكره لدين الله ـ تبارك وتعالى ـ أن قابلوه بالتكذيب والاستهزاء، ولأهله بالكيد والمكر والخديعة، «فالجاهلية لا تكره الإسلام لأنها ـ في دخيلة نفسها ـ لا تعرف ما فيه من الحق والخير. أو لأنها ـ بينها وبين نفسها ـ تعتقد حقاً أن باطلها الذي تعيش فيه أصوب وأقوم من الإسلام!

كلا! فهي تكرهه وهي عالمة بما فيه من الحق والخير، وبأنه هو الذي يُقَوِّمُ ما أعوجَّ من شؤون الحياة! وإنما تكرهه لأنها حريصة على هذا العوج لا تريد تقويمه! وتود أن تبقى الأمور على اعوجاجها ولا تستقيم!

تكرهه لأنها هي الجاهلية، وهو الإسلام!. . .»[1].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٩ ـ ٦٠].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٥ ـ ٦٦].

---

(١) «جاهلية القرن العشرين» (ص٢٦٧ ـ ٢٦٨) للشيخ محمد قطب.

وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٢].

إن هذا الكره والحقد الذي يلقاه أهل الإيمان أتباع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في كل زمان لهو مؤشر واضح يبين الخوف والهلع الذي يصيب الجاهلية وأصحابها من الإسلام لأنه حقيقة يهدد «كيانها ومصالحها وشهواتها وانحرافاتها...، فهي تحس في دخيلة نفسها مقدار ما انحرفت عن الحق وَحَكَّمَتِ الهوى واستسلمت للشهوات، وتحس مقدار ما تحرمها العقيدة الصحيحة حين تحكم الأرض من مصالح ومنافع وشهوات اختلستها اختلاساً في غيبة النور... يستوي في ذلك الذين استكبروا والذين هم مستضعفون، فلكلٍّ في الجاهلية مصالح ومنافع وشهوات يحرص عليها، ويكره أن يحرمها منه منهج الله حين يحكم بالحق، فتنتهي المصالح الفاسدة والمنافع المنحرفة ويقف الحق في طريق الشهوات!

من أجل ذلك نستطيع أن نفهم موقف الجاهلية الحديثة من الإسلام، إنه موقف الكراهة والعناد والحرب، يستوي في ذلك الشرق والغرب، والبلاد التي تزعم لنفسها أنها «بلاد الإسلام»!»[(١)].

وحين جاء الإسلام، وبعث الله صفوة خلقه في البلد الأمين الذي كان يموج بالشرك والوثنية، وكانت تسود العصبية القبلية في أفراده وقبائله، حرر الإسلام أتباعه من تلك الوثنيات والعصبيات، ورفعهم للمستوى الذي خلقوا من أجله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فبسبب هذا الخير والفضل من الله تعالى لأصحاب محمد ﷺ ثار الحقد والكره عند

---

(١) المصدر السابق (ص٢٧٠)، وهذا لا يعني وصف جميع بلاد الإسلام بالجاهلية على العموم، بل هناك بقايا ممن هم على الإسلام مصداقاً لحديث الطائفة المنصورة.

الملأ المستكبرين لأنهم مهددون في كيانهم ورياستهم وشهواتهم وسيادتهم، فحقدوا على الدين وأهله وصبوا عليهم سيلاً من التهم والألقاب القبيحة فضلاً عن السخرية بهم وبهذا الدين الحنيف.

أما الجاهلية اليوم فقد سارت وفق الخطة المرسومة عند الملأ من كفار قريش ومن قبلهم: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٣].

يقول الشيخ محمد بن سعيد القحطاني: «ويأتي بعد الملأ طبقات متعددة من الأمة تكره هذا الدين وتستخدم سلاح السخرية والاستهزاء لمعارضة هذا الدين وأهله، ومن هؤلاء: كُتَّابٌ وقَصَّاصُونَ وإذاعيون وفنانون ونساء فاجرات متحررات من كل فضيلة، وأصحاب خمور ومخدرات وغيرهم. يفعلون ذلك لأن عملهم قائم على التجارة المحرمة التي إذا قام دين الله جفف ذلك المستنقع القذر الذي يعيشون في وحله ويتكاثرون في دنسه.

إن الحرص الشديد لأعداء الله على طمس وتشويه صورة الإسلام الناصعة أمر لا يجادل فيه إلا مكابر، لذا لا غرو إذا استخدمت السخرية والهزء سلاحاً فتاكاً لتشويه هذه الصورة ونشر الضباب المعتم على وجهها المشرق ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون..»(١).

❑ المطلب الثاني ❑

الحسد

الذي **قال عنه الغزالي** رَحِمَهُ اللهُ: اعلم أنّه لا حسد إلا على نعمة، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان:

إحداهما: أنْ تكره تلك النعمة، وتُحِبَّ زوالها، وهذه الحالة تسمَّى

(١) «الاستهزاء بالدين وأهله» (ص٢٢ ـ ٢٣). وانظر: «جاهلية القرن العشرين» (ص٢٧٤ ـ ٢٧٥) محمد قطب.

حَسَداً. فالحسد حَدُّهُ: كراهة النعمة وحُبُّ زوالها عن المنعم عليه.

الثانية: أن لا تُحِبَّ زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها. وهذه تسمَّى غبطة، وقد تختصُّ باسم المنافسة...[(١)].

فأمَّا الأول فهو حرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجرٌ وكافرٌ وهو يستعين بها على تهييج الفتنة، وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق، فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها، فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد، ولو أَمِنْتَ فساده لم يغُمَّك بنعمته، ...»[(٢)].

إذا تبيَّن أنَّ الحسد هو: تمني زوال النعمة عن الغير وكراهتها، فاعلم أنَّ أعداء الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قد ارتكبوا هذا الداء من أدواء القلوب، وحسدوا الرسل ومن تبعهم من المؤمنين؛ على ما أنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ على رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومن أكبر من حسد أهل الإسلام قديماً: اليهود والنصارى، كما جاء موضَّحاً في كتاب الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩]. ففي سبب نزول هذه الآية أورد الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان حييّ بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب من أشدِّ يهود للعرب حسداً، إذ خصَّهُمُ الله برسوله ﷺ وكانا جاهدين في ردِّ الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ...﴾ [البقرة: ١٠٩][(٣)].

---

(١) ذكر الغزالي هنا حديثاً ينسبه للنبي ﷺ وهو قوله: «إنَّ المؤمن يغبط والمنافق يحسد»، قال العراقي في «تخريج الإحياء» (١٨٩/٣، هامش ١): «لم أجد له أصلاً مرفوعاً، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض، وكذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد».

(٢) «إحياء علوم الدين» (١٨٩/٣ ـ ١٩٠).

(٣) «جامع البيان» (٤٩٩/٢) شاكر.

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند جمهور العلماء، هذا من جانب، ومن جانب آخر ورد في «أسباب نزول القرآن» للواحدي رحمه الله ما يَدُلُّ على أن الحسد من مجموع اليهود، وليس من أفرادهم[1].

ومن جانب ثالث: ظاهر الآية يَدلُّ على العموم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ...﴾، ولم يقل: «ودَّ نفر منهم».

وجاء في السنة النبوية ما يوضح نوعاً من هذا الحسد، روى ابن ماجه بسنده عن عائشة رضي الله عنها عن **النبي ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين»**[2].

ويكشف لنا القرآن الكريم والسنة النبوية حقيقة هؤلاء اليهود ومن شايعهم من النصارى لأمر عظيم وفائدة كبيرة، وهي: «أن يعلم المسلمون أنَّ ما يلقيه أهل الكتاب من اليهود وأذيالهم النصارى من الشبهات على الإسلام، وتشكيك المسلمين فيه إنما هو من مكرهم السَّيء الذي مبعثه الحسد والحقد، ليس النصح الذي مبعثه الاعتقاد، ولذا قال سبحانه: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ ليوضح لعباده المؤمنين أنَّ حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيرة على حقٍّ يعتقدونه، وإنما هو عن خبث النفوس، ولؤم الطباع، وفساد الأخلاق، والتمادي في الباطل إصراراً وعناداً. ولذلك أتبعه بقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: فالحق عندهم ظاهر متبيِّن أنَه مع محمد ﷺ ومع أصحابه وهم يعرفونه بكُلِّ وضوح، لكنهم عادوه عداءً صريحاً لما صدر على غير أيديهم وحسدوا أهله بكُلِّ وقاحةٍ بعدما تبين لهم الحق[3] بالآيات التي جاء بها النبي مطابقة لما في بشارة التوراة.

---

(١) (ص٣٨).

(٢) في أبواب إقامة الصلاة، باب الجهر بآمين، برقم (٨٤٠) (١/ ١٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٦٩٧) (١/ ١٤٢).

(٣) انظر حوادث في هذا جرت بين اليهود وعرب المدينة من بني الأشهل: «السيرة =

فالقرآن الكريم يكشف للمسلمين نفسية أعدائهم ليعرفوها ولا يطمعوا منهم بخلافها، ويعرفوا السبب الكامن وراء كل عمل شنيع يقومون به فلا يستعظمونه بل يستعدون لمقابلة ما هو أشدَّ منه، لأنَّ العدو لا ينقلب صديقاً، وعدوك في الدين والعقيدة لا يمكن أن يلتقي معك على مودة، ولكن على منفعةٍ يهتبلها، لمصلحة عقيدته والإضرار بعقيدتك، فهو دائماً يهدف إلى ذلك، ومع هذا اقتضت حكمة الله أن لا نقابل حسدهم بحسد، ولا غيظهم بغيظ، ولا لؤمهم بلؤم، ولا شرَّهم بشر، بل نترفع عن جميع ذلك ملتزمين ما أمرنا مولانا ﷻ: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾، ولم يخصهم بهذه المعاملة الحسنة، فلم يقل: «**اعفوا عنهم واصفحوا عنهم**»، وإنَّما أتى بها للعموم لنعامل جميع الناس بالصفح والعفو اللائق بمقام المؤمنين وشرفهم،... ثم قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فجعل العفو والصفح مقيَّداً بغاية محدودة وهي إتيان أمره بالجهاد الذي يزلزلهم ويجتاحهم...»[(١)].

ولأجل هذا الحسد من يهود للأمة المسلمة لم يتورعوا عن الأذى والطعن في الدين والسخرية به وبأهله كما كانوا يفعلون ذلك قديماً مع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسيأتي على هذا أمثلة عند الحديث عن صور الاستهزاء في صدر الإسلام من الباب الثاني ـ إن شاء الله تعالى ـ، كقولهم لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «السَّام عليك» يعنون الموت.

وقد ابتلى المسلمون بهذا الداء ـ الحسد ـ مصداقاً لما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: **قال رسول الله ﷺ**: «**إنَّه سيصيبُ**

= النبوية»، مجلد (١/ ٢١٢) لابن هشام فقد كانوا يعرفون النبي قبل ظهوره، ويدرون من أين يظهر، ولكن الحسد أعمى أبصارهم وطبع على قلوبهم.

(١) «صفوة الآثار والمفاهيم» (٢/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣) للشيخ عبد الرحمٰن الدوسري.

أمتي داءُ الأمم، قالوا: وما داءُ الأمم؟ قال: الأشر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتحاسُدُ حتى يكون البغي ثُمّ الهرج[(١)]»[(٢)].

وسيأتي في الباب الثاني عند الحديث عن صور الاستهزء، الكلام عن استهزاء أهل الأهواء والبدع، وأهل الفسق والمجون قديماً وحديثاً، ويظهر أنَّ الدافع لهذا الاستهزاء والتَّنَقُّص من أهل البدع هو حسدُ أهل السنّة والجماعة على نعمة السنّة واتباعها، والوقوف عند حدودها، ومن أهل الفسق والمجون، حَسَدُهُم أَهَلَ الخير والطاعة الذين طَهَّرُوا بواطنهم بالتوحيد، وظواهرهم بالأخلاق والفضائل، واجتناب الفسق والرَّذائل، وما يقدح في المروءة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: عندما تحدث عن السخرية بالمؤمنين: «ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة فيجمع بين أمرين قبيحين: الغيبة والحسد. وإذا أثنى على شخص أزال ذلك عنه بما استطاع من تنقصه في قالب دين وصلاح، أو في قالب حسد وفجور وقدح، ليسقط ذلك عنه.

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تَمَسخُرٍ ولعبٍ، ليضحك غيره باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزأ به»[(٣)].

---

(١) قال الرازي (ص٦٩٤): الهرج: الفتنة والاختلاط... وفسَّره النبي ﷺ في أشراط الساعة بالقتل، وقال ابن الأثير في «النهاية» (٥/ ٢٥٧): «... وأصل الهرج: الكثرة في الشيء والاتساع..».

(٢) أخرجه الحاكم، كتاب البر والصلة، برقم (٧٣١١) (٤/ ١٨٥ ـ ١٨٦)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذمّ الحسد» والطبراني في «الأوسط» من حديث أبي هريرة بإسناد جيد. «المغني» المطبوع مع «الإحياء» (٣/ ١٨٧) للغزالي، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٠٨): «رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه أبو سعيد الغفاري لم يروِ عنه غير حميد بن هاني، وبقية رجاله وثِّقُوا». وانظر: «فيض القدير» (٤/ ١٦٥) للمناوي، فقد نقل كلام الهيثمي هذا.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

والحسد مرض خطير من أمراض القلوب «ولا تُدَاوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل. والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أنَّ الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنَّه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما. ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدوّ نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة.

فأما كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته، فاستنكرت ذلك واستبشعته. وهذه جناية على حقيقة التوحيد، وقذى في عين الإيمان، وناهيك بهما جناية على الدين. وقد ينضاف إلى ذلك أنك غششت رجلاً من المؤمنين وتركت نصيحته، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم.

وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب، وتمحوها كما يمحو الليل النهار.

وأمَّا كونه ضرراً عليك في الدنيا، فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به، ولا تزال في كمد وغمٍّ إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نِعَمٍ يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكلِّ نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مغموماً محروماً، مُتَشَعِّب القلب، ضيق الصدر، قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فَتَنَجَّزْتَ في الحال محنتك وغمك نقداً، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك، فلو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لِمَا فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع، فيكف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة. . . .

وأمَّا أنَّه لا ضرر فيه على المحسود في دينه ودنياه فواضح، لأنَّ النعمة لا تزول عنه بحسدك، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بُدَّ أن يدوم إلى أجل غير معلوم قدَّره الله سبحانه فلا حيلة في دفعه، بل كل شيء عنده بمقدار، ولكلِّ أجلٍ كتاب. . . .

فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق، ولا نعمة الإيمان أيضاً، لأنَّ الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ...﴾ الآية [البقرة: ١٠٩]»[1].

❑ المطلب الثالث ❑

الكبر

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: «والكِبْرُ والتَّكبُّر والاستكبار تتقارب، فالكبر الحالةُ التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره.

وأعظم التكبُّر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة». إلى أن قال: **«والتَّكبُّرُ يقال على وجهين:**

أحدهما: أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدةً على محاسن غيره، وعلى هذا وصف الله تعالى بالتَّكبُّر فقال: ﴿... الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣].

والثاني: أن يكون متكلِّفاً لذلك متشبعاً، وذلك في وصف عامة الناس نحو قوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ... والكبرياءُ: الترفُّعُ عن الانقياد

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/١٩٦ ـ ١٩٧).

وذلك لا يَسْتَحِقُّهُ غير الله فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧] . . .»[١].

وفي الباب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأبي هريرة رضي الله عنه قالا: **قال رسول الله ﷺ: «العِزُّ إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته»**[٢].

قال النووي رحمه الله: في بيان معناه: «... فالضمير في إزاره وردائه يعود إلى الله تعالى للعلم به وفيه محذوف تقديره قال الله تعالى: «ومن ينازعني ذلك أُعَذِّبُه»، ومعنى ينازعني يتخلق بذلك فيصير في معنى المشارك، وهذا وعيد شديد في الكبر مُصَرّح بتحريمه»[٣].

ومن العلماء من يرى تقسيم الكبر باعتبار ما يتعلق بالجوارح.

قال الحافظ: «قال الغزالي: الكبر على قسمين: فإن ظهر على الجوارح يُقالُ: تَكَبُّر، وإلا قيل: في نفسه كِبْر. والأصل هو الذي في النفس وهو الاسترواح إلى رؤية النفس، والكبر يستدعي متكبراً عليه يرى نفسه فوقه ومتكبِّراً به، وبه ينفصل الكبر عن العجب، فمن لم يخلق إلا وحده يتصور أنْ يكون معجباً لا متكبِّراً»[٤].

وقد ورد الحديث عن الكبر في السنة النبوية، روى مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه **عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنَّةَ من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إنَّ الرجل يُحِبُّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: إنَّ الله جميل يحب الجمال، الكبر: بَطَرُ الحق وغمط الناس»**[٥].

---

(١) «المفردات» (ص٦٩٧ ـ ٦٩٨). وانظر: «فتح الباري» (١٠/ ٥٠٥) لابن حجر.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، برقم (٢٦٢٠)، «نووي» (١٦/ ٤١١ ـ ٤١٢).

(٣) «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٤١٢).

(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٥٠٥).

(٥) كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم (٩١)، «نووي» (٢/ ٤٤٨ ـ ٤٥٠).

وجاء في رواية الإمام أحمد في «المسند» بأطول من هذا، قال ابن مسعود: كنت لا أُحْجَبُ عن النجوىٰ، ولا عن كذا ولا عن كذا، قال ابن عون: فنسي واحدةً ونسيتُ أنا واحدةً، قال: فأتيته وعنده مالك بن مُرَارة الرَّهاوي، فأدركتُ من آخر حديثه، **وهو يقول: يا رسول الله، قد قُسِمَ من الجمال ما ترى، فمَا أُحِبُّ أنَّ أحداً من الناس فضَلَني بشراكين فما فوقها، أفليس ذلك هو البغي؟ قال: «لا، ليس ذلك بالبغي، ولكن البغي بطر»، وقال: أو قال: «سَفهُ الحقّ وغمْطُ الناس»**[1].

قال الإمام الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ولكن الكبر من بَطِرُ الحق» معناه لكن الكبر من بطِرَ الحق فأضمر كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ . .﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ . .﴾.

قوله: «غمط»: معناه أزرى بالناس واستخفَّهم، يقال: غَمِطَ وغَمِصَ: بمعنى واحد، وفيه لغة أخرى: غَمَطَ وغمَصَ،، مفتوحة الميم»[2].

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومنه الحديث: «الكبر بطر الحق» هو أنْ يجعل ما جعله الله حقاً من توحيده وعبادته باطلاً، وقيل: هو أن يتجبَّر عند الحق فلا يراه حقاً، وقيل: هو أن يَتجبَّر عن الحق فلا يقبله»[3].

وقال المباركفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... قال في المجمع: الغمط: الاستهانة والاستحقار وهو كالغمص، وأصل البطر: شِدَّة الفرح والنشاط، ...»[4].

وحين يتأملُ المسلم في كتاب الله تعالى يجدُ أنَّ الأمم قد ابتليت بداء الكبر والإعراض عن دعوة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بل والسخرية والاستهزاء بهم وبما جاؤوا به من عند الله ـ تبارك وتعالى ـ من الدين

(١) (١/ ٥٠٠).
(٢) «معالم السنن» المطبوع مع «سنن أبي داود» (٤/ ٣٥٢).
(٣) «النهاية» (١/ ١٣٥). وانظر: «شرح صحيح مسلم» (٢/ ٤٤٩) للنووي.
(٤) «تحفة الأحوذي» (٦/ ١١٦ ـ ١١٧).

الحق، فكان السبب الأعظم عن قبول الحق والانقياد له هو الاستكبار، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]، **قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن ـ عليه رحمة الله ـ** عندما ذكر هذه الآية: «فذكر سببين حائلين بينهم وبين قبول الحق الذي دعوا إليه:

الأول: عدم الإيمان باليوم الآخر.

الثاني: الكبر وهو حال الأكثرين كما قد عرف من حال الأمم الذين بعث الله إليهم رسله كقوم نوح، وقوم عاد، وقوم صالح، وغيرهم، وكيف جرى منهم، وما حلَّ بهم، وكحال كفار قريش والعرب وغيرهم مع النبي ﷺ لمَّا بعثه الله بالتوحيد، والنهي عن الشرك والتنديد...»(١).

فها هم اليهود أهل الكبر والطغيان كما قصَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ ذكرهم في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧].

قال القرطبي رحمه الله: «أي بما لا يوافقها ويلائمها؟... أي بما لا تهواه. ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن إجابته احتقاراً للرسل، واستبعاداً للرِّسالة.... فكان ممن كذبوه عيسى ومحمد عليهما السلام، ومِمَّنْ قتلوه يحيى وزكريا عليهما السلام...»(٢).

وقد ابتليت الأمة الإسلامية بطوائف كثيرة استكبرت عن قبول الحق، فآمنت ببعض وكفرت بالآخر، فيبيِّنُ لنا الإمام ابن القيم عن فريق من هذه الطوائف فيقول عند ذكره لهذه الآية: «فهذا الذي تُسَمِّيه النظارُ والفقهاء التشهِّي والتحكم الباطل، فإذا جاءك ما لا تشتهي دفعته ورددته. وإن كان القول موافقاً لما تهواه وتشتهيه إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده

---

(١) «الدرر السنية» (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤) جمع عبد الرحمٰن بن قاسم.
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ١٨ ـ ١٩).

قبلته وأجزته، فترد ما خالف هواك، وتقبل ما وافق هواك، وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان للخصم لا جواب له عليهما البتة، فإنَّ الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه، والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات؛ إذ لو كان الشرع تابعاً للهوى والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعاً لـــــه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ...﴾ [المؤمنون: ٧١]»[(١)].

يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عند هذه الآية مُبَيِّناً استكبار الجاهلية المعاصرة عن الحق:** «ومحاولة إخضاع الهداة والشرائع للهوى الطارئ والنزوة المتقلبة، ظاهرة تبدو كلَّما فسدت الفطرة وانطمست فيها عدالة المنطق الإنساني ذاته. المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت ـ غير المصدر الإنساني المتقلب ـ مصدر لا يميل مع الهوى، ولا تغلبه النزوة. وأن يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضى والغضب، والصحة والمرض، والنزوة والهوى، لا أنْ يُخْضِعُوا الميزان ذاته للنزوة والهوى!

ولقد قص الله على المسلمين من أنباء بني إسرائيل في هذا ما يحذرهم من الوقوع في مثله، حتى لا تسلب منهم الخلافة في الأرض والأمانة التي ناطها بهم الله، فلمَّا وقعوا في مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل، وطرحوا منهج الله وشريعته، وَحَكَّمُوا أهواءهم وشهواتهم، وقتلوا فريقاً من الهداة وكذبوا فريقاً، ضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قبل من الفرقة والضعف، والذِّلة والهوان، والشقاء والتعاسة، إلا أن يستجيبوا الله ورسوله، وإلا أن يُخْضِعُوا أهواءهم لشريعته وكتابه، وإلا أن يفوا بعهد الله معهم ومع أسلافهم، وإلا أن يأخذوه بقوة، ويذكروا ما فيه لعلهم يهتدون»[(٢)].

(١) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٢٢).
(٢) «في ظلال القرآن» (١/ ٨٩).

فالحادي لأكثر المستهزئين ـ قديماً وحديثاً ـ بدين الله تعالى، وبرسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هو الكبر، يقول الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «السخرية والاستهزاء استحقاراً فإنّ ذلك قد يجري في الحضور، ويجري ـ أيضاً ـ في الغيبة ومنشؤه التكبُّرُ واستصغار المستهزأ به»(١).

ويقول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل الحنيفية عبادة الله وحده لا شريك له، وتجنُّب الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ...﴾ [النساء: ٣٦]، ومغلظ الكفر: الكبر والشرك، فإن كان الإنسان ما عبد الله فهو مستكبر، مثل ما يقع من غالب البدو من التَّهزِّي بالوضوء والصلاة...»(٢).

وقد أوضح العلماء أنَّ الكبر سبب للكسر من أعراض الناس والطعن فيهم، وذلك استنباطاً من قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهمزة: ١ ـ ٣].

قال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ فيما نقله عن القاشاني: «في بيان آفات رذيلتَي الهمز واللمز اللتين نزلت في وعيدهما السورة... رذيلتان مركبتان من الجهل والغضب والكبر. لأنهما يتضمنان الإيذاء وطلب الترفع على الناس. وصاحبهما يريد أن يتفضل على الناس، ولا يجد في نفسه فضيلة يترفع بها. فينسب العيب والرذيلة إليهم، ليظهر فضله عليهم.

ولا يشعر أنَّ ذلك عين الرذيلة. وهو مخدوع من نفسه وشيطانه موصوف برذيلتي القوة النطقية والغضبية»(٣).

وأختم هذا السبب بذكر وعيد الله تَعَالَىٰ للمتكبرين يوم القيامة، قال

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٤٧).
(٢) «الدرر السنية» (٢/ ٣٨).
(٣) «محاسن التأويل» (٧/ ٣٨٥).

تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٧ ـ ٤٨]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ كما في الصحيحين ـ واللفظ لمسلم ـ من حديث حارثة بن وهب[1] **أنه سمع النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بأهل الجنةِ؟» قالوا: بلى، قال ﷺ: «كُلُّ ضعيف متضعِّف لو أقسم على الله لأبرّه»، ثمَّ قال: «ألا أخبركم بأهل النار؟» قالوا: بلى، قال: «كلُ عُتُلٍّ جوّاظ[2] مستكبر»**[3].

---

(١) الخزاعي، أخو عبيد الله بن عمر بن الخطاب لأمه، له صحبة، وأمه أم كلثوم بنت جرول بن المسيب الخزاعية. انظر: «الاستيعاب» (١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١)، و«الإصابة» (١/ ٧٠٨)، و«تهذيب التهذيب» (٢/ ١٥٤).

(٢) قال النووي رحمه الله: «أمَّا العُتُلُّ بضم العين والتاء فهو الجافي الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: الجافي الفظّ الغليظ، وأمَّا الجوَّاظ بفتح الجيم وتشديد الواو، بالظاء المعجمة فهو الجَموع المنوع، وقيل: كثير اللحم المختال في مشيته، وقيل: القصير البطن. وقيل: الفاخر بالخاء». «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ١٩٤). وانظر: «النهاية» (١/ ٣١٦) لابن الأثير.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الكبر، برقم (٦٠٧١)، «فتح» (١٠/ ٥٠٤)، ومسلم، كتاب الجنة وصفتها ونعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٥٣)، «نووي» (١٧/ ١٩٣).

وبهذا يتبيَّنُ خطورة الاستكبار عن الحق والانقياد إليه، وعدم امتثال أوامر الله ﷻ واجتناب نواهيه، وعظم احتقار الناس وازدرائهم، والحط من أقدارهم، وأنَّ الكبر والاستكبار من أعظم بواعث الاستهزاء بالدين، والسخرية بالمؤمنين.

❑ المطلب الرابع ❑

النفاق

اختلف أهل اللغة في أصل النفاق، والذي يعنيني هنا القول الراجح الذي عليه عامة أهل اللغة، وهو أنَّهُ مأخوذ من نافقاء اليربوع، وهو باب جحره، فاليربوع يحفر له جحراً ثُمَّ يسدُّ بابه بترابه ويُسمَّى هذا المدخل «القاصعاء»، ثُمَّ يحفر له مخرجاً آخر حتى إذا بقي من التراب قشرة رقيقة تركها حتى لا يعرف مكان هذا المخرج، ويسمَّى هذا «النافقاء»، فإذا أُتِيَ من قبل القاصعاء عدا فضرب النافقاء برأسه، وخرج منها وهرب، فكذلك المنافق يظهر خلاف ما يبطن[١].

وأما النفاق في الشرع فهو: إظهار الإسلام، وإبطان الكفر، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بهذا المعنى الخاص، وإن كان أصله الذي أخذ منه في اللغة معروف[٢].

○ وللنفاق بواعث منها:

١ ـ اعتقاد الكفر وكراهية الإسلام.

٢ ـ وجود المنافق تحت هيمنة حكومة إسلامية.

٣ ـ ضعفه عن مواجهة هذه الحكومة بعقيدته التي يضمرها في نفسه[٣].

---

(١) انظر: «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٤٥٥) لابن فارس، و«المفردات» (ص٨١٩) للراغب.

(٢) انظر: «المنافقون في القرآن الكريم» (ص١٤) للشيخ عبد العزيز الحميدي.

(٣) المصدر نفسه (ص١٩).

يقول الشيخ عبد الرحمٰن الدوسري رَحِمَهُ اللَّهُ: «سبب النفاق أغراض نفسية تجيش في الصدور، تمنع أهلها من قبول الحق وتدفعهم إلى معاداة أهله، والذي يبثها ويغذيها في كُلِّ زمان ومكان هو اليهودية العالمية المفسدة لكافَّةِ المجتمعات»[(١)].

ويقول في موضع آخر: «... أسباب النفاق ناشئة: إمَّا من ظلمة الطبع، أو ظلمة الشبهة، أو ظلمة الهوى، أو ظلمة الطمع، أو ظلمة حب الرئاسة، أو ظلمة الشهوة، أو ظلمة الحقد والحسد والغواية، أو غير ذلك من الظلمات المادية التي تجتمع فتكون ظلمات بعضها فوق بعض، ويشهد لهذا التفسير تمثيل الله سبحانه لهم بأنهم في الظلمات لا يبصرون، صُمٌّ بَكْمٌ عميٌّ... ولذلك إذا عرض لهم زاجر الدين دفعه ما في قلوبهم المريضة من ظلمة الغواية والهوى بشتى أنواع التحريفات والتأويلات الباطلة التي تزينها لهم تلك الظلمات الراسخة في قلوبهم»[(٢)].

وعندما نشأت الدولة المسلمة على أرض المدينة، وقوي سلطان المسلمين، ومكن الله على يد رسول الله ﷺ للإسلام والمسلمين عند ذلك ظهر النفاق، وراج سوقه.

قال إمام المفسرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «لمَّا جمع (أي: الله تبارك وتعالى) لرسوله محمد ﷺ أمرهُ في دار هجرته، واستقر بها قراره، وأظهر الله بها كلمته، وفشا في دُور أهلها الإسلام، وقهر المسلمون من فيها من أهل الشرك من عبدة الأوثان، وذَلَّ بها من فيها من أهل الكتاب، أظهر أحبار يهودها لرسول الله ﷺ الضغائن، وأبدوا له العداوة والشنآن، حسداً وبغياً، إلا نفراً منهم هداهم الله للإسلام فأسلموا،... وطابقهم (أي: كفَّار يهود)

---

(١) «صفوة الآثار والمفاهيم» (١٨/٢). وانظر: «اليهود في القرآن والسنة» (٦٢/٢) محمد أديب صالح.
(٢) المصدر السابق (١٩/٢).

سِرّاً مُعاداة النبي ﷺ وأصحابه، وبغيهم الغوائل، قوم من أراهط الأنصار الذين آوَوْا رسول الله ﷺ ونصروه، وكانوا قد عَسَوْا في شركهم وجَاهِلِيَتِهِم، قد سُمُّوا لنا بأسمائهم، كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم وأنسابهم، وظاهروهم على ذلك في خفاء غير جهارٍ، حذار القتل على أنفسهم، والسِّباءِ من رسول الله ﷺ وأصحابه، وركوناً إلى اليهود لما هم عليه من الشرك وسوء البصيرة بالإسلام.

فكانوا إذا لقوا رسول الله ﷺ وأهل الإيمان به من أصحابه قالوا لهم ـ حِذاراً على أنفسهم ـ: إنا مؤمنون بالله وبرسوله وبالبعث، وأعطوهم بألسنتهم كلمة الحقِّ، ليدرأوا عن أنفسهمْ حُكْمَ الله فيمن اعتقد ما هم عليه مقيمون من الشرك، لو أظهروا بألسنتهم ما هم معتقدوه من شركهم.

وإذا لقوا إخوانهم من اليهود وأهل الشرك والتكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به، فخلوا بهم ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. فإياهم عنى جل ذكره بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة: ٨]»[1].

فحال المنافق ليست كحال الكافر الصريح، ولا هي كحال المؤمن الخالص، فهو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، «إن حقيقة المنافقين ـ كما صورها الله ـ مما يشهد به واقعهم في كل عصر وبلد ـ هي صورة مخالفة لصورة المؤمن الحقيقي والكافر الواضح الصريح، فإن الكفرة ـ على اختلاف مللهم ونحلهم ـ كفرهم واضح صريح متسم بالشجاعة والعناد والمكابرة، سواء من كان كفره بشرك الوسائط والأنداد، أو كان كفره بشرك التعطيل كالمقلدة للجاهلية الأولى والفراعنة، أو كان كفره بالإنكار لله كالشيوعية، أو بالافتراء على الله كأهل الكتاب المحرفين ـ فكل هؤلاء من النوع الثاني (يعني: الكفار الذين ورد ذكرهم في صدر سورة البقرة)، قد أراحوا المؤمنين

---

(١) «جامع البيان» (١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١) «شاكر».

بصراحتهم وظهور عداوتهم، واتضاح وجوب منابذتهم ومخالفتهم في الدين بحيث لا يجنح إليهم أو يواليهم من في قلبه إيمان صحيح.

لكن مصيبة المسلمين، ومداخل الشر إليهم هي النوع الثالث (المنافق) المرتدي زي الصديق المتعلق بلسانه الذي يظهر الإيمان والاعتراف بالله وتقديس رسوله والقرآن، وهو يحمل في قلبه الغيظ للمسلمين ما لا يقل عن غيظ الكفار أو يزيد، ...»[(١)].

وقد قص الله تعالى لنا في كتابه شيئاً من سخرية المنافقين فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: ٥٨].

وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «واللمز: العيب والطعن، قال مجاهد: يتهمك ويزدريك، وقال عطاء: يغتابك، وقال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ [التوبة: ٦١]، وذلك يدل على أن كل من لمزه أو آذاه كان منهم (يعني: من المنافقين)، لأن «الذين» و«من» اسمان موصلان، وهما من صيغ العموم، والأدلة وإن كانت نزلت بسبب لمز قوم وإيذاء آخرين فحكمها عام كسائر الآيات اللواتي نزلن على أسباب، وليس بين الناس خلاف نعلمه أنها تعم الشخص الذي نزلت بسببه ومن كان حاله كحاله، ولكن إذا كان اللفظ أعمَّ من ذلك السبب فقد قيل: إنَّهُ يقتصر على سببه، والذي عليه جماهير الناس أنَّهُ يجب الأخذُ بعموم القول، ما لم يقم دليل يوجب القصر على السبب، كما هو مقرر في موضعه.

---

(١) «صفوة الآثار والمفاهيم» (١٦/٢).

وأيضاً فإنَّ كونه منهم حُكْمٌ متعلق بلفظ مشتق من اللمز والأذى، وهو مناسب لكونه منهم، فيكون ما منه الاشتقاق هو علَّة لذلك الحكم، فيجب اطّرادُه»(١).

ويقول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب وهو يتحدث عن المنافقين وصفاتهم، ومنها الاستهزاء بالدين وأهله: «وقد وصف الله المنافقين في كتابه بأوصافهم وذكر شعب النفاق لتجتنب ويجتنب أهلها أيضاً، فوصفهم بالفصاحة والبيان وحسن اللسان بل وحسن الصورة، في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ووصفهم بالمكر والكذب والاستهزاء بالمؤمنين في أول البقرة، ووصفهم بكلام ذي الوجهين، ووصفهم بالدخول في المخاصمات بين الناس، بما لا يحب الله ورسوله في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ...﴾ [المائدة: ٤١]، ووصفهم باستحقارهم المؤمنين والرضى بأفعالهم، وَوَصَفَهُمْ بغير ذلك، كُلُّ ذلك نصيحةٌ لعباده ليجتنبوا الأوصاف ومن تلبَّسَ بها»(٢).

وبهذا يعلم المسلمون أن صدور الاستهزاء من المنافقين أمر معلوم، وظاهرة قديمة وحديثة، إذ الدافع لهذا الاستهزاء منهم هو النفاق، استجابةً لما يريده إخوانهم اليهود والمشركون.

❑ المطلب الخامس ❑

الجهل

قال ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: «الجهل نقيض العلم، وقد جهله فلان جهلاً وجهالة، وجهل عليه.... والتجهيل: أن تنسبه إلى الجهل.... والجهالة: أن تفعل فعلاً بغير العلم.... والمجهلة: ما يحملك على الجهل»، إلى أن

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٣٩ ـ ٤٠).

(٢) «الدرر السنية» (١/ ٣٢) جمع عبد الرحمٰن بن قاسم.

قال: «والجاهلية: .... هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب والكِبْر والتَّجَبُّر وغير ذلك»[١].

○ ذكر العلماء للجهل عِدَّة معانٍ:

الأول: وهو خلو النفس من العلم، هذا هو الأصل. وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنًى مقتضياً للأفعال الخارجة عن النظام، كما جُعِلَ العلم معنًى مقتضياً للأفعال الجارية على النظام.

والثاني: اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه.

والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً، كمن يترك الصلاة متعمداً، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، فجعل فعل الهزء جهلاً، وقال ﷻ: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦]»[٢].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في بيان استعمالات كلمة «الجهل»: «لفظ الجهل يعبر به عن عدم العلم، ويعبَّرُ به عن عدم العمل بموجب العلم، **كما قال النبي ﷺ: «إذا كان أحدكم صائماً، فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرُؤٌ شاتمه أو قاتله فليقل: إني صائم»**[٣]. والجهل هنا هو الكلام الباطل، بمنزلة الجهل المركّب، **ومنه قول الشاعر**[٤]:

(١) «لسان العرب» (١١/١٢٩ ـ ١٣٠).

(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٠٩) للراغب الأصفهاني. وانظر: «الكُلّيّات ـ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية» (ص٣٥٠) لأبي البقاء الكفوي، و«التعريفات» (ص١٠٨) للجرجاني.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الصيام، باب حفظ اللسان للصائم، برقم (١١٥١) (٨/٢٧٦ ـ ٢٧٧).

(٤) هو عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة المعروفة.

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا سميت «الجاهلية» جاهلية، وهي متضمنة لعدم العلم أو لعدم العمل به، ومنه قول النبي ﷺ لأبي ذر: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»(١). لمَّا سابَّ رجلاً وعيَّره بأُمِّه، وقد قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، فإنَّ الغضب والحمية تحمل المرء على فعل ما يضرُّه وترك ما يعلم أنَّه ينفعه»(٢).

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «**الجهل نوعان**: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العلم بموجبه ومقتضاه، فكلاهما جهل لغة وشرعاً وحقيقة. قال موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، لمَّا قال له قومه: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، أي: من المستهزئين.

وقال يوسف الصدّيق: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، أي: من مرتكبي ما حرَّمت عليهم. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ...﴾ [النساء: ١٧].

قال قتادة: «أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أنَّ كُلَّ ما عُصي الله به، فهي جهالة، وقال غيره: أجمع الصحابة أنَّ كل من عصى الله فهو جاهل. وسمَّى عدم مراعاة العلم جهلاً، إمَّا لأنَّه لم ينتفع به، فنُزِّل منزلة الجهل. وإمَّا لجهله بسوء ما تَجني عواقب فعله، فالفرار المذكور ـ أي منزلة الفرار من منازل السائرين ـ هو الفرار من الجهلين: من الجهل بالعلم إلى تحصيله، اعتقاداً ومعرفة وبصيرة. ومن جهل العمل إلى السعي النافع، والعمل الصالح قصداً وسعياً»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، برقم (٣٠)، «فتح» (١/ ١٠٦)، ومسلم، كتاب الأيمان والنذور، باب إطعام المملوك ممَّا يأكل، برقم (١٦٦١)، «نووي» (١١/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٣٩ ـ ٥٤٠).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠).

إذا تبيَّن هذا فاعلم أن المستهزئ بالدين وشعائره ـ فضلاً عن الاستهزاء بالله تعالى ـ لم يقع في هذا الجرم العظيم، والإثم المبين إلا عن جهل.
وهذا الجهل إمَّا أن يكون من جهة المستهزأ به، فلا يعلم ما يجب لله تعالى ولرسوله ﷺ ولدين الإسلام من التعظيم والإجلال، والتوقير والاحترام، وأنّ هذا مقتضى الإسلام والإيمان، وبرهان على الاعتقاد الصحيح الذي ينجي صاحبه يوم القيامة.

وإمَّا أن يكون الجهل من جهة حكم الاستهزاء، فَلَا يَتَصَوَّرُ المستهزئُ أنه باستهزائه يخرج من دائرة الإسلام؛ ويدخل في دائرة الكفر ـ والعياذ بالله تعالى ـ حين تتحقق الشروط وتنتفي الموانع.

وقد يكون عن عناد ومكابرة كحال كثير من العلمانيين والحداثيين والشيوعيين وغيرهم.

❑ المطلب السادس ❑

ضعيف الإيمان والعقل

من الأصول المقررة الثابتة في عقيدة أهل السنة والجماعة أن الإيمان: قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهو محل إجماع واتفاق بين السلف ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١][1].

---

(١) انظر: «الإيمان» (٧٢) لأبي عبيد ضمن «من كنوز السنة»، و«السنة» (٢/ ٥٨١) لابن الخلال، و«الحجة في بيان المحجة» (١/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦)، و«الشريعة» (ص١١١ ـ =

قال عمير بن حبيب[(١)]: «الإيمان يزيد وينقص، فقيل: فما زيادته، وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا ربنا وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه»[(٢)].

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة: يا أبا محمد! تقول: ينقص؟ فقال: اسكت يا صبي! بل ينقص حتى لا يبقى منه شيء»[(٣)].

وقال عبد الله بن عمرو: «يأتي على الناس زمان يجتمعون ويصلون في المساجد، وليس فيهم مؤمن»[(٤)].

يقول الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «... وقوته وضعفه ناشئ عن قوة ما في القلب من هذه الأعمال أو ضعفها، وقد يضعف ما في القلب من الإيمان بالأصول الستة حتى يكون وزن ذرة كما في الحديث الصحيح: «**أخرجوا من كان في قلبه ذرة من إيمان**»[(٥)] فبقدر ما في القلب من الإيمان

= ١١٨) للآجري، و«شرح العقيدة الطحاوية» (ص٣٤٢ ـ ٣٤٤).

(١) ابن حباشة، ويقال: ابن خماشة الأنصاري الخطمي، وهو جد أبي جعفر الخطمي، يقال: إنه فيمن بايع تحت الشجرة، مجرود في الصحابة. انظر: «الاستيعاب» (٣/ ٢٨٨) لابن عبد البر، و«الإصابة» (٥/ ٢٣٦)، و«تهذيب التهذيب» (٨/ ١٢٣)، و«التقريب» (ص٧٥٣) كلها لابن حجر.

(٢) «الإيمان» (ص٧) لأبي بكر بن أبي شيبة، ضمن «من كنوز السنة ـ رسائل أربع» جمع وتحقيق وتخريج الشيخ الألباني، و«عقيدة السلف أصحاب الحديث» (ص٦٧ ـ ٦٨) لأبي إسماعيل الصابوني، و«الشريعة» (٢/ ٥٨٣ ـ ٥٨٤) للآجري.

(٣) «عقدية السلف أصحاب الحديث» (ص٦٩)، و«الإيمان» (ص٩٤) للحافظ العدني، وفي «الشريعة» (٢/ ٦٠٧) للآجري.

(٤) «الإيمان» (ص٣٣) لأبي شيبة، ضمن «من كنوز السنة»، وقال محققه الشيخ الألباني: «إسناده موقوف صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الحاكم... من طريق سفيان عن الأعمش به، وصححه كما ذكرنا، ووافقه الذهبي».

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا =

تكون الأعمال الظاهرة التي هي داخلة في مسماه..»[١].

إذن فما دام الإيمان بهذه المثابة يتعرض للزيادة والنقصان، فإن المتأمل لمن يقع في الاستهزاء بالدين، وعباد الله المؤمنين، قد وصل به ضعف الإيمان إلى درجة يسهل عليه بعدها الوقوع في ناقض من نواقض الإيمان والإسلام.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «.. فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى، فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور، مكفي، مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، ظاهراً وباطناً..»[٢].

فإذا تسلط العدو على القلب لم يزل به حتى يورده المهالك، فيوقعه في الكفر، فإن لم يستطع أوقعه في البدعة، وإلا في الكبيرة، وهكذا لا يفتر عن ابن آدم أن يظفر منه بشيء ولو يسير.

ومن الأمثلة التي يمكن الإشارة إليها هنا على أن ضعف الإيمان سبب للوقوع في الاستهزاء بالدين وشعائره، وبالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ما وقع من بعض المسلمين في غزوة تبوك من قولهم: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء»[٣].

قال شيخ الإسلام رحمه الله معلقاً على هذه المقولة: «فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف، ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم، ولكن لم

= نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾، برقم (٧٤٣٩)، «فتح» (١٣/ ٤٣١ ـ ٤٣٢).

(١) «الدرر السنية» (١/ ١٦٤).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٨٢ ـ ١٨٣).

(٣) سيأتي تخريجه (ص٢٨٤) عند الكلام عن صور الاستهزاء بالصحابة رضي الله عنهم.

يظنوه كفراً، وكان كفراً كفروا به، فإنهم لم يعتقدوا جوازه..»[١]. وقال في موضع آخر أيضاً: «..كذلك من يدعوه ضعف عقله أو ضعف دينه إلى الانتقاص برسول الله ﷺ إذا علم أنه التوبة تُقْبَلُ منه أتىٰ ذلك متى شاء ثم تاب منه، وقد حصل مقصوده بما قاله كما حصل أولئك بما فعلوه، بخلاف مريد الردة فإن مقصوده لا يحصل إلا بالمقام عليها، وذلك لا يحصل له إذا قتل إذا لم يرجع، فيكون ذلك رادعاً له.

وهذا الوجه لا يخرج السب عن أن يكون ردة، ولكنه حقيقة أنه نوع من الردة يغلظ بما فيه من انتهاك عرض رسول الله ﷺ،..»[٢].

يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: «فما يستهزئ بدين الله وعباده المؤمنين به، إنسان سوي العقل ـ فالعقل حين يصح ويستقيم ـ يرى في كل شيء من حوله موحيات الإيمان بالله. وحين يختل وينحرف لا يرى هذه الموحيات، لأنه حينئذٍ تفسد العلاقات بينه وبين هذا الوجود كله، فالوجود كله يوحي بأن له إلهاً يستحق العبادة والتعظيم، والعقل حين يصح ويستقيم يستشعر جمال العبادة لإلـٰه الكون وجلالها كذلك، فلا يتخذها هزواً ولعباً وهو صحيح مستقيم»[٣].

فالاستهزاء بالدين ردة صريحة عن الإسلام، والاستخفاف بالمسلمين أمر عظيم جاءت الشريعة بتحريمه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٧٣).

(٢) «الصارم المسلول» (ص٣٧١)، وسيأتي بيان: هل قتل المستهزئ ردة أم حدًا في الباب الثالث ـ إن شاء الله ـ.

(٣) «في ظلال القرآن» (٢/ ٩٢٢).

يقول الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «واحذر غاية الحذر: من احتقار من تجالسه من جمع طبقات الناس، وازدرائه، والاستهزاء به: قولاً أو عملاً، تصريحاً أو تعريضاً. **فإن فيه ثلاثة محاذير:**

أحدها: التحريم العظيم والإثم على فاعل ذلك.

الثاني: دلالته على حمق صاحبه، وسفاهة عقله، وجهله.

الثالث: أنه باب من أبواب إثارة الشر والضرر على نفسه»(١).

وبهذا يتضح جلياً أن ضعف الإيمان، وسفه العقل وحمقه باعث من بواعث الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ وبرسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وبدين الإسلام.

❑ المطلب السابع ❑

حب المال

وردت الإشارة إلى المال في كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ في مجال التحذير من فتنته، والاغترار بكثرته وتعداده، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨]، «أي اختبار وامتحان منه لكم إذا أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلوا بها عنه وتعتاضون بها منه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥]»(٢).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: عند آية التغابن ـ: «أي تشغل البال عن القيام بالطاعة»(٣).

---

(١) «الرياض الناضرة» (ص٢٢٣).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٧٤).
(٣) «فتح الباري» (١١/ ٢٥٨).

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال»[١].

وقال الغزالي رحمه الله: «... فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف، واسعة الأرجاء والأكناف، ولكن الأموال أعظم فتنها وأطم محنها، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها، فإن فقد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفراً، وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسراً.. ونظرنا الآن.. في المال وحده، إذ فيه آفات وغوائل وللإنسان من فقده صفة الفقر، ومن وجوده وصف الغنى، وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان»[٢].

إن حب المال وإيثاره على ما عند الله ﷻ قد يصل بصاحبه إلى حد العبودية للدرهم والدينار؛ **فعن أبي هريرة** رضي الله عنه **قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة**[٣] **إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض»**[٤].

قال ابن تيمية رحمه الله: في شرح هذا الحديث: «وهذه حال عبد المال،

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، برقم (٢٣٣٦) (٤/ ٤٩٢)، والحاكم في «المستدرك»، كتاب الرقاق، برقم (٧٨٩٦) (٤/ ٣٥٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأحمد في المسند (٤/١٩٨) وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٥٩٢) (٢/ ١٤١)، و«صحيح الترمذي»، برقم (١٩٠٥) (٢/ ٢٧٣).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٣١).

(٣) القطيفة: كساء له خمل: أي الذي يعمل لها ويهتم بتحصينها، «النهاية» (٤/ ٨٤)، و«فتح الباري» (١١/ ٢٥٩) والخميصة: ثوب خز أو صوف معلم، وقيل: الكساء المربع. «النهاية» (٢/ ٨٠ ـ ٨١)، و«فتح الباري» (١١/ ٢٥٩).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقي من فتنة المال، برقم (٦٤٣٥)، «فتح» (١١/ ٢٥٧).

وقد وصف بأنه إذا أعطي رضي وإن منع سخط كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: ٥٨]. فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله ـ إن حصل له رضي وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة وهو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده..»(١). وقد كان المنافقون يبذلون أعراضهم ـ استهانة بها ـ من أجل الحصول على المال، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان عبد الله بن أُبيّ يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣]، وفي رواية: «يقال لها: «مسيكة»، وأخرى يقال لها: «أميمة»، فكان يكرهها على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

إن الدافع لهذه الجريمة البشعة التي يقدم عليها من انتكست فطرهم، وتدنست أخلاقهم وسخروا بالفضيلة والعفاف، والقيم الإسلامية السامية، هو حب المال والحرص على جمعه وتعداده، والافتخار به على الآخرين، ولو كان على حساب العِرض والفضيلة، يقول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الهمزة: ١ ـ ٨].

يقول القاسمي رحمه الله: «أي أنَّ الذي يحمله على الحط من أقدار الناس، هو جمعه المال وتعديده. أي عدُّه مرة بعد أخرى، شغفاً به وتلذذاً

---

(١) «العبودية» (ص٢٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾، برقم (٣٠٢٩)، «نووي» (١٨/ ٣٦٩).

بإحصائه. لأنه لا يرى عزاً ولا شرفاً ولا مجداً في سواه.

فكلما نظر إلى كثرة ما عنده منه، انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة، بحيث يكون كل ذي فضل ومزية دونه، فهو يهزأ به ويهمزه ويلمزه، ثم لا يخشىٰ أن يصيبه عقوبة على الهمز واللمز وتمزيق العرض ـ لأن غروره بالمال أنساه الموت وصرف عنه ذكر المآل فهو ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾، أي يظن أن ماله الذي جمعه وأحصاه، وبخل بإنفاقه، مُخَلِّدُهُ في الدنيا، فمزيل عنه الموت»[1].

وفي الوقت الحاضر نرى ونشاهد أصنافاً من الناس، ومؤسسات كثيرة إعلامية وصحفية تتاجر بالأعراض ومن بينهم فنانون، وممثلون وغيرهم، يقدمون للناس أفلاماً ومسرحيات هابطة، فيها سخرية بدين الله ـ جلَّ وعلا ـ وبعباده المؤمنين، كل هذا لكسب ضحكات المشاهدين والمتابعين لما تنتجه الجاهلية المعاصرة مقترناً بأحدث الوسائل التقنية في التنفيذ والإخراج كل هذا وذاك للحصول على المال!! ولو كان على حساب الدين والعرض والفضيلة[2].

هذا ما يتعلق بالأسباب الداخلية، وقد يكون هناك أسباب غيرها، لكن حسبي أنني اجتهدت لإبراز أهم الأسباب النفسية التي تدفع بالمستهزئين إلى الوقوع في الاستهزاء، وفي المبحث التالي سوف أعرض لأهم الأسباب الخارجية، والله وحده الموفق والمُعين.

---

(١) «محاسن التأويل» (٧/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤). وانظر: «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٩٧٢) لسيد قطب.

(٢) انظر: «الاستهزاء بالدين وأهله» (ص٢٩) للشيخ د. محمد القحطاني.



المبحث الثاني

«الأَسْبَابُ الخَارِجِيَّة»

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: التقليد الأعمى للأمم السابقة.

المطلب الثاني: الانحراف العقدي في حياة الأمة.

المطلب الثالث: ضعف سلطان العلماء والمحتسبين.

المطلب الرابع: تعطيل حدِّ الردة على الزنادقة والمرتدين.

* * * * *

❑ المطلب الأول ❑

التقليد الأعمى للأمم السابقة

إن مسألة التقليد لم تكن مقتصرةً على الأمم السابقة كاليهود والنصارى أو فارس والروم، بل كل الأمم من عهد نوح إلى عهد عيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ عَبْرَ تاريخ البشرية الطويل، حيث جاء ذمُّ التقليد في كتاب الله تعالى للآباء والأجداد، ووصفهم سبحانه بأنهم: «لا يهتدون» و«لا يعقلون»، **فقال تعالى:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]، **وقال تعالى:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، أي لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي على رسوله من الشرائع المطهرة: ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، أي لم يكن حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، **قال الله تعالى**: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، أي فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خَلَفٌ لهم فيما كانوا فيه، ولهذا **قال تعالى**: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾»[١].

وقال العلَّامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أُمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله مِمَّا تقدم وصفه رغبوا عن ذلك وقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فاكتفوا بتقليد الآباء وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فآباؤهم أجهل الناس وأشدُّهم ضلالاً، وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم وَحَسُنَ قصدهم لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده ووازن بينه وبين غيره تبيَّن له الحق قطعاً واتبعه إن كان منصفاً»[٢].

فأكذب الله هؤلاء المفترين المقلدين للآباء في الضلال فقال: ﴿قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: ٢٤ ـ ٢٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأخبر عن بطلان هذه الحجة، وأنها لا تنجي من عذاب الله تعالى لأنها تقليد من ليس عنده علم، ولا هدى من الله. **والمعنى**: ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير يقلدونهم، ولو كانوا لا علم عندهم، ولا هدى يقلدونهم أيضاً، وهذا شأن من لا غرض له في الهدى، ولا في اتباع الحق، إن غرضه بالتقليد إلّا دفع الحق، والحجة إذا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٧١٧).
(٢) «تيسير الكريم الرحمٰن...» (١/ ٩٧).

لزمته لأنَّه لو كان مقصوده الحق لاتّبعه إذا ظهر له، وقد جئتكم بأهدى مِمَّا وجدتم عليه آباءكم، فلو كنتم ممن يتبع الحق لاتبعتم ما جئتكم به، فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم على حق، فقد جئتكم بأهدى مِمَّا وجدتموهم عليه، وإنما جعلتم تقليدهم جُنَّةً لكم، تدفعون بها الحق الذي جئتكم به»[١].

وقد أخبر ﷺ أن هذه الأمة تَتَّبِعُ سَنن من كان قبلها من الأمم، وتخوض في الباطل كما خاضوا، ويستهزئون برسولهم وبدينهم كما استهزأ من كان قبلهم، **قال الله تعالى:** ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة: ٦٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما أشبه الليلة بالبارحة هؤلاء بنو إسرائيل، شبهنا بهم»[٢].

وعن زيد بن أسلم قال: «الخوض: ما يتكلمون به من الباطل وما يخوضون فيه من أذى الله ورسوله وتكذيبهم إياه»[٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «**يقول تعالى:** أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، **وقوله:** ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾.

قال الحسن: بدينهم، **قوله:** ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ﴾، أي في الكذب والباطل. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، أي: بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، لأنهم لم

(١) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٤٦ ـ ١٤٧).
(٢) «جامع البيان» (٦/ ٤١٣) لابن جرير، و«الدر المنثور» (٢/ ٤٥٨) للسيوطي، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١١٠) لابن تيمية، و«الدرر السنية» (٨/ ١٠٨).
(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٨٣٥)، وجاء النص فيه: «.. وما يخوضون فيه من أمر الله ورسوله»، وهو تحريف فيما يظهر.

يحصل لهم عليها ثواب»[١].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «... وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق، وبين الخوض، لأنَّ فساد الدين: إمَّا أن يقع بالاعتقاد الباطل، والتكلم به، أو يقع في العمل بخلاف الاعتقاد الحق....»[٢].

وجاء في السنة النبوية ما يؤكِّدُ هذا المعنى وهو: تقليد طوائف من هذه الأمة للأمم السابقة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه **عن النبي** ﷺ **قال: «لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم: ذراعاً بذراع، وشبراً بشبر، وباعاً بباع، حتى لو أن أحداً من أولئك دخل جحر ضبٍّ لدخلتموه»، قال أبو هريرة: اقرؤوا ـ إن شئتم ـ** ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ...﴾ الآية، **قالوا: يا رسول الله: كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب؟ قال: «فهل الناس إلّا هم؟»**[٣].

وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه **عن النبي** ﷺ **قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع، فقيل: يا رسول الله كفارس والروم؟ فقال: ومن الناس إلّا أولئك؟»**[٤].

وفي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه **عن النبي** ﷺ **قال: «لتتَّبِعُنَّ سَنَن من كان قبلكم شبراً شبراً، وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ تبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»**[٥].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٥٧٣).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٠١).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن جرير في التفسير (٦/ ٤١٢ ـ ٤١٣) برقم (١٦٩٤٥)، وذكره ابن كثير ـ أيضاً ـ في «التفسير» (٢/ ٥٧٤)، وله شاهد في الصحيحين، والمسانيد والسنن، وسيأتي بعده.

(٤) كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»، باب لتتبعن من كان قبلكم، برقم (٧٣١٩)، «فتح» (١٣/ ٣١٢ ـ ٣١٣).

(٥) البخاري، كتاب الاعتصام، باب لتتبعن سنن من كان قبلكم، نفس الكتاب والباب، =

قال ابن بطَّال: أعلم ﷺ أنَّ أمته ستتبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء كما وقع للأمم قبلهم، وقد أنذر في أحاديث كثيرة بأنَّ الآخر شرٌّ، والساعة لا تقوم إلّا على شرار الناس، وأنَّ الدين إنما يبقى قائماً عند خاصة من الناس»[١].

«وقد وقع معظم ما أنذر به ﷺ وسيقع بقية ذلك»[٢].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ذكر جملةً من الروايات في هذا المعنى: «وهذا كله خرج منه مخرج الخبر عن وقوع ذلك، والذم لمن يفعله، كما كان يخبر عمَّا يفعله الناس بين يدي الساعة من الأشراط والأمور المحرمات. فعلم أنَّ مشابهتها (يعني: هذه الأمة) اليهود والنصارى، وفارس والروم، مِمَّا ذَمَّهُ الله ورسوله، وهو المطلوب. ولا يقال: فإذا كان الكتاب والسنة قد دَلَّا على وقوع ذلك فما فائدة النهي عنه؟ لأنَّ الكتاب والسنة ـ أيضاً ـ قد دَلَّا على أنَّه لا يزال في هذه الأمة طائفة متمسكة بالحق الذي بعث به محمد ﷺ إلى قيام الساعة، وأنها لا تجتمع على ضلالة؛ ففي النهي عن ذلك تكثير هذه الطائفة المنصورة، وتثبيتها، وزيادة إيمانها. فنسأل الله المجيب أن يجعلنا منها»[٣].

هذا وإنَّ ما تَبِعَتْ فيه هذه الأمة الأمم السابقة: السخرية والاستهزاء بالرسول ﷺ وما جاء به من الدين الحق، والملة السمحة، كما فعل من كان قبلنا، وقد أخبر سبحانه في كتابه: أنّه ما من أمة إلّا وقد استهزأت برسولها وما جاءها به من عند الله ـ تبارك وتعالى ـ، **فقال** ﷻ: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ

= برقم (٧٣٢٠)، «فتح» (١٣/ ٣١٢ ـ ٣١٣)، ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنة اليهود والنصارى، برقم (٢٦٦٩)، «نووي» (١٦/ ٤٥٩ ـ ٤٦٠).
(١) «فتح الباري» (١٣/ ٣١٤) لابن حجر.
(٢) المصدر نفسه (١٣/ ٣١٤) لابن حجر.
(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٥٢).

مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ [يس: ٣٠]، **وقال تعالى:** ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ [الزخرف: ٦ ـ ٧].

وقال تعالى مُسَلِّياً عبده ورسوله محمداً ﷺ لمَّا واجهه قومه كفَّارُ مكة بالاستهزاء والتكذيب لدعوته: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠ ـ والأنبياء: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد: ٣٢].

وقد نهى الله ﷻ أمة الإسلام عن كثير من أعمال أهل الكتاب الباطلة، ومنها: السخرية والاستهزاء، **قال تعالى:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا وَقُولُوا ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤].

روى أبو جعفر الطبري عن عطية وغيره: ﴿لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا﴾ قال: «كان أناس من اليهود يقولون: أرعنا سمعك! حتى قالها أناس من المسلمين؛ فكره الله لهم ما قالت اليهود...»[1].

يقول الدكتور محمد أديب الصالح: «فإذا كان التحول عن الذاتية وأصالة التعبير، إلى التقليد حتى في المصطلح الذي اتخذه اليهود في خطابهم للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجابه بالنهي الصريح، والأمر باستعمال البديل، فكيف بالتقليد الأعمى عندما يكون على صعيد المنهج في المعتقد، والعمل والسلوك، مِمَّا له تعلق وصلة بشيء من أمور العقيدة، أو الشريعة، أو الأخلاق؟... إنه الوجود الذاتي للأمة المسلمة الذي لا يكون على الحقيقة، إلا مع الارتباط الواعي بأصول الهداية ومنابعها الخيِّرة،

(١) «جامع البيان» (٢/٤٦٠) شاكر. وانظر: «الدر المنثور» (١/١٩٥ ـ ١٩٦) للسيوطي، و«محاسن التأويل» (١/٣٤٢ ـ ٣٤٢٣) للقاسمي.

والإفادة من توجيهات القرآن والسنة المطهرة، في شأن الموقف الذي يجب اتخاذه من اليهود والنصارى، بِنَاءً على ما يتصفون به من الخلائق التي تبدَّت ملامحها معرّاةً دونما لبس أو احتمال»[١].

❑ المطلب الثاني ❑

الانحراف العقدي في حياة الأمة

إنَّ الأمة الإسلامية كانت في أول أمرها، وخاصةً في القرون الأولى المفضلة تعيش سلامةً في المنهج، وصفاءً في التصور والاعتقاد، وسموّاً في الأخلاق، ثم بعد ذلك ظهر في تاريخ الأمة الفساد في السلوك، «وجرَّ على الأمة الوبال إذ أدَّى إلى اجتياح جحافل التتار دولة الخلافة، وتدفق الصليبيين من الغرب يريدون إطفاء نور الإسلام. ولكن التصورات كانت ما تزال أقرب إلى الصحة، لأنَّ الانحرافات المتعلقة بالتصور كانت محصورة في نطاق محدود. فالفِرق الزائغة قد زاغت، ولكن حجمها بالنسبة لمجموع الأمة ضئيل، والفكر الإرجائي قد وُجِد ولكن كان ما يزال أفكاراً في الأبراج العاجية أكثر منه واقعاً ملموساً في حياة الأمة، لأن دفعة العمل كانت ما تزال قوية دفَّاقةً في كُلِّ اتجاه، بحيث لا تعطلها تلك الأفكار عن الانطلاق. بل كل أصحاب الفكر الإرجائي هُمْ أنفسهم ـ كما سبق القول ـ من العابدين العاملين الفقهاء، ولم يكونوا يتأثرون بفكرهم الخاص فيتركوا العمل أو ينادون بتركه! وكانت الصوفية موجودة، ولكنها ليست السمة الغالبة على المجتمع، بل هي قائمة في ركن منعزل منه تتعبَّد لنفسها بعيداً عن الضوضاء! لذلك فإنَّ الجذوة كما قلنا كانت حيةً وإن غشَّاها الرماد، فإذا نفخ الرماد اشتعلت وتوهجت، وأتت ـ كعادتها ـ بالمعجزات!

---

(١) «اليهود في القرآن والسنة» (٢/ ٧٨). وانظر: «في ظلال القرآن» (٢/ ٩٢٢ ـ ٩٢٣) لسيد قطب.

أمّا حين بدأ الفساد في التصور يتسع حتى يصبح هو الأصل، فقد تغيَّر الأمر، ولم يعد فساد السلوك وحده هو العلة فتنفعه خطبة حماسية أو موعظة مؤثرة، إنما أصبح الأمر يحتاج إلى جهد ضخم يبذل لتصحيح المفاهيم أولاً ثُمَّ تصحيح السلوك بعد ذلك، أو تصحيحهما معاً في ذات الوقت، وهو على أي حال جهد غير يسير»(١).

الأمة كانت تعيش لتحقق «لا إلـه إلا الله» في عالم الواقع، فلم تنزل عن الحدِّ الأدنى المفروض، ولم تهبط عن الاعتقاد بوحدانية الله ـ تبارك وتعالى ـ وإقامة شعائر الدين لله وحده بلا شريك، وعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني(٢).

ولكن عندما بعد العهد، وضعفت أنوار النبوة، وذلك بسبب انتشار فتنتي الشبهات والشهوات المدفوعة من قِبل أعداء الإسلام من الخارج والداخل، وحل الضعف بالأمة فنتج عن ذلك التخلف العقدي الذي تعيشه الأمة اليوم، ونجده يظهر جلياً في الأمر التالي:

حصر مفهوم العبادة الشامل في نطاقه الضيق **«الشعائر التعبدية»** فقط.
بعد أن كانت العبادة هي دين الإسلام كله، فهي «اسم جامع لِكُلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبِرُّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار، واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء

(١) «واقعنا المعاصر» (ص١٦٥ ـ ١٦٦) للشيخ محمد قطب.
(٢) انظر: المصدر نفسه (ص١٦٨).

لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادات لله»[١].

ولهذا كانت الغاية العظمى لخلق الإنس والجن هي العبادة بمفهومها الواسع الشامل الذي فهمه الجيل الأول من الصحابة ﷺ ومن بعدهم، **قال تعالى**: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

«تلك هي العبادة التي كُلِّف بها الإنسان، تشمل الصلاة والنسك ـ أي الشعائر التعبدية ـ وتشمل معها كُلَّ الحياة، وكذلك فَهِمَ الجيل الأول ـ رضوان الله عليهم ـ معنى العبادة، لم يحصروها قط في معنى الشعائر التعبدية، بحيث تصبح اللحظات التي يقومون فيها بأداء الشعائر التعبدية هي وحدها لحظات العبادة، وتكون بقية حياتهم «خارج العبادة؟!».

إنما كان في حِسِّهِمْ أَنَّ حياتهم كلها عبادة، وأنَّ الشعائر إنما هي لحظات مُرَكَّزَة، يتزود الإنسان فيها بالطاقة الروحية التي تعينه على أداء بقية العبادة المطلوبة منه، ولذلك كانوا يحتفلون بها احتفالاً خاصاً، كما يحتفل المسافر بالزاد الذي يعينه على الطريق، وباللحظة التي يحصل فيها على الزاد. كانوا كما وصفهم ربهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ . .﴾ [آل عمران: ١٩١]، أي: في جميع أحوالهم»[٢].

وكان لهذا الانحسار في مفهوم العبادة بل لمفهوم الدين كله أسباب من أهمها:

○ أولاً: الفكر الصوفي:

الذي نشأ في القرن الثاني الهجري[٣]، أو الذي نشأ كردّ فِعْلٍ للترف الذي غشي المجتمع العباسي، وذلك أنَّ بعض الصالحين قد هالهم الفساد

---

(١) «العبودية» (ص٤) لشيخ الإسلام ابن تيمية.
(٢) «مفاهيم ينبغي أن تصحح» (ص١٧٩) للشيخ محمد قطب.
(٣) انظر: «مقدمة ابن خلدون» (ص٤٦٧).

الذي كان يسير في المجتمع من الترف والمجون والانصراف عن الذكر وعن الآخرة، فأرادوا أن ينجوا بأنفسهم، فابتعدوا عن الناس وانعزلوا عن هذا المجتمع الفاسد، ليعيشوا حياة نقية طاهرة مع الله[(١)].

ثمَّ بعد ذلك أخذ التصوف مساراً آخر وهو الانعزال عن المجتمع وترك عمارة الأرض، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وطلب العلم، والدعوة إلى الله تعالى، والاهتمام بالزوايا والأربطة، دون معايشة الناس والصبر عليهم حتى وصل بهم الحال إلى درجة من الانحراف والضلال ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥]، فنتج عن هذا كله «حصر العبادة في الشعائر فحسب» دون بقية مجالات الحياة.

ـ ومن أسباب انحسار مفهوم العبادة، ما ظهر في تاريخ هذه الأمة من تقسيم علمي تعليمي ـ لم يُقْصَدْ بِهِ تفريق الدين وتمزيقه ـ لما يقوم به المسلمون من نشاط إلى: «عبادات» و«معاملات» في علم الفقه الإسلامي.

يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن تقسيم النشاط الإنساني إلى «عبادات» و«معاملات» مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة «الفقه». ومع أنه كان المقصود به ـ في أول الأمر ـ مجرد التقسيم «الفني» الذي هو طابع التأليف العلمي، إلّا أنه ـ مع الأسف ـ أنشأ فيما بعد آثاراً سيئة في التصور، تبعته بعد فترة آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها؛ إذ جعل يترسب في تصورات الناس أنَّ صفة «العبادة» إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله «فقه العبادات» بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط، الذي يتناوله فقه المعاملات»، وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه، فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي، ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة، أو لا

---

(١) انظر: «واقعنا المعاصر» (ص١٣٩)، للشيخ محمد قطب.

يطلب فيه تحقيق هذا الوصف، والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة أولاً وأخيراً.

إن ذلك التقسيم ـ مع مرور الزمن ـ جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا «مسلمين» إذ هُمْ أدّوا نشاط «العبادات» ـ وفق أحكام الإسلام ـ بينما هم يزاولون كل نشاط «المعاملات» وفق منهج آخر، لا يتلقونه من الله، ولكن من إلٰه آخر! هو الذي يشرع لهم في شؤون الحياة، ما لم يأذن به الله!

وهذا وهم كبير، فالإسلام وحدة لا تنفصم، وكل من يفصمه إلى شطرين ـ على هذا النحو ـ فإنما يخرج من هذه الوحدة، أو بتعبير آخر يخرج من هذا الدين»[(١)].

وقد أثمر هذا الانحراف في مفهوم العبادة ثمراتٍ نكدة أثرت في حياة الأمة:

منها: فقدان الشعائر التعبدية الروح الإيمانية، بل أصبحت تُؤَدَى بشكل تقليدي، عديم الفائدة بسبب عزله عن بقية أمور الإسلام.

ومنها: تهاون الناس في بقية جوانب العبادات الأخرى. إذ هي عندهم ليس من العبادة في شيء.

ومنها: ابتداع عبادات جديدة؛ أضافوها إلى الشعائر التعبدية.

ومنها: إقامة العبادة مقام العمل، والاكتفاء برسومها وشعائرها وبما أُحدث فيها من بدع[(٢)].

إن ما ابتليت به الأمة الإسلامية من حصر مفهوم العبادة في الشعائر التعبدية فحسب، خطر عظيم على عقيدة الأمة ومفاهيمها، وهذا الزعم

---

(١) «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» (ص١١٤).
(٢) انظر: «الانحرافات العقدية والعلمية» (ص٩٩ ـ ١٠١).

الباطل مخالف لكتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]. ومخالف ـ أيضاً ـ لهدي النبي ﷺ وطريقته، وواقع دعوته، وما كان عليه أصحابه ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ في تمسكهم بهذا الدين: أصوله وفروعه ـ عقائده وأحكامه، عباداته ومعاملاته، فبلغوا في ذلك أعلى درجات الكمال البشري.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إذا تبيَّن هذا فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلمَّا ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أنَّ المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه، أو أنَّ الخروج منها أكمل، فهو من أجهل الخلق وأضلِّهم»[١].

○ ثانياً: الفكر الإرجائي:

يعتبر هذا الفكر من أخطر الانحرافات التي دخلت على الأمة الإسلامية وأثرت في مسيرتها العلمية والعملية، حيث دخل في تصورات الأمة من الناحية العلمية: ما جلبه علماء الكلام من فلسفات الإغريق ومنطق اليونان حيث ترجمت تلك الكتب، ومزجت ثقافتها بثقافة المسلمين واختلطت بأصول الإسلام ومقوماته الربانية، مِمَّا أثر هذا الانحراف العلمي على الناحية العملية، وذلك بفصل العمل عن الإيمان، وظهر بين المسلمين من الشبهات ما يوحي لهم بأنَّ المعاصي وإن كبرت لا تؤثر في الإيمان، وقبل الخوض في بيان شبهات الفرق الكلامية ومقولاتها وعلاقة ذلك بموضوع البحث لا بُدَّ من لمحة موجزة عن أصناف المرجئة وقد أوصلهم الأشعري في المقالات[٢] إلى ثنتي عشرة فرقة يهمنا منها أربع طوائف.

---

(١) «العبودية» (ص١٩).

(٢) (ص١٣٢ ـ ١٤١). وانظر: «مجموع الفتاوى» (٧/٥٤٣ ـ ٥٤٨).

قال أبو محمد بن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان هذه الطوائف: «فذهب قوم إلى أن الإيمان إنما هو: معرفة الله تعالى بالقلب فقط وإن أظهر اليهودية والنصرانية وسائر أنواع الكفر بلسانه وعبادته، فإذا عرف الله تعالى بقلبه فهو مسلم من أهل الجنَّة، وهذا قول أبي محرز[١] الجهم بن صفوان وأبي الحسن[٢] الأشعري البصري وأصحابهما.

وذهب قوم إلى أن الإيمان هو: إقرار باللسان بالله تعالى وإن اعتقد الكفر بقلبه، فإذا فعل ذلك فهو مؤمن من أهل الجنة، وهذا قول محمد بن كرّام[٣] السجستاني وأصحابه.

وذهب قوم إلى أنَّ الإيمان هو: المعرفة بالقلب، والإقرار باللسان معاً فإذا عرف المرء الدين بقلبه وأقَّر به بلسانه فهو مسلم كامل الإيمان والإسلام. وأنَّ الأعمال لا تسمَّى إيماناً ولكنها شرائع الإيمان، وهذا قول أبي حنيفة النعمان بن ثابت الفقيه[٤] وجماعة من الفقهاء.

---

(١) جهم بن صفوان السمرقندي، من موالي بني راسب، رأس الجهمية، قال الذهبي: الضال المبتدع، قتله نصر بن يسار سنة ١٢٨هـ. انظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ٤٢٦) للذهبي، و«الأعلام» (١/ ١٤١) للزركلي.

(٢) علي بن إسماعيل بن أبي بشر المتكلم البصري صاحب المصنفات منها: «مقالات الإسلاميين»، و«الإبانة»، توفي سنة (٣٢٤هـ). انظر: «شذرات الذهب» (١/ ٣٠٣) لابن العماد، و«الأعلام» (٤/ ٢٦٣) للزركلي، ولعل الصواب: «وأبي الحسن الصالحي»، كما هو في الطحاوية (ص٣٣٢) وما في الفصل هنا من نسبة هذا المذهب إلى الأشعري لعَلَّه تصحيف.

(٣) أبو عبد الله السجستاني الزاهد شيخ الطائفة الكرَّامية وكان من عبَّاد المرجئة، توفي سنة (٢٥٥هـ). انظر: «شذرات الذهب» (١/ ١٣١) لابن العماد، فتأمل أخي المسلم كيف كان حال المرجئة القدامى مع انحرافهم، فما كانوا يتركون العمل والعبادة كما يفعل مرجئة زماننا.

(٤) وسبقه إليه شيخه حماد بن أبي سليمان المتوفى سنة (١٢٠هـ). انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١١٩) لابن تيمية.

وذهب سائر الفقهاء وأصحاب الحديث. . .[(١)] إلى أن الايمان هو: المعرفة بالقلب بالدين والإقرار به باللسان والعمل بالجوارح، وأنَّ كل طاعة وعمل خير فرضاً كان أو نافلة فهي إيمان، وكلّما ازداد الإنسان خيراً ازداد إيمانه، وكلَّما عصى نقص إيمانه. . .»[(٢)].

هذا من حيث تقسيم أقوال الناس في مسألة الإيمان زمن ظهور تلك الفرق: جهم وأتباعه، وابن كرَّام وغيرهما، أمَّا عن واقع هذه الفرق بعد تطورها فيمكن تقسيم الفكر الإرجائي إلى قسمين:

أحدهما ـ ما يعرف بإرجاء الفقهاء: وهو التصديق بالقلب والإقرار باللسان، وهذا هو المنقول عن حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة ـ رحمهما الله ـ[(٣)] ومكمن الخطر في هذا النوع من الإرجاء هو أن العمل غير داخل في مسمى الإيمان عندهم، وقد واجه السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ هذا المذهب الفاسد فَبَيَّنُوا خطره وحذروا الأمة منه.

يقول الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان يحيى بن أبي كثير وقتادة يقولان: ليس من أهل الأهواء شيء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء»[(٤)].

وقال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَفِتنتهم ـ يعني المرجئة ـ أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة (إحدى فرق الخوارج)»[(٥)].

---

(١) وغلط ابن حزم هنا فأدخل المعتزلة والشيعة والخوارج مع أهل الحديث في حقيقة الإيمان عندهم وليس الأمر كما قال رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٣/ ٢٣٧).

(٣) كما سبقت الإشارة إليه آنفاً. ويرجح شيخنا الدكتور سفر الحوالي أنَّ أبا حنيفة رجع عن قوله هذا، وهذا هو الظن به رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: «ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي» (٢/ ٤١٣).

(٤) «الشريعة» (٢/ ٦٨٢) للآجُرّي، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٥/ ٩٩٢) للالكائي.

(٥) «الشريعة» (٢/ ٦٧٨ ـ ٦٧٩) للآجُرِّي، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة (٥/ ٩٨٨).

وقال الزهري رَحِمَهُ اللهُ: «ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضرَّ على أهله من الإرجاء»[(١)]. وهذا الذم من علماء السلف لم يكن المقصود منه الجهمية ومن تبعهم من الفرق الكلامية كالأشاعرة والماتريدية ـ وإن كانوا في الحقيقة يستحقونه وزيادة ـ بل مقصود السلف بهذا الذم مرجئة الفقهاء، «والقضية التي لا ينبغي أن تفوتنا هي أن كلمة المرجئة في اصطلاح هؤلاء العلماء إنما تعني هذا الإرجاء، أي إرجاء الفقهاء، وظلَّ هذا قائماً حتى بعد ظهور الجهمية كما سنرى.

فكلُّ ذَمٍّ أو عيب قيل في المرجئة فهو منصرف لهم وحدهم حتى منتصف القرن الثاني تقريباً، بل هو الأغلب إلى القرن الثالث»[(٢)].

فرحم الله علماء السلف حيث أدركوا خطورة الانحراف عن أصول

---

(١) «الشريعة» (٢/٦٧٦ ـ ٦٧٧)، و«مجموع الفتاوى» (٧/٣٩٥) لابن تيمية.

(٢) «الانحرافات العقدية والعلمية» (ص١١٥)، وهذه القضية عليها دليلين:

أحدهما: أنَّ أئمة السلف الذين ذكروا ذم الإرجاء والمرجئة في عقائدهم قد نصوا على مرجئة الفقهاء بأسمائهم كـ ذر بن عبد الله الهمداني، مات قبل نهاية المائة الأولى. انظر: «السنّة» لعبد الله ابن الإمام أحمد، الآثار رقم (٦١٩، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٩٦)، و«الإبانة» لابن بطة، الأثر رقم (١٢٤٠)، و«أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة» للالكائي، الأثر رقم (١٨١١)، وطلق بن حبيب العنزي، مات بعد التسعين. انظر: «السنّة لعبد الله ابن الإمام أحمد، الآثار رقم (٦٢١، ٦٥٩)، و«الشريعة» للآجري، الأثر رقم (٣٠١)، و«أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة» للالكائي، الأثر رقم (١٨٠٠).

الثاني: أنَّ هؤلاء الأئمة قد نَصُّوا على مذهب مرجئة الفقهاء في الإيمان وأنه قول خلافاً لرأي الجهمية فهو عندهم: المعرفة فقط، ومن ذلك ما رواه اللالكائي بسنده عن وكيع قال: «أهل السنّة يقولون: الإيمان قول وعمل، والمرجئة تقول: الإيمان قول بلا عمل، والجهمية يقولون: الإيمان المعرفة». (٥/١٠٠٠)، برقم (١٨٣٧). وانظر أقوالاً أُخر في: «السنّة» لعبد الله ابن الإمام أحمد، برقم (٧٤٥)، و«الشريعة» للآجري، برقم (٣٠٢، ٣٠٤)، و«الإبانة» لابن بطة، برقم (١٢٦٤). والله تعالى أعلم.

الدين ومقوماته، وإن كان يبدو الانحراف يسيراً لا يَضُرُّ في نظر البعض.

الثاني: ما يعرف بإرجاء الجهمية القائلين بأن الإيمان هو المعرفة فقط، وهذا مذهب قد انقرض القائلون به، «ولكن العجب هو قيام أعظم مذهبين في الإرجاء وهما الأشعرية والماتريدية اللذين يشكلان جملة الظاهرة العامة على أصوله في أنَّ الإيمان هو ما في القلب فقط. حتى إن الماتريدية (وهم من الأحناف غالباً) أَوّلَتْ ما هو مشهور عن أبي حنيفة من أنَّ الإقرار باللسان ركن آخر للإيمان وجعلوه علامة فقط»(١).

وفي نهاية المطاف جمع الأشاعرة والماتريدية بين القسمين: إرجاء الفقهاء، وإرجاء الجهمية حيث «شمل انتشارهما معظم الأقطار الإسلامية وتبنتها أكثر المعاهد الإسلامية شرقاً وغرباً، وهذا من أعظم السمات الفكرية لعصور الانحراف في الفكر الإسلامي والحياة الإسلامية العامة»(٢).

وثَمَّ قضية كُبْرى ظهرت جليةً في الفكر الإرجائي، ألا وهي اعتقاد أنَّ الإيمان مجرد التصديق القلبي فقط، حتى إنَّ النطق بالشهادتين لم يعتبروه من الإيمان. يقول أبو منصور البغدادي ـ أحد أئمة الأشعرية ـ: «وأمَّا الإقرار ـ وهو قول كلمة الشهادة ـ والعمل ـ الذي هو فعل المأمورات وترك المنهيات ـ فليسا من الإيمان ولا يكون تاركهما كافراً، فإن كان تاركاً للإقرار كان مؤمناً عند الله وفي أحكام الدنيا أيضاً»(٣).

ويقول سعد الدين التفتازاني عن مسألة النطق بالشهادتين وحكمه: «إن هاهنا مطلبين: **الأول**: أنَّ الإقرار ليس جزءاً من الإيمان. **والثاني**: أنه (أي الإيمان) التصديق لا غير»(٤).

---

(١) ظاهرة الإرجاء (٢/ ٤١٠).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٢٠).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٩٣).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٤٩٥).

هذا جزء يسير من كلام بعض أئمة الأشعرية، وهذا موقفهم من الشهادتين اللتين هما أعظم أركان الإسلام، وأكبر دعائم الإيمان، أخرجوا النطق بهما من الإيمان حيث «جعلوا **(أي: المرجئة)** أعظم أركان الإسلام ـ التي هي الجزء الظاهر من الإيمان بالله ـ بمنزلة شهادة الشهود أو القرائن الظاهرة التي قد يكون الواقع مخالفاً لها حتى إنهم قالوا: من سَبَّ الله أو قتل الرسول يجوز أن يكون مؤمناً في الباطن ولا يكون كافراً قط إلا إذا انتفى العلم الباطني من قلبه، فإذا قيل لهم قد جاء الكتاب والسنة بتكفير من كان لديه علم وتصديق باطن بدون انقياد بالقلب وإقرار باللسان، قالوا: من ورد فيه النص علمنا انتفاء الإيمان عنه بالنص لا بالنظر والفهم. وما سوى ذلك لا نجزم بكفره وإن أقمنا عليه أحكامه الظاهرة»[١].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: في بيان حكم من قدر على النطق بالشهادتين ولم يتكلَّم بهما: «فأمَّا الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطناً وظاهراً عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها؛ وذهب طائفة من المرجئة وهم جهمية المرجئة وأتباعهما (كالأشاعرة والماتريدية) إلى أنه إذا كان مصدقاً بقلبه كان كافراً في الظاهر دون الباطن. وهو قول مبتدع في الإسلام لم يقله أحد من الأئمة»[٢].

وقال ـ أيضاً ـ: «ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا أنَّ الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه، ولم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان، وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمناً كامل الإيمان بقلبه، وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادي أولياء الله، ويوالي أعداء الله، ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد، ويهين المصاحف، ويكرم الكفَّار غاية

(١) الانحرافات العقدية (ص١١٩).

(٢) المصدر نفسه (ص١١٩) هامش ٢ ولم أقف عليه في كتب شيخ الإسلام، رغم البحث عنه.

الكرامة، ويهين المؤمنين غاية الإهانة، **قالوا «أي: المرجئة»**: وهذه كلها معاصٍ لا تنافي الإيمان الذي في قلبه، بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن.

قالوا: وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار؛ لأنَّ هذه الأقوال أمارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالإقرار والشهود...»[1].

قال أبو عبيد القاسم بن سلَّام في بيان انحراف الجهمية الأوائل: «ولو كان أمر الله ودينه على ما يقول هؤلاء ما عُرف الإسلام من الجاهلية، ولا فرقت الملل بعضها من بعض، إذ كان يرضى منهم بالدعوى على قلوبهم، غير إظهار الإقرار بما جاءت به النبوة، والبراءة ممَّا سواها، وخلع الأنداد والآلهة بالألسنة بعد القلوب، ولو كان هذا يكون مؤمناً ثمَّ شهد رجل بلسانه أنَّ الله ثاني اثنين كما يقول المجوس والزنادقة، أو ثالث ثلاثة كقول النصارى، وصلَّى للصليب، وعبد النيران بعد أن يكون قلبه على المعرفة بالله لكان يلزم قائل هذه المقالة أنْ يجعله مؤمناً مستكملاً الإيمان كإيمان الملائكة والنبيين! فهل يلفظ بهذا أحد يعرف الله أو مؤمن له بكتابٍ أو رسول؟ وهذا عندنا (والقائل: أبو عبيد) كفر لن يبلغ إبليس فمن دونه من الكفار قط!»[2].

وفي بيان غلط المرجئة الأوائل ـ الجهمية ـ والمرجئة المعاصرين ـ الأشاعرة والماتريدية ـ في زعمهم أن المكفرّات كالاستهزاء بالدين، والسجود للصنم، والاستهانة بالقرآن والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كُلُّ هذا وغيره من الأمور العملية التي لا تبلغ في نظرهم درجة الكفر الأكبر المخرج من الملة.

يقول الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللهُ: «... اعلم أن هذه الأربعة (يعني:

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/١٨٨ ـ ١٩٨).

(٢) كتاب الإيمان، ضمن «من كنوز السنّة» (ص٨٠) جمع العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

السجود للصنم، والاستهانة بالقرآن، وسب الرسول، والهزل بالدين) وما شاكلها ليس هي من الكفر العملي إلا من جهة كونها واقعة بعمل الجوارح فيما يظهر للناس، ولكنها لا تقع إلّا مع ذهاب عمل القلب من نيته وإخلاصه ومحبته وانقياده لا يبقى معها شيء من ذلك، فهي وإن كانت عملية في الظاهر فإنها مستلزمة للكفر الاعتقادي ولا بُدَّ، ولم تكن هذه لتقع إلّا من منافق مارق أو معاند مارد. وهل حمل المنافقين على أن: ﴿قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ...﴾ [التوبة: ٧٤]، إلا ذلك مع قولهم لَمَّا سئلوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال الله لهم: ﴿... قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٤ ـ ٦٦]، ونحن لم نُعَرِّفِ الكفر الأصغر بالعملي مطلقاً بل بالعمل المحض الذي لم يستلزم الاعتقاد ولم يناقض قول القلب ولا عمله»[١].

ولهم ـ أي الجهمية والمرجئة ـ أصل آخر غير الذي قدمت الحديث عنه من تفسيرهم الإيمان بالتصديق أو المعرفة فقط أو التصديق والنطق باللسان دون عمل القلب والجوارح، **وهو أنهم يقولون**: «إنَّ كُلَّ من أعلن بما يوجب إطلاق اسم الكفر عليه في الشريعة فإنه جاحد بقلبه»[٢]. فالكفر عندهم الجحود فقط دون سائر الأنواع الأخرى[٣].

○ والجواب عن هذا الأصل الفاسد من وجوه:

الأول: أنه دعوى بلا برهان.

(١) «أعلام السنّة المنشورة» (ص١٢٩). وانظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥) لابن حزم.
(٢) «الفصل» (٣/ ٢٥٩) لابن حزم.
(٣) وهي: كفر الجهل والتكذيب، والعناد والاستكبار، والنفاق. انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨)، و«أعلام السنّة المنشورة» (ص١٢٦) للشيخ حافظ الحكمي.

الثاني: أنه علم غيب لا يعلمه إلا الله ﷻ. وقد قال الرسول ﷺ: «**إني لم أُبْعَثْ لأشق عن قلوب الناس**»[(١)].

فمدّعي هذا مُدَّعٍ علم الغيب، ومدّعي علم الغيب كاذب.

الثالث: أنَّ القرآن والسنة ـ كما ذكرنا ـ قد جاءت النصوص فيهما بخلاف هذا كما تلونا قبل.

الرابع: إن كان الأمر كما تقولون فمن أين اقتصرتم بالإيمان على عقد القلب فقط، ولم تراعوا إقرار اللسان...؟ وكلاهما عندكم مرتبط بالآخرة لا يمكن انفرادهما وهذا يبطل قولكم إنه إذا اعتقد الإيمان بقلبه لم يكن كافراً بإعلانه الكفر فجوَّزتم أنْ يعلن الكفر من يبطن الإيمان فظهر تناقض مذهبهم وعظيم فساده.

الخامس: أنه كان يلزمهم إذا كان إعلان الكفر باللسان دليلاً على الجحد بالقلب والكفر به ولا بُدَّ، فإنَّ إعلان الإيمان باللسان يجب أيضاً أن يكون دليلاً قاطعاً باتاً، ولا بُدَّ على أن في القلب إيماناً وتصديقاً لا شك فيه لأنَّ الله تعالى سمَّى هؤلاء مؤمنين كما سمَّى أولئك كفّاراً، ولا فرق بين الشهادتين.

فإن قالوا: إنَّ الله تعالى قد أخبر عن المنافقين المعلنين بالإيمان المبطنين للكفر والجحد.

قيل لهم: وكذلك أعلمنا الله تعالى وأخبرنا أنَّ إبليس وأهل الكتاب والكفّار بالنبوة أنهم يعلنون الكفر، ويبطنون التصديق ويؤمنون بأنَّ الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع، برقم (٤٣٥١)، «فتح» (٧/ ٦٦٥ ـ ٦٦٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، برقم (١٤٤)، «نووي» (٧/ ١٦٨ ـ ١٦٩).

حق وأَنَّ رسوله حق، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولا فرق، وكل ما مَوَّهْتم به من الباطل والكذب في هؤلاء أمكن الكرَّامية مثله سواء بسواء في المنافقين وقالوا: لم يكفروا قط بإبطانهم الكفر لكن مِمَّا سمّاهم الله بأنهم آمنوا ثمَّ كفروا علمنا بأنهم نطقوا بعد ذلك بالكفر ولا بُدَّ بشهادة الله تعالى بذلك كما ادعيتم أنتم شهادته تعالى على ما في نفوس الكفار ولا فرق.

وكلتا الشهادتين من هاتين الطائفتين كذب على الله ﷻ، وما شهد الله ﷻ قط على إبليس وأولي الكتاب بالكفر إلّا بما أعلنوه من الاستخفاف بالنبوة، وبآدم وبالنبي ﷺ فقط، ولا شهد تعالى قط على المنافقين بالكفر إلّا بما أبطنوه من الكفر فقط، وأمَّا هنا فتحريف للكلم عن مواضعه، وإفك مفترى ونعوذ بالله من الخذلان»[١].

وقد انتشر هذا الفكر الإرجائي في عالمنا الإسلامي وخاصة في مؤسساته التعليمية ومعاهده الدينية، وعند أهل العلم والفتوى والدعوة والإرشاد ـ إلّا من رحم ربك[٢]، وتلقاه العامة من علماء السوء، وفشى في الأمة الشرك الأكبر من الطواف بالقبور، والنذر لها، والذبح عندها تقرباً لأصحابها كما في كثير من أقطار الإسلام، وظهر من بين صفوف الأمة في الوقت الحاضر من يستهزئون بالدين وقيمه وشرائعه بل وبالله ـ تبارك وتعالى ـ، وبرسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على صفحات الصحف السيارة، والمجالات المنحرفة، وعَبْرَ المسلسلات التمثيلية، والمسارح، ومنابرَ إعلامية كثيرة؛ أضحى أهلها يسخرون بالله تعالى وبدينه وبالرسل

---

(١) «الفِصَلْ» (٣/٢٥٩ ـ ٢٦٠) لابن حزم.

(٢) ومنهم علماء المملكة العربية السعودية فقد بقوا إلى اليوم على منهج السلف، وخاصة في الإيمان، وذلك بفضل الله ثُمَّ بفضل دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا لا يعني أنهم وحدهم على هذا المنهج، بل هناك في أقطار العالم الإسلامي بقايا من أهل العلم على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ونسأل المولى ﷻ أن يثبت الجميع على الحق، وأن يهدي ضال المسلمين.

ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كما سيأتي الحديث عنه عند الكلام عن صور الاستهزاء في العصر الحاضر إن شاء الله تعالى، كُلُّ هذا من أعظم أسبابه تبرير أرباب الفكر الإرجائي هذه الهجمة على الإسلام والمسلمين، وإفتاء كثير من علماء هذا الفكر الخبيث أن ارتكاب هذه المكفِّرات لا يؤثر على الإيمان؛ وما هي إلّا معاصي لا تبلغ درجة الكفر: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ..﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦].

«وكان لهذه العقيدة (أي: الإرجاء) آثار عميقة المدى على الأمة، بل هي في عصرنا هذا أساس للضلال والتخبط الواقع في مسألة التكفير، ومنها نشأ التوسع في استخدام «شرط الاستحلال» حتى اشترطوه في أعمال الكفر الصريحة كإهانة المصحف وسب الرسول ﷺ وإلغاء شريعة الله، فقالوا: لا يكفر فاعلها إلّا إذا كان مستحلاً بقلبه!! واشترط بعضهم مُسَاءَلَة المرتد قبل الحكم عليه، فإن أقرَّ أنه يعتقد أن فعله كُفُر، كَفَر، وإن قال أنه مصدق بقلبه، ويعتقد أن الإسلام أفضل مِمَّا هو عليه من الردة لم يكفِّروه»(١).

❑ المطلب الثالث ❑

ضعف سلطان العلماء والمحتسبين

للعلماء في الإسلام منزلة لا يبلغها غيرهم، فهم ورثة الأنبياء، وحملة الشريعة، ودعاة خير وصلاح كما وصفهم الإمام **أحمد بن حنبل** رحمه الله **إذ يقول:** «يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون

---

(١) «الانحرافات العقدية...» (ص١٣٤)، وغرضهم هو التثبت في إطلاق الكفر ـ بزعمهم ـ وهذا إلى أفعال الحمقى أقرب منه إلى أفعال المتثبتين، وإلا فهل يذهب عاقل إلى طاغوت محارب للشريعة أو زعيم حزب شيوعي فيسأله هل تعتقد أن الإسلام أفضل!!؟.

بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم.

ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب...»[1].

فمهمة العلماء لا تقتصر فقط على تعليم الناس الشريعة والحلال والحرام وما يتعلق بالفتيا والقضاء أو ما يسميه أهل زماننا بـ **«المناصب الدينية»**.

إن مُهِمَّة العلماء مع هذا هي الرقابة الكاملة، والحراسة الشديدة لِكُلِّ مجالات الحياة سواء كانت علمية أو عملية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو غير ذلك، وهذا هو جوهر الفرق بين علماء المسلمين ورجال الدين في النصرانية، وهذا بالتأكيد سببه الفرق بين عقيدة التوحيد وعقيدة التثليث، فمصطلح «رجال الدين» ظَاهِرُ مَقْصُودُ الذين أطلقوه على أصحابه، وذلك لغرض في نفوسهم ألا وهو: حصر مهمة العالم في الأمور الشرعية فحسب، سواء كان ذلك في النصرانية ـ وهو الظاهر ـ أو الإسلام ـ وهو الأمر الذي نجح فيه أعداء الإسلام من المشركين والمنافقين ـ في جعل مهمة العالِم في دين الإسلام كرجل الدين عند النصارى.

ولم يكن ضعف العلماء والمحتسبين وليد العصر الحاضر، بل هو قديم نشأ منذ بدء الانحراف وتوسعه في تاريخ هذه الأمة[2] وتتابع بعد ذلك يتراوح بين القلة والكثرة.

---

(١) «الرد على الجهمية والزنادقة» (ص٥٢) ضمن «عقائد السلف».

(٢) انظر: خط الانحراف من كتاب «واقعنا المعاصر» (١١٣ ـ ١٦٤) للشيخ محمد قطب.

يقول الهيتمي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد قال الأذرعي عن قضاة زمنه: ولا يُغتر بقضاة زمننا فإنهم كقريبي عهد بالإسلام، هذا في قضاة زمنه فما بالك بغيرهم. وقد أشار إلى ذلك الفارقي ـ أيضاً ـ في قضاة زمنه مع تقدمه على زمن الأذرعي بكثير»[1].

وفي الوقت الحاضر لا شك أن الضعف أشدّ، لأنَّ الانحراف في الأمة قد بلغ منتهاه في كُلِّ المجالات، ومن ذلك ما يتعلق بالعلم والعلماء ـ إلّا ما رحم ربي وقليل ما هم ـ.

يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن ـ عليه رحمة الله ـ لمَّا ذكر جملة من الكفريات والبدع المحدثات: «ولكن لمَّا كانت الغلبة للجهال والطغام انتقضت عرى الدين وانثلمت أركانه وانطمست منه الأعلام وساعدهم على ذلك من قلَّ حظه ونصيبه من الرؤساء والحكام والمنتسبين من الجهال إلى معرفة الحلال والحرام، فاتبعتهم العامة والجمهور من الأنام ولم يشعروا بما هم عليه من المخالفة والمباينة لدين الله الذي اصطفاه لخالصته وأوليائه وصفوته الكرام، ومع عدم العلم والإعراض عن النظر في آيات الله والفهم لا مندوحة للعامة عن تقليد الرؤساء والسادة، ولا يمكن الانتقال عن المألوف والعادة...»[2].

وكان العلماء في فترة مضت[3] وما زالوا لا يشاركون في الأحداث والمستجدات وخاصة الأمور المتعلقة بالحكم والحكَّام، وعلاقة الأمة مع أعدائها من سلم وحرب، وغير ذلك بحجة أن هذا من السياسة والعلماء بعيدون عنها.

يقول الشيخ «محمد السنوسي» (المتوفى سنة ١٣١٨هـ) في رسالة منه

---

(١) «الإعلام بقواطع الإسلام» (٣٤٦/٢) المطبوع بآخر كتاب «الزواجر».
(٢) «الدرر السنية» (١٩٠/١ ـ ١٩١).
(٣) أي القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين.

إلى وزير الدولة التونسية لمَّا منع من الهجرة إلى خارج تونس حيث كتب في رسالته: «ليعلم سيدي أني رجل بعيد عن معنى السياسة في نازلة الحال بالنظر لذاتي، أمَّا بالنظر لذاتي فغير خفي عن جنابكم أني من خَدَمَة العلم الشريف، وغاية شغلي هو تدريس التوحيد والفقه والعربية بجامع الزيتونة كل يوم تطوعاً لله، وقد **قال ابن خلدون**: إنَّ أهل العلم أبعد الناس عن السياسة...»[(١)].

ويقول شيخ الأزهر في زمانه الشيخ «عبد الرحمٰن الشربيني»[(٢)] في لقاء معه أجرته جريدة «الجوائب المصرية» قال فيه: «... وقد رأيت الكثيرين من إخواني ـ خَدَمَةَ العلم ـ في منصب المشيخة، فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة!! أشدهم فراراً من مظاهر الدنيا الباطلة، كانوا ينقطعون لخدمة العلم ويجلسون للتدريس كسائر العلماء لا يميزهم إلّا فضلهم الباهر، وذكرهم العاطر».

ويقول ـ أيضاً ـ: «حتى إنّ من العلماء من يتزل وهو في موقف الخدمة للعلم الشريف إلى دلالة الطلبة على جريدة فلان ليقرءوها أو مجلة فلان ليتصفَّحوها، ومثل هذا في تاريخ الأزهر من قبل ما سمعت ولا رأيت...»[(٣)].

هذا واقع كثير من العلماء في طول البلاد الإسلامية وعرضها تَخَلَّوا عن كثير من مهماتهم كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جميع

---

(١) «الرحلة الحجازية» (٢/ ١٢) محمد التونسي، نقلاً عن «الانحرافات العقدية والعلمية» (ص٥٩٥).

(٢) هو عبد الرحمٰن بن محمد بن أحمد الشربيني: فقيه شافعي أصولي مصري، ولي الأزهر عام (١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٨م)، توفي سنة (١٣٢٦هـ). انظر: «الأعلام» (٣/ ٣٣٤) للزركلي.

(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٥٠٣) نقلاً عن «الانحرافات العقدية والعلمية» (ص٥٩٧) علي بخيت.

المجالات، والاحتساب على الكبير والصغير والأمير والمأمور، قياماً لله بالأمانة وبياناً للمحجة، وفضحاً لسبيل المفسدين، وكُلُّ هذا بدعوى عدم الخوض في السياسة.

يقول الشيخ مصطفى صبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «والذين جردوا الدين في ديار الإسلام عن السياسة كانوا هم وإخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين، بحجة أنه لا ينبغي لهم وينقص من كرامتهم، ومرادهم حكر السياسة وحصرها لأنفسهم، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة، فيقبلون أيديهم، ويخيلون لهم بذلك أنهم محترمون عندهم، ثُمَّ يفعلون ما يشاؤون بدين الناس ودنياهم، محررين عن احتمال أن يجيء من العلماء أمر بمعروف أو نهي عن منكر، إلّا ما يُعَدُّ من فضول اللسان، أو ما يكمن في القلب، وذلك أضعف الإيمان.

فالعلماء المعتزلون عن السياسة، كأنهم تواطؤا مع كل الساسة، صالحيهم وظالميهم، على أن يكون الأمر بأيديهم ويكون لهم منهم رواتب الإنعام والاحترام، كالخليفة المتنازل عن السلطة وعن كل نفوذ سياسي...»[١].

هذا حال الطيبين من العلماء؛ أمَّا غيرهم مِمَّن فُتِنُوا بزخرف الحياة الدنيا وزينتها وأموالها، وشهوات السلاطين والرؤساء من الملأ المستكبرين، ركضوا وراء ذلك كُلِّه، واتخذوا الدين وسيلة لجمع حطام الدنيا الفانية، ورحم الله الجبرتي[٢] إذ يصف حال العلماء في تلك الفترة التي أَرَّخَ لها، وكيف كان الولاة يرفعون الضرائب والحصص ـ المفروضة على عامة الناس ـ عن العلماء فيقول: «ما عدا البلاد والحصص التي للمشايخ خارجة عن ذلك ولا يؤخذ

---

(١) «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» (٢/ ٨٤) محمد محمد حسين.

(٢) عبد الرحمٰن بن حسن الجبرتي، مؤرخ مصري، ومدوّن وقائعها وسِيَر رجالها في عصره، توفي سنة (١٢٣٧هـ ـ ١٨٢٢م). انظر: «الأعلام» (٣/ ٣٠٤).

منها نصف الفائض ولا ثلثه ولا ربعه، وكذلك من ينتسب لهم أو يحتمي فيهم، ويأخذون الجعالات والهدايا من أصحابها ومن فلاحيهم تحت حمايتها ونظير صيانتها، واغتروا بذلك واعتقدوا دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين بدون القيمة، وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلّا بمقدار حفظ الناموس، مع ترك العمل بالكلية.

وصار بيت أحدهم مثل بيت الأمراء.. واتخذوا الخدم... وأجروا الحبس والتعزير والضرب بالفلقة والكرابيج، واستخدموا كتبة الأقباط وقطاع الجرائم في الإرساليات للبلاد، وقدروا حقَّ طرق لأتباعهم.

وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميرة والفائض والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات والتشكي والتجنِّي مع الأقباط، واستدعاء عظمائهم في جمعياتهم وولائمهم، والاعتناء بشأنهم والتفاخر بترددهم والترداد عليهم، والمهاداة فيما بينهم إلى غير ذلك مِمَّا يطول شرحه.

وأوقع ذلك زيادة مِمَّا هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة، والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية، مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى والاستجداء، وفراغ الأعين، والتطلع للأكل في ولائم الأغنياء والقراء، والمتابعة عليها إن لم يُدْعوا إليها، والتعريض بالطلب، وإظهار الاحتياج؛ لكثرة العيال والأتباع، واتساع الدائرة، وارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة المسقطة للعدالة كالاجتماع في سماع الملاهي، والأغاني والقيان والآلات المطربة... والتفاخر والكذب والازدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين اقتدوا بهم في فعل المحرمات...»[1].

حتى صارت الأمة الإسلامية ـ بسبب حال الكثير من العلماء أمثال

---

(١) نقلاً عن «الانحرافات العقدية والعلمية» (ص٦٠١ ـ ٦٠٢) علي بخيت الزهراني.

الذين وصفهم الجبرتي ـ في حال لا تحسد عليها أشار إليها **الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بقوله**: «... وقد كثر الهرج وخاضت الأمة في الأموال والدماء واشتد الكرب، والبلاء وخفي الحق والهدى، وفشى الجهل والهوى، وكثر الخوض والردى، وغلب الطغيان والعمى، وقلَّ التمسك بالكتاب والسنة بَلْ قلَّ من يعرفهما ويدري حدود ما أنزل الله من الأحكام الشرعية كالإسلام والإيمان والكفر والشرك والنفاق ونحوها»[1]، وهذا بسبب ضعف سلطان العلماء وأهل الاحتساب في القيام بأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ.

هذا حال كثير من علماء تلك الفترة التي تحدث عنها الجبرتي وأشار إليها الشيخ عبد اللطيف، وما زالت تلك الحال، إن لم تكن قد ازدادت اتساعاً وعمقاً في حياة الأمة الإسلامية، ونسي هؤلاء وأولئك مهمة الرسل وأتباعهم من القيام بأمر الله؛ كما كان الرسول الكريم ﷺ وأصحابه قائمين بها لا يخافون لومة لائم يقضون بالحق في كُلِّ قضية ومع كُلِّ أحد، فكيف يستطيع من غرق في الأعطيات والمخصصات أن يقوم بدور العالم الرباني في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر احتساباً لله ﷻ ورجاء ما عنده من الثواب حتى لو أدى ذلك إلى التضحية بالمال والنفس: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

وإذا كان هذا هو غالب أحوال العلماء في العصور المتأخرة، فهذا لا يعني أنه ليس هناك من هو قائم لله بالحجة، ففي هذه العصور مِنَ العلماء مِمنَّ نذروا أنفسهم لله تعالى وقاموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خير قيام على الصغير والكبير والحاكم والمحكوم، وصبروا منهم على الأذى، ولا يجحد ذلك إلا مكابر، وذلك في شتى بقاع العالم الإسلامي.

وعند التأمل لأصناف العلماء والمحتسبين نجدهم لا يخرجون عن ثلاثة أصناف.

---

(١) «الدرر السنية» (٨/ ٢٤٠) جمع العلّامة عبد الرحمٰن بن قاسم رحمه الله.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ذلك: «والناس هنا (يعني: في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) **ثلاثة أقسام**:

قوم لا يقومون إلّا في أهواء نفوسهم؛ فلا يرضون إلّا بما يُعْطونه؛ ولا يغضبون إلّا لِمَا يحرمونه؛ فإذا إعطي أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال والحرام زال غضبه وحصل رضاه، وصار الأمر الذي كان عنده منكراً ـ ينهى عنه ويعاقب عليه، ويذم صاحبه ويغضب عليه ـ مرضيّاً عنده، وصار فاعلاً له وشريكاً فيه، ومعاوناً عليه، ومعادياً لمن نهى عنه وينكر عليه. وهذا غالب في بني آدم، يرى الإنسان ويسمع من ذلك ما لا يحصيه. وسببه: أنَّ الإنسان ظلوم جهول؛ فلذلك لا يعدل، بل ربما كان ظالماً في الحالين، يرى قوماً ينكرون على المتولي ظلمه لرعيته واعتداءه عليهم؛ فيرضى أولئك المنكرين ببعض الشيء فينقلبوا أعواناً له. وأحسن أحوالهم أن يسكتوا عن الإنكار عليه.....

وقوم يقومون ديانة صحيحة، يكونون في ذلك مخلصين لله، مصلحين فيما عملوه ويستقيم لهم ذلك حتى يصبروا على ما أوذوا. وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم من خير أمةٍ أخرجت للناس: يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله.

وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا؛ وهم غالب المؤمنين، فمن فيه دين وله شهوة تجتمع في قلوبهم إرادة الطاعة وإرادة المعصية، وربما غلب هذا تارة وهذا تارة. وهذه القسمة الثلاثية كما قيل: الأنفس ثلاثة: أمَّارة؛ ومطمئنة؛ ولوَّامة. فالأولون هم أهل الأنفس الأمَّارة التي تأمر بالسوء. والأوسطون هم أهل النفوس المطمئنة التي قيل فيها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]. والآخرون هم أهل النفوس اللوّامة التي تفعل الذنب ثُمَّ تلوم عليه؛ وتتلوَّن: تارة كذا، وتارة كذا، وتخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً....»[١].

(١) «مجموع الفتاوى ـ الحسبة» (١٤٧/٢٨ ـ ١٤٨).

وقد كان العلماء والمحتسبون في عهود مضت من تاريخ هذه الأمة يقومون بواجبهم خير قيام، فيحتسبون على الزنادقة والملاحدة والمستهزئين حتى إنَّ الخليفة المهدي «العباسي» أنشأ ديواناً خاصاً للزندقة تتبع من خلاله أوكارهم وقتل منهم خلقاً كثيراً[(١)].

ولنعرض لبعض النماذج المشرفة، والمواقف الصادقة لأهل العلم والحسبة، فمنها ما قام به أهل الحسبة سنة (٧٠١هـ) على الفتح أحمد بن الثقفي إلى القاضي زين الدين بن مخلوف المالكي[(٢)]، وبعد المرافعات وسماع الدعوى على المذكور، ثبت عند القاضي بأنه ينال من الشريعة ويستهزئ بالآيات، ويطرح الشبه حول المشتبهات من الآيات، فحكم القاضي بقتل المذكور، وأمر الوالي أن يضرب عنقه، فضربت عنقه وطيف برأسه في البلد، ونودي عليه: هذا جزاء من طعن في الدين واستهزأ بالله ورسوله ﷺ...»[(٣)].

وفي سنة (٧٤١هـ) رفعت دعوى الحسبة على عثمان الدكاكي، حيث ادُّعِيَ عليه بعظائم لم يؤثر مثلها عن الملاحدة، وقامت عليه البيِّنة بدعوى الألوهية، وأشياء أخرى من التنقيص بالأنبياء، وكان من القائمين المحتسبين والمحرضين على قتل هذا الزنديق الحافظ جمال الدين المزِّي[(٤)]، والحافظ شمس الدين الذهبي[(٥)]، وشهدا أمام القاضي بكفره وزندقته، وحضر تلك

---

(١) انظر: «الزندقة والزنادقة» (١٦١ ـ ١٦٢) عاطف شكري.

(٢) علي بن مخلوف بن ناهض النويري، توفي سنة (٧١٨هـ). انظر: «العبر» (٤/٤٩) للذهبي.

(٣) «البداية والنهاية» (١٤/١٩)، و«شذرات الذهب» (٦/٢) لابن العماد.

(٤) يوسف بن عبد الرحمٰن بن يوسف بن عبد الملك بن يوسف بن علي ابن أبي الزهر، الحلبي الأصل، المزي، أبو الحجاج جمال الدين الحافظ، توفي سنة (٧٤٢هـ). انظر: «الدرر الكامنة» (٤/٤٥٧ ـ ٤٦١).

(٥) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الأصل، الفارقي ثم =

المحاكمة القضاة والأعيان، وبعد إدانة المذكور بما نسب إليه وعجزه عن دفع ما ادّعِيَ عليه، حكم القاضي بإراقه دمه وإن تاب، فأُخذ المذكور وضربت عنقه بدمشق، ونودي عليه: هذا جزاء من يكون على مذهب الاتحادية[1]، وكان يوماً مشهوداً[2].

فرحم الله الحافظَين المِزِّي والذهبي وأولئك القضاة الذين حكموا في أولئك الزنادقة الساخرين بدين الإسلام، وبرسول رب العالمين ﷺ، فقد أدَّوا الأمانة، وقاموا بالحق خير قيام: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقد كان العلماء يشاركون في الأحداث السياسية، ويتدخلون في قضايا الأمة، ويحسمون المواقف في كثير من الأحيان لصالح أمتهم ودينهم، وخير مثال على هذا ما قام به العلّامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ عليه رحمة الله ـ.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وفي يوم الجمعة العشرين منه (أي: من شهر شوال سنة ٦٩٩هـ) ركب نائب السلطنة جمال الدين أقوش الأفرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان[3]، وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية ومعه خلق كثير من المتطوعة والحوارنة لقتال أهل تلك الناحية، بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وضلالهم، وما كانوا عاملوا به العساكر لَمَّا كسرهم التتر وهربوا حين اجتازوا ببلدانهم، وثبوا عليهم ونهبوهم وأخذوا أسلحتهم وخيولهم، وقتلوا كثيراً منهم، لما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى

= الدمشقي، الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، توفي سنة (٧٤٨هـ). انظر: «الدرر الكامنة» (٣/ ٣٣٦ ـ ٣٣٨).

(١) هم القائلون بأنَّ الخالق عين المخلوق.

(٢) «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٠١) لابن كثير. وانظر: «الحسبة في العصر المملوكي» (ص٣٤٨ ـ ٣٤٩).

(٣) جبال بسواحل الشام يكثر فيها الباطنية. انظر: «منهاج السنّة» (٦/ ٤١٨) لابن تيمية.

الشيخ تقي الدين بن تيمية فاستتابهم وَبَيَّنَ للكثير منهم الصواب وحصل بذلك خير كثير، وانتصار كبير على أولئك المفسدين، والتزموا برد ما كانوا أخذوا من أموال الجيش، وقرر عليهم (أي: ابن تيمية) أموالاً كثيرة - يحملونها إلى بيت المال، وأقطعت أراضيهم وضياعهم، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند ولا يلتزمون أحكام الملة، ولا يدينون بدين الحق، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله»(١).

هذه صورة لعالم الأمة الرباني في زمنه تَحْمِلُ في ثنايا سطورها وكلماتها رسالة إلى علماء الأمة في هذا العصر لتقول لهم: إنَّ مهمتكم لا تقتصر على تعليم العلم وتدريسه في المساجد فحسب، بل إنَّ المطلوب منكم أعظم من هذا!! ولن ترضى الأمة لعلمائها عزلة الصوفية، ولا شبهة المرجئة، ولا دعوى العلمانية: بإنه لا دين في السياسة؛ ولا سياسة في الدين.

وأيضاً في هذه الصورة المشرقة لشيخ الإسلام رسالة صامتة إلى أنصاف المثقفين، والمتعالمين، والمتزيِّين بزي العلماء لتقول لهم: إن العلم ليس بالتمني ولا بالمظاهر والألقاب والمناصب، فليس هذا دليلاً على قيمة العالم وفضله ونبله، إنَّ الميزان الحقيقي للعالم الرباني هو: رسوخه في العلم، وثباته في المواقف عندما تحتاجه الأمة في حدث من الأحداث أو نازلة من النوازل، فيبيِّن للأمة الحق من الباطل، والهدى من الضلال، **قال الله تعالى**: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فهذا الضعف الذي أصاب العلماء في هذا العصر كان من أعظم أسباب كثرة الاستهزاء والسخرية بدين الإسلام من قبل الزنادقة والملاحدة ومن لا خلاق لهم في الآخرة من المسلمين الذين يفعلونه بقصد وبدون قصد، فينبغي للأمة عموماً، وللعلماء خصوصاً أن يتفطنوا لهذا الأمر،

(١) «البداية والنهاية» (١٤/١١، ٢٩).

ويعطوه أهمية بالغة، ويتدبروا في عواقبة الوخيمة. وذلك من جرَّاء كتمان الحق أو السكوت عن الباطل وأعظمه الشرك بالله وما يليه من نواقض الإسلام كالاستهزاء بالله تعالى ودينه ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام. وليفتح العلماء آذانهم وقلوبهم ليسمعوا كلام عالم مثلهم، عاش فترة مضت لها ظروفها، ومنكراتها في عصره.

يقول الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «... فوبخ سبحانه الخاصة، وهم العلماء التاركون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما هو أغلظ وأشدّ من توبيخ فاعل المعاصي، فليفتح العلماء لهذه الآية[1] مسامعهم، ويفرجوا لها عن قلوبهم، فإنها قد جاءت بما فيه البيان الشافي لهم بِأَنَّ كفَّهم عن المعاصي مع ترك إنكارهم على أهلها لا يسمن ولا يغني من جوع، بل هُمْ أَشَدُّ حالاً، وأعظم وبالاً من العصاة، فرحم الله عالماً قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو أعظم ما افترضه الله عليه، وأوجب ما أوجب عليه النهوض به.

اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم، وأعنَّا على ذلك، وقوِّنا عليه، ويسره لنا وانصرنا على من تعدى حدودك، وظلم عبادك إنه لا ناصر لنا سواك ولا مستعان غيرك يا مالك يوم الدين إيَّاكَ نعبد وإيَّاكَ نستعين»[2].

❑ المطلب الرابع ❑

تعطيل حَدِّ الرِّدَةِ على المستهزئين، والزنادقة والمرتدين

إنّ من الأمور التي وقع فيها الانحراف في دين الإسلام ما يتعلق

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة: ٦٢].

(٢) «فتح القدير» (٢/ ٥٥ ـ ٥٦).

بتطبيق الشريعة التي هي من أعظم نعم الله على عباده، فجعل شريعته أفضل الشرائع، وخصَّ دين الإسلام بميزة عظيمة هي أنه صالح لكل زمان ومكان، لا كما يزعم أرباب العلمنة في ديار الإسلام: بأنَّه لا يصلح للقرن العشرين، وأحكامه لا يمكن تطبيقها في هذا العصر بدعوى التطور والتقدم، وأن تطبيق بعض أحكامه فيه تشويه أو قسوة تتنافى مع الحضارة المعاصرة.

إنَّ أمر الشعوب عموماً؛ والمسلمين خصوصاً لا يستقيم بدون حاكم مسلم يسوسهم بشريعة الإسلام، ويحكمهم بأحكامه المستنبطة من كلام الله ـ جلا وعلا ـ وكلام رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفق شروط وضوابط القضاء الشرعي في الإسلام، عملاً **بقوله تعالى**: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ الآية [المائدة: ٤٩]. **وقال تعالى**: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ...﴾ الآية [صٓ: ٢٦]، فالخطاب لداود ﷺ ويدخل معه هذه الأمة ونبيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقد أدرك المسلمون عبر تاريخ هذه الأمة الطويل، أنَّه لا بُدّ من نصب إمام يدبر أمورهم، ويرعى شؤونهم، ويقضي بينهم، وأن هذا من أعظم الواجبات[1]، وشرط ذلك كُلِّه تطبيق الشريعة الإسلامية.

يقول الشيخ محمد قطب: «إنَّ ولي الأمر في الإسلام يكون شرط توليته، الذي يعطيه تولي الأمر، والذي بدونه لا تكون له شرعية، هذا الشرط: هو تطبيق شريعة الله، فكيف يكون في حقه إبطال شرط توليته ومصدر شرعيته؟!

وولي الأمر له على رعيته حق السمع والطاعة، ولكن في حدود طاعته

---

(١) انظر: «الأحكام السلطانية» (ص١٩) لأبي يعلى، و«مجموع الفتاوى ـ السياسة الشرعية» (٢٨/ ٣٩٠).

هو لله ورسوله، فإن عصى الله ورسوله ـ بتعطيل شيء من شرع الله ـ فلا طاعة له على الناس»[١]. **يقول الله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما **عن النبي ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره، ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»**[٢].

وفي الصحيحين ـ أيضاً ـ من حيث علي رضي الله عنه **عن النبي ﷺ قال: «إنما الطاعة في المعروف»**[٣]. وفيه قصة السرية التي أَمَّرَ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليها رجلاً من الأنصار، فأمرهم ذلك الأمير بأن يلقوا أنفسهم في النار.

قال النووي رحمه الله: «أجمع العلماء على وجوبها (أي: طاعة ولي الأمر) في غير معصية وعلى تحريمها في المعصية، نقل الإجماع على هذا القاضي عياض[٤] وآخرون»[٥]. وأولو الأمر المشار إليهم في آية النساء المتقدمة آنفاً، وفي الأحاديث النبوية المقصود بهم «من أوجب الله طاعته من الولاة

---

(١) «حول تطبيق الشريعة» (ص٣٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام، ما لم تكن معصية، برقم (٧١٤٤)، «فتح» (١٣، ١٣٠)، ومسلم، في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء من غير معصية وتحريمها في المعصية، برقم (١٨٣٩)، «نووي» (١٢/ ٤٦٨).

(٣) البخاري، ومسلم، نفس الكتاب والباب، الأول برقم (٧١٤٥)، والثاني برقم (١٨٤٠).

(٤) عياض بن موسى أبو الفضل اليحصبي المالكي، أحد الأعلام، توفي سنة (٥٤٤هـ). انظر: «العبر» (٢/ ٤٦٧)، و«شذرات الذهب» (٤/ ١٣٨ ـ ١٣٩) لابن العماد الحنبلي.

(٥) «شرح صحيح مسلم» (١٢/ ٤٦٤).

والأمراء، هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم، وقيل: العلماء. وقيل: الأمراء والعلماء، وأمَّا **من قال**: الصحابة خاصة فقط؛ فقد أخطأ»[١].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان مذهب السلف في طاعة ولاة الأمور: «أنهم لا يوجبون طاعة الإمام في كُلِّ ما يأمر به، بل لا يوجبون طاعته إلّا فيما تسوغ طاعته فيه في الشريعة، فلا يجوِّزون طاعته في معصية الله وإن كان إماماً عادلاً، وإذا أمرهم بطاعة الله فأطاعوه: مثل أن يأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والصدق والعدل والحج والجهاد في سبيل الله، فهم في الحقيقة إنما أطاعوا الله... فأهل السنة لا يطيعون ولاة الأمور مطلقاً، إنما يطيعونهم في ضمن طاعة الرسول ﷺ.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، فأمر بطاعة الله مطلقاً، وأمر بطاعة الرسول لأنه لا يأمر إلّا بطاعة الله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، وجعل طاعة أولي الأمر داخلة في ذلك،... ولم يذكر لهم طاعة ثالثة، لأنَّ ولي الأمر لا يطاع طاعة مطلقة إنما يطاع في المعروف»[٢].

ويوجز **الشيخ حافظ الحكمي** رَحِمَهُ اللَّهُ ما يجب على المسلم تجاه ولاة الأمر فيقول: «الواجب لهم النصيحة بموالاتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتذكيرهم برفق، والصلاة خلفهم والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، والصبر عليهم وإن جاروا، وترك الخروج بالسيف عليهم ما لم يظهروا كفراً بواحاً، وأنَّ لا يُغرَوا بالثناء الكاذب عليهم وأن يدعى لهم بالصلاح والتوفيق»[٣].

---

(١) المصدر نفسه (١٢/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥).
(٢) «منهاج السنّة النبوية» (٣/ ٣٨٧).
(٣) «أعلام السنّة المنشورة» (ص١٦١).

وواجبات ولاة الأمور في الإسلام كثيرة تتلخص في شيئين: أداء الأمانات، والحكم بين الناس بالعدل: ولا يكون تحقيق العدل كما يحب الله سبحانه ويرضى إلا بتطبيق شريعته. **يقول الله تعالى:** ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الآية من أمهات الأحكام تضمنت جميع الدين والشرع.

وقد اختلف في المخاطب بها؛ فقال عليّ بن أبي طالب، وزيد بن أسلم، وشهر حوشب وابن زيد: هذا خطاب لولاة المسلمين خاصة، فهي للنبي ﷺ وأُمَرائه، ثُمّ تتناول من بعدهم.

وقال ابن جريج وغيره: ذلك خطاب للنبي ﷺ خاصة في أمر مفتاح الكعبة.

والأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال[1] ورد الظلامات والعدل في الحكومات، وهذا اختيار الطبري[2]. وتتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرّز في الشهادات وغير ذلك»، إلى أن قال: «**قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ...﴾، وهذا خطاب للولاة والأمراء والحكّام، ويدخل في ذلك بالمعنى جميع الخلق كما ذكرنا في أداء الأمانات»[3].

---

(١) يقسّم شيخ الإسلام الأموال السلطانية إلى ثلاثة أصناف: الغنيمة، والصدقة، والفيء. انظر: مجموع الفتاوى «السياسة الشرعية» (٢٨/ ٢٦٩).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٩٢) شاكر.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٦٥ ـ ١٦٧). وانظر: مجموع الفتاوى «السياسة الشرعية» (٢٨/ ٢٤٥) لابن تيمية.

قال العلّامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا يشمل الحكم بينهم في الأموال والأعراض القليل من ذلك والكثير على القريب والبعيد والبر والفاجر والولي والعدو. والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شرعه على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به، ولمّا كانت هذه أوامر حسنة عادلة قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾، وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا يخفى عليه خافية ويعلم من مصالح العباد ما لا يعلمون»[1].

وقد ابتلي المسلمون في عهود الضعف ببعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا سبباً في الانحراف والفساد.

يقول ابن أبي العز[2] رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما وقع الفساد في العالم من ثلاث فرق، **كما قال عبد الله بن المبارك** رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبارُ سوءٍ ورهبانها

فالملوك الجائرة: يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة، ويعارضونها بها، ويقدمونها على حكم الله ورسوله.

وأحبار السوء: وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة، المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله، وتحريم ما أباحه، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وإطلاق ما قيده، وتقييد ما أطلقه، ونحو ذلك.

والرهبان: وهم جُهَّالُ المتصوفة، المعترضون على حقائق الإيمان والشرع، بالأذواق والمواجيد، والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية،

---

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنّان» (٢/ ٤٢).

(٢) العلامة صدر الدين محمد بن علاء الدين، علي بن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي، الأذرعي، الصالحي، الدمشقي، توفي سنة (٧٩٢هـ). انظر: «شذرات الذهب» (٦/ ٣٢٦) لابن العماد الحنبلي.

المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان نبيِّه ﷺ، والتعوُّض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان، وحظوظ النفس.

فقال الأولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة! **وقال الآخرون**: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل! **وقال أصحاب الذوق**: إذا تعارض الذوق والكشف، وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف»[(١)].

هذا مع بقاء أولئك الخلفاء والأمراء معترفين بشريعة الله تعالى في جميع مجالات الحياة، إلّا ما تعارض مع بعض أهوائهم ورغباتهم في قضايا جزئية لا تصل إلى إبطال شيء من الشرع المطهَّر واستبدال اجتهاد البشر به، وزبالة أذهانهم، وفتات موائدهم.

أمَّا العصر الحاضر فقد شهد القاصي والداني، والعدو والصديق، بجرأة المشرعين من دون الله ـ تبارك وتعالى ـ وافترائهم عندما هجموا على سلطان الشريعة الإسلامية فاقتلعوه من جذوره؛ وذلك بإبطال المحاكم الشرعية في معظم أقطار العالم الإسلامي، بدعوى أن أحكام الإسلام لا يصلح تطبيقها في العصر الحاضر، وإنما كانت صالحة لفترة مضت في تاريخ هذه الأمة.

ونصب أعداء الإسلام من المستعمرين والمستشرقين في مناطق حَسَّاسَةٍ من ديار الإسلام معاقل ينطلقون من خلالها لتحقيق أهدافهم فيما لم يصلوا إليه من ديار المسلمين، حتى أنهم كانوا ـ وما زالوا ـ يحاولون نبذ الشريعة بالكلية، وإحلال القوانين الأوربية محلّها، فإذا لم يمكنهم ذلك انتقلوا إلى ما هو أَقَلُّ درجة: وهو تعطيل بعض الأحكام الشرعية أو الحدود المقررة في كتاب الله تعالى وسنة نبيِّه ﷺ كإلغاء الجهاد في سبيل الله ـ جلَّ وعلا ـ وإبطال حَدِّ الردّة على من ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام كالاستهزاء

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٠٤).

بالدين، والسخرية من رب العالمين، والتنقص للأنبياء والمرسلين.

ووجدوا من بعض حكام المسلمين من يوافق أعداء الإسلام في تعطيل الحدود عامة، أو حَدِّ الردّة خاصة، حتى أصبح العالم كله لا تسمع فيه إقامة حَدِّ الردة على زنديق أو مُرْتَدٍّ أو مستهزئ طاعن في الشريعة، أو ما هو أعظم من ذلك السب والشتم لرب العالمين، تعالى عَمَّا يقول الظالمون علواً كبيراً، ورحم الله **الإمام ابن القيِّم حيث قال** في أمثال هؤلاء المعطلين لحدود الله، والمعينين من ولاة أمور المسلمين على مظاهر الشرك والبدع في ديار الإسلام: «ولقد كان من الواجب على ملوك الإسلام أن يمنعوا هؤلاء من هذا وأمثاله، لِمَا فيه من الإعانة على الكفر، وتعظيم شعائره، فالمساعد على ذلك، والمعين عليه شريك للفاعل. ولكن لَمَّا هان عليهم دينُ الإسلام، وكان السحت الذي يأخذونه منهم أَحَبَّ إليهم من الله ﷻ ورسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ أَقَرُّوهم على ذلك ومكَّنُوهم منه»[1].

وعندما تُعَطَّلُ شريعة الله ـ كُلِّياً أو جُزْئياً ـ فلا بُدَّ في مقابل هذا إحلال قوانين البشر محل شريعة الله ـ تبارك وتعالى ـ وتتعدد السلطات: سلطة لله وسلطة للأنظمة والقوانين، وتتعدد كذلك العبودية: فواحدة لله ـ جل وعلا ـ وأخرى للمشرعين من دون الله تعالى.

يقول الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأمَّا حين تتوزع السلطة، وتتعدد مصادر التلقي، حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما لغيره في الأنظمة والشرائع، وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا، حينئذٍ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين، وبين اتجاهين مختلفين، ومنهجين مختلفين، وحينئذٍ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتَّى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٨٩).

إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨]»[(١)].

فإذا أراد ولاة أمور المسلمين ـ في ديار الإسلام كلها ـ تحقيق الأمن والاستقرار والرخاء فعليهم أن يخضعوا لشريعة الله التي لا نقص فيها ولا قصور، وليقيموا الحدود الشرعية ففي إقامتها منافع عظيمة ومصالح جليلة، من أكبرها إزالة الفساد في الأرض، ونشر الخير والرزق الذي بسببه صلاح الاقتصاد الذي تدهور بسبب انتشار الربا، جاء مصداق هذا في حديث أبي هريرة رضي الله عنه **عن النبي ﷺ قال: «إقامة حدٍّ من حدود الله، خير من مطر أربعين ليلة، في بلاد الله عز وجل»**[(٢)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقاً على هذا الحديث: «وهذا لأنَّ المعاصي (قُلْتُ: فكيف بنواقض الإسلام كالاستهزاء بالدين) سبب لنقص الرزق والخوف من العدو، كما يَدُلُّ عليه الكتاب والسنة. فإذا أقيمت الحدود، ظهرت طاعة الله، ونقصت معصية الله تعالى، فحصل الرزق والنصر»[(٣)].

وبهذا العرض لأبرز الأسباب الداخلية والخارجية لظاهرة الاستهزاء بالدين، يصل بنا الحديث ـ حسب الخطة ـ إلى الباب الثاني: صور الاستهزاء، وبالله تعالى التوفيق، ومنه العون والسداد.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٢/٨٩٦).

(٢) أخرجه النسائي، كتاب قطع السارق، باب الترغيب في إقامة الحدود، برقم (٧٣٩٢) (٤/٣٣٥)، وابن ماجه، أبواب الحدود، باب إقامة الحدود، برقم (٢٥٦٥) (٢/٨٢)، والحديث حسن. انظر: «السلسلة الصحيحة»، برقم (٢٣١)، و«صحيح سنن النسائي»، برقم (٤٥٥٥) (٣/١٠١٣)، و«صحيح سنن ابن ماجه»، برقم (٢٠٥٦) (٢/٧٨)، كلها للعلّامة الشيخ الألباني.

(٣) «مجموع الفتاوى ـ السياسة الشرعية» (٢٨/٣٠١ ـ ٣٠٢).



الباب الثاني

صور الاستهزاء




الفصل الأول

صور من الاستهزاء في الأمم الماضية

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: صور من الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ.

المبحث الثاني: صور من الاستهزاء بالدين.

المبحث الثالث: صور من الاستهزاء بالرسل عليهم الصلاة والسلام.




المبحث الأول

صور من الاستهزاء بالله تعالى

تقدم معنا في «التمهيد» الكلام على أن أساس دين الإسلام ومبناه، يقوم على قاعدتين عظيمتين، «التعظيم، والمحبة» فما لم يكن المسلم معظماً ومحباً لله ـ تبارك وتعالى ـ ولدينه ورسله، فقد نقض هاتين القاعدتين من أساسها، فالواقع في الاستهزاء والسخرية والتنقص بالخالق ودينه ورسله، قد أتى بما يناقض الإيمان بالكلية، فاستحق لعنة الله تعالى، في الدنيا والآخرة، والعذاب المهين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

فالواقع في الأذى لله ـ تبارك وتعالى ـ بالنقص والعيب متوعد باللعنة والعذاب المهين.

قال العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

إنها نزلت في المشركين واليهود والنصارى[١]، وصفوا الله تعالى بالولد وكذَّبوا رسوله وشجُّوا وجهه وكسروا رباعيته، وقالوا: مجنون شاعر ساحر كذَّاب[٢]. ومعنى أذى الله: وصفه بما هو منزه عنه من العيب

(١) وهناك قولان في سبب نزول الآية غير ما ذكرت، وهو: أنها نزلت فيمن طعن على رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين اتخذ صفية بنت حيي، وقيل: نزلت في المصورين. انظر: «زاد المسير» (٦/ ٤٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٩٨)، و«تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٨٢٣).

(٢) سيأتي تفصيل ذلك عند الكلام عن صور الاستهزاء بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في العصور الأولى.

والنقص وعصيانه(١).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختلف العلماء في أذية الله بماذا تكون؟ فقال الجمهور من العلماء: معناه بالكفر ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به؛ كقول اليهود لعنهم الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ [المائدة: ٦٤]. والنصارى: المسيح ابن الله، والمشركون: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه...»(٢).

وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «**يشتمني ابن آدم، وما ينبغي له أن يشتمني، ويكَذِّبني وما ينبغي له، أما شتمه فقوله: إنَّ لي ولداً، وأمَّا تكذيبُهُ، فقوله: ليس يُعيدُني كما بدأني**»(٣).

وإذن: فلا بدَّ من الوقوف على بعض الصور في جانب الاستهزاء والتنقص لله عز وجل ممَّن غلبت عليهم شقوتهم، واتخذوا سبيل الغي سبيلاً، فاعتدوا في حق الله تعالى ووصفوه بالعيب والنقص، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

فمن تلك الصور: ما ظهر في تاريخ البشرية(٤) على يد قوم نوح ـ عليه

---

(١) انظر: «زاد المسير» (٦/ ٤١٩ ـ ٤٢٠) لابن الجوزي.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ١٥٢ ـ ١٥٣)، وانظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥٤٣) للبغوي.

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، برقم (٣١٩٣) «فتح» (٦/ ٣٣١)، وفي التفسير، باب قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾، برقم (٤٩٧٥).

(٤) كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على التوحيد، ثم ظهر الشرك في قوم نوح عليه السلام، قاله ابن عباس، وصح عن النبي ﷺ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: «**نعم مُكَلَّم**»، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «**عشرة قرون**». انظر: «صحيح ابن حبان» (١٤/ ٦٩) كتاب التأريخ، باب بدء الخلق، برقم (٦١٩٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢١٠): «رواه =

الصلاة والسلام ـ، من الشرك به ﷻ على شكل عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، وقد دخلت الشبهة على قوم نوح في عبادة تلك الأصنام مع أنها أسماء رجالٍ صالحين في قوم نوحٍ كما روى البخاري عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: «... **أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم عُبِدَتْ**»[1].

فعبدت هذه الأصنام من دون الله تعالى، واتخذ المشركون من قوم نوحٍ الله ـ تبارك وتعالى ـ وتوحيده سُخرياً؛ بعبادة تلك الأصنام من دون الله، **قال شيخ الإسلام**: «وذلك أن هؤلاء الضالين مستخفون بتوحيد الله يعظمون دعاء غيره من الأمور، وإذا أمروا بالتوحيد ونهوا عن الشرك استخفوا به،... فاستهزءوا بالرسول لـمَّا نهاهم عن الشرك، وقال تعالى عن المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]»[2].

وقال أيضاً: «... فإن الاستهزاء بهذه الأمور[3] متلازم، فإنَّ من استهزأ بآيات الله تعالى التي جاء بها الرسول ﷺ فهو مستهزئ بالرسول ﷺ ضرورة، ومن استهزأ بالرسول ﷺ فهو مستهزئ برسالته حقيقة، ومن استهزأ

= الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن خليد الحلبي، وهو ثقة...».

(١) «فتح» (٨/ ٥٣٥)، برقم (٤٩٢٠)، وقد عقد الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين. وساق فيه آية نوح وأثر ابن عباس الذي ذكرت آنفاً وفوائد أخر من مسائل الباب وغيرها. انظر: «فتح المجيد» (ص٢٤٢ ـ ٢٥٢).

(٢) «تلخيص الاستغاثة» (ص٣٤٦ ـ ٣٤٧) لابن تيمية.

(٣) يقصد رحمه الله الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كما في آية التوبة.

بآيات الله ورسوله فهو مستهزئ به، ومن استهزأ بالله فإنه مستهزئ بآياته ورسوله بطريق الأولى»(١)، **وقال ابن القيم**: «... وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبية، وتنقص لعظمة الإلهية، وسوء ظنٍّ برب العالمين»(٢).

وهذا الاستهزاء والتنقص لم يكن من قوم نوح وحدهم، بل شاركهم في ذلك من جاء بعدهم من عاد، وثمود، وأهل سدوم، وأهل مدين، وغيرهم(٣).

حتى جاء عهد إبراهيم خليل الرحمٰن(٤)، فَبُعِثَ إلى قومٍ عكفوا على عبادة الأصنام، محتجين بأنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، **قال تعالى**: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٤].

فجاهد إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تلك الأصنام وعابديها، وكان من بينهم والده فقد أشرب حُبَّ تلك الأصنام، **قال تعالى**: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ

---

(١) «تلخيص الاستغاثة» (ص٣٤٦).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٦٠ ـ ٦١).

(٣) سيأتي الحديث عن هذه الأمم في المبحث الثاني من هذا الفصل، عند الكلام عن صور الاستهزاء بالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

(٤) ثبت من حديث أبي أمامة ﷺ وتقدم قريباً، وفيه، قال: كم بين نوح وإبراهيم، قال: «**عشرة قرون**»...، قال الهيثمي (٨/ ٢١٠): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن خليد الحلبي وهو ثقة». وانظر تمام تخريجه في: «صحيح ابن حبان» (١٤/ ٦٩ ـ ٧٠) هامش (١) من تعليق المحقق الأستاذ شعيب الأرناؤوط.

﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۝٤٥﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٥] فكان ردُّ من أشرب حُبَّ الأصنام، وقدَّم ما وجد عليه آباءه، تجاه هذا الخطاب اللين المؤدب: الوعيد والتهديد: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝٤٦﴾ [مريم: ٤٦]، فجاشت عاطفة إبراهيم عليه السلام تجاه أبيه آزر[1]، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ۝٤٧﴾ [مريم: ٤٧]، ومع هذه العاطفة لم يغفل إبراهيم عن طبيعة العلاقة بين الشرك والتوحيد التي تقوم على البراء، فقال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ [مريم: ٤٨]، وما كان استغفاره لأبيه إلّا إنفاذاً للوعد الذي وعد أباه.

ويتجلى هذا الموقف من خليل الرحمٰن أمام تلك الآلهة المُدَّعاة التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عن عابديها شيئاً، بأن عزم على تحطيمها في الواقع بعد أن أيس من تحطيمها من قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾ [الأنبياء: ٥٧ ـ ٥٩]، فيغضب قومه من تحطيمه للأصنام، ويتآمرون عليه، ويكيدون: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥﴾ [الأنبياء: ٦١ ـ ٦٥]، ولكن إلفُ ما عليه الآباء

---

(١) قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٧٤﴾ [الأنعام: ٧٤]. قال ابن كثير: هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم آزر وجمهور أهل العلم منهم ابن عباس على أن اسم أبيه «تارح»، وأهل الكتاب يقولون: «تارخ» بالخاء المعجمة، فقيل: إنه لُقِّبَ بصنم يعبده اسمه آزر، وقال ابن جرير: والصواب أن اسمه آزر، ولعل له اسمان علمان أو أحدهما لقب والآخر علم، وهذا الذي قاله محتمل، والله أعلم». «البداية والنهاية» (١/١٣٦ ـ ١٣٧).

والأجداد طغى في قلوبهم، وظهر على ألسنتهم وتصرفاتهم، فردّوا على إبراهيم بعد أن نكسوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، فكان من حجة الله وبرهانه الذي آتاه نبيه وخليله، أن قال لهم: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦ ـ ٦٧].

فكانت النهاية أن ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٢].

وقد وقع بنو إسرائيل فيما وقع فيه من قبلهم، من عبادة غير الله، وفي عهد نبي الله موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو حيٌّ بين ظهرانيهم، قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ[(١)] ﴿٨٥﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: ٨٣ ـ ٨٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فانظر إلى هؤلاء، كيف اتخذوا إلهاً مصنوعاً مصوغاً من جوهر أرضي، إنما يكون تحت التراب، محتاجاً إلى سبك بالنار، وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقاً بمطارق الحديد، مقلباً في النار مرة بعد مرة، قد نحت بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل، والضيم، وجعلوه إلٰه موسى، ونسبوه إلى الضلال، حيث ذهب يطلب إلهاً غيره»[(٢)]، فأي سخرية واستهزاء بمقام

---

(١) وكان اسمه موسى بن ظفر، وقع في أرض مصر فدخل في بني إسرائيل. انظر: «اللهفان» (٢/ ٣٠٤) لابن القيم.

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٣٠١).

الربوبية، ومنزلة الألوهية فوق هذا السخف والهراء من بني إسرائيل مع أنهم جمعوا له الحلي بأنفسهم، وشاهدوا صانعه يصنعه، ويصليه النار، ويدقُّه بالمطرقة، ويسطو عليه بالمبرد، ويُقلبه بيديه ظهراً لبطن[١]. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢]، **قال أبو قلابة**: «هي لكلِّ مفترٍ إلى يوم القيامة أن يُذله الله»[٢].

ومن صور الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ: ما قالته يهود عن ربها ﷻ من أنه فقير؛ وهم أغنياء، وقد ذكر الله ﷻ مقالتهم هذه في كتابه، فقال: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١][٣].

○ في سبب نزولها قولان:

أحدهما: أنَّ أبا بكر الصديق ﷺ دخل بيت مدراس اليهود، فوجدهم قد اجتمعوا على رجل منهم، اسمه فنحاص، فقال له أبو بكر: اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أنَّ محمداً رسول الله، فقال: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً عنّا ما استقرض منّا، فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة؛ وقال: والله لولا العهد الذي بيننا لضربت عنقك، فذهب فنحاص يشكو إلى النبي ﷺ وأخبره أبو بكر بما قاله، فجحد فنحاص، فنزلت هذه الآية، ونزل فيما بلغ من أبي بكر من الغضب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ﴾ [آل عمران: ١٨٦][٤].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢/ ٣٠٠)، و«الفرقان بين الحق والباطل» (ص١٥٥) لابن تيمية.
(٢) انظر: «الفرقان» (١٥٨) لابن تيمية.
(٣) انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٢٧)، و«هداية الحيارى» (ص٢٠٣ ـ ٢٠٤).
(٤) أخرجه ابن إسحاق، مجلد (١/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩)، وابن جرير في «التفسير» (٧/ ٤٤١ ـ =

الثاني: أنَّهُ لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ...﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قالت اليهود: إنما يستقرض الفقير من الغني، فنزلت هذه الآية[١].

يقول القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما كان مثل هذا القول، سواء كان عن اعتقاد، أو استهزاء بالقرآن والرسول ﷺ ـ وهو الظاهر ـ لا يصدر إلا عن تمرد عظيم لكونه في غاية العظم والهول، أشار إلى وعيده الشديد بقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾، أي: ما قالوه من هذه العظيمة الشنعاء في صحائف الحفظة»[٢].

ونلحظ في هذه الآية الكريمة التي تكشف عن خبث اليهود ومكرهم، وطعنهم حتى في الله ـ تبارك وتعالى ـ وما تلاها من آيات في ذكر الموت وأنه مصير كل مخلوق، وفي إشعار الأمة المسلمة في المدينة آنذاك بأنهم سيسمعون أذًى كثيراً، نلحظ في ذلك كله؛ تبصرةً بطبيعة أعداء هذه الأمة ـ مشركين وملحدين، وأهل كتاب ـ وبطبيعة العقبات والفخاخ المرصودة في طريقها، وبطبيعة الآلام والتضحيات والأذى والابتلاء، ويعلق قلوبها وأبصارها بما هنالك، بما عند الله ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن

= ٤٤٢، شاكر)، برقم (٨٣٠٠)، والواحدي في «أسباب نزول القرآن» (ص١٣٧)، برقم (٢٧٥)، والسيوطي في «أسباب النزول» (ص٩٢)، برقم (٢٤٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (١/ ٥١٤)، وقال عنه الشيخ أحمد شاكر في «عمدة التفسير» (٣/ ٨٢): «وإسناده جيد أو صحيح».

(١) «زاد المسير» (١/ ٥١٤).

(٢) «محاسن التأويل» (٢/ ١٨٤). وانظر: «اليهود في الكتاب والسنة» (٤/ ١١٨) محمد أديب صالح.

تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦][(١)].

ومن تلك الصور والمقولات الشنيعة التي تفوه بها بعض أشقياء اليهود ولم ينكرها أحدٌ منهم، ولذلك نسبت إليهم جميعاً ما ذكره الله ﷻ فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا . . . الآية﴾ [المائدة: ٦٤].

قال أبو جعفر: «وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن جرأة اليهود على ربهم ووصفهم إياه بما ليس من صفته، توبيخاً لهم بذلك، وتعريفاً منه نبيه ﷺ قديم جهلهم واغترارهم به، وإنكارهم جميع جميل أياديه عندهم، وكثرة صفحه عنهم، وعفوه عن عظيم إجرامهم...»[(٢)].

○ وفي سبب قولهم هذا ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الله تعالى كان قد بسط لهم الرزق، فلما عصوا الله تعالى في أمر محمد ﷺ وكفروا به كفَّ عنهم بعض ما كان بسط لهم، فقالوا: يد الله مغلولة.

الثاني: أنَّ الله تعالى استقرض منهم كما استقرض من هذه الأمة، فقالوا: إنَّ الله بخيل، ويده مغلولة فهو يستقرضنا.

الثالث: ما أشار إليه الرازي في تفسيره، فقال: «لعل القوم لمَّا رأوا أصحاب رسول الله ﷺ في غاية الشدّة والفقر والحاجة قالوا على سبيل السخرية والاستهزاء: إنَّ محمداً فقير مغلول اليد، فلمَّا قالوا ذلك حكى الله عنهم هذا الكلام»[(٣)].

---

(١) انظر: «في ظلال القرآن» (١/٥٣٦) لسيد قطب.
(٢) «جامع البيان» (١٠/٤٥٠ ـ شاكر).
(٣) «زاد المسير» (٢/٣٩٢) لابن الجوزي. وانظر: «جامع البيان» (١٠/٤٥٢ ـ ٥٤٣) ـ

وقد ردَّ الله ﷻ ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه؛ فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، وهكذا وقع لهم، فالجزاء من جنس العمل، فإن عندهم من البخل والحسد والبغض والجبن والذلة أمر عظيم، ثم أبطل الله ﷻ فريتهم بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، أي بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، وهو الذي ما بخلقه من نعمه فمنه وحده لا شريك له، الذي خلق لنا كلَّ شيء مما نحتاج إليه، في ليلنا ونهارنا، وحضرنا وسفرنا، وفي جميع أحوالنا، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤][(١)].

وفي الباب من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، **قال: «يَدُ الله ملأى لا يغيضها[(٢)] نفقة، سَحَّاءُ الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق الله السموات والأرض فإنه لم يغض (ينقص) ما في يده، وقال: عرشه على الماء، وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع»**[(٣)].

وهنا مبحث مُهِمٌّ له تعلق بقول اليهود: «إن الله فقير»، وقولهم: «يد الله مغلولة»، وهو: هل بطلان وصف الله بالنقص والعيب هو تنزيه منه لذاته. أم العلة في النهي عنه هي التشبيه والتمثيل؟

= للطبري، و«التفسير الكبير» (١٢/ ٤٠ ـ ٤١) للرازي.

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٢٠/ ١٢٠) لابن كثير.

(٢) أي: لا ينقصها، يقال: غاض الماء يغيض إذا نقص. انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٤٠٦).

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، برقم (٧٤١١)، «فتح» (١٣/ ٤٠٤)، ومسلم في الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، برقم (٩٩٣) «نووي» (٧/ ٨٣ ـ ٨٤). ومعنى خفض الميزان ورفعه: أي: أن الله يخفض ويرفع ميزان أعمال العباد المرتفعة إليه، وأرزاقهم النازلة من عنده. انظر: «النهاية» (٤/ ٦٠) لابن الأثير.

ذهب أهل الكلام المذموم إلى أن «جهة البطلان في اتصافه بها: التشبيه والتمثيل فلا يتوقف في انتفائها عنه على ثبوت انتفاء التشبيه، كما يفعله أهل الكلام الباطل، حيث صرحوا بأنه لا يقوم دليل عقلي على انتفاء النقائص والعيوب عنه، وإنما تنفى عنه لاستلزامها التشبيه والتمثيل.

وهؤلاء إذا قال لهم الواصفون لله سبحانه بهذه الصفات: نحن نُثبتها له على وجهٍ لا يماثل فيها خلقه، بل نثبت له فقراً وصاحبةً وإيلاداً، لا يماثل فيه خلقه، كما تثبتون أنتم له علماً، وقدرة، وحياة، وسمعاً، وبصراً، لا يماثل فيها خلقه، فقولنا في هذا كقولكم فيما أثبتموه سواء، لم يتمكنوا من إبطال قولهم، ويصيرون أكْفاء لهم في المناظرة، فإنهم قد أعطوهم أنه لا يقوم دليل عقلي على انتفاء النقائص والعيوب، وإنما ننفي ما نُفي عنه لأجل التشبيه والتمثيل... ولما عرف بعضهم (يعني: بعض أهل الكلام) أن هذا لازم له لا محالة استروح إلى دليل الإجماع، وقال: إنما نفينا النقائص والعيوب عنه بالإجماع، وعندهم أن الإجماع أدِلَّتُهُ ظنية، لا تفيد اليقين فليس عند القوم يقين وقطع أن الله منزه عن النقائص والعيوب»[1].

لكن أهل الحق «أهل السنة والجماعة» فيقولون: «إنَّ تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته، كما أنَّ إثبات صفات الكمال والحمد واجب له لذاته، وهو أظهر في العقول والفطر وجميع الكتب الإلهية وأقوال الرسل من كل شيء»[2].

وبه يظهر أنَّ أهل السنة والجماعة أولى بالكتاب والسنة، وهم أهل التعظيم والإجلال لربهم سبحانه، بينما غيرهم أولى بالتنقيص والعيب، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/٢٢٧ ـ ٢٢٨) لابن القيم.

(٢) المصدر نفسه (٢/٢٢٨).

ومن صور الاستهزاء بالله سبحانه عند الأمم الماضية: ما فعله النصارى ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ من تنقُّص لله ـ تبارك وتعالى ـ ووصفه بصفات لا تليق بجلاله وعظمته.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن المعلوم أنَّ هذه الأمة ارتكبت محذورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقل، ولا معرفة... (إلى أن قال:) **والثاني**: تنقُّصُ الخالق وسبه؛ ورميه بالعظائم، حيث زعموا أنه ـ سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ نزل من العرش عن كرسي عظمته، ودخل في فرج امرأة، وأقام هناك تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم والنجو، وقد علته أطباق المشيمة والرحم والبطن، ثم خرج من حيث دخل رضيعاً صغيراً يمصُّ الثدي، ولُف في القمط، وأُودع السرير، يبكي ويجوع ويعطش، ويبول ويتغوط، ويحمل على الأيدي والعواتق؛ ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه، وربطوا يديه، وبصقوا في وجهه، وصفعوا قفاه، وصلبوه جهراً بين لصين، وألبسوه إكليلاً من الشوك، وسمروا يديه ورجليه، وجرَّعوه أعظم الآلام، هذا وهو الإله الحق الذي بيده أتقنت العوالم، وهو المعبود المسجود له... إلى أن قال ﷺ: فنسبوا الإله الحق سبحانه إلى ما يأنف أسقط الناس وأقلهم أن يفعله بمملوكه وعبده، وإلى ما يأنف عُباد الأصنام أن ينسب إليه أوثانهم...»[1].

قال شيخ الإسلام ـ عليه رحمة الله ـ: «والنصارى ـ أيضاً ـ يصفون اللاهوت بصفات النقص التي يجب تنزيه الرب عنها، ويسبون الله سباً ما سبه إياه أحداً من البشر، كما كان معاذ بن جبل يقول: لا ترحموهم فإنهم قد سبوا الله سبة ما سبَّه إياه أحد من البشر»[2].

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤). وانظر: «هداية الحيارى» (ص٢٦٠ ـ ٢٦١) له.

(٢) «الجواب الصحيح» (٣/ ١٠٠ ـ ١٠١)، وانظر: أثر معاذ في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٨٣)، إلا أن ما ذكره عن معاذ؛ منسوباً إلى عمر بن الخطاب.

ولذا كان بعض أئمة الإسلام إذا رأى صليباً أغمض عينيه عنه، وقال: لا أستطيع أن أملأ عيني مِمَّنْ سبَّ إلٰهه ومعبوده بأقبح السب، وكان بعض عقلاء الملوك يقول: إنَّ جهاد هؤلاء واجب شرعاً وعقلاً، فإنهم عارٌ على بني آدم، مفسدون للعقول والشرائع[١].

ومن استهزائهم ـ أيضاً ـ بالله ﷻ: أنه إذا حَلَفَ أحدهم على أمر هو فيه صادق، غير حانث ولا كاذب، أقسم بالصليب، ويكذب إذا حلف بالله تعالى ولا يتحرَّج من ذلك؛ لأن الصليب في قلبه أعظم من فاطر السمٰوات والأرض، تعالى الله عن قولهم وإفكهم وزورهم علواً كبيراً[٢].

ومن صور استهزائهم بالله سبحانه: ما أشار إليه الإمام أبو محمد بن حزم عن أحد النصارى أنه رأى الله ﷻ شيخاً أبيض الرأس واللحية، والمسيح يقرأ بين يديه في كتاب من ذهب والملائكة يقولون: هذا خروف الرب[٣]، والأسواق قائمة بين يديه القمح كذا وكذا قفيزاً بدينار، الشعير كذا وكذا قفيزاً بدينار، الخمر كذا وكذا قسطاً بدينار، والزيت كذا وكذا قسطاً بدينار، فهل هذا إلا هزل وعيارة، وتماجن وتطايب[٤]، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

ولولا الضرورة الملحة لَمَا أوردت هذه الصورة المقيتة في حق الله تبارك وتعالى، وفي المبحث التالي أعرض لصور من الاستهزاء بالدين والله المستعان.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٨٤) لابن القيم.
(٢) انظر: المصدر نفسه (٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦)، وهذا حال عبَّاد القبور أيضاً وسيأتي.
(٣) سيأتي قولهم هذا عند الحديث عن صور الاستهزاء بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.
(٤) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٢/ ٢٠١).

المبحث الثاني

صور من الاستهزاء بالدين

تقدم معنا الحديث عن تعظيم الدين وشعائره في «التمهيد»، وعرفنا هناك أن الله ـ تبارك وتعالى ـ أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وشرع الشرائع، وعظَّم ذلك كُلَّه، ليس فقط ما شرع لهذه الأمة بل كل شريعة كانت في الأمم الأخرى من آدم حتى عيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، فمن أخلَّ بهذا الأصل العظيم واستخف بدين الله، وطعن فيه، فقد أعظم على الله تعالى الفرية، وارتكب من القول منكراً وزوراً، وناقض الإيمان، بما يأتي على بنيانه من القواعد، فينقل صاحبه من عداد أهل الإيمان ويسلكه في زمرة الأشقياء المعاندين والمستكبرين، ويصدق فيه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

قال ابن كثير رحمه الله **عند تفسير هذه الآية:** «أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق وتبيَّن له واتضح له، وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، هذا ملازم للصفة الأولى[(١)]، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه

(١) انظر: «محاسن التأويل» (٢/ ٤٨٥) ففيها تفصيل بديع في العلاقة بين مشاقَّة الرسول؛ واتباع غير سبيل المؤمنين، وهل الوعيد فيهما واحد؛ أم خاص بمشاقة الرسول دون غيره، حيث خلص من البحث بنتيجة وهي أن الوعيد فيها إنما هو على مجموع الأمرين.

تحقيقاً...»[١].

فمن وقع في الاستهزاء بالدين كله أو بعضه فهو مُشاقٌّ لله تعالى، ولرسوله ﷺ، ومجانب لطريق المؤمنين الواضح المبين، الذي رسمه رب العالمين.

فإليك بعض النماذج والصور في السخرية بدين الله ـ تبارك وتعالى ـ فيمن كان قبلنا:

فمن تلك الصور: ما فعل السامري من صناعة العجل وتقديمه لبني إسرائيل على أنه هو إلههم وإله موسى: الذي ضلَّ عنه وذهب يطلبه[٢]، ـ على حد زعم هذا المفتري ـ ففي دعوة السامري بني إسرائيل إلى عبادة العجل من دون الله استخفاف بدين الله وتوحيده الذي جاء به موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: ٨٨].

فبنى صانع العجل ومن معه معبداً، ليزاول الناس فيه عبادة هذا الصنم، ويدينون له بالذُّلِّ والخضوع والطاعة، اتباعاً لغير سبيل المؤمنين في اتباعهم لما شرعه لهم على ألسنة رسله من تحريم الشرك، وإيجاب التوحيد الذي هو دين جميع المرسلين.

ومن ذلك ما فعلت النصارى ـ عليهم لعنة الله ـ في عبادة الصليب من دون الله، **قال ابن القيم**: «وكيف ينكر لأمة أطبقت على صلب معبودها وإلٰهها ثم عمدت إلى الصليب فعبدته وعظمته، وكان ينبغي لها أن تحرق كل صليب تقدر على إحراقه، وأن تهينه غاية الإهانة إذ صلب عليه إلٰهها الذين

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٨٤٢). وانظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٨) للبغوي.
(٢) انظر: تفصيل القول في هذه الصورة المبحث الأول «صور الاستهزاء بالله تبارك وتعالى» من هذا الفصل.

يقولون تارة: إنه الله، وتارة يقولون: إنه ابنه، وتارة يقولون: ثالث ثلاثة...»[(١)].

فهؤلاء جعلوا دينهم الذي يدينون به لله سبحانه «عبادة صور خطوها بأيديهم، في الحيطان مزوقة بالأحمر والأصفر والأزرق، لو دنت منها الكلاب لبالت عليها، فأعطوها غاية الخضوع والذل، والخشوع والبكاء، وسألوها المغفرة، والرحمة، والرزق، والنصر...»[(٢)].

هذه الأمة الضالة التي تنقَّصتْ دينها غاية التنقُّص، وجعلته عبادة الصلبان[(٣)]، وتقديس الصور والصلاة إليها، ودعائها من دون الله ـ تبارك وتعالى ـ.

ومن صور الاستهزاء بالدين في الأمم الماضية: ما نجده عند قوم شعيب عليه السلام من استخفاف بالصلاة والزكاة كما ورد ذكر ذلك في كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)﴾ [هود: ٨٧].

---

(١) «هداية الحيارى» (ص٤٨)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦).

(٢) المصدر السابق (ص٥٠).

(٣) جمع الصلبان بلا استثناء، مع أن المفترض ـ إن كان ولا بدَّ ـ عبادة ذلك الصليب الذي صلب عليه المسيح ـ بزعمهم ـ، فإن قالوا: الصليب من حيث هو يُذَكِّر بالصليب الأول، قلنا لهم: وكذلك الحفرةُ تُذَكِّر بحفرته، فعظموا كُلَّ حفرة واسجدوا لها كحفرته أيضاً بل أولى، لأن خشبة الصلب لم يستقر عليها استقراره في الحفرة.
ثم يقال لهم: اليد التي مسته أولى أن تعظم من الصليب، فعظموا أيدي اليهود لمسِّهم إيَّاهُ وإمساكهم له ثم انقلوا ذلك التعظيم إلى سائر الأيدي. فإن قلتم: منع من ذلك العداوة، فعندكم أنه هو الذي رضي بذلك واختاره، ولو لم يرض به لم يصلوا إليه منه، فعلى هذا فينبغي أن تشكروهم وتحمدوهم إذ فعلوا مرضاته واختياره الذي كان سبب خلاص جميع الأنبياء والمؤمنين من سجن إبليس. انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧) لابن القيم.

أي أن نترك الأوثان والأصنام لأجل قولك في أمر التوحيد والصلاة والزكاة كل ذلك «على الاستهزاء والتهكم بصلواته، والإشعار بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلي، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تُواظب عليه، وكان شعيبُ كثير الصلاة، فلذلك جمعوا وخصوا الصلاة بالذكر»[(١)].

ثم ختم هؤلاء المستهزءون كلامهم الفاحش لشعيبٍ ﷺ بقولهم له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

قال الإمام البخاري: «قال الحسن: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ يستهزئون به»[(٢)].

فيجيبهم النبي شعيب ﷺ جواب المشفق عليهم من العذاب؛ بنداءٍ يدعوهم فيه لصلاحهم في الدنيا والآخرة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨]، إلى آخر الآيات التي توضح موقف شعيب منهم ودعوته إياهم إلى التوحيد والاستغفار والتوبة.

ومن صور الاستهزاء بالدين في الأمم الماضية: ما ورد من استخفاف النصارى بالصلاة التي هي فريضة على كُلِّ الأنبياء والمرسلين وأتباعهم ومن ذلك: «أن طوائف منهم ـ وهم الروم وغيرهم ـ لا يرون الاستنجاء بالماء. فيبول أحدهم ويتغوَّط، ويقوم بأثر البول والغائط إلى صلاته بتلك الرائحة الكريهة، فيستقبل المشرق[(٣)] ويُصلِّبُ على وجهه، ويُحدِّث من يليه بأنواع

---

(١) «محاسن التأويل» (٤/ ٣٢٧) للقاسمي. وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٧٠٦) لابن كثير.

(٢) من كتاب التفسير، من أول تفسير سورة هود، فتح الباري (٨/ ١٩٩ ـ ٢٠٠). وانظر: «المسير» (٤/ ١٥٠) لابن الجوزي.

(٣) هذه قبلة النصارى بعد أن انحرفوا عن دين عيسى ﷺ، حيث نقل مؤرخوهم أنَّ =

الحديث، كذباً كان أو فجوراً، أو غيبة، أو سباً أو شتماً، ويخبره بسعر الخمر، ولحم الخنزير، وما شاكل ذلك، ولا يضرُّ ذلك في الصلاة، ولا يبطلها، وإن دعته الحاجةُ إلى البول في الصلاة بال وهو يصلي صلاته»[١].

قال ابن تيمية: «وأمَّا النصارى: . . . تجد عامتهم لا يرون شيئاً حراماً ولا نجساً إلَّا ما كرهه الإنسان بطبعه، ويصلون مع الجنابة، والحدث وحمل النجاسات»[٢].

هذه هي عبادة القوم وصلاتهم التي قال عنها الإمام ابن القيم: «هي في الحقيقة استهزاء بالمعبود لا يرضاها المخلوق لنفسه فضلاً أن يرضى بها الخالق على هذه الصفة[٣]، التي لو عرضت على من له أدنى مسكة من عقل لظهر له التفاوت بينهما، (يعني بين صلاة المسلمين والنصارى). . . فالعاقل إذا وازن بين ما اختاروه ورغبوا فيه وبين ما رغبوا عنه تبيَّن له أن القوم اختاروا الضلالة على الهدى، والغي على الرشاد، والقبيح على الحسن، والباطل على الحق، وأنهم اختاروا من العقائد أبطلها، ومن الأعمال أقبحها، وأطبق على ذلك أساقفتهم وبتاركتهم[٤]، ورهبانهم[٥] فضلاً عن عوامهم وسقطهم»[٦].

هذا موقف النصارى من العبادات الشرعية ازدراء بها، واستخفافاً

= ذلك حدث بعد المسيح بنحو ثلاثمائة سنة، وإلا فالمسيح كان يصلي إلى قبلة بيت المقدس، وهي قبلة الأنبياء قبله، وإليها كان يصلي النبي ﷺ مدَّة مقامه بمكة، وبعد هجرته ثمانية عشر شهراً، ثمَّ نقله الله تعالى إلى قبلة أبيه إبراهيم. انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٨٥) لابن القيم.

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٨٥)، وانظر: «هداية الحيارى» (ص٥٠)، كلاهما لابن القيم.
(٢) «الجواب الصحيح» (٢/ ١٣٦).
(٣) في الأصل: «على هذه الصلاة...» وهو خطأ يأباه السياق.
(٤) لقب رؤساء الدين عند النصارى.
(٥) علماء النصارى.
(٦) «هداية الحيارى» (ص٥١).

بالذي أوجبها على عباده، حالهم فيها كحال كفار قريش في مكة، قال تعالى واصفاً لعبادتهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال: ٣٥].

ورد في سبب نزولها أنهم كانوا يطوفون بالبيت ويصفقون ويصفّرون ويضعون خدودهم بالأرض(١)، فالمكاء: التصفير، والتصدية: التصفيق(٢).

روى ابن جرير عن سعيد قال: كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف يستهزئون به، يصفرون ويصفقون، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾(٣)، وكان هؤلاء على الخصوص نفرٌ من بني عبد الدار، كانوا يخلطون بذلك كله على محمد ﷺ صلاته(٤).

ومن صور الاستهزاء بالدين في الأمم الماضية الاستخفاف بعذاب الله تعالى الذي توعد به المكذبين للرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وما جاءوا به من عند الله تعالى، فمن ذلك ما قال قوم نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: ٣٢].

وقالت ثمود لنبي الله صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿... وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

وكذلك قالت عادٌ لهود ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢].

---

(١) «زاد المسير» (٣/ ٣٥٢ ـ ٣٥٤)، و«تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٨٢)، وانظر: «أسباب نزول القرآن» (ص٢٤٠) للواحدي، و«أسباب النزول» (ص١٨٠ ـ ١٨١) للسيوطي.
(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٤٤).
(٣) «جامع البيان» (١٣/ ٥٢٤) شاكر.
(٤) انظر: المصدر نفسه (١٣/ ٥٢٥).

قال أبو عمر البقاعي رحمه الله: «... سموا الوعيد وعداً استهزاءً به، ولما كان ذلك معناه تكذيبه، زادوه وضوحاً بقولهم معبرين بأداة الشك إشارة إلى أنَّ صدقه في ذلك من فرض المحال: ﴿إِن كُنتَ﴾ أي: كما يقال عنك، كوناً ثابتاً ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أنك رسول من الله، وأنه يأتينا بما تخافه علينا من العذاب إن أصررنا»[1].

فحاق بهم جميعاً العذاب الذي كانوا يستهزئون به، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠].

قال أبو جعفر ـ عليه رحمة الله ـ: يقول تعالى ذِكْرهُ لنبيه محمد ﷺ مسلياً عنه بوعيده المستهزئين به عقوبة ما يلقى منهم من أذى الاستهزاء به، والاستخفاف في ذات الله: هوِّن عليك يا محمد، ما أنت لاقٍ من هؤلاء المستهزئين بك، المستخفين بحقك فيَّ وفي طاعتي، وامضي لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدي، والإقرار بي، والإذعان لطاعتي، فإنهم إنما تمادوا في غيهم، وأصروا على المقام على كفرهم، نسلك بهم سبيل أسلافهم من سائر الأمم من غيرهم، من تعجيل النقمة لهم، وحلول المثُلات بهم، فقد استهزأت أمم من قبلك برسلٍ أرسلتهم إليهم بمثل الذي أرسلتك به إلى قومك، وفعلوا مثل ما فعل قومك بك: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، يقول: العذاب الذي كانوا يهزأون به، وينكرون أن يكون واقعاً بهم على ما أنذرتهم رسلهم»[2].

فقد حلَّ بهؤلاء وأمثالهم العذاب في الدنيا، وهم في البرزخَ يَصلون

---

(١) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٧/ ١٣٥).

(٢) «جامع البيان» (١١/ ٢٧١ ـ ٢٧٢، شاكر). وانظر: «زاد المسير» (٣/ ٩) لابن الجوزي، وسيأتي تفصيل عقوبات المستهزئين الدنيوية والأخروية، في الباب الرابع «آثار الاستهزاء» من الفصل الثاني إن شاء الله تعالى.

العذاب إلى أن تقوم الساعة، قال تعالى في بيان صنف من هؤلاء: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]، لا كما ادعت يهود بأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، وهي كما قال أهل التأويل: عنوا به أربعين يوماً مُدَّة عبادتهم العجل[١]، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ[٢] فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠ ـ ٨١].

وقال تعالى مُبَيِّناً غرور اليهود وافترائهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٤].

فالعذاب لأهل الشرك والاستهزاء أبدي سرمدي كما في آية البقرة: ﴿... أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٢٧٤ ـ ٢٨٧، شاكر)، و«فتح الباري» (١٠/ ٢٥٧)، و«الدر المنثور» (١/ ١٦٣)، و«محاسن التأويل» (١/ ٣١٩ ـ ٣٢٠)، و«اليهود في القرآن والسنة» (١٤/ ١٥٧ ـ ١٦٩) محمد أديب الصالح.

(٢) قال القاسمي ـ عليه رحمة الله ـ: «ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الخلود في النار إنما هو للكفار والمشركين، لما ثبت في السنة، تواتراً، من خروج عصاة الموحدين من النار، فيتعين تفسير السيئة والخطيئة، في هذه الآية، بالكفر، والشرك، ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود». «محاسن التأويل» (١/ ٣٢٠). وانظر: «معالم التنزيل» (١/ ٨٩ ـ ٩٠) للبغوي، و«تفسير القرآن العظيم» (١/ ١٧٨) لابن كثير.

المبحث الثالث

صور من الاستهزاء بالرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم

إن من سنن الله تعالى في هذا الكون: الصراع بين الحق والباطل، وهو ما يعرف في لغة القرآن بسُنة المدافعة، قال تعالى: ﴿... دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠].

فما من نبي بعثه الله تعالى إلى أمة من الأمم إلا كان له أعداءٌ من قومه، يناصبونه العداوة، ويصدون الناس عن دعوته، ويفسدون في الأرض بعد إصلاحها، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ﴾ [الفرقان: ٣١].

فكان من صنوف الأذى، وزخرف القول الذي يوحي به شياطين الإنس والجن بعضهم لبعض: السخرية والاستهزاء بهؤلاء الرسل عليهم صلوات الله وسلامه.

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن ـ عليه رحمة الله ـ في رده على ما عارض به المشركون أهل التوحيد: «وقد تضمنت معارضتهم أيضاً، مسبة من دعا إلى التوحيد وأنكر الشرك أسوة أعداء الرسل كقوم نوح إذ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وقال قوم هود: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وقول من قال من مشركي العرب للنبي ﷺ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤]، فالظلم والزور في كلام هؤلاء المنكرين للتوحيد أمر ظاهر، يعرفه كل عاقل منصف، فقد تناولت مسبتهم كل من دعا إلى الإسلام، وعمل به من الأولين والآخرين كما أنَّ من كذب رسولاً بما جاء به من الحق فقد كذب المرسلين، كما ذكره الله تعالى في قصص الأنبياء، فمن أنكر ما جاءت به الرسل فهو عدوٌ لهم»[(١)].

فهذه العداوة من المجرمين للرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأتباعهم أمر ظاهر للعيان، كأنما هم متواصون به، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢ ـ ٥٣].

قال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني: تقليداً لآبائهم، واقتداءاً لآثارهم، فمورد جهالتهم مؤتلف، ومشرع تعنتهم متحد، وقوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ إنكار وتعجيب من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التي لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء، فضلاً عن التفوُّه بها، أي: أأوصى بهذا القول بعضهم بعضاً حتى اتفقوا عليه...»[(٢)] مع بُعد الديار، وطول الأحقاب بينهم.

ومثل هذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن

(١) «الدرر السنية» (٢/ ١١٤).
(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٣٤٨).

قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: ٤٣]، أي: ما يقال لك يا محمد إلا ما قيل للمرسلين قبلك من الكلمات المؤذية، والمطاعن في الرسل، وفي الكتب المنزَّلة(١)، فلا يكونن هذا الأذى، وهذا الاستهزاء دافعاً لك في ترك تبليغ رسالة ربك، وإنذار قومك.

فكان من تثبيت الله تعالى لرسوله ﷺ وتسليته له ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: ١٠ ـ ١١]، وقوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ [الزخرف: ٦ ـ ٧]، فكلٌّ هذه الآيات البينات تدُلُّ دلالة واضحة على ما واجه به أعداء الرسل رسلهم بالاستهزاء والسخرية، إمعاناً في تكذيبهم، واستخفافاً بعقولهم، نعوذ بالله من عذابه، وشقاء الدنيا والآخرة.

وبعد أن عرفنا أن الاستهزاء بالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأتباعهم سنة ماضية، وهي طريقة للمجرمين، والملأ المستكبرين(٢)، فلا بُد من الوقوف على نماذج وصورٍ من استهزائهم وسخريتهم، استبانة لسبيل المجرمين، وتحذيراً لإخواننا المسلمين من الوقوع في مشابهتهم.

فمن صور الاستهزاء في عهد نوح عليه السلام: ما ذكر المولى جلَّ وعلا في كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: ٣٨].

«وفي سخريتهم منه قولان:

أحدهما: أنهم كانوا يرونه يبني سفينةً في البرِّ، فيسخرون به

(١) انظر: المصدر نفسه (٦/١٥٨).
(٢) انظر: «الجواب الصحيح» (١/١٦١) لابن تيمية.

ويستهزئون، ويقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً[١].

الثاني: لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينةً بُنيت، قالوا: يا نوح ما تصنع؟ قال: أبني بيتاً يمشي على الماء؛ فعجبوا من قوله وسخروا منه، قال ابن عباس: ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر؛ فلذلك سخروا منه؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان»[٢].

وعلى كلا القولين اللذين ذكرهما القرطبي رحمه الله يكون المعنى كما قال ابن عاشور: «حمل فعله على العبث، بناء على اعتقادهم أنَّ ما يصنعه لا يأتي بتصديق مدَّعاه»[٣] من النبوة والرسالة.

يقول سيد قطب رحمه الله: «والتعبير بالمضارع، فعل الحاضر هو الذي يعطي المشهد حيويته وجدَّته، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير، يصنع الفلك، ونرى الجماعات من قومه والمتكبرين يمرون به فيسخرون، يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم: إنه رسول ويدعوهم، ويجادلهم فيطيل جدالهم؛ ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً... إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر، شأنهم دائماً في إدراك الظواهر، والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير.

فأما نوح فهو واثق عارف، وهو يخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة، واستعلاء أنه يبادلهم سخرية بسخرية.. نسخر منكم لأنكم لا تدرون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير...»[٤].

أما سخرية نوح عليه السلام **والمؤمنين من الكافرين**، فمن سفه عقولهم

---

(١) ذكره الشيخ الشنقيطي رحمه الله في «الأضواء» (٢/ ١٦٥) ولم يذكر غيره.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٣) للقرطبي. وانظر: «زاد المسير» (٤/ ١٠٣) لابن الجوزي.

(٣) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٦٨).

(٤) «في ظلال القرآن» (٤/ ١٨٧٧).

وجهلهم بالله وصفاته، وقدرته على تعذيب المعاندين لرسوله[1]، وقد تلقى نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا: «الاتهام والإعراض والاستكبار، في سماحة النبي وفي استعلائه، وفي ثقته بالحق الذي جاء به، واطمئنانه إلى ربه الذي أرسله؛ وفي وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه في شعوره، فلا يشتم كما شتموا، ولا يتهم كما اتهموا، ولا يدعي كما ادعوا، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهراً غير حقيقته، ولا على رسالته شيئاً غير طبيعتها..»[2].

هذا وصف الملأ المستكبرين لنوح عليه السلام، أما وصفهم ونبزهم لأتباعه فقد أبان عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء: ١١١ ـ ١١٥].

قال ابن كثير رحمه الله: «ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة، وأشباههم، ولم يتبعك الأشراف، ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم، ولا فكر ولا نظر، بل بمجرد أجابوك فاتبعوك، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: في أول بادئ: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، يقولون ما رأينا لكم علينا فضيلة في خَلْقٍ ولا خُلُق، ولا رزق ولا حال، لما دخلتم في دينكم هذا ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾، أي: فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها، هذا اعتراض الكافرين على نوحٍ

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١٢/ ٦٨) لابن عاشور.

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ١٨٧٣) لسيد قطب.

وأتباعه وهو دليل على جهلهم وقلة عملهم، وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه (في ميزان المعاندين)، فإنَّ الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣][(١)].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال علماؤنا: إنما كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف، وصعوبة الانفكاك عنها، والأنفة من الانقياد للغير؛ والفقير خليٌّ عن تلك الموانع، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد، وهذا غالب أحوال أهل الدنيا»[(٢)].

ويشهد لهذا المعنى حديث أبي سفيان الطويل، مع هرقل، وفيه: «قال: (أي: هرقل) فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم،... قال هرقل (في آخره): وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاءَهم؟ فذكرت: أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل...»[(٣)].

وقال ابن كثير ـ أيضاً ـ: «وقولهم بادي الرأي ليس بمذمة ولا عيب لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال بل لا بُدَّ من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء، بل لا يفكر هاهنا إلا غبي أو عيي، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جلي واضح»[(٤)].

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٦٨٥)، و«محاسن التأويل» (٤/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩) للقاسمي، و«في ظلال القرآن» (٤/ ١٨٧٢ ـ ١٨٧٣) لسيد قطب.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٧).

(٣) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، الباب السادس، برقم (٧)، «فتح» (١/ ٤٢ ـ ٤٣).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٦٨٥ ـ ٦٨٦).

هذه معايير الجاهلية ومقاييسها، ينظرون للشرف من باب المال والرياسة، والضعف من باب الفقر.

يقول سيد قطب رحمه الله: «وهم يقيسون الأمور ذلك القياس الخاطئ الذي تحدثنا عنه، قياس الفضل بالمال، والفهم بالجاه، والمعرفة بالسلطان، فذو المال أفضل، وذو الجاه أفهم، وذو السلطان أعرف!!! هذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائماً حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمع، أو تضعف آثارها، فترتدُّ البشرية إلى عهود الجاهلية، وإلى تقاليد الوثنية في صورة من صورها الكثيرة، وإن بدت في ثوب من الحضارة المادية قشيب...»[1].

وكان نوح عليه السلام في خضم تلك الأحداث، وموجات التهم له ولأتباعه يتلقى الأمر من الله تعالى في شأن هؤلاء الضعفاء: الذين هم عند الملأ أراذل، كما قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [هود: ٢٩ ـ ٣٠].

قال القاسمي رحمه الله: «قال بعضهم: ثمرة ذلك وجوب تعظيم المؤمن، وتحريم الاستخفاف به، وإن كان فقيراً عادماً للجاه، متعلقاً بالحِرَف الوضيعة، لأنه تعالى حكى كلام نوح وتجهيله للرؤساء لمَّا طلبوا طرد من عَدُّوه من الأراذل، وهي نظير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ...﴾ [الأنعام: ٥٢]»[2].

ثم تكون العاقبة للمتقين ـ نوح وأتباعه ـ والهلاك والغرق للمكذبين المستكبرين، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ١٨٧٢ ـ ١٨٧٣).
(٢) «محاسن التأويل» (٤/ ٣٠٠ ـ ٣٠١).

﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر: ٩ ـ ١٦].

ومن صور الاستهزاء بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ: ما وقع لهود عليه السلام من قومه المستكبرين «عاد»[(١)]، من وصفه بالسفه، والكذب، والجنون، كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف: ٦٥ ـ ٦٦]، أي: إنا لنراك يا هود في سفه، أي: حمق وخفة عقل[(٢)]، وكان هذا الاستهزاء من قومه عندما دعاهم إلى التوحيد، ونبذ الشرك وعبادة الأصنام، وإفراد الله تعالى وحده بالعبادة، فاستنكروا ذلك وتعجبوا منه تعجب الملأ من كفار قريش: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥][(٣)].

وهذا الموقف من عاد قوم هود ورد طرفٌ منه في سورة هود في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ ...﴾ الآية [هود: ٥٣ ـ ٥٤]، أي: ما إلا نظنُّ أن بعض آلهتنا أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها»[(٤)].

---

(١) كانوا عرباً يسكنون الأحقاف باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر، يقال لها: الشحر. انظر: «البداية والنهاية» (١/١١٩)، و«زاد المسير» (٣/٢٢٢) لابن الجوزي.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٧/١٥١) للقرطبي.

(٣) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٢/٣٥٩) لابن كثير.

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٢/٦٩٦)، وانظر: «زاد المسير» (٤/١١٨) لابن الجوزي، و«محاسن التأويل» (٤/٣١٤).

قال الإمام الشنقيطي ـ عليه رحمة الله ـ: «ومن استهزائهم بهود ﷺ ما ذكره الله عنهم من قوله: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾، وقوله عنهم ـ أيضاً ـ: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾...»(١).

فكان جواب نبي الله هود ﷺ في مقابلة هذا السفه والجهل من قومه، أن وعظهم موعظة توجل منها القلوب، وتذرف منها العيون، فقال: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٧]، يحفظ دينه وأولياءه وسنته من الأذى والضياع، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه هرباً(٢).

ومن صور الاستهزاء بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ: ما وقع لنبي الله صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ من قومه ثمود(٣)، وقد ذكر الله قصتهم في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٣ و٧٥ ـ ٧٦].

---

(١) «أضواء البيان» (٢/ ١٦٥).

(٢) انظر: «في ظلال القرآن» (٤/ ١٩٠٠) لسيد قطب.

(٣) وهم قبيلة مشهورة، كانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك. انظر: «البداية والنهاية» (١/ ١٢٧) لابن كثير، و«معجم البلدان» (٢/ ٢٥٥) لياقوت الحموي.

«وهذا قالوه: (يعني: قوله تعالى: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ على سبيل السخرية والاستهزاء، لأنهم يعلمون بأنهم عالمون بذلك...»(١).

(وكان من جواب قوم صالح لنبيهم: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦٢].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي كنَّا نرجو أن تكون سيداً قبل هذا؛ أي: قبل دعوتك النبوة، وقيل: كان صالح يعيب آلهتهم ويشنؤها، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله قالوا: انقطع رجاؤنا منك»(٢).

فكان لسان هؤلاء المجرمين يقول: «كانت تلوح فيك مخايل الخير، وأمارات الرشد فكنا نرجوك لتنتفع بك، وتكون مشاوراً في الأمور، ومسترشداً في التدابير، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك، وعلمنا ألا خير فيك»(٣).

وقد نص الإمام الشنقيطي ـ عليه رحمة الله ـ: على أن قولهم هذا استهزاء، فقال: «ومن استهزائهم بصالح، قولهم فيما ذكر الله عنهم: ﴿... يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقولهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾ [هود: ٦٢] الآية»(٤).

ووصفوه بأنه مسحور، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣].

---

(١) «محاسن التأويل» (٣/٥٩٣) للقاسمي. وانظر: «في ظلال القرآن» (٣/١٣١٣ ـ ١٣١٤) لسيد قطب.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/٤٠) للقرطبي. وانظر: «زاد المسير» (٤/١٢٣) لابن الجوزي، و«محاسن التأويل» (٤/٣١٨) للقاسمي.

(٣) «الكشاف» (٣/٢١٣).

(٤) «أضواء البيان» (٢/١٦٥ ـ ١٦٦).

قال أهل التأويل في معنى «مسحرين» يعني من المسحورين، قاله مجاهد وقتادة، وقيل: من المخلوقين[١]، قال ابن كثير بعد أن ذكر القولين: «والأظهر في هذا قول مجاهد وقتادة أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك»[٢]، فأنت يا صالح تهرف بما لا تعرف، كأنما الدعوة إلى الله، وإفراده بالعبادة في نظر هؤلاء، لا يدعوها إلا مجنون[٣]، أو مسحور: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف: ٥].

ومن صور الاستهزاء بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ: ما حصل لنبي الله لوط ﷺ من قومه أهل قرية سَدُوم[٤]، فقد وردت قصته في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾ [هود: ٧٧ ـ ٧٩]، وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾. هذه هي أخلاق وأعمال

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٦٧ ـ ٤٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٤٠) لابن عطية، و«زاد المسير» (٦/ ١٣٩) لابن الجوزي، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٨٨) للقرطبي.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٥٠).

(٣) انظر: «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٦١٥) لسيد قطب.

(٤) بفتح أوله: مدينة من مدائن لوط، كان قاضيها يقال له: «سدوم»، ويضرب به المثل ويقال: أجور من قاضي سدوم، وقيل: «سذوم» بذالٍ معجمة: رجل كان في الأعصر الخوالي؛ وهو الذي يقال فيه: قضاء سذوم. «معجم ما استعجم» (٣/ ٧٢٩) عبد الله البكري، و«معجم البلدان» (٣/ ٢٢٦) لياقوت الحموي، ومدينة سدوم الآن من أرض الأردن. انظر: «محاسن التأويل» (٣/ ٦٠١) للقاسمي.

أهل تلك القرية الظالمة، فعل للفاحشة وإعلان ومجاهرة بها حتى في وجه نبي الله لوط عليه السلام الذي بعثه الله إليهم يدعوهم إلى دينه وتوحيده، والتطهر من الفاحشة، ولكن: «يبدو انحراف الفطرة واضحاً في قصة قوم لوط، حتى إن لوطاً لَيُجَبِّهُهُمْ بأنهم بدع دون خلق الله فيها، وأنهم في هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨١]، والإسراف الذي يدمغهم به لوط هو الإسراف في تجاوز منهج الله المتمثل في الفطرة السوية، والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها، لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة، فإذا هم يريقونها ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب»(١).

فماذا كان جواب قوم لوط لنداء الفطرة: الذي يوجهه ويذكرهم به لوط عليه السلام؟ يجيب عن هذا الحقُ ـ تبارك وتعالى ـ، فيقول: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٨٢].

قالوا هذا «سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم (أبعدوا عنا هذا المتقشف، وأريحونا من هذا المتزهد)»(٢).

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الشعراء: ١٦٧ ـ ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٥٦]، **قال العلامة الشنقيطي** رحمه الله: «ومن

(١) «في ظلال القرآن» (٣/١٣١٥) لسيد قطب.
(٢) «محاسن التأويل» (٣/٦٠٣) للقاسمي.

استهزائهم بلوط قولهم فيما حكى الله عنه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ...﴾ الآية، وقولهم له أيضاً: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾»(١).

يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: يا عجباً! أو من يتطهر يُخْرَج من القرية إخراجاً ليبقى فيها الملوثون المدنسون؟! ولكن لماذا العجب؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة؟ أليست تطارد الذين يتطهرون، فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية ـ وتسميه تقدميَّة وتحطيماً للأغلال عن المرأة وغير المرأة ـ أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك، ولا تطيق أن تراهم يتطهرون، لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين القذرين؟! إنه منطق الجاهلية في كل حين!!»(٢).

وقد شارك اليهودُ أهل قرية سدوم في الاستهزاء والتنقص بلوط عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد عقد الإمام أبو محمد بن حزم فصلاً بعنوان «ادعاء التوراة على لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ بمضاجعة ابنته»، جاء فيه: «وبعد ذلك قال: وأقام لوط في المغارة هو وابنته، فقالت الكبرى للصغرى: أبونا شيخٌ كبير وليس في الأرض أحدٌ يأتينا كسبيل النساء، تعالي نسق أبانا الخمر ونضاجعه ونستبق منه نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، فأتت الكبرى فضاجعت أباها، ولم يعلم بنومها ولا قيامها فلما كان من الغد قالت الكبرى للصغرى: قد ضاجعت أبي أمس، تعالي نسقيه الخمر هذه الليلة وضاجعيه أنت، ونستبقي من أبينا نسلاً فسقتاه الليلة خمراً، وأتت الصغرى فضاجعته، ولم يعلم بنومها ولا بقيامها، وحملت ابنتا لوط من أبيهما...»(٣).

---

(١) «أضواء البيان» (٢/١٦٦).

(٢) «في ظلال القرآن» (٣/١٣١٦).

(٣) «الفصل» (١/٢٢٣). وانظر: «إغاثة اللهفان» (٢/٣٤٢ ـ ٣٤٣ ـ ٣٤٥)، و«هداية الحيارى» (ص٢٤٨) كلاهما لابن القيم، و«إظهار الحق» (١/١٢، ٣/٤٥، ٤/١٢٢٠ ـ ١٢٢١) لرحمت الله الهندي.

ثم علق ابن حزم على هذا السخف والهذيان في حق النبي، فقال: «وهذه فضائح الأبد، وتوليد الزنادقة المبالغين في الاستخفاف بالله تعالى وبرسله ﷺ»، إلى أن قال: «ليست هذه صفات الأنبياء ولا كرامتهم، ولا صفات من فيه شيء من الخير؟، لكن صفات الكلاب الذين وضعوا لهم هذه الخرافات الباردة التي لا فائدة فيها، ولا موعظة ولا عبرة حتى ضلوا بها، ونعوذ بالله من الخذلان»[١].

ومن صور السخرية بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ: ما حدث من أهل مدين[٢]، قوم شعيب عليه السلام قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيب، ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه من المؤمنين بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب للرسول والمراد أتباعه...»[٣]، فكان هذا الجواب من الملأ المستكبرين بعد أن دعاهم شعيبٌ إلى توحيد الله، وإفراده وحده بالعبادة دون الشركاء والأنداد، فقد بدأ دعوته مع قومه من هذه القاعدة التي يعلم أنه منها تنبثق كل مناهج الحياة، وكل أوضاعها، كما أن منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل، ولا تستقيم كلها إلا إذا استقامت هذه القاعدة[٤].

---

(١) «الفصل» (١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥).

(٢) بلدٌ بالشام معلوم تلقاء غزة، وهو المذكور في كتاب الله، وقيل: مدينة على بحر القلزم ـ البحر الأحمر ـ محاذية لتبوك، على نحو من ست مراحل، وهي أكبر من تبوك، وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب. «معجم ما استعجم» (٤/ ١٢٠١)، و«معجم البلدان» (٥/ ٩٢).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٧١).

(٤) انظر: «في ظلال القرآن» (٣/ ١٣١٧) لسيد قطب.

قال الإمام الشنقيطي ـ عليه رحمة الله ـ: «ومن استهزائهم بشعيب عليه السلام قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾[1]».

وبعد هذا التهديد من كفار مدين لنبيهم شعيبٌ عليه السلام يسلك الملأ الكفار أسلوباً آخر، ولكن ليس مع شعيب هذه المرة، ولكنه مع أتباعه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف: ٩٠]، إن الملأ المستكبرين عندما يمارسون الوعيد والتهديد لشعيب أو لقومه، لا يملكون حجة ولا برهاناً على باطلهم؛ فلما فقدوا سلاح الحجة والبرهان، عدلوا إلى التهديد والوعيد، ثم البطش والعذاب لأتباع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عند ذلك يتوجه شعيبٌ والمؤمنون معه إلى ربهم وخالقهم وناصرهم يطلبونه العون والفتح بينهم وبين الكافرين ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٩].

ويكون الفتح من الله والنصر، فيهلك الله المكذبين، وينجي المؤمنين ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ٩٤].

ومن صور الاستهزاء بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ: ما وصفت اليهود نبي الله يوسف عليه السلام بالنقائص، وما لا يليق بالأنبياء والمرسلين، **قال ابن القيم**: «ونسبوا يوسف عليه السلام إلى أنه حلَّ تكَّة سراويله وتكَّة سراويل

---

(١) «أضواء البيان» (٢/١٦٦). وانظر: «محاسن التأويل» (٤/٣٢٨ ـ ٣٢٩) حيث قال: «أي ما نفهم كثيراً مما تقول، كالتوحيد وحرمة البخس، ويعنون أنهم لا يقبلونه، أو قالوا ذلك استهانة به...».

سيدته، وأنه قعد منها مقعد الرجل من امرأته، وأنَّ الحائط انشقَّ له فرأى أباه يعقوب عليه السلام عاضّاً على أنامله، فلم يقم حتى نزل جبريل عليه السلام فقال: «يا يوسف تكون من الزُّناة!! وأنت معدود عند الله تعالى من الأنبياء»، فقام حينئذٍ.

ومعلوم أن ترك الفاحشة عن هذا لا مدح فيه، فإن أفسق الناس لو رأى هذا لولّى هارباً وترك الفاحشة»[١].

قال الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله في تعليقه على كلام ابن القيم السابق: «وقد ذكر هذه القصة بعض المفسرين، واغتر بها كثير من الناس، وهي كما ترى من سب اليهود للأنبياء، وإنما برهان ربه ما قذف الله في قلبه من الإيمان به والخوف والحياء من ربه الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وذلك كان بعصمة الله سبحانه ليوسف الصديق، ولو أن غيره كان في هذه الخلوة مع كل تلك الدواعي لوقع في الفاحشة، فليحذر المسلم هذه الخلوة، فإنه يعلم أنه ليس عنده ما عند يوسف من العصمة»[٢].

فلا شك أن مثل هذه التُّرهات والأباطيل التي دخلت على المسلمين في دواوين التفسير[٣]، وهي من فعل أهل الكتاب الذين حرفوا وبدلوا في كتبهم، وتأثر بعض رواة الإسلام بإسرائيلياتهم، التي تمجها الآذان، وتردها العقول السليمة والأذهان، ويلٌ لمن لاكها ولفقها على الأنبياء، أو سمعها وصدقها[٤].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٣٤٥).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٣٤٥) هامش (٢).

(٣) قال ابن تيمية: «وكذلك أيضاً في كتب التفسير أشياء منقولة عن النبي ﷺ يعلم أهل العلم بالحديث أنها كذب». «الطرق التي يعرف بها صدق الخبر من كذبه» (ص٢٧)، هذا من حيث الأحاديث النبوية، أما الإسرائيليات فمن باب أولى.

(٤) انظر: «محاسن التأويل» (٤/ ٣٥٩) للقاسمي.

ومن صور الاستهزاء بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ: ما طعن به أهل الكتاب في نبي الله داود، ونبيه سليمان ـ عليهما الصلاة والسلام ـ اللذين هما من أولاد فارص الذي حصل بالزنا ـ على حد زعم أهل الكتاب ـ كما هو مصرح به في الباب الأول من إنجيل متَّى[(١)].

وقد لخص صاحب «إظهار الحق» مطاعن النصارى في نبي الله داود ﷺ في ثمان خطيئات ـ حسب زعمهم:

الأولى: أنه نظر إلى امرأة أجنبية بنظر الشهوة، **وقد قال عيسى ﷺ: «إنَّ كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه»**.

كما هو مصرحٌ به في الباب الخامس من إنجيل متى.

والثانية: أنه ما اكتفى على نظر الشهوة بل طلبها وزنى بها، وحرمة الزنا قطعية، ومن الأحكام العشرة المشهورة... في التوراة: «لا تزْنِ».

الثالثة: أن هذا الزنا ـ حسب زعمهم الكاذب ـ بزوجة الجار، وهذا أشد أنواع الزنا وذنب آخر كما هو مصرح به في الأحكام العشرة المشهورة.

الرابعة: أنه ما أجرى حدّ الزنا لا على نفسه ولا على هذه المرأة.

الخامسة: أن داود ﷺ طلب أوريا ـ زوج المرأة التي زنى بها ـ من العسكر، وأمره أن يذهب إلى بيته، وجُلُّ غرض داود أن يلقي على عيبه ستراً، ويكون هذا الحبل منسوباً إلى أوريا، ولمّا لم يذهب لأجل ديانته، وحلف ألا يروح أقامه داود ﷺ اليوم الثاني، وجعله سكران يسقي الخمر الكثير ليروح إلى بيته في حالة الخمار، لكنَّه لم يرح في هذه الحالة أيضاً مراعياً لديانته... فسبحان الله العزيز! حال ديانة العوام عند أهل الكتاب في

---

(١) انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/٣٤٣ ـ ٣٤٤)، و«هداية الحيارى» (ص٢٠٣) كلاهما لابن القيم، و«إظهار الحق» (٤/١٢٣٥) لرحمت الله الهندي.

ترك الأمر الجائز لأجل الديانة هكذا، وحال ديانة الأنبياء الإسرائيليين في ارتكاب الفواحش هكذا!!

السادسة: أنه لمَّا لم تحصل ثمرة مقصودة على إسكار أوريا عزم داود عليه السلام على قتله، فقتله بسيف بني عمّون، وفي الآية السابعة من هذا الباب الثالث والعشرون من سفر الخروج: «البارّ والزكي فلا تقتله».

السابعة: أنه لم يتنبه على خطئه، ولم يتب ما لم يعاتبه ناثان النبي عليه السلام.

الثامنة: أنه قد وصل إليه حكم الله بأن هذا الولد الذي تولّد بالزنا يموت، ومع هذا دعا لأجل عافيته، وصام، وبات على الأرض(١).

هذا ما طعن به أهل الكتاب في نبي الله داود عليه السلام، أمَّا طعنهم في سليمان عليه السلام ففي خمس خطيئات ارتكبها ـ على حد زعمهم الكاذب ـ نذكر منها ما يلي:

الأولى: وهي أعظمها: أنه ارتدَّ في آخر عمره الذي هو حين التوجه إلى الله، وجزاء المرتد في الشريعة الموسوية الرجم، ولو كان نبياً ذا معجزات.

الثانية: أنه بنى المعابد العالية للأصنام في الجبل قدام أورشليم(٢)، وهذه المعابد كانت باقية، حتى نجسها وكسّر الأصنام يوشيا بن آمنون ملك يهوذا في عهده بعد موت سليمان عليه السلام بأزيد من ثلاثمائة وثلاثين سنة(٣)، قال الشيخ رحمت الله الهندي: «فإن هذه القصص وأمثالها يجب علينا أن ننكرها، ونقول أنها غير صحيحة جزماً، ونعتقد اعتقاداً يقينياً أن ساحة النبوة

---

(١) «إظهار الحق» (٤/١٢٤٥ ـ ١٢٤٦، ٤/٣٤٣ ـ ٣٤٤).

(٢) وهي مدينة القدس.

(٣) «إظهار الحق» (٤/١٢٤٩ ـ ١٢٥٠، ٤/١٣٢٦).

بريئة من أمثال هذه الأمور القبيحة»[1].

أقول: ليس بمستنكر هذا السخف والهراء، والعبث بالألفاظ على أمة قدحت في معبودها، وإلهها ونسبته إلى ما لا يليق بعظمته وجلاله أن تنسب مثل هذه الأفعال القبيحة إلى أنبياء الله تعالى، وترميهم بالعظائم، استخفافاً بحقهم، وتنقصاً بمقام نبوتهم الكريم، سبحانك هذا بهتان عظيم[2]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥﴾ [النمل: ١٥]، وقد آتاهما الله النبوة كما آتاهما العلم، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝١٦٣﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال عن داود عليه السلام: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧﴾ [ص: ١٧]، **وقال ـ أيضاً ـ**: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال تعالى في ثنائه على سليمان عليه السلام: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦﴾ [النمل: ١٦]، **وقال ـ أيضاً ـ**: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ [ص: ٣٠].

هذا ما ذكر الله تعالى في الثناء على هذين النبيين الكريمين داود وسليمان عليهما السلام، وبه يتبين بطلان زعم أهل الكتاب الكاذب، وبهتهم وشتمهم لأنبياء الله ورسله، حتى نزلت عليهم لعنة الله، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

---

(١) المصدر نفسه (١/ ١٤).

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ٣٤٤) لابن القيم.

ومن صور الاستهزاء بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ: ما لقيه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من فرعون وملإه المستكبرين، فقالوا: ساحر، ومجنون، وكاذب[1]، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [القصص: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات: ٣٨ ـ ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزخرف: ٤٩]، وقال تعالى على لسان فرعون: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ . . .﴾ [طه: ٧١]، وقوله: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ [النمل: ١٣]، أمّا تكذيبهم لموسى وهارون ﷺ ففي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٨].

وقد كان فرعون وقومه المستكبرون يضحكون من موسى لما معه من الحجج والبينات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزخرف: ٤٦ ـ ٤٧]، يقول تعالى مخاطباً محمداً ﷺ: «فلما جاء موسى فرعون وملأه بحججنا وأدلتنا على صدق قوله، فيما يدعوهم إليه من

---

(١) انظر طرفاً من هذا الافتراء على موسى من الملأ: «الجواب الصحيح» (١/ ١٦١ ـ ١٦٢)، و«الفرقان» (ص١٤١) كلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية.

توحيد الله والبراءة من عبادة الآلهة، إذا فرعون وقومه ممَّا جاءهم به موسى من الآيات والعبر يضحكون، كما أن قومك ممَّا جئتهم به من الآيات والعبر يسخرون، وهذا تسلية من الله ﷻ لنبيه ﷺ عمَّا كان يلقى من مشركي قومه، وإعلام منه له، أن قومه من أهل الشرك لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم الذين كانوا على منهاجهم في الكفر بالله وتكذيب رسله، وندبٌ مِنْهُ نبيَّه ﷺ إلى الاستنان في الصبر عليهم بسنن أولي العزم من الرسل، وإخبار منه له أن عقبى مردتهم إلى البوار والهلاك كسنته في المتمردين عليه قبلهم، وإظفاره بهم، وإعلائه أمره، كالذي فعل بموسى عليه السلام وقومه الذين آمنوا به من إظهارهم على فرعون وملئه»[1].

ومن مقولات الملأ، ومنطق المستكبرين في الأرض، ما ذكره الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٢]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف: ١٣٢]، هذا هو منطقهم: يقابلون الحجج والبراهين؛ بالسخرية والاستهزاء، والسب والشتم والتهديد والوعيد كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧].

فكان جواب أهل الإيمان: أتباع موسى عليه السلام أمام هذا الوعيد من فرعون وملإه المستكبرين أن قالوا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٦].

(١) «جامع البيان» (١١/ ١٩٣) لابن جرير الطبري. وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٩٦) لابن كثير، و«محاسن التأويل» (٦/ ١٩٣ ـ ١٩٤) للقاسمي.

وكان موقف موسى عليه السلام أمام هذا التهديد، موقف الواثق بوعد ربه ونصره وتمكينه، واعظاً أتباعه مذكراً لهم بالصبر على البلاء: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ومن صنوف الأذى والاستهزاء الذي وُوجه به موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه **قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ موسى كان رجلاً حيياً ستِّيراً لا يُرى من جلده شيءٌ استحياءً منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برصٌ وإمَّا أُدْرَةٌ[(١)]، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرِّئهُ مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإنَّ الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبرأه مما قالوا، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاهُ، فوالله إنَّ بالحجر لندباً من أثر ضربه**

(١) قال ابن حجر: «قوله: (آدر) بالمد وفتح الدال المهملة، وتخفيف الراء، قال الجوهري: الأدرة نفخة في الخصية»، وقال النووي: «آدر: بهمزة ممدودة، ثم دال مهملة مفتوحاً ثم راء، وهو عظيم الخصيتين». «فتح الباري» (١/ ٤٦٠)، و«شرح صحيح مسلم» (١٥/ ١٣٥). وانظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ٣٤١ ـ ٣٤٢) لابن القيم، و«المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث» (١/ ٤٤ ـ ٤٥) للأصفهاني، و«النهاية» (١/ ٣١) لابن الأثير.
وفيه من الفوائد: «أن الأنبياء في خَلْقِهم وخُلُقِهم على غاية الكمال، وأنَّ من نسب نبياً من الأنبياء إلى نقص في خلقته فقد آذاه، ويخشى على فاعله الكفر، ولا التفات إلى ما يذكر أهل التواريخ من إضافة بعض العيوب والعاهات إلى بعض الأنبياء، ومنها: ما كان في الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من الصبر على الجهال واحتمال أذاهم، وجعل الله تعالى العاقبة لهم على من آذاهم». انظر: «فتح الباري» (٦/ ٥٠٥)، و«شرح صحيح مسلم» (١٥/ ١٣٦ ـ ١٣٧).

ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩][(١)].

ومن صور السخرية بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ: ما قُذف به نبي الله هارون عليه السلام: أنه هو الذي عمل العجل لبني إسرائيل، وأمرهم بعبادته والرقص أمامه، قال الشيخ رحمت الله الهندي: «في الباب الثاني والثلاثين من سفر الخروج هكذا: ورأى الشعب أن موسى قد تأخر أن يهبط من الجبل فاجتمع الشعب إلى هارون، وقالوا له: قم فاجعل لنا آلهة يسيرون أمامنا من أجل أَنَّ موسى هذا الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا ندري ماذا أصابه، فقال لهم هارون: أنزعوا أقرطة الذهب التي في آذان نسائكم وأبنائكم وبناتكم وائتوني بها، فنزع الشعب الأقرطة التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون، فأخذها منهم وصيرها عجلاً سبيكاً، وقال: هذه آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر، فلمَّا نظر هارون ذلك بنى مذبحاً أمامه ونادى وقال: غداً عيد للرب، فقاموا بالغداة وقربوا وقوداً وذبائح مسلَّمة وجلس الشعب يأكلون ويشربون وقاموا يلعبون»[(٢)].

هذا افتراء أهل الكتاب على نبي الله هارون عليه السلام عاقبهم الله بما يستحقون، ولدحض هذه الفرية أسوق ما ورد في كتاب الله العزيز من آيات توضح حادثة العجل، ومن صنعه، قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٢٨)، برقم (٣٤٠٤)، «فتح» (٦/ ٥٠٢)، وفي كتاب الغسل، باب من اغتسل عرياناً، برقم (٢٧٨)، «فتح» (١/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب فضل موسى، برقم (٣٣٩)، «نووي» (١٥/ ١٣٥).

(٢) «إظهار الحق» (٤/ ١٢٣٥ ـ ١٢٣٦) (١/ ١٣ ـ ١٧). وانظر: «الفِصَل» (١/ ١٢٦) لابن حزم، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠٥) لابن القيم.

يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٣ ـ ٨٩]، وقد نهى هارون قومه عن عبادة العجل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾﴾ [طه: ٩٠] فردَّ عليه عُبَّادُ العجل: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩١]. كيف يبرح عُبَّادُ العجل عن عبادته، وقد قال الله عنهم: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾ [البقرة: ٩٣].

قال ابن حزم: «... وقد نزَّه الله تعالى الأنبياء ﷺ عن عبادة غيره، وعن الأمر بذلك، وعن كل معصية ورذيلة..» إلى أن قال: «وأمّا نحن فجوابنا في هذا كله بأنْ ليس شيء فيه نقل كافة، ولكن نقل آحاد كذبوا فيه، وأمّا خوار العجل فإنما هو على ما روينا عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنه إنما كان صفير الريح تدخل من فيه وتخرج من دبره، لا أنه خار بطبعه قط، والذي يعتمد عليه قول ابن عباس رضي الله عنهما الذي ذكرناه، وبالله تعالى التوفيق»(١).

فكانت النهاية للعجل وصانعه، كما قال تعالى عن موسى مخاطباً للسامري: ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٧ ـ ٩٨].

ومن صور الاستهزاء بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ: ما لقيه نبي الله

---

(١) «الفِصَل» (١/ ١٢٦).

عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أهل الكتاب، بقولهم: ساحر ولد بغية، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٥ ـ ١٥٦].

قال ابن كثير ـ عليه رحمة الله ـ فيما نقله عن ابن عباس رضي الله عنهما: «يعني أنهم رموها بالزنا، وكذلك قال السدي وجويبر ومحمد بن إسحاق وغير واحد، وهو ظاهر من الآية، أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية، وقد حملت بولدها من ذلك، زاد بعضهم: وهي حائض فعليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة»[١].

قال شيخ الإسلام ـ عليه رحمة الله ـ: «... كان اليهود يزعمون أن المسيح ساحر كذاب، بل يقولون: إنه ولد غيَّه[٢]، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿... وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾»[٣].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وقد نسبت هذه الأمة الغضبية عيسى ابن مريم إلى أنه ساحر، ولدُ بغيَّة، ونسبت أمَّه إلى الفجور»[٤].

ومن استخفافهم بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام إطلاقهم عليه «خروف الله».

قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله: «وبعده في الباب نفسه[٥]، قال: «ويوماً

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٨٧٢). وانظر: «جامع البيان» (٤/ ٣٥٠) للطبري، و«المحرر الوجيز» (٢/ ١٣٢) لابن عطية، و«الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٨) للقرطبي، و«الدر المنثور» (٢/ ٤٢٢) للسيوطي.

(٢) ولد غَيَّة ويكسر: ولد زنية. انظر: القاموس باب الواو والياء (٤/ ٥٣٩).

(٣) «الجواب الصحيح» (١/ ١١٠ ـ ١١١).

(٤) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٣٤٥).

(٥) يعني الباب الأول من إنجيل يوحنَّا. انظر: «الفصل» (٢/ ١٦٩).

آخر رأى يحيى المسيح مقبلاً. فقال: هذا خروف الله»، ثم علق كَلَّلهُ على هذا السخف والهراء، فقال: «هذه طامة أخرى.. بينما كان كلمة الله، وابن الله، وإلهاً يخلق (على حدِّ زعم النصارى) صار خروف الله ـ وحاش أن يضاف إليه خروف إلا على سبيل الخلق والملك، وإنما يضاف الخروف إلى من يتخذه للأكل أو الذبح، أو لمن يربيه للفحلة، أو لعبي يلعب به، ويصبغه بالحناء، وتعالى الله عن كلِّ هذا، فصحَّ أنها من عمل عيَّار مستخفٍ، ونعوذ بالله من الضلال»[1].

أقول هذا ليس بمستغرب من أمة تنقصت الله ـ جل وعلا ـ، ووصفته بما لا يليق بجلاله، وعظيم سلطانه أن تطعن في أنبيائه.

قال ابن القيم: «ولم يقنعهم هذا القول في ربِّ السمٰوات والأرض، حتى اتفقوا بأسرهم على أن اليهود أخذوه، وساقوه بينهم ذليلاً مقهوراً، وهو يحمل خشبته التي صلبوه عليها، واليهود يبصقون في وجهه، ويضربونه، ثم صلبوه وطعنوه بالحربة، حتى مات، وتركوه مصلوباً حتى التصق شعره بجلده، لمَّا يبس دمه بحرارة الشمس، ثم دفن، وأقام تحت التراب ثلاثة أيام، ثم قام بلاهوتيته من قبره.

هذا قولهم جميعهم، ليس فيهم من ينكر منه شيئاً»[2]. قاتلهم الله أنى يؤفكون من أمة زعمت أنها بهذا المعتقد في عيسى ابن مريم عليه السلام قصدت إكرامه وتبجيله، كما قيل في المثل «عدوٌّ عاقل خيرٌ من صديق أحمق»، لأنهم كما قال ابن القيم: «قصدوا تعظيم المسيح فاجتهدوا في ذمِّه وتَنَقُّصه،

---

(١) «الفصل» (٢/ ١٧١، ١٧٣).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٩٠). وانظر: «هداية الحيارى» (ص٢٠٩)، و«الجواب الصحيح» (٢/ ١٠٨)، و«إظهار الحق» (٢/ ١٣١١) حيث نقل نص إنجيل لوقا، وفيه: «كانوا يستهزؤون به وهم يجلدونه وغطوه، وكانوا يضربون وجهه ويسألونه قائلين: تنبأ من هو الذي ضربك...».

والإزراء به، والطعن عليه، وكان مقصودهم بذلك التشنيع على اليهود، وتنفير الناس عنهم وإغراءهم بهم، فَنَفَّرُوا الأمم عن النصرانية، وعن المسيح ودينه أعظم تنفير»[١].

ومع هذا كله يعتقد النصارى أن المسلمين تنقصوا المسيح حيث قالوا عنه: عبد الله ورسوله كما نطق به القرآن الكريم في سورة آل عمران والنساء والمائدة والزخرف[٢].

قال ابن القيم في رد هذا الافتراء في نونيته:

ونظير هذا قول أعداء المسيح ... من النصارى عابدي الصلبان
إنّا تنقصنا المسيح بقولنا ... عبد وذلك غاية النقصان

إلى أن قال رحمه الله:

فانظر إلى تبديلهم توحيده ... بالشرك والإيمان بالكفران
وانظر إلى تجديده التوحيد من ... أسباب كُلِّ الشرك بالرحمٰن
واجمع مقالتهم وما قد قاله ... واستدع بالنُّقَادِ والوُزَّانِ
عقل وفطرتك السليمة ثمَّ زن ... هذا وذا لا تطغ في الميزان
فهناك تعلم أي حزبينا هو ... المتنقِّص المنصوص ذو العدوان
رامي البريء بدائه ومصابه ... فعل المباهت أوقح الحيوان
لمعيِّر للناس بالزغل الذي ... هو ضربُهُ فاعجب لذي البهتان
يا فرقة التنقيص بل يا أمة الدَّ ... عوى بلا علم ولا عرفان[٣]

فانظر إلى ديانة القوم كيف أنهم لأجل حماية أصولهم الفاسدة،

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٨٦، ٢٨٧).
(٢) انظر: سورة آل عمران: ٤٩، والنساء: ١٧١ ـ ١٧٢، والمائدة: ٧٥، الزخرف ٥٧ ـ ٥٩.
(٣) «النونية» (ص١٧٣ ـ ١٧٤).

يطعنون في الأنبياء، ويتهمونهم، وينسبون لهم القبائح[١]، ويعتدون في حقهم ومنزلتهم برفعهم فوق بشريتهم، أو إنزالهم عن درجة النبوة، وحاق بهم ما افتروا به على الأنبياء من اللعنة على لسان داود وعيسى ابن مريم، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾ [المائدة: ٧٨].

(١) انظر: «إظهار الحق» (١٢٢٩/٤) لرحمت الله الهندي.




الفصل الثاني

صور الاستهزاء
في العصور الأولى من الإسلام

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: صور من الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ.

المبحث الثاني: صور من الاستهزاء بالدين ـ أصوله وفروعه ـ.

المبحث الثالث: صور من الاستهزاء بالرسول ﷺ.

المبحث الرابع: صور من الاستهزاء بالصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ وسائر المؤمنين.




المبحث الأول

صور من الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: صور من استهزاء المشركين بالله ـ تبارك وتعالى ـ.

المطلب الثاني: صور من استهزاء أهل الأهواء والبدع بالله ـ تبارك وتعالى ـ.

* * * * *

❑ المطلب الأول ❑

صور من استهزاء المشركين بالله ـ تبارك وتعالى ـ

تقدم معنا أن الأصل في حق الله ـ تبارك وتعالى ـ التعظيم والمحبة والإجلال والإكرام، ويكون ذلك بإخلاص الدين له ﷻ؛ بتحقيق التوحيد له ـ تبارك وتعالى ـ، هذا هو الذي جاءت به الرسل، وأنزلت من أجله الكتب، وجردت في سبيله سيوف الجهاد، وقطعت رقاب الكافرين والمعاندين لأجله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ...﴾ [النحل: ٣٦][1]، ولكن يوم أن تنحرف الفطر عن سبيل الله، وتتلوث العقول بأفكار البشر، وما يزينه الشيطان لأصحاب

---

(١) انظر: الآيات في هذا المعنى: «فتح المجيد» (ص٢٢ ـ ٢٣)، تحقيق الأرناؤوط، و«دعوة التوحيد» (ص٣٨ ـ ٣٩) للهراس.

الضلال؛ باتباع الأهواء، واعتناق دين الجاهلية «الشرك بالله تعالى» الذي ما أوذي الله بمعصية أعظمَ منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

فأعظم صورة من صور الاستهزاء الشرك بالله تعالى في ألوهيته وربوبيته، ومنه الإشراك به في حكمه، فالشرك بالله تعالى متضمن للاستهزاء والتنقص بالخالق جلَّ وعلا، وكفى بذلك قبحاً وسفاهة أن يصل إيذاء المخلوق الضعيف إلى الخالق القوي العزيز. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهؤلاء الضالون مستخفون بتوحيد الله ويعظمون دعاء غير الله من الأموات، فإذا أمروا بالتوحيد ونهوا عن الشرك استخفوا به كما أخبر تعالى عن المشركين بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الفرقان: ٤١]، فاستهزءوا بالرسول ﷺ لما نهاهم عن الشرك؛ وقال تعالى عن المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات: ٣٥ ـ ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٤ ـ ٥]»، وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ آيات كثيرة، ثم قال: «وما زال المشركون يسفهون الأنبياء ويصفونهم بالجنون والضلال والسفاهة كما قال قوم نوح لنوح وعاد لهود: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، فأعظم ما سفهوه لأجله وأنكروه هو التوحيد؛ وهكذا تجد من فيه شبه هؤلاء من بعض الوجوه إذا رأى من يدعو إلى توحيد الله وإخلاص الدين له، وأن لا يعبد الإنسان إلا الله، ولا يتوكل إلا عليه استهزأ بذلك لما عنده من الشرك، وكثير من هؤلاء يخربون المساجد فتجد المسجد الذي يبنى للصلوات الخمس معطلاً مخرباً ليس له كسوة إلا من الناس، كأنه خان من الخانات، والمسجد الذي بني على الميت فعليه الستور وزينة الذهب والفضة

والرخام[١]، والنذور تغدوا وتروح إليه، فهل هذا إلا من استخفافهم بالله وآياته ورسوله وتعظيمهم للشرك؟»[٢].

وقال الشيخ: عبد الله بن عبد الرحمٰن أبا بطين رَحِمَهُ اللَّهُ: «... ومن المعلوم أن الشرك إنما حُرِّم لقبحه في نفسه، وكونه متضمناً مسبَّة الرب، وتنقصه، وتشبيهه بالمخلوقين، فلا تزول هذه المفاسد بتغيير اسمه كتسميته توسلاً وتشفعاً وتعظيماً للصالحين، وتوقيراً لهم ونحو ذلك، فالمشرك مشرك شاء أم أبى، كما أن الزاني زانٍ شاء أم أبى، والمرابي مرابٍ شاء أم أبى... فلو كان الحكم دائراً مع الاسم لا مع الحقيقة لم يستحقوا الذمَّ، وهذه من أعظم مكائد الشيطان لبني آدم قديماً وحديثاً، أخرج لهم الشرك في قالب تعظيم الصالحين، وتوقيرهم، وغيّر اسمه بتسميته إياه توسلاً وتشفعاً، ونحو ذلك، والله الهادي إلى سواء السبيل»[٣].

نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى، ومن الحور بعد الكور، أصبح الشرك بالله تعالى في عبادته وربوبيته تعظيماً وتوقيراً، وانتقص بذلك الإله الخالق، وأصبح توحيده، وإفراده بالعبادة والقصد؛ استهزاءً في عرف من انتكست فطرهم وتغيرت مفاهيمهم، فهل هناك أعظم من هذا النقص والاستهزاء وسوء الظن برب العالمين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «... وهذا لأن الشرك هَضمٌ لحق الربوبية،

---

(١) هذا الكلام من شيخ الإسلام لا يفهم منه أنه يدعو إلى زخرفة المساجد وتزيينها بالذهب والفضة والرخام، بدعوى عمارتها، كما قد يتوهم وإنما مقصوده اهتمامهم بالمظاهر الشركية، وتعظيمها أكثر من بيوت الله تعالى.

(٢) «الدرر السنية» (٨/ ١٤٧ ـ ١٤٨)، وأصل النص جاء في «تلخيص الاستغاثة» (ص٣٤٦ ـ ٣٥٠) متفرقاً بغير هذا السياق الذي جاء في الدرر، فكأنه نقل من هناك بتصرف واختصار، والله أعلم.

(٣) «الدرر السنية» (٢/ ١٤٤) جمع عبد الرحمٰن بن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وتنقص لعظمة الألوهية، وسوء ظن برب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح: ٦]، حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده، ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه(١)، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً ونداً، يحبه، ويخافه، ويرجوه، ويذل له، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، أي: يجعلون له عدلاً في العبادة والمحبة والتعظيم. وهذه التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا ـ وهم في النار ـ أنها كانت ضلالاً وباطلاً، فيقولون لآلهتهم وهم في النار معهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨]، ومعلوم أنهم ما سووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا: إن آلهتهم خلقت السمٰوات والأرض، وأنها تحيي وتميت، وإنما سووها به في محبتهم لها، وتعظيمهم لها، وعبادتهم إياها كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام»(٢).

ومن العجب أن أهل هذا الشرك، قد فعلوا فعل اليهود، فلبسوا الحق بالباطل، وكتموا الحق وهم يعلمون أو لا يعلمون، حيث نبزوا أهل التوحيد الخالص وألحقوا بهم فرية هم منها براء؛ فقالوا عنهم: يحتقرون ويزدرون الأولياء والصالحين وينتقصونهم إذ لم يسيروا فيهم سيرة أهل الشرك والغلو.

قال ابن القيم ـ أيضاً ـ: «ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى

(١) سورة الأنعام: الآية ٩١، وسورة الحج: الآية ٧٤، وسورة الزمر: الآية ٦٧.
(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٦٠ ـ ٦١)، و«الدرر السنية» (٢/ ١٥٤)، و«بدائع التفسير» (٤/ ١٦ ـ ١٧).

التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين، وما ذنبهم إلا أنهم قالوا: إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وأنهم لا يشفعون لعابديهم أبداً...»(١).

فأي الطائفتين وأي الحزبين أولى بهذا الجرم الكبير؟ من يعتقد بالتوحيد، ويحقق العبادة كما أمر الله تعالى، أم من يسلك مسالك عمرو بن لحي بن عامر الخزاعي(٢)، الذي كان أول من نصب الأنصاب حول البيت، وغيّر ما كان من ملة إبراهيم الحنيفية السمحة، شريعة التوحيد.

يقول ابن تيمية: «... فإذا كان دعاء الموتى مثل الأنبياء والصالحين، يتضمن هذا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله فأي الفريقين أحق بالاستهزاء بالله وآياته ورسوله؟ من كان يأمر بدعاء الموتى والاستغاثة بهم مع ما يترتب على ذلك من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، أو من كان يأمر بدعاء الله وحده لا شريك له كما أمرت رسله، ويوجب طاعة الرسول، ومتابعته في كل ما جاء به؟»(٣).

لا شك أن الجواب معروفٌ بداهة عند أهل الفطر المستقيمة، والعقول السليمة، أن الأولى بالاستهزاء والتنقص لله جلَّ وعلا هم أهل الشرك والتنديد، والتسوية، والعدل به في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١].

قال ابن جرير: ﴿يَعْدِلُونَ﴾، يجعلون له شريكاً في عبادتهم إياه،

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٦١). وانظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦).
(٢) انظر: أخباره وأثره على جزيرة العرب، «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٣١٢ - ٣١٤) حيث أورد ما رواه البخاري برقم (٣٥٢١)، ومسلم برقم (٢٨٥٦) بشأنه، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٠٧ - ٢٢١) لابن القيم.
(٣) «تلخيص الاستغاثة» (ص٣٥٣). وانظر: «الدرر السنية» (٨/ ١٤٩) جمع عبد الرحمٰن بن قاسم.

فيعبدون معه الآلهة والأنداد والأصنام والأوثان، وليس منها شيء شركه في خلق شيء من ذلك، ولا في إنعامه عليهم بما أنعم به عليهم، بل هو المتفرد بذلك كله، وهم يشركون في عبادتهم إياه غيره، فسبحان الله ما أبلغها من حجة، وأوجزها من عظة، لمن تفكر فيها بعقل وتدبرها بفهم!»[(١)].

❑ المطلب الثاني ❑

صور من استهزاء أهل الأهواء والبدع بالله تعالى

فمن ضمن تلك الصور ما وجد عند ملاحدة الصوفية وغيرهم من سخرية بالقرآن، وأشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية عن أهل وحدة الوجود قال: «وحدثني الثقة: أنه (أي التلمساني) قُرِئَ عليه فصوص الحكم لابن عربي، وكان يظنه (أي القارئ الذي حدث ابن تيمية) من كلام أولياء الله العارفين، فلمَّا قرأه رآه يخالف القرآن. قال: فقلت له هذا الكلام يخالف القرآن، فقال: القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا، وكان يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول».

ثمَّ علق شيخ الإسلام على هذا الإلحاد من هذا المفتري الذي يصف القرآن بأنه كتاب شرك فقال: «وهؤلاء حقيقة قولهم: هو قول فرعون، لكن فرعون ما كان يخالف أحداً فَيُنَافِقُه ثم يثبت الخالق، وإن كان في الباطن مقراً به وكان يعرف أنه ليس هو إلّا مخلوق، لكن حب العلو في الأرض والظلم دعاه إلى الجحود والإنكار... وأمّا هؤلاء فهم من وجه ينافقون المسلمين، فلا يمكنهم إظهار جحود الصانع، ومن وجه هم ضلال يحسبون

(١) «جامع البيان» (١١/ ٢٥٢) شاكر، وانظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٨٣ ـ ٨٤)، و«زاد المسير» (٣/ ٢)، و«تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١٩٨)، و«الفرقان» (ص٢٤) لابن تيمية.

أنهم على حق وأن الخالق هو المخلوق، فإن كان قولهم هو قول فرعون لكن فرعون كان معانداً مظهراً للجحود والعناد، وهؤلاء: إمّا جهال ضلال، وإمّا منافقون مبطنون الإلحاد والجحود، ويوافقون المسلمين في الظاهر»[١].

ومن صور الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ: عند الملاحدة ـ أيضاً ـ ما نُقل لنا عن ابن عربي[٢]، أنه كان يعشق امرأة جميلة فيريدها عن نفسها لأنها في حدِّ زعمه هي الرب مُتجسداً في صورة أنثى جميلة ـ تعالى الله عن قوله علواً كبيراً ـ، وأنه ما أحبها إلا لأنها أجمل تجليات الحقيقة الإلهية...»[٣].

هذه هي حقيقة الحلول من الخالق في جسد المخلوق، التي تبناها غلاة الصوفية، كهذا الملحد الزنديق الحاقد، وصل به سُخفه ومجونه إلى حدٍّ لا يبلغ منتهاه إلا الأشقياء من أرباب التصوف، وأساطين الإلحاد، وليس هذا بغريب منهم، بل هذه عقيدتهم، وهذا منهجهم، نسأل الله العافية.

ومن صور الاستهزاء بالله تعالى ـ أيضاً ـ: الاستخفاف بالقرآن الكريم، أو بأحدٍ من الكتب السابقة المنزلة على أنبيائه ورسله، قبل التحريف والتبديل، فالاستهانة بهذه الكتب السماوية تنقص بمن أنزلها لتكون مُعظَّمة محكَّمة في أرضه، وفي عباده، قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾ [الأنعام: ٥] «يعني القرآن، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ...﴾ [الجاثية: ٣٥]، فإن القرآن مشتمل على وعيدهم

---

(١) «الفرقان بين الحق والباطل» (ص١٥١ ـ ٢٥٢).

(٢) محمد بن علي بن محمد بن أحمد الطائي الحاتمي المرسي محيي الدين بن عربي، توفي سنة (٦٣٨هـ). انظر: «ميزان الاعتدال» (٣/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠)، «البداية والنهاية» (١٣/ ١٣٢)، و«شذرات الذهب» (٥/ ١٩٠) لابن العماد، و«الأعلام» (٦/ ٢٨١) للزركلي، وعنه دراسة قام بها الشيخ عبد القادر سندي في كتابه: «كتاب ابن عربي الصوفي في ميزان البحث والتحقيق».

(٣) «هذه هي الصوفية» (ص٤٢) عبد الرحمٰن الوكيل. انظر: «السيد البدوي»، دراسة نقدية (ص٣٥ ـ ٣٦) د. عبد الله صابر.

بعذاب الدنيا بالسيف، وعذاب الآخرة، فتلك أنباءٌ أنبأهم بها فكذبوه واستهزءوا به، فتوعدهم بأن تلك الأنباء، سيصيبهم مضمونها.

فلما قال لهم: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾. علموا أنها أنباء القرآن لأنهم يعلمون أنهم يستهزئون بالقرآن، وعلم السامعون أن هؤلاء كانوا مستهزئين بالقرآن...»(١).

ومن صور الاستهزاء بالقرآن: ما يكون من أهل السماع المحرم، والغناء المذموم، وما يحصل لهم من الخشوع والسكون لكلام البشر، ما لا يكون مثله عند سماع القرآن وآياته، **قال ابن تيمية:** «ومثل هذا أنه إذا سمع أحدهم سماع الأبيات يحصل له من الخضوع والخشوع والبكاء ما لا يحصل له مثله عند سماع آيات الله فيخشع عند سماع المشركين المبتدعين ولا يخشع عند سماع المتقين المخلصين، بل إذا سمعوا آيات الله اشتغلوا عنها وكرهوها واستهزءوا بها وبمن يقرأها ما يحصل لهم به أعظم نصيب من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]، وإذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية، وألسن لاغية، كأنهم صم وعمي، وإذا سمعوا الأبيات حضرت قلوبهم وسكنت حركاتهم حتى لا يشرب العطشان منهم ماءً»(٢).

ومن صور الاستخفاف والسخرية بالقرآن الكريم: ما سطره أبو الفرج الأصفهاني حيث قال(٣): قدم ابن ميادة(٤) المدينة زائراً لعبد الواحد بن

---

(١) «التحرير والتنوير» (٧/ ١٣٦) لابن عاشور. وانظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٢٦٨) لابن عطية، و«لباب التأويل» (٢/ ٩٩) للخازن، و«محاسن التأويل» (٣/ ٢٧٦) للقاسمي.

(٢) «تلخيص الاستغاثة» (ص٣٥١). وانظر: «الدرر السنية» (٨/ ١٤٨) جمع عبد الرحمٰن بن قاسم.

(٣) ذكر أبو الفرج القصة بالسند «أخبرني وحدثني»، على عادة المحدثين من أهل الصدق والأمانة في هذه الأمة تدليساً وتمويهاً لترويج أكاذيبه ودسّه على الإسلام وأهله، عليه من الله ما يستحق.

(٤) شاعر مخضرم، من شعراء الدولتين الأموية والعباسية... «الأغاني» (٢/ ٢٦٢).

سليمان بن عبد الملك، وهو أميرها، وكان يسمر عنده في الليل، فقال عبد الواحد لأصحابه: إني أهم أن أتزوج، فأبغوني أيماً. فقال له ابن ميادة: أنا أدلك، أصلحك الله أيها الأمير، قال: على من يا أبا الشُرَحْبِيل؟

قال: قدمت عليك أيها الأمير، فدخلت مسجدكم، فإذا أشبه شيء به، ومن فيه الجنة وأهلها، فوالله لبينا أنا أمشي فيه إذ قادتني رائحةُ عطر رجلٍ، حتى وقفت بي عليه، فلما وقع بصري عليه، استلهاني حسنه، فما أقلعت عنه، حتى تكلم فخلته لما تكلم يتلو زبوراً أو يدرس إنجيلاً، أو يقرأ قرآناً، حتى سكت، فلولا معرفتي بالأمير، لشككت أنه هو، ثم خرج من مصلاه إلى داره، فسألت من هو؟ فأُخبرت أنه للحيين، وبين الخليفتين، وأنه قد نالته ولادة من رسول الله ﷺ لها نور ساطع من غُرته وذؤابته، فنعم المنكح، ونعم حشو الرجل، وابن العشيرة!!!

فإذا اجتمعت أنت وهو على ولد، ساد العباد، وجاب ذكره البلاد، فلما قضى ابن ميادة كلامه.

قال عبد الواحد ومن حضره: ذاك محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وأمه فاطمة بنت الحسين[(١)]...»[(٢)].

ماذا أقول وعن أي شيء أتحدث؟ أعن استخفاف الشعوبي بالكتب السماوية «القرآن والإنجيل والزبور»، التي يُشَبِّه هذا المستهزئ كلام الله فيها بكلام البشر، وبصورة سخيفة ماجنة، وفي خبر أسخف منه يدل على حقارة مختلقة؛ وناظمة من بنيات أفكاره، وسوء معتقده الخبيث، أم أتحدث عن طعن هذا الزنديق في خلفاء الإسلام وأمراء المسلمين، بل وفي حفيد الخليفة عثمان بن عفان، وسبط الإمام الحسين رضي الله عن الجميع، وقبح الله

---

(١) ترجمته في: «السير» (٦/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥)، و«ميزان الاعتدال» (٣/ ٥٩٢)، و«تهذيب التهذيب» (٩/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣).

(٢) «الأغاني» (١/ ٣٢٥) لأبي الفرج الأصفهاني. وانظر: «السيف اليماني» (ص١٨١).

الشعوبية والشعوبيين، الساخرين والمستهزئين بديننا، وبكلام ربنا ﷻ[١].

ومن صور الاستهزاء بالقرآن الكريم ما ذكره الأصفهاني ـ أيضاً ـ: قال: وذكر الإسناد[٢]: «أن أبَّان بن عثمان[٣]، وفد على عبد الملك بن مروان، فأمّره على الحجاز، فأقبل حتى إذا دنا من المدينة، تلقاه أهلها، وخرج إليه أشرافها، فخرج معهم طويس.

فلما رآه سلم عليه ـ ثم ذكر رواية أخرى إلى أن قال: نذري أيها الأمير. قال: ما نذرك؟ قال: نذرت إن رأيتك أميراً في هذه الدار (يعني المدينة النبوية)! أن أغني لك وأرزأُ بدني بين يديك.

فقال له: أوفِ بنذرك، فإن الله ﷻ يقول: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ ...﴾ [الإنسان: ٧]، قال: فأخرج يديه مخضوبتين، وأخرج دُفهُ، وتغنى:

ما بال أهلك يا ربابُ　　　خُزُراً كأنهمُ غضابُ

قال: فطرب أبان حتى كاد يطير!! ثم جعل يقول: حسبك يا طاووس»[٤].

قال الأعظمي: «أرأيت كيف يكون الاستخفاف بتفسير الآيات الكريمة؟ والطعن في فهم أعلامنا لكلام الله تعالى؟ هذا ما يسعى إليه الشعوبيون في كتاباتهم، وأخبارهم، ودسهم»[٥].

---

(١) انظر: «السيف اليماني» (ص١٨٢).

(٢) انظر: «السيف اليماني» (ص٢٧ ـ ٤٣)، حيث تكلم مؤلفه عن الرواة الذين اعتمد عليهم صاحب الأغاني، فمعظمهم من المجروحين والمطعون عليهم عند جهابذة النقّاد من أهل هذا الفن.

(٣) هو أبَّان ابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، الإمام الفقيه، توفي سنة (١٠٥هـ). «السير» (٣٥١/٤ ـ ٣٥٣)، و«تهذيب التهذيب» (٨٨/١ ـ ٨٩)، «البداية والنهاية» (١٩٧/٩).

(٤) «الأغاني» (٢١٩/٤) للأصفهاني. وانظر: «السيف اليماني» (ص١٦٥ ـ ١٦٦).

(٥) «السيف اليماني» (١٦٦ ـ ١٦٧) وليد الأعظمي.

ألم تر إلى هذا الشعوبي كيف يبتر النصوص الشرعية، فيأخذ من الحديث ما وافق هواه، ويصلح لهذا الخبر الباطل، حيث اقتطع من الحديث «أوف بنذرك...» وترك بقيته: «... فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»(١).

ومن صور الاستهزاء بالقرآن وتنقصه: ما ذكره ابن الراوندي(٢)، فقد ألف عدة كتب منها ما يطعن فيه على رسول الله ﷺ(٣)، ومنها ما يطعن فيه على الشريعة الإسلامية(٤)، وأعظمها خطراً وانحرافاً وسوءاً ما ألفه في الرد على القرآن أسماه «الدامغ» يزعم الخبيث أنه دمغ به القرآن بما فيه من الحجج!!!

قال ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعجبي كيف عاش وقد صنف الدامغ يزعم أنه قد دمغ به القرآن، والزمرد، يزري به على النبوات ثم لا يقتل!... ومن بلهه تَتَبُّعُه للقرآن، وقد مرَّ على مسامع سادات العرب فدهش الكل منه، وعجز الفصحاء عنه، فطمع هو من جهله باللغة أن يستدرك عليه فأبان عن فضيحته»(٥).

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأيمان والنذور، باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر، برقم (٣٣١٣) (٣/ ٦٠٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٦٣٧)، رقم (٢٨٣٤).

(٢) هو أحمد بن يحيى بن إسحاق المعروف بابن الراوندي، أحد مشاهير الزنادقة الملحدين، توفي سنة (٢٩٨هـ). «البداية والنهاية» (١١/ ٩٤ ـ ٩٥)، و«المنتظم» (٦/ ٩٩، ١٠٥)، وقد ذكرت ابن الراوندي ومخازيه لمقصد أبان عنه ابن الجوزي بقوله: «وقد ذكر في كتاب الدامغ من الكفر أشياء تقشعر منها الجلود، غير أني آثرت أن أذكر منها طرفاً، ليعرف مكان هذا الملحد من الكفر، ويستعاذ بالله سبحانه من الخذلان». «المنتظم» (٦/ ١٠٢).

(٣) كتابه «الزمرد».

(٤) الكتاب السابق.

(٥) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (٦/ ١٠٠) لابن الجوزي.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وأما ابن الراوندي فهرب فلجأ إلى ابن لاوي اليهودي، وصنف له في مدة مقامه عنده كتابه الذي سماه «الدامغ للقرآن...»[(١)].

قال أبو الوفاء بن عقيل: «ورأيت في كتاب محقق أنه عاش ستاً وثلاثين سنة مع ما انتهى إليه من التوغل في المخازي في هذا العمر القصير لعنه الله وقبحه، ولا رحم عظامه»[(٢)].

قال ابن الجوزي: «وقد نظرت في كتابه «الزمرد» فرأيت فيه الهذيان البارد؛ الذي لا يتعلق بشبهة، حتى أنه قال فيه: «نجد في كلام أكثم بن صيفي أحسن من: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] في نظائر من هذا يشبه المصنف»[(٣)].

وقد مرَّ في كلام ابن عقيل السابق أن ابن الراوندي أخذ يتتبع القرآن، لكي يطعن فيه، ويبين تناقضه[(٤)] ـ على حد زعم المفتري ـ فمن ذلك ما وقف عليه الإمام ابن الجوزي ـ عليه رحمة الله ـ أنه قال عن الخالق تعالى عن ذلك: «من ليس عنده الدواء للداء إلا القتل فعل العدو الحنق الغضوب؛ فما حاجته في كتاب ورسول؟». ثم عقب ابن الجوزي على هذا الطعن السافر، واللمز الساخر بقوله: «وهذا قول جاهلٍ بالله لأنه لا يوصف بالحنق، ولا بالحاجة، وما عاقب حتى أنذر»[(٥)]. قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ...﴾ [النساء:

---

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٩٥). وانظر: «المنتظم» (٦/ ١٠٢) لابن الجوزي.
(٢) المصدر نفسه (١١/ ٩٥).
(٣) «المنتظم» (٦/ ١٠٠) لابن الجوزي.
(٤) سيأتي معنا صورة مطابقة لهذه، عند عميد الأدب العربي!!! طه حسين، في الكلام عن صور الاستهزاء في العصر الحاضر.
(٥) «المنتظم» (٦/ ١٠٢) لابن الجوزي.

١٦٥]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ثم قال ابن الراوندي: «من فاحش ظلمه قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]. فعذّب جلوداً لم تعصه!»، وهذا الأحمق لا يفهم أن الجلد آلة للتعذيب فهو كالحطب يحرق لإنضاج غيره، ولا يقال: أنه معذب، وقد قال العلماء: أن الجلود الثانية هي الأولى أعيدت كما يعاد الميت بعد البلى»(١).

ومن صور السخرية بالقرآن: ما فعله رأس الجهمية(٢) الضال: الجهم بن صفوان كما روى البخاري، قال: حدثني أبو جعفر، حدثني ابن أيوب، قال: سمعت أبا نعيم البلخي، قال: كان رجل من أهل «مرو» صديقاً للجهم، ثم قطعه وجفاه، فقيل له: لم جفوته؟ فقال: جاء منه ما لا يحتمل، قرأت يوماً آية كذا وكذا، ـ نسيها يحيى ـ فقال: ما أظرف محمداً، فاحتملتها، ثمَّ قرأ سورة [طه] فلما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، قال: أما والله لو وجدت سبيلاً لحككتها من المصحف، فاحتملتها، ثم قرأ سورة القصص فلما انتهى إلى ذكر موسى، قال: ما هذا؟

---

(١) المصدر السابق (٦/١٠٣). وانظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية (٢/٦٩)، و«لباب التأويل» (١/٣٩٠) للخازن، و«محاسن التأويل» (٢/٣٩٥) للقاسمي. قال القاسمي: «لهم في التبديل وجهان:

الأول: أنه تبديل حقيقي مادي، فيخلق مكانها جلودٌ أُخر جديدة مغايرة للمحترقة.

الثاني: أنه تبديل وصفي: أي أعدنا الجلود جديدة مغايرة للمحترقة صورة، وإن كانت عينها مادة، بأن يزال عنها الاحتراق ليعود إحساسها للعذاب، فلم تبدل إلا صفتها، لا مادتها الأصلية، وفيه بُعدٌ، إذ يأباه معنى التبديل». «محاسن التأويل» (٢/٣٥٢)، والأول أقرب، لأنه على الحقيقة ومطابق لظاهر الآية.

(٢) الجهمية فرقة كلامية تنتسب إلى الجهم بن صفوان، ينكرون الأسماء والصفات لله تعالى، ولهم عقائد باطلة، قال عنهم الإمام أحمد: «ما أحد على أهل الإسلام أضرّ من الجهمية، ما يريدون إلا إبطال القرآن، وأحاديث رسول الله ﷺ». «طبقات الحنابلة» (١/٤٧) لابن أبي يعلى.

ذكر قصته في موضع فلم يتمها، ثم ذكرها هاهنا فلم يتمها، ثم رمى بالمصحف من حجره برجليه، فوثب عليه»[١].

فهل بعد هذا الامتهان، والقبح ـ من هذا الجهمي المنحرف عن سواء السبيل ـ كفر بواح يمكن أن يصل بصاحبه إلى أن يصف القرآن بركاكة الأسلوب، أو محو آية من كتاب الله، أو رمي المصحف الشريف والوثوب عليه بقدميه، يا لها من شقاوة عاقبتها النار والعياذ بالله.

(١) «خلق أفعال العباد ـ ضمن عقائد السلف» (ص١٢٨ ـ ١٢٩). وانظر وقارن: «شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري» (١/١٦) للشيخ الغنيمان.



صور من الاستهزاء بالدين «أصوله وفروعه»

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

تمهيد: كمال الدين وإتمام النعمة.

المطلب الأول: صور من استهزاء المشركين بدين الله تعالى.

المطلب الثاني: صور من استهزاء اليهود والنصارى بدين الله تعالى.

المطلب الثالث: صور من استهزاء أهل الأهواء والبدع بدين الله تعالى.

* * * * *

❑ التمهيد ❑

كمال الدين وإتمام النعمة

إن من نعم الله على عباده أن شرع لهم ديناً قويماً، وهداهم إليه صراطاً مستقيماً، فحاجة البشر إلى الدين والوحي تفوق حاجتهم إلى الطعام والشراب والطب وغيره، ممَّا لا غنى لهم عنه بمقتضى بشريتهم، فالدين الذي شرعه الله، وأكمله وأتمه على عباده، ببعثة محمد ﷺ إلى أهل الأرض، مؤمنهم وكافرهم، برّهم وفاجرهم، فتحققت السعادة لمن أطاع وأذعن وانقاد لأمره، ووقع في الشقاوة من أعرض وأبى واستكبر عن الإتباع والتسليم.

فقد أخبر الله ﷻ في كتابه عن هذه النعمة فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، روى ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس ﷺ قال: «أخبر الله نبيهُ محمداً ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله ﷻ فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً»[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الجن والإنس، فلا حلال إلا ما أحلَّه الله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه الله، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم دينهم تمت عليهم النعمة، ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه، وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه»[2].

وللعلماء ـ رحمهم الله ـ معانٍ في إكمال الدين، وما المقصود به؟

فمنها: «الإظهار واستعياب عظم الفرائض والتحليل والتحريم»[3]. . . قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: ٩].

قال ابن عطية الأندلسي: «وإتمام النعمة هو ظهور الإسلام، ونور

---

(١) «جامع البيان» (٤/ ٤١٩)، برقم (١١٠٨٤). وانظر: «الدُّر المنثور» (٢/ ٤٥٦) للسيوطي.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١٩ ـ ٢٠). وانظر: «غاية المنتهى» (ص٩ ـ ١١) للعلامة محمد الشنقيطي.

(٣) «المحرر الوجيز» (٢/ ١٥٤) لابن عطية.

العقائد، وإكمال الدين، وسعة الأحوال وغير ذلك مِمَّا انتظمته هذه الملة الحنيفية، إلى دخول الجنة، والخلود في رحمة الله، هذه كلها نعم الله...»[(١)].

وقد جاء رجل من اليهود إلى عمر رضي الله عنه فقال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر يهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أيُّ آية؟ قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾. قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جُمعةٍ»[(٢)].

قال الحافظ: «... فإن قيل: كيف دلت هذه القصة على ترجمة الباب؟ أجيب: من جهة أنها بينت أن نزولها كان بعرفة، وكان ذلك في حجة الوداع، التي هي آخر عهد البعثة حين تمت الشريعة وأركانها، والله أعلم»[(٣)].

ففي هذا العرض الموجز لتفسير آية المائدة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ

---

(١) «المحرر الوجيز» (٢/ ١٥٥). وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٢) للقرطبي.

(٢) رواه البخاري في الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، برقم (٤٥)، «فتح» (١/ ١٢٩)، وفي المغازي، باب حجة الوداع، برقم (٤١٤٥)، وفي تفسير سورة المائدة، باب ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، برقم (٤٣٣٠)، وفي «الاعتصام بالكتاب والسنّة»، أول حديث في الباب، برقم (٦٨٤٠)، ومسلم في التفسير في أوله، برقم (٣٠١٧)، «نووي» (١٨/ ٣٦٠).

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٣٠) لابن حجر العسقلاني، وقد اسْتَوْفَى الكلام عن معنى إكمال الدين في آية المائدة، وما قاله المفسرون وغيرهم من العلماء كالإمام الشاطبي، وابن تيمية: فضيلة شيخنا د/ عابد السفياني في كتاب «الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية» (ص١٣٦ ـ ١٤٧)، وذكر بعض الأقوال المرجوحة حول تفسير الآية، منها: «تفسير الإكمال» بإتمام الحج ونفي المشركين عن البيت كما هو اختيار شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله، وأجاب عن ذلك بأجوبة نافعة وتوجيه سديد، فليراجعه من أراد الفائدة.

دِينَكُمْ . .﴾ الآية كفاية لبيان عظم هذا الدين الذي رضيه الله ﷻ لنا من دون سائر الأديان، وسلامته من العيب والنقصان.

قال ابن القيم: «وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام إيذاناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حُسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيذاناً بدوامها، واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار، وفي دار القرار، وتأمل حُسْن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم إذْ هُمُ القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها، والمنعِمُ بها عليهم فهي نعمته حقّاً وهم قابلوها»[(١)].

وقد شرع الله ﷻ من الحدود ما يقوم على حفظ الدين وكيانه، من التلاعب به مِمَّنْ يتخذه استهزاءً وسخرية، فمن ذلك حَدُّ الردة: الذي ما من كتاب من كتب المذاهب الفقهية المشهورة وغير المشهورة إلا وفيه من ضمن كتاب الحدود، بابُ حكم المرتد، وعمدتهم في ذلك حديث ابن عباس ﷺ: «من بدَّلَ دينه فاقتلوه»[(٢)].

ومن الأمور التي اعتنت بها الشريعة الإسلامية حفظاً لجناب هذا الدين ما يتعلق بأحكام أهل الذمة إضافة إلى شريعة قتل المرتدّ.

قال ابن القيِّم: فأما القتل فجعله ـ أي الشارع ـ عقوبة أعْظَم الجنايات. . . كالجناية على الدين بالطعن فيه، والارتداد عنه، وهذه الجناية

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص٣١٥). وانظر: «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٣ ـ ٤) كلاهما لابن القيم.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، برقم (٣٠١٧)، «فتح» (٦/ ١٧٣)، وفي استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم، برقم (٦٩٢٢)، «فتح» (١٢/ ٢٧٩).

أولى بالقتل، وكفُّ عُدْوان الجاني عليه من كلِّ عقوبة؛ إذ بقاؤه بين أظهُرِ عباده مَفْسدةٌ لهم، ولا خير يرجى في بقائه، ولا مصلحة؛ فإذا حَبَسَ شرُّه وأمسك لسانه وكف أذاه والتزم الذلَّ والصَّغار وجريان أحكام الله ورسوله عليه وأداء الجزية لم يكن في بقائه بين أظهُرِ المسلمين ضرر عليهم»[١].

ومن المعلوم أن أعظم مقاصد الشريعة حماية الدين وحفظ جنابه من الطعن والإزدراء والتحقير، ولذا نأتي على نماذج وصور من السخرية والاستهزاء بالدين وأصوله وفروعه «عقائده وأحكامه»، إذ لا فرق عند العلماء المحققين بين الأصول والفروع، والعقائد والأحكام[٢]، خاصة عند النظر إلى مصدرها ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

❏ المطلب الأول ❏

صور من استهزاء المشركين بدين الله تعالى

فمن صور الاستهزاء بالدين: ما وقع من كفار قريش في مكة، عندما واجهوا النبي ﷺ بالتكذيب والعناد، وكذلك فعلوا بما أتى به من عقيدة فقد سخروا من معتقد البعث والنعيم والعذاب.

أمّا البعث فقولهم ـ كما ذكره القرآن ـ:

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٩]، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ . . .﴾ [النحل:

---

(١) «إعلام الموقعين» (٢/٩٦) لابن القيم. وانظر: «الموافقات» (٢/٨ ـ ١٠) للشاطبي.

(٢) انظر: «الفرقان» (ص١٠٦) لابن تيمية، و«مختصر الصواعق» (ص١٠٦، ٤٨٩ ـ ٤٩٥) محمد الموصلي، فقد أوضح ابن القيم ﷺ أصل هذا التفريق ومنشأه، ثم ذكر فروقاً كثيرة فأبطلها، مبيناً أثر ذلك على دين الإسلام، وطريقة سلف الأمة ـ رضوان الله عليهم ـ. و«حول تطبيق الشريعة» (ص٩ ـ ٢٩) محمد قطب، حيث بيّن ـ حفظه الله ـ ارتباط العقيدة بالشريعة في دين الله.

٣٨]، وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾ [المؤمنون: ٣٥ ـ ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

ـ أمَّا النعيم والعذاب فتكذيب المشركين بهما وكفرهم بهما داخل في إنكارهم البعث كما بينته الآيات السابقة، وقد أخبر الله ﷻ أن المشركين قالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا[1] قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، استخفافاً بذلك اليوم وما فيه من الحساب، ثم النعيم المقيم، أو العذاب الشديد.

قال القرطبي: «... أي: قبل يوم القيامة في الدنيا إن كان الأمر كما يقول محمد، وكلٌّ هذا استهزاءٌ منهم...»[2].

وقال ابن الجوزي: «... وعلى جميع الأقوال، إنما سألوا ذلك استهزاءً، لتكذيبهم بالقيامة...»[3].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد»[4].

ويزيد الأمر وضوحاً ـ عن مقولة الكفار الفاجرة ـ أبو الحسين إبراهيم بن عمر البقاعي فيقول: «ولمَّا كان المراد بهذا المبالغة في الاستهزاء بطلب العذاب في جميع الأزمان التي بينهم وبين القيامة، أسقطوا حرف الجرِّ وقالوا: ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ فجعلوا جميع الزمان الذي بينهم وبينه

---

(١) قال الراغب: «القِطُّ: الصحيفة... وأصل القِطّ: الشيء المقطوع عرضاً، كما أن القِدَّ المقطوع طولاً، والقِطُّ: النصيب المفروز». «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٦٧٦)، والمقصود هنا العذاب.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٤٠).

(٣) «زاد المسير» (٧/ ١٠٩ ـ ١١٠).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٥).

ظرفاً لذلك، وجعلوا تعجيله من الإحسان إليهم، دلالة على الإغراق في الاستهزاء، وعبَّر بالقط زيادة في التنبيه على ركوب الهوى من غير دليل... فكأنهم قالوا: عجل من ذلك ما يكون مقطوعاً به لا شك فيه ويسمع صوته على غاية الشدَّة فيهلك ويفرق بين الأحباب ويكتب في كل صك، ويتلى خبره في سائر الأحقاب، فإن ذلك هو أنا لا نرجع عنه أصلاً، فسبحان الحليم الذي أكرمنا ورحمنا بنبي الرحمة فلم يعجل لنا النقمة، وأقبل بقلوبنا إليه، وقصر هممنا بعد أن كانت في أشد بعد عليه...»[1].

وقد ذكر الله تعالى حال هؤلاء المشركين الذين يسخرون من عذاب الله تعالى ويستبعدون وقوعه، بأنه آتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب والاستهزاء كما حاق بأسلافهم من الأمم السابقة، والقرون السالفة، مع ضعف هؤلاء، وقوة أولئك، وأنهم كانوا أكثر أموالاً وأولاداً واستعلاءً في الأرض، وعمارة لها[2]، قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾ [الأنعام: ٥].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فسوف يرون ما استهزءوا به أنه الحق والصدق، ويبين للمكذبين كذبهم وافتراءهم، وكانوا يستهزئون بالبعث والجنة والنار، فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذبين: ﴿هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ [الطور: ١٤]»[3].

❑ المطلب الثاني ❑

صور من استهزاء اليهود والنصارى بدين الله تعالى

ومن صور الاستهزاء والسخرية بالدين: ما لقيه الرعيل الأول من

---

(١) «نظم الدرر» (٦/ ٣٦٨).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٩٩)، و«عمدة التفسير» (٢/ ١٣ ـ ١٤).
(٣) «تيسير الكريم الرحمن..» (٢/ ١٧٤).

تنقص اليهود لدين الله ﷻ، وقد ذكره الله تعالى عنهم في [سورة آل عمران: ٧٢] وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه مكيدة أرادوها لِيُلَبِّسُوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوَروا بينهم ألا يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلون مع المسلمين صلاة الصبح؛ فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردَّهُم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين؛ ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾»[1].

وقد ذهب بعض أهل التأويل إلى أن الأمر المُؤمن به من قبل اليهود أول النهار هو التصديق بالنبي ﷺ في نبوته، وما جاء به من عند الله، وأنه حق، وذلك كله في الظاهر، من غير اعتقاد وانقياد ومحبة في الباطن، بل الكفر به واعتقاد أنه كاذب فيما ادعاه من النبوة والرسالة؛ وأنه جاء بالدين الحق من عند الله تبارك وتعالى[2].

هذا كله من الاستهزاء العملي الذي كانت تمارسه اليهود في مقابلة دين الحق، والتشكيك فيه ومحاولة صد الناس عنه. مع ما كانوا عليه من الاستهزاء بالقول من لمز وهمز ونحوه.

ومن صور استهزاء اليهود بدين الله وشريعته أيضاً: ما حدث في الصدر الأول من تلاعب اليهود بأحكام الله في التوراة والقرآن، فقد غيروا وبدَّلوا نصوص التوراة التي جاء بها موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ أُتِيَ بيهودي ويهودية قد زنيا،

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٥٨). وانظر: «في ظلال القرآن» (١/٤١٥) لسيد قطب، و«اليهود في القرآن والسنّة» (٢/١٦٣) محمد أديب صالح.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٦/٥٠٦ ـ ٥٠٨، شاكر) للطبري، «اليهود في القرآن والسنّة» (٢/١٥٩ ـ ١٦١، ٣/١٠) محمد أديب صالح.

فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود، فقال: ما تجدون في التوراة على من زنى؟ قالوا: نسوّد وجوههما ويطاف بهما، قال: فأْتوا بالتوراة إن كنتم صادقين، فجاؤوا بها فقرأوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ: «مُرْهُ فليرفع يده؛ فرفعها، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمها فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه»[(١)].

كان هؤلاء اليهود الذين اتخذوا آيات الله هُزُواً ولعباً، وتلاعبوا بأحكام التوراة والقرآن، ظانين أن رسول الله لا يعلم كيدهم ومكرهم واستهزاءهم، فكانوا يقولون: نأتي هذا النبي فإنه بعث بالتخفيف، فإن أفتى بما نحب ـ وهو خلاف الرجم ـ احتججنا به عند الله، فخاب فألهم، وانكشف مكرهم، وتنزل الوحي على المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ موضحاً تلاعبهم بحكم الله وشريعته، ومخيراً النبي الكريم بين أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم، قال تعالى: ﴿... فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٤٢ ـ ٤٣].

هؤلاء أدعياء الإيمان، والعمل بالتوراة، وقد قام الدليل على نقض هذه الدعوى العريضة، فأين الإيمان من هذا الصنيع؟ عبثاً بأحكام التوراة،

---

(١) رواه البخاري في التفسير، باب: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، برقم (٤٥٥٦)، «فتح» (٨/ ٧٢)، وفي الحدود، باب أحكام أهل الذمة، وإحصانهم، إذا زنوا ورفعوا إلى الإمام، برقم (٦٨٤٠)، «فتح» (١٢/ ١٧٢)، ومسلم في الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، برقم (١٦٩٩)، «نووي» (١١/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) واللفظ له.

وسلوكاً غير أخلاقي في العدول عنها إلى آراء البشر، وأنظمتهم، منتقصين بذلك دين الله الذي شرعه في شريعة موسى ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ[(١)]. وما ذاك إلا أنهم كما قال ابن كثير: «تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمة»[(٢)].

ويزيد الأمر وضوحاً ما رواه البراء بن عازب ﷺ قال: **مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي مُحمماً مجلوداً فدعاهم ﷺ فقال: «هكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟» قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟» قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فَكُنَّا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدَّ، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» فأمر به فرجم...»**[(٣)].

يقول سيد قطب: «واستخدام مثل هذه الوسيلة من اليهود يشي بمدى غيظهم، كما يشي بسوء الأدب، وخسة الوسيلة، وانحطاط السلوك»[(٤)].

ففي هذا القصص من القرآن والحديث النبوي عبرة وعظة لهذه الأمة، وتحذيراً من أن تَسلك مسلك اليهود في التحريف والتبديل، والتلاعب بأحكام الشريعة، ولكن تأبى طوائف من الأمة الإسلامية، إلا أن تسلك طريق المغضوب عليهم، وذلك وفقاً للسنن الربانية، وتقليداً من بعض

---

(١) انظر: «اليهود في القرآن والسنّة» (٣/ ٦٧) محمد أديب الصالح.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٥٤).

(٣) رواه مسلم في كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، برقم (١٧٠٠)، «نووي» (١١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

(٤) «في ظلال القرآن» (١/ ١٠١).

المسلمين بمن سبق من الأمم الماضية ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن صور الاستهزاء بالدين ـ أيضاً ـ: ما كان يفعله اليهود عندما يسمعون الأذان، وعند قيام المسلمين للصلاة، وحال سجودهم.

فكانوا «إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا؛ وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا ـ زاد ابن الجوزي: «على سبيل الاستهزاء والضحك» ـ، وقالوا في حق الأذان: لقد ابتدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم، فمن أين لك صياح مثل صياح العير؟ فما أقبحه من صوت، وما أسمجه من أمر.

وقيل: إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة، تضاحكوا فيما بينهم وتغامزوا على طريق السخف والمجون؛ تجهيلاً لأهلها، وتنفيراً للناس عنها وعن الداعي إليها.

وقيل: إنهم كانوا يرون المنادي إليها بمنزلة اللاعب الهازئ بفعلها، جهلاً منهم بمنزلتها؛ فنزلت هذه الآية»[(1)]، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: ٥٨] فوصفهم ﷻ بأنهم لا يعقلون «تحقيراً لهم إذ ليس في النداء للصلاة ما يوجب الاستهزاء؛ فجعلُه موجباً للاستهزاء سخافة لعقولهم»[(2)].

وقد حدث في غزوة حنين من بعض ضعاف الإيمان، ومن لم تخلص نفوسهم وقلوبهم لله تعالى، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبي محذورة، قال: «خرجت في نفر فكنَّا ببعض طريق حنين، فقفل رسول الله ﷺ من

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/١٤٦) للقرطبي. وانظر: «زاد المسير» (٢/٣٨٥ ـ ٣٨٦) لابن الجوزي، و«التفسير الكبير» (١٢/٣٣) للرازي، و«فتح القدير» (٢/٥٦) للشوكاني، و«الإحكام شرح أصول الأحكام» (١/١٣٣ ـ ١٣٤) لابن قاسم النجدي.

(٢) «التحرير والتنوير» (٦/٢٤٢) لابن عاشور.

حنين، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق، فأذّن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون فصرخنا نحكيه ونستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ الصوت فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقال ﷺ: **«أيكم الذي سمعتُ صوته قد ارتفع»، فأشار القوم كلهم إليّ وصدقوا، فأرسل كلهم وحبسني، فقال: «قُم فأذن بالصلاة، فقمت ولا شيء أكره إليّ من رسول الله ﷺ، ولا مما يأمرني به: فقمت بين يدي رسول الله ﷺ فألقى إليّ التأذين هو نفسه... ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صُرة فيها شيء من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة أمرّها على وجهه مرتين، ثم مرتين على يديه، ثم على كبده، ثم بلغت يد رسول الله ﷺ سُرَّة أبي محذور، ثم قال: «بارك الله فيك»، فقلت: يا رسول الله مرني بالتأذين بمكة، فقال: «قد أمرتك به» وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهة، وعاد ذلك محبة لرسول الله...»** الحديث(١).

فهذا الفعل المشين كان يصدر من اليهود والنصارى، والمشركين، والمنافقين، إذ ورد النهي عن اتخاذ هؤلاء جميعاً أولياء، بسبب اتخاذهم ديننا هزواً ولعباً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥٧].

---

(١) «المسند» (٣/ ٥٠٠ ـ ٥٠١)، ورواه الترمذي في أبواب الصلاة، باب ما جاء في الترجيع في الأذان، برقم (١٩١) (١/ ٣٦٦)، وقال عنه: حديث صحيح، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب كيف الأذان، برقم (٥٠٠ ـ ٥٠٥) (١/ ٣٤٠ ـ ٣٤٤)، والنسائي في كتاب الأذان، باب كيف الأذان، برقم (١٥٩٦) (١/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨)، وابن ماجه في أبواب مواقيت الصلاة، باب الترجيع في الأذان، برقم (٦٩٣) (١/ ١٢٨).
وأصل الحديث عند مسلم مختصراً، كتاب الصلاة، باب صفة الأذان، برقم (٣٧٩)، «نووي» (٣٢٢)، وصحح الحديث الشيخ الألباني. انظر: «صحيح سنن الترمذي» (ص١٦١، ١٦٢)، و«صحيح سنن أبي داود» (ص٤٧٢، ٤٧٥ ـ ٤٧٧)، و«صحيح سنن النسائي» (ص٦١٣)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (ص٥٨١).

فهي كما قال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: «تَعُمُّ كل من حصل منه ذلك من المشركين وأهل الكتاب، وأهل البدع المنتسبين إلى الإسلام...»[(١)].

ولا شك أنَّ من اتصف بهذه الصفات، سواء كان من المشركين أو أهل الكتاب أو المنافقين وغيرهم، له أكبر نصيب من قوله ﷺ: «**إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان له ضراطٌ حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي التأذين أقبل حتى إذا ثُوِّب بالصلاة أدبر حتى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول له: اذكر كذا واذكر كذا، لما لم يكن يذكر من قبل حتى يظل الرجل ما يدري كم صلّى**»[(٢)].

❏ المطلب الثالث ❏

صور من استهزاء أهل الأهواء والبدع بدين الله تعالى

من صور الاستهزاء عند أهل الأهواء والبدع: ما ذكره الذهبي عن رأس المعتزلة، قال أبو عَوَانة: شهدت عمرو بن عبيد أتاه واصل الغزَّال أبو حذيفة، فقال: ـ وكان خطيب القوم ـ يعني المعتزلة، فقال له عمرو: تكلم يا أبا حذيفة، فخطب، وأبلغ، قال: ثم سكت، فقال عمرو: ترون أنَّ ملكاً من الملائكة أو نبياً من الأنبياء يزيدُ على هذا!!»[(٣)].

ماذا يريد المعتزلة وأرباب الاعتزال؟ أيريدون أن يقنعوا الناس، بأن كلام أئمتهم مساوٍ لكلام الملائكة والأنبياء.

---

(١) «فتح القدير» (٢/ ٥٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب فضل التأذين، برقم (٦٠٨)، «فتح» (٢/ ١٠١)، والحديث في مواضع أُخر (١٢٢٢، ١٢٣١، ١٢٣٢، ٣٢٨٥)، ورواه مسلم في كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان من سماعه، برقم (٣٨٩/ ١٩)، «نووي» (٤/ ٣٣٣ ـ ٣٣٥).

(٣) «ميزان الاعتدال» (٣/ ٢٧٧).

إن من الملائكة من يأتي بالوحي من السماء إلى الأنبياء والرسل، ومنهم من يشتغل بالتسبيح والتهليل والذكر، ومنهم من هو ساجد وراكع منذ خلقه الله لا يرفع رأسه حتى تقوم الساعة[١]، أيريد عمرو بن عبيد، أن يقول: إن كلام واصل بن عطاء لا يمكن أن يزيد عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، أي استخفاف واستهزاء وانتقاص يُطعنُ به في عقائد المسلمين في الملائكة والأنبياء إذا لم يكن هذا، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن صور الاستهزاء عند أهل السماع والحضرة من الصوفية: أنهم إذا كانوا في الحضرة وسمعوا الأذان يقولون: ما نحن فيه خير من الصلاة.

قال ابن تيمية: «... ومن هؤلاء من إذا كانوا في سماعهم فأذن المؤذن قالوا: نحن في شيء أفضل ممَّا دعانا إليه، ومنهم من يقول: كُنَّا في الحضرة فإذا قمنا إلى الصلاة صرنا إلى الباب، وقد سألني بعضهم عمّن قال ذلك من هؤلاء الشيوخ الضلال، فقلت: كذب كان في حضرة الشيطان، فصار على باب الله، فإن البدع والضلالة فيها من حضور الشيطان ما قد فُصِّل في غير هذا الموضع»[٢].

ومن صور الاستهزاء بعقائد المسلمين: ما ذكر أبو الفرج الأصفهاني قال: أخبرني الحسين بن يحيى، عن حماد بن إسحاق، عن أبيه، عن بعض أهل المدينة، قال: خرج الغريض مع القوم، فغنَّاهم هذا الصوت:

جرى ناصح بالودّ بيني وبينها ... فقربني يوم الحصاب إلى قتلي

فاشتد سرور القوم، وكان معهم غلام أعجبه، فطلب إليهم أن يكلموا الغلام في الخلوة معه ساعة، ففعلوا.

فانطلق مع الغلام، حتى توارى بصخرة، فلمَّا قضى حاجته، أقبل

---

(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٩٩ ـ ٣٠١) لابن أبي العزّ الحنفي.

(٢) «الدرر السنية» (١٤٨/٨) جمع عبد الرحمٰن بن قاسم، وعزاه إلى «الرد على البكري» لشيخ الإسلام ولم أقف على ترجمته.

الغلام إلى القوم، وأقبل الغريض، يتناول حجراً حجراً، يقرع به الصخرة، ففعل ذلك مراراً، فقالوا له: ما هذا يا غريض؟

قال: كأني بها، قد جاءت يوم القيامة، رافعة ذيلها، تشهد علينا بما كان منَّا إلى جانبها، فأردت أن أجرح شهادتها عليَّ ذلك اليوم»[(١)].

يريد الأصفهاني بهذا الخبر تصوير مجتمع المدينة النبوية بفشو داء اللواطية فيه، كما أن في الخبر استهزاءً بعقائد المسلمين في يوم القيامة، وطعناً في الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، التي أشارت إلى ذلك اليوم، وما يحدث فيه من إخبار الأرض بما أحدث العباد عليها من معاصٍ، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾.

عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾، قال: «أتدرون ما أخبارها؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كلِّ عبدٍ أو أمةٍ بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، في يوم كذا وكذا، قال: فهذا إخبارُها، فهذا أمرها، فهذه أخبارها»[(٢)].

هذا الذي أشار إليه المفتري «الأصفهاني» من الاستخفاف بالبعث

---

(١) «الأغاني» (٢/ ٣٦٩). وانظر: «السيف اليماني» (ص٢٢٧) للأعظمي.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٤٩٥)، برقم (٨٨٨٩)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة إذا زلزلت الأرض (٥/ ٤١٦)، برقم (٣٣٥٣)، واللفظ له والنسائي في كتاب التفسير، عند تفسير سورة الزلزلة (٦/ ٥٢٠)، برقم (١١٦٩٣)، ورجاله ثقات عدا أبو صالح يحيى بن أبي سليمان، لين الحديث، «تقريب» (ص٥٩١)، وقال عنه أبو حاتم: ليس بالقوي، يُكتب حديثه، وذكره ابن حبان في «الثقات» (٧/ ٦٠٤)، روى له البخاري في الأدب، وأبو داود والترمذي والنسائي. «تهذيب الكمال» (٣١/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣)، وحسَّن الحديث العلَّامة الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (ص٢٧٥).

واستبعاده، هو ما ورد في شعر أبي الطيب المتنبي، حيث يقول:

أأترك لذة الصهباء نقداً … لما وعدوه من لبن وخمر

حياة ثم موت ثم بعث … حديث خرافة يا أُمَّ عمرو

هذا استهزاء بنعيم الجنة، وما فيها من أنهار من خمر ولبن لذةٍ للشاربين، كما أخبر به القرآن الكريم، والعجب من القاضي (علي بن عبد العزيز الجرجاني) إذ يتعجب ممن ينتقص أبا الطيب، ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة، وفساد المذهب في الديانة، ثم ذكر أمثلة على ذلك منها قوله:

يترشَّفْن من فمي رشَفَاتٍ … هُنَّ فيه أحلى من التوحيد[1]

فهو يصور ما يجري بين معشوقين ماجنين أنه أحلى من التوحيد على لسانه، فأي زندقة وألفاظ كفرية يُستهزأ فيها بالتوحيد الذي هو أصل الدين وأساسه، ومفتاح دعوة الرسل، ولا يقبل الله من عبد صرفاً، ولا عدلاً، إذا فقد التوحيد، وَقُدِحَ فيه وَسخِرَ منه، كُلُّ هذا عند القاضي الجرجاني لا يوجب عيب المتنبي، ولا تنقصه، ولا الغضَّ من درجته ومكانته إلا إذا كان يطعن في نسبة مثل هذه الأبيات إليه ـ كما سبق ـ فهذه مسألة أخرى.

ومن صور الاستهزاء بالدين وتنقصه: ما نجده عند الأصفهاني من سخرية بالصلاة والحج التي هي من أجلِّ عبادات المسلمين التي فرضها الله عليهم.

قال أبو الفرج: قال حماد: حدثني أبي، قال حدثني أبو الحسين المدائني[2]، قال: قال معبد: أتيت أبا السائب المخزومي[3] ـ وكان يصلي

---

(١) «الوساطة بين المتنبي وخصومه» (ص٥٧ ـ ٥٨) للجرجاني، والبيت في ديوان المتنبي (١/ ٣١٥)، وينسب إلى ديك الجن. انظر: «ديوان ديك الجن» (ص٧٨ ـ ٧٩).

(٢) من الثقات، كان من شيوخ الإمام أحمد إمام أهل السنّة والجماعة. انظر: «تهذيب التهذيب» (٧/ ٣٠٩).

(٣) قال عنه الذهبي في «الميزان» (٤/ ٥٢٧): «مجهول».

في كلِّ يوم وليلة ألف ركعة ـ فلما رآني تجوّز[1]، وقال: ما معك من مبكيات ابن سريج؟ قلت قوله:

ولهن بالبيت العتيق لبانة والبيت يعرفهنَّ لو يتكلم

فقال لي: غنّه، فغنيته، ثمَّ قام يصلي، فأطال، ثم تجوز إليَّ، فقال: ما معك من مطرباته وشجياته؟ فقلت: قوله:

لسنا نبالي حين ندرك حاجة ما بات أو ظل المطيُّ معقلا

فقال لي: غنِّه، فغنيته، ثمَّ صلَّى وتجوز إلي، وقال: ما معك من مرقصاته؟ قلت:

فلم أر كالتجمير[2] منظر ناظرٍ ولا كليالِ الحج أفتنَّ ذا هوى

فقال: كما أنت، حتى أتحرَّم[3] لهذا بركعتين»[4].

إن في هذا الخبر عدة مطاعن على الدين وأهله، دسها أبو الفرج.

منها: أنه ذكر أبو الحسين المدائني، في السند وهو ينقل هذه القصة عن معبد عن أبي السائب، فكيف ينقل إمام ثقة كالمدائني، وهو من شيوخ الإمام أحمد هذا الخبر الساقط عن رجل «مجهول» كأبي السائب، ففيه من التدليس ما هو ظاهر.

ومنها: الاستخفاف بالصلاة، وتهوين أمرها، والتلاعب بشأنها عندما يصور المفتري «الأصفهاني» أبا السائب العابد!! وهو يصلي ويطيل في صلاته ثم يخففها لكي يسمع الغناء، ويتحرم لسماع بعض الأبيات بركعتين، فهل سُمِعَ مثل هذا الاستهزاء عن المجوس وعُبَّادِهِم؟ أم أنه الدس والتشويه لدين الإسلام.

---

(١) يعني خفف صلاته.
(٢) رمي الجمار أيام الحج.
(٣) أصلي في الحرم.
(٤) «الأغاني» (١/ ٢٧٧).

ومنها: التعريض بفريضة الحج، وأن ليالي الحج وخاصة ليالي منى، مرتع للمفتونين بالنساء، في قوله: «ولا كليال الحج أفتن ذا» ممَّا حدا بأبي السائب أن يصلي ركعتين تبركاً بها لهذا البيت من الشعر، فيا سبحان الله، هل تحول موسم الحج الذي كله توحيد وعبادة وشكر، ووحدة بين المسلمين، إلى مجتمع للمفتونين بالنساء؟ هذا خيال الأصفهاني وما جاء به، ولله الأمر من قبل ومن بعد[(١)].

ومن صور الاستهزاء بالدين: ما نجده مأثوراً عن رؤوس أهل البدع والأهواء، من استخفاف بشعيرة الصلاة والمصلين، كما فعل ثمامة بن الأشرس[(٢)]، قال أبو محمد بن قتيبة: ثمَّ نصير إلى ثمامة فنجده في رقة الدين، وتنقص الإسلام، والاستهزاء به، وإرساله لسانه على ما لا يكون على مثله رجل يعرف الله تعالى ويؤمن به، ومن المحفوظ عنه المشهور أنه رأى الناس يوم الجمعة يتعادون إلى المسجد الجامع لخوفهم فوت الصلاة، فقال لرفيق له: انظر إلى هؤلاء الحمير والبقر... ثمَّ قال: ماذا صنع ذاك العربي بالناس؟ يعني رسول الله ﷺ»[(٣)].

ففي هذا الكلام المأثور عن ثمامة طعن في الإسلام وأهله، فهو يسخر من الصلاة، والذاهب إليها، وهي من أجلِّ عبادات المسلمين، وفيه تنقص

---

(١) انظر: «السيف اليماني» (ص٢٣٢ ـ ٢٣٤) لوليد الأعظمي.

(٢) أبن معين ثمامة بن أشرس النميري البصري، من أئمة المعتزلة، توفي (٢١٣هـ)، وإليه تنسب فرقة الثمامية. انظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ٣٧١ ـ ٣٧٢)، و«الأعلام» (٢/ ١٠٠ ـ ١٠١) للزركلي.

(٣) «تأويل مختلف الحديث» (ص٣٦). وانظر: «السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي» (ص١٤١) لمصطفى السباعي، وقد قال الزنديق الآخر علي بن يقطين مثل هذا عندما رأى الناس يطوفون بالكعبة المشرفة فقال: «ما أشبههم إلا ببقر تدوس في البيدر». انظر: «تاريخ الطبري» (٤/ ٥٩٥) في أحداث سنة (١٦٩هـ)، و«الزندقة والزنادقة» (ص١٦٣) لعاطف شكري.

برسول الإسلام، بوصفه بـ«العربي» في قوله: ماذا صنع هذا العربي بالناس؟ بصيغة فيها انتقاص وازدراء بالنبي ﷺ حسداً وحقداً على أهل الإسلام قاطبة، هذا غيضٌ من فيض ممَّا يظهره أهل الأهواء والنفاق، وما تخفي صدورهم أعظم.

ومن صور الاستهزاء بالدين: ما قد يحدث من بعض السفهاء من الاستخفاف بكتب الفقه الشرعي المبني على الدليل من الكتاب والسنة، **ومن ذلك ما حكاه الإمام القاري ـ عن علماء الحنفية ـ** قال: «وفي المحيط: حُكي أن فقيهاً وضع كتابه في دُكان وذهب، ثُمَّ مرَّ على ذلك الدكان فقال صاحب الدكان: ههنا نسيتَ المنشار، فقال الفقيه: عندك كتابٌ لا منشار، فقال صاحب الدكان: النجار بالمنشار يقطع الخشب وأنتم تقطعون به حلْقَ الناس، أو قال حقَّ الناس، فشكى الفقيهُ إلى الإمام الفضلي، يعني الشيخ محمد بن الفضل، فأمر بقتل ذلك الرجل لأنه كفر باستخفاف كتاب الفقه»[(١)].

قلت: وفي هذا القول استهزاء بالعلم الشرعي الذي فيه قال الله تعالى، وقال رسوله ﷺ، أو فيه حكم شرعي، فَكُلُّ من وقع في مثل هذا القول، وكان هناك قرينة تدلَّ على قصده للاستهزاء بالعلم الشرعي فهو كذلك.

قال القاري: «من أهان الشريعة أو المسائل التي لا بُدَّ منها كفر، ومن ضحك [سخرية] من المُتَيممِ كفر»[(٢)]، لأن ضحكة قرينة تَدُلُّ على الاستهزاء بالحكم الشرعي الذي ثبت بنص صحيح صريح عن المعصوم ﷺ فاستحقَّ الحكم الشرعي، وهو الكفر والعياذ بالله»[(٣)].

---

(١) «شرح ألفاظ الكفر» (ص٦٤ ـ ٦٥)، مصور عن نسخة الشيخ المحدث حماد بن محمد الأنصاري ﷺ، وأجزل له المثوبة.

(٢) «شرح ألفاظ الكفر» (ص٦٥).

(٣) سيأتي في الباب الثالث «حكم الاستهزاء وأقسام المستهزئين» تفصيل الحكم في المستهزئ المعين، وغير ذلك من أحكام في المسألة.



المبحث الثالث

صور من الاستهزاء بالرسول ﷺ

وفيه تمهيد وأربعة مطالب:

التمهيد: الاستهزاء بالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ سنة ماضية.

المطلب الأول: صور من استهزاء المشركين بالرسول ﷺ.

المطلب الثاني: صور من استهزاء اليهود والنصارى بالرسول ﷺ.

المطلب الثالث: صور من استهزاء المنافقين بالرسول ﷺ.

المطلب الرابع: صور من الاستهزاء بالرسول ﷺ بعد العصور الأولى.

* * * * *

❑ التمهيد ❑

الاستهزاء بالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ سنّة ماضية

إن من قدر الله تعالى الكوني الشرعي، عدم ترك الخلق ـ من الإنس والجن ـ بلا رسول، فأرسل لهم الرسل، وجعلهم هم الواسطة بينهم وبينه ـ جل وعلا ـ[١]، وأوجب لهم من الحقوق، كالتعظيم والمحبة والتأدب والاحترام ما هو معلوم ـ عند جماهير المسلمين ـ علماً ضرورياً لا يخالطه شك ولا ريب.

(١) لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة مستقلة في هذا المعنى بعنوان «الواسطة بين الحق والخلق» طبعت عدة طبعات إحداها بعناية الشيخ محمد جميل زينو.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فرأس الأدب معه ﷺ كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه معقولاً أو يحمله شبهة أو شكاً، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل ﷻ بالعبادة، والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته، ومن يعظمه»[١].

وقال أيضاً: «وحقيقة الأدب: استعمال الخُلُق الجميل»[٢] معه ﷺ وسائر إخوانه من النبيين والمرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وذلك عن طريق القلب واللسان والجوارح[٣]، إِذْ كُلٌّ من هذه الأعضاء له وظيفته، وما يجب في حق الرسول عليه الصلاة والسلام من المتابعة والمحبة والتعظيم والتوقير والإجلال[٤].

لكن قد يضعف هذا الأمر عند بعض المسلمين وغيرهم، ويختل هذا الميزان، وينحرف هذا المفهوم عند أصحابه، فيصل بهم إلى حدٍّ؛ يتخذون ما يجب تعظيمه وتوقيره: سخرية واستهزاءً، وذلك وفقاً لتقدير الله الكوني العام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٨٧)، وانظر وقارن: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٠١) وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٣٨١).

(٣) انظر: «الصارم المسلول» (ص٤٢٥ ـ ٤٢٦).

(٤) انظر: رسالة الشيخ حسن نور حسن «التأدب مع الرسول ﷺ» (ص١٣٩ ـ ٢٥٣)، حيث بيّن أنواع الأدب الثلاثة: (القلبي ـ والقولي ـ والعملي).

﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ⑩﴾ [الأنعام: ١٠، والأنبياء: ٤١]. «هذه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة، في الدنيا والآخرة...»(١).

فهذه الآية كما قال الطاهر ابن عاشور: «عطف على جملة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، لبيان تفننهم في المكابرة والعناد تصلباً في شركهم وإصراراً عليه، فلا يتركون وسيلة من وسائل التنفير من قبول دعوة الإسلام إلا توسلوا بها، «ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ المناسبة بين الآيتين» أنهم كانوا في قولهم ذلك قاصدين التعجيز والاستهزاء معاً، لأنهم ما قالوه إلا عن يقين منهم أن ذلك لا يكون... فقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يدلُّ على جملة مطوية إيجازاً، تقديرها واستهزءوا بك، ولقد استهزأ أمم من قبلك، لأن قوله: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يؤذن بأنه قد استهزئ به هو أيضاً وإلا لم تكن فائدة في وصف الرسل بأنهم من قبله لأن ذلك معلوم.

وَحَذَفَ فاعل الاستهزاء، فبنى الفعل على المجهول لأن المقصود هنا هو ترتيب أثر الاستهزاء لا تعيين المستهزئ»(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ⑪ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ⑫ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ⑬﴾ [الحجر: ١١ ـ ١٣].

قال أبو جعفر: «يقول: وما يأتي شيع الأولين من رسول من الله يرسله إليهم بالدعاء إلى توحيده، والإذعان بطاعته، إلا كانوا به يستهزئون، يقول: إلا كانوا يسخرون بالرسول الذي يرسله الله إليهم عتواً منهم، وتمرداً على ربهم»(٣).

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٠١) لابن كثير، و«عمدة التفسير» (٢/ ١٠٥) أحمد شاكر.
(٢) «التحرير والتنوير» (٧/ ١٤٦ ـ ١٤٧) باختصار.
(٣) «جامع البيان» (٢/ ٤٩٤) للطبري.

«وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين هذا أحدهما[١]، والثاني: في سورة الشعراء: ١٩٨ ـ ٢٠١، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾.

قال ابن عباس: سلك الشرك في قلوب المكذبين كما سلك الخرزة في الخيط، وقال أبو إسحاق: أي كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا بمن تقدم من الرسل كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين»[٢].

«واختلفوا في مفسر الضمير في قوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾، قال ابن عباس: سلكنا الشرك، وقال الزجاج وغيره: هو الضلال.

وقال الربيع: يعني الاستهزاء.

وقال الفرَّاء: التكذيب»[٣].

قال ابن القيم بعد أن ذكر هذه الأقوال: «وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد: التكذيب والاستهزاء والشرك، كل ذلك فعلهم حقيقة، وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم، وعندي ـ والقول لابن القيم ـ في هذه الأقوال شيء، فإن الظاهر أن الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هو الضمير في قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾، فلا يصح أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء؛ فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مُفسر الضميرين، والظاهر اتحاده[٤]، فالذي لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم، وهو القرآن، فإن قيل: فما معنى سلكه إياه في قلوبهم وهم

---

(١) يشير إلى الآية (١١ ـ ١٢) من سورة الحجر.

(٢) انظر: «لباب التأويل» (٣/٤٩ ـ ٥٠) للخازن.

(٣) «شفاء العليل» (ص١٣٣ ـ ١٣٤) لابن قيم الجوزية. وانظر: «زاد المسير» (٤/٣٨٥) لابن الجوزي.

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٥٢) لابن عطية.

ينكرونه؟ قيل: سلكه في قلوبهم بهذه الحال، أي سلكناه غير مؤمنين به، فدخل في قلوبهم مكذباً به كما دخل في قلوب المؤمنين مصدقاً به... فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به، قيل: لتقوم عليهم بذلك حجة الله، فدخل في قلوبهم، وعلموا أنه حق وكذبوا به فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدق به مؤمن به مرضي به، وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفراً من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم.. فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شرٌّ من المكذب به ولم يعرفه، فتأمله فإنه من فقه التفسير، والله الموفق للصواب»(١).

إذا علمت أن الاستهزاء بالرسل، من أقوال وأعمال المكذبين بهم، المعاندين لدينهم كما فعل كفار قريش في مكة، فقد سخروا بالنبي ﷺ، وآذوه أشد الإيذاء، بالقول: شعراً ونثراً، وبالفعل والعمل، مما كان السبب في أنه حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وسوف أذكر طرفاً من صور الاستهزاء به ﷺ(٢)، على سبيل التحذير والإنذار من الوقوع في شيء منها، أو غيرها، لا على سبيل التفكه بعرض المصطفى ﷺ، قال شيخ الإسلام، وقد نقله عن القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليس التَّفكُّه بعرض النبي ﷺ، والتمضمض بسوء ذكره لأحد لا ذاكراً له ولا آثراً لغير غرضٍ شرعي مباح»(٣).

فيؤخذ مما ذكره ابن تيمية، ونقله عن القاضي عياض، أن ذكر شيء

---

(١) «شفاء العليل» (ص١٣٣ ـ ١٣٤).

(٢) بعض أهل العلم شدد في هذا، ومنع منه. قال الهيثمي: «وقد قال أبو عبيد القاسم بن سلام: من حفظ شطر بيت مما هجي به ﷺ كفر، وأجمعوا على تحريم رواية ما هجي به ﷺ وكتابته وقراءته». «الإعلام بقواطع الإسلام» (ص٣٨٦).

(٣) «الفتاوى الكبرى» (٣/ ٤٧٧)، و«مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٠٢ ـ ١٠٣) كلاهما لابن تيمية.

مما طعن به الرسول ﷺ، إن كان على سبيل الرد والذب عن عرضه الشريف، فهو غرض نبيل جاءت الشريعة بالحث عليه، ويتفق مع قواعد الدين وأصوله، ومقاصد الشريعة.

❑ المطلب الأول ❑

صور من استهزاء المشركين بالنبي ﷺ

واجه النبي ﷺ صنوفاً من الأذى والاستهزاء والسخرية في أول البعثة من قومه ـ كفار مكة ـ وكان ذلك بالقول والفعل سواءً بسواء، أمَّا القول فمثل قولهم عنه: «ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون».

وأمَّا فعلهم: فكسر رَباعيته، وشج وجهه ﷺ يوم أُحد، وبمكة: إلقاء السَّلي على ظهره وهو ساجد»[(١)]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧][(٢)].

ومن استهزاء مشركي مكة قولهم ـ كما ذكره القرآن ـ في سورة [الفرقان: ٤١ ـ ٤٢]: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.

قال أبو جعفر: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإذا رآك هؤلاء المشركون الذين قصصت عليك قصصهم: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾، يقول: ما يتخذونك إلا سخرية يسخرون منك، يقولون: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ﴾ إلينا ﴿رَسُولًا﴾ من بين خلقه»[(٣)].

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ١٥٣) للقرطبي، و«معالم التنزيل» (٣/ ٥٤٣) للبغوي، و«السيرة النبوية» (١/ ٢٨٩) لابن هشام.

(٢) انظر ما كتبه ابن كثير ﷺ حول الآية (٣/ ٣٢٨)، وابن الجوزي ﷺ (٦/ ٤١٩ ـ ٤٢٠).

(٣) «جامع البيان» (٩/ ٣٩٢) للطبري. وانظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١١) لابن عطية، و«تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥١١) لابن كثير، و«محاسن التأويل» (٥/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤) للقاسمي.

فهذه المقولة الفاجرة لم تصدر من كفار قريش عموماً، أو من أبي جهل على القول بأنها نزلت فيه على الخصوص[١] لم تَكُنْ عن قناعة واعتقاد منهم بأنه يستحق هذا التحقير والازدراء الذي وصفوه به ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو الملقب فيهم بالأمين[٢]، ولكن العناد والمكابرة، وشدة التكذيب، والصدَّ عن سبيل الله جعلت من كبرائهم ـ وهو الملأ ـ يصفونه بذلك على وجه السخرية والاستهزاء: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، «فإخراجهم الكلام في معرض التسليم والإقرار ـ وهم في غاية الجحود ـ بالغ الذروة من الاستهزاء، فصار المراد عندهم أن هذا الذي ادعاه من الرسالة مما لا يجوز أن يُعتقد»[٣].

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٢٥).

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «... فقد حاربه أهل الأرض بأنواع المحاربات مشركوهم وأهل الكتاب منهم، وليس أحد منهم يوماً من الدهر طعن فيه بكذبة واحدة صغيرة ولا كبيرة، قال المسور بن مخرمة: قلت لأبي جهل ـ وكان خالي ـ: يا خال هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته؟ فقال: والله يا ابن أختي لقد كان محمد وهو شاب يدعى فينا الأمين، فلما وخطه الشيب لم يكن ليكذب، قلت: يا خال فلِمَ لا تتبعونه؟ فقال: يا ابن أختي، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشَّرف؛ فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، فلما تجاثينا على الرُّكب وكنَّا كفرسي رهان، قالوا: منَّا نبي، فمتى نأتيهم بهذه، أو كما قال». «جلاء الأفهام» (ص١٣٤).

(٣) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٥/ ٣٢٠ ـ ٣٢١) للبقاعي. وانظر وصف عمرو بن العاص حال كفار قريش وهم يغمزون رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، حتى وقف عليهم فقال لهم: «أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح. «السيرة النبوية» (١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠) لابن هشام، ورواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٩٢) بإسناد صحيح صرح فيه ابن إسحاق بالتحديث، وأصله عند البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب **«لو كنت متخذاً خليلاً»**، برقم (٣٦٧٨)، «فتح» (٧/ ٢٦ ـ ٢٧)، وفي كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، برقم (٣٨٥٦)، «فتح» (٧/ ٣٠٤)، وفي كتاب التفسير عند تفسير سورة المؤمنين، برقم (٤٨١٥)، «فتح» (٨/ ٤١٦). وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٦): «رواه أحمد وقد صرَّح ابن إسحاق بالسماع، وبقية رجاله =

ومن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ: ما كان يصنعه به قومه عندما التقوا بحبر اليهود كعب بن الأشرف الذي زار مكة ليتآمر مع كبرائها ضدَّ الدعوة الجديدة وصاحبها، «روى أبو جعفر بسنده عن ابن عباس قال: لمَّا قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت حبر أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر[1] من قومه يزعم أنه خير منَّا...» إلخ الأثر[2].

ففي وصف قريش للنبي ﷺ بالصنبور مناسبة: إذ المقصود أنه أبتر لا عقب له، فما أن يقتل؛ إلا وقد زال أثره وانقطع خبره، فلا ناصر له، ولا طالب بثأره، عليهم من الله ما يستحقون.

ولذلك أنزل الله سورة الكوثر في بيان طغيان الوثنية، وتآمر اليهودية على أهل التوحيد، بل على سيد ولد آدم، محمد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ أي: المنبتر الذي لا عقب له.

ومن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ أيضاً: ما لقيه من أهل الطائف، عندما قدم إليهم يلتمس النصرة والتأييد، والأرض التي تقوم عليها الأمة المسلمة، والدولة الإسلامية، فكان جوابهم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ شرّ جواب، فاستهزءوا به، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبُّونَهُ، ويرجمونه بالحجارة، تحقيراً له وازدراءً به، وبما جاء به من الرسالة والنبوة[3].

= رجال الصحيح». وقال: «وفي الصحيح طرف منه».

(١) قال ابن الأثير، مادة (صنبر)، وفيه: «أن قريشاً كانوا يقولون: إنَّ محمداً صنبور، أي أبتر، لا عقب له، وأصل الصنبور: سعفة تنبتُ في جذع النخلة لا في الأرض، وقيل: هي النخلة المنفردة التي يدقُّ أسفلها، أرادوا أنه إذا قلع انقطع ذكرُه، كما يذهب أثر الصنبور، لأنه لا عقب له». «النهاية» (٣/ ٥٥) للجزري.

(٢) برقم (٩٧٨٦ ـ شاكر) (٨/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧)، ورواه السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٣٠٦). وانظر: «الصارم المسلول» (ص٨٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» مجلد (١/ ٤١٩ ـ ٤٢٠) لابن هشام، و«سبل الهدى والرشاد» =

وكان أشد ما قُوبلَ به منهم: أن كفروا به وأعرضوا عن دعوته، فَمِمَّنْ استهزأ به وسخر منه، ثلاثة من زعماء ثقيف وأشرافهم، ممن انتهت إليهم السيادة في قومهم وهم:

عبد ياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير بن عوف، فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك! وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يُرسله غيرك، وقال الثالث: ـ وهو أعقلهم ـ والله لا أُكلّمَك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أُكلمك[١].

فجواب الأول والثاني: يذكرنا بما قاله له قومه في مكة: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، فكان موقف أهل الوثنية مُوحداً؛ في الازدراء والتحقير بمن بعثه الله رحمة للعالمين، ولذلك لمَّا سألت عائشة رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أحد، قال: «**لقد لقيت من قومك ما لقيتُ: وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقت، وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي...**» الحديث[٢].

فكان هذا الذي واجهه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ من السخرية

= (٢/٤٣٨ ـ ٤٤٢) للصالحي، و«فقه السيرة» (ص١٢٥ ـ ١٢٦) للغزالي، و«السيرة النبوية» (ص١٤٦ ـ ١٤٧) للندوي.

(١) «السيرة النبوية» مجلد (١/٤١٩) لابن هشام، و«سبل الهدى والرشاد» (٢/٤٣٨) للصالحي. وانظر: «مدارج السالكين» (١/٣٣٨) لابن القيم.

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق، باب «إذا قال أحدكم: «آمين» والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غُفر ما تقدم من ذنبه»، برقم (٣٢٣١)، «فتح» (٦/٣٦٠)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، برقم (١٧٩٥)، «نووي» (١٢/٣٩٦ ـ ٣٩٧).

والاستهزاء من قومه في مكة، ومن ثقيف أهل الطائف، كل ذلك بقدر الله ﷻ، وهو يحيط هذه الدعوة الجديدة ـ دعوة التوحيد ـ وصاحبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهي تمرُّ بمرحلة الاستضعاف: التي يُمحَّصُ فيها أهل الإيمان، فيصلب عودهم، كُلُّ ذلك إعداداً لمرحلة التمكين في الأرض لأهل الإسلام والإيمان، الذين سيحملون هذه الرسالة الخالدة إلى العالمين، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

❑ المطلب الثاني ❑

صور استهزاء اليهود والنصارى بالنبي ﷺ

وبعد أن انقضت الفترة المكية من الدعوة النبوية، هاجر إلى المدينة فوجد النصرة والتأييد من الأنصار، كانت هناك جبهتان أخريان، قد واجهتا صاحب الدعوة ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالاستهزاء، وهو اليهود والمنافقون[(١)].

فمن استهزاء اليهود ـ المغضوب عليهم ـ: ما ذكره الله ـ جل وعلا ـ في [سورة المجادلة: ٨]: ﴿... وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. فهذا الذي يحيُّون به النبي ﷺ قولهم: السام عليك، ويعنون به: الموت، ففي الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن اليهود إذا سلَّمَ عليكم أحدهم، فإنما يقول: السَّامُ عليكم، فقولوا: وعليكم**»[(٢)].

---

(١) سيأتي الكلام عن استهزاء المنافقين في المطلب التالي «الثالث».

(٢) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في السلام على أهل الذمة، برقم (٥٢٠٦) (٥/ ٣٨٤)، والنسائي في كتاب السير، باب ما جاء في التسليم على أهل الكتاب، برقم (١٦٠٣) (٤/ ١٣٢)، وصححه الشيخ الألباني. انظر: «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٩٧٨)، برقم (٤٣٣٨)، قال الخطابي: «هكذا يرويه عامة المحدثين (وعليكم) بالواو، وكان سفيان بن عيينة يرويه (عليكم) بحذف الواو، وهو الصواب، وذلك: =

وأصرح من هذا في الدلالة على المقصود ما روته عائشة رضي الله عنها **أن يهود أتوا النبي ﷺ، فقالوا: السامُ عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله وغضب الله عليكم، قال: مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش، قالت: أَوَلم تسمع ما قالوا؟ قال: أَوَلم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيّ»**[1].

قال ابن العربي: «... وكانوا يقولون: لو كان محمد نبياً لما أمهلنا الله بسبه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري تعالى حليم لا يعاجل من سبه، فكيف من سب نبيه.. فأنزل الله هذا كشفاً لسرائرهم، وفضحاً لبواطنهم، معجزة لرسوله ﷺ»[2].

فقد كان حال هؤلاء اليهود أنهم يخفون مكرهم وكيدهم للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى في عباراتهم، فإذا كانوا عنده استخدموا المصطلحات المعروفة عند المسلمين ولكن محرفة عن مواضعها، كل ذلك على وجه الاستخفاف والتنقص لمقام النبوة والنبي: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾، «يريدون لو كان نبياً لعذبنا الله بما نقول من الاستخفاف به»[3].

قال القاسمي: «﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾، أي: من التناجي المذموم،

= أنه إذا حذف الواو صار قولهم الذي قالوه بعينه مردوداً عليهم وبإدخال الواو يقع الاشتراك معهم، والدخول فيما قالوه، لأن الواو حرف العطف والجمع بين الشيئين». «معالم السنن» المطبوع بهامش «سنن أبي داود» (٥/ ٣٨٤).

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، برقم (٦٠٣٠)، «فتح» (١٠/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧)، وفي الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «يستجاب لنا في اليهود ولا يستجاب لهم فينا»، برقم (٦٤٠١)، «فتح» (١١/ ٢٠٣). وانظر: «جامع البيان» (١٤/٢ ـ ١٥) للطبري، الروايات في هذا المعنى تحت الأرقام من (٣٣٧٦١) إلى (٣٣٧٦٩).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» (١٧٥٨/٤). وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٨٩/١٧) للقرطبي، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٧) لابن عطية.

(٣) انظر: «لباب التأويل...» (٤/ ٢٦٠) للخازن.

أو من التحريف في التحية، استهزاء وسخرية»[١]، فسوف يجد هؤلاء اليهود أنباء ما كانوا به يستهزئون، وسوف يحيق بهم ذلك.

ومن صور استهزاء اليهود ـ أيضاً ـ: بالنبي ﷺ ما ورد في موضعين من القرآن الكريم، **أحدهما**: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤].

والثاني: قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٦].

«هذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنةُ الله،... يوهمون أنهم يقولون راعنا سمعك، بقولهم: راعنا، وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي»[٢]. فالمقصود من قولهم: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾ هو الطعن في الدين والسخرية برسول رب العالمين، من قِبَل اليهود الذين كانوا حوالي مهاجر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفي عصره، قال ابن زيد: «هذا قول أهل الكتاب: يهود... أذًى لرسول الله ﷺ وشتماً واستهزاء»[٣].

وقد نقل شيخ المفسرين كلام العلماء حول معنى ﴿رَاعِنَا﴾، فقال: «هي كلمة كانت اليهود تقولها على وجه الاستهزاء والمسبَّة»، ثم نقل

---

(١) «محاسن التأويل» (٧/ ٥٠) للقاسمي.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٧٦٧ ـ ٧٦٨) لابن كثير. وانظر: «نظم الدرر» (٢/ ٢٦٣) للبقاعي، و«التحرير والتنوير» (٤/ ١٨٣ ـ ١٨٤) لابن عاشور، وأصل كلمة «راعنا» مأخوذة من الرعونة. قال الراغب: «... رعُن الرجل يرعنُ رُعناً، فهو رَعِنٌ، وأرْعنُ، وامرأةٌ رَعْناءُ، وتسميته بذلك لميل فيه تشبيهاً بالرَّعْنِ، أي: أنْفِ الجمل لما فيه من الميل...». «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٥٨) للأصفهاني.

(٣) «جامع البيان» (٨/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤ ـ شاكر). وانظر: «اليهود في القرآن والسنّة» (١/ ١٠٠) لمحمد أديب الصالح.

الروايات بنحو هذا عن ابن عباس، وقتاده، وابن جريج[١].

فهذا كان من اليهود طعناً في الدين، واستهزاء برسوله الكريم، فقد كانوا يستحقون العقاب على هذا الأمر العظيم، إذ الاستهزاء بالنبي ﷺ والطعن في الدين، ردة صريحة، وكفر بواح، ومع ذلك لم يؤثر على النبي ﷺ أنه أقام عليهم الحد الذي يستحقونه، فكيف يجاب عن هذا؟

نقول عن هذا أجوبة منها:

الأول: أنّ ذلك كان في حال ضعف الإسلام، في الحال التي أخبر الله عن رسوله والمؤمنين أنهم يسمعون من الذين أوتوا الكتاب والمشركين أذًى كثيراً وأمرهم بالصبر والتقوى....

الثاني: أنّ النبي ﷺ كان له أن يعفو عمن سبَّهُ، وليس للأمة أن تعفو عمن سبَّه...

الثالث: أن هذا ليس بإظهار للسبِّ، وإنما هو إخفاءٌ له، بمنزلة «السام عليكم»، وبمنزلة ظهور النفاق في لحن القول، لأنهم كانوا يظهرون أنهم يقصدون مسألته، أن يسمع كلامهم، وأن يراعيهم.... ثم إنهم يلوون ألسنتهم بالكلام وينوون به الاستهزاء والسب والطعن في الدين، وقد كان المسلمون يخاطبون الرسول بمثل هذا،حتى جاء النهي عن ذلك، فلو كان استهزاءً ظاهراً لما استعمله المسلمون حتى ينهون عنه...[٢].

فالنهي الذي أشار إليه شيخ الإسلام هو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا ...﴾ الآية [البقرة: ١٠٤].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٤٦٠ ـ ٤٦٢، ٨/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦، شاكر)، و«معالم التنزيل» (١/ ٤٣٨) للبغوي، و«تيسير الكريم الرحمٰن» (٢/ ٣٧) لابن سعدي، و«الصارم المسلول» (ص٢٤٦ وما بعدها) لابن تيمية.

(٢) «الصارم المسلول» (ص٢٤٦ ـ ٢٤٨) باختصار شديد.

قال أبو عبد الله القرطبي: في هذه الآية دليلان:

أحدهما: على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغض، . . .

الثاني: التمسك بسدِّ الذرائع[(١)]، وحمايتها وهو مذهب مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وقد دَلَّ على هذا الأصل: الكتاب والسنة. . . أمَّا الكتاب فهذه الآية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا . . .﴾، ووجه التمسك أن اليهود كانوا يقولون ذلك، وهي سب بلغتهم؛ فلمَّا علم الله ذلك منهم؛ منع من إطلاق ذلك اللفظ؛ لأنه ذريعة للسبِّ»[(٢)].

هذا غيض من فيض ممَّا واجه به اليهود الإسلام في الصدر الأول على عهد النبي ﷺ، فلم يكن اليهود وحدهم في هذا الميدان، بل شاركهم النصارى فتشابهت قلوبهم وأعمالهم من وجوه كثيرة منها حرب الإسلام، وعداوة المسلمين، والسخرية برسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

ومن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ: ما لقيه من كسرى عندما كتب النبي ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، فكان من بين هؤلاء الملوك كسرى وقيصر[(٣)]، «وكلاهما لم يسلم، لكن قيصر أكرم كتاب النبي ﷺ،

---

(١) عرّف القرطبي رحمه الله الذريعة، فقال: «عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في الممنوع. «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٤٠) للقرطبي، وعرّفها الشاطبي في «الموافقات» (٤/ ١٩٩)، فقال: «حقيقتها: التوسل بما هو مصلحة إلى مفسدة». وذكر الخلاف بين المالكية والشافعية، من اعتبار سدِّ الذرائع من عدمه، وخرج من عرض الخلاف في المسألة برأي موحد للمالكية والشافعية، فقال (٤/ ٢٠٠ ـ ٢٠١): «فقد ظهر أن قاعدة الذرائع متفق على اعتبارها في الجملة، وإنما الخلاف في أمر آخر». انظر: «الموافقات» (٤/ ١٩٨ ـ ٢٠١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٤٠ ـ ٤١)، وقد ذكر أمثلة كثيرة أخرى تدُلُّ على هذا الأصل العظيم. «سد الذرائع».

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، برقم =

وأكرم رسوله، فثبت ملكه، فيقال: إن الملك باق في ذريته إلى اليوم[(١)]، وكسرى مزَّق كتاب رسول الله ﷺ، واستهزأ برسول الله ﷺ، فقتله الله بعد قليل، ومزَّق ملكه كل مُمَزَّق، ولم يبق للأكاسرة مُلكٌ، وهذا والله أعلم تحقيقٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣]، فكلُّ من شنأه وأبغضه وعاداه، فإن الله يقطع دابره ويمحق عينه وأثره...»[(٢)].

وهذا ـ أيضاً ـ مصداق قوله تعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠ ـ والأنبياء: ٤١]، أي نزل بهم عقوبة استهزائهم برسول الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ. وهذه سنة الله في أعدائه، وأعداء رسله المكذبين، الذين يصدون عن سبيله، ويعادون أولياءه: الذين يقضون بالحق وبه يعدلون.

ومن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ ما فعله بعض من ارتد عن دين الإسلام، فقد روى أنس بن مالك ﷺ، قال: «**كان رجلٌ نصرانياً[(٣)] فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي ﷺ فعاد نصرانياً، فكان يقول: ما**

= (٤٤٢٤)، «فتح» (٧/ ٧٣٢)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار، يدعوهم إلى الله ﷻ، برقم (١٧٧٤)، «نووي» (١٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥). وانظر ما كتبه المؤرخ محمد بن طولون الدمشقي في: «إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين» (ص٦٤ ـ ٨٠).

(١) قال القسطلاني ـ متوفى سنة (٩٢٣هـ): «وحكي أن ملك الإفرنج في دولة المنصور قلاوون الصالحي، أخرج لسيف الدين قلج صندوقاً من الذهب واستخرج منه مقلمة من ذهب، فأخرج منها كتاباً زالت أكثر حروفه، فقال: هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصر، ما زلنا نتوارثه إلى الآن، وأوصانا آباؤنا أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا فنحن نحفظه». «إرشاد الساري» (١/ ٨١). وانظر: «السيرة النبوية» (ص٢٨٩) للندوي.

(٢) «الصارم المسلول» (ص١٧٢) لابن تيمية. وانظر: «السيرة النبوية» (ص٣٠٠ ـ ٣٠١) للندوي.

(٣) في رواية مسلم: «كان منا رجل من بني النجار قد قرأ البقرة وآل عمران...»، ولا تعارض بحمد الله، فقد يكون من بني النجار ـ قوم أنس راوي الحديث ـ، وهو على دين النصرانية في الجاهلية.

يدري محمدٌ إلا ما كتبتُ له، فأماته الله، فدفنوه: (فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعلُ محمدٍ وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعلُ محمدٍ وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه خارج القبر، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح قد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس، فألقوه»[1]، هذا لفظ البخاري.

قال ابن تيمية: «وهذا الطعن على رسول الله ﷺ... والافتراء عليه بما يوجب الريب في نبوته قدر زائدٌ على مجرد الكفر به والردة في الدين، فهو من أنواع السّب....

فمن نصر الله لرسوله أن أظهر فيه آية تبين بها أنه مفترٍ[2] ومستهزئٌ حيث قال: «ما يدري محمدٌ إلا ما كتبتُ له».

❑ المطلب الثالث ❑

صور من استهزاء المنافقين بالنبي ﷺ

فقد وقع المنافقون في الطعن على رسول الله ﷺ في نفسه وفي أهله، مع أن القرآن كان ينزل محذراً من إيذاء النبي الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧]، «ويستمر السياق في تحذير الذين يؤذون النبي ﷺ في نفسه أو في أهله؛ وفي تفظيع الفعلة التي يقدمون عليها... **وذلك عن طريقين:**

---

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٦١٧)، «فتح» (٦/ ٧٢٣)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٧٨١)، «نووي» (١٧/ ١٣١ ـ ١٣٢).

(٢) «الصارم المسلول» (ص١٢٢) لابن تيمية.

○ **الطريق الأول:**

تمجيد رسول الله ﷺ وبيان مكانته عند ربه وفي الملأ الأعلى.

○ **الطريقة الثانية:**

تقرير أن إيذاءه إيذاء لله سبحانه وجزاؤه عند الله الطرد من رحمته في الدنيا والآخرة، والعذاب الذي يناسب الفعلة الشنيعة... وفي ظل هذا التمجيد الإلٰهي يبدو إيذاء الناس للنبي ﷺ بشعاً شنيعاً ملعوناً قبيحاً... ويزيده بشاعة وشناعة أنه إيذاء لله من عبيده ومخاليقه...»[(١)].

فمن صور استهزاء المنافقين: ما وقع في غزوة بني المصطلق، عندما خرج إليهم رسول الله ﷺ وقد كان من عادته أن يقرع بين نسائه فخرج في تلك الغزاة سهم عائشة بنت الصديق ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ فلمَّا قضى عليه الصلاة والسلام تلك الغزوة، فقدت الصديقة عِقْداً لها فذهبت تبحث عنه وارتحل الجيش، ولم تُفْقَد، ولم يعلم بها إلا عند الظهيرة، عندما قدم بها صفوان بن المعطِّل، فتكلم من تلكم في عرض عائشة، واتهموها بصفوان بن المعطل، فكان الذي تولى كبر هذا الطعن في أهل رسول الله ﷺ رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول.

وعندما فشى في الناس هذا الأمر، ومكث ما يزيد على الشهر، وقد انقطع الوحي، وقد استشار النبي بعض أصحابه[(٢)]، ثمَّ صعد المنبر فخطب الناس، فكان ممَّا قال: **يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل**

---

(١) «في ظلال القرآن» (٢٨٧٩/٥) لسيد قطب. وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٨٢٣)، و«زاد المسير» (٤١٩/٦ ـ ٤٢٠).

(٢) منهم علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد ﷺ. انظر: «الفتح» (٣٠٧/٨ ـ ٣٠٨) نص حديث عائشة، و«الصارم المسلول» (ص٥٣ ـ ٥٤)، و«السيرة النبوية» مجلد (٣٠١/٢) لابن هشام.

بلغني أذاهُ في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي...» الحديث[١].

«وفي رواية هشام بن عروة: «**أشيروا عليّ في أناس أبَنُوا أهلي...**»، ومعناه: عابوا أهلي أو اتهموا أهلي، وهو المعتمد لأنَّ الأبَنَ بفتحتين: التهمة... ووقع في رواية الغسَّاني: «**في قوم يسبون أهلي**»[٢].

وقد وقع في عرض عائشة فريقان من الناس، **الأول**: من أهل الخير والصلاح من الصحابة، كحسان ومسطح وحمنة، **والثاني**: أهل النفاق والشقاق كابن أبي بن سلول ـ عليه من الله ما يستحق ـ والفرق بين الفريقين كما قال ابن تيمية رحمه الله ـ أنَّ «ابن أُبيّ وغيره ممن تكلم في شأن عائشة رضي الله عنها أنه كان يقصد بالكلام فيها عيب رسول الله ﷺ والطعن عليه، وإلحاق العار به، ويتكلم بكلامٍ ينتقصه به؛ فلذلك قالوا: نقتله، بخلاف حسَّان ومسطح وحمنة فإنهم لم يقصدوا ذلك، ولم يتكلموا بما يدُلُّ على ذلك؛ ولهذا إنما استعذر النبي ﷺ من ابن أُبيّ دون غيره؛ ولأجله خَطَبَ الناس حتى كاد الحيان يقتتلون»[٣].

فأنزل الله في شأن عائشة قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، مفصحاً عن براءتها ممَّا رماها به أهل الإفك والنفاق، مرشداً للأمة المسلمة إلى التثبت في مثل هذه الحال، حتى يأتوا بأربعة شهداء، فإن لم يأتي أهل الإفك

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾، برقم (٤٧٥٠)، «فتح» (٣٠٦/٨ ـ ٣٠٩)، ومسلم في كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، وقبول توبة القاذف، برقم (٢٧٧٠)، «نووي» (١٠٨/١٧ ـ ١١٩).

(٢) «فتح الباري» (٣٢٧/٨) لابن حجر. وانظر: «شرح صحيح مسلم» (١١٤/١٧) للنووي.

(٣) «الصارم المسلول» (ص١٨٦ ـ ١٨٧). وانظر: المصدر نفسه (ص٥٣ ـ ٥٤).

بالشهداء فهم الكاذبون المفترون، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور: ١١ ـ ١٢]، حقاً إن في هذا الحدث خير كثير، فهو يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته، وليتم العبودية المرادة من الصدِّيقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم[(١)].

ومن صور استهزاء المنافقين ـ أيضاً ـ: ما حدث في غزوة المريسيع[(٢)] ـ وتسمى غزوة بني المصطلق ـ من مقولة عبد الله بن أبي كما رواها شيخ المفسرين عن قتادة: «... فقال رجل من المنافقين، وهو ابن أُبيّ: يا بني الأوس، يا بني الخزرج، عليكم صاحبكم وحليفكم! ـ يعني الأنصار ـ ثم قال: والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمِّن كلبك يأكلك». والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل...»[(٣)]. ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال: «هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم...»[(٤)].

فكان في القوم الذين خاطبهم ابن أبي بهذا القول الذي يطعن فيه على الرسول ﷺ زيد بن أرقم رضي الله عنه، وكان غلاماً حدث السن لم يعبأ به رأس

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٢٦٢) لابن القيم، و«في ظلال القرآن» (٤/ ٢٥٠٠) لسيد قطب.

(٢) هو ماء لبني خزاعة بينه وبين الفرع (موضع من ناحية المدينة) مسيرة يوم. «زاد المعاد» (٣/ ٢٥٦).

(٣) «جامع البيان» (١٢/ ١٠٦ ـ ١٠٧)، برقم (٣٤١٧٤). وانظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٣) لابن عطية.

(٤) «البداية والنهاية» (٤/ ١٢٧) لابن كثير. وانظر: «الرحيق المختوم» (ص٣٢٩ ـ ٣٣١) للمباركفوري.

النفاق، فأخبر الغلام رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فحلف ابن أُبيّ ما قال ذلك، فأنزل الله تصديق زيد، وتكذيب عبد الله بن أُبيّ في سورة المنافقون[١].

ومن صور سخرية المنافقين واستهزائهم: ما حدث في منطلق رسول الله ﷺ إلى تبوك، بعد علمه بما أعدت الروم لقتال المسلمين، من جيوش جرَّارة، تفوق المسلمين عدداً وَعُدّةً، فكان ممن خرج في تلك الغزاة عدد من المنافقين، فكان رهط منهم يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فيقول بعضهم لبعض: **«أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال»**[٢].

ففي هذا القول تنقص بالرسول ﷺ وبأصحابه المجاهدين في سبيل الله، فكان حِقدُ أهل النفاق يظهر على صفحات وجوههم، وفلتات ألسنتهم.

ومن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ: «أن رجلاً قام إلى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يخطب، فقال: جيراني بماذا أُخذوا، فأعرض عنه، مرتين، فقال: إن الناس يزعمون أنك تنهى عن الغيِّ وتستخلي به، فقال: لئن كنت أفعل ذلك إنه لعليّ، وما هو عليكم خَلُّوا له جيرانه»[٣].

---

(١) أصل الحديث رواه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة المنافقين، باب قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ . . .﴾، «فتح» (٨/ ٥١٢)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، أول حديث فيه، برقم (٢٧٧٢)، «نووي» (١٧/ ١٢٥ ـ ١٢٦).

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤٥٦)، والصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٥/ ٤٤٥)، وقائل ذلك: مخشيّ بن حمير، وقيل: ثعلبة بن حاطب. انظر: «السيرة النبوية» مجلد (٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥) لابن هشام.

(٣) انظر: «الصارم المسلول» (ص٢٤١) لابن تيمية. والحديث أخرجه أبو داود في كتاب الأقضية، باب في الحبس في الدين وغيره، برقم (٣٦٣١) (٤/ ٤٧)، والترمذي في الديات، باب الحبس في التهمة، برقم (١٤١٧) (٤/ ٢٠)، والنسائي =

قال ابن تيمية ـ بعد أن أورد هذا الحديث ـ: «فهذا وإن كان قد حكى هذا القَذف عن غيره فإنما قَصَدَ به انتقاصه، وإيذاءه بذلك، ولم يحكه على وجه الردّ على من قاله، وهذا من أنواع السب»[(١)]. وهو أيضاً من الاستهزاء برسول الله ﷺ والطعن في عدله بين المسلمين.

❑ المطلب الرابع ❑

صور من الاستهزاء بالرسول ﷺ عبر التاريخ

وبعد أن وقفنا على جملة من صورة الاستهزاء بالنبي ﷺ من قبل أعداء الإسلام من مشركين ويهود ونصارى ومنافقين، وغيرهم، في الصدر الأول، نواصل السير عبر التأريخ حتى نقف على ما كتبه ابن الراوندي عن رسول الله ﷺ، وقد رأينا من قبل ما كتب من الاستهزاء بالله تبارك وتعالى، وبكتابه العزيز، فها هو يسخر من نبي الإسلام، ويستهزئ به، ويؤلف كتاباً[(٢)] في الطعن عليه، وإبطال نبوته، وشتمه وانتقاصه، والرد عليه في سبعة عشر موضعاً، ونسبته إلى الكذب[(٣)]، إلى غير هذا من المخازي التي وصل إليها هذا المفتري.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وقد أُسند إليه حكايات من المسخرة والاستهتار

= في قطع السارق، باب الحبس في التهمة، برقم (٧٣٦٢) (٣٢٨/٤)، وأحمد في «المسند» (٣/٥)، برقم (٢٠٠٣٩، ٢٠٠٤١)، وما نقلته عن ابن تيمية مقارب للفظ أحمد. والحديث حسَّن إسناده ابن تيمية في: «الصارم» (ص٢٤١)، والألباني في: «صحيح سنن أبي داود» (٦٩٢/٢)، برقم (٣٠٨٨).

(١) المصدر نفسه (ص٢٤١).

(٢) أسماه «الزمرد».

(٣) انظر: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٠١/٦) لابن الجوزي، فقد نقل ما كتب أبو علي الجبائي المعتزلي، في الرد على افتراءات وزندقة ابن الراوندي. و«البداية والنهاية» (٩٤/١١ ـ ٩٥) لابن كثير.

والكفر والكبائر، منها ما هو صحيح عنه، ومنها ما هو مفتعل عليه ممن هو مثله، وعلى طريقه ومسلكه في الكفر والتستر في المسخرة، يخرجونها في قوالب مَسْخرة، وقلوبهم مشحونة بالكفر والزندقة، وهذا كثير موجود فيمن يدعي الإسلام وهو منافق، يتمسخرون بالرسول ودينه وكتابه، وهؤلاء ممن قال الله فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ...﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦][(١)].

ومن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ وبحديثه: ما وقع فيه بعض أهل البدع من رافضة، ومعتزلة وغيرهم، فمن ذلك ما أثر عن عمرو بن عبيد[(٢)].

قال الذهبي: «قال معاذ بن معاذ[(٣)]، سمعت عمرو بن عبيد - وهو من كبراء المعتزلة - ذكر حديث الصادق والمصدوق[(٤)] ﷺ، فقال: لو سمعتُ الأعمش يقوله لكذبتُهُ، ولو سمعتُ رسول الله ﷺ يقول هذا لرددتُه! ولو سمعت الله يقول هذا لقلت: ليس على هذا أخذت ميثاقنا»[(٥)].

ومن صور استهزاء أهل البدع - أيضاً -: ما نقله الإمام الذهبي «عن خُرَّزاد العابد، قال: حدَّث أبو معاوية الرشيدَ بحديث: «**احتج آدم وموسى**»[(٦)]،

---

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٩٥).

(٢) ابن أبي عثمان البصري المعتزلي القدري مع زهده وتألهه، توفي بطريق مكة سنة (١٤٣هـ)، وقيل: (١٤٤هـ). «ميزان الاعتدال» (٣/ ٢٧٣ - ٢٨٠)، و«السير» (٦/ ١٠٤ - ١٠٦) كلاهما للذهبي.

(٣) هو أحد ثقات أئمة المسلمين، توفي سنة (١٩٦هـ)، ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٣/ ١٣١) للحافظ الخطيب البغدادي.

(٤) رواه البخاري في القدر، أول حديث فيه، برقم (٦٥٩٤)، «فتح» (١١/ ٤٨٦)، ومسلم في القدر، أول حديث فيه، برقم (٢٦٤٣)، «نووي» (١٦/ ٤٢٩ - ٤٣٠).

(٥) «ميزان الاعتدال» (٣/ ٢٧٨)، و«السير» (٦/ ١٠٤ - ١٠٥) كلاهما للذهبي.

(٦) رواه البخاري في القدر، باب تحاج آدم وموسى، برقم (٦٦١٤)، «فتح» =

فقال رجلٌ شريف: فأين لقيه؟! فغضب الرشيد، وقال: النطع والسيف، زنديق يطعن في الحديث، فما زال معاوية يُسكِّنه ويقول: بادرةٌ منه يا أمير المؤمنين، حتى سكن»(١).

ففي هاتين الروايتين دلالة ظاهرة على ما تكنه صدور أهل البدع، ويظهر منهم أحياناً في كلامهم، وطعنهم على نبي الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ وردهم وانتقاصهم لحديثه الذي هو المصدر الثاني في شريعة رب العالمين، الذي قال الله جَلَّ وعلا فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

فأما الرافضة فهم أصحاب القدح المعلَّى في السخرية والاستهزاء، والطعن والتحقير والكذب(٢)، فمن ذلك ما رواه عمدتهم في الحديث ـ الكُليني ـ عن جابر بن زيد، قال: «أتيت أبا عبد الله فقلت: جعلت فداك، إن أباك حدثني سبعين حديثاً لم يخرج مني شيء منها، وأمرني بسترها، وقد ثقلت على عنقي، وضاق بها صدري، فما تأمرني؟ فقال: يا جابر، إذا ضاق بك من ذلك شيء فاخرج إلى الجَّبانَة(٣) واحتفر حفيرة، ثمَّ دلِّ رأسك فيها، وقل: حدثني محمد بن علي بكذا وكذا، ثم طمه، فإن الأرض تستر عليك، قال جابر: ففعلت ذلك، فخفَّ عني ما كنت أجده»(٤).

= (١١/٥١٣)، ومسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى ﷺ، برقم (٢٦٥٢)، «نووي» (١٦/٤٣٩).

(١) «سير أعلام النبلاء» (٩/٢٨٨) للذهبي. وانظر: «تاريخ بغداد» (١٤/٧ ـ ٨) للخطيب، و«المعرفة والتأريخ» (٢/١٨١) للفسوي.

(٢) انظر: «الفرقان بين الحق والباطل» (ص٣٤)، و«المنار المنيف» (ص٥٢) فقد نص ابن تيمية وابن القيم على أن الرافضة أكذب خلق الله.

(٣) الصحراء أو المقبرة.

(٤) «روضة الكافي» (ص١٣٨) للكليني، نقلاً عن «ما يجب أن يعرفه المسلم عن عقائد الروافض الإمامية» (ص٢٨).

إنَّ في هذا القصص المكذوب الملفق من عالم الرافضة وحجتهم في الحديث سخرية واستهزاء بالحديث وكيفية نقله إلينا عن طريق حدثنا وأخبرنا، فإذا طُعِنَ في الحديث فقد وصل الطعن والتحقير لقائل الحديث ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ومن صورة الاستهزاء بالنبي ﷺ ـ أيضاً ـ: ما ابتليت به الأمة من فتنة الوضاعين في الحديث النبوي، وما أدخلوه على المسلمين في دينهم من أحاديث ركيكة الأسلوب، سمجة العبارة، يسخرون فيها، وينتقصون بسيِّدِ ولد آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقد **صنف الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ كتابه**: «المنار المنيف في الصحيح والضعيف»، فمِمّا جاء فيه قوله: «ونحن ننبه على أمور كلية، يُعْرَفُ بها كونُ الحديث موضوعاً، **فمنها**: اشتماله على أمثال هذه المجازفات التي لا يقول مثلها رسول الله ﷺ وهي كثيرة جداً، كقوله في الحديث المكذوب:

«من قال: لا إله إلا الله، خلق الله من تلك الكلمة طائراً له سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة يستغفرون الله له، ومن فعل كذا وكذا أعطي في الجنة سبعين ألف مدينة، في كل مدينة سبعون ألف قصر، في كل قصر سبعون ألف حوراء». ثم علَّق ابن القيم على هذا الحديث بقوله: **«هذه المجازفات الباردة التي لا يخلو حالُ واضعها من أحد أمرين: إما أن يكون في غاية الجهل والحُمق، وإما أن يكون زنديقاً، قصدَ التنقيص بالرسول ﷺ بإضافة مثل هذه الكلمات إليه»**.

«ومنها ـ أي الأمور الكلية التي يعرف بها كون الحديث موضوعاً ـ: سماجة الحديث، وكونُه يُسخرُ منه، كحديث: **«لو كان الأرزُّ رجلاً لكان حليماً، ما أكله جائع إلا أشبعه»**. فهذا من السمج البارد، الذي يصان عنه كلام العقلاء، فضلاً عن كلام سيد الأنبياء... وحديث: **«لا تسبوا الديك،**

فإنه صديقي، ولو يعلم بنو آدم ما في صوته لاشتروا ريشه ولحمه بالذهب»، . . . ومنها حديث: «**فضلُ دُهن البنفسج على الأدهان، كفضل أهل البيت على سائر الخلق**»»[١]، إلى غير ذلك من الأحاديث التي سردها في فضل البقول والملح وأنواع من الأطعمة والأشربة، ممَّا يترفع عن ذكره، لولا الحاجة من أجل التنبيه على خطورة فعل هؤلاء الوضاعين، الذين لا يرعوون عن الكذب والسخرية برسول الله ﷺ بمثل هذه الألفاظ.

ومن صورة استهزاء الوضاعين برسول الله ﷺ ـ أيضاً ـ: وهو أشد خطراً وجرماً من الصورة السابقة، ما وضعوه ليفسدوا به الدين، ويشوِّهوا كرامته لدى العقلاء والمثقفين، ولينحدروا بعقيدة العامة إلى درجة من السخف، تثير سخرية الملحدين.

فمنها قوله في الحديث الموضوع:

«ينزل ربنا عشية عرفة على جمل أورق يصافح الركبان ويعانق المشاة»[٢]، وحديث: «خلق الله الملائكة من شعر ذراعيه وصدره»[٣]، وحديث: «إن الله اشتكت عيناه فعادته الملائكة»[٤]، وحديث: «إن الله لمَّا أراد أن يخلق نفسه خلق الخيل وأجراها فعرقت فخلق نفسه منها»[٥]،

---

(١) «المنار المنيف» (ص٥٠ ـ ٥٥) باختصار شديد.

(٢) انظر: «تنزيه الشريعة» (١/ ١٣٨) للكتاني، فقد ذكره بغير هذا اللفظ، وقال عنه: «قال الذهبي: إسناده ظلمات وأخرجه الأهوازي بجهل». وانظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٨٥) فقد ذكره بهذا اللفظ، وقال عنه: مكذوب، و(٤/ ١٤٥)، وحكم عليه بالوضع أيضاً.

(٣) لم أجده برغم طول البحث عنه.

(٤) لم أجده برغم طول البحث عنه.

(٥) انظر الحديث في: «تنزيه الشريعة المرفوعة. . .» (١/ ١٣٤) أول حديث في كتاب التوحيد منه، وهو موضوع، ولعل مثل هذه الأحاديث المكذوبة هي التي أوصلت بعض طوائف البشر إلى عبادة الخيل من دون الله. انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٣٥).

وحديث: «إن الله لمَّا خلق الحروف سجدت الباء ووقفت الألف[(١)]»[(٢)]، إلى غير ذلك من ترهات وأكاذيب، يسخرون فيها برسول الله ﷺ وينسبون إليه ألفاظ تلك الأحاديث التي تُعَبِّرُ عن حقارة قائلها، وسخفه ومجونه، وحاشا المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ذلك.

قال ابن تيمية: «إنَّ تعمُّدَ الكذب عليه ﷺ استهزاء به واستخفاف، لأنهم يزعمون أنه أمر بأشياء ليست ممَّا أمر به، بل وقد لا يجوز الأمر بها، وهذه نسبة له إلى السفه، أو أنه يخبر بأشياء باطلة، وهذه نسبة له إلى الكذب، وهو كفرٌ صريحٌ... وبالجملة فمن تعمَّد الكذب الصريح على الله فهو المتعمِّد لتكذيب الله وأسوأ حالاً، وليس يخفى أن من كذب على من يجب تعظيمه فإنه مُسْتخِفٌ به مستهين بحقه...»[(٣)].

«ومن قال ـ من هؤلاء الوضاعين أو أهل الأهواء الذين يردّون الحديث ـ ما هو سبٌّ وتنقص له فقد آذى الله ورسوله، وهو مأخوذ بما يؤذي به الناس من القول الذي هو في نفسه أذى وإن لم يقصد أذاهم، ألم تسمع إلى الذين قالوا: إنما كنَّا نخوض ونلعب، فقال الله تعالى: ﴿.. أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ..﴾

---

(١) لم أقف عليه برغم من طول البحث عنه.

(٢) «السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي» (ص٨٤ ـ ٨٥) لمصطفى السباعي. وانظر: «الصارم المسلول» (ص١٧٩) فقد أوضح كَلَلهُ: أن هدف الوضاعين هو إفساد الدين من داخل، كما أن الملحدين قصدوا إفساده من خارج.

(٣) «الصارم المسلول» (ص١٨٠ ـ ١٨١). وانظر: المصدر نفسه (ص١٨٢، ١٨٤، ٥٢٨)، وقد ذكر كَلَلهُ لتعمُّد الكذب عليه ﷺ أسباب:
«**أولها**: الزندقة والإلحاد في دين الله.
وثانيها: نصرة المذاهب والأهواء، وهو كثير في الأصول، والفروع والوسائط.
وثالثها: الترغيب والترهيب لمن يظن جواز ذلك.
ورابعها: الأغراض الدنيوية لجمع الحطام.
وخامسها: حب الرياسة بالحديث الغريب». «مجموع الفتاوى» (١٨/٤٦ ـ ٤٧).

[التوبة: ٦٥ ـ ٦٦]، وهذا مثل من يغضب فيذكر له حديث عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو حكم من حكمه أو يُدْعَى إلى سنته فيلعن ويقبح ونحو ذلك...»[1]. فهذا يصدق عليه قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، «فإذا كان المخالف عن أمره قد حذر من الكفر والشرك أو من العذاب الأليم، دلَّ على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر أو العذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لِما قد يقترن به من استخفاف بحق الآمر، كما فعل إبليس، فكيف لِما هو أغلظ من ذلك كالسبِّ والانتقاص ونحوه»[2].

وفي ختام هذا المبحث الذي وقفنا فيه على صور الاستهزاء بالنبي ﷺ أُذَكِّرُ بما قاله الإمام ابن بطة العكبري ـ إمام من أئمة السنة ـ في التحذير من السخرية برسول الإسلام، بعد أن ذكر كلام الصديق رضي الله عنه في اتباع السنّة. قال: «هذا يا إخواني الصديق الأكبر، يتخوَّف على نفسه الزيغ إن هو خالف شيئاً من أمر نبيه ﷺ، فماذا عسى أن يكون من زمان أضحى أهله يستهزئون بنبيهم وبأوامره، ويتباهون بمخالفته، ويسخرون بسنته، نسأل الله عصمة من الزلل، ونجاة من سوء العمل»[3].

هذا الكلام الذي قاله الإمام ابن بطَّةَ في أهل القرن الرابع الهجري، مع قرب العهد وظهور الإسلام وقوته، فكيف لو رأى ما نعيشه في القرن الرابع عشر من الأهوال والافتراء، والاستهزاء بدين الإسلام، وبرسول رب العالمين، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٥٢٨) لابن تيمية.
(٢) المصدر السابق (ص٦١) لابن تيمية.
(٣) «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية...» (٢٤٦/١) تحقيق رضا نعسان.


المبحث الرابع

صور الاستهزاء بالصحابة
رضوان الله تعالى عليهم وسائر المؤمنين

وفيه تمهيد وأربع مطالب:

التمهيد: النهي عن سب الأصحاب ﷺ.

المطلب الأول: صور من استهزاء المشركين بالصحابة ﷺ.

المطلب الثاني: صور من استهزاء اليهود بالصحابة ﷺ.

المطلب الثالث: صور من استهزاء المنافقين بالصحابة ﷺ.

المطلب الرابع: صور من استهزاء أهل الأهواء والبدع بالصحابة ﷺ وسائر المؤمنين.

* * * * *

❏ التمهيد ❏

النهي عن سب الأصحاب ﷺ

ورد النهي عن السخرية والاستهزاء بالمؤمنين، والطعن عليهم بالازدراء والتحقير، مما يقدح في الأخوة الإيمانية، ويجلب الحقد والبغضاء بين المسلمين، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات: ١١].

وقد **بوَّب الإمام البخاري** رَحِمَهُ اللهُ في كتاب الأدب من صحيحه بهذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ...﴾، وساق فيه حديث عبد الله بن زمعة قال: «**نهى النبي ﷺ أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنفس...**» الحديث[1].

وجاء موضحاً في التفسير عند سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ من حديث عبد الله بن زمعة أيضاً: **أنه سمع النبي ﷺ يخطب ثم وعظهم في ضحكهم من الضرطة وقال: «لِمَ يضحك أحدكم مما يفعل»**[2].

قال الحافظ: فورد النهي استهزاء المرء الآخر تنقيصاً له مع احتمال أن يكون في نفس الأمر خيراً منه، وقد أخرج مسلم عن أبي هريرة رفعه في أثناء حديث: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**[3]»[4].

وقال النووي: «وفيه النهي عن الضحك من الضرطة يسمعها من غيره بل ينبغي أن يتغافل عنها ويستمر في حديثه، واشتغاله بما كان فيه من غير التفات ولا غيره ويظهر أنه لم يسمع، وفيه حسن الأدب والمعاشرة»[5].

قال أبو الطيب عند شرح حديث أبي هريرة: «بحسب امرئ من الشر...»: «أي حسبه وكافيه من خلال الشر ورذائل الأخلاق احتقار أخيه المسلم واستصغاره»[6].

---

(١) برقم (٦٠٤٢)، «فتح» (١٠/ ٤٧٨).

(٢) برقم (٤٩٤٢)، «فتح» (٨/ ٥٧٥)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبّارون، والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٥٥)، «نووي» (١٧/ ١٩٥).

(٣) في البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، برقم (٢٥٦٤)، «نووي» (١٦/ ٣٥٦).

(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٤٧٩).

(٥) «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ١٩٤).

(٦) «عون المعبود» (٣/ ٢٢٦). وانظر: «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧).

ونجد في السنة ـ أيضاً ـ ما يوحي بالتنفير من ازدراء الناس واحتقارهم والنهي عن ذلك، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال: هلك الناس فهو أهلكَهمُ**»(١). ففي قوله ﷺ: «**فهو أهلكهم**»، روايتان: الأولى: بالفتح «**فهو أهلكَهم**»: فعل ماض، يعني فهو الذي جر الهلاك لهم، والثانية: بالضم «**فهو أهلكُهم**»: أفعل تفضيل، يعني أشدهم هلاكاً.

قال النووي بعد أن ذكر الروايتين في قوله: «أهلكهم» بالفتح والضم نقلاً عن الحميدي في الجمع بين الصحيحين ـ قال: «واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس واحتقارهم وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم، لأنه لا يعلم سر الله في خلقه.

قالوا: فأما من قال ذلك تحزناً لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في أمر الدين فلا بأس عليه كما قال: لا أعرف من أمة النبي ﷺ إلا أنهم يصلون جميعاً، هكذا فسره الإمام مالك وتابعه الناس عليه»(٢).

وقال البغوي رحمه الله عند شرح هذا الحديث: قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: معنى هذا أن لا يزال الرجل يعيب الناس، ويذكر مساويهم ويقول: قد فسد الناس، وهلكوا ونحو ذلك الكلام، وإذا فعل الرجل ذلك فهو أهلكهم وأسوؤهم حالاً فيما يلحق من الإثم في عيبهم والإزراء بهم، وربما أداه ذلك إلى العُجب بنفسه، ويرى أن له فضلاً عليهم، وأنه خير منهم، فيهلك»(٣).

ثم ذكر الإمام البغوي كلام الإمام مالك الذي سبق الإشارة إليه في كلام الإمام النووي ـ عليه رحمة الله ـ فكل من جاء بعده من العلماء فقد ذهب إلى هذا التفصيل في معنى الحديث.

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب النهي عن قول: «هلك الناس»، برقم (٢٦٢٣)، «نووي» (١٦/٤١١ ـ ٤١٢).
(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٦/٤١٣ ـ ٤١٤).
(٣) «شرح السنّة» (١٣/١٤٤).

وورود النهي عن السخرية بالمؤمنين والاستهزاء بهم، بتتبع عوارتهم، واغتيابهم في حديث أبي برزة الأسلمي قال: **قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»**(١).

ففي الحديث تنبيه على أن غيبة المسلم من شعار المنافق لا المؤمن، كما أن فيه التنفير من هتك عورات المسلمين وتتبعها وفضحها بين الناس احتقاراً وازدراءً بالآخرين، فعقوبة ذلك قد تُعَجَّل لصاحبها في الدنيا، وقد تؤخر يوم القيامة، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها(٢).

هذا النهي العام في القرآن والسنة عن تحقير المسلمين وانتقاصهم أول ما يدخل فيه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فهم أولى بكل تنزيه عن النقائص من عامة المؤمنين، فإكرامهم واحترامهم واجب ديني وخلق إسلامي، بل ومعتقد يجب أن يشاع في الناس(٣) امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا . .﴾ [الحشر: ١٠].

قال الإمام الذهبي ـ عليه رحمة الله ـ بعد أن ذكر ما جرى بين

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب في الغيبة، برقم (٤٨٨٠) (٥/ ١٩٤ ـ ١٩٥)، قال الهيثمي: «رجاله ثقات». «المجمع» (٨/ ٥٣)، وجوّد إسناده الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٤٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٤٠٨٣) (٣/ ٩٢٣).

(٢) انظر: «عون المعبود» (١٣/ ٢٢٤) لأبي الطيب.

(٣) انظر: «شرح السنّة» (٧/ ١٢٣٧) للالكائي، فقد بوّب رحمه الله لذلك بقوله: «باب جماع فضائل الصحابة رضي الله عنهم، سياق ما روي في أن معرفة فضائل الصحابة من السنّة». وساق فيه آثاراً عن شقيق بن عبد الله، ومسروق، وطاووس، ومالك بن أنس، وغيرهم.

الصحابة، قال: «... فالقوم لهم سوابق، وأعمال مكفرة لما وقع منهم، وجهاد محّاءٌ، وعبادة ممحصة، ولسنا ممن يغلو في أحد منهم ولا ندعي فيهم العصمة، فنقطع بأن بعضهم أفضل من بعض، ونقطع بأن أبا بكر وعمر أفضل الأمة، ثم تتمة العشرة المشهود لهم بالجنة وحمزة وجعفر ومعاذ وزيد وأمهات المؤمنين، وبنات نبينا محمد ﷺ وأهل بدر مع كونهم على مراتب، ثم الأفضل بعدهم مثل أبي الدرداء وسلمان الفارسي وابن عمر وسائر أهل بيعة الرضوان الذين رضي الله عنهم بنص آية سورة الفتح[1] ثم عموم المهاجرين والأنصار كخالد بن الوليد والعباس وعبد الله بن عمرو، وهذه الحَلْبة، ثم سائر من صحب رسول الله ﷺ وجاهد معه، أو حج معه، أو سمع منه، رضي الله عنهم أجمعين، وعن جميع صواحب رسول الله ﷺ المهاجرات والمدنيات وأم الفضل وأم هانئ الهاشمية وسائر الصحابيات.

فأما ما تنقله الرافضة وأهل البدع في كتبهم من ذلك، فلا نعرج عليه، ولا كرامة، فأكثره باطل وكذب وافتراء، فدأب الروافض رواية الأباطيل، أو رد ما في الصحاح والمسانيد، ومتى إفاقة من به سُكْرَان»[2].

قال الشافعي رحمه الله: «وما أرى الناس ابتلوا بسب أصحاب رسول الله ﷺ إلا ليزيدهم الله بذلك ثواباً عند انقطاع أعمالهم»[3].

فهنيئاً لهم هذا الفضل، وجريان الثواب بعد انقطاع الأعمال، والانتقال إلى دار القرار، فكأن الشافعي رحمه الله يشير إلى ما ورد من القصاص يوم

---

(١) وهي الآية رقم (١٨) ونصها: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ١٨﴾. وكانت عدة الذين شهدوا هذه البيعة ألفاً وخمسمائة كما في الصحيحين. انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٢٨٧) لابن القيم.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٩٣).

(٣) نقلاً عن: «الإتحاف في الرد على الصحَّاف» (ص٥٠) للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

القيامة بين الظالم والمظلوم، فيؤخذ من حسنات الظالم فتعطى للمظلوم حتى إذا فنيت حسناته، أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه والعياذ بالله، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ **قال: «هل تدرون من المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا ـ يا رسول الله ـ من لا درهم له ولا متاع، قال: «إن المفلس من أمتي منْ يأتي يوم القيامة بصيام وصلاةٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شتم عرض هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، فيقعدُ، فيَقْتَصُّ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يقضى ما عليه من الخطايا أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحت عليه، ثم طرِحَ في النار»**[(١)].

قال النووي ـ عليه رحمة الله ـ: «وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث، فهو الهالك التام، والمعدوم الإعدام المقطع فتؤخذ حسناته لغرمائه، فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه ثم ألقي في النار، فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه»[(٢)].

وهؤلاء بدل أن يستغفروا لهم كما أُمروا وقعوا في أعراضهم، **قال ابن تيمية** رحمه الله: «ومحبة الشيء كراهته لضدّه، فيكون الله يكره السبَّ لهم الذي هو ضد الاستغفار، والبغض لهم الذي هو ضد الطهارة، **وهذا معنى قول عائشة** رضي الله عنها: **«يا ابن أختي ـ تعني عروة بن الزبير ـ أُمِرُوا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبُّوهم**[(٣)]»[(٤)]، فهذا من علامة شقاء العبد وسوء معتقده، وإلا لو كان من أهل الإسلام، لتولى أصحاب رسوله ﷺ ولم

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٨١)، «نووي» (١٦/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٤٠٦)، برقم (٨٠٤٩) واللفظ له، والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، برقم (٢٤١٨) (٤/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٣٧٢).

(٣) رواه مسلم في كتاب التفسير، في مقدمته، برقم (٣٠٢٢)، «نووي» (١٨/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥).

(٤) «الصارم المسلول» (ص٥٧٦).

يناصبهم العداء، ويطلق لسانه فيهم بالسب والاستهزاء والطعن والإزدراء.

فقد كان شأن أهل السنة والجماعة مع أصحاب رسول الله ﷺ عظيماً، فهذا سحنون ـ أحد أكابر علماء المالكية ـ قيل له: إن يعقوب بن المضار لا يحبك، فقال: الحمد لله الذي لم يجمع حبي، وبغض أبي بكر وعمر في قلب واحد»[1]. فما أعظم هذا الولاء وهذه المحبة حتى في أعمال القلوب: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فالسب والشتم لأصحاب رسول الله ﷺ مخالف لما جاء في القرآن، وما جاء عن نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعن سلف الأمة، من الاعتقاد الصحيح فيهم، وتقبيح الطعن والإزراء عليهم، والوعيد الشديد في ذلك، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: **قال النبي ﷺ: «لا تسُبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكُم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذهباً ما بَلَغَ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصيفه»**[2].

قال الحافظ: «... ومع ذلك فنهى بعض من أدرك النبي ﷺ وخاطبه بذلك عن سب من سبقه يقتضي زجر من لم يدرك النبي ﷺ ولم يخاطبه عن سب من سبقه من باب الأولى»[3].

فسب الصحابة رضي الله عنهم من كبائر الذنوب، وفواحش الآثام.

قال الإمام النووي ـ عليه رحمة الله ـ: «واعلم أن سب الصحابة رضي الله عنهم حرام من فواحش المحرمات سواء من لابس الفتن منهم، وغيره لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون...

---

(١) «ترتيب المدارك» (٦١٦/١) للقاضي عياض اليحصبي.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: **«لو كنت متخذاً خليلاً...»** برقم (٣٦٧٣)، «فتح» (٢٥/٧)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، برقم (٢٥٤٠، ٢٥٤١)، «نووي» (١٦، ٣٢٦، ٣٢٧).

(٣) «فتح الباري» (٤٢/٧).

قال القاضي: وسب أحدهم من المعاصي الكبار، ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يُعزَّرُ ولا يقتل، وقال بعض المالكية: يقتل»[١].

❑ المطلب الأول ❑

صور من استهزاء المشركين بالصحابة ﷺ

بعد أن وقفنا على نصوص الوحي في النهي والتحذير من سب الصحابة ﷺ نردف ذلك بصورٍ من الاستهزاء والسخرية بالصحابة وسائر المؤمنين.

فمن ذلك ما كان يصنعه الملأ من كُفَّارِ قريش بضعفاء المؤمنين وفقراءهم، كبلال وصهيب وخباب، وذلك أنَّ كبراء قريش أرادوا أن يجلسوا مع محمد ﷺ ويسمعوا منه ويتبعوه!! بشرط أن يطرد هؤلاء المستضعفين الفقراء.

روى مسلم في صحيحه عن المقداد بن شريح عن أبيه عن سعد بن أبي وقاص ﷺ **قال: كنَّا مع النبي ﷺ ستَّة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ أطرد هؤلاء لا يتجرئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾**»[٢].

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧)، وسيأتي تفصيل أحكام السب عند الحديث عن «حكم الاستهزاء وأقسام المستهزئين» من الباب الثالث.

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ، حديث (٢٤٢)، «نووي» (١٥/ ١٩٦)، وأحمد في «المسند» (١/ ٥٤٤) عن عبد الله بن مسعود، وفيه: «وعنده خباب، وصهيب، وبلال وعمار». قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢١): «ورجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة».

وتمام الآيات: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣].

إن مقولة الملأ المستكبرين: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ﴾، كما جاءت في رواية ابن إسحاق: «وكان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خبَّاب، وعمَّار، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرّث، وصُهيب، وأشباههم من المسلمين، هزئت بهم قريش، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق! لو كان ما جاء به محمدٌ خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه...»(١).

وجاء عند الطبري ـ بسند صحيح ـ عن ابن مسعود **قال: «مرَّ الملأ من قريش بالنبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، رضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك! فنزلت هذه الآية:** ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ﴾(٢).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم، من أتباع الرسل فتنةً لأغنيائهم ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم

---

(١) «السيرة النبوية» مجلد (١/ ٣٩٢) لابن هشام، و«البداية والنهاية» (٣/ ٨٤).

(٢) «جامع البيان» (١١/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥، شاكر). وانظر: «أسباب نزول القرآن» (ص٢١٩ ـ ٢٢١) للواحدي، و«أسباب النزول» (ص١٦٠، ١٦٢) للسيوطي، ففي «أسباب النزول» هذه الآيات روايات كثيرة غير ثابتة. قال القاسمي بعد أن ذكر رواية مسلم وأحمد والطبري: «ووراء ما ذكرنا، روايات لا تصح ولا يوثق بها». «محاسن التأويل» (٣/ ٣٢١).

بصدق الرُّسُل، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٤٦] هؤلاء، وقالوا لنوح عليه السلام: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١]، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فإذا رأى الشريفُ الرئيس المسكين الذليل قد سبقه إلى الإيمان ومتابعة الرسل حمي وأنف أن يُسلم، فيكون مثله، وقال: أُسْلِم فأكونَ أنا وهذا الوضيع على حَدٍّ سواء؟»[1].

وبهذا يتبين أن النبي ﷺ كان شديد الحرص على إسلام السادة والكبراء من قومه، فبإسلامهم ودخولهم في دين الله، تتبعهم فيه سائر قريش، ولذلك همَّ أن يفعل ما أراده الملأ[2]، ووقع في نفسه ـ عليه الصلاة والسلام ـ رغبة في هدايتهم، ونجاتهم من النار، فجاءه العتاب من الله تعالى والنهي عن إنفاذ ذاك الهمِّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

قال ابن كثير: «أي لا تُبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخِصَّاءك كقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]»[3].

ومن صور الاستهزاء بالصحابة ـ أيضاً ـ: من قبل المشركين، ما رواه ابن ماجه بسنده عن سلمان، قال: «قال له بعض المشركين، وهم يستهزئون به: إني أرى صاحبكم يعلمكم كل شيء حتى الخراءة، قال: أجل، أمرنا أن

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦١).

(٢) ذهب بعض المفسرين كالرازي، عند تفسير هذه الآية أنَّ النبي ﷺ فعل ذلك، فطرد المستضعفين والفقراء، وهذا باطل كما وضحته رواية مسلم السابقة. انظر: «محاسن التأويل» (٣/ ٣٢١) للقاسمي.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢١٥).

لا نستقبل القبلة، وألا نستنجي بأيماننا، ولا نكتفي بدون ثلاثة أحجار ليس فيها رجيع ولا عظم»(١).

ومن صور الاستهزاء بالصحابة ـ أيضاً ـ: ما حدث من الروم ـ حاشية رستم في القادسية ـ حينما دار حوار بين رستم ورسول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

قال ابن كثير: «فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه، فقال: ويلكم لا تنظرون إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب»(٢).

فكان سبب استخفاف أهل مجلس رستم وحاشيته رثاثة ثياب المغيرة بن شعبة رسول سعد رضي الله عنهما، فقد سبُّوه بقولهم: «معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟»، هذا ميزان أهل الجاهلية في كل زمان، ينظرون إلى المظاهر، ويبنون عليها، حتى لو كانت مبنية على الشرك والوثنية، أمَّا أن يجعلوا الأصل في تقييم الناس: التقوى، فهذا لا نجده إلا عند أهل الإسلام والإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه **قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم ـ وأشار بأصبعه إلى**

---

(١) في كتاب الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروث والرمة، برقم (٣٢٠) (١/ ٦٣). وانظر: «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٥٧) للألباني، وقال عنه: «صحيح»، وهو عند أبي داود في الطهارة، باب كراهة استقبال القبلة، برقم (٧) (١/ ١٧ ـ ١٨)، ولم يذكر فيه لفظ الاستهزاء.

(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ٣٣).

صدره ـ»، وفي رواية: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١).

❑ المطلب الثاني ❑

صور من استهزاء اليهود بالصحابة رضي الله عنهم

ومن صور الاستهزاء بأصحاب محمد ﷺ: ما زعمته يهود من أن الله أباح لهم أموال الأميين ـ وهم المسلمون ـ وهذا محض افتراء وكذب على الله تعالى، وقد تنزَّل القرآن ليكشف زعم أولئك اليهود، ويُبين عن سالفتهم، قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٥ ـ ٧٦].

قال ابن عطية: «الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى كونهم لا يؤدون الأمانة في دينار فما فوقه... والضمير في ﴿قَالُوا﴾ يعني به لفيف بني إسرائيل، لأنهم كانوا يقولون: نحن أهل الكتاب، والعرب أميون أصحاب أوثان، فأموالهم لنا حلال متى قدرنا على شيء منها لا حجة علينا في ذلك، ولا سبيل لمعترض وناقد إلينا في ذلك...»(٢).

وقال ابن كثير: «أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب؛ فإن الله قد أحلها لنا»، إلى أن قال رحمه الله في معرض الرد عليهم وبيان كذبهم: «قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: وقد اختلقوا هذه المقالة،

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، واحتقاره ودمه وعرضه وماله، برقم (٢٥٦٤)، «نووي» (١٦/٣٥٧).
(٢) «المحرر الوجيز» (١/٤٥٨ ـ ٤٥٩).

وائتفكوها بهذه الضلالة، فإن الله حرَّم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بُهت»(١).

روى ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال: لمَّا قال أهل الكتاب: ليس علينا في الأميين سبيل، قال نبي الله ﷺ: «**كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر**»(٢)، وفي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سُئل: إنما نَمُرُّ بأهلِ الذمة، فيذبحون لنا الدجاجة والشاة، فقال: وتقولون ماذا؟ قال: نقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾، قال: إنهم إذا أدَّوا الجزية، لم تحلَّ أموالهم إلا بطيب أنفسهم»(٣).

❑ المطلب الثالث ❑

صور من استهزاء المنافقين بالصحابة رضي الله عنهم وسائر المؤمنين

ومن صور الاستهزاء بالمؤمنين ما كان يفعله المنافقون من سخرية بالصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في إظهارهم الإسلام والموافقة، والاتباع، والطاعة، والنصرة، لأهل الإيمان، وفي حقيقة الأمر هم باقون على معتقداتهم، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٥٦٠).
(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٦٨٤)، و«جامع البيان» (٦/ ٥٢٢)، برقم (٧٢٦٩)، و«تفسير القرآن العظيم» (١/ ٥٦٠) لابن كثير، و«الدر المنثور» (٢/ ٧٨) وعزاه لعبد بن حميد. قال أحمد شاكر: «هو حديث مرفوع، ولكنه مرسل، لأن سعيد بن جبير تابعي، وإسناده إليه إسناد جيد». «جامع البيان» (٦/ ٥٢٢ ـ شاكر)، هامش رقم (٢).
(٣) «المصنف» (٦/ ٩١) للصنعاني.

قال أبو جعفر في تفسير هذه الآية: «أخبر عنهم في هذه الآية أنهم يقولون ـ للمؤمنين المصدِّقين بالله وكتابه ورسوله ـ بألسنتهم: آمنا وصدقنا بمحمد، وبما جاء به من عند الله خِداعاً عن دمائهم وأموالهم وذراريهم، ودرءاً لهم عنها، وأنهم إذا خَلَوْا إلى مردتهم وأهل العُتُو والشر والخبث منهم ومن سائر أهل الشرك، الذين هم على مثل الذي هم عليه من الكفر بالله وبكتابه ورسوله ـ وهم شياطينهم، وقد دللنا فيما مضى من كتابنا على أن شياطين كل شيء مَرَدَتُه ـ قالوا لهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، أي: إنّا معكم على دينكم، وظُهراؤكم على من خالفكم فيه، وأولياؤكم دون أصحاب محمد ﷺ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بالله وبكتابه ورسوله وأصحابه»(١).

ثم روى بسنده عن مجاهد في قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ قال: «إذا خلا المنافقون إلى أصحابهم من الكفار»(٢).

والمراد بشياطينهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم رؤوسهم في الكفر، قاله ابن مسعود، وابن عباس، والحسن والسدّي، **والثاني**: إخوانهم من المشركين، قاله أبو العالية ومجاهد، **والثالث**: كهنتهم، قاله الضحاك، والكلبي(٣).

قال ابن عطية في معنى قول المنافقين لرؤسائهم أو المشركين أو اليهود: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾: «ومعناه نتخذ هؤلاء الذين نصانعهم بإظهار الإيمان هُزُواً ونستخفُّ بهم»(٤).

وقد نقل شيخ المفسرين الإجماع على أن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾: إنما نحن ساخرون، «فمعنى الكلام إذاً: وإذا انصرف المنافقون

---

(١) «جامع البيان» (١/ ١٦٣).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٦٤).
(٣) «زاد المسير» (١/ ٣٥). وانظر: «جامع البيان» (١/ ١٦٣ ـ ١٦٤) للطبري.
(٤) «المحرر الوجيز» (١/ ٩٦). وانظر: «محاسن التأويل» (١/ ٢٤٧) للقاسمي.

خالين إلى مردتهم من المنافقين والمشركين، قالوا: إنا معكم على ما أنتم عليه من التكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به، ومعاداته ومعاداة أتباعه، إنما نحن ساخرون بأصحاب محمد ﷺ بقيلنا لهم إذا لقيناهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾»[1].

فإذا تأملنا في خطاب المنافقين لمن يوالونهم ظاهراً وباطناً، ومن يوالونهم ظاهراً فقط، نجد البون واسعاً، والفرق ظاهراً، فقد لحظ هذا **الإمام ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بإنَّ المشددة، فقالوا في خطاب المؤمنين ـ آمنَّا ـ ولإخوانهم ـ إنا معكم ـ لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن ينزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط، وكان ذلك متقبلاً منهم ورائجاً عند إخوانهم، وما قالوه للمؤمنين؛ فإنما قالوه تكلفاً وإظهاراً للإيمان خزياً ومداجاة[2]، وكانوا يعلمون أنهم لو قالوا بأوكد لفظ وأشده لما راج لهم عندهم إلا رواجاً ظاهراً لا باطناً، ولأنهم ليس لهم من عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة، فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين بخلاف ما قالوه في خطاب إخوانهم، وصرَّحوا في كلامهم لإخوانهم أن ما خاطبوا به المؤمنين إنما هو هزء، فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾، وهذه نكت دقيقة ولطائف خفية لا توجد في نوع من الكلام العربي إلا في القرآن الكريم، وما أكثر ذلك وأمثاله في آياته وأوفره مودعاً في غضونه؛ فاعرفه وقس عليه ترشد»[3].

---

(١) «جامع البيان» (١/ ١٦٥) للطبري. وانظر: «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان» (١/ ٢٣) للشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي.

(٢) أي: مداهنة.

(٣) «بدائع التفسير» (١/ ٢٧٠).

«فالمنافقون المخادعون للمسلمين بزعمهم الإيمان ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ على حالنا لم ننتقل عنها، ثم إنهم لم يكتفوا بهذا الإخبار المُطَمْئِن للشياطين بأنهم معهم في العقيدة والنصرة على رسول الله ﷺ وأصحابه، وإطلاعهم على أسرارهم وتربص الدوائر بهم، وتنفيذ ما يريدونه من صنوف الإيذاء السرية والمكر الخفي، بل بينوا سبب زعمهم الإيمان، إذا التقوا بالمؤمنين بأنهم يلعبون على ذقونهم، ويسخرون منهم، ويمكرون حيث يقولون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾، ساخرون بأتباع محمد، مستخفون بهم، فنحن نلعب بهم، ونتربص بهم الدوائر»(١).

فهل يتدبر المسلمون اليوم هذا المكر الكبَّار، الذي تكاد تزول منه الجبال، فيحذروا النفاق وأهله، وما يكيدون في الخفاء لأهل الحق والصلاح من تشويه وطعن وازدراء، ليرووا غليلهم، ويشفوا صدورهم من المؤمنين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧].

ومن صور الاستهزاء عند المنافقين ـ أيضاً ـ: ما قاله رجل من المنافقين في غزوة تبوك: «ما رأيتُ مثل قُرَّائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسُناً، ولا أجبن عند اللقاء».

عن زيد بن أسلم أن رجلاً من المنافقين قال لعون بن مالك في غزوة تبوك: «ما لقُرائنا هؤلاء أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء. (يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء)، فقال له عوف: كذبت، ولكنَّك منافقٌ! لأخبرنّ رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليُخبره، فوجد القرآن قد سبقه، قال زيد: قال عبد الله بن عمر: فنظرت إليه متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة يقول: إنما كنَّا نخوض ونلعب، فيقول له النبي ﷺ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾

---

(١) «صفوة الآثار والمفاهيم» (٢/ ٢٥ ـ ٢٦) للشيخ عبد الرحمٰن الدوسري رحمه الله. وانظر: «في ظلال القرآن» (١/ ٤٤ ـ ٤٥) لسيد قطب.

[التوبة: ٦٥] ما يزيده[(١)].

فأنزل الله في شأن هذا الرجل ـ الذي تفوه بكلمة الكفر وكفر بعد إيمانه ـ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦][(٢)].

فهؤلاء لما تنقَّصوا النبي ﷺ حيث عابوه والعلماء من أصحابه، واستهانوا بخبره، أخبر الله أنهم كفروا بذلك، وإن قالوا استهزاءً، فكيف بما هو أغلظ من ذلك؟ وإنما لم يقم الحد عليهم لكون جهاد المنافقين لم يكن قد أُمر به إذ ذاك، بل كان مأموراً بأن يدع أذاهم، ولأنه كان له أن يعفو عمَّن تنقصه، وآذاه»[(٣)].

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن إيمان الطاعن على الصحابة ومن معه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٨٢٩)، برقم (١٠٠٤٧) ورجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد فلم يخرج له مسلم إلا في الشواهد كما في «تهذيب التهذيب» (١١/ ٣٨)، والطبري في «التفسير» (١٤/ ٣٣٣ ـ شاكر)، برقم (١٦٩١١، ١٦٩١٢، ١٦٩١٦)، وقال عنه محمود شاكر: صحيح الإسناد، قلت: هشام بن سعد مختلف فيه كما في «تهذيب التهذيب» (١١/ ٣٧ ـ ٣٨) فيتقوى الأثر بالشواهد كما عند الطبري عن ابن عمر ومحمد بن كعب، وقد اعتدَّ به جماعة من أهل العلم منهم شيخ الإسلام أحمد بن تيمية كما في «الصارم المسلول» (٣٨)، والشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب كما في «تيسير العزيز الحميد» (ص٦١٩)، والشيخ عبد الرحمن بن حسن كما في «فتح المجيد» (ص٥٢٠) وغيرهم.

(٢) انظر: «أسباب نزول القرآن» (ص٢٥٥ ـ ٢٥٦) للواحدي، فقد نسب القول إلى عبد الله بن أُبيّ ـ رأس المنافقين ـ وهو خطأ لأن ابن أُبيّ لم يشهد غزوة تبوك. انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٥) لابن عطية، و«أسباب النزول» (ص١٩٤ ـ ١٩٥) للسيوطي، و«تيسير العزيز الحميد» (ص٦٢٣).

(٣) «الصارم المسلول» (ص٣٩) لابن تيمية.

الذي أثبتته الآية: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ المقصود به الإيمان الظاهر، كالنطق باللسان؛ مع بقاء الكفر في الباطن، وهذا فيه نظر.

قال ابن تيمية: «وقول من يقول عن مثل هذه الآيات: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم، لا يصح، لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم، فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، فإن أريد إنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم، ما زالوا هكذا؛ بل لمَّا نافقوا وحذروا أن تنزل سورة تبين ما في قلوبهم من النفاق، وتكلموا بالاستهزاء، صاروا كافرين بعد إيمانهم، ولا يدُلُّ اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين... ولهذا قيل: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾، فدلَّ على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفراً، بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر، فبين أنَّ الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدلَّ على أنهم كان عندهم إيمان ضعيف، ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم، ولكن لم يظنوه كفراً، وكان كفراً كفروا به، فإنهم لم يعتقدوا جوازه، وكذلك قال غير واحد من السلف في صفة المنافقين الذين ضرب لهم المثل في سورة البقرة أنهم أبصروا ثمَّ عموا، وعرفوا ثم أنكروا، وآمنوا ثمَّ كفروا...»[(١)].

فظهر أن هذا الرجل الذي نطق بالاستهزاء والازدراء بأصحاب محمد ﷺ كان معه إيمان، فهو من المسلمين الذين خرجوا مع رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى تبوك، مجاهداً في سبيل الله، فلمَّا أتى باللفظ الدال على الكفر والردة، المناقض للإيمان مناقضة الضدِّ للضد، بحيث لا يمكن الجمع بينهما، حكم الله تعالى بكفره هو ومن وافقه في هذا القول

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٧٢ ـ ٢٧٤). وانظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٦١٨ ـ ٦١٩)، و«فتح المجيد» (ص٥٢٢ ـ ٥٢٣).

ممَّنْ لم يتب الله عليهم، إلا مُخشّي بن حمير ﷺ، فهو المعني بقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ[١] مِّنكُمْ ...﴾ فقد تاب مخشي، واستشهد يوم اليمامة، ولم يعلم بمكانه أحد فرضي الله عنه ورحمه[٢].

❑ المطلب الرابع ❑

صور من استهزاء أهل الأهواء والبدع بالصحابة ﷺ وسائر المؤمنين

لم يكن الاستهزاء بأهل العلم والدين من قبل اليهود والنصارى والمشركين وحدهم، بل شاركهم في ذلك أهل الأهواء والبدع، فمن صور السخرية بهم: السخرية بالشيخين ﷺ.

فقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية عن استهزاء الرافضة بالصديق ﷺ قال: «**ومثل اتخاذهم حلساً مملوءاً سمناً ثم يبعجون بطنه فيخرج السمن فيشربونه، ويقولون: هذا مثل ضرب وشرب دمه**». إلى أن قال: «ومثل تسمية بعضهم لحمارين من حمر الرحى، أحدهما: بأبي بكر، والآخر: بعمر، ثمَّ يعاقبون الحمارين، جعلاً منهم تلك العقوبة عقوبة لأبي بكر وعمر.

وتارة يكتبون أسماءهم على أسفل أرجلهم، حتى أن بعض الولاة جعل يضرب رجلي من فعل ذلك، ويقول: إنما ضربت أبا بكر وعمر، ولا أزال أضربهما حتى أعدمهما.

---

(١) الطائفة في اللغة أصلها: الجماعة، لأنها المقدار الذي يمكنها أن تطيف بالشيء، ثمَّ يجوز أن يسمى الواحد بالطائفة، وإيقاع الجمع على الواحد معروف في كلام العرب. انظر: «زاد المسير» (٣/ ٤٦٦) لابن الجوزي، و«محاسن التأويل» (٤/ ١٦٣) للقاسمي.

(٢) انظر: «الدرر السنية» (٨/ ١٠٢ ـ ١٠٣) جمع عبد الرحمٰن بن قاسم، و«تيسير العزيز الحميد» (ص٦١٩)، و«فتح المجيد» (ص٥٢٢).

ومنهم من يسمي كلابه باسم أبي بكر وعمر، ويلعنهما، ومنهم من إذا سمَّى كلبه فقيل له: «بكير» يضارب من يفعل ذلك، ويقول: تسمَّى كلبي باسم أصحاب النار»[1].

وشبيه بهذا الذي أشار إليه شيخ الإسلام عن هؤلاء الرافضة من سخرية واستهزاء بصاحِبَيّ رسول الله ﷺ ما ذكره الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ـ عليه رحمة الله ـ حيث قال: «... ومنها (أي من قبائح الرافضة): إيجابهم سب الصحابة لا سيما الخلفاء الثلاثة نعوذ بالله، رَوَوْا في كتبهم المعتبرة عندهم عن رجل من أتباع هشام الأحول أنه قال: كنت يوماً عند أبي عبد الله جعفر بن محمد فجاءه رجل خياط من شيعته وبيده قميصان، فقال: يا ابن رسول الله ﷺ خطت أحدهما وبكلٍّ غرزة إبرة وحَّدت الله الأكبر؛ وخطت الآخر، وبكلٍّ غرزة إبرة لعن الأبعد أبي بكر وعمر، ثم نذرت لك ما أحببته لله منهما فما تحبه خذه وما لا تحبه رده، فقال الصادق: أُحِبُّ ما تمَّ بلعن أبي بكر وعمر واردد إليك الذي خيط بذكر الله الأكبر».

ثم علَّق رَحِمَهُ اللهُ على هذه الفرية العظيمة، ـ وما تطفح به كتب الرافضة وحججهم وآياتهم، من سخرية واستهزاء بأصحاب محمد ﷺ يفوق الحصر ـ فقال: «فانظر إلى هؤلاء الكذبة الفسقة ماذا ينسبون إلى أهل البيت من القبائح حاشاهم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فإن لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ وسطاً فمن يكونُ غيرهم.

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فإذا لم يكن أصحابه من خيرهم فمن يكون سواهم... وكيف يُسَبُّ من رضي عنه

---

(١) «منهاج السنّة النبوية» (١/ ٤٩ ـ ٥٠).

مولاه واصطفاه... فمن سبهم فقد خالف ما أمر الله من إكرامهم، ومن اعتقد السوء فيهم كلهم أو جمهورهم فقد كذب الله تعالى فيما أخبر من كمالهم وفضائلهم ومكذبه كافر، **قال رسول الله ﷺ: «النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذَهَبْتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»**(١)(٢).

قال العلماء في معنى الحديث: الأمنة بفتح الهمزة والميم والأمن والأمان بمعنى،... وقوله ﷺ: «**وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**»، معناه من ظهور البدع والحوادث في الدين، والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وظهور الروم، وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك»(٣).

ومن صور الاستهزاء والسخرية بالصحابة ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ أيضاً ـ: من تنقص الرافضة للصديقة بنت الصديق ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ، قال: «ومن حماقاتهم تمثيلهم لمن يبغضونه بالجماد أو الحيوان، ثمَّ يفعلون بذلك الجماد والحيوان ما يرونه عقوبة لمن يبغضونه، مثل: اتخاذهم نعجة، وقد تكون نعجة حمراء لكون عائشة تسمى الحميراء(٤)

---

(١) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة، برقم (٢٥٣١)، «نووي» (١٦/٣١٦ ـ ٣١٧).

(٢) «رسالة الرد على الرافضة» (ص١٥ ـ ١٧) لمحمد بن عبد الوهاب.

(٣) «شرح صحيح مسلم» (١٦/٣١٦ ـ ٣١٧) للإمام النووي.

(٤) ورد في هذا المعنى حديث: «خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء ـ يعني عائشة ـ». قال ابن حجر: لا أعرف له إسناداً، ولا رأيته في شيء من كتب الحديث إلا في «النهاية» لابن الأثير...». وذكر ابن كثير: «أنه سأل الحافظين المزي والذهبي عنه فلم يعرفاه». وقال الذهبي: «هو من الأحاديث الواهية التي لا يعرف لها إسناد». انظر: «المقاصد الحسنة» (ص٣٢١) للسخاوي، و«الدرر المنتثرة» (ص١١٥)، و«كشف الخفاء» (١/٤٤٩) للعجلوني. وقال عنه الشيخ الألباني: موضوع. «إرواء =

يجعلونها عائشة ويعذبونها بنتف شعرها وغير ذلك، ويرون أن ذلك عقوبة لعائشة...»(١).

وهذا فيه استهزاء وازدراء بأمِّ المؤمنين رضي الله عنها إذ شبهوها بالعجماوات، وهي من هي في مكانتها عند رسول الله ﷺ وعند المؤمنين، سبحانك هذا بهتان مبين.

قال أبو الأحوص: لو أن الروم أقبلت من موضعها ـ يعني تقتل ما بين يديها ـ وتقبل حتى تبلغ النخيلة(٢)، ثم خرج رجل بسيفه، فاستنقذ ما في أيديها وردها إلى موضعها، ولقي الله وفي قلبه شيء على بعض أصحاب محمد ﷺ ما رأينا أن ذلك ينفعه»(٣).

وقد كان الصحابة ينكرون على من تنقص الصديقة وطعن عليها، حيث قام رجل فنال من عائشة رضي الله عنها، فقام عمار رضي الله عنه يتخطى الناس، فقال: أجلس مقبوحاً منبوحاً(٤)، أنت الذي تقع في حبيبة رسول الله ﷺ، فوالله إنها لزوجته في الدنيا والآخرة»(٥).

= الغليل» (١/ ١٠) وعزاه لابن القيم في «المنار المنيف».

(١) «منهاج السنّة النبوية» (١/ ٤٩).

(٢) تصغير نخلة، وهي: موضع قرب الكوفة على سمت الشام. «معجم البلدان» (٥/ ٣٢١ ـ ٣٢٢) لياقوت الحموي.

(٣) «النهي عن سب الأصحاب» (ص٨١ ـ ٨٢) للمقدسي.

(٤) أصله من نبح الكلب. انظر: «مختار الصحاح» (ص٦٤٢)، مادة (ن ب ح). قال في «اللسان» (٢/ ٦١٠)، مادة (ن ب ح): «ورجل منبوح: يضرب له مثل الكلب ويُشبه به؛ ومنه حديث عمار رضي الله عنه، فيمن تناول من عائشة رضي الله عنها: أسكت مقبوحاً مشقوحاً منبوحاً...».

(٥) رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل عائشة رضي الله عنها، برقم (٣٨٨٨) (٥/ ٦٦٤)، وقال عنه: حديث حسن صحيح، وفي سند الترمذي، سفيان عن أبي إسحاق السبيعي، فإن كان الثوري فسماعه قديم قبل أن يختلط، وإن كان ابن عيينة فقد سمع منه بعد أن اختلط كما في «التهذيب» (٨/ ٥٥).

ومن صور الاستهزاء بالصحابة ﭬ ـ أيضاً ـ: ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني من السخرية بالصحابي الجليل، والخليفة الراشد علي بن أبي طالب والخلفاء بعده، وذلك: «أنَّ عمر بن أبي ربيعة كانت له جارية بارعة،... وقد مدحها بقصيدته التي مطلعها:

طال ليلي وتعناني الطرب واعتراني طول همٍّ ووصبْ

ثم ذكر: أن إسحاق الموصلي، قال: حدثني الوليد بن يزيد، فأنشدته نحواً من ألف قصيدة، فما استعادني إلا قصيدة عمر بن أبي ربيعة، [في مدح جاريته، وقد سبق مطلعها آنفاً]، ثم قال الوليد: ويحك يا حمَّاد، أطلب لي مثل هذه أرسلها إلى سلمى يعني امرأته... وأنه طلقها... ثمَّ تبعتها نفسه.

قال إسحاق: وحدثني جماعة، منهم الحرميّ، والزبيري، وغيرهما: أن عمر أنشد ابن أبي عتيق هذه القصيدة.

فقال له ابن أبي عتيق: إن الناس يطلبون خليفة منذ قتل عثمان، في صفة قوادتك هذه، يُدَبِّرُ أمورهم، فما يجدونه»[(١)].

هل كان ابن كناسة[(٢)] ـ وهو من شيوخ الإمام أحمد بن حنبل ـ يروي مثل هذا الطعن والازدراء بالخليفة الراشد عليّ بن أبي طالب ﭬ والخلفاء بعده، حتى زمن الوليد بن يزيد، كما يصوره فكر «الأصفهاني» المفتري، وبتلك الكلمة البذيئة، التي يتورع أبو الفرج عن وصف ملوك المجوس والفرس والروم بها، ويطلقها مدوية بين أبناء المسلمين، تجرح كرامتهم، وتطعن في أئمتهم وخلفائهم[(٣)].

---

(١) «الأغاني» (١/١٣٣ ـ ١٣٥).

(٢) هو: محمد بن عبد الله بن عبد الأعلى بن عبد الله بن خليفة بن زهير الأسديُّ المعروف بابن كناسة وهو لقب أبيه، توفي سنة (٢٠٩هـ). انظر: «تهذيب التهذيب» (٩/ ٢٢٥).

(٣) انظر: «السيف اليماني» (ص١٣٨ ـ ١٣٩) وليد الأعظمي.

ومن صور السخرية بالصحابة: ما لقيه الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من النظام المعتزلي[١] وطعنه عليه في حادثة انشقاق القمر، قال ابن قتيبة: «ثم طعنه على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بقوله: إنَّ القمر انشق وأنه رأى ذلك ثمَّ نسبه فيه إلى الكذب، وهذا ليس بإكذاب لابن مسعود، ولكنه بخسٌ لعلم النبوة، وإكذاب للقرآن العظيم لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ①﴾ [القمر: ١].

فإن كان القمر لم ينشق في ذلك الوقت وكان مراده سينشق فيما بعدُ فما معنى قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ②﴾ [القمر: ٢]، بعقب هذا الكلام، أليس فيه دليل على أن قوماً رأوه منشقاً فقالوا: هذا سحر مستمر، من سحره وحيلةٌ من حيله، كما قد كانوا يقولون في غير ذلك من أعلامه...»[٢].

ومن صور الاستهزاء بالصحابة: ما طعن فيه على أبي هريرة رضي الله عنه من بعض السفهاء من أهل الرأي، قال القاضي أبو الطيب: «كنا في مجلس النظر بجامع المنصور فجاء شاب خُراساني، فسأل عن مسألة المصراة[٣]؛ فطالب

(١) هو: إبراهيم بن سيار بن هاني البصري، أبو إسحاق النظام، من أئمة المعتزلة، تبحّر في علوم الفلسفة، تنسب له فرقة «النظامية»، من فرق المعتزلة، توفي عام (٢٣١هـ). انظر: «الفرق بين الفِرَق» (ص١٣١) للبغدادي، و«الملل والنحل» (١/ ٦٧) للشهرستاني، و«الفصل في الملل والنحل» (٣/ ٣٤، ٧٠، ٧٣، ١٥٧، ١٦٣، ١٧٤، ٢٢٣) لابن حزم، و«الأعلام» (١/ ٤٣) للزركلي.

(٢) «تأويل مختلف الحديث» (ص٢٠ ـ ٢١). وانظر: «العقلانيون...» (ص١٧٩) لعلي حسن عبد الحميد.

(٣) قال البخاري: المصراة التي صُرّي لبنها وحقن فيه، وجمع فلم يحلب أياماً، وساق حديث أبي هريرة: «**لا تُصِرُّوا الإبل والغنم، فمن ابتاعها بعد فإنه بخير النظرين بعد أن يحلبها، إن شاء أمسك، وإن شاء ردَّها وصاع من تمر**». رواه البخاري في كتاب البيوع، باب النهي للبائع أن لا يُحفِّل الإبل والبقر والغنم...، برقم (٢١٨٤)، «فتح» (٤/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣)، ومسلم في البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه، =

بالدليل، حتى استُدِلَّ بحديث أبي هريرة الوارد فيها، فقال: ـ وكان حنفياً[(١)] ـ: أبو هريرة غيرُ مقبول الحديث، فما استتم كلامه، حتى سقطت عليه حيَّة عظيمة من سقف الجامع، فوثب الناس من أجلها، وهرب الشاب منها، وهي تتبعه، فقيل له: تُب، تُبْ، فقال: تُبتُ، فغابت الحيَّةُ، فلم يُرَ لها أثرٌ»[(٢)].

فالطعن في الصحابة والسخرية بهم كما فعل النظام بابن مسعود ﷺ وكما فعل الشاب في أبي هريرة ﷺ فرية عظيمة وتنقص ظاهر لأصحاب محمد ﷺ تُعجَّلُ عقوبته في الدنيا كما حدث للشاب الساخر من رَاوِيَةِ الإسلام وحافظه ـ أبو هريرة ـ ﷺ، قال تعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠، والأنبياء: ٤١].

قال الخليفة المهدي لعبد الله بن مصعب: ما تقول فيمن تنقص الصحابة؟ فقلت: زنادقة، لأنهم ما استطاعوا أن يصرحوا بنقص رسول الله ﷺ، فتنقصوا أصحابه، فكأنهم قالوا: كان يصحب صحابة السوء»[(٣)].

ومن صور السخرية بالصحابة: ما ذكره الإمام الذهبي عن الثوري قال: سمعت عبد الله بن سلمة الحضرمي، يقول: سمعت عمرو بن عبيد يقول: لو شهد عندي عليّ، وطلحة، والزبير، وعثمان، على شراك نعل ما أجزت شهادتهم»[(٤)].

= وسومه على سومه، وتحريم النجش وتحريم التصرية، برقم (١٥١٥)، «نووي» (١٠/ ٤١٦).

(١) انظر موقف الأحناف من رواية أبي هريرة ﷺ: «السير» (٢/ ٦١٩) هامش (١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٦١٩). قال الذهبي: إسنادها أئمة. وانظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٥٣٢ ـ ٥٣٩) ففيها الرد على من طعن على أبي هريرة ﷺ بكلام نفيس، وذكر هذه الحادثة في آخر كلامه (ص٥٣٨ ـ ٥٣٩).

(٣) «تعجيل المنفعة» (ص٢٣٥) لابن حجر. وانظر: «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٧٤ ـ ١٧٥) للخطيب، و«النهي عن سبّ الأصحاب» (ص٨٣) للمقدسي.

(٤) «ميزان الاعتدال» (٣/ ٢٧٥).

لماذا مثَّلَ هذا المفتري الطاعن على الصحابة، بشراك النعل، أليس هذا إمعاناً منه في الازدراء عليهم والسخرية بهم، ستكتب هذا الفرية ويسأل عنها يوم القيامة، يوم يذاد أقوام عن حوض النبي ﷺ وهم الذين بدلوا بعده.

ومن صور الاستهزاء والسخرية بأصحاب النبي ﷺ والطعن عليهم، والازدراء بهم، ما ذكره الإمام أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ حيث قال: «... فحذار من الوقوع في أحد منهم، كما فعل من طعن في الدين، فقال: إن المعوذتين ليستا من القرآن، **وما صحَّ حديث عن رسول الله ﷺ يثبتهما ودخولهما في جملة التنزيل إلا عن عقبة بن عامر**[1]، وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقه غيره عليها، فروايتُهُ مطَّرَحَةٌ، وهذا ردٌّ كما ذكرناه من الكتاب والسنة، وإبطال لما نقلته الصحابة لنا من الملة، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم، وأثنى عليهم ووعدهم مغفرةً وأجراً عظيماً.

فمن نسبه أو واحداً من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة، مبطل للقرآن، طاعن على رسول الله ﷺ فمتى أُلحِق واحدٌ منهم تكذيباً فقد سُبَّ، لأنه لا عار ولا عيب بعد الكفر بالله أعظمُ من الكذب، وقد لعن رسول الله ﷺ من سبَّ أصحابه، فالمكذب لأصغرهم ـ ولا صغير فيهم ـ داخل في لعنة الله التي شهد بها رسول الله ﷺ، وألزمها كل من سبَّ واحداً من أصحابه أو طعن عليه»[2].

---

(١) الإمام المقري أبو عبس، ويقال: أبو حماد، ويقال: أبو عمرو، ويقال: أبو عامر، ويقال: أبو الأسد المصري، صاحب النبي ﷺ، توفي سنة (٥٨هـ). «السير» (٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٩) للذهبي. قال الحافظ في «الإصابة» (٤/ ٤٣٠): مات في أول خلافة معاوية على الصحيح. وانظر: «أسد الغابة» (٤/ ٥٣ ـ ٥٤).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٩٦). وانظر: «تأويل مختلف الحديث» (ص٢١) فقد بيَّن رَحِمَهُ اللهُ شبهة عدم إدخال ابن مسعود رضي الله عنه المعوذتين في مصحفه، وذلك أنه كان يظنها من الأدعية وليست من القرآن.

ومن صور الاستخفاف بالمؤمنين: من العلماء في عصر التابعين، ما ذكره الأصفهاني من «أنَّ ابن سريج كان جالساً، فمرّ به عطاء بن أبي رباح(١)، وابن جريج(٢) فحلف عليهما بالطلاق، أن يغنيهما، على أنهما إن نهياه عن الغناء بعد أن يسمعا منه تركه، فوقفا له، وغنَّاهما:

إخوتي لا تبعدوا أبداً ... وبلى والله قد بعدوا

فغشي على ابن جريج، وقام عطاء يرقص»(٣).

أيّ جرأة وأي كذب وتنقص بالعلماء ـ كعطاء بن جريج ـ، هذا الذي طعن به هذا المفتري على الإسلام والمسلمين، يصور خياله: عالمين جليلين ومحدثين كبيرين؛ بأن أحدهما يرقص من شدة طربه عند سماع الغناء، والآخر يغشى عليه من ذلك، هذا قليل من كثير ممَّا سوَّد به هذا الدعيّ كتابه «الأغاني» من مثل هذا الهراء والكذب على العلماء، وأهل بيت رسول الله ﷺ والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وخلفاء الإسلام وأمراؤه، طعناً في الدين، واتباعاً لغير سبيل المؤمنين.

ومن صور الاستهزاء من أهل البدع: ما نقله الإمام الذهبي عن عمرو بن عبيد، «قال: قال عمر بن النضر: سُئِل عمرو بن عبيد يوماً عن شيء وأنا عنده، فأجاب فيه، فقلت: ليس هكذا يقول أصحابُنا، فقال: ومن أصحابك؟ لا أبا لك!

قلت: أيوب، ويونس، وابن عون، والتيمي، قال: أولئك أرجاس

---

(١) واسمه أسلم القرشي مولاهم، أبو محمد المكي، توفي سنة (١١٥هـ). انظر: «السير» (٥/ ٧٨ ـ ٨٨)، و«تهذيب التهذيب» (٧/ ١٧٤ ـ ١٧٧).

(٢) هو: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم أبو الوليد، وأبو خالد المكي، توفي (١٥٠هـ) وقيل: (١٥١هـ). انظر: «السير» (٦/ ٣٢٥ ـ ٣٣٦)، و«تهذيب التهذيب» (٦/ ٣٥٢ ـ ٣٥٥).

(٣) «الأغاني» (١/ ٣١٦). وانظر: «السيف اليماني» (ص٢٤٨ ـ ٢٥٠).

أنجاس أموات غير أحياء»[١].

ونقل الذهبي عنه ـ أيضاً ـ قال: «قال ابن عُلَيَّة: وحدثني اليسع، قال: تكلم واصل يوماً، فقال عمرو بن عبيد: ألا تسمعون من كلام الحسن وابن سيرين، عندما تسمعون الأخرق حيضة مطروحة!!»[٢].

ومن صور الاستهزاء بالمؤمنين: أهل الحديث والسنة، ما رماهم به أعداؤهم، كوصفهم بـ«الحشوية» و«المجسمة» وغيرها من الألقاب، قال شيخ الإسلام: «إنَّ أول من تكلم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد، فقال: كان عبد الله بن عمر حشوياً، وكان هذا اللفظ في اصطلاح من قاله يريد به: العامة الذين هم حشو، كما تقول الرافضة عن مذهب أهل السنة مذهب الجمهور...»[٣].

وقد ابتلي الإمام ابن القيم في عصره، بمثل عمرو بن عبيد من باب الذي وصف ابن عمر بهذا اللقب الذميم، فقال رحمه الله يصف الإمام الهروي: «... وأنه بريء مما رواه به أعداؤه الجهمية، من التشبيه والتمثيل، على عادتهم في رمي أهل الحديث والسنة بذلك، كرمي الرافضة لهم بأنهم نواصب، والمعتزلة بأنهم نوابت حشوية «ثم بين رحمه الله هؤلاء الأعداء من المبتدعة بأعداء الرعيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم فقال: «وذلك ميراث من أعداء رسول الله ﷺ في رميه ورمي أصحابه رضي الله عنهم بأنهم صباة، قد ابتدعوا ديناً محدثاً، وميراث لأهل الحديث والسنة من نبيهم ﷺ وأصحابه ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ بتلقيب أهل الباطل لهم بالألقاب المذمومة، وقدس الله روح الشافعي، حيث يقول: وقد نسب إلى الرفض:

---

(١) «ميزان الاعتدال» (٣/ ٢٧٤).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٧٥).

(٣) «منهاج السنة» (٢/ ٥٢٠ ـ ٥٢١). وانظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٨٤ ـ ١٨٦)، ففيها تفصيل القول في هذه الفرية العظيمة على أهل السنّة والجماعة.

إن كان رفضاً حُبُّ آل محمد فليشهد الثقلان: أني رافضي

ورضي الله عن شيخنا أبي العباس ابن تيمية، حيث يقول:

إن كان نصباً حُبُّ صحب محمد فليشهد الثقلان: أني ناصبي

وعفى الله عن الثالث ـ يعني نفسه ـ حيث يقول:

فإن كان تجسيماً ثبوتُ صفاته وتنزيهها عن كل تأويل مفترى
فإني بحمد الله ربِّ مُجَسِّمٌ هلموا شُهوداً واملأوا كل محضر[١]

وقد تصدى ابن القيم في **قصيدته «النونية» الكافية الشافية** إلى الردّ على هؤلاء مُبيناً من أحق بهذه الألقاب، أهل الحديث والسنة، أم أهل البدعة والضلالة فقال:

ومن العجائب قولهم لمن اقتدى بالوحي من أثر ومن قُرآنِ
حشوية يعنون حشواً في الوجو د وفضلة في أمة الإنسانِ

إلى أن قال:

يا قوم إن كان الكتاب وسنة المختار حشواً فاشهدوا ببيان
أنَّا بحمد إلهنا حشوي صرف بلا جحد ولا كتمانِ
تدرون من سمَّتْ شيوخكم بهذا الاسم في الماضي من الأزمان
سمَّى به ابن عبيد عبد الله ذا ك ابنُ الخليفة طارد الشيطان
فورثتموا عمراً كما ورثوا لعبد الله أنى يستوي الإرثانِ
تدرون من أولى بهذا الاسم وهو مناسب أحواله بوزانِ
من قد حشا الأوراق والأذهان من بدع تخالف موجب القرآن
هذا هو الحشويُّ لا أهل الحد يث أئمة الإسلام والإيمانِ[٢]

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٨٧ ـ ٨٨).
(٢) «النونية» (ص١٠١ ـ ١٠٢). وانظر: نفس المصدر (ص١٠٢ ـ ١٠٣).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **في موضع آخر:**

يا مبغضاً أهل الحديث وشاتماً — أبشر بعقد ولاية الشيطان
أو ما علمت بأنَّهم أنصار — دين الله والإيمان والقرآن
أو ما علمت بأن أنصار الرسو — ل هُمُ بلا شكٍّ ولا نكران

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

أو ما علمت بأنّ خزرج دينه — والأوس هم أبداً بكل زمان
ما ذنبُهم إذ خالفوك لقوله — ما خالفوه لأجل قول فلانِ
لو وافقوك وخالفوه كنت تشـ — ـهدُ أنهم حقاً أولوا الإيمان
لمَّا تحيزتم إلى الأشياخ — وانحازوا إلى المبعوث بالقرآن
نسبوا إليه دون كُلِّ مقالةٍ — أو حالةٍ أو قائلٍ ومكان
هذا انتسابُ أولي التفرق نسبة — من أربع معلومةِ التبيان
فلذا غضبتم حينما انتسبوا إلى — خبر الرسول بنسبة الإحسان
فوضعتموا لهم من الألقاب ما — تستقبحون وذا من العدوان[(١)]

فقد أدرك ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هذه السلسلة من الشتائم المقذعة، والألقاب الموجعة التي ورثها المبتدعة في عصره عن أشياخهم وأسلافهم، منذ زمن التابعين، يتوارثونها بينهم، ويلقبون أهل السنة والجماعة، فتارة يصفونهم بالحشوية وأخرى بالمجسمة، وثالثة نوابت، كُلُّ ذلك بغياً وعدواناً، حسداً من عند أنفسهم: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨].

ومن الأوصاف التي ألصقت بأهل الحديث والسنة، ما أطلقته عليهم أهل البدع بأنهم خوارج؛ وذلك بزعمهم أنَّ أهل الحديث أخذوا بظواهر القرآن والآثار في نصوص الصفات، كما فعلت الخوارج الأول، الذين

---

(١) المصدر السابق (ص١٩٤ ـ ١٩٥). وانظر (ص١١٣ ـ ١١٤).

خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه تلبيساً منهم بين فعل الخوارج بنصوص الحكم، وعمل أهل السنة في نصوص الصفات[١].

قال ابن القيم:

ومن العجائب أنهم قالوا لمن ... قد دانَ بالآثار والقرآن
أنتم بذا مثل الخوارج إنهم ... أخذوا الظواهر ما اهتدوا لمعانِ
فانظر إلى ذا البهت هذا وصفهم ... نسبوا إليه شيعة الإيمان
سلُّوا على سنن الرسول وحزبه ... سيفين سيف يدٍ وسيف لسانِ
خرجوا عليهم مثل ما خرج الأولى ... من قبلهم بالبغي والعدوان
والله ما كان الخوارج هكذا ... وهم البغاة أئمة الطغيان[٢]

---

(١) انظر في هذا: «التدمرية» (ص٦٩ ـ ٧٨) لابن تيمية، فقد بيّن رحمه الله قاعدة عظيمة من قواعد نصوص الصفات وهي «ظاهر النصوص مراد، أو ظاهرها ليس مراد»، ثمَّ فصَّل القول في المسألة بالأمثلة على طريقة السلف ـ رحمهم الله ـ.

(٢) «متن القصيدة النونية...» (ص٩٧).




الفصل الثالث

صور الاستهزاء في العصر الحاضر

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: صور من الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ.

المبحث الثاني: صور من الاستهزاء بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

المبحث الثالث: صور من الاستهزاء بالدين.

المبحث الرابع: صور من الاستهزاء بالصحابة ﷺ وسائر المؤمنين.




المبحث الأول

صور من الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ

تقدم معنا في الفصل السابق الحديث عن صور الاستهزاء في العصور الأولى، وما يتعلق بصور الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ وتنقصه بالإشراك معه غيره، وتحدثت في ضمن تلك الصور عن شرك القبور، ودعاء الأموات والاستغاثة بهم، من دون الله تعالى أو معه سبحانه، وهنا أضيف ما يتعلق بالعصر الحاضر من تلك الصور.

فمن صور السخرية بالله ﷻ: ما نراه منتشراً في بقاع كثيرة من عالمنا الإسلامي من أضرحة ومشاهد، يطاف بها، ويعكف عليها، وتنذر لها النذور، وتقرب لها القرابين، وإبقاء لسنة الجاهلين ومحادَّة لله ولرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقد ورد النهي عن هذا الشرك عن رسول الله ﷺ، فعن عائشة وابن العباس رضي الله عنهم قالا: لمَّا نزل برسول الله ﷺ، طفق يطرح خميصةً له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يُحذِّر ما صنعوا(١).

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن بعد أن ذكر هذا الحديث: «ومن غربة الإسلام أن هذا الذي لعن رسول الله ﷺ فاعله تحذيراً لأمته أن يفعلوه

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، برقم (٤٣٥ ـ ٤٣٦)، «فتح» (١/ ٦٣٣ ـ ٦٣٤) وفي مواضع أُخر متفرقة. ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، برقم (٥٣١)، «نووي» (٥/ ١٦).

معه ﷺ ومع الصالحين من أمته قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة، واعتقدوه قربة من القربات وهو من أعظم السيئات والمنكرات، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله»[(١)].

وللإمام ابن القيم كلام نفيس في هذا الباب عند حديثه عن تقسيم الشرك إلى أكبر وأصغر، قال: «فأما الشرك فنوعان: أكبر وأصغر، فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله نداً يحبه كما يحب الله بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله ويغضبون لمنتقص معبودهم وآلهتهم في المشايخ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين، وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة»[(٢)].

فأهل الشرك بالله تعالى الذين اتخذوا معه ندًّا مساوياً، قد عابوا أهل التوحيد الخالص، بأنهم يتنقصون الأموات من الصالحين وغيرهم ولا يوفون حقهم على حد زعم أهل الشرك، **قال ابن القيم**: «فجعلوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد ونسبة أهله إلى التنقص للأموات وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين له بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا وأنهم امروهم به وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم، ولله در خليله إبراهيم حيث يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾...»[(٣)].

وجاء في رسالة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن ـ فيها مجمل ما يدعو إليه إمام الدعوة ـ قال: «فإذا كان دعاء الموتى مثل الأنبياء والصالحين يتضمن هذا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله فأي الفريقين أحق

---

(١) «فتح المجيد» (ص٢٥٧).
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٩) باختصار. وانظر: «الدرر السنية» (٨/ ٣١).
(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦). وانظر: «الدرر السنية» (١/ ٣٣، ٨/ ١٧٩).

بالاستهزاء بآيات الله ورسوله من كان يأمر بدعاء الموتى والاستغاثة بهم مع ما يترتب على ذلك من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله؟ ومن كان يأمر بدعاء الله وحده لا شريك له كما أمرت رسله ويوجب طاعة الرسول ومتابعته في كل ما جاء به»[١].

فـ «هؤلاء الضالون مستخفون بتوحيد الله ويعظمون دعاء غير الله من الأموات فإذا أُمروا بالتوحيد ونُهوا عن الشرك استخفوا بالله كما أخبر تعالى عن المشركين بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الفرقان: ٤١] فاستهزءوا بالرسول ﷺ لما نهاهم عن الشرك»[٢].

وكثير من هؤلاء الضلال يجدون في العبادة التي يصرفونها لغير الله، من التذلل والسكون ما لا يجدونه عند عبادة الله تعالى، وهذا من تلبيس الشيطان على القبوريين[٣].

قال الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «... كما يشاهد اليوم في زماننا يفعل في مشهد علي وغيره من المشاهد والمساجد المبنية على القبور، ويجدون عند عبادة القبور من الرقة والخشوع والبكاء، أعظم مما يجدون في بيوت الله، بل إذا قام أحدهم في الصلاة بين يدي الله نقرها نقر الغراب، ومنهم من يحلف بالله اليمين الغموس كاذباً فإذا قيل له احلف بتربة فلان أو فلان أبى أن يحلف كاذباً فيكون فلان أو تربته والشيخ فلان أعظم في صدره من الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون ما أعظمها من

---

(١) «الدرر السنية» (١/ ٢٠٤) جمع عبد الرحمٰن بن قاسم، وتقدم ما يشابه هذا الكلام عند شيخ الإسلام. انظر: «تلخيص الاستغاثة» (ص٣٥٣)، وهذه الرسالة (ص١٨٠ ـ ١٨١).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٠٢).

(٣) انظر عن القبورية وفرقها وعقائدها وجهود العلماء ضدها: رسالة دكتوراه للشيخ شمس الدين السلفي الأفغاني، بعنوان «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية».

مصيبة، تالله إنها فتنة عمت فأعمت، وربت على القلوب والأسماع فَأَصَمَّتْ...»[١].

وقد واجه الإمام محمد بن عبد الوهاب بعض الناس في زمانه من المفتونين بعبادة الأموات، والعكوف على أضرحتهم، والإصغاء لشبهات معظِّميهم والدفاع عنهم، فقال رَحِمَهُ اللهُ مخاطباً عبد الله بن سُحَيْم محذراً إياه عن اتباع بعض أهل الشرك، قال: «فلما غربلك[٢] الله بولد المويس ولَبَّس عليك وكتب لأهل الوشم يستهزئ بالتوحيد، ويزعم أن بدعة وأنه خرج من خراسان، ويسب دين الله ورسوله لم تفطن لجهله، وعظم ذنبه، وظننت أن كلامي فيه من باب الانتصار للنفس...»[٣]. وهذا حال كثير من الجهلة المتعجلين ما إن يسمعوا عالماً يقول قولاً أو يفعل فعلاً، إلا ابتدروا قوله وفعله بالقبول أو الرفض، بالمدح أو الذم، وهذا ليس من هدي محمد ﷺ ولا من هدي أصحابه رضوان الله عليهم بل الواجب في ذلك الحلم والأناة، والتثبت والبحث حتى يظهر الحق بدليله.

وبهذا يعلم أن مع اتخذ معبوداً من دون الله، أو مع الله ـ تبارك

---

(١) «الدرر السنية» (٨/ ١٥٦). وانظر (٨/ ١٧٩).

(٢) من الألفاظ العامية عند أهل نجد، ولعلها تعني الدعاء بالامتحان والفتنة لتصفوا نفسه وتزكوا. مأخوذة من غَرْبَلَ الشيء: نخله وقطعه، والقوم قتلهم وطعنهم. انظر: «لسان العرب» (١١/ ٤٩١) لابن منظور، و«القاموس المحيط» (٤/ ٣٤) ومن استعمالاتها عند أهل نجد بمعنى: أشغلك الله.

(٣) المصدر نفسه (٨/ ٥٥)، وقد واجه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أعداء كُثُر من المشركين يهزؤون بالتوحيد، منهم أحمد بن يحيى، قال عنه الشيخ: «وكذلك أحمد بن يحيى عداوته لتوحيد الألوهية والاستهزاء بأهل العارض... ظاهرة لا يمكن أنها لا تبلغك». «الدرر السنية» (٨/ ٩٧). وانظر (٨/ ٦٣) من نفس المصدر. وهناك رسالة مستقلة في هذا الباب بعنوان: «دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» للشيخ عبد العزيز العبد اللطيف تتبع فيها ـ حفظه الله ـ مزاعم أعداء الشيخ من المشركين والمبتدعة.

وتعالى ـ فقد اتخذه سُخْرِيّاً، ويصدق فيه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ...﴾ [التوبة: ٦٥].

ومن صور الاستهزاء والسخرية بالله ـ تبارك وتعالى ـ في الوقت الحاضر ما ابتليت به الأمة الإسلامية من فتنة القوانين الوضعية البشرية، التي حلت مكان الشريعة الإلهية التي قال الله ـ تبارك وتعالى ـ عنها: ﴿... وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ففي إقصاء شريعة الله عن الحكم وإحلال شرائع، البشر محلها تنقص بالخالق ـ جل وعلا ـ ونسبة النقص إلى شريعته الربانية المحكمة.

قال سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعتبار شيء من القوانين للحكم، ولو في أقل قليل لا شك أنه عدم رضا بحكم الله ورسوله ونسبة حكم الله ورسوله إلى النقص وعدم القيام بالكفاية في حل النزاع وإيصال الحقوق إلى أربابها، وحكم القوانين إلى الكمال، وكفاية الناس في حل مشاكلهم، واعتقاد هذا كفر ناقل عن الملة، والأمر كبير وليس من الأمور الاجتهادية»[(١)].

ويقول الشيخ العلامة عبد الله بن جبرين عندما تحدث عن نواقض الإسلام: «من اعتقد أن أحداً من الناس يسوغ له التشريع والتقنين ووضع الأحكام التي تغير الشرع: كإباحة الزنا أو الربا، وإبطال العقوبات الشرعية، كقتل القاتل، وقطع السارق، وإبطال الزكاة، وتغيير الفرائض، أو أي نوع من أنواع العبادات وهذا التحاكم إلى غير شرع الله، والحكم بغير ما أنزل، فمن اعتقد ذلك أو نحوه فقد اعترض على الرب في شرعه، وزعم أنه ناقص أو غير ملائم، أو أن غير حكم الله أحسن من حكمه، وذلك غاية التنقص فلا يجتمع مع التوحيد الخالص»[(٢)].

---

(١) «فتاوى ورسائل» (١٢/٢٥١).

(٢) رسالة الشهادتان معناها وما تستلزمه كل منهما، ضمن «الكنز الثمين» (١/ ١٦٠ ـ ١٦١).

ومن صور الاستهزاء بالله تعالى في العصر الحاضر: ما ابتليت به الأمة الإسلامية من فتنة الحداثة[1] والحداثيين فقد وصل بهم الحال إلى حد السخرية برب العالمين صراحة، فها هو الشاعر العراقي الماركسي «البياتي» يقول في ديوانه عن الباري جلت قدرته:

الله في مدينتي تبيعه اليهود
الله في مدينتي مشرد طريد
أراده الغزاة أن يكون
لهم أجيراً شاعراً قواد
يخدع في قيثاره المُذَهَّب العباد
لكنه أصيب بالجنون[2]

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨١].

ما أعظم الجرأة على الله من أهل هذا الزمان، فقد وصل الحال إلى أن أصبح الإلٰه المستوي على العرش، المتعالي بجلاله وعظمته، الذي قال عن نفسه في كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] أصبح هذا الإلٰه في مدينة هذا الشاعر ـ على حد زعمه ـ، مبتذلاً مهاناً، معرضاً للبيع والشراء، إن أمثال هذا الملحد قد تجاوز ملاحدة الصوفية، مُدَّعي وحدة الوجود[3]، فقد فاق في إلحاده ابن عربي، وابن الفارض وابن سبعين، والتلمساني وغيرهم، فإن هؤلاء ادعوا أن ما في الوجود هو الله، وهذا المفتري الملحد شبهه بالعجماوات حيث تباع وتشترى.

(١) منهج فكري متستر بالأدب يسعى لتغيير الحياة الإسلامية وقِيَمها، وصبغها بالحياة الغربية.
(٢) «كلمات لا تموت» (ص٥٢٦) نقلاً عن «الحداثة في ميزان الإسلام» (ص٩٣).
(٣) القائلين بأن الخالق عين المخلوق.

ومن صور السخرية والاستهزاء بالله تبارك وتعالى: ما نشرته الصحيفة الكويتية «كويت تايمز»، فقد جاء في مجلة المجتمع قولها: «ارتكبت صحيفة «كويت تايمز» جريمة ضد العقيدة حيث نشرت في عددها الصادر في ١٢/٧/١٩٩٥م كاريكاتيراً مليئاً بالسخرية من الذات الإلهية، حيث ظهر في الكاريكاتير صورة بشعة تجسد الله ﷻ جل في علاه وتشركه في إحدى المسابقات التلفزيونية، وسجلت أسفل الكاريكاتير نتيجة المسابقة كالتالي ـ حسب نص الكلمات الإنجليزية ـ «نعم بالطبع فالجواب الصحيح هو «ويسكونسين».

ها هو الله يحرز (٥٠) نقطة أخرى.. أوه.. إنه يشبه نورمان بطلنا الحالي.. إنه لم يسجل بعد أية نقطة.. «انتهى الكاريكاتير المجرم[(١)].
قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥]

ومن صور الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ: ما يتعلق بالسخرية بأسمائه الحسنى كاسم الله والرحمٰن والرحيم أشرف ما ورد في كتاب الله من الأسماء، جعلها فندق هيلتون مادة لزخرفة فستان فاسقة متبرجة، في عرض الأزياء أمام الناس على مرأى ومسمع من مجلس الفنون والأدب، وإليك ما نشرته مجلة المجتمع في هذا الصدد حيث قالت: «حتى أسماء الله الحسنى يا مجلس الفنون.. والآداب...» إلخ.

أسماء الجلالة.. اسم الله الرحمٰن الرحيم أقدس ما ورد بين دفتي المصحف صارت مادة لفستان فاسقة تبرجت لتعرض هذا الفسق أمام الناس في فندق هيلتون في عرض الأزياء المنصرم.

نحن نترك الرد ليأتي من كل من له أدنى غيرة على ذات الله عندما تنتهك

---

(١) «المجتمع» عدد (١١٦٣) في (٢٥ ربيع الأول ١٤١٦هـ).

أسماؤه الحسنى حينما توضع في خرق ترتديها قينة، إلى أصحاب الغيرة نقول إنه لا يجوز أن يعتذر معتذر بأن هذه الفعلة بسيطة وإنما هو عرض للأزياء، فقد قال الله في ذلك جل من قائل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥].

إن الأمم الناهضة والمتقدمة تعرض على الناس إنتاجها الصناعي والتِّقْني وما وصلته في مضمار التقدم العلمي، ونحن هنا نعرض الأزياء في فندق هلتون!!

إننا نقدم هذا العرض السخيف في الوقت الذي يغزو الروس بلد مسلم (أفغانستان) إننا بهذا نعطي للرأي العام العالمي صورة مضحكة عن واقع سيء يعيش فيه البعض ناهيك على ما حصل في هذا العرض من استخفاف بأسماء الله وآيته(١).

ومن صور الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ: السخرية بالقرآن الكريم الذي هو كلام الله حقيقة منه بدأ وإليه يعود، فقد اتخذه بعض المبتدعة سخرياً، قال ابن تيمية: «... ومثل هذا أنه إذا سمع أحدهم الأبيات يحصل له من الخضوع والخشوع والبكاء ما لا يحصل له مثل عند سماع آيات الله تعالى فيخشع عند سماع المبتدعين المشركين، ولا يخشع عند سماع المخلصين المتقين بل إذا سمعوا آيات الله تعالى اشتغلوا عنها وكرهوها واستهزءوا بها وبمن يقرؤها مما يحصل لهم به أعظم نصيب من قوله تعالى: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥](٢). وهذا موجود في العصر الحاضر، بل زاد أهل زماننا على ما ذكره ابن تيمية، فقد حدثني أحد علمائنا أنه يوجد في مصر من يقرأ القرآن وهو سكران وذلك في

---

(١) «المجتمع» عدد (٤٦٧) (١٤٠٠هـ).

(٢) «تلخيص الاستغاثة» (ص٣٥١). وانظر: «الدرر السنية» (١/ ٢٠٣) جمع عبد الرحمٰن بن قاسم.

الأحتفالات كالمولد وغيره، حتى قام ذلك القارئ يرقص من أثر شرب المسكر، فهل هذا إلا من اتخاذ كلام الله ـ جل وعلا ـ سخرية واستهزاء، وقد نص العلماء على ما هو أهون من هذا، **قال الهيتمي**: «ومنها: (أي من المكفرات) قالوا: لو قرأ القرآن على ضرب الدف والقضيب... كفر»[1].

وقال الشيخ علي القاري: «ويقرب منه ضرب الدف والقضيب مع ذكر الله تعالى ونعت المصطفى ﷺ وكذلك التصفيق مع الذكر»[2]. فقوله: في تكفير من ضرب الدف والقضيب مع تلاوة القرآن فلا خلاف إن قصد الاستهزاء، وكذلك مع ذكر الله إن قصد الاستهزاء بالتصفيق وضرب الدف والقضيب فلا خلاف في كفره أيضاً.

ومن صور الاستهزاء بالقرآن الكريم في العصر الحاضر ـ أيضاً ـ: ما ورد من استفتاء للجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، عن رجل أمسك بالمصحف الشريف ثم أخذ يمزق صفحاته الواحدة تلو الأخرى، وهو يعرف أنه مصحف، وقد قال له شخص أخر يقف بجانبه: إنه مصحف، وفي رجل أطفأ السيجارة في المصحف.

فأجاب أعضاء اللجنة[3] بما يلي:

«الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه.. وبعد:

كلاهما بفعله ذلك كافر، لاستهتاره بكتاب الله وإهانته له، وهما بحكم المستهزئين على حكمه بقوله تعالى: ﴿.. قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ..﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦]، **وبالله التوفيق.**

---

(١) «الإعلام بقواطع الإسلام» (ص٣٥٩).

(٢) «شرح بدر الرشيد في ألفاظ الكفر» (ص١٢).

(٣) وهم: سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله، والشيخ عبد الله بن غديان والشيخ عبد الله بن قعود.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[(١)].

ومن صور الاستهزاء بالقرآن ـ أيضاً ـ: تسمية بعض الأفلام السينمائية ببعض آيات القرآن سخرية واستهزاء كما ورد في سؤال إلى اللجنة الدائمة ونصه كالآتي:

ما الحكم في تسمية بعض الأفلام السينمائية ببعض الآيات القرآنية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤] ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ٢]. . .؟

○ فجاء الجواب من أعضاء اللجنة كالتالي:

«الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه. . وبعد: لا يجوز تسمية الأفلام السينمائية ببعض الآيات القرآنية، لأن ذلك من الاستهانة بالقرآن ومن التلبيس»[(٢)]. قلت: وفي هذا تنقص واستهزاء ظاهر بكلام الله تعالى، من فعل بعض من لا خلاق لهم، ولا نصيب لهم في الآخرة، من العلمانيين الذي تسلطوا على الأعلام في بلاد المسلمين، فبثوا سمومهم وسخروا من رب العالمين وكلامه.

ومن صور الاستهزاء بالقرآن الكريم: ما نجده عند عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين!! في كتابه «الشعر الجاهلي»[(٣)] حيث طعن في القرآن وسخر به وبث في هذا الكتاب من الكفر والزندقة ما يذكرنا بذاك المفتري ابن الراوندي ـ وقد سبق الحديث عنه في الفصل الثاني.

---

(١) «فتاوى اللجنة» (١١/٢).

(٢) «فتاوى اللجنة» (٥٧/٤).

(٣) كان أول كتاب ألفه بعد عودته من أوروبا، وكان بنفس العنوان، ثم عاد ونشره بعد أن سماه «في الأدب الجاهلي» تمويهاً وتدليساً فلم يتغير من حقيقة الكتاب شيئاً. «دراسات في السيرة النبوية» (ص٢٢٢).

فمن صور الاستهزاء عند طه حسين: «أنَّه كان يرى أن نسخة من ألفية ابن مالك تعدل عنده خمسين نسخة من القرآن الكريم...»[١].

ويقرر لنا عميد الأدب العربي أن القرآن ليس مصدراً موثوقاً في إخباره عن الأمم الماضية فيقول: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن، لا يكفي لإثبات وجودهما التأريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة»[٢]. فهذه الهجرة في نظر طه حسين الثاقب!! حيلة اختلقتها قريش لأسباب سياسية واقتصادية، وصدقها القرآن ليحتال على اليهود، ويتألف قلوبهم، ولينسب العرب إلى أصل ماجد.

ويزعم هذا المفتري أن قصة بناء الكعبة أسطورة مخترعة، فيقول: «... إذاً فليس ما يمنع قريشاً من أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم...، أمر هذه القصة إذاً واضح فهي حديثة العهد قبيل الإسلام، واستغلها الإسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضاً، وإذاً فيستطيع التأريخ اللغوي والأدبي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة الفصحى»[٣].

ماذا يريد طه حسين بعد أن طعن في القرآن الكريم؟ ووصفه بأنه أكبر مصدر لمعرفة الحياة الجاهلية، واستهزأ ـ بكتاب الله وقصصه الثابت المحكم الذي لا يمكن أن يوجد في أي مصدر سواه، فكذب بقصة بناء الكعبة كما في سورة البقرة، وقبلها أنكر هجرة إسماعيل إلى مكة.

---

(١) «في الأدب الجاهلي» (ص٢١٩).

(٢) «الشعر الجاهلي» (ص٢٦) نقلاً عن «الفكر الإسلامي المعاصر» (ص٨٦ ـ ٨٧) غازي التوبة. وانظر: «دراسات في السيرة النبوية» (ص٢٢٣) محمد زين العابدين.

(٣) المصدر نفسه (ص٢٨) نقلاً عن «الفكر الإسلامي المعاصر» (ص٨٦ ـ ٨٧) غازي التوبة.

ماذا يريد؟ ألم ينفذ المؤآمرة التي دبرها اليهود والصليبيون من أساتذته، في العالم الإسلامي، يوم أن تلقى أوامرهم حال كونه مبتعثاً إلى فرنسا والصنعة اليهودية على هذا الكتاب ماثلة للعيان إنه نفذ ما أرادوا وزيادة حتى وصل به الأمر إلى أن يقف أمام طلاب الأدب قائلاً لهم: «وليس القرآن إلا كتاباً ككل الكتب الخاضعة للنقد، فيجب أن يجري عليه ما يجري عليها، والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر عن قداسته التي تتصورونها، وأن تعتبروه، كتاباً عادياً، فتقولوا فيه كلمتكم، ويجب أن يختص كل واحد منكم بنقد شيء من هذا الكتاب، ويبين ما يأخذه عليه، من الوجهات اللفظية والمعنوية والتفكيرية»(١).

* هذا جانب من إلحاد وزندقة عميد الأدب العربي! مما حدا بالمجتمع المصري بان استنكر هذا الاستهزاء الظاهر بالله ـ تبارك وتعالى ـ فقد شكلت لجنة في مصر بتكليف من الوزارة بقراءة كتاب المدعو طه حسين «في الأدب الجاهلي» جاء في تقرير اللجنة قولها: «إن اللجنة قرأت فصول هذا الكتاب فوجدت فيه شيئاً كثيراً يناقض الدين الإسلامي ويمسه مسًّا مختلف الدرجات في أصوله وفروعه».

---

(١) «صحيفة الفتح» نقلاً عن «القرآنيون» (ص١٣٠) لخادم بخش. وانظر كلاماً مقارباً لهذا عند المستشرق «جب» في: «المستشرقون» (ص٤١) للشيخ عابد السفياني، وجاء في نفس الصحيفة التي نقل عنها الدكتور خادم بخش، تقسيم طه حسين أسلوب القرآن إلى قسمين وهو يملي ذلك على طلابه في كلية الآداب:

أحدهما: جاف وهو مستمد من البيئة المكية، ففي هذا الأسلوب تهديد ووعيد، وزجر وعنف، وقسوة وغضب وسباب... ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾... إلخ [المسد: ١]، وغير ذلك من الآيات التي تمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة.

الثاني: لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة تغير الأسلوب بحكم البيئة أيضاً، فقد كان في المدينة طوائف من اليهود وبينهم التوراة، فأصبح ذلك الأسلوب ليناً وديعاً مسالماً تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة. «صحيفة الفتح» (٦/٤٦) نقلاً عن «القرآنيون» (ص١٢٨).

ثم عَدَدَتْ اللجنة ما أفقده الكاتب وأخل به من معتقدات في أذهان من يقرأ له، أذكر منها ما يتعلق بالبحث:

١ ـ أضاع عليهم (أي: المسلمين) تنزيه القرآن عن التهكم والازدراء، بما كتب في سورة الجن، وفي صحف إبراهيم وملة إبراهيم.

٢ ـ أضاع عليهم (أي: المسلمين) تنزيه النبي ﷺ وأسرته عن مواطن التهكم والاستخفاف[1].

أقول مثل هذا المفتري كان ينبغي أن يطبق عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ الآية [المائدة: ٣٣].

ومن صور الاستهزاء بالقرآن الكريم: ما كشف عنه الدكتور محمد محمد حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دراسة قامت بها طالبة مصرية بقسم اللغة العربية بجامعة الإسكندرية، بعنوان «دراسة في أصوات المد في التجويد القرآني»، «زعمت الطالبة في هذه الدراسة أن المسلمين لم يتفقوا على نص موحد للقرآن. وكل ما وصلوا إليه في زعمها هو شيء يشبه النص الموحد، فكانوا حين يرددون القرآن يحرصون على الاتفاق على ما يشبه النص الموحد، على حد تعبير الكاتبة...»، وعرض الأمر على هذا النحو يساعد على هدم فكرة التوقيف في قراءة القرآن، تلك الفكرة التي لا يقرها الدرس اللغوي أو الواقع التاريخي»[2].

قال الدكتور محمد محمد حسين معلقاً على مطاعن الطالبة في القرآن: «ومن الواضح أن نفي فكرة التوقيف هو نفي لتواتر القرآن، ونفي أن يكون

---

(١) «صحيفة الفتح» (٦/٦٥١) نقلاً عن «القرآنيون» (ص١٢٨ ـ ١٢٩).
(٢) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص٢٥٨ ـ ٢٥٩).

النص القرآني الذي يتعبّد به المسلمون ويحيطونه بكل أسباب الرعاية ويحرصون على صوره الكتابية إلى حد الاحتفاظ بالرسم العثماني الأول...» إلى أن قال: «ولا بد لها من أن تدفع عن نفسها عند الذين شهدوا مناقشته أو قرؤه تهمة لا يصح أن تعلق بها، وهي استخفاف بالدين وإذاعة ما يزعزع يقين الناس به...»[(١)].

ومن صور الاستهزاء بالقرآن الكريم: ما نشرته صحيفة الشهاب اللبنانية في عددها الصادر في ٢٣/٣/١٣٩٤هـ من فقرات خطيرة من كلام مسؤول كبير في لبنان، ألقاه في إحدى المناسبات، حول الثقافة الذاتية والوعي القومي!! يتضمن ما يلي:

ـ الطعن في القرآن ووصفه بالتناقض...[(٢)].

ـ كون القرآن مشتملاً على بعض الخرافات مثل عصا موسى وقصة أهل الكهف.

فمن أمثلة التناقض الذي يزعمه هذا المفتري قوله: «إن في القرآن تناقضاً لم يعد يقبله العقل بين ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١][(٣)].

قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز بعد أن ذكر كلام هذا الطاعن في القرآن: «وقد أفزع هذا المقال كل مسلم قرأه أو سمعه، لما اشتمل عليه من

---

(١) المصدر نفسه (ص٢٥٩ ـ ٢٦٢).

(٢) هذا الذي زعمه هذا المسؤول اللبناني هو الذي قاله المستشرق «جولد تسيهر» قال: «ومن العسير أن تستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً موحداً متجانساً وخالياً من المتناقضات، ولم يصلنا من المعارف الدينية الأكثر أهمية وخطراً إلا آثار عامة نجد فيها أحياناً تعاليم متناقضة». «الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية» (ص١٩) أحمد أبو زيد.

(٣) انظر: «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٨٧/١) للشيخ ابن باز.

الكفر الصريح، والجرأة على الله ﷻ، وعلى رسوله ﷺ من مسؤول دولة تنتسب إلى الإسلام، كان من المفروض أن يدافع عن دينه، وعن كتاب ربه، وعن رسوله محمد ﷺ لو سمع مثل هذا المقال أو ما هو أخف منه من أي أحد، ولكن الأمر كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨]»[1].

وقد أرسل الشيخ ـ وفّقه الله ـ رسالة[2] إلى هذا المسؤول يذكّره بالله تعالى، ويأمره فيها بالتوبة وإعلان ما يناقض تصريحه السابق، **وَنَشْرِ** ذلك في وسائل الإعلام حتى يكفّر عن جرمه العظيم واستهزائه بالله وبدينه ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ فسبب نزول هذه الآية مشهود معروف، فهل يقارن بكلام هذا المفتري الذي طعن في الله ـ تبارك وتعالى ـ ودينه ورسوله، اللهم لا وجه للمقارنة بين القولين وبين الفريتين.

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٨٧ ـ ٨٨).

(٢) انظر نص هذه الرسالة في: المصدر نفسه (١/ ٨٨ ـ ٨٩).



صور من الاستهزاء بالدين «أصوله وفروعه»

تقدم معنا عند الحديث عن صور الاستهزاء بالدين في العصور الأولى ما يتعلق بكمال هذا الدين وتمامه، وأنه الدين الذي رضيه الله ـ تبارك وتعالى ـ لعباده، فالواجب حفظ جنابه (أي: الدين) من الطعن والاستهانة به، وتعظيم شعائره، ومبادئه وأحكامه وعقائده، خلافاً لأهل الشقاق والعناد: الذين اتخذوا دين الله هزواً ولعباً وتنقصاً وازدراءً، كما ذكر الله ذلك في كتابه محذراً، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥٧].

وفي هذا المبحث أورِدُ نماذج من صور الاستهزاء بالدين في عصرنا الحاضر، فمن ذلك ما يعتقده أرباب الفكر العقلاني المعاصر من أن الدين لا يصلح اليوم لبناء وحدة للمسلمين، وكذلك اعتقاد أن الدين من الأمراض الاجتماعية. يقول طه حسين: «تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأنَّ وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية، ولا قواماً لتكوين الدول»[(١)].

ويقول محمد السعدني: «الدين واللغة والتقاليد: ثلاثة أمراض اجتماعية...»[(٢)].

إذا كان الدين الذي رضيه الله لنا وأتمَّه علينا، وجعله أفضل نعمه التي

---

(١) نقلاً عن «حصوننا مهددة من داخلها» (ص١٤١) لمحمد محمد حسين.

(٢) جريدة «الرياضية» عدد (١٥٣٢).

أنعم بها على عباده؛ مرض من الأمراض الاجتماعية التي يجب ـ في نظر السعدني ـ المبادرة إلى استئصاله وقطع جذوره، فماذا عسى أن يقال في أمراض فكرية فشت في مجتمعات المسلمين من اشتراكية، ورأسمالية علمانية، وعقلانية كلامية، تخطفت أبناء المسلمين في أكثر أقطار العالم الإسلامي، فلا عجب من هذا القول فقد تلقاه التلاميذ عن أسيادهم ـ المستشرقين ـ كما قال كيمون ـ المستشرق الفرنسي ـ: «إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هي مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي، يبعث الإنسان على الخمول والكسل، . . .» الخ[١].

ومن صور الاستهزاء بالدين: ما نشرته جريدة الرياض[٢]، تحت زاوية قصة اجتماعية بعنوان «قسوة القدر» بقلم: قماشة إبراهيم، حيث قالت: «إننا في هذه الحياة ليس لنا حقوق، إننا أعمار يلهو بها القدر، حتى يملها، فيلقي بها إلى العالم الآخر، والقدر يلهو أحياناً بدموعنا وضحكاتنا»[٣].

ففي هذا الكلام نسبة اللهو: وهي صفة نقص إلى القدر الذي هو بيد الله ﷻ يقدر ما يشاء في شؤون الخلق، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لأمره، وكل ذلك بحكمة وعدل: ﴿..أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال الشيخ العلَّامة عبد العزيز بن باز ـ حفظه الله ـ معلقاً على ما نشرته الصحيفة: «وهذا الكلام منافٍ لكمال التوحيد، وكمال الإيمان بالقدر،

---

(١) «الاتجاهات الوطنية» (١/٣٤٩) محمد محمد حسين، و«قادة الغرب يقولون. . .» (ص٦٠ ـ ٦١) لجلال العالم، و«دراسات في السيرة النبوية» (ص١٢٣) محمد زين العابدين. وسيأتي الرد على شبهة كيمون هذه (ص٥٤١).

(٢) عدد (٤٨٨٧) في (١٤٠١/٩/١٧هـ).

(٣) «مجموع فتاوى ومقالات» (١/١٥١ ـ ١٥٣).

فإن القدر لا يلهو والزمن لا يعبث، وإن كل ما يجري في هذه الحياة هو بتقدير الله وعلمه، والله سبحانه هو الذي يصرِّف الليل والنهار، وهو الذي يقدر السعادة والشقاء، حسب ما تقتضيه حكمته، وقد تخفى تلك الحكمة على الناس، لأن علمهم محدود، وعقولهم قاصرة عن إدراك تلك الحكمة الإلٰهية...»[١].

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال الله تعالى: «**يسبُّ بنو آدم الدهر، وأنا الدهر بيدي الليل والنهار**»[٢].

وفي رواية عند أحمد: «**يؤذيني ابنُ آدم، يسُبُّ الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أُقلبُ الليل والنهار**»[٣].

وفي بعض طرقه كما قال الحافظ في الفتح: عن أبي هريرة ولفظه: «**قال الله: يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر**»[٤].

قال ابن أبي جمرة: «لا يخفى أنَّ من سب الصنعة فقد سب صانعها، فمن سب نفس الليل والنهار أقدم على أمر عظيم بغير معنى، ومن سبَّ ما يجري فيهما من الحوادث، وذلك هو أغلب ما يقع من الناس»[٥]. «ثم أشار بأن النهي عن سب الدهر تنبيه بالأعلى غلى الأدنى، وأن فيه إشارة إلى ترك سب كل شيء مطلقاً إلا ما أذن الشرع فيه، لأن العلة واحدة»[٦].

---

(١) كتاب الأدب، باب لا تسبوا الدهر، برقم (٦١٨١)، «فتح» (١٠/ ٥٨٠)، ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سبّ الدهر، برقم (٢٢٤٦)، «نووي» (١٥/ ٥).
(٢) «المسند» (٢/ ٣١٩).
(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٥٨٠).
(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٥٨١) لابن حجر.
(٥) المصدر نفسه (١٠/ ٥٨٢) لابن حجر.
(٦) «شرح صحيح مسلم» (١٥/ ٦).

وسبب هذا الحديث **كما قال الإمام النووي** ﷺ: «أن العرب كان شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث، والمصائب النازلة بها من موت أو هدم، أو تلف مالٍ أو غير ذلك فيقولون: «يا خيبة الدهر» ونحو هذا من ألفاظ سبِّ الدهر، **فقال النبي ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»**، أي لا تسبوا فاعل النوازل فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السب على الله تعالى لأنه هو فاعلها ومنزلها، وأمَّا الدهر الذي هو الزمان فلا فعل له بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى؛ ومعنى **«فإن الله هو الدهر»** أي فاعل النوازل والحوادث وخالق الكائنات. والله أعلم»[1].

وقد بوَّب الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد «باب من سب الدهر فقد آذى الله»، وساق فيه حديث أبي هريرة المتقدم في النهي عن سب الدهر، **واستنبط مسائل منها:**

١ ـ النهي عن سب الدهر.

٢ ـ تسميته أذى.

٣ ـ أنه قد يكون ساباً ولو لم يقصده بقلبه.

قال الشيخ ابن باز ـ حفظه الله ـ: «وعلى هذا فإن الكاتبة أخطأت عندما نسبت القسوة إلى الدهر في عنوان قصتها لأن القدر... لا يتصرف وإنما الله سبحانه هو المقدر للأشياء عن حكمة بالغة، والله ـ جل وعلا ـ لا يوصف بالقسوة، بل هو ـ جل وعلا ـ رحيم بعباده، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها، كما ورد في الحديث الصحيح: **«الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»**[2]. فيجب أن ننزه أقلامنا عن الوقوع في مثل هذه المزالق، امتثالاً لأمر الله وأمر رسوله،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، برقم (٥٩٩٩) (١٠/ ٤٤٠)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، برقم (٢٧٥٤) (١٧/ ٧٧).

(٢) «مجموع فتاوى ومقالات» (١/ ١٥٢ ـ ١٥٣).

وإكمالاً، للتوحيد، وابتعاداً عمَّا ينافيه أو ينافي كماله. . . .»[١].

ومن صور الاستهزاء والسخرية بعقائد المسلمين ما ورد في: «قصة غادة رشيد» تأليف علي الجارم، للصف الثالث الإعدادي بمصر، فقد سخر الكاتب بعقيدة القضاء والقدر واستهان برب الأرض والسماء: قال الكاتب: «سمعت قهقهة القدر وهي تجلجل في شماتة وسخرية»[٢].

وقال: «لا يا زوجي الباسل إن شيئاً في الأرض أو في السماء لن يحول بيني وبينك»[٣].

فهذه القصة التي ورد فيها هذا الطعن الساخر لعقيدة القدر كانت. . . «أيام الغزو الفرنسي لمصر صيغت بأسلوب يمس وينال من أركان الإيمان، فهي تشكك في قدرة رب الأرض والسماء، وتستهين وتسخر من الإيمان بالقدر، وتشوه صورة المسلم المتدين في الوقت الذي تثني فيه على الإنجليز وسلوكهم، وتصف الإنجليز بأنهم قوم شرفاء»[٤].

لا شك أنَّ مثل هذا الدس والتشويه لعقائد المسلمين، له تأثير كبير على أبناء المسلمين ذكوراً وإناثاً، فالمناهج الدراسية تشكل الطلاب على مضمونها فكرياً وعقائدياً وسلوكياً، فإذا تلقى التلاميذ في المدارس الاستهانة بدين الإسلام وعقيدته، وفتح لهم باب الحب والغرام، فأي أخلاق تبقى لدى هؤلاء الشباب، وأي وازع ديني يردعهم عن الوقوع في الفاحشة والرذيلة.

---

(١) «قصة غادة رشيد» (ص٩٣) نقلاً عن «تطوير أم تضليل في منهاج اللغة العربية» (ص٣٢) لجمال عبد الهادي ورفاقه.

(٢) المصدر نفسه (ص١٧٨).

(٣) «تطوير أم تضليل. . .» (ص٣١) ضمن سلسلة «الغزو الفكري في المناهج الدراسية».

(٤) بتاريخ (٨/ ١٢/ ١٩٨٣م).

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

ومن صور الاستهزاء بالعقيدة: ما نشرته جريدة الوطن المصرية[١] تحت عنوان: «عذاب القبر على شرائط فيديو»!!

سخرت فيه بعذاب القبر وأهوال يوم القيامة، وجعلت الترهيب بهذا قضية اجتماعية خطيرة لأبناء الجيل المعاصر، فوسيلة الترهيب بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة؛ وسيلة بشعة أَدَّتْ إلى حالات من الانهيار العصبي والنفسي وقعت نتيجة للتطرق إلى تلك المواضيع المرعبة!!».

ودعت الجريدة المسلمين إلى الابتعاد عن صورة «الترهيب»، والاكتفاء «بالترغيب» كوسيلة لدعوة الناس إلى الإسلام، والتزام تعاليمه[٢].

وقد أحسن الكاتب، **عدنان الزنكي**: الذي كتب في مجلة المجتمع ردّاً على افتراء الجريدة، وطعنها في المسلمات من عقائد المسلمين، جاء فيه: أمَّا «القضية» التي تناولتها الجريدة، **فنريد مناقشتها** على النحو التالي:

أولاً: يجب أن نقرر ابتداءً أن أهوال يوم القيامة وعذاب القبر والنار تعتبر من قضايا العقيدة المعلومة من الدين بالضرورة، وواجب على كل مسلم العلم بها وتصديقها.

ثانياً: إن القرآن مليء بآيات الترهيب وذكر النار، وأهوال يوم القيامة... كما أنَّ هناك أحاديث نبوية كثيرة تتكلم عن أهوال يوم القيامة بالتفصيل... فإذا أرادت الجريدة «الموقرة»!! إلغاء هذا الكمّ الهائل من

---

(١) لا شك أن هذا منهج مرفوض عند أهل الإسلام الحق، لأن الاعتماد على نصوص الوعيد «الترهيب» فقط منهج الخوارج، والاعتماد على نصوص الوعد «الترغيب» فقط هو منهج المرجئة، وكلاهما باطل والحق ما عليه أهل السنّة والجماعة حيث جمعوا بين نصوص الوعد والوعيد، فكانوا أمة وسطاً.

(٢) بل هي التي وافقت منهج الإسلام؛ إن لم تكن أخذت عنه، لأنه أسبق زمناً.

الآيات والأحاديث، فهذا شأنها... أمَّا المسلمون فلن يفعلوا....

ثالثاً: إن من أبسط قواعد «**الدعوة إلى الله**» التزام أسلوب «**الترغيب والترهيب**»... وهذا يوافق أرقى النظم التربوية الحديثة(١)... فضلاً عن أن المسلم يعيش دائماً بين جذبي الترغيب والترهيب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

رابعاً: نقول للقائمين على هذه الجريدة: إذا كنتم حقاً خائفين على الجيل الجديد من الانهيارات العصبية، والأمراض النفسية فما لكم لا تحتجون على أفلام الرعب المخيفة التي غزت البيوت... وأفلام الجنس الخليعة التي دمرت الأخلاق... وأفلام العنف البشعة التي علَّمت أبناءنا الجريمة والقتل وإدمان المخدرات... لماذا تتباكون على «الجيل الجديد» وأنتم تساهمون في انحرافه وتلفه بما تنشره ملاحقكم «الملونة» من صور الخناعة والفجور؟!! لماذا؟!!(٢)، إلى آخر ما ذكره الكاتب؛ ذبًّا عن دين الإسلام، ومراغمةً لأعداء الدين: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ومن صور الاستهزاء والسخرية بعقيدة الثواب والعقاب «الجنة والنار»: ما ذكره محمود محمد الخضيري عن فكرة الثواب والعقاب مُحَمِّلَها مسئولية فساد القيم الاجتماعية، فيقول: «ومن المعلوم أن الديانات تقدر الثواب والعقاب بالحسنات والسيئات، فيجتهد بعض المؤمنين في كسب أكبر عدد ممكن من الحسنات، ولو لم تكن للأعمال المحتسبة فائدة اجتماعية....، وإنَّ فكرة الثواب والعقاب تؤدي إلى الإخلال باستبدال القيم، كما تؤدي

---

(١) مجلة «المجتمع» عدد (٦٤٩) ربيع الأول (١٤٠٤هـ).

(٢) «السياسة الأسبوعية» (ج١٣) العدد (١٤٦) (٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢٨م)، وهذا رأي السياسة نفسه. انظر: (ج٨) عدد (١٦٦) (١١ مايو ١٩٢٩م)، نقلاً عن «القرآنيون» (ص١٣٤ ـ ١٣٥).

الأزمات الاقتصادية إلى الإخلال بقيم النقد، وفي الحالة الأولى يخسر المجتمع، وفي الثانية تخسر الدولة... والنتيجة أن فكرة الثواب والعقاب، عملت كباعث خلقي قوي في توجيه الأفراد والجماعات....، وأعتقد أن روح الدين بريئة من هذا النوع من التجارة»[(١)].

ففي وصف الكاتب لعقيدة الثواب والعقاب بأنها «فكرة» قلب للحقائق وتشويه للمصطلحات العلمية، فالثواب والعقاب أمرٌ نزلت به الكتب السماوية، ونطقت به الرسل، فكان واجباً من عند الله، لا كَمَا تعنيه كلمة «فكر» فهي تعني أن هذا الأمر جاء عن طريق التفكير بالعقل، فهو صُنعٌ بشري حسب مفهوم كلامه، بينما هو في الحقيقة عقيدة راسخة عند عموم المسلمين، تحدُو بهم إلى معالي القيم والأخلاق الاجتماعية والابتعاد عن الفواحش ما ظهر منها ما بطن، ولكن كما قال تعالى عَمَّن عميت بصائرهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

ومن صورة الاستهزاء بعقيدة اليوم الآخر: ما نشرته «جريدة الأنباء»[(٢)]؛ من صورة لمجموعة من الممثلين شبه عراة قد تزاحموا داخل برميل، وكتب فوق الصورة عنوان كبير «انحشروا في برميل» وفي أسفل الصورة كتب تعليق عليها، وفي آخر التعليق وردت هذه العبارة «عموماً إنها مباراة ممتعة، إنها مثل يوم الحشر»[(٣)].

ماذا يريد كاتب هذا التعليق من ذكره ليوم الحشر، مشبهاً تجمع هؤلاء الفاسقين في البرميل، وقد حشروا أنفسهم فيه، بذاك اليوم العظيم.

---

(١) العدد (١٦٨٤) (ص١٥) (٣ سبتمبر، أيلول ١٩٨٠م).

(٢) مجلة «المجتمع» عدد (٤٩٦) (ص٧) (٣ شوال ١٤٠٠هـ).

(٣) لم أقف على ترجمة وافية لهما غير ما في «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٢٩) بهذا اللفظ الذي ذكرته آنفاً فقط.

ألهذا الحدّ وصل به الاستخفاف وقلة الحياء من الله وبيومه؟ بأن يُشبِّه هذا التجمع لحثالة البشر بيوم تشيب فيه الولدان، وتضع كل ذات حمل حملها، اليوم الذي ورد تسميته في كتاب الله بأنه يوم التغابن، ومقداره خمسين ألف سنة، فماذا يكون الجواب آنذاك؟

ومن صور الاستهزاء بشعائر الدين كالصلاة: وما يتعلق بها من طهارة ونحوها، ما نجده عند غلاة المتصوفة، مثل الشيخ «تاج الدين الذاكر» و«أبو السعود الجارحي، ومحيي الدين (بن عربي)[1] حيث» استهانوا بشعائر الدين وأصوله، فأعرضوا عن الصلاة وأوهموا الناس أن التكاليف الدينية تسقط عن كل واصل، ولا أدل على استهانتهم بشعائر الدين من أن بعضهم ـ مثل الشيخ «تاج الدين الذاكر» ـ كان يمكث بوضوء واحد سبعة أيام، امتدت في أواخر عمره إلى أحد عشر يوماً، بل إن الشيخ «أبو السعود الجارحي» كان يتوضأ في أول رمضان، فلا يعيد الوضوء إلا بعد العيد بستة أيام[2]، ومحيي الدين ابن عربي كان يمكث بوضوء واحد ثلاثة أشهر»[3]، وهذا تعدٍ لحدود الله، وعصيانٌ لله تعالى ولرسوله ﷺ، قال ابن تيمية: «وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤]، فهي والله أعلم فيمن جحد الفرائض واستخف بها، على أنه لم يذكر أنَّ العذاب أُعِدَّ له»[4]. وهذا الكلام ذكره **الشيخ** رحمه الله بعد أن ساق الأدلة من القرآن على أن العذاب المهين لم يجئ في كلام الله تعالى إلا في حق الكفار، ومنهم الذين يتخذون دين الله هُزُواً ولعباً، بدليل قوله تعالى: ﴿..قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ..﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦].

---

(١) تقدمت ترجمته (ص٢١٤) من هذه الرسالة.
(٢) «الطبقات الكبرى» (١١٣/٢ ـ ١١٤) للشعراني.
(٣) السيد البدوي «دراسة نقدية» (ص٣٢) د. عبد الله صابر.
(٤) «الصارم المسلول» (ص٥٧).

ومن صور الاستهزاء بالدين وتعاليمه السامية، وأحكامه العادلة: ما ورد في سؤال على اللجنة الدائمة للإفتاء، وهذا نَصُّه: ما حكم من يستهزئ بمن ترتدي الحجاب الشرعي ويصفها بأنها عفريتة، أو أنها خيمة متحركة (هذا ما وصفه الرئيس السادات لها في خطاب عام له)، وغير ذلك من ألفاظ الاستهزاء؟.

فأجاب أصحاب الفضيلة[1]، بما يلي:

«من يستهزئ بالمسلمة أو المسلم من أجل تمسكه بالشريعة الإسلامية فهو كافر سواء كان ذلك في احتجاب المسلمة احتجاباً شرعياً أم في غيره، لما رواه عبد الله بن عمر ﷺ قال: «**قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل: كذبت ولكنك منافق، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، فقال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول:** ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾. **فجعل استهزاءه بالمؤمنين استهزاء بالله وآياته ورسوله**»[2].

ومن هذا الباب ـ أعني الاستهزاء بالحجاب الشرعي ـ ما يتبجح به أرباب العلمنة من السخرية بالدين، وتنقص بآدابه وتعاليمه، يقول حسين أحمد أمين ـ وهو فرخُ أبيه ـ: «... وكذلك الحجاب: كان مناسباً للمدينة

(١) وهم: سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمهما الله، والشيخ عبد الله بن قعود، والشيخ عبد الله بن غديان.

(٢) «فتاوى اللجنة الدائمة» (٢/ ١٤ ـ ١٥)، وتقدم تخريجه (ص٢٨٣) من هذه الرسالة.

المنورة، ولم يعد مناسباً للقاهرة، في القرن العشرين...»[١].

ففي كلام **حسين أحمد أمين استهزاء ظاهر**، وطعن في الدين، فهو يصف الحجاب بأنه مناسب لمجتمع المدينة، دون مجتمع القاهرة في عصر التقدم!! هذا يعني أنَّ مجتمع المدينة كان مجتمعاً بدائياً، ويعني أيضاً ـ وهو الأهم ـ أن الدين الذي جاء به محمد ﷺ ـ وطبقت تعاليمه وقيمه وآدابه في المدينة النبوية، وبقية أمصار المسلمين في العصور الأول، لا يصلح للقرن العشرين، قال الشيخ عبد العزيز بن باز ـ بعد أن ذكر جملة من نواقض الإسلام: «ويدخل في القسم الرابع[٢]، من اعتقد أن الأنظمة والقوانين التي يسنها الناس أفضل من شريعة الإسلام أو أنها مساوية لها أو أنه يجوز التحاكم إليها، ولو اعتقد أن الحكم بالشريعة أفضل، أو أن نظام الإسلام لا يصلح تطبيقه في القرن العشرين، أو أنه كان سبباً في تخلف المسلمين...»[٣].

ولقد جرى في مجتمع قريب من بلادنا استهزاء عملي ظاهر بالحجاب الشرعي الذي هو فريضة فرضها الله ـ ﷻ ـ على المؤمنات، حيث قامت طالبتان تنتميان لإحدى القوائم التي تدعى الديمقراطية، بجامعة الكويت بلبس الحجاب والنقاب والعباءة ودخلتا متنكرتين في كافتيريا كلية التجارة، وأخذتا تتحدثان بصوتٍ عالٍ، ومثير للانتباه مع بعض الطلاب، كما كشفتا عن ساقيهما وأجزاء أخرى من جسميهما وقد قامتا بهذا العمل الشنيع علناً أمام

---

(١) نقلاً عن «العقلانيون...» (ص٦٦) علي حسن عبد الحميد.

(٢) يعني: الناقض الرابع من نواقض الإسلام العشرة، وهو: من اعتقد أن هدي غير النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر. «مجموع فتاوى ومقالات» (١/ ١٣٦). وانظر: عن نواقض الإسلام «الدرر السنية» (٨/ ٨٩) جمع عبد الرحمٰن بن قاسم، و«مجموعة التوحيد» (١/ ٣٨ ـ ٣٩).

(٣) «مجموع فتاوى ومقالات» (١/ ١٣٦ ـ ١٣٧).

الطلبة ثم نزعتا الحجاب في أحد الأماكن من الجامعة وخرجتا لابستين بنطال (الجنز) بلا استحياء لتكتمل سخريتها من الحجاب الإسلامي[١].

فأعداء الإسلام لم يفتروا عن الطعن في الدين والسخرية بآدابه، يقول الدكتور: محمد محمد حسين: «... فإذا انتقلنا من القصص إلى البرامج على اختلاف أسمائها سمعنا أسئلة توجه إلى الريفية الساذجة، وإلى «بنت البلد» المحافظة، عن العشق، والغرام، تطمئننا إجاباتها إلى تقدم المرأة المصرية بعد أن زالت عنها أعراض (داء) الحياء القديم»[٢]. فهذا الذي أشار إليه الدكتور محمد حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو ثمرة جهود أعداء الإسلام من العلمانيين والغربيين، حتى أصبح الحياء ـ **الذي ورد فيه قول النبي ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»**[٣] ـ داءً يفرح الناس بإزالته من النفوس.

بل وصل الحال بأعداء الإسلام إلى عقد المؤتمرات ـ كمؤتمر بكين ـ الذي عقد من أجل تحرير المرأة، والدفاع عنها، وهم قد ازدروا وتنقصوا تعاليم الإسلام في شأن المرأة: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨][٤].

ومن صور الاستهزاء بالدين وتنقصه: ما يتعلق باللحية، فقد كتب أحمد الجار الله في جريدة السياسة[٥]، يقول: «واحد لحيته مثل التيس أوقفني، وقال: لماذا تتحدث عن رجال الدين؟»، ففي هذا التشبيه الآثم من هذا المفتري سخرية واستهزاء بالسنة النبوية، والآداب الشرعية، وامتهانٌ لما كرَّمه الله تعالى بقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم

(١) مجلة «المجتمع» عدد (٦١٨) (١٣ رجب ١٤٠٣هـ).
(٢) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص٥١).
(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء، برقم (٦١١٧)، «فتح» (١٠/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨).
(٤) مجلة «الدعوة» عدد (١٥٠٦) الخميس (٥/ ٤/ ١٤١٦هـ) عن مقال لفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد ـ حفظه الله ـ.
(٥) بتاريخ (٢٨/ ١١/ ١٩٩١م).

مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]، **قال القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير هذه الآية: «... وقيل: أكرم الرجال باللِّحى، والنساء بالذوائب...»[(١)].

ولقد جرى لبعض العلماء من الابتلاء والفتنة عندما تمسكوا بسنة رسول الله ﷺ في إعفاء اللحية، فها هو الشيخ المحدث «عبد الله الغزنوي» (المتوفى سنة ١٢٩٨هـ) لمَّا خالف العلماء في عصره في بعض المسائل الفرعية، استدعاه أمير «كابل»، وأشار عليه بأن يوافق العلماء في بعض المسائل التي خالفهم فيها، ولكنه أبى، وكان الأمير لا يقدر أن يخالف العلماء فأمر أن تنتف لحيته، ويسوَّد وجهه، ويركب على الحمار، ويشهر في البلد، ثم يجلى إلى بلاد الهند[(٢)].

ومن صور الاستهزاء بالدين وشرائعه، ما يحصل من سخرية بعض الكتاب العصريين بالحدود الشرعية التي سنها الله لعباده، رادعةً لهم عن تجاوز حدوده، فمن ذلك ما كتبه حسين أحمد أمين ـ وهو فرخ أبيه ـ عن شريعة القصاص في حدِّ السرقة، بأنَّها شريعة بدوية، فقال: «فالتشبع بروح الإسلام[(٣)] ـ لا الالتزام بأحكام مُعيَّنة متناثرة ـ كفيلٌ بأن يكون البوصلة التي تهدينا سواء السبيل! فقد يجد المجتمع الراهنُ عقاباً لجريمة السرقة غير

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٩٠)، ثم قال ـ بعد أن ذكر أقوالاً كثيرة ـ: «والصحيح الذي يعوَّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرف الله ويفهم كلامه...». وانظر: «الموافقات في أصول الشريعة» (٣/ ٢٧ ـ ٢٨) للإمام الشاطبي، في بيان أن العقل هو مناط التكليف.

(٢) «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» (٧/ ٧) لعبد الحي الحسني، نقلاً عن «الانحرافات العقدية والعلمية...» (ص٧٠٠) للشيخ علي بن بخيت الزهراني.

(٣) كلمة «روح الإسلام» خدعةٌ عقلانية علمانية فاسدة تسربت ـ وللأسف ـ إلى بعض من يطلق عليهم (رموز الحركة الإسلامية!!)، فانظر فضحاً لها، وكشفاً لحقيقتها في «حقائق الإسلام بين الجهل والجمود» (ص٢٤٩ ـ ٢٥٤) تأليف عبد المجيد صُبح. انظر: «العقلانيون...» (ص٦٦) هامش (١).

العقوبة في المجتمع البدوي، وكذلك بالنسبة للحجاب الذي فرض بالمدينة.

فالقطع الذي قرره القرآن[١] عقاباً للسَّارق هو شريعةٌ بدوية، مثل عقيدة القدر (!!!)[٢].

ويقول عبد الله العلايلي: «إن إنزال الحدّ لا يتفق مع روح القرآن الذي جعل القصاص صيانة للحياة، وإشاعة للأمن العام، وليس لجعل المجتمع مجموعة مشوَّهين: هذا مقطوع اليد، والآخر مقطوع الرجل، والآخر مفقوء العين، أو مصلوم الأذن، أو مجدوع الأنف»[٣].

ما أقبح الجرأة على الله، وعلى شريعته الكاملة الشاملة: التي تسعد البشرية كلها تحت حكمها، فإذا ما اتُّخِذتْ غرضاً للساخرين والمستهزئين ضعف جانب تعظيمها، وهذا ما يسعى له أعداء الإسلام في كل مكان، من الدس والتشويه للحدود الشرعية خاصة، والقيم الإسلامية وتعاليمها عامة.

ولا غرابة عندما نسمع هذا الكلام من أمثال هذين المفتريين على الله وشريعته، فلهم أساتذة يتلقون عنهم الطعن والدس والتشويه، يقول المستشرق «بروكلمان»: «أمَّا القانون الجزائي في الإسلام فقد ظلَّ على مستوى يقرب

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨]، وقد بوّب الإمام البخاري في كتاب الحدود بهذه الآية، وساق روايات حديث عائشة: «تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً». «فتح» (٩٩/١٢)، فها هي السنّة النبوية قد بيّنت المقدار الذي يتمُّ فيه القطع، وذكر العلماء الشروط في قطع يد السارق، استنباطاً من الأدلة الشرعية. انظر: «أحكام القرآن» (٦٠٤/٢ ـ ٦١٨) لابن العربي، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠٤/٦ وما بعدها) للقرطبي، و«الحدود والتعزيرات عند ابن القيم» (ص٣٥١ ـ ٤٢٨) للشيخ العلَّامة الدكتور بكر أبو زيد، وقد تعرض لمباحث ابن القيم في حدِّ السرقة، والشبهات التي أثيرت قديماً وحديثاً بما يغني ويشفي.

(٢) «العقلانيون» (ص٦٦) علي حسن عبد الحميد.

(٣) «أين الخطأ» (ص٨٩ ـ ٨٠) نقلاً عن «العصرانيون» (ص٢٥٨). وانظر: المصدر نفسه (ص٨١) محمد حامد الناصر.

من السذاجة، وهو لا يمثل إلا تقدماً ضئيلاً بالنسبة إلى مفاهيم القوانين الوثنية القديمة»[(١)].

وهذا يذكرنا بما ورد في شعر بعض الزنادقة من تنقص بحدِّ السرقة، فقال:

يدٌ بخمس مئين عسجد وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له ... ونستجير بمولانا من العار[(٢)]

قال الشيخ بكر أبو زيد: «فأجابه بعض الفقهاء بأنها كانت ثمينة لمَّا كانت أمينة، فلما خانت هانت». **وضمنه الناظم قوله:**

يدٌ بخمس مئتين عسجد وديت ... لكنها قطعت في ربع دينار
حماية الدم أغلاها، وأرخصها ... خيانة المال، فانظر حكمة الباري[(٣)]

... ومنه يتضح للمنصف أن هذا التفاوت بين دية اليد إذا جني عليها وبين نصاب القطع إذا جنت هو عين الحكمة والعدل صيانة لأبدان الناس وأموالهم، وهذا الاعتراض الآثم أورده جماعة من العلماء[(٤)] ولكن لا يخرجون في جوابهم عمّا ذكره ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ[(٥)]. وهو

---

(١) «تاريخ الشعوب الإسلامية» (ص٨٢) لبروكلمان. وانظر: «دراسات في السيرة النبوية» (ص١٣٣) محمد زين العابدين.

(٢) نسب ابن حجر في «الفتح» (١٢/ ١٠٠) البيت الأول: لأبي العلاء المعري، أحمد بن عبد الله، هلك سنة (٤٤٩هـ)، ونسب إليه البيتين في اللسان. انظر: «لسان الميزان» (١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٨).

(٣) انظر البيت الثاني في: «فتح الباري» (١٢/ ١٠٠) من جواب القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي المتوفى سنة (٤٢٢هـ). انظر ترجمته في: «الأعلام» (٤/ ١٨٤) للزركلي.

(٤) انظر: «الحدود والتعزيرات...» (ص٣٥٨ ـ ٣٥٩) بكر أبو زيد.

(٥) قال: «وأمَّا قطع اليد في ربع دينار وجعل ديتها خمسمائة دينار: فمن أعظم المصالح والحكمة، فإنه احتاط في الموضعين للأموال والأطراف: فقطعها في ربع =

نقض جلي مبناه على التفاوت العظيم بين الجنايتين....

قال السِّلَفي(١): «إن كان المعري قال هذا الشعر معتقداً معناه فالنار مأواه، وليس له في الإسلام نصيب»(٢).

يقول الإمام محمد الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في معرض كلامه عن التشريعات الوضعية في الحدود كالرجم والقطع، وغيرها: «أمَّا النظام الوضعي المخالف لتشريع خالق السموات والأرض، فتحكيمه كفر بخالق السموات والأرض كدعوى تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف،... وأن الرجم والقطع، ونحوها أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان...»(٣)

وبعد فهذه صور مقيتة في الاستهزاء بالدين ذكرتها على سبيل التحذير مُبَيِّناً الباطل والافتراء الذي تضمنته، وفي المبحث التالي أعرض صوراً مماثلة في جانب الاستهزاء بالرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

= دينار حفظاً للأموال، وجعل ديتها خمسمائة دينار حفظاً لها وصيانة». «إعلام الموقعين» (٢/ ٦٣).

(١) أبو طاهر أحمد بن محمد بن سِلَفه ـ بكسر السين وفتح اللام ـ الأصفهاني حافظ محدث، توفي سنة (٥٧٦هـ). انظر «الأعلام» (١/ ٢١٥ ـ ٢١٦) للزركلي.

(٢) «الحدود والتعزيرات...» (ص٣٥٨ ـ ٣٥٩) للشيخ العلّامة بكر أبو زيد.

(٣) «أضواء البيان» (٤/ ٩٣). وانظر: «العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب» (ص٨١، ٢٦١) الناصر.

المبحث الثالث

صور من الاستهزاء بالرسول ﷺ

تقدم معنا في الفصل الثاني الحديث عن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ في العصور الأولى، وبينت هناك أن هذا إخلال بالأدب معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالواجب تعظيمه، وتوقيره، وتصديقه، والإيمان به، وهنا أسوق لك صوراً من السخرية به ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الوقت الحاضر من فعل من لا خلاق لهم في الآخرة إلا أن يتوبوا ويرجعوا إلى دينهم.

فمن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ: ما تفوَّه به محمد الحربي في قصيدته التي أسماها بـ «المفردات»، وقد ألقاها في مهرجان المربد بالعراق ونشرتها اليمامة في العدد (٨٨٧) بتاريخ ١٤٠٦/٤/٢٧هـ يقول الحربي في قصيدته:

أرضنا البيد غارقة في الظلام ... طوق الليل أرجاءها
وكساها بعسجده الهاشمي ... فدانت لعاداته معبداً

إلى أن قال في تلك القصيدة:

بعض طفل نبي على شفتي ... ويدي بعض طفل
أخرجوا فالشوارع غارقة ... والملوحة في لقمة العيش
في الماء في شفة الطفل ... في نظر المرأة السلعة
والنساء سواسية منذ تبت ... وحتى ظهور القناع
تشترى لتباع وتباع ... ثانية تشترى لتباع[1]

---

(١) «رسالة الإصلاح» (ص٦٠ ـ ٦١) عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين. انظر: «الحداثة في ميزان الإسلام» (ص٦٩ ـ ٧٠) للشيخ عوض القرني.

فمن هو الهاشمي الذي دانت له البلاد يا أيها الحربيّ؟ أليس هو رسول الله ﷺ الذي جاء بالهدى ودين الحق، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: ٩].

وهل ما جاء به عاداته وعادات قومه؟ أم هو الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وهل طوق الليل أرجاء الأرض وديار الإسلام، ببعثته ـ عليه الصلاة والسلام ـ أم هو النور الذي جاء من عند الله ـ تبارك وتعالى ـ، والدين الذي جاء به الرسول ﷺ وكساها به بردائه على حد تعبير الحربي. وإنه أضاف إلى السخرية برسول الله ﷺ الاستهزاء بالحجاب الإسلامي، ويعتقد أن سورة «تبت» عندما نزلت وسادت في الأرض ـ لأنها من القرآن ـ فهو يعتبر أم جميل زوج أبي لهب ثائرة على التقاليد والعادات التي جاء بها محمد ﷺ.

فالمرأة في نظر الحربي سلعة تشترى لتباع منذ «تبت» وحتى ظهور القناع (الحجاب)، ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٣٢﴾ [الرعد: ٣٢]. فسوف يحيق به وبأمثاله عقوبة ما كانوا يسخرون برسول الله ﷺ كما فعل بأسلافهم.

ومن صور السخرية والاستهزاء بالرسول ﷺ: ما نشر في مجلة المجتمع الكويتية في عددها (١٦٢) الصادر بتاريخ ٩/٧/ ١٣٧٣هـ تحت عنوان «فيلم محمد رسول الله» وقد تضمن الخبر المذكور أنه خلال الأيام الماضية تم التوقيع على عقد تأسيس الشركة العربية للإنتاج السينمائي العالمي.

وكان الممثلون عن الدول التالية: (ليبيا، والكويت، والمغرب، والبحرين)، ومدة هذا الفيلم ثلاث ساعات، بعشرين لغة عالمية منها العربية ومادة هذا الفيلم عبارة عن قصة أقرها الأزهر!! والمجلس الشيعي

الأعلى...»[1].

ففي إخراج مثل هذا العمل استهزاء ظاهر بالرسول ﷺ وتنقص لجنابه، فلا غرابة من إقرار المجلس الأعلى الشيعي لهذه القصة، ولهذا العمل ولكن الغرابة من غيره.

ومن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ: ما نشرته جريدة المساء في القاهرة في صورة كاركاتورية يرسم فيها شخصاً له جسم الديك وحوله تسع دجاجات، ويقول تحت هذه الصورة: «أهوه ده يا سيدي محمد أفندي اللي متجوز تسع» بمثل هذا الخبث تنشر مثل هذه الصور التي تعرض برسول الله ﷺ وبشريعة الإسلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥].

قال العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز: «... الجرأة على الجناب الرفيع والمقام العظيم، مقام سيدنا وإمامنا محمد بن عبد الله ﷺ وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً ـ بتمثيله بحيوان من أدنى الحيوانات وهو الديك لا يشك مسلم أن هذا التمثيل كفر بواح، وإلحاد سافر واستهزاء صريح بمقام سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين، وقائد الغر المحجلين، إنها لجرأة تحزن كل مسلم وتدمي قلب كل مؤمن، وتوجب اللعنة والعار والخلود في النار، وغضب العزيز الجبار، والخروج عن دائرة الإسلام والإيمان إلى حيز الشرك والنفاق والكفران لمن قالها أو رضي بها، ولقد نطق كتاب الله الكريم بكفر من استهزأ بالرسول العظيم، أو بشيء من كتاب الله المبين، وشرعه الحكيم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦]، فهذه

---

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (١/٤١٧ ـ ٤٣١) لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز.

الآية نص ظاهر وبرهان قاطع على كفر من استهزأ بالله العظيم أو رسوله الكريم أو كتابه المبين...»[(١)].

وقد تصدت صحيفة صوت الإسلام القاهرية في الرد على هذه الفرية العظيمة بقلم رئيس تحريرها الشيخ محمد عطية خميس، فجزاه الله خيراً على دفاعه عن عرض المصطفى ﷺ وصدعه بالحق[(٢)].

ومن صور الاستهزاء والسخرية بالنبي ﷺ: ما نشرته صحيفة الشهاب اللبنانية في عددها الصادر في ١٣٩٤/٣/٢٣هـ عن مسؤول كبير في لبنان[(٣)] جاء فيه: «أن الرسول محمداً ﷺ كان إنساناً بسيطاً يسافر كثيراً عبر الصحراء العربية، ويستمع إلى الخرافات البسيطة السائدة في ذلك الوقت، وقد نقل تلك الخرافات إلى القرآن،...»[(٤)].

ومثل هذا المفتري الظالم الذي اتخذ رسول الإسلام، ونبي الرحمة سخرية سوف ينزل به العقاب الأليم عاجلاً أو آجلاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد: ٣٢]، ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥].

ومن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ: ما كتبه طه حسين في كتابه «على هامش السيرة» الذي ألفه بعد المعركة التي وقعت إثر نشره لكتاب «الشعر الجاهلي» أراد أن يثبت للمسلمين أنه ما زال على دين الإسلام، ولذلك ألف في السيرة النبوية على حد زعم طه.

---

(١) «مجموع فتاوى ومقالات» (٦/ ٢٥٣ ـ ٢٦٤).

(٢) انظر: المصدر نفسه (٦/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦) ففيه نص كلام الشيخ محمد عطية خميس.

(٣) كان هذا الحديث منه حول موضوع «الثقافة الذاتية والوعي القومي» موجّهاً لرجال التربية والتعليم في لبنان، وقد تقدم الكلام على أجزاء من خطابه عند صور الاستهزاء بالله تبارك وتعالى (ص٢٧٥).

(٤) «مجموع فتاوى ومقالات» (١/ ٨٧ ـ ٨٨) لابن باز.

نظر طه حسين لليونان فوجد لهم أساطير وللرومان فوجدهم كذلك، والناس يتلقون هذه الأساطير برغبة ملحة، والعرب لا يوجد عندهم هذا النوع من العلم،فقام بسد هذه الحاجة!! التي يفتقدها العرب فألف «على هامش السيرة» قال فيه: وعلى غرار الأساطير اليونانية والرومانية يمكن أن نأخذ من أدبنا العربي، ففي الأدب العربي قوته الخاصة، وما يكفل للناس من لذة ومتاع، فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة. . . وقل مثل ذلك السيرة نفسها»[1].

وقال أيضاً موضحاً أمانته العلمية وتواضعه!!: «قصدت حين أمليت فصول هذا الكتاب. ولستُ أريد أن أخدع القراء عن نفسي ولا عن هذا الكتاب، فإني لم أفكر فيه تفكيراً ولا قدرته تقديراً، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون، وإنما دفعت إلى ذلك دفعاً وأكرهت إليه إكراهاً، ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسي، ويفيض بها قلبي وينطق بها لساني وإذا أنا أملي هذه الفصول»[2]، فما أدري حقيقة أي كتاب قرأ في السيرة النبوية، هل قرأ سيرة ابن إسحاق؟ أو قرأ مغازي موسى بن عقبة (ت١٤٠) وهو محدث ثقة من تلاميذ الإمام الزهري، أم أن طه قرأ السيرة التي كتبها المستشرقون وأفراخهم في العالم الإسلامي فتشبع بها وامتلأت بها نفسه، وفاض قلمه، والحقيقة أن ثقافة طه ثقافة غربية مشبوهة حتى عن الإسلام، «وأحسب أن نفسه امتلأت حقداً وقلبه كرهاً ضد السيرة وصاحبها ﷺ وانطلق بها لسانه وإذا هو يهذر بهذه الفصول من الدس والتشويه»[3].

---

(١) «دراسات في السيرة النبوية» (ص٢٢٨ ـ ٢٢٩) محمد زين العابدين. وانظر: «الفكر الإسلامي المعاصر» (ص١٠٨ ـ ١٠٩) غازي التوبة، و«الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» (٢٠/٢٩٥ ـ ٢٩٦) محمد محمد حسين.

(٢) على هامش السير (١/ط).

(٣) «دراسات السيرة النبوية» (ص٢٣٠).

فالكاتب طه يخترع الأحاديث والخرافات والأخبار في كتابه على هامش السيرة فيقول: «وأحب أن يعلم الناس أيضاً أني وسعت على نفسي في القصص، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث»(١).

فمن الشخصيات التي اخترعها خياله رجل أسماه (كيمون) وأخذ ينسب إليه المعجزات وخوارق العادات، قال: بأن كيمون دعا على حية عظيمة ذات رؤوس سبعة فماتت في مكانها، ورأى صبياً ضريراً سيء الحال فيدعو له وينهض الصبي مبصراً وليس به بأس، ويشاهده الناس في حجرة مضيئة في الليل من غير مصباح... وتحدث هذه الخوارق في قرى متعددة فيؤمن الناس به وعندما يُكْشَفُ أمره يفر من القرية... وأخيراً جاء أهل بلد يعبدون نخلة فيسأل الله هلاكها فتأتي ريح عاصفة فتقتلع النخلة»(٢).

فالسيرة في نظر هذا المفتري للتسلية فقط لأن أخبارها غير ثابتة، ولا يقبلها المنهج. فلم يجد طه حسين ما يسخر به سوى سيرة خير البشر ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي يؤخذ منها العقيدة، والعبادة والأخلاق، والسلوك، ألم يكن في أخبار الفراعنة وآثارهم ما يشبع رغبته من السخرية والاستهزاء، ألم يجد من آثار الحضارة اليونانية والرومانية عند شيوخه من المستشرقين ما يروي غليله، أم أنه الحقد على الإسلام، والطعن فيه وفي رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥].

ومن صور السخرية بالنبي ﷺ: ما صوره نجيب محفوظ في روايته الإلحادية **«أولاد حارتنا»** التي حصل بها على جائزة نوبل في الأدب!! عام ١٩٨٨م. تعرض فيها للسخرية والاستهزاء بالنبي ﷺ فيقول: «وبينما يعيش

(١) المصدر نفسه (ص٢٣٢).

(٢) «على هامش السيرة» (٩٣ ـ ١٠١) طه حسين، «دراسات في السيرة النبوية» (ص٢٣٢) محمد زين العابدين.

قوم جبل «اليهود» في الحي الخاص بهم وكذلك أتباع رفاعة ـ يعني به عيسى عليه السلام ـ «النصارى» في حيهم ينشأ قاسم في أكثر الأحياء فقراً وبؤساً «حيّ الجرابيع» يعني قبيلة قريش، وقاسم غلام يتيم يكفله عمه «زكريا» ـ يعني أبا طالب ـ بائع البطاطا الفقير، ويشب قاسم على حكايات الجبلاوي ـ يعني به الله جل وعلا ـ وأدهم ـ يعني آدم ـ، وجبل ـ يعني موسى عليه السلام، ورفاعة ـ، ويعمل بالتجارة مع عمه ثم يتفرغ لرعي الغنم ويكثر من زيارة العجوز يحيى «إشارة إلى ورقة بن نوفل»...»[1].

فالمؤلف هنا يجعل الأستاذ والمعلم للنبي ﷺ هو ورقة بن نوفل وهذا كذب وافتراء، فالنبي ﷺ لم يأت ورقة إلا بعد أن نزل عليه الوحي في الغار، إذاً فما جاء به محمد ﷺ من أخبار وأحكام وعقائد وأمور الغيب فمن عند الله أوحاه إلى خاتم أنبيائه.

وفي زعم هذا المفتري بأن الرسول شب على حكايات الجبلاوي وأدهم وجبل ورفاعة، من الكذب ما هو معلوم لأصحاب العقول السليمة، والفطر السوية، ولكن موجة الإلحاد وعاصفته التقطت مثل هذا المفتري فجعلته سيفاً صارماً في وجه الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥].

ومن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ وتنقصه: ما ذكره الروائي الهندي الأصل البريطاني الجنسية: سلمان رشدي في مطلع عام ١٩٨٩م بعنوان «الآيات الشيطانية» سخر فيها بالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأسماه «مهاوند»[2]، وهي

---

(١) «الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية» (ص٨٧) أحمد أبو زيد.

(٢) هي كلمة في اللغة اللاتينية والإسبانية مرادفة للشيطان، وكانت تطلق في القرون الوسطى من قبل المنصرين والمبشرين على رسولنا محمد ﷺ. انظر: «حكم الإسلام في جرائم سلمان رشدي» (ص٢٧) علاء خروفة، ومعناه في اللغة الإنجليزية: الكلب. انظر: «الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية» (ص١١٦) أحمد أبو زيد.

تعني الدجال والكاذب، ويقصد به الرسول الكريم ﷺ، وزاد هذا المفتري أن «مهاوند» كان يملي القرآن الكريم على الكاتب الفارسي حين كان الشيطان يوحيه إليه!!!

وأن «مهاوند» لم تكن له القابلية ليفرق بين ما كان يوحي إليه الشيطان وبين ما كان يملي هو. ثم ذكر أن الكاتب الفارسي كان يحرف ما كان يمليه عليه «مهاوند» فإذا أملى عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ كتب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وأن «مهاوند» لم يلاحظ هذا التحريف أو الاختصار وأن الكاتب كان ينتقل إلى التحريف الأكبر والأهم. فإذا أملى «مهاوند» النصارى، يقول الكاتب: كنت أكتب اليهود...»[1]. هل القرآن يا سلمان رشدي من وحي الشيطان أم هو وحي الرحمٰن؟ قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ١ ـ ٤]، وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: ٧].

فمن آمن بهذا القرآن وعمل بتعاليمه فهو من أهل الجنة، ومن كفر به وطعن فيه وسخر منه، وزعم أنه من وحي الشيطان فجزاؤه جهنم وبئس المصير، وتصدق عليه هذه الآية: ﴿...وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ إلا أن يتوب ويرجع في وقت تقبل فيه التوبة.

وهذا الافتراء من سلمان رشدي، يذكرنا بقول المفتري الآخر: علاء حامد في روايته الأدبية «مسافة في عقل رجل» محاكمة الإلٰه، حيث سخر فيها بالأديان السماوية كلها، وبدين الإسلام على الخصوص. قال فيها عن الكتب السماوية ومنها القرآن: «أم أن تلك الرسالات ليست سوى صيغ بشرية

(١) «حكم الإسلام في جرائم سلمان رشدي» (ص٢٩) علاء خروفة. وانظر: «الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية» (ص١١٦ ـ ١١٧) أحمد أبو زيد. وهذه الصورة تقدم ما يشابهها عند الحديث عن صورة الاستهزاء في العصور الأولى.

آمن بها أصحابها ثم تداولوها بدعوى أنها إلهية؟ وعلى هذا فتصبح صلة الرسل بالله صلة افتراضية لا تدعمها حقيقة ولا يسندها برهان»[١]. وهذا الهجوم على الإسلام من خلال الروايات الأدبية مخطط منظم من أعداء الإسلام وإخوانهم من المنافقين كأمثال سلمان رشدي وعلاء حامد وغيرهم كثير، فالأمر كما قال الله تعالى في أسلافهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾ [التوبة: ٤٩].

ومن صور الاستهزاء بالنبي ﷺ السخرية بالحديث النبوي والطعن فيه الذي: «هو مبدأ البدع في السنة بالظن والهوى، كما طعن إبليس في أمر ربه برأيه وهواه»[٢]، فقد قيل لمن لا خلاق له وقد رد حديثاً: إنه في صحيح مسلم. فقال: ضعه تحت قدمك!!!

وقال أحدهم وبكل وقاحة: «تعليقاً على حديث الذبابة[٣] أنا آخذ بقول الطبيب الكافر ولا آخذ بقول الرسول!!».

وقال آخر: إذا تعارض الحديث مع العقل فرده. فقيل له: وإن كان في صحيح البخاري؟ قال: وإن كان في صحيح البخاري ولا كرامة!!![٤].

هكذا يتخذ هؤلاء الساخرون نبي الإسلام ﷺ وسنته الثابتة الصحيحة سخرية واستهزاء، ألم يسمعوا قول الله ـ تبارك وتعالى ـ في وعيد من استهزأ بنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإملاء الله له ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر حيث

---

(١) (ص٦) نقلاً عن «الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية» (ص١٢٨ ـ ١٢٩) أحمد أبو زيد.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٥٠) لابن تيمية.

(٣) وهو قوله ﷺ: **«إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه، فإن في إحدى جناحيه داء وفي الآخر شفاء»**. رواه البخاري في كتاب الطب، باب إذا وقع الذباب في الإناء، برقم (٥٧٨٢). «فتح» (١٠/ ٢٦٠ ـ ٢٦١).

(٤) «تعظيم السنة...» (ص٤٣ ـ ٤٤) لعبد المقصود السحيباني.

قال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد: ٣٢].

فهذا الأمر أي رد السنة والاستخفاف بها وبصاحبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمر قديم تبنتَّه الفرق الكلامية من معتزلة وأشاعرة وغيرهم حيث أصَّلوا أصولاً فاسدة كقولهم: «إذا تعارض العقل والنقل نقدم العقل، لأنه أساس قبول النقل»، وقد تصدى لنقض قانون المتكلمين هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «درء تعارض العقل والنقل»[(١)]. وما زال هذا القانون الفاسد تُردُّ به نصوص الوحي إلى اليوم، فنجد في كلام المعاصرين ما يشبه كلام المتقدمين فيها هو **الغزالي يقول**: «كان أئمة الفقه الإسلامي يقررون الأحكام وفق اجتهاد رحب، يعتمد على القرآن أولاً، فإذا وجدوا في ركام المرويات ما يتسق معه قبلوه، وإلا فالقرآن أولى بالاتباع[(٢)]».

ويقول الدكتور حسن الترابي: «ومن المعوقات: هناك من يقول بأن عندنا ما يكفينا من الكتاب والسنة، وهذا وهم شائع، إذ لا بد أن ينهض علماء فقهاء فنحن بحاجة إلى فقه جديد لهذا الواقع الجديد»[(٣)]. وهذ يعطينا دلالة واضحة على منهجه العقلاني المنعزل عن نصوص الوحي، ويزيد الأمر وضوحا قوله: «أما المصدر الذي يتعين علينا أن نعيد إليه اعتباره كأصل له مكانته فهو العقل...»[(٤)]. بل وصل الحال ببعض هؤلاء إلى القول بأن البشرية لم تعد بحاجة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ ورسالاته، يقول محمد أحمد خلف الله في كتابه العدل الإسلامي: «إن البشرية لم تعد في حاجة

(١) (١/ ٤ ـ ٦) ففيه قانون الرازي الذي تبعه فيه عامة المتكلمين، وسبقه إليه أبو حامد الغزالي، وأبو المعالي الجويني، والقاضي أبو بكر الباقلاني.

(٢) «السنّة النبوية» (ص١٨) نقلاً عن «أزمة الحوار الديني» (ص٤٦) جمال سلطان. وانظر: «العقلانيون...» (ص١٨٨ ـ ١٨٩) لعلي حسن عبد الحميد.

(٣) «تجديد الفكر الإسلامي» (ص٢٥) نقلاً عن العقلانيون...» (ص٦٨) لعلي حسن.

(٤) المصدر نفسه (ص٢٦).

إلى من يتولَّى قيادتها في الأرض باسم السماء، فلقد بلغت سن الرشد، وآن لها أن تباشر شؤونها بنفسها»[(١)]. ويقول في موضع آخر: «فلقد حرر الإسلام العقل البشري من سلطان النبوة، من حيث إعلانه إنهاءها كلية وتخليص البشرية منها»[(٢)].

ففي هذه النقول إشارة إلى امتداد الطعن على السنة النبوية الصحيحة وأن أهل الباطل والافتراء ما زالوا يحملون راية البدعة والضلالة، تقليداً لسلفهم من أئمة المتكلمين الذين اتبعوا غير سبيل المؤمنين وقرروا مسائل الاعتقاد بغير طريق الأنبياء والمرسلين، وصدق في هؤلاء وأولئك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

---

(١) نقلاً عن «العقلانيون...» (ص٦٥) علي حسن عبد الحميد.

(٢) «الأسس القرآنية للتقدم» (ص٤٤) نقلاً عن «العقلانيون» (ص٦٥).

المبحث الرابع

صور من الاستهزاء بالصحابة رضي الله عنهم والمؤمنين

تقدم الكلام عن صور الاستهزاء بالصحابة والمؤمنين في العصور الأولى، ومهدت هناك بالحديث عن الأدلة الشرعية في النهي عن السخرية بالمؤمنين، وبكلام أهل العلم من المفسرين والمحدثين، بما يغني عن إعادته هنا، ولكن أُذكر بحقيقة مُهِمَّة، هي أن السخرية بالمؤمنين لا تقتصر على القول فقط، بل حتى الفعل، والإشارة، والإيماء، **قال أبو حامد الغزالي** رحمه الله: «الآفة الحادية عشرة: السخرية والاستهزاء: وهو مُحرَّم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: ١١]، **ومعنى السخرية**: الاستهانة والتحقير، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في القول والفعل، وقد يكون بالإشارة والإيماء، ومرجع ذلك إلى استحقار الغير والضحك عليه، والاستهانة به والاستصغار له، وعليه نبَّهَ قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾، أي لا تستحقره استصغاراً فلعلهُ خير منك، وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأمَّا من جعل نفسه مسخرة وفرح بمن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح، . . . وإنما المحرم استصغار ما يتأذى به المستهزأ به، لما فيه من التحقير والتهاون، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطِّه وعلى صنعته، أو على صورته وخلقته لعيب فيه، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها»[(١)].

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٣١ ـ ١٣٢). وانظر: «تهذيب موعظة المؤمنين» (ص٢٢٦ ـ ٢٢٧) للقاسمي.

وبعدُ فإليك جملة من صور الاستهزاء بالصحابة رضي الله عنهم والمؤمنين من بعدهم، عافانا الله منها.

فمن صورة الاستهزاء بالصحابة رضي الله عنهم: ما ورد في سؤال[١] موجه لسماحة الشيخ **محمد بن إبراهيم** رحمه الله قال: «... فقد وصل كتابك المؤرخ، الذي ذكرت فيه ما أجراه بعض الروافض عندكم أنهم صوَّروا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه صورة مجسمة تجسيماً كاملاً، وزينوه بلباس فاخر بلحيته وعمامته، وجعلوا له ذيلاً يستهزئون به في مجالسهم، ويرقصون حواليه، ويلعنونه، ثمَّ أتوا بولد أبو عشرين سنة، وأتوا بمطوعهم ليعقدوا للولد على عمر، ويجعلونه مثل الذي تعرفون ـ يعني النساء ـ... وتسأل عمَّا يجب في حقهم شرعاً.

ثم قال سماحته:

والجواب: عن ما ذكرتم من هذا الأمر العظيم من فعل هؤلاء الروافض وتهجمهم على أصحاب رسول الله ﷺ الذين اختارهم الله لصحبة رسوله، فقاموا معه خير قيام، وآمنوا به، وهاجروا وجاهدوا معه، ونصروه، وبذلوا في سبيل ذلك مهجهم وأولادهم، وأوطانهم، وأموالهم، وفدوه ﷺ بجميع ذلك.

قال أبو زرعة: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من الصحابة فاعلم أنه زنديق، وذلك أن القرآن حق، والرسول حق، وما جاء به حق، والقرآن حق وما أدى إلينا ذلك كله إلا الصحابة، فمن جرحهم فقد أراد إبطال الكتاب والسنة»[٢].

فإذا كان هذا في حق سائر الصحابة، فما بالك بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي هو أفضل الصحابة وأجلهم بعد الصديق بإجماع الأمة

(١) السؤال من علي بن محمد المطوع، ولا يوجد نص السؤال في فتاوى الشيخ.
(٢) انظر: «الكناية في علم الرواية» (ص٩٧) للخطيب. وانظر: «الاستيعاب» (١/ ٢٥ ـ ٢٦)، و«الإصابة» (١/ ٢٢).

والبراهين القاطعة... وهؤلاء الروافض قد ارتكبوا بهذا الصنيع عدَّة جرائم شنيعة:

منها: الاستهزاء بأفاضل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وسبهم ولعنهم.

ومنها: التصوير، والتصوير من كبائر الذنوب الملعون فاعلها، مع أنهم لم يصوِّروه على خلقته ﷺ بل صوروه صورة بهيمة وجعلوا له ذيلاً لتمام السخرية والاستهزاء قبحهم الله.... وهذا يدل على خبثهم وشدة عداوتهم للإسلام والمسلمين، فيجب على المسلمين أن يغاروا لأفاضل أصحاب رسول الله ﷺ وأن يقوموا على هؤلاء الروافض قيام صدق لله تعالى، ويحاكموهم محاكمة قوية دقيقة، ويوقعوا عليهم الجزاء الصارم البليغ سواء كان القتل أو غيره حسب ما يراه الحاكم بنظره المصلحي الشرعي...»[١] إلى آخر ما ذكره رحمه الله.

ومن تلك الصور ـ أيضاً ـ: ما ذكره الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قال: «ومنها ـ أي من قبائح الرافضة ـ استهانتهم بأسماء الصحابة، ولا سيما العشرة، وقد تواتر عنه ﷺ ما يدلُّ على وجوب تعظيمهم وإكرامهم، وقد أرشد الله تعالى إلى ذلك في مواضع من كتابه، ويلزم من إهانة هؤلاء إياهم استخفافهم لذلك عندهم، ومن اعتقد منهم ما يوجب إهانتهم فقد كذَّبَ رسول الله ﷺ فيما أخبر من وجوب إكرامهم وتعظيمهم، ومن كذَّبه فيما ثبت عنه قطعاً فقد كفر.

ومن عجب أنهم يتجنبون التسمية بأسماء الأصحاب، ويسمون بأسماء الكلاب فما أبعدهم عن الصواب، وأشبههم بأهل الضلال والعقاب»[٢].

---

(١) «فتاوى ورسائل» (١/٢٤٨ ـ ٢٥٠).
(٢) «رسالة في الرد على الرافضة» (ص٢٦ ـ ٢٧).

من صور الاستهزاء بالصحابة ﷺ: ما طعن به محمود أبو ريَّة[١] في الصحابي الجليل أبي هريرة ﷺ حيث تدور مطاعنه «حول احتقاره وازدراء شخصيته واتهامه بعدم الإخلاص في إسلامه وعدم الصدق في حديثه عن رسول الله ﷺ وحبه لبطنه وللمال وتشيعه لبني أمية إلى غير ذلك... وأشهد أن أبا ريَّة كان أفحش وأسوأ أدباً من كل من تكلم في حق أبي هريرة من المعتزلة والرافضة والمستشرقين قديماً وحديثاً، مما يدُلُّ على دخلٍ وسوء عقيدة، وخبث طوية، وسيجزيه الله بما افترى وازدرى وحرَّف وشوَّه من الحقائق. وسيلقى ذلك في صحيفته يوم يرد إلى الله...»[٢].

ويلخص لنا الدكتور خادم بخش مطاعن أبي ريَّة في أبي هريرة في وصفه «بشيخ المضيرة (الطعام الدسم أو اللبن المجفف) و«لا في العير ولا في النفير»، وبـ «تفاهة أمره، وحقارة منبته»[٣]، كل هذا مبثوث في ثنايا بحثه في السنة **«أضواء على السنة المحمدية»**.

قال أبو ريَّة: «ولقد كانوا يتهكمون برواياته ويتندرون عليها لما تفنَّنَ فيها، وأكثر منها، فعن أبي رافع: أن رجلاً من قريش[٤] أتى أبا هريرة في حُلَّة وهو يتبختر فيها، فقال: يا أبا هريرة، إنك تكثر الحديث عن رسول الله

---

(١) قال الشيخ مصطفى السباعي: «أبو رية هذا قد فشل في دراسته الثانوية وتركها، وكان يقف على قارعة الطريق يتحرش بطلاب الأزهر، فيبدي لهم استهزاءه لانقطاعهم إلى تعلُّم الدين وشرائعه، ويرى ذلك دليلاً على سخف عقولهم... قال ذلك من كان يعرف أبو ريَّة من علماء مصر وأدبائها، والمطّلعين على حياة الرجل من قرب. «السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي» (ص٤٦٦).

(٢) «السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي» (ص٣٢٠). وانظر: «العصرانيون» (ص١٣٩) محمد حامد الناصر.

(٣) «القرآنيون» (ص١٧٥).

(٤) قال ابن حجر: «... وذكر السهيلي في «مبهمات القرآن» في سورة (والصافات) عن الطبري أن اسم الرجل المذكور «الميزان» وأنه من أعراب فارس. «فتح الباري» (١٠/ ٢٧٢).

فهل سمعته يقول في حلتي هذه شيئاً؟ فقال: سمعت أبا القاسم يقول: «**إن رجلاً ممن كان قبلكم بينما هو يتبختر في حلة إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها حتى تقوم الساعة**»[(١)]، فوالله ما أدري لعله كان من قومك أو من رهطك، (وأسند أبو ريّة هذا الخبر إلى ابن كثير)، ثم قال: ويبدو من سؤال هذا الرجل أنه لم يكن مستفهماً، وإنما كان متهكماً، إذ لم يقل له: إنك تحفظ أحاديث رسول الله، وإنما قال: تكثر الحديث عن رسول الله، وسياق الحكاية يدل كذلك على أنه كان يهزأ به ويسخر منه»[(٢)].

لا شك أنَّ أبا ريَّة متحامل على أبي هريرة في نقل هذا الخبر بهذه الصورة المشوهة التي تصف أبا هريرة بأنه كان سُخْرَة عند أهل زمانه، هذا ما نفهمه من عبارة أبي ريّة «ولقد كانوا!!؟ يتهكمون من روايته»، فلفظ «كانوا» من صيغ الجمع، فتدل على أن عدداً كبيراً كان يفعل ذلك، والخبر يكذب عبارة أبي ريَّة هذه،في روايته التي ساقها «أنَّ رجلاً من قريش. . .»، فكيف نجمع بين قول المفتري الطاعن «كانوا» وبين لفظ الرواية التي تقول بأنه شابٌ واحد؟ اللهمَّ إلا عند العلماء المحققين!!! أمثال أبي ريَّة، هذا أولاً.

وثانياً: إنَّ استهزاء رجل عابث بعالم من العلماء سواء كان صحابياً أو غير صحابي، أمر غير مستنكر، ولا يدل على نقص وعيب في المستهزأ به، إذ وقع هذا للأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهم أشرف الخلق على الله ـ تبارك وتعالى ـ، فمتى كان هذا دليلاً على احتقارهم وازدرائهم سبحانك هذا بهتان عظيم.

---

(١) رواه البخاري في اللباس، باب من جرَّ ثوبه من الخيلاء، برقم (٥٧٩٠)، «فتح» (١٠/ ٢٦٩)، ومسلم في اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي، مع إعجابه بثيابه، برقم (٢٠٨٨)، «نووي» (١٤/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩).

(٢) «أضواء على السنّة المحمدية» (ص١٦١) نقلاً عن «السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي» (ص٣٤١) مصطفى السباعي.

وثالثاً: قد جاء في بعض الروايات أن الله انتقم من الفتى السائل إكراماً لأبي هريرة، ودفاعاً عنه، قال الفتى اللاعب: «أهكذا كان يمشي ذلك الفتى الذي خُسِفَ به؟ ثم ضرب بيده فعثر عثرة كاد يتكسر منها، قال أبو هريرة: للمنخرين وللفم ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ ۝﴾»[1] [الحجر: ٩٥]، فتكون هذه كرامة لأبي هريرة من الله تعالى إذ انتقم له من هذا الفتى الماجن العابث[2].

وفي ختام الكلام عن مطاعن أبي رية في أبي هريرة ﷺ أسوق ما نقله الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم (المتوفى سنة ٤٠٥) عن إمام الأئمة ابن خزيمة (المتوفى سنة ٣١١هـ) في حق من طعن في رواية الإسلام، وكأنه يحكي عن أهل زماننا قال: «وإنما يتكلم في أبي هريرة لدفع أخباره من قد أعمى الله قلوبهم فلا يفهمون معاني الأخبار.

إمّا معطل جهمي يسمع أخباره التي يرونها خلاف مذهبهم الذي هو كفر فيشتمون أبا هريرة ويرمونه بما الله تعالى قد نزهه عنه تمويهاً على الرعاء والسفل أن أخباره لا تثبت بها الحجة.

وإما خارجي يرى السيف على أمة محمد ﷺ ولا يرى طاعة خليفة ولا إمام، إذا سمع أخبار أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ خلاف مذهبهم الذي هو ضلال لم يجد حيلة في دفع أخباره بحجة وبرهان؛ كان مفزعه الوقيعة في أبي هريرة.

---

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة، باب تعجيل عقوبة من بلغه عن النبي ﷺ حديث فلم يعظمه، ولم يوقره، برقم (٤٤٣) (١/ ١٢٣).

(٢) انظر: «السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي» (ص٣٤١ ـ ٣٤٢) بتصرف، وقد تصدى لافتراءات ومطاعن أبي ريَّة الشيخ عبد الرحمٰن المعلمي ﷺ في كتابه: «الأنوار الكاشفة لما في كتاب السنّة من الزلل والتضليل والمجازفة»، والشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة في كتابه: «ظلمات أبي ريّة أمام السنّة المحمدية»، والشيخ عبد المنعم صالح في كتابه «دفاع عن أبي هريرة» وغيرها من المؤلفات العامة في الذب عن السنّة النبوية ونقلتها.

أو قدري اعتزل الإسلام وأهله... إذا نظر إلى أخبار أبي هريرة التي قد رواها عن النبي ﷺ في إثبات القدر لَمْ يَجُدْ بَحُجَّةٍ يرى صحة مقالته التي هي كفر وشرك كانت حجته عند نفسه أن أخبار أبي هريرة لا يجوز الاحتجاج بها.

أو جاهل يتعاطى الفقه ويطلبه من غير مظانه، إذا سمع أخبار أبي هريرة، فيما يخالف مذهب من قد اجتبى مذهبه وأخباره تقليداً بلا حجة ولا برهان، تكلم في أبي هريرة ودفع أخباره التي تخالف مذهبه ويحتج بأخباره على مخالفيه إذا كانت أخباره موافقة لمذهبه...» إلخ[1].

ومن صورة الاستهزاء بالصحابة ﭫ: ما ذكره عبد الواحد الأنصاري في كتابه: «أضواء على خطوط محب الدين العريضة»، **قال: «إن أبا هريرة وسمرة بن جندب، وعروة بن الزبير، وعمرو بن العاص، وضّاعين مزورين وكذّابين»**.

ويقول عن سمرة بن جندب: كان هذا الصعلوك الوقح المتصلب في جهله وكفره ونفاقه، وتعطشه لإراقة الدماء من عملاء معاوية».

ويقول عن عمرو بن العاص: «إنه ولد سفاح وكافر ملحد»

ويقول عن أبي موسى الأشعري ﭬ: «إنه كذاب وراوية قرآن سجاح الذي أخذ يخلط بين قرآن سجاح بعد أن ذهب عقله ودينه في دومة الجندل»[2].

ويقول: «كان عروة بن الزبير من أكذب الرواة عن رسول الله وأكثر

---

(١) «المستدرك» (٣/ ٥٨٧).

(٢) يشير هذا المفتري الساخر إلى غزوة «دومة الجندل» التي وقعت في شهر ربيع الأول (وقيل: الآخر) سنة خمس من الهجرة. انظر: «السيرة النبوية» مجلد (٢/ ٢١٣) لابن هاشم، و«البداية والنهاية» (٤/ ٧٥ ـ ٧٦) لابن كثير.

الوضاعين للحديث»[١].

انظر إلى جرأة هذا الرافضي الخبيث في وصف أصحاب رسول الله ﷺ بالكذب والوضع في الحديث، والكفر والإلحاد والنفاق وغيرها من الألقاب التي توحي بخبث في النفوس، وحقد في الصدور، وانحراف في الاعتقاد، وهذا خلاف ما قرره القرآن في حق الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ وَأَصَّلَهُ علماء المسلمين في عقائدهم، **قال ابن حبان البستي:** «إنَّ الله ﷻ نزَّهَ أقدار أصحاب رسوله عن ثلب قادح، وصان أقدارهم عن وقيعة متنقص، وجعلهم كالنجوم يتقدى بهم. . . . ومن شهد التنزيل وصحب الرسول، فالثلب لهم غير حلال، والقدح فيهم ضد الإيمان، والتنقص لأحدهم نفس النفاق، لأنهم خير الناس قرناً بعد رسول الله ﷺ. . . .»[٢].

ومن صور الاستهزاء بالصحابة ﷻ: ما لقيه الصحابي الزاهد أبو ذر الغفاري رضي الله عنه من طعن واستهزاء محمد السعدني حيث قرن بينه وبين عادل إمام (الممثل المشهور الماجن) فقال: «عادل إمام مثل أبي ذر الغفاري. . يمشي وحده. . ويموت وحده. . ويبعث وحده يوم القيامة»[٣].

إن في هذه المقارنة بين إمام من أئمة الزهد في الصحابة، وبين ماجن من أهل الفن والتمثيل (الفسَّاق) تنقص بجانب أبي ذر رضي الله عنه وحطٌّ من قدره، وازدراء به، الذي ورد فيه حديث ابن مسعود رضي الله عنه في غزوة تبوك، قال: «**... فتلوم أبو ذر رضي الله عنه على بعيره فأبطأ عليه، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره فخرج يتبع رسول الله ﷺ ماشياً [وكان المسير إلى تبوك]**

---

(١) «الإمامة والرد على الرافضة» (ص٤٤) لأبي نعيم الأصبهاني، قسم الدراسة، تحقيق الدكتور علي بن محمد بن ناصر الفقيهي.

(٢) «الضعفاء والمتروكين من المحدثين» (. . .) محمد بن حبان. وانظر: «العصرانيون» (ص٦٧ ـ ٦٨) محمد الناصر.

(٣) مجلة «المصور» عدد (٣٥٠٧).

ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، ونظر ناظرٌ من المسلمين، فقال: يا رسول الله هذا رجل يمشي على الطريق فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر» فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده...»[١].

فما أجمل ما قاله عبد الله بن المبارك (المتوفى سنة ١٨١هـ)، «شعراً» في بيان موقفه ممن شتم وانتقص أصحاب محمد ﷺ ومعتقد أهل السنة والجماعة، قال:

إني امرؤٌ ليس في ديني لغامزه ... لين ولست على الإسلام طعَّانا
فلا أسب أبا بكر ولا عمراً ... ولن أسبَّ معاذ الله عثمانا
ولا ابن عمٍّ رسول الله أشتمهُ ... حتى أُلبَّس تحت الترب أكفانا
ولا الزبير حواريَّ الرسول ولا ... أُهدي لطلحة شتماً عزَّ أو هانا[٢]

زاد المقدسي في «النهي عن سب الأصحاب»[٣]:

لكن على ملة الإسلام ليس لنا ... اسم سواها بذاك الله سمَّانا
إن الجماعة حبل الله فاعتصموا ... فإنها العروة الوثقى لمن دانا

وقال نصر بن منصور النميري [توفي سنة ٥٨٨هـ]:

أُحبُ علياً والبتول وُوُلْدَها ... ولا أجحدُ الشيخين حقَّ التقدم
وأبرأُ ممن نال عثمان بالأذى ... كما أتبرا من ولاء ابن مُلجم
ويعجبني أهل الحديث لصدقهم ... مدى الدهر في أفعالهم والتكلُّمِ[٤]

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٢ ـ ٥٣)، وصححه ووافقه الذهبي، لكنه قال: فيه إرسال. وقال ابن كثير: «إسناد حسن...». «البداية والنهاية» (٥/٨). وانظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤) لابن القيم.

(٢) «السير» (٨/ ٤١٣ ـ ٤١٤) للذهبي.

(٣) (ص١٢٠ ـ ١٢١).

(٤) «السير» (٢١/ ٢١٤) للذهبي.

وفي طبقات الحنابلة[١] جاء البيت الأخير بهذا اللفظ:

ويعجبني أهل الحديث لصدقهم فلست إلى قومٍ سواهم بمنتمي

فمن علامة شقاء العبد، وحرمانه في الدنيا والآخرة، بُغض الصحابة، وانتقاصهم.

قال ابن تيمية: «ومن أعظم خبث القلوب: أن يكون قلب العبد غلٌّ لخيار المؤمنين، وسادات أولياء الله بعد النبيين، ولهذا لم يجعل الله تعالى في الفيء نصيباً لمن بعدهم، إلَّا الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠][٢].

ومن صور الاستهزاء والسخرية بالعلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ: ما وقع من محمد زاهد الكوثري [توفي ١٣٧١هـ] من طعنٍ في علماء السلف، وتنقصٍ لهم، «ورحم الله أبا حاتم الرازي إذ يقول: «علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر»[٣]، فمن مطاعن هذا الأشعري الصوفي، في الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في مواضع متفرقة من كتابه الموسوم بـ «تبديد الظلام المخيم من نونية ابن القيم». فقد رماه «بالكفر والزندقة، وأنه: ضال مضل، زائغ، مبتدع، وقح، كذاب، حشوي، بليد، غبي، جاهل، مهاتر، خارجي، تيس، حمار، ملعون، من إخوان اليهود والنصارى، منحلّ من الدين والعقل، لا يزيد عنه في الخروج على الإسلام والمسلمين لا الزنادقة، ولا الملاحدة، ولا الطاعنون في الشريعة، بلغ في الكفر مبلغاً لا يجوز السكوت عليه، ولا يحسن لمؤمن أن يغض عنه، ولا أن يتساهل فيه»[٤].

---

(١) «الذيل» (٣/ ٣٧٥) لابن رجب، و«النهي عن سبّ الأصحاب» (ص١١٨) للمقدسي.

(٢) «منهاج السنّة النبوية» (١/ ٢٢).

(٣) نقلاً عن «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة» (ص١٦) للعلامة بكر بن عبد الله أبو زيد.

(٤) المصدر السابق (ص١٧ ـ ١٨) ففيها أرقام صفحات الكلمات التي طعن الكوثري =

هذا حظ ابن القيم من هذا المفتري نثرها مبثوثة في كتابه «تبديد الظلام»، عامله الله بما يستحق، فقد أفسد على نفسه آخرته.

قال ابن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ: «من استخفَّ بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مُروءته»(١).

وقد سار التلميذ(٢) في طريق الأستاذ، مُقْتفياً أثره، ناسجاً على منواله في الطعن على العلماء، وحملة الدين والسنة، فهذا الإمام مالك بن أنس عالم أهل المدينة، وإمام دار الهجرة، الذي حمل كثير من أهل العلم حديث أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ: **«ليضربَنَّ الناسُ أكباد الإبل في طَلَبِ العِلْمِ، فلا يجدون عالماً أعلَمَ من عالِم المدينة»**(٣)، وقد وصفه الكوثري الصغير بالدَّعي.

قال الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد: «... وله مجلس مشهود في المدينة النبوية بشهادة بعض علمائها الجامعيين وقرائها المشهورين من أنه قال في **حقِّ الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ**: «ذاك دَعِيٌّ»(٤)، «هذا والله

= فيها الإمام ابن القيم، من «تبديد الظلام». انظر: «تحريف النصوص» (ص١٠٤) للعلامة بكر أبو زيد.

(١) «السير» (٨/٤٠٨) للذهبي.

(٢) أبو زاهد عبد الفتاح أبو غدة الكوثري. انظر: «تحريف النصوص» (ص١١٥) للشيخ بكر أبو زيد.

(٣) رواه أحمد (٢/٤٠٠)، برقم (٧٩٩٩)، والترمذي في العلم، باب ما جاء في عالم المدينة، برقم (٢٦٨٠) (٥/٤٦)، وقال عنه: «حديث حسن وهو حديث ابن عيينة». والحاكم (١/١٦٨) وصححه ووافقه الذهبي في «التلخيص»، فمن العلماء الذين حملوا الحديث ونزلوه على الإمام مالك. ابن عيينة كما في «السير» (٨/٥٦ ـ ٥٨).

(٤) «براءة أهل السنّة...» (ص٤٠). وانظر: «تحريف النصوص» (ص١١٦) ففيها تنقُّص الإمام البخاري صاحب «الصحيح».

صنيع من تجردت نفسه من الأدب والحياء من رب الأرض والسماء، وبئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد...»[(١)].

فموقف هؤلاء المبتدعة من الحديث وأهله يذكرنا بما قاله شيخ الإسلام فيمن يعيبون أهل الحديث، قال: «وحدثني: ثقة أنه تولى مدرسة مشهد الحسين بمصر بعض أئمة المتكلمين رجل يُسمَّى شمس الدين الأصبهاني الإبكي، فأعطوه، جزءاً من الربعة فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الٓمٓصٓ ۝١﴾ حتى قيل له: ألف لام ميم صاد. فتأمل هذه الحكومة العادلة! ليتبين لك أن الذين يعيبون أهل الحديث ويعدلون عن مذهبهم جهلة زنادقة منافقون بلا ريب، ولهذا لمَّا بلغ الإمام أحمد عن «ابن قتيلة» أنه ذكر عنده أهل الحديث بمكة، فقال: قوم سوء، فقام الإمام أحمد وهو ينفض ثوبه، ويقول: زنديق، زنديق، زنديق، ودخل بيته، فإنه عرف مغزاه.

وعيب المنافقين للعلماء بما جاء به الرسول قديم، من زمن المنافقين الذين كانوا على عهد النبي ﷺ...»[(٢)]

واسمع إلى الإمام أحمد بن حنبل، وهو يصنف أمثال هؤلاء من أهل البدع، الخارجين عن الجماعة، فيقول: «هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بعروقها، المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها: فهو مبتدع خارج من الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق»[(٣)].

---

(١) المصدر نفسه (ص٣٩ ـ ٤٠).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٩٦ ـ ٩٧).
(٣) «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٤) للقاضي أبي يعلى.

ومن صور الاستهزاء بالعلماء: ما ذكره الدكتور نعمان أحمد عن عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس، قال: «عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس يذكران في طبقة المغنين، والسبب نشأتهما في المدينة المنورة حيث يتعانق الفن والدين عناقاً حاراً»[(١)].

لقد تأثر هذا الدكتور!؟ بكتاب الأغاني «لأبي الفرج الأصفهاني، فهو صاحب القدح المعلَّى في الدس والتشويه لتاريخ الأمة المسلمة، والطعن في العلماء والأمراء، وما ذاك إلا لثقافته الشعوبية، التي استقى منها هذا المفتري؛ بجعله مجتمع المدينة النبوية يَعُجُّ بالغناء حتى تأثر بذلك العلماء والأمراء، ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤]، من ظهور الدين وأهله، وغلبة الحق على الباطل، وتمكين الله لعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ومن الصور في الاستهزاء بالعلماء ـ أيضاً ـ: ما تفوه به الدكتور أسامة عبد الرحمٰن في شعره، قال:

وذبحت طارق تحت باب أمية ... وصلبت عكرمة على الأخشاب
وطعنت مسلم تحت ركن صحيحه ... وشنقت كل مراجع الفارابي
أغرقت تحت الدجلتين مراكبي ... ورميت كل قصائد السيّاب[(٢)]

ففي ذبح طارق، وصلب عكرمة على الأخشاب، وطعن الإمام مسلم تحت ركن صحيحه، وغيرها استخفاف بالعلماء الذين يحملون هذا الدين، ويبلغونه للناس، ويلاحظ أن الشاعر يخلط بين علماء السنة، وغيرهم من علماء الكلام والفلسفة كالفارابي، وهذا يَدُلّ دلالة واضحة، أن الشاعر ثائرٌ على كل قديمٍ من حقٍّ أو باطل، كما هو مبدأ أساطين التجديد في الأدب

---

(١) مجلة «كلِّ الناس» عدد (٨٤).
(٢) مجلة «اليمامة» عدد (٦٩١). وانظر: «رسالة الإصلاح» (ص٦٣) للجبرين.

المعاصر، دعاة التحديث، ونبذ كل قديم، فالله حسيبهم ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ومن صور الاستهزاء بالعلم ومؤسساته: (ما أطلقه محمد عبده على الأزهر أمام بعض خواصه، ثلاثة ألفاظ: «الإصطبل، المارستان، المخروب «لفظ محلي مصري»، وقد أجاب محمد عبده الشيخ محمد البحيري على جملة له: أنت قد تعلمت في الأزهر، بقوله: إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكر فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وسخة الأزهر، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة»[1].

هذه نظرة محمد عبده عن الأزهر وعلمائه، وما فيه من علوم شرعية، وخاصة ما يتعلق بالقرآن الكريم وتفسيره، قام محمد عبده، بفكرة ما يسمى بإصلاح الأزهر!! ففي عهد عباس الثاني الخديوي سنة (١٨٩٢م) اتصل به وكلَّمه في شأن الأزهر وتطويره (تغريبه) فصدر من عباس الثاني مرسوماً يقضي بإنشاء «مجلس الإدارة» ينتخب أعضاؤه من أكابر علمائه عدا محمد عبده، وعبد الكريم سلمان فقد عينتهما الحكومة، ولا رأي لشيخ الأزهر بهما، ولا للمجلس في انتخابهما، ولا في استبدال غيرهما بهما[2].

هكذا يدبر دعاة التغريب[3] من العلمانيين والماركسيين، وساعدهم في ذلك المغفلون من المسلمين.

---

(١) «الفكر الإسلامي المعاصر» (ص٢٧) غازي التوبة.

(٢) انظر: المصدر السابق (ص٢٧) غازي التوبة.

(٣) يقصد به: «طبع العرب والمسلمين والشرقيين عامة بطابع الحضارة الغربية، والثقافة الغربية، ممَّا يساعد على إيجاد روابط من الرد والتفاهم بين الحمار وراكبه... وهو ما يسميه سماسرة ذلك الاستعباد وصنَّاعه (تطويراً) و(بناء المجتمع من جديد)... إلخ». انظر: «حصوننا مهددة من داخلها» (ص١١٥) لمحمد محمد حسين، و«تجديد الفكر الإسلامي» (ص٥٧)، و«جذور الانحراف ـ فصل التجديد والتبديد» (ص٧٩ ـ ٨٩) كلاهما لجمال السلطان.

هذه صورة مقيتة لولا الحاجة الماسة ما ذكرتها في ثنايا هذا البحث، وأردف الكلام بعدها في الباب التالي عن حكم الاستهزاء وأقسام المستهزئين.

الباب الثالث

حكم الاستهزاء وأقسام المستهزئين

وفيه فصلان:

الفصل الأول: حكم الاستهزاء.

الفصل الثاني: أقسام المستهزئين.




الفصل الأول

حكم الاستهزاء

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: حكم الاستهزاء بالله تعالى ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ودين الإسلام.

المبحث الثاني: حكم الاستهزاء بالصحابة ﷺ وسائر المؤمنين.




المبحث الأول

حكم الاستهزاء بالله تعالى ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ودين الإسلام

وفيه تمهيد وستة مطالب:

التمهيد: مقدمات عامة.

المطلب الأول: الأدلة من القرآن الكريم.

المطلب الثاني: الأدلة من السنة النبوية.

المطلب الثالث: نقل إجماع السلف.

المطلب الرابع: نصوص عن الفقهاء والعلماء.

المطلب الخامس: في الألفاظ المتعلقة بالاستهزاء بالدين قديماً وحديثاً.

المطلب السادس: شبهات والرد عليها.

* * * * *

❑ التمهيد ❑

مقدمات عامة

قبل الدخول في حكم الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ ودينه الذي شرعه لعباده ورسله عليهم الصلاة والسلام، وتفصيلات أحكام المستهزئين، لا بد من تأصيل لهذا الأمر بتقديم عدة مقدمات بين يدي الموضوع.

○ المقدمة الأولى:

ما ذكره الفقهاء ـ رحمهم الله تعالى ـ من أن الكفر أنواع: فمنه ما هو اعتقاد أو نطق أو شك أو فعل أو نية[(١)].

قال في الروض المربع: في أول باب حكم المرتد: «... الذي يكفر بعد إسلامه طوعاً ولو مميزاً أو هازلاً بنطق أو اعتقاد، أو شك أو فعل»[(٢)]، أما النية واحتمال الكفر بها في الاستهزاء فبعيد، قال الإمام البيجوري[(٣)]: «... لكن لا يظهر الاستهزاء في النية وإنما يظهر في القول والفعل...»[(٤)] وأما الشك في الخالق أو الرسل أو الدين فهو كفر وردة والعياذ بالله تعالى، ولا يتصور الاستهزاء بالدين في النية. أما الفعل والقول فهو متصور واضح.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم رحمك الله أن دين الله يكون على القلب بالاعتقاد وبالحب والبغض، ويكون على اللسان بالنطق، وترك النطق بالكفر، ويكون على الجوارح بفعل أركان الإسلام، وترك الأفعال التي تكفر، فإذا اختل واحد من هذه الثلاث كفر وارتد»[(٥)].

وقال في موضع آخر: «فإذا تحققتموه ـ يعني الكفر ـ وأنه يكون بكلمة ولو لم تعتقد، ويكون بفعل ولو لم يتكلم، ويكون في القلب من الحب والبغض ولو لم يتكلم ولم يعمل تبين لك الأمر...»[(٦)]. يقصد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المسلم قد يكفر

(١) انظر: «دليل الطالب» (ص٢٦٠) لمرعي الحنبلي، و«إرشاد المسترشدين» (ص٤٧٣) للشيخ عبد الله الخليفي، و«منظومة الذهب المنجلي» (٢/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) لشحادة، و«كفاية الأخيار» (٢/ ٣٧٧)، و«الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي» (٨/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

(٢) «الروض المربع مع حاشية ابن قاسم» (٧/ ٣٩٩). وانظر: «الدرر السنية» (٨/ ٨٨، ١٠٨) من رسائل الإمام محمد بن عبد الوهاب.

(٣) لم أقف على ترجمته.

(٤) «حاشية البيجوري على ابن القاسم» (٢/ ٢٦٤).

(٥) «الدرر السنية» (٨/ ٨٧) جمع عبد الرحمٰن بن قاسم.

(٦) المصدر السابق (٨/ ١٠١).

بكلمة يقولها، أو فعل يعمله، أو اعتقاد ينطوي عليه القلب ـ عياذاً بالله تعالى.

○ **المقدمة الثانية:**

أن ما يلزم به الكفر من جانب الشرع أنواع: فنوع يتعلق بالله ﷻ، ونوع يتعلق بالقرآن وسائر الكتب المنزلة، ونوع يتعلق بنبينا محمد ﷺ وسائر الأنبياء والملائكة عليهم السلام والعلماء، ونوع يتعلق بالأحكام[(١)]. هذا ما أفاده إمام الدعوة ـ عليه رحمة الله ـ فيما نقله عن كتاب «تبين المحارم المذكورة في القرآن»[(٢)] تحت باب الكفر، ومقصود العلماء بذلك أن من أتى بفعل أو قول طائعاً مختاراً ليطعن به في الله سبحانه أو أنبيائه ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ أو الملائكة أو شيء من الدين فقد ارتكب ما يوجب الكفر والردة عن دين الإسلام.

○ **المقدمة الثالثة:**

أن الإيمان أصل له شعب متعددة كل شعبة منها تسمى إيماناً، وكذلك الكفر ذو أصل وشعب متعددة، كل شعبة منها تسمى كفراً.

لكن لا يلزم من انتفاء بعض هذه الشعب انتفاء أصل الإيمان كما هو قول الوعيدية من خوارج ومعتزلة، كما لا يلزم من وجود بعض شعب الكفر في المسلم وجود أصل الكفر وانتفاء ما يضاده. فقد يكون الإنسان مؤمناً وعنده بعض شعب الكفر، ولا يكون بها كافراً كما أنه قد يكون كافراً وعنده بعض شعب الإيمان ولا يكون بها مؤمناً.

إلا أن هذه الشعب تتفاوت فمنها ما هو ناقض لأصل الإيمان محقق لأصل الكفر كالاستهزاء، ومنها ما ليس كذلك.

---

(١) «الدرر السنية» (١/ ٢١٦ ـ ٢١٧، ٨/ ١١٩). وانظر: «مجمع الأنهر» (١/ ٦٩٠ ـ ٦٩٣)، و«الفتاوى التاتارخانية» (٥/ ٤٦١ ـ ٤٨٩).

(٢) لأحد أئمة الحنفية، كما ورد في «الدرر السنية»، ولم أقف عليه رغم طول البحث والسؤال.

وشعب الإيمان قسمان: قولية وفعلية، وشعب الكفر نوعان: قولية وفعلية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ذكر هذا الأصل: «ومن شعب الإيمان القولية: شعبة يوجب زوالها زوال الإيمان، فكذلك من شعبه الفعلية ما يوجب زوال الإيمان.

وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية، فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختياراً، وهي شعبة من شعب الكفر، فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، فهذا أصل...»[(١)].

○ **المقدمة الرابعة:**

أن أهل السنة والجماعة يفرقون في مسألة التكفير بين العمل أو القول وبين العامل، فهم لا يكفرون المعين إلا بعد تحقق الشروط وانتفاء الموانع.

قال ابن تيمية ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «وحقيقة الأمر في ذلك أن القول قد يكون كفراً، فيطلق القول بتكفير صاحبه، ويقال: من قال كذا فهو كافر. لكن الشخص المعين الذي قاله لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها..»[(٢)].

ثم قال بعد هذا: «فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائناً من كان سواء في المسائل النظرية أو العملية، هذا الذي عليه أصحاب رسول الله ﷺ وجماهير أئمة الإسلام... لكن المقصود أن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل بين النوع والمعين»[(٣)].

---

(١) كتاب «الصلاة وحكم تاركها» (ص٥٣ ـ ٥٤) لابن القيم.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٤٥). وانظر: «محاسن التأويل» (٢/ ٣٤١) للقاسمي، و«فتاوى ورسائل» (١/ ١٧٥) لسماحة مفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم.

(٣) المصدر نفسه (٢٣/ ٣٤٥ ـ ٣٤٨). وانظر: «محاسن التأويل» (٢/ ٣٤٣) للقاسمي.

وهذا الذي عليه أئمة الإسلام المحققين في التفريق بين المعين وما ارتكبه من موجب الكفر وغير المعين مبني على أن ثبوت الكفر في حقه، كثبوت الوعيد في الآخرة وذلك له شروط وموانع[١].

○ **المقدمة الخامسة:**

إن قضية التكفير من المسائل الشرعية التي لا بُدَّ من الاستناد فيها إلى نص واضح وبرهان قاطع، قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن رَحِمَهُ اللهُ: «وأما إن كان المكفر لأحد من هذه الأمة يستند في تكفيره له إلى نص وبرهان من كتاب الله وسنة نبيه، وقد رأى كفراً بواحاً، كالشرك بالله، وعبادة ما سواه، والاستهزاء به تعالى، أو بآياته، أو رسله، أو تكذيبهم، أو كراهية ما أنزل الله من الهدى ودين الحق، أو جحود الحق أو جَحْدِ صفات الله تعالى ونعوت جلاله ونحو ذلك. فالمكفر بهذا وأمثاله مصيب مأجور، مطيع لله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]. والتكفير بترك هذه الأصول، وعدم الإيمان بها من أعظم دعائم الدين، يعرفه كل من كانت له نهمة في معرفة دين الإسلام،...»[٢].

إذا تقرر هذا الذي ذكرته في هذه المقدمات الخمس، بقي أن نعلم أن من استهزأ بالله ﷻ أو برسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أو الملائكة، أو شيء من دين الإسلام طائعاً مختاراً فقد كفر بدين الإسلام، وارتد عنه، ووجب عليه القتل، كما سيأتي من الأدلة من الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة، وكلام الفقهاء.

---

(١) انظر: «منهاج السنة» (٥/ ٢٤٠).

(٢) «الإتحاف في الرد على الصحاف» (ص٣٠ ـ ٣١).

ولأجل الاستفادة من أدلة القرآن العزيز والسنة النبوية الصحيحة لا بد من معرفة منهج الراسخين في العلم، وكيف يتعاملون مع النصوص الشرعية، فيهتدون بذلك إلى الصراط المستقيم، ومسلك أصحاب رسوله الكريم، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان. **يقول الإمام أبو إسحاق الشاطبي** ـ عليه رحمة الله ـ: «فاعلم أن أخذ الأدلة على الأحكام يقع في الوجود على وجهين:

أحدهما[1]: أن يؤخذ الدليل مأخذ الافتقار، واقتباس ما تضمنه من الحكم، ليعرض عليه النازلة المفروضة، لتقع في الوجود على وفاق ما أعطى الدليل من الحكم» إلى أن قال: «والراسخون في العلم ليس لهم هوى يقدمونه على أحكام الأدلة، فلذلك يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ويقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] فيتبرؤون إلى الله بما ارتكبه أولئك الزائغون، فلذلك صار أهل الوجه الأول محكمين للدليل على أهوائهم، وهو أصل الشريعة، لأنه إنما جاءت لتخرج المكلف عن هواه، حتى يكون عبداً لله»[2].

هذا جانب من منهج الراسخين في العلم، والجانب الآخر: ما أشار إليه الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن آل الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: «من الأسباب المانعة عن فهم كتاب الله أنهم ظنوا أن ما حكى الله عن

---

(١) أمّا الثاني: «أن يؤخذ مأخذ الاستظهار على صحة غرضه في النازلة العارضة بأن يظهر بادئ الرأي موافقة ذلك الغرض للدليل، من غير تحر لقصد الشارع، بل المقصود منه تنزيل الدليل على وفق غرضه، وهذا الوجه هو شأن اقتباس الزائغين الأحكام من الأدلة... فليس مقصودهم الاقتباس فيه منها وإنما مرادهم الفتنة بها بهواهم إذ هو السابق المعتبر وأخذ الأدلة فيه بالتبع، لتكون لهم حجة في زيغهم». فهؤلاء «... يحكمون أهواءهم على الأدلة حتى تكون الأدلة في أخذهم لها تبعاً». اهـ. «الموافقات» (٣/ ٧٧ ـ ٧٨).

(٢) «الموافقات» (٣/ ٧٧ ـ ٧٨).

المشركين، وما حكم عليهم ووصفهم به، خاص بقوم مضوا، وأناس سلفوا وانقرضوا، ولم يعقبوا وارثاً، وربما سمع بعضهم قول من يقول من المفسرين: هذه نزلت في عباد الأصنام، هذه في النصارى، هذه في الصابئة فيظن الغمر أن ذلك مختص بهم، وأن الحكم لا يتعداهم، وهذا من أكبر الأسباب التي تحول بين العبد وبين فهم القرآن والسنة»(١).

إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند جمهور العلماء(٢).

وفيما يلي سوف أعرض الأدلة من الكتاب والسنة على كفر السابِّ والمستهزئ وردته عن دين الإسلام.

❑ المطلب الأول ❑

الأدلة من الكتاب على كفر الساب وردَّته

الدليل الأول:

قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ..﴾ [التوبة: ٦٤ ـ ٦٥].

وهذا نص في أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفرٌ، وقد دلت هذه الآية على أن كل من تنقص رسول الله ﷺ جاداً أو هازلاً فقد كفر(٣).

وقد ورد في سبب نزولها روايات في غزوة تبوك وقول بعض الذين كانوا معه ﷺ:

---

(١) «تحفة الطالب والجليس...» (ص٥٩ ـ ٦٠).

(٢) انظر: «الصارم المسلول» (ص٣٩) لابن تيمية.

(٣) انظر: «الصارم المسلول» (ص٣٧ ـ ٣٨) لابن تيمية، و«الدرر السنية» (٨/ ١٠٢ ـ ١٠٣).

ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء[(١)].

وقولهم عن رسول الله ﷺ: «هذا يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بني الأصفر!»، أو قولهم: «أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً»[(٢)].

قال أبو بكر بن العربي: «لا يخلوا أن يكون ما قالوه من ذلك جداً أو هزلاً، وهو كيفما كان كفر، فإن الهزل بالكفر كفر، لا خلاف فيه بين الأمة، فإن التحقيق أخو الحق والعلم، والهزل أخو الباطل والجهل»[(٣)].

فهؤلاء لما تنقصوا النبي ﷺ حيث عابوه والعلماء من أصحابه واستهانوا بخبره أخبر الله أنهم كفروا بذلك، وإن قالوه استهزاءً فكيف بما هو أغلظ من ذلك؟ وإنما لم يقم الحد عليهم لكون جهاد المنافقين لم يكن قد أُمِرَ به إذ ذاك، بل كان مأموراً بأن يدع أذاهم، ولأنه كان له أن يعفو عمن تنقصه وآذاه»[(٤)].

وهنا قد يقول قائل: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم، ـ وهذا شأن المنافقين ـ وهذا القول بعيد ولا يصح، «لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر فلا يقال: «قد كفرتم بعد إيمانكم»

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» (١٤/ ٣٣٣ ـ ٣٣٥)، برقم (١٦٩١١ ـ ١٦٩١٢، ١٦٩١٦ ـ شاكر)، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مردويه، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦) وهو صحيح الإسناد، قاله محمود شاكر في تعليقه على الطبري.

(٢) انظر: «أسباب نزول القرآن» (ص٢٥٥ ـ ٢٥٦) للواحدي، و«أسباب النزول» (ص١٩٤ ـ ١٩٥) للسيوطي.

(٣) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٧٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ١٢٥) للقرطبي.

(٤) «الصارم المسلول» (ص٣٩) لابن تيمية.

فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم وهم في خواصهم، ما زالوا هكذا، بل لما نافقوا وحذروا أن تنزل سورة تبين ما في قلوبهم من النفاق، وتكلموا بالاستهزاء، صاروا كافرين بعد إيمانهم، ولا يدل اللفظ على أنهم منافقون»[1].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: بعد أن ذكر كلام ابن تيمية هذا: «فدل اللفظ على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفراً، بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر، فتبين أن الاستهزاء بآيات الله ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف، ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم. ولكن لم يظنوه كفراً وكان كفراً كفروا به، فإنهم لم يعتقدوا جوازه»[2].

الدليل الثاني:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧ ـ ٥٨].

هذه الآية تضمنت وعيداً شديداً لمن آذى الله سبحانه ورسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، بأي نوع من أنواع الأذى، ومنه الاستهزاء والسخرية التي هي من أعظم الإيذاء، فكان الوعيد عليه لعنة في الدنيا والآخرة، وعذاباً مهيناً، ولم يجئ العذاب المهين في القرآن الكريم إلا في حق الكفار[3].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٧٢) لابن تيمية. وانظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٦١٨)، و«فتح المجيد» (٢/ ٧٢٢).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (ص٦١٨ ـ ٦١٩). وانظر: «فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

(٣) انظر: «الصارم المسلول» (ص٥٧) فقد ذكر الأدلة على ورود العذاب المهين في =

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ميز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسول، وأذى المؤمنين فجعل الأول كفراً والثاني كبيرة»(١). حيث «أطلق إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه... ومنه»(٢).

الدليل الثالث:

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

هذا قسم من الله تعالى على أن المسلم لا يوصف بوصف الإيمان إلا عند حصول شرائط ثلاث:

أولها: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يكون مؤمناً.

الشرط الثاني: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، وهذا شرط لإيمان الباطن، فإن العبد قد يحكّم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الظاهر، ولكن مع عدم رضاً في الباطن، فبين أنه لا بد من حصول الرضا به في القلب.

الشرط الثالث: قوله تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، وذلك أن المسلم قد يعرف بقلبه كون حكم الله تعالى ورسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ حقاً وصدقاً ثم يتمرد عن قبوله على سبيل العناد أو يتوقف في ذلك القبول، فبين

= حق الكفار خاصة، بينما العذاب العظيم عام للكفار وغيرهم، و(ص٤٠٣ ـ ٤٠٤) من المصدر نفسه.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/١٥٤). وانظر: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (٢/٩٤٥) للقاضي عياض، و«الصارم المسلول» (ص٤٦) لابن تيمية.

(٢) المصدر نفسه (ص١٤ ـ ١٥٣).

تعالى أنه لا بد في الإيمان من حصول ذلك اليقين في القلب ولا بد أيضاً من التسليم معه في الظاهر.

فقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، المراد به الانقياد في الباطن.

وقوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، المراد به الانقياد في الظاهر(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «... فإذا كان النفاق يثبت، ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلى غيره، مع أن هذا ترك محض، وقد يكون سببه قوة الشهوة، فكيف بالنقص والسب ونحوه؟»(٢).

كالاستهزاء بالله ورسله ودينه فهو من باب أولى يفضي إلى النفاق الاعتقادي والردة عن الإسلام.

الدليل الرابع:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢].

وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا...﴾ [النور: ٦٣].

فوجه الدلالة من الآية: «أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول يخاف منه أن يكفر صاحبه وهو لا يشعر ويحبط عمله بذلك، وأنه مظنة لذلك وسبب فيه، فمن المعلوم أن ذلك لما ينبغي له من التعزير والتوقير والتشريف والتعظيم والإكرام والإجلال، ولما أن رفع الصوت قد

(١) انظر: «محاسن التأويل» (٢/٣٧٦) للقاسمي.
(٢) «الصارم المسلول» (ص٤٣). وانظر: «الشفا» (٢/٩٤٥ ـ ٩٤٦) للقاضي عياض.

يشتمل على أذى له، واستخفاف به، وإن لم يقصد الرافع ذلك، فإن كان الأذى والاستخفاف الذي يحصل في سوء الأدب من غيره قصد صاحبه يكون كفراً؛ فالأذى والاستخفاف المقصود المتعمد كفر بطريق الأولى»(١).

إذن نخلص إلى أن رفع الصوت قد يكون محبطاً للأعمال؛ لما فيه من الأذى للنبي ﷺ والاستخفاف به، فهو كفر.

والاستهزاء محبط للأعمال من باب أولى لما فيه من الأذى للنبي ﷺ فهو كفر. ومن المقرر في أصول أهل السنة والجماعة، أنه لا يحبط جميع الأعمال إلا ما هو كفر وردة عن دين الإسلام، نعم قد يبطل بعض الأعمال بوجود ما يفسدها، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. ولهذا لم يحبط الله الأعمال جميعها في كتابه إلا بالكفر(٢). والاستهزاء بالله تعالى ورسله ودينه، مناقض للإيمان بالكلية، فهو محبط للأعمال.

الدليل الخامس:

قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

والفتنة المقصود بها في الآية: الكفر والشرك واللواذ(٣)، قال ﷻ: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٦٠) لابن تيمية. وانظر: «تلخيص الاستغاثة» (ص٣٤٣ ـ ٣٤٤) له.

(٢) انظر: «الصارم المسلول» (ص٥٩ ـ ٦٠) لابن تيمية.

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٦١) للطبري، و«الصارم المسلول» (ص٦٠ ـ ٦١)، واللواذ: هو أن يلوذ القوم بعضهم ببعض، يستتر هذا بهذا، وهذا بهذا، وهو المذكور في صدر الآية: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، أفاده ابن جرير.

قال ابن تيمية ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «فإذا كان المخالف عن أمره قد حذر من الكفر والشرك أو من العذاب الأليم دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر أو العذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما قد يقترن به من الاستخفاف بحق الآمر كما فعل إبليس فكيف لما هو أغلظ من ذلك كالسَّب والانتقاص ونحوه؟»(١).

فالاستهزاء بالله ودينه ورسله مجمع على أنه كفر، وردة عن دين الإسلام ويكفي فيه آية التوبة التي نزلت في غزوة تبوك، وقد جعلتها في أول الأدلة، ولكن كما قال شيخ الإسلام: «إذا تعددت الدلالات تعاضدت على غلظ كفر الساب وعظم عقوبته»(٢).

الدليل السادس:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤].

فوجه الدلالة من الآية: أن المستهزئ بالله سبحانه وبرسله ودينه من المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض فساداً، سواء كان مسلماً أو معاهداً، ومن كان بهذه المثابة فحكمه القتل حكم من حارب الله ورسوله(٣).

ثم إن المستهزئ الطاعن في الدين، والمحارب لله ورسوله، والساعي في الأرض فساداً عدوٌ لله ورسوله، ومن عادى الله ورسوله، فقد وقع في المحاربة، روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٦١).
(٢) المصدر السابق (ص٦١).
(٣) انظر: «الصارم المسلول» (ص٣٨٠) لابن تيمية.

رسول الله ﷺ: «**إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب...**»[١].

فإذا كان من عادى واحداً من الأولياء قد بارز الله بالمحاربة فكيف من عادى صفوة الله من أوليائه؟! فإنه يكون أشد مبارزة له بالمحاربة، وإذا كان محارباً لله لأجل عداوته للرسول، والطعن في الدين فهو محارب للرسول بطريق الأولى، فثبت أن الساب للرسول محارب لله ورسوله، وكذلك المستهزئ بالدين، والساخر برب العالمين[٢].

ومن وقع منه ذلك وقامت عليه الحجة الرسالية من حيث الثبوت والدلالة، فقد ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام، وارتد عن الدين بالكلية لأن فعله هذا مناقض للإيمان مناقضة كلية.

❑ المطلب الثاني ❑

الأدلة من السنة النبوية[٣]

الدليل الأول:

عن ابن عباس، أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، قال: فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فأخذ المِغْوَل[٤] فوضعه في بطنها، واتكأ عليها

---

(١) كتاب الرقاق، باب التواضع، برقم (٦٥٠٢)، «فتح» (١١/٣٤٨).

(٢) انظر: «الصارم المسلول» (ص٣٨٨) لابن تيمية.

(٣) انظر: دلائل الأحكام (٤/٧٨ ـ ٧٩) لابن شداد، و«شرح الزركشي» (٦/٢٣٢ ـ ٢٣٣)، و«بلوغ المرام» (ص٢٥٤ ـ ٢٥٥) لابن حجر، و«معونة أولي النهى» (٨/٥٤١ ـ ٥٤٣) لابن النجار، و«السيل الجرار» (٤/٣٧٢) للشوكاني، و«الروضة الندية» (٢/٦٢٢ ـ ٦٣٠) لصديق حسن خان، و«توضيح الأحكام» (٥/٢٦٣) للبسام، و«المنتخب من أدلة الشريعة» (ص٣٠٧ ـ ٣٠٨) أحمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم.

(٤) قال الخطابي: المغول: شبه المشمل، ونصله دقيق ماض، والمشمل: السيف القصير، سُمِّي بذلك لأنه يشتمل عليه الرجل، أي يغطيه بثوبه. انظر: «معالم =

فقتلها، فوقع بين رجليها طفل، فلطخت ما هناك بالدم، **فلما أصبح ذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ فجمع الناس فقال: «أنشد الله رجلاً فعل ما فعل لي عليه حق إلا قام»**.

فقام الأعمى يتخطى الناس وهو يتزلزل حتى قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أنا صاحبها، كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، ولي منها ابنَان مثل اللؤلؤتين، وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة جعلت تَشْتُمُكَ وتقع فيك فأخذت المغول فوضعته في بطنها، واتكأت عليها حتى قتلتها، **فقال النبي ﷺ: «ألا اشهدوا أن دمها هدر»**[1].

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ في معالم السنن: «.. فيه بيان أن ساب النبي ﷺ مهدر الدم، وذلك أن السب منها لرسول الله ﷺ ارتداد عن الدين، ولا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله»[2].

الدليل الثاني:

حديث علي رضي الله عنه: **«أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت، فأبطل رسول الله ﷺ دمها»**[3].

= السنن» المطبوع بهامش «سنن أبي داود» (٤/ ٥٢٨)، و«الصارم المسلول» (ص٧٢ ـ ٧٣).

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الحدود، باب الحكم فيمن سب النبي ﷺ، برقم (٤٣٦١) (٤/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩)، والنسائي، كتاب المحاربة، باب الحكم فيمن سب النبي ﷺ، برقم (٣٥٣٣)، والحاكم (٤/ ٣٩٤) وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وذكره الحافظ في «بلوغ المرام» (ص٢٥٥)، وقال: «رواه أبو داود ورواته ثقات»، وصححه العلامة الألباني. انظر: «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٨٢٤)، و«صحيح سنن النسائي» (٣/ ٨٥٣ ـ ٨٥٤).

(٢) «معالم السنن» المطبوع بهامش «سنن أبي داود» (٤/ ٥٢٨). وانظر: «دلائل الأحكام» (٤/ ٧٨) لابن شداد، و«عون المعبود» (١٢/ ١٦ ـ ١٧).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الحدود، باب الحكم فيمن سب الرسول ﷺ، برقم (٤٣٦٢) (٤/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٢٠٠)، وجوّد إسناده =

«وهذا الحديث نص في جواز قتلها لأجل شتم النبي ﷺ، ودليل على قتل الرجل الذمي وقتل المسلم والمسلمة إذا سبًّا بطريق الأولى، وهذه المرأة كانت موادعة مهادنة، لأن النبي ﷺ لما قدم المدينة وادع جميع اليهود الذين كانوا بها موادعة مطلقة، ولم يضرب عليهم جزية وهذا مشهورٌ[1] عند أهل العلم بمنزلة التواتر بينهم...»[2].

وهذا الحديث والذي قبله يحتمل أن يكونا حديثاً واحداً، ويكون قد خنقها وبعج بطنها بالمِغْوَل، أو يكون كيفية القتل غير محفوظٍ في إحدى الروايتين[3].

الدليل الثالث:

قِصَّةُ قتل كعب بن الأشرف اليهودي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله...»** الحديث[4].

وجه الدلالة: من القصة أن كعب بن الأشرف كان يهجو رسول الله ﷺ والمؤمنين من أصحابه، ويتشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم، فأمر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ به فقتله الصحابي الجليل محمد بن مسلمة[5] رضي الله عنه

= شيخ الإسلام في «الصارم المسلول» (٦٥ ـ ٦٦). قال العلامة الألباني: «أخرجه أبو داود، وعنه البيهقي، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، ويشهد له حديث ابن عباس...». «إرواء الغليل» (٥/ ٩١).

(١) في الأصل: «مشروع» وهو خطأ يأباه السياق.

(٢) «الصارم المسلول» (ص٦٦ ـ ٧٧).

(٣) انظر: المصدر نفسه (ص٧٣).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الكذب في الحرب، برقم (٣٠٣١)، «فتح» (٦/ ١٨٤)، وكتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، برقم (٤٠٣٧)، «فتح» (٧/ ٣٩٠ ـ ٣٩١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، برقم (١٨٠١)، «نووي» (١٢/ ٤٠٣ ـ ٤٠٥).

(٥) أبو عبد الرحمٰن أو أبو عبد الله محمد بن مسلمة بن خالد بن عدي بن مجدعة بن =

بينما كعب بن الأشرف كان يزاول عدة مكائد للنبي ﷺ وأصحابه[(١)]:

منها: أنه رثى قتلى قريش.

ومنها: حَضُّهم على محاربة النبي ﷺ ووطأهم على ذلك، وأعانهم على محاربته.

ومنها: أنه أخبرهم عندما زارهم في مكة بأن دينهم خير من دينه، فلم يعلل النبي قتله بشيء من ذلك سوى أذيته لله ورسوله، واستعلانه بعداوة الرسول ﷺ وأصحابه، **قال ابن تيمية:** «فإنه لما ذهب إلى مكة ورجع إلى المدينة لم يندب النبي ﷺ المسلمين إلى قتله، فلما بلغه عنه الهجاء ندبهم إلى قتله، والحكم الحادث يضاف إلى السبب الحادث، فعلم أن ذلك الهجاء والأذى الذي كان بعد قفوله من مكة موجب لنقض عهده ولقتله»[(٢)]، **وأيضاً:** قد دل هذا الحديث على أن أذى الله ورسوله علة للانتداب إلى قتل كل أحد، فيكون ذلك علة أخرى غير مجرد الكفر والردة، فإن ذكر الوصف بعد الحكم بحرف الفاء دليل على أنه علة، والأذى لله ورسوله يوجب القتل، ويوجب نقض العهد، ويوجب الردة»[(٣)]، وقد نص ابن المنذر في «الإشراف» على القصة واستدل بهذا الحديث على وجوب قتل الساب[(٤)].

= حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن عوف الأنصاري الأوسي، شهد المشاهد كلها سوى تبوك بأمر النبي ﷺ واعتزل الفتنة، وتوفي بالمدينة سنة ثلاث وأربعين، وقيل: ست وأربعين، وقيل: سبع وأربعين. انظر: «الاستيعاب» (٣/ ٤٣٣) للقرطبي، و«أسد الغابة» (٥/ ١١٢ ـ ١١٣) لابن الأثير، و«الإصابة» (٦/ ٢٨ ـ ٢٩) لابن حجر.

(١) انظر هذه المكائد في: «فتح الباري» (٧/ ٣٩٢) لابن حجر، و«الصارم المسلول» (ص٨٤) لابن تيمية.

(٢) «الصارم المسلول» (ص٧٩). وانظر: «الشفا» (٢/ ٩٤٩) للقاضي عياض.

(٣) المصدر نفسه (ص٤٠٩). وانظر (ص٧٨ ـ ٧٩).

(٤) (٣/ ١٦٠).

الدليل الرابع:

حديث عائشة ﷺ الطويل في حادثة الإفك، وفيه قول الرسول ﷺ وهو على المنبر: «**يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي...**» الحديث[1].

فوجه الاستدلال بحادثة الإفك على قتل الطاعن على النبي ﷺ والمنتقص له، قول سعد بن معاذ في الحديث: «**يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك**»، «فلما لم ينكر ذلك عليه دل على أن من آذى النبي ﷺ يجوز ضرب عنقه، والفرق بين ابن أُبَيّ وغيره ممن تكلم في شأن عائشة أنه كان يقصد بالكلام فيها عيب رسول الله ﷺ والطعن عليه، وإلحاق العار به، ويتكلم بكلام ينتقصه به، فلذلك قالوا: نقتله بخلاف حسَّان ومسطح[2] وحمنة[3] فإنهم لم يقصدوا ذلك...»[4].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٥٨) من هذه الرسالة.

(٢) مسطح بن أثالة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف بن قصيّ، المطلبي المهاجري البدري، المذكور في قصة الإفك، توفي سنة أربع وثلاثين للهجرة، وقيل: شهد صفين، وتوفي سنة سبع وثلاثين. انظر: «الاستيعاب» (٤/ ٣٥ ـ ٣٦)، و«السير» (١/ ١٨٧ ـ ١٨٨)، و«العبر في أخبار من غبر» (١/ ٢٦)، و«الإصابة» (٦/ ٧٤).

(٣) حمنة بنت جحش بن رياب الأسدية، من بني أسد بن خزيمة، أخت زينب أم المؤمنين ﷺ كانت تحت مصعب بن عمير، وقُتِل عنها يوم أُحد، فتزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت له محمداً وعمران، وقيل: كانت تحت عبد الرحمٰن بن عوف، توفيت (....). انظر: «طبقات ابن سعد» (٨/ ١٩١)، و«الاستيعاب» (٤/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥)، و«أسد الغابة» (٧/ ٦٩ ـ ٧١)، و«السير» (٢/ ٢١٥)، و«الإصابة» (٨/ ٨٨ ـ ٨٩)، و«تهذيب التهذيب» (١٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣)، كلهم لم يذكر تاريخ وفاتها.

(٤) «الصارم المسلول» (ص١٨٦ ـ ١٨٧).

الدليل الخامس:

قصة إسلام عبد الله بن أبي سرح(١) وهي مما اتفق عليه أهل العلم، واستفاضت عندهم، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما كان يوم فتح مكة أمَّنَ رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وسماهم، وابن أبي سرح، فذكر الحديث، قال: وأما ابن أبي سرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به حتى وقفه على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله: بايع عبد الله، فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: **«أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله»؟ فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك، فقال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»**(٢).

قال ابن تيمية: «ففي هذا الحديث دلالة على أن المفتري على النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ الطاعن عليه قد كان له أن يقتله، وأن دمه مباح، وإن جاء تائباً من كفره وفريته، لأن قتله لو كان حراماً لم يقل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما قال، ولا قال للرجل: **«هلّا وفيت بنذرك»**(٣). ويغني

---

(١) أبو يحيى عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث، الأمير، قائد الجيوش، القرشي العامري، أخو عثمان بن عفان من الرضاعة، له صحبة ورواية حديث، كان يكتب للنَّبي ﷺ، ثم ارتد ولحق بقريش، ثم أسلم أيام الفتح، وحسن إسلامه، توفي بالرملة وهو في صلاة الصبح سنة تسع وخمسين، وقيل: ست أو سبع وثلاثين. انظر: «الاستيعاب» (٣/ ٥٠ ـ ٥٢)، و«أسد الغابة» (٣/ ٢٥٩ ـ ٢٦١)، و«السير» (٣/ ٣٣ ـ ٣٥)، و«الإصابة» (٤/ ٩٤ ـ ٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب قتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام، برقم (٢٦٨٣) (٣/ ١٣٣ ـ ١٣٤)، وفي الحدود، باب الحكم فيمن ارتد، برقم (٤٣٥٩) (٤/ ٥٢٧)، والنسائي في كتاب المحاربة «تحريم الدم»، باب الحكم في المرتد، برقم (٣٥٣٠) (٢/ ٣٠٢)، وصححه الشيخ الألباني. انظر: «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٥١٠ ـ ٥١١، ٣/ ٨٢٣ ـ ٨٢٤).

(٣) «الصارم المسلول» (ص٤١٤)، وقوله: «هلا وفيت بنذرك» قطعة من حديث أخرجه =

عنه حديث سعد بن أبي وقاص الآنف الذكر، وفيه: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله»، هذا لأن دم الطاعن على الرسول المنتقص لمقامه الرفيع مرتد عن الدين حلال الدم، لانتهاكه ما يجب تعظيمه، ومن جملة ما سقته من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يتضح لنا جلياً أن الاستهزاء بالدين وما يلحق به من السخرية بالله تعالى، وبرسوله ﷺ كفر بواح، وردة صريحة، في حقِّ من توفرت فيه الشروط، وانتفت عنه الموانع كما سيأتي تقريره ـ إن شاء الله ـ في هذا الباب، عند الحديث عن الفصل الثاني: «**أقسام المستهزئين**».

الدليل السادس:

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «**أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه جاء رجل فقال: ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال: «اقتله» (وفي رواية مسلم: «اقتلوه»)، قال مالك: ولم يكن النبي ﷺ ـ فيما نرى ـ والله أعلم ـ يومئذٍ محرماً**»(١).

وكان ابن خطل قد ارتكب جرائم، وهي أنه ارتد عن الإسلام، وقتل مسلماً كان يخدمه، وكان يهجو النبي ﷺ ويَسُبُّه، كانت له قينتان تغنيان بهجاء النبي ﷺ والمسلمين(٢).

فأي الأسباب الثلاثة ـ قتل النفس، أو الردة، أو الهجاء بالسب ـ كان علة لقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، في بلد الله الحرام وعند بيته العتيق؟

= ابن سعد في: «الطبقات» (٢/ ١٠٧) عن سعيد بن المسيب مرسلاً، وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف. انظر: «التقريب» (ص٦٩٦).

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي الراية يوم الفتح، برقم (٤٢٨٦)، «فتح» (٧/ ٦٠٩)، ومسلم، كتاب الحج، باب جواز دخول مكة بغير إحرام، برقم (١٣٥٧)، «نووي» (٩/ ١٣٩ ـ ١٤٠).

(٢) انظر: «شرح صحيح مسلم» (٩/ ١٤٠)، و«الصارم المسلول» (ص١٣٣ ـ ١٣٤، ١٤١).

يجيب عن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية ـ عليه رحمة الله ـ فيقول: «.. لم يقتل لقتل النفس، لأن أكثر ما يجب على من قتل ثم ارتد أن يقتل قوداً، والمقتول من خزاعة له أولياء، فكان حكمه لو قتل قوداً أن يُسَلَّمَ إلى أولياء المقتول، فإمَّا أن يعفوا أو يأخذوا الدية، ولم يقتل بمجرد الردة، لأن المرتد يستتاب، وإذا استُنْظِرَ أُنْظِرَ، وهذا ابن خطل قد فر إلى البيت، عائذاً به، طالباً للأمان، تاركاً للقتال، ملقياً للسلاح، حتى نظر في أمره، وقد أمر النبي ﷺ بعد علمه بذلك كله أن يقتل، وليس هذا سنة من يُقْتَل من مجرد الردة، فثبت أن هذا التغليظ في قتله إنما كان لأجل السب والهجاء، وأن السَّاب وإن ارتد فليس بمنزلة المرتد المحض يقتل قبل الاستتابة، ولا يؤخر قتله، وذلك دليل على جواز قتله بعد التوبة»[1].

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ ـ أيضاً ـ: «وقد استدل بقصة ابن خطل طائفة من الفقهاء على أن من سب النبي ﷺ من المسلمين يقتل وإن أسلم حداً.

واعترض عليهم بأن ابن خطل كان حربياً فقتل لذلك، وصوابه أنه كان مرتداً بلا خلاف بين أهل العلم بالسِّير، وحتم قتله بدون استتابة مع كونه مستسلماً منقاداً قد ألقى السّلَم كالأسير، فَعُلِمَ أن من ارتد وسب يقتل بلا استتابة بخلاف من ارتد فقط.

يؤيده أن النبي ﷺ أَمَّنَ عام الفتح جميع المحاربين إلا ذوي جرائم مخصوصة، وكان ممن أهدر دمه دون غيره، فَعُلِمَ أنه لم يقتل لمجرد الكفر والحراب»[2].

وخلاصة القول:

بعد ذكر هذه الأدلة من السنة النبوية أن النبي ﷺ لم يأمر بقتل السّاب

---

(١) «الصارم المسلول» (ص١٤١).

(٢) المصدر نفسه (ص١٤١ ـ ١٤٢).

لمجرد كونه كافراً غير معاهد، وإنما قتله لأجل السب مع كون السب مستلزماً للكفر والعداوة والمحاربة، وهذا القدر موجب للقتل حيث كان[(١)].

لكن قد يقال: أنت قد قررت أن الساب والمستهزئ والطاعن على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مرتد يجب قتله، والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد عفى عن عبد الله بن أبي سرح وبايعه على الإسلام بعد السب والطعن، وكذلك لم يقم الحد على من تولى كبر حادثة الإفك: عبد الله بن أُبَيّ، فما الجواب عن هذا؟

الجواب عنه من وجوه:

أحدها: أنه كان محض حقه ﷺ، فله أن يعفو عنه ولا يؤاخذ من أساء إليه أو آذاه، كما عفى عن ابن أبي سرح، وذي الخويصرة الذي قال له: اتق الله[(٢)]، وابن أُبَيّ الذي طعن في عائشة.

الثاني: أنه ﷺ كان يعفو عمن أساء إليه تأليفاً للقلوب على الإسلام، ولئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

الثالث: أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يعفو عمن ظلمه أو ينتقم، كل ذلك تبعاً للمصلحة، إلا أن العفو كان قبل «براءة» أكثر منه بعدها، أما بعد براءة فقد نسخ الحكم بالعفو والصبر، وأمر بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم[(٣)].

---

(١) انظر: «الصارم المسلول» (ص١٧٦).

(٢) أخرجه حديثه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، برقم (٣٣٤٤)، «فتح» (٦/٤٣٣ ـ ٤٣٤)، وفي التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، برقم (٧٤٣٢)، «فتح» (١٣/٤٢٦)، ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، برقم (١٠٦٤). «نووي» (٧/١٦٦ ـ ١٦٨).

(٣) انظر: «الصارم المسلول» (ص١٦٠، ٢٣٦، ٢٤٣، ٢٤٥)، والمصدر نفسه (ص٢٤٦ ـ ٢٤٩) حيث أورد أسباب عدم إقامة الحد على اليهود الذين قالوا: =

الدليل السابع:

حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: أغلظ رجل لأبي بكر الصديق فقلت: أقتله، فانتهرني وقال: ليس هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ[(١)].

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله **في معنى هذا الحديث**: «أي لم يكن لأبي بكر أن يقتل رجلاً إلا بإحدى الثلاث التي قالها رسول الله ﷺ: «كفر بعد إيمان، وزنى بعد إحصان، وقتل نفس بغير نفس»[(٢)]، وكان للنبي ﷺ أن يقتل»[(٣)].

يعني من سبه وطعن عليه، واستهزأ به ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لأن ذلك محض حق له ليس لأحد أن يعفو عنه غيره.

قلت: فالحاصل أن جملة هذه الأدلة من الأحاديث النبوية الصحيحة ورد فيما يتعلق بسب النبي ﷺ والطعن عليه، والازدراء به، فكيف فيمن سب الله ﷻ أو دين الإسلام؟

فالجواب عن هذا يعرف بقياس الأولى، قال الزركشي رحمه الله: وأما فيمن سب الله ﷻ فبالقياس على سب رسول الله ﷺ: بطريق الأولى»[(٤)].

وقال القاضي عياض: بعد ذكر ما يتعلق بسب النبي ـ عليه الصلاة

= «السام عليك»، يريدون الموت، فانظرها.

(١) أخرجه أبو داود في الحدود، باب الحكم فيمن سبّ النبي ﷺ، برقم (٤٣٦٣) (٤/ ٥٣٠ ـ ٥٣١)، والنسائي، كتاب المحاربة، باب الحكم فيمن شتم النبي ﷺ، برقم (٣٥٣٤ ـ ٣٥٤٠) (٢/ ٣٠٤)، وأحمد في «المسند» (١/ ١٣)، وهو صحيح. انظر: «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٨٢٤ ـ ٨٢٥)، و«صحيح سنن النسائي» (٣/ ٨٥٤ ـ ٨٥٥) كلاهما للشيخ الألباني.

(٢) سيأتي تخريجه قريباً (ص٣٨٤).

(٣) «معالم السنن» المطبوع بهامش «سنن أبي داود» (٤/ ٥٣٠ ـ ٥٣١) للخطابي.

(٤) «شرح الزركشي» (٦/ ٢٤٤).

والسلام ـ: «وَيُنَزَّلُ الكلام في هذا الباب (يعني في حق الله تعالى) تنزيله في باب ساب النبي ﷺ...»(١).

وقال الشيخ محمد صديق خان ـ عليه رحمة الله ـ: «وإذا ثبت ما ذكرنا في سب النبي ﷺ فبالأولى من سب الله ـ تبارك وتعالى ـ، أو سب كتابه أو دين الإسلام، أو طعن في دينه كفر، ومن فعل هذا لا يحتاج إلى برهان»(٢).

وبعد أن تقرر من خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية أن المستهزئ بالدين كافر كفراً أكبر ينقل عن الملة، ويوجب الردة التي وردت في أحاديث صحيحة منها ما رواه البخاري بسنده عن عكرمة: «**أن علياً** رضي الله عنه **حرق قوماً، فبلغ ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم، لأن النبي** ﷺ **قال: «لا تعذبوا بعذاب الله»، ولقتلتهم كما قال النبي** ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**»»(٣).

ووجه الدلالة منه: أن المستهزئ بالدين وشعائره مرتدٌ ـ كما سبق تقريره ـ وحكمه في شريعة الإسلام القتل، قال ابن شداد: «والحديث يدل على أن من بدل دينه يقتل...»(٤)، وقال ابن المنذر: «ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «**من رجع عن دينه فاقتلوه، ولا تعذبوا بعذاب الله**»(٥).

ومنها ما روى الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**لا يحل**

---

(١) «الشفا» (٢/١٠٩٦).

(٢) «الروضة الندية» (٢/ ٦٣٠).

(٣) كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، برقم (٣٠١٧)، «فتح» (٦/١٧٣)، وفي كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتلهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم، برقم (٦٩٢٢)، «فتح» (١٢/ ٢٧٩).

(٤) دلائل الأحكام» (٤/ ٧٣).

(٥) «الإشراف على مذاهب أهل العلم» (٣/ ١٥٥)، والحديث تقدم تخريجه آنفاً.

دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: «النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة»(١).

ووجه الدلالة منه: أن المستهزئ بالدين كافر مرتد عن الإسلام، مفارق لدينه وللجماعة، وقد استدل الخليفة الراشد عثمان بن عفان على الثوار بهذا الحديث، وله ألفاظ غير ما تقدم في حديث ابن مسعود منها حديث عائشة وفيه: «أو كفر بعد إسلامه»(٢)، ومنها: حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: إنهم ليتواعدوني بالقتل، قلنا: يكفيكهم الله، قال: فَلِمَ يقتلونني؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه...**» الحديث(٣).

قال النووي رحمه الله: «وأما قوله ﷺ: «**والتارك لدينه المفارق للجماعة**»، فهو عام في كل مرتد عن الإسلام بأي ردة كانت فيجب قتله إن لم يرجع إلى الإسلام»(٤).

وقال الحافظ: «والمراد بالجماعة جماعة المسلمين، أي: فارقهم أو تركهم بالارتداد، فهي صفة للتارك أو المفارق لا صفة مستقلة، وإلا لكانت الخصال أربعاً»(٥).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، برقم (٦٨٧٨)، «فتح» (١٢/ ٢٠٩)، ومسلم في القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، برقم (١٦٧٦)، «نووي» (١١/ ١٧٦ ـ ١٧٧).

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (٢/ ٢١٩)، كتاب المحاربة، باب ما يحل به دم المسلم، برقم (٣٤٨٠).

(٣) رواه النسائي برقم (٣٤٨٢) (٢/ ٢٩٢)، بسند صحيح كما قال الحافظ في «الفتح» (١٢/ ٢١٠).

(٤) «شرح صحيح مسلم» (١١/ ١٧٧).

(٥) «فتح الباري» (١٢/ ٢١٠).

ومنها حديث أبي موسى الأشعري ﷺ لما بعثه إلى اليمن، ثم أتبعه معاذ بن جبل ﷺ فلما قدم عليه ألقى له وسادة، قال: انزل، فإذا رجل عنده موثق، قال: ما هذا؟ قال: كان يهودياً فأسلم ثم تهود، قال: اجلس. قال: لا أجلس حتى يقتل، قضاء الله ورسوله (ثلاث مرات) فأمر به فقتل»(١).

وعند أبي داود بسند صحيح عن أبي موسى ﷺ وفيه: «... **وكان قد استُتِيبَ قبل ذلك**»(٢).

ووجه الدلالة منه: أن الاستهزاء بالدين ردة صريحة، وتبديل للدين بدليل قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ...﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦]. وهذا اليهودي الذي أسلم ثم ارتد عن دين الإسلام، وراجع دين السوء، قد بدل دينه، فحكم فيه معاذ ﷺ بقضاء الله ورسوله، وهو القتل، فما نزل معاذ عن دابته حتى قتل ولم يستتبه اكتفاءً باستتابة أبي موسى الأشعري له، كما في رواية أبي داود المتقدمة.

إذا علم ما تقدم تقريره من أدلة الكتاب والسنة في ضوء منهج السلف في الاستدلال، أردف ذلك بنقل إجماع السلف في هذا الباب، والله وحده الموفق للصواب.

❑ المطلب الثالث ❑

نقل إجماع السلف على كفر وردّة المستهزئ بالدين

هذا مذهب عليه عامة أهل العلم: الذين يعتقدون الإيمان:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم، برقم (٦٩٢٣)، «فتح» (١٢/ ٢٨٠)، ومسلم في الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، برقم (١٦٥٢)، «نووي» (١٢/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠).

(٢) «سنن أبي داود»، كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد، برقم (٤٣٥٥)، (٤/ ٥٢٥). وانظر: «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٨٢٣)، برقم (٣٦٦١) للألباني.

قول وعمل[١].

قال الإمام إسحاق بن راهويه[٢] أحد الأعلام: «أجمع المسلمون على أن من سب الله، أو سب رسوله ﷺ أو دفع شيئاً مما أنزل الله ﷻ، أو قتل نبياً من أنبياء الله ﷺ: أنه كافر بذلك وإن كان مقراً بكل ما أنزل الله»[٣].

وقال ابن المنذر[٤]: «... وأجمع عوام أهل العلم على وجوب القتل على من سب النبي ﷺ، هذا قول مالك[٥] والليث بن سعد[٦] والشافعي[٧] وأحمد[٨] وإسحاق[٩]، ومن تبعهم»[١٠].

وقال أيضاً: «... وأجمعوا على أن من سب النبي ﷺ القتل»[١١].

---

(١) وهو مذهب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وعليه إجماع أهل القرون المفضلة. انظر: نقل إجماع السلف في الإيمان «شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة» (٤/ ٨٣٢ وما بعدها) للالكائي، و«مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٠٧ ـ ٣١١، ٤٧١، ٤٧٢) لابن تيمية، و«شرح السنة» (١/ ٣٩) للبغوي، و«شرح صحيح مسلم» (١/ ٢٠٧) للنووي، وغيرها.

(٢) أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي ثم النيسابوري الحافظ، توفي سنة (٢٣٨هـ). انظر: «السير» (١١/ ٣٥٨ ما بعدها)، و«العبر» (١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥)، و«طبقات الحنابلة» (١/ ١٠٩)، و«طبقات الشافعية» (٢/ ٨٣ ـ ٩٣)، و«شذرات الذهب» (٢/ ٨٩).

(٣) «الصارم المسلول» (ص٩، ٥١٣). وانظر: «الدرر السنية» (٨/ ١٣٢).

(٤) هو: الإمام الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري الفقيه، نزيل مكة، توفي سنة (٣١٨هـ). انظر: «السير» (٤/ ٤٩٠ ـ ٤٩٢)، و«ميزان الاعتدال» (٣/ ٤٥٠ ـ ٤٥١)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ٧٨٢ ـ ٧٨٣)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (٣/ ١١٧ وما بعدها).

(٥) انظر: «الشفا» (٢/ ٩٣٥ ـ ٩٣٧) للقاضي عياض.

(٦) انظر: «المحلى» (١١/ ٤١٥) لابن حزم.

(٧) انظر: «معالم السنن» المطبوع بهامش «أبي داود» (٤/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩) للخطابي.

(٨) انظر: «مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله» (٣/ ١٢٩١ ـ ١٢٩٢).

(٩) انظر: «الصارم المسلول» (ص٩، ٥١٣) لابن تيمية.

(١٠) «الإقناع» (٢/ ٥٨٤) لابن المنذر.

(١١) «الإجماع» (ص١٥٣)، و«الإشراف على مذاهب أهل العلم» (٣/ ١٦٠).

وقال القاضي عياض: اعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن جميع من سب النبي ﷺ أو عابه أو ألحق به نقصاً في نفسه أو نسبه أو دينه، أو خصلة من خصاله، أو عرَّض به أو شبَّهه بشيء على طريق السب له، أو الإزراء عليه، أو التصغير لشأنه، أو الغض منه، والعيب له فهو ساب له، والحكم فيه حكم الساب... وكذلك من لعنه أو دعا عليه، أو تمنى مضرةً له، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر وفكر من القول وزور، أو عيَّره بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه، أو غمصه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه. وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إلى هَلُمَّ جراً»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللهُ أيضاً: «أجمعت الأمة على قتل متنقصه من المسلمين وسابّه، وكذلك حكي عن غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره»[(٢)]، وقال أبو سليمان الخطابي[(٣)]: «... ولا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله»[(٤)].

وقال محمد بن سحنون[(٥)]: «أجمع العلماء أن شاتم النبي ﷺ المتنقص له كافر، والوعيد جار عليه بعذاب الله، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك

---

(١) «الشفا» (٢/٩٣٢ ـ ٩٣٣)، و«الصارم المسلول» (ص٥٢٦).

(٢) «الصارم المسلول» (ص٩).

(٣) الإمام العلامة، الحافظ اللغوي، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطَّاب البستي الخطابي، توفي سنة (٣٨٨هـ)، بمدينة بُست. انظر: «السير» (١٧/٢٣)، و«العبر» (٢/١٧٤)، والنجوم الزاهرة» (٤/٢٠١)، وشذرات الذهب» (٣/١٢٧ ـ ١٢٨).

(٤) «معالم السنن» المطبوع بهامش «سنن أبي داود» (٤/٥٢٨).

(٥) الإمام أبو عبد الله محمد بن سحنون المغربي المالكي، مفتي القيروان، توفي سنة (٢٦٥هـ). انظر: «العبر» (١/٣٨١)، والبداية والنهاية» (١١/٣٣)، و«شذرات الذهب» (٢/١٥٠)، و«معجم المؤلفين» (٣/٣١٢) لعمر كحالة.

في كفره، وعذابه كفر»[١].

وقال **القاضي عياض** رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه أو سبهما أو جحده، أو حرفاً منه أو آية أو كذب به أو بشيء منه، أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر، أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته على علم منه بذلك، أو شك في شيء من ذلك فهو كافر عند أهل العلم بإجماع...»[٢].

وممن نقل الإجماع في هذا الباب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ إذ يقول: «... فإن كان مسلماً وجب قتله بالإجماع، لأنه بذلك كافر مرتد، وأسوأ من الكافر، فإن الكافر يعظم الرب، ويعتقد أن ما هو عليه من الدين الباطل ليس باستهزاءٍ بالله ولا مسبةٍ له»[٣].

ولا عبرة بكونه يفعل هذا الاستهزاء والسب معتقداً حرمته، أو كان مستحلاً له، أو ذاهلاً عنه، قال شيخ الإسلام: «إنَّ سب الله أو سب رسوله كفرٌ ظاهراً وباطناً، سواءٌ كان الساب يعتقد أن ذلك محرم، أو كان مستحلاً له، أو كان ذاهلاً عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان: قول وعمل»[٤].

وممن نقل الإجماع ـ أيضاً ـ من المتأخرين: الإمام عبد العزيز بن الإمام محمد بن سعود ـ رحمهما الله تعالى ـ قال: «ونحن لا نكفر إلا من عرف التوحيد وسبه وسماه دين الخوارج... أو استهزأ بالدين أو القرآن كما

---

(١) «الشفا» (٢/ ٩٣٤ ـ ٩٣٥)، و«الصارم المسلول» (ص٩، ٥١٣). وانظر: «كفاية الأخيار» (٢/ ٣٧٨) لتقي الدين الحصني، حيث نقل الإجماع على كفر الساب.

(٢) «الشفا» (٢/ ١١٠١). وانظر: «ما يجب أن يعرفه المسلم عن عقائد الروافض الإمامية» (ص٦٢).

(٣) «الصارم المسلول» (ص٥٤٧).

(٤) المصدر السابق (ص٥١٣).

قال تعالى: ﴿... قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ...﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦].

قال العلماء في هذه الآية: الاستهزاء بالدين كفر مستقل بالإجماع، والاستهزاء بالرسول كفر مستقل، وهذه الأنواع التي ذكرنا أننا نكفر من فعلها قد أجمع العلماء كلهم من جميع أهل المذاهب على كفر من فعله، وهذه كتب أهل العلم من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم موجودة، ولله الحمد والمنة...»[١].

وجاء في رسالة الأمير سعود بن عبد العزيز ابن الإمام محمد بن سعود: قوله: «... ونحن لا نكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب، وإنما نكفرهم بما نص الله ورسوله وأجمع عليه علماء الأمة المحمدية الذين هم لسان صدق في الأمة أنه كفر، كالشرك في عبادة غير الله من دعاء ونذر وذبح، وكبغض الدين وأهله والاستهزاء به»[٢].

وممَّنْ نقل الإجماع من العلماء الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، فقال: «أجمع العلماء على كفر من فعل شيئاً من ذلك، فمن استهزأ بالله أو بكتابه أو برسوله أو بدينه كفر ولو هازلاً لم يقصد حقيقة الاستهزاء إجماعاً»[٣].

وممن نقل الإجماع ـ أيضاً ـ الشيخ حمد بن عتيق رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «واعلم أن العلماء أجمعوا على أن من استهزأ بالله أو رسوله أو كتابه أو دينه فهو كافر»[٤].

---

(١) «الدرر السنية» (١/ ١٤٥ ـ ١٤٦).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٣١٦) وهذا الكلام من الإمام والأمير دفعاً منهما لبهتان أهل الباطل، لأهل الدعوة السلفية في نجد بأنهم خوارج يكفرون الأمة!!؟.
(٣) «تيسير العزيز الحميد» (ص٦١٧).
(٤) «الدرر السنية» (٨/ ٢٤٢).

وممن نقل الإجماع إمام العصر ومفتي عام المملكة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز فقال: «... سبُّ الدين والربِّ ـ جل وعلا ـ كلٌّ ذلك من أعظم أنواع الكفر بإجماع أهل العلم...»[(١)].

وبعد نقل الإجماع ـ وهو بحمد الله كثير ـ نعطف بذكر نصوص الفقهاء من أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم إتماماً للفائدة وإقامة للحجة لكي لا يحتجَّ مفتون برأي شاذ ينسبه لعالم من أتباع المذاهب الأربعة ليقول: المسألة خلافية ولا داعي لتكفير المستهزئ بالدين، وسيأتي الرد على آراء الفقهاء الشاذة، وشبهات أهل الكلام في هذه المسألة.

❑ المطلب الرابع ❑

نصوص الفقهاء من أئمة المذاهب الأربعة

○ أولاً: نصوص علماء الحنفية:

جاء في الفتاوى التاتارخانية: «إذا وصف الله بما لا يليق به، أو سخر باسم من أسماء الله تعالى، أو بأمر من أوامره، أو أنكر وعده أو وعيده: يكفر»[(٢)].

وفي يتيمة الفتاوى: «من استخف بالقرآن أو بالمسجد أو نحوه مما يُعَظّم في الشرع كفر، ومن وضع رجله على المصحف حالفاً استخفافاً كفر، انتهى، ولا يخفى أن قوله حالفاً قيدٌ اتفاقي لا مفهوم له، وفي جواهر الفقه: «من قيل له ألا تقرأ القرآن، وألا تكثر قراءته فقال: شبعت أو كرهت أو أنكر آية من كتاب الله أو عاب شيئاً من القرآن... كفر»[(٣)].

---

(١) «مجموع فتاوى ومقالات» (١/٤٤٢).

(٢) (٥/٤٦١).

(٣) «شرح بدر الرشيد في ألفاظ الكفر» (ص١٥ ـ ١٦)، و«شرح الفقه الأكبر» (ص١٣٩) للقاري.

وفيها أيضاً: «من سمع قراءة القرآن فقال: استهزاءً بها صوت طرفة، أي: نغمة عجيبة وإنما يكفر إذا قصد الاستهزاء بالقراءة نفسها بخلاف ما إذا استهزأ بقارئها من حيثية قبح صوته فيها وغرابة تأديته بها»[1].

وفي الفتاوى الظهيرية: «من قرأ آية من القرآن على وجه الهزل كفر، قلت: (القائل العلامة علي القاري) لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾ [الطارق: ١٣ ـ ١٤]. . .»[2].

قال الإمام الجصَّاص[3]: «قال أصحابنا: فيمن سب النبي ﷺ أو عابه، وكان مسلماً، فقد صار مرتداً. . .»[4].

وفي الفتاوى التاتارخانية: «ومن لم يقر ببعض الأنبياء ﷺ أو عاب نبياً بشيء أو لم يرض بسنةٍ من سنن المرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كفر»[5].

قلت: عدم رضاه بسنة من سنن الأنبياء، إن كان بما هو معلوم من الدين بالضرورة يتوجه الحكم حينئذٍ، وإن كان من الأمور الخفية التي ربما خفي دليلها، أو لم يثبت عنده أو نحوه من الأعذار المعتبرة عند العلماء[6]

---

(١) «شرح الفقه الأكبر» (ص١٣٩) للقاري.

(٢) «شرح بدر الرشيد في ألفاظ الكفر» (ص١٧ ـ ١٨)، و«شرح الفقه الأكبر» (ص١٣٩).

(٣) أبو بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصاص (نسبة إلى العمل بالجص وتبييض الجدران)، توفي سنة (٣٧٠هـ). انظر: «العبر» (٢/ ١٣٣ ـ ١٣٤)، و«الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية» (١/ ٢٢٠ ـ ٢٢٤) لابن أبي الوفاء القرشي، و«الفواكه البهية في تراجم الحنفية» (ص٢٧ ـ ٢٨) محمد اللكفوي، و«شذرات الذهب» (٣/ ٧١).

(٤) «مختصر اختلاف العلماء» (٣/ ٥٠٤).

(٥) «الفتاوى التاتارخانية» (٥/ ٤٧٧).

(٦) انظر في هذه المسألة مثلاً: كتاب «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

فلا يكفر، وقد نقل الهيثمي عن أحد علماء الحنفية تحقيق الأمر فيمن استخف بالأنبياء والملائكة، فقال: «وهذا كله فيمن تكلم فيهم بما قلناه على جملة الملائكة والنبيين، أو على معين ممن حققنا كونه من الملائكة والنبيين ممن ذكره الله في كتابه، أو حققنا علمه بالخبر المتواتر[(١)] والمشهور المتفق عليه بالإجماع القاطع كجبريل وميكائيل ومالك وخزنة الجنة وجهنم والزبانية وحملة العرش المذكورين في القرآن من الملائكة، ومن سمي فيه من الأنبياء.. فأما من لم يثبت الإخبار بتعيينه ولا وقع الإجماع على كونه من الملائكة والأنبياء.. فليس الحكم في شأنهم، والكافر بهم كالحكم فيمن قدمنا إذا لم يثبت لهم تلك الحرمة، ولكن يزجر من ينقصهم، انتهى كلامه»[(٢)].

وفي الفتاوى التاتارخانية: «من عاب ملكاً من الملائكة كفر»، والاستخفاف بالملَك كفر[(٣)]. قال الشيخ علي القاري[(٤)]: «وفي المحيط: من جلس على مكان مرتفع ويسألون منه مسائل بطريق الاستهزاء ثم يضربونه بالوسائد أي: مثلاً وهم يضحكون كفروا جميعاً، أي: لاستخفافهم بالشرع»[(٥)].

---

(١) والآحاد ـ أيضاً ـ إذا كان الخبر صحيحاً سنداً ومتناً، ولا عبرة بقول من يفرق بين المتواتر والآحاد من حيث قبوله ورده إذ هذا التفريق من أصول أهل البدع والأهواء لرد سنّة رسول الله ﷺ بل منهج الراسخين في العلم القبول والتسليم لخبر الصادق الثقة سواء كان آحاداً أو غيره. انظر: «الرسالة» (ص٣٦٩ ـ ٤٦١) للإمام الشافعي، و«مختصر الصواعق المرسلة» (ص٤٣٨ ـ ٥١٠) لمحمد الموصلي، والحديث حجة بنفسه في «العقائد والأحكام» (ص٤٥ ـ ٦٥) للشيخ العلامة الألباني.

(٢) «الإعلام بقواطع الإسلام» (ص٣٨٥).

(٣) (٥/٤٨٩ ـ ٤٩٠).

(٤) هو علي بن سلطان بن محمد الهروي القاري، الحنفي (نور الدين)، عالم مشارك في أنواع من العلوم، توفي سنة (١٠١٤هـ). انظر: «الأعلام» (٤/٢٩١) للزركلي، و«معجم المؤلفين» (٢/٤٤٦) لعمر كحالة.

(٥) «شرح الفقه الأكبر» (ص١٤٥).

○ ثانياً: نصوص علماء المالكية:

قال مالك بن أنس ـ إمام دار الهجرة ـ وابن القاسم[١]: «من سب الله ﷻ من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي كفر به انتقض عهده بخلاف نسبة الصاحبة والولد والشريك مما هو دينهم الذي أُقروا عليه بالجزية»[٢].

وقال ابن القاسم: عن مالك: «من سب النبي ﷺ من المسلمين قتل، ولم يستتب»[٣].

وقال ابن القاسم ـ أيضاً ـ: «من سبه أو شتمه أو عابه أو تنقصه فإنه يقتل وحكمه عند الأمة القتل كالزنديق»[٤].

وقال ابن كنانة[٥]: «من شتم النبي ﷺ من المسلمين قتل أو صلب حياً ولم يستتب، والإمام مخير في صلبه حياً أو قتله»[٦].

وقال عبد الله بن عبد الحكم[٧]: «من سب النبي ﷺ من مسلم أو كافر

---

(١) أبو عبد الله عبد الرحمٰن بن القاسم العتقي المصري الصالح الحافظ الحجة الفقيه، صحب مالك عشرين سنة، توفي سنة (١٩١هـ). انظر: «شجرة النور الزكية» (ص٥٨).

(٢) «الذخيرة» (١٢/١٨) للقرافي. وانظر: «مختصر اختلاف العلماء» (٣/٥٠٤ ـ ٥٠٥) للجصاص.

(٣) «الشفا» (٢/٩٣٥ ـ ٩٣٦، ٩٥٤).

(٤) «الشفا» (٢/٩٣٦). وانظر: «الذخيرة» (١٢/١٨) للقرافي، و«المعيار المعرَّب» (٢/٣٢٧) للونشريسي.

(٥) هو أبو عمر عثمان بن عيسى بن كنانة، وكنانة مولى عثمان بن عفان، كان من فقهاء المدينة، أخذ عن مالك، وعليه الرأي وليس له في الحديث ذكر، توفي سنة (١٨٦هـ) وقيل (١٨٥هـ). انظر: «ترتيب المدارك» (١/٢٩٢ ـ ٢٩٣) للقاضي عياض، واختار سنة وفاته (١٨٢هـ).

(٦) «الشفا» (٢/٩٣٦).

(٧) أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أيمن بن ليث، الإمام الفقيه مفتي الديار المصرية، صاحب مالك، توفي سنة (٢١٤هـ). انظر: «السير» (١٠/٢٢٠ ـ ٢٢٣)، =

قتل ولم يستتب»[(١)].

وقال ابن الجلاب[(٢)]: «ومن سب الله ـ جل جلاله ـ أو سب رسوله ﷺ من مسلم أو كافر، قتل، ولا يستتاب، وقد قيل في اليهودي والنصراني، إن قال: أنا مسلم، قبل منه، ولم يقتل»[(٣)].

ونقل القاضي عياض عن ابن عتَّاب[(٤)]: «الكتاب والسنة موجبان أن من قصد النبي ﷺ بأذى أو نقص، معرِّضاً أو مصرحاً، وإن قلَّ فقتله واجب، فهذا الباب كله مما عده العلماء سباً أو تنقصاً يجب قتل قائله، لم يختلف في ذلك متقدمهم ولا متأخرهم»[(٥)].

أما القاضي عياض اليحصبي[(٦)] فقد تقدم نقل كلامه في المطلب السابق، حول نقل إجماع السلف على كفر وردة المستهزئ بالله ورسله ودينه، وقد عقد رحمه الله في آخر كتابه الشفا أبواباً عدة في هذا الشأن.

أما حافظ المغرب، وإمام المالكية في زمانه، يوسف بن عبد البر رحمه الله (توفي سنة ٤٦٣هـ) فقد نص على هذا الباب فقال: «ومن شتم الله ـ تبارك

= و«العبر» (١/ ٢٨٨)، و«شذرات الذهب» (٢/ ٣٤)، و«شجرة النور الزكية» (ص٥٩).

(١) «الشفا» (٢/ ٩٣٧).

(٢) أبو القاسم عبد الله، وقيل: عبد الرحمٰن بن الحسين بن الحسن بن الجلاب المصري، توفي سنة (٣٧٨هـ). انظر: «العبر» (٢/ ١٥٣)، و«النجوم الزاهرة» (٤/ ١٥٨)، «شذرات الذهب» (٣/ ٩٣)، و«شجرة النور الزكية» (ص٩٢).

(٣) «التفريع» (٢/ ٢٣٢).

(٤) أبو محمد عبد الله بن محمد بن عتاب، الإمام الفقيه، الحافظ شيخ الإسلام وخاتمة العلماء الأعلام، توفي سنة (٥٢٨هـ). انظر: «شجرة النور الزكية» (ص١٢٩ ـ ١٣٠).

(٥) «الشفا» (٢/ ٩٤٢).

(٦) انظر طرفاً من كلامه في: «الشفا» (٢/ ٩٢٦) إلى آخر الكتاب، و«الذخيرة» (١٢/ ٢٢)، و«تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام» المطبوع بهامش «فتح العلي المالك» (٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥) لابن فرحون المالكي، و«الإعلام بقواطع الإسلام» (ص٣٨٢) لابن حجر الهيتمي الشافعي.

وتعالى ـ أو شتم رسوله ﷺ أو شتم نبياً من أنبياء الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ قتل إذا كان مظهراً للإسلام بلا استتابة، ومنهم من يجعلها ردة يستتاب منها فإن تاب وإلا قتل.

والأولى تحصيل المذهب، وأما الذمي فيقتل إن سب الله أو سب رسوله إلا أن يسلم، وقد قيل: كل من سب النبي ﷺ قتل مسلماً كان أو ذمياً على كل حال، وكلا القولين عن مالك ذكرهما ابن عبد الحكم وغيره»[1].

وقال الإمام القاضي ابن رشد الحفيد[2]: «... لا خلاف في أن من سب النبي عليه السلام أو عابه أو نقصه بشيء من الأشياء يقتل ولا يستتاب مسلماً كان أو كافراً أو ذمياً، إلا أن يبدو الذمي فيسلم قبل أن يقتل من غير أن يستتاب، فلا يقتل لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ...﴾ [الأنفال: ٣٨].

... وكذلك حكم سائر الأنبياء فيمن شتم أحداً منهم أو نقصه لقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]»[3].

وفي هذا المعنى يقول العلامة القرافي[4]: «وكل نبي أو مَلَك حكمه في ذلك كما تقدم، إن أجمعت الأمة على أنه نبي أو مَلَك وإلا لم ينته الأمر إلى القتل، بل الأدب بقدر حال المقول فيه، كهاروت وماروت من

---

(١) «الكافي في فقه أهل المدينة المالكي» (٢/١٠٩١ ـ ١٠٩٢).

(٢) أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي، توفي سنة (٥٩٥هـ). انظر: «العبر» (٣/١١١)، و«النجوم الزاهرة» (٦/١٣٨)، و«شذرات الذهب» (٤/٣٢٠)، «شجرة النور الزكية» (ص١٤٦ ـ ١٤٧).

(٣) «البيان والتحصيل» (١٦/٣٩٨).

(٤) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي الصنهاجي المصري الإمام العلامة، عمدة أهل التحقيق، من جلّة علماء المالكية، توفي سنة (٦٨٤هـ). انظر: «شجرة النور الزكية» (ص١٨٨ ـ ١٨٩).

الملائكة، والخضر ولقمان وذي القرنين ومريم وآسية وخالد بن سنان[(١)]...[(٢)]».

وقال خليل بن إسحاق[(٣)]: «الردة كفر المسلم بصريح أو لفظ يقتضيه، أو فعل يتضمنه، كإلقاء مصحف بقذر...»[(٤)].

وقال أيضاً: «وإن سب نبياً أو ملكاً أو عَرَّضَ أو لعنه أو عابه أو قذفه أو استخف بحقه أو غَيّر صفته أو ألحق به نقصاً وإن في بدنه أو خصلته أو غض من مرتبته أو وفور علمه أو زهده أو أضاف له ما لا يجوز عليه، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم... قتل ولم يستتب حدّاً إلا أن يسلم الكافر...»[(٥)].

ثم ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ بعد ذلك الحكم فيمن سب الله ﷻ فقال: «وسب الله كذلك وفي استتابة المسلم خلاف كمن قال: لقيت في مرضي ما لو قتلت أبا بكر وعمر لم أستوجبه»[(٦)].

---

(١) انظر خبره في: «مجمع الزوائد» (٨/٢١٣ ـ ٢١٤) تحت باب ما جاء في خالد بن سنان، من كتاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حيث نقل روايات حديث ابن عباس أنه نبي من العرب ضيعه قومه وهي ضعيفة.

(٢) «الذخيرة» (١٢/٣٠).

(٣) ضياء الدين أبي المودة خليل بن إسحاق بن موسى المالكي المعروف بالجندي، الإمام الهمام أحد الأئمة الأعلام، توفي سنة (٧٧٦هـ). انظر: «الدرر الكامنة» (٢/٨٦) لابن حجر، و«شجرة النور الزكية» (ص٢٢٣).

(٤) «مواهب الجليل من أدلة خليل» (٤/٣٢٣) للشنقيطي. وانظر: «الشرح الصغير» (٦/١٤٥ ـ ١٤٦) لأبي البركات الدردير، و«حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» (٤/٣٠١) لابن عرفة، و«التاج والإكليل» (٦/٢٧٩) للمواق، و«شرح منهج الجليل» (٤/٤٦٢) لعليش.

(٥) «مواهب الجليل» (٤/٣٢٣ ـ ٣٢٤). وانظر: «الشرح الصغير» (٦/١٤٩ ـ ١٥٠) للدردير، و«الفواكه الدواني» (٢/٢٧٦ ـ ٢٧٧) للنفراوي، و«حاشية الدسوقي» (٤/٣٠٩ ـ ٣١٠) لابن عرفة.

(٦) المصدر نفسه (٤/٣٢٤).

○ ثالثاً: نصوص علماء الشافعية:

قال الإمام الشافعي ـ عليه رحمة الله ـ: «... من ذكر كتاب الله، أو محمداً رسول الله ﷺ أو دين الله بما لا ينبغي... فقد نقض عهده، وأحل دمه، وبرئت منه ذمة الله ﷻ وذمة رسول الله ﷺ»[١]، وكذلك نقل عن الشافعي أنه سئل عمن هزل بشيء من آيات الله تعالى أنه قال: «كافر، واستدل بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ ...﴾»[٢].

قال الهيتمي: «ومن ذلك أيضاً تكذيب نبي أو نسبة تعمد كذب إليه أو محاربته أو سبه أو الاستخفاف به، ومثل ذلك كما قال الحليمي[٣]: ما لو تمنى في وقت نبي من الأنبياء أنه هو النبي دون ذلك النبي أو في زمن نبينا أو بعده أن لو كان نبياً أو أنه ﷺ لم تكن النبوة فيه فيكفر في جميع ذلك والظاهر أنه لا فرق بين تمني ذلك باللسان أو القلب.. لأن تكذيبه ولو في الأمر الدنيوي صريح في عدم عصمته عن الكذب وفي إلحاق النقص به وكلاهما كفر»[٤].

قال الرافعي رحمه الله: «ويحصل ذلك (أي الردة) بالقول الذي هو كفر تارة، وبالفعل أخرى، والأفعال التي توجب الكفر هي التي تصدر عن تعمد واستهزاء بالدين صريح، كالسجود للصنم والشمس وإلقاء المصحف في

---

(١) «مختصر اختلاف العلماء» (٣/ ٥٠٥) للجصاص.

(٢) «الصارم المسلول» (ص٥١٤) لابن تيمية.

(٣) الشيخ الإمام أبو عبد الله الحسين بن محمد بن حليم، البخاري، فقيه الشافعية في وقته، توفي سنة (٤٠٣هـ). انظر: «العبر» (٢/ ٢٠٥)، و«طبقات الشافعية» (٤/ ٣٣٣ ـ ٣٤٣)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠)، و«شذرات الذهب» (٣/ ١٦٧ ـ ١٦٨).

(٤) «الإعلام بقواطع الإسلام» المطبوع مع «الزواجر» (٢/ ٣٥٢)، وقد اعتبر بعض علماء الشافعية كون الاستخفاف به كفراً من خصائصه، فيجاب عنه بأنهم كثيراً ما يعدون أشياء من خصائصه، ويكون المراد به ما اختص به عَمَّنْ عدا الأنبياء من بقية الأمم. انظر: المصدر السابق (ص٣٥٢).

القاذورات... تحصل الردة بالقول الذي هو كفر، سواءً صدر عن اعتقاد أو عناد أو استهزاء... أو سَبَّ نبياً من الأنبياء عليهم السلام أو استخف به أو استحل محرماً بالإجماع...»[(١)].

ثم قال ـ أيضاً ـ: «وإذا سخر باسم من أسماء الله تعالى أو بأمره أو بوعده أو وعيده كفر»[(٢)].

وقال الإمام النووي رحمه الله: «.... والفعل المكفر ما تعمده استهزاءً صريحاً بالدين أو جحوداً له كإلقاء مصحف بقاذورةٍ وسجوده لصنم أو شمس»[(٣)].

ثم علق الشربيني[(٤)] على كلام النووي السابق بقوله: «... (كإلقاء مصحف) وهو اسم للمكتوب من كلام الله بين الدفتين (بقاذورة) بذال معجمة لأنه صريح في الاستخفاف بكلام الله تعالى، والاستخفاف بالكلام استخفاف بالمتكلم، ويلحق بالمصحف كتب الحديث.

قال الروياني[(٥)]: أو أوراق العلوم الشرعية»[(٦)].

وقال أيضاً: «وكالمصحف في ذلك أوراق العلوم الشرعية وكتب

---

(١) «الشرح الكبير» (١١/ ٩٨). وانظر: «الغاية القصوى» (٢/ ٩٢١) للبيضاوي، و«قلائد الخرائد» (٢/ ٣٢٧) للفقيه عبد الله الحضرمي.

(٢) المصدر السابق (١١/ ٩٩).

(٣) «مغني المحتاج» (٤/ ١٣٦) للخطيب الشربيني. وانظر: «الإعلام بقواطع الإسلام» (ص٣٤٩).

(٤) تقدمت ترجمته (ص١٣٧).

(٥) أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الطبري الإمام الكبير، من فقهاء الشافعية، توفي سنة (٤٥٠هـ). انظر: «طبقات الفقهاء الشافعية» (٢/ ٧١٤) لابن الصلاح، و«طبقات الشافعية الكبرى» (٤/ ٧٧ ـ ٨٧) للسبكي، و«الأعلام» (١/ ٢١٣).

(٦) «مغني المحتاج» (ص١٣٦) للشربيني. وانظر: «السراج الوهاج» (ص٥١٩) للغمراوي.

الحديث وكل ورقة فيها اسم من أسمائه تعالى أولى بذلك في كون إلقائه في القذر مكفراً، وهل مراد الروياني بالعلوم الشرعية الحديث، والتفسير والفقه وآلاتها كالنحو وغيره، وإن لم يكن فيها آثار السلف أو يختص بالحديث والتفسير والفقه؟ الظاهر الإطلاق وإن كان بعيد المدرك في ورقة من كتاب نحو ليس فيها اسم معظم»(١).

قلت: فإلحاق الروياني أوراق العلوم الشرعية، وكتب الحديث والتفسير والفقه، لاشتمالها على كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، فالاستخفاف بكلام الله وكلام رسوله كفر وردة عن دين الإسلام.

قال الشيخ زكريا الأنصاري(٢) رحمه الله: (وهي ـ أي الردة ـ قطع الإسلام إما بتعمد فعل) ولو بقلبه استهزاءً أو جحوداً (كسجود لصنم وإلقاء مصحف) أو نحوه ككتب الحديث (في قذرٍ استخفافاً) أي وجه يدل على الاستخفاف بهما وكأنه احترز به في الأولى عما لو سجد بدار الحرب فلا يكفر...»(٣)، قلت: إن كان على سبيل الإكراه فلا حرج، أمَّا لو سجد لصنم في دار الحرب مختاراً طائعاً من غير إكراه كفر لاستخفافه بالدين.

وقال ـ أيضاً ـ: (أو كذب نبياً) في نبوته أو غيرها.. (أو استخف بنبي) بسبٍّ أو غيره (أو سنته)...»(٤) يعني كفر بذلك كله.

وقال الهيتمي رحمه الله: «وفي الأنوار من كتب أئمتنا المتأخرين مسائل

---

(١) «الإعلام بقواطع الإسلام» المطبوع بآخر كتاب «الزواجر» (٢/ ٣٤٩).

(٢) زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري المصري الشافعي أبو يحيى، شيخ الإسلام، قاض مُفَسِّر من حفاظ الحديث، (ت٩٢٦هـ). انظر: «الأعلام» (٣/ ٤٦) للزركلي.

(٣) «أسنى المطالب» (٤/ ١١٦ ـ ١١٧). وانظر: «حاشية الجمل» (٥/ ١٢٣)، و«الفقه الإسلامي وأدلته» (٦/ ١٨٤) وَهْبَة الزحيلي.

(٤) المصدر السابق (٤/ ١١٧). وانظر: «حاشية التحفة» (٩/ ٨٤) للشرواني، و«زاد المحتاج» (٤/ ١٩٠) للكوهجي، و«إخلاص الناوي» (٤/ ١٣٤).

أخرى غير ما مر فلنذكرها وإن كان في ضمنها ما علم مما مر وهو أن إلقاء المصحف في المكان القذر كإلقائه في القاذورات،... وأن من استخف بالمصحف أو التوراة أو الإنجيل أو الزبور كفر»[١]. وكذلك لأن هذه الكتب التي بيد أهل الكتاب اليوم لا تخلو من حق ولو يسيراً مع ما تعرضت له من التحريف والتبديل، ولذا أعطيت حكم المستخف بالقرآن.

وجاء في إخلاص الناوي: «ومن استخف بالإسلام كفر وإن لم يتلفظ، ويكون بالفعل أيضاً إذا دل على الاستخفاف دلالة ظاهرة كما إذا ألقى المصحف في القاذورات اختياراً فإنا نحكم بكفره، وإن أنكر الاستخفاف، لأن الظاهر من حاله يكذبه في إنكاره»[٢].

قال شمس الدين الرملي[٣]: معلقاً على كلام النووي: «(... والفعل المكفر ما تعمده استهزاءً صريحاً بالدين) أو عناداً له (أو جحوداً له كإلقاء مصحف) أو نحوه مما فيه شيء من القرآن بل أو اسمٍ معظم أو من الحديث (بقاذورة) أو قذر طاهر كمخاط أو بزاق أو مَنِي لأنَّ فيه استخفافاً بالدين، وقضيّة إتيانه بالكاف في الإلقاء أن الإلقاء ليس بشرط، وأن مُمَاسته بشيء من ذلك القذر كفر أيضاً وفي هذا الإطلاق وقفة، فلو قيل: تعتبر قرينة دالة على الاستهزاء لم يبعد»[٤].

قال الهيتمي: «فمن تلك المسائل[٥]: ما لو سَخِرَ باسم من أسماء الله

---

(١) «الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٨٦). وانظر (٢/ ٣٨١) المطبوع بآخر كتاب «الزواجر».

(٢) (٤/ ١٣٣). وانظر: «زاد المحتاج» (٤/ ١٨٩ ـ ١٩٠) للكوهجي.

(٣) محمد بن أحمد بن حمزة الرملي، المنوني المصري، الأنصاري الشافعي، مفتي الديار المصرية في عصره، توفي (١٠٠٤هـ). انظر: «الأعلام» (٦/ ٧) للزركلي، و«معجم المؤلفين» (٣/ ٦١) لعمر كحالة.

(٤) «نهاية المحتاج» (٧/ ٣٩٦). وانظر: «أسنى المطالب شرح روض الطالب» (٤/ ١١٦ ـ ١١٧) للأنصاري، و«مواهب الصمد» (٢/ ٥٩٨) لأحمد حجازي.

(٥) وغالب هذه المسائل موجودة في كتب الفتاوى للحنفية ينقلونها عن مشايخهم وكان =

تعالى أو بأمره أو بوعده أو وعيده... وهو ظاهر جلي إلا أن محل ما ذكر كما يعلم مما يأتي فيمن لا يخفى عليه نسبة ذلك إليه ﷺ، ولا سيما الأسماء المشتركة فيستفسر ويعمل بتفسيره»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضاً في تقليد الكفار في شعائرهم: «وفي الانتصار (من كتب الشافعية) من تزيَّا بزي كفار من لبس غيار أو شد زنار أو تعليق صليب بصدره حرام ولم يكفر، وميل كلام بعضهم إلى الكفر... إن شهد عليه أنه يعظم الصليب مثل أن يقبله أو يتقرب بقربات أهل الكفر، ويكثر من بِيَعهم وبيوت عباداتهم احتمل أنه ردة وهو الأرجح لأن المستهزئ بالكفر يكفر، ولأنَ الظاهر أنه يفعل ذلك عن اعتقاد»(٢).

○ رابعاً: نصوص علماء الحنابلة:

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: سألت أبي عن رجل قال لرجل: يا ابن كذا وكذا أنت ومن خلقك، قال أبي: هذا مرتد عن الإسلام، قلت لأبي: تضرب عنقه؟ قال: نعم، تضرب عنقه(٣).

وقال ـ أيضاً ـ سمعت أبي يقول: فيمن سب النبي ﷺ قال: تضرب عنقه(٤).

وروى حنبل(٥) عن الإمام أحمد أنه قال: كل من ذكر شيئاً يعرض به

= المتورعون من متأخري الحنفية ينكرون أكثرها ويخالفونهم، ويقولون: هؤلاء لا يجوز تقليدهم لأنهم غير معروفين بالاجتهاد ثم لم يخرجوها على أصل أبي حنيفة. «الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٥٧).

(١) «الإعلام بقواطع الإسلام» المطبوع مع «الزواجر» (٢/ ٣٥٧ ـ ٣٦٧).

(٢) «الإعلام بقواطع الإسلام» المطبوع مع «الزواجر» (٢/ ٣٩٠).

(٣) «مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله» (٣/ ١٢٩١ ـ ١٢٩٢). وانظر: «الصارم المسلول» (ص٥١٣).

(٤) المصدر السابق (٣/ ١٢٩٢).

(٥) ابن إسحاق بن حنبل، أبو علي الشيباني، ابن عم إمامنا أحمد وتلميذه، توفي سنة =

الرب ـ تبارك وتعالى ـ فعليه القتل مسلماً كان أو كافراً. هذا مذهب أهل المدينة(١).

وروى حنبل ـ أيضاً ـ عن الإمام أحمد أنه قال: كل من شتم النبي ﷺ أو تنقصه، مسلماً كان أو كافراً فعليه القتل(٢).

قال ابن قدامة(٣) رحمه الله: «ومن سب الله تعالى، كفر، سواءً كان مازحاً أو جاداً، وكذلك من استهزأ بالله تعالى، أو بآياته أو برسله، أو كتبه، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ...﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦].

وينبغي أن لا يُكْتَفَى من الهازئ بذلك بمجرد الإسلام، حتى يؤدب أدباً يزجره عن ذلك، فإنه إذا لم يكتف ممن سب رسول الله ﷺ بالتوبة فَمِمّن سب الله تعالى أولى»(٤).

وقال مجد الدين ابن تيمية(٥) في باب حكم المرتد: «... فمن أشرك

= (٢٧٣هـ). انظر: «السير» (١٣/٥١ ـ ٥٣)، و«العبر» (١/٣٩٤)، و«شذرات الذهب» (٢/١٦٣)، و«طبقات الحنابلة» (١/١٤٣ ـ ١٤٥) لأبي يعلى.

(١) «أحكام أهل الملل»، كتاب الحدود، باب من تكلم بشيء من ذكر الرب يريد تكذيباً أو غيره (ص٢٥٥).

(٢) المصدر السابق (ص٢٥٥ ـ ٢٥٦).

(٣) الإمام القدوة العلامة المجتهد، شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدم بن نصر المقدسي الجماعيلي الدمشقي (ت٦٢٠هـ). انظر: «السير» (٢٢/١٦٥ ـ ١٧٣)، و«العبر» (٣/١٨٠ ـ ١٨١)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (٤/١٣٣).

(٤) «المغني» (١٢/٢٩٨ ـ ٢٩٩). وانظر: «الشرح الكبير» (١٠/١١٣)، و«غاية المنتهى» (٣/٣٣٧)، و«مطالب أولي النهى» (٦/٢٧٩) مصطفى الرحيباني.

(٥) أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي، =

بالله، أو جحد ربوبيته، أو صفة من صفاته، أو بعض كتبه أو رسله، أو سب الله أو رسوله فقد كفر»[(١)].

وقال ابن مفلح[(٢)]: «ويقتل زنديق وهو المنافق، ومن تكررت ردته، أو كفر بسحره أو سب الله أو رسوله، نقل حنبل: أو تنقصه، وقيل: ولو تعريضاً، نقل حنبل: من عرض بشيء من ذكر الرب فعليه القتل، مسلماً أو كافراً، وأنه مذهب أهل المدينة»[(٣)].

وجاء في الروض المربع: «أو سب الله ﷺ أو سب (رسوله) أي: رسولاً من رسله، أو ادعى النبوة (فقد كفر)...» إلى أن قال: «أو أتى بقول أو فعل صريح في الاستهزاء بالدين، أو امتهن القرآن أو أسقط حرمته، لا من حكى كفراً سمعه، وهو لا يعتقده»[(٤)].

وقال الشيخ مصطفى السيوطي[(٥)]: «... (أو امتهن القرآن ـ صانه الله

= توفي سنة (٦٥٢هـ). انظر: «العبر» (٣/ ٢٦٩)، و«البداية والنهاية» (١٣/ ١٥٦)، و«النجوم الزاهرة» (٧/ ٢٩)، و«شذرات الذهب» (٥/ ٢٥٧).

(١) «المحرر في الفقه» (٢/ ١٦٧). وانظر: «الإنصاف» (١٠/ ٣٢٦) للمرداوي، و«دليل الطالب» (ص٢٦٠) لمرعي الحنبلي، و«التوضيح» (ص٤٢٠) للمقدسي، و«شرح منتهى الإرادات» (٣/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧، ٣٩٠) للبهوتي.

(٢) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي ثم الصالحي الحنبلي الإمام العالم العلامة، شيخ الإسلام وأحد الأئمة الأعلام، توفي سنة (٧٦٣هـ). انظر: «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٣٣)، و«الدرر الكامنة» (٤/ ٢٦١ ـ ٢٦٢)، و«النجوم الزاهرة» (١١/ ١٣)، و«شذرات الذهب» (٦/ ١٩٩).

(٣) «الفروع» (٦/ ١٧٠).

(٤) «حاشية الروض المربع» (٧/ ٤٠١، ٤٠٤). وانظر: «لوامع الأنوار» (١/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧) لمحمد السفاريني الحنبلي، و«معونة أولي النهى» (٨/ ٥٤٤) لابن النجار، و«نيل المآرب» (٤/ ٥٠٦) للبسّام.

(٥) هو مصطفى بن سعد بن عبده الرحيباني، الحنبلي، المشهور بالسيوطي، فقيه، فرضي، ولد بالرحيبة من أعمال دمشق، توفي سنة (١٢٤٣هـ). انظر: «معجم المؤلفين» (٣/ ٨٦٥ ـ ٨٦٦) لعمر كحالة، و«الأعلام» (٧/ ٢٣٤) للزركلي.

تعالى ـ أو ادعى اختلافه أو اختلاقه، أو ادعى القدرة على مثله أو أسقط حرمته، كفر) لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وقوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨][(١)].

وسبق ابن عقيل الحنبلي إلى مثل هذا فقال: «... من امتهن القرآن أو غمصه أو طلب أن يناقضه أو ادعى أنه مختلق أو مقدور على مثله ولكن الله منع قدرتهم كفر، بل هو معجز بنفسه، والعجز شمل الخلق»[(٢)].

ومثل القرآن في ذلك الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها فـ«لا يجوز لأحد أن يستخف بالتوراة أو يلعنه، بل من لعن التوراة فإنه يكفر، وحينئذٍ فيستتاب، فإن تاب وإلا قتل...»[(٣)].

وقال شرف الدين الحجاوي [ت سنة ٩٦٨هـ]: «... أو سب الله، أو رسوله أو استهزأ بالله أو كتبه أو رسله.. أو أتى بقول أو فعل صريح في الاستهزاء بالدين، أو وجد منه امتهان القرآن أو طلب تناقضه أو دعوى أنه مختلف أو مختلق أو مقدور على مثله، أو إسقاط لحرمته، أو أنكر الإسلام، أو الشهادتين، أو أحدهما كفر»[(٤)].

---

(١) «مطالب أولي النهى» (٦/ ٢٧٩). وانظر: «معونة أولي النهى» (٨/ ٥٤٦) لابن النجار.

(٢) «الفروع» (٦/ ١٦٨ ـ ١٦٩) لابن مفلح. وانظر: «الأعلام بقواطع الإسلام» المطبوع مع «الزواجر» (٢/ ٣٩٠).

(٣) «مطالب أولي النهى» (٦/ ٢٨٢)، و«الإقناع» (٤/ ٢٩٩).

(٤) «الإقناع» (٤/ ٢٩٧). وانظر: «الفروع» (٦/ ١٦٥) لابن مفلح، و«السلسبيل في معرفة الدليل» (٣/ ١٣٢) صالح البليهي، و«الإعلام بقواطع الإسلام» المطبوع مع «الزواجر» (٢/ ٣٨٩ وما بعدها).

وقال أيضاً: «أو سخر بوعد الله أو بوعيده»[١]، يعني كفر بذلك.

وقد أشار إلى هذه المسائل ـ المجمع على كفر فاعلها ـ بعض العلماء في منظوماتهم الفقهية منهم:

ابن عبد القوي في منظومته حيث قال:

ومن جحد الخلَّاق أو صفة له ... أو البعض من كتب الإلٰه المُوَحَّدِ
أو الرسل أو سبه أو رسوله ... ولو كان ذا مزح كفر كالتَّعَمُّدِ
ومستهزئ بالله أو آيةٍ له ... أو الرسل كَفِّرْه وأدب ولو هُدِي

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومن سب رب الخلق أو مرسلاً له ... فقتل أولاء أحتم بغير تردد[٢]

ومن النظم ـ أيضاً ـ ما ذكره الشيخ سعد ابن الشيخ حمد بن عتيق ـ عليهما رحمة الله تعالى ـ:

أو سب الله أو رسوله كفر ... إن مات غير تائب إلى سقر

إلى أن قال:

من سب الله أو رسوله قتل ... لا تقبلن لتوبة له نقل
كذاك من ردته تكررت ... بل قتله بكل حال قد ثبت[٣]

وقال موسى شحادة نظماً:

في أربع يرتد من لا يسعد ... في تركه الإسلام حالاً يبعد
بالقول أو بالفعل أو بشركه ... أو باعتقاد الند قل بتركه
إن شتم الخالق أو محمداً ... أو يدعي نبوة فمبعدا

---

(١) «الإقناع» (٤/٢٩٨). وانظر: «غاية المنتهى» (٣/٣٣٧ ـ ٣٣٨) للشيخ يوسف مرعي الحنبلي.

(٢) «عقد الفرائد وكنز الفوائد» (٢/٣٣٨ ـ ٣٣٩).

(٣) «نيل المرام بنظم متن الزاد» (ص٢٢٧).

إلى قوله:

تقذيره المصحف أو تمزيقه أو أنكر المفروض أو تطبيقه[(١)]

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ عليه رحمة الله ـ: «... ومن استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿... قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ...﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦][(٢)].

وقال أيضاً: «فإن الاستهزاء بالدين كفر صريح»[(٣)]. **وقال**: «ونكفر أيضاً المستهزئ بالدين مثل ما قال الله في الصحابي الذي غزا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك: ﴿... قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ...﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠][(٤)].

وبعد هذا البيان لكلام أئمة العلم والدين، ومع وضوح تلك النصوص عن الفقهاء التي تدل على كفر المستهزئ بالله تعالى ورسوله ﷺ ودين الإسلام، وأنَّ حكمه القتل ردة، إلا أن بعض العلماء ذهبوا إلى أنه يقتل حداً[(٥)].

وهذا القول مخالف للنصوص القرآنية الصريحة، والأحاديث النبوية الصحيحة المتقدمة، وهو من أثر لوثة الإرجاء حيث «تصوروا وجود الإيمان

---

(١) «منظومة الذهب المنجلي» (٢/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).
(٢) «الدرر السنية» (٨/ ٨٦).
(٣) «الدرر السنية» (٨/ ١٠٦).
(٤) المصدر السابق (٨/ ١٠٧).
(٥) انظر: «الصارم المسلول» (ص١٤١ ـ ١٤٢) وهذه الرسالة (ص٣٣١).

في قلب من عاش دهره كُلّه لم يسجد لله سجدة ولا صام له يوماً ولا أدَّى من زكاة ماله درهماً ولا عقد النية على حج بيته، بل ربما كان معلناً بسب الله ورسوله مهيناً للمصحف عمداً، حتى ولو قتلناه على شيء من ذلك قالوا: إن كان مقرّاً في نفسه فإنَّه يموت مسلماً عاصياً، وإذا امتنع عن التوبة يقتل حدّاً لا كفراً...

فمرجئة عصرنا أكثر غُلُواً من جهة أنهم لم يحكموا له بشيء من أحكام الكفر لا ظاهراً ولا باطناً. وأولئك (يعني: المرجئة القدامى) لم يخالفوا في إجراء الأحكام الظاهرة عليه لكن جوَّزوا إيمانه باطناً، فقالوا: لو قتلناه لأنَّه سبَّ الله ورسوله فهذا السب دليل على كفره وهو يوجب علينا تكفيره وقتله في أحكام الدنيا، لكن إن كان في قلبه مقرّاً بصدق الرسول فهو مؤمن ناج عند الله، أمَّا هؤلاء (يعني المرجئة المعاصرين) فيحكمون بإيمان من ذكرنا مثاله ظاهراً وباطناً ولا يرونه مستوجباً لحد فضلاً عن تكفير»[1].

❑ المطلب الخامس ❑

في الألفاظ المتعلقة بالاستهزاء بالدين قديماً وحديثاً

اعتنى الإسلام عناية كبيرة بالألفاظ، فبالكلام واللسان يعرف الخطاب، وبه يتعايش الناس، ويفهم بعضهم عن بعض، ولذلك أمر الله ﷻ بالصدق والعدل في الكلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]، **وقال أيضاً:** ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢].

«فإن الألفاظ ليس لها حدٌّ محدود تنتهي إليه، وتجد أصول التنبيه على هذه الألفاظ ـ يعني: النهي عنها ـ في: الكتاب والسنة، ولدى الفقهاء

---

(١) «الانحرافات العقدية والعلمية...» (ص١٣٦ ـ ١٣٧) علي بخيت.

في عدة أبواب، وبخاصة في: باب القذف، والردة ـ أعاذنا الله منهما ـ»[(١)].

وقد خصص بعض الفقهاء تآليف في ألفاظ معينة، منها: النجاة من ألفاظ الكفر: لِعرَبَ شاه [المتوفى سنة ٦٩٥هـ] ومنها: رسالة في «ألفاظ الكفر» لأبي علي محمد بن قطب الدين، ورسالة «البدر الرشيد في الألفاظ المكفرة» بشرح الشيخ ملّا علي القاري[(٢)].

وعند المحدثين جاء مبحث الألفاظ في أبواب الآداب والرقاق، بل أفردوا كتباً في الصمت وآداب اللسان كما فعل ابن أبي الدنيا، وابن أبي عاصم، والسيوطي[(٣)]، «ولبعض أئمة أهل العلم فضل الإفادة الظاهرة بجملة كبيرة منها على وجه التحقيق والتدقيق، ومن أكثر من رأيته ضرب بسهم وافر في ذلك الأئمة الحفاظ: النووي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وابن حجر ـ رحمهم الله جميعاً ـ»[(٤)].

وتأتي أهمية هذا المبحث؛ لتعلقه باللسان، فبالنطق بالشهادتين يتم الدخول في الإسلام، وفي النطق بضدِّ ذلك الوقوع في نواقض الإسلام، فيحصل الخروج منه، ولخطر اللسان وعظيم جرمه جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: «وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم ـ أو قال: على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم»[(٥)].

---

(١) «معجم المناهي اللفظية» (ص٧) للعلامة بكر أبو زيد.

(٢) وهي عندي مصورة من مكتبة الشيخ المحدث حماد الأنصاري رحمه الله وجزاه الله خيراً، وقد أفدت منها.

(٣) انظر: سرداً للكتب المؤلفة في اللسان استقلالاً أو عرضاً كتاب «الصمت وآداب اللسان» لابن أبي الدنيا، المتوفى سنة (٢٨١هـ) قسم الدراسة التي قام بها الشيخ نجم عبد الرحمٰن خلف (ص١٣١ ـ ١٣٧)، و«معجم المناهي» (ص٧).

(٤) «معجم المناهي اللفظية» (ص٨) للشيخ بكر أبو زيد.

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٧٤)، برقم (٢٢٠٧٧)، والترمذي في الإيمان، باب ما =

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: والله الذي لا إله غيره ما على وجه الأرض شيء أحوج إلى طول سجنٍ من لسانٍ»[(١)].

فالمتأمل لكتاب الله تعالى يجد أنَّ فيه عنايةً كبيرة بهذا الجانب لأجل حفظ المسلم من الوقوع في السخرية والاستهزاء بكُلِّ أشكاله وصوره، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ﴾ [البقرة: ١٠٤].

فأرشدت الآية الكريمة إلى ترك استعمال كلمة «راعنا» لأن اليهود ـ عليهم لعنة الله ـ كانوا يقولونها للنبي ﷺ ويقصدون بها الرعونة، قال تعالى موضحاً خبث هؤلاء اليهود: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ ..﴾ إلخ الآية [النساء: ٤٦].

فمن الألفاظ الدالة على السخرية والاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ ما جاء في (فوز النجاة) قوله: من قال لآخر: طبخ القدر «بِقُلْ هو الله أحدٌ»، كفر لأنه أراد السخرية لا التبرك به وتحسين الطوية»[(٢)].

= جاء في حرمة الصلاة، برقم (٢٦١٦) (٥/ ١٣) وقال عنه: حسن صحيح، والنسائي في «التفسير»، عند قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، برقم (١١٣٩٤) (٦/ ٤٢٨)، وابن ماجه في الفتن، باب كفّ اللسان في الفتنة، برقم (٤٠٢١) (٢/ ٣٧٣).

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٢٩)، برقم (٣٨٤)، وابن أبي الدنيا في الصمت، باب حفظ اللسان وفضل الصمت، برقم (١٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٠٣): «رواه الطبراني بأسانيد ورجالها ثقات». وانظر: طرفاً من أقوال السلف في اللسان «مقدمة صحيح مسلم»، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، «نووي» (١/ ١٨٨ ـ ١٩١)، و«سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية» (ص١٥٠، ١٥١) د. ناصر بن سليمان العمر.

(٢) «شرح بدر الرشيد في ألفاظ الكفر» (ص٢٠).

وفي الظهيرية(١): «من قال: سَلَخْتَ أو سلخ سورة الإخلاص، أو قال لمن يكثر قراءة سورة التنزيل: أخذت جيب سورة التنزيل؛ كفر، قلت ـ القائل الشيخ علي القاري ـ: أراد بالتنزيل التمثيل؛ وكذا في المحيط(٢)، أو قال: «أخذتَ جيب» «ألم نشرح لك»، كفر أي لقصد الاستهزاء لا المداومة على القراءة في البلاء والرخاء.

وفي الظهيرية: أو قال: فلان أقصر من ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾، كفر أي لأنه استهزأ بها، أو قال لمن يقرأ عند المريض سُورة ياسين: تُلَقِّمُهَا في فَمِ الميت(٣). كَفَرْ؛ أي لاستخفافه بها....»(٤).

ومن الألفاظ الدالة على الاستهزاء بالله تعالى ـ أيضاً ـ: ما ذكر الشيخ علي القاري، قال: «وفي المحيط... من قال: (والنازعات نزعاً أو نزعا) يعني بِضَمِّ النون وأراد به الطَّنز، كفر. انتهى. والطَّنَزُ بالطاء والنونِ والزَّاي السخرية»(٥).

ومن الألفاظ في هذا الباب ـ أيضاً ـ: ما ذكره الذهبي عن عمرو بن عبيد قال: إن كانت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ في اللوح المحفوظ فما لله على

---

(١) قال حاجي خليفة في «كشف الظنون» (٢/١٢٢٦): «الفتاوى الظهيرية» لظهير الدين أبي بكر محمد بن أحمد القاضي المحتسب ببخارى الحنفي، المتوفى سنة (٦١٩هـ).

(٢) قال في «كشف الظنون» (٢/١٦١٩): «المحيط البرهاني في الفقه النعماني»، للشيخ الإمام العلامة برهان الدين محمود بن تاج الدين أحمد ابن الصدر الشهيد برهان الأئمة عبد العزيز بن عمر بن مازه البخاري الحنفي، المتوفى سنة (٦١٦هـ).

(٣) لم يثبت قراءة ياسين على الميت نص صحيح. انظر: «إرواء الغليل» (١/ ١٥٠ ـ ١٥٢) للشيخ الألباني.

(٤) «شرح بدر الرشيد» (ص٢٠ ـ ٢١، ٢٧) للشيخ علي القاري.

(٥) المصدر نفسه (ص٢٤). وانظر: «مختار الصحاح» (ص٣٩٨)، فقد ذكر نفس المعنى الذي أشار إليه الشيخ علي القاري في معنى الطنز.

ابن آدم بحجة»[1].

ومنها: لو «قيل له: قل: «لا إلٰه إلا الله»، فقال: إيش من هذه الكلمات حتى أقول: لا إلٰه إلا الله، أو قيل لفاعل ذنب: قل: أستغفر الله، فقال استخفافاً: إيش فعلت، أو: إيش قلت حتى أقول: أستغفر الله. انتهى»[2]. فالكفر حينئذٍ واضح إن أراد الاستهزاء بكلمة الإخلاص والاستغفار، وإلا فهو من سوء الأدب مع الله تعالى ونوع استكبار من كبائر الذنوب لا يفضي بصاحبه إلى الكفر.

ومنها: «إذا قال عند التسبيح أو التهليل أو التكبير أو الاستغفار أو سماع علم غضباً: سمعت هذه الكلمات كثيراً، أو قال: بسم الله عند أكل حرام أو شربه أو سماع الغناء، فقال: هذا ذكر الله؟ أو سمع الأذان، فقال: هذا صوت الحمار أو الجرس أنا لا أحبه...»[3]. ثم علق ابن حجر ـ بقوله: «وقوله: «غضباً» راجع إلى جمع ما بعد «كذا» والكفر حينئذٍ واضح لأن قوله: «سمعت هذا كثيراً مع الغضب يدل بطريق التصريح أو قريب منه على الاستخفاف بالذكر، ولا شك أن الاستخفاف به من حيث هو ذكر كفر، وشرط الكفر بالبسملة عند الحرام أن يقصد الاستخفاف بها»[4].

ومنها: لو «.. قال: يمينك والضراط سواء». **ثم علق ابن حجر** رَحِمَهُ اللهُ على هذا اللفظ بقوله: «وما ذكره في يمينك والضراط سواء إنما يتجه ـ يعني الكفر ـ إن أراد باليمين المقسم به؛ الذي هو اسم من أسماء الله تعالى أو

---

(١) «السير» (٦/ ١٠٤)، و«ميزان الاعتدال» (٣/ ٢٧٦) كلاهما للإمام الذهبي.

(٢) «الإعلام بقواطع الإسلام» المطبوع بآخر كتاب «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (٢/ ٣٧٠) لابن حجر الهيتمي.

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٣٧٠).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٣٧٠).

صفة من صفاته، أمَّا لو أقسم بنحو طلاق أو عتق فلا كفر كما هو ظاهر»[١].

ومنها: . . . لو سمع خصمه يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: إيش يكون لا حول، أو إيش يعمل أو نحو ذلك كفر. انتهى.

قلت ـ القائل الهيتمي ـ: وكأنَّ[٢] وجهه أن هذا فيه استخفافاً بحول الله وقوته ونسبة الله تعالى إلى العجز وهو ظاهر فيمن عرف معنى: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»، ثم قائل ذلك إمّا جاهل لا يعرف معنى هذه الكلمة، فينبغي فيه أن لا يطلق القول بكفره بل يُعرَّف معناه فإن عاد لما قاله كفر، وإلا فلا، . . .»[٣].

قال الشيخ علي القاري: «وفي الظهيرية: تخاصما فقال أحدهُمَا: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»، **وقال الآخر**: لا حول لا يغني من جوع أو لا يغني من الخبز أو لا يكفي من الخبز أو لا يأتي من لا حول شيء أو قال: لا حول لا يثرد في القصعة كفر في الوجوه كلها»[٤]، بقيد الاستهزاء وهو ظاهر من الألفاظ المتقدمة، ومثله لو قالوا ذلك عند تسبيح الله تعالى بأنه لا يُغني من خبز، أو لا يثرد ثريداً في القصعة؛ كفر لاستخفافه في الكل باسم الله تعالى، «وهذا تعليل حسن يفيد إلى أنه لو قال: إلى كم سبحان الله؟ إلى ما تقول: سبحان الله؟ بطريق الاستفهام لا سيما عند إطالة هذا الكلام لا يكفر. .»[٥].

ومن ألفاظ الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ أيضاً: لو «قال عند ابتداء

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).

(٢) في الأصل: «كأنه»، وهو خطأ لركاكة العبارة، والصواب ما أثبته.

(٣) المصدر السابق (٢/٣٨٨). وانظر: المصدر نفسه (٢/ ٣٧٠).

(٤) «شرح بدر الرشيد» (ص٢٧).

(٥) المصدر نفسه (ص٢٨).

شرب الخمر أو الزنا أو أكل الحرام: بسم الله؛ كفر»[١].

وهذا متوجه فيما إذا كان قوله هذا محمولاً على الحرام المحض المتفق عليه، وكونه عالماً بالتحريم فيه، وهو مِمَّا علم تحريمه من الدين بالضرورة كشرب الخمر، وأنه قال ذلك استخفافاً بذكر الله عند الحرام[٢].

ومنها ـ أيضاً ـ ما نقله الهيتمي عن بعض علماء الحنفية، قال: «أو قال: المصحف آلة الفساد واللهو، أو لم يُقِرَّ بكتاب الله تعالى، أو قال: القرآن حكايات جبريل، وينكر وحي الرب الجليل...»[٣]، وهذا ظاهر جليٌّ قُصِدَ به الاستخفاف بالقرآن الكريم، الذي يجب تعظيمه وتوقيره.

ومنها ـ أيضاً ـ: لو «قال لمن يقرأ القرآن بالاستهزاء: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ [القيامة: ٢٩]، أو ملأ قدحاً فقال: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ [النبأ: ٣٤]، أو فرَّغ شراباً، فقال: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]. أو قال بالاستهزاء عند الوزن أو الكيل: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين: ٣]، أو رأى جمعاً فقرأ بالاستخفاف: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧]، أو قال: اجعل بيتنا مثل السماء والطارق وكذا في نظائرها أو دُعِيَ إلى الصلاة فقال: أنا أصلي وحدي: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ...﴾»[٤]، كفر وذلك إذا استعمل القرآن في غير ما وضع له بقصد الاستخفاف والاستهزاء، بخلاف استعماله لا بهذا القصد، لكن لا تبعد حرمته وليس كالتضمين كما هو ظاهر، على أنَّ جمعاً ـ يعني من أهل العلم ـ قالوا بحرمة التضمين[٥].

---

(١) المصدر نفسه (ص٢٨).
(٢) انظر: «شرح بدر الرشيد» (ص٢٩).
(٣) «الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٦٩).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٣٦٩).
(٥) انظر: المصدر نفسه (٢/ ٣٦٩) بتصرف يسير.

أمَّا الألفاظ المتعلقة بالرسول ﷺ والاستخفاف به، والتنقص: فمن ذلك **ما نقله الشيخ علي القاري ـ** رحمه الله ـ قال: «... وفي الفتاوى الظهيرية من رُوي عندهُ أن النبي ﷺ **قال: «ما بين بيتي[١] ومنبري روضة من رياض الجنة»[٢]**، فقال الآخر: أرى المنبر والبيت ولا أرى شيئاً. أي: يكفر، وهو محمول على أنه أراد به الاستهزاء، والإنكار، وليس مؤمناً بالأمور الغيبية الزائدة على الأحوال العينية الواردة في الأخبار»[٣].

ومن الألفاظ الدالة على الاستهزاء بالرسول ﷺ ـ أيضاً ـ: ما «لو قال جواباً لمن قال: كان رسول الله ﷺ إذا أكل لحس أصابعه؛ هذا غير أدب. كفر، وقد يوجه بأن هذا إنكار لسنة لعق الأصابع، ورغبة عنها...»[٤].

«والذي يظهر أنه إن قال ذلك احتقاراً له ﷺ، واستهزاءً، أو على جهة نسبة النقص إليه، كفر، وإلّا فلا، ويعزر التعزير الشديد»[٥].

ومنها: لو قال: «بئسما أخرجت السنة..» قال الهيتمي: «وما ذكره من

(١) قال الحافظ: «... ترجم بذكر القبر، وأورد الحديثين بلفظ البيت، لأنَّ القبر صار في البيت، وقد ورد في بعض طرقه بلفظ القبر. قال القرطبي: الرواية الصحيحة: «بيتي»، ويروى: «قبري» وكأنّه بالمعنى لأنَّهُ دُفِنَ في بيت سكناه». «الفتح» (٣/ ٨٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل ما بين القبر والمنبر، برقم (١١٩٥، ١١٩٦)، «فتح» (٣/ ٨٤)، وفي كتاب فضائل المدينة، باب (١٢)، برقم (١٨٨٨)، «فتح» (٤/ ١١٩)، ومسلم في كتاب الحج، باب ما بين القبر والمنبر، روضة من رياض الجنة، برقم (١٣٩٠)، «نووي» (٩/ ١٧٠).

(٣) «شرح البدر الرشيد» (ص٦ ـ ٧) علي القاري. وانظر: «الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٧٠) للهيتمي.

(٤) «الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٦٤).

(٥) المصدر نفسه (٢/ ٣٦١).

إطلاق الكفر في بئسما أخرجت السنة... ظاهر لأنه صريح في الاستهزاء بالدين»[(١)].

ومنها: لو «شفع عنده رجل فقال: لو جاء النبي ﷺ ليشفع فيه ما قبلت منه؛ كفر، ويتجه أنه يحكم بكفر قائل ذلك إن قاله استخفافاً بمقامه الرفيع ﷺ، أمَّا لو قال ذلك للتأكيد دون الاستخفاف، فإنه لا يكفر»[(٢)].

ومنها: إذا قال: «استخفافاً: النبي طويل الظفر، خلِق الثياب، جائع البطن، كثير النسيان، ولو قيل له قص شاربك (وكذا: قلّم أظفارك) فإنه سنّة، فقال بالإنكار: لا أفعل أو كان النبي يحب القرع أو الخل، فقال: لم أرهما، أو لا أرى بينهما شيئاً...»[(٣)].

ثم علق الهيتمي على هذا بقوله: «... وتقييده لها بالاستخفاف حسن ولا يشترط الجمع بين الألفاظ التي ذكرها، بل واحد منها أو من غيرها مع الاستخفاف كُفْر»[(٤)].

وقد حدث في مجلس الخليفة المأمون بحضرة أبي يوسف، وقد حُدّث بأنَّ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يحب القرع، فقال رجل: أنا لا أُحِبُّه فأمر أبو يوسف بإحضار النطع والسيف، فقال الرجل: أستغفر الله مِمَّا ذكرتُهُ ومن جميع ما يوجب الكفر؛ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله فتركه ولم يقتله. «وتأويل هذا أنه قال بطريق الاستخفاف؛ يعني لأن الكراهة الطبيعية ليست داخلة تحت الأعمال الاختيارية ولا يكلّفُ بها في

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٣٧٣).
(٢) «مطالب أولي النهى» (٦/ ٢٨٧). وانظر الأصل: «غاية المنتهى» (٣/ ٣٤٠)، و«الإقناع» (٤/ ٣٠١) للحجاوي.
(٣) «الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٣٧٠).

القواعد الشرعية»[١]. فلا يكون مرتكباً حراماً بقوله: لا أحبه، أو لا أشتهيه، أو أجد نفسي تعافه ونحوها.

ومنها: ما نصَّ عليه الفقهاء في أن من قال عن الرسول ﷺ: «هَزْمٌ»[٢] يستتاب فإن تاب وإلا قتل؛ لتنقصه بالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ[٣].

قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «... وما ذكره ظاهر لقصد النقص وهو كفر كما مَرَّ... إذ لا يعذر أحد في الكفر بالجهالة، ولا بدعوى زَلَل اللسان، ولا بشيء ممَّا ذكرناه إذا كان عقله في فطرته سليماً إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان أو نشأ بحواضر الإسلام والعلم»[٤].

وخلاصة القول في الألفاظ المتعلقة بالنبي ﷺ أنها على ثلاثة أضرب:

الأول: ما هو كفر، مثل قوله: «إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله»[٥].

الثاني: ما هو ذنب ومعصية يُخَافُ على صاحبه أن يحبط عملُه، مثل رفع الصوت فوق صوته، ومثل مراجعة من راجعه يوم الحديبية بعد ثباته على

(١) «شرح بدر الرشيد» (ص٩ ـ ١٠).

(٢) الهَزْمُ: غمزك الشيء تهزِمُهُ بيدك فينهزِمُ في جوفه كما تغمزُ القناة فتتهزم، وكذلك القربة، وهزمَ الشيء يَهْزِمُهُ هَزْماً فانْهَزَمَ: غَمَزَهُ بيده فصارت فيه وَقْرَةٌ كما يُفْعَلُ بالقِثَّاءِ ونحوه...». انظر: «لسان العرب» (١٢/ ٦٠٨) لابن منظور، ولعلَّ مقصودهم أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيه مغمز في عرضه أو دينه؛ ولذلك عدَّ الفقهاء هذه اللفظة من ألفاظ السخرية والاستهزاء.

(٣) انظر: «حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» (٤/ ٣١٠)، و«الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٨٢).

(٤) «الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٨٤).

(٥) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب من ترك قتال الخوارج للتأليف، برقم (٦٩٣٣)، «فتح» (١٢/ ٣٠٣)، ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، برقم (١٠٦٣)، «نووي» (٧/ ١٦٥) مع اختلاف في اللفظ.

الصلح، ومجادلة من جادله يوم بدْرٍ بعدما تبيَّن له الحق، وهذا كله يدخل في المخالفة عن أمره[١].

الثالث: ما ليس من ذلك، بل يُحْمَدُ عليه صاحبه أو لا يُحْمَدُ، كقول عمر: «ما بالنا نقصر الصلاة وقد أمنَّا[٢]؟»[٣].

والذي أشرت إليه من الألفاظ التي فيها استهزاء وسخرية برسول الله ﷺ من باب الضرب الأول «ما هو كفر» إذا كان صريحاً في لفظه، أو بقيد الاستخفاف في بعض الألفاظ.

ومن الألفاظ التي فيها استهزاء وسخرية بالشريعة الإسلامية والتحاكم إليها: ما أشار إليه الشيخ علي القاري، قال: «وفي المحيط: من ذُكِرَ عنده الشرع فتجشَّ أي عمداً أو تكلفاً أو صوَّتَ صوتاً كريهاً أي تعذراً أو تَكَرُّهاً، وقال: هذا الشرع؟ كفر حيث شَبَّهَ الشرع بالأمر المكروه في الطَّبْعِ...»[٤].

ومنها: لو «قال له خصمه: أحاكمك بحكم الله، فقال: لا أعرف الحكم أو ما يجري الحكم هنا أو ليس هنا حكم؛ ما هنا إلا دبوس[٥] أيُّ شيء يعلم الحكم»، ثم علق الهيتمي على هذه الألفاظ بقوله: وما ذكره (ـ أي

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب صلاة المسافر وقصرها، برقم (٦٨٦)، «نووي» (٥/٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٣) انظر: «الصارم المسلول» (ص٢٠٦ ـ ٢٠٧) لابن تيمية.

(٤) «شرح بدر الرشيد» (ص٧٢).

(٥) قال ابن منظور المتوفى سنة (٧١١هـ): «الدبوسُ: خلاصة التمر تلقى في السمن مطيبة للسمن». «لسان العرب»، مادة (د ب س) (٦/٧٦). وقال الرازي المتوفى سنة (٦٦٦هـ): «الدِّبْسُ: ما يسيل من الرطب». «مختار الصحاح»، مادة (د ب س)، (ص١٩٨). وانظر: «القاموس المحيط» (٢/٣٠٩ ـ ٣١٠) للفيروزآبادي.

الحنفي ـ) في لا أعرف الحكم وما بعده إنما يتجه الكفر فيه عندنا (ـ يعني الشافعية ـ) إن أراد الاستهزاء بحكم الله تعالى أو استخفافه»(١).

وفي موضع آخر قال رَحِمَهُ اللهُ: «وما ذكره في مسألة الشريعة والقاضي والأحكام المذكورة ظاهر إن قال ذلك استهزاء أو استخفافاً، وكذا إن أطلق على احتمال فيه لأن اللفظ ظاهر في الاستخفاف أو الاستهزاء»(٢).

وما أشار إليه العلماء والفقهاء قديماً، في إلحاق الكفر والرِّدة فيمن تلفظ بتلك الألفاظ، ونَبَزَ بها شريعة الإسلام في الحكم، نجد أضعاف أضعاف تلك الألفاظ عند أهل الجهل والمجازفة من المعاصرين فمنها: قول بعضهم: «الشريعة بحر الظلمات!! «فهي» كلمة يطلقونها على كل حكم شرعي يخالف أهواءهم وشهواتهم، واعتقادهم أنَّ من دخل في أحكام الشرع فهو بمنزلة من دخل في بحر عميق مظلم مُدْلَهِمّ محفوف بالمخاطر»(٣).

ومنها: قولهم: «الشرع هنديّ فترمز في مصطلحهم إلى أن الشرع الإسلامي لا يعرف المروءة ولا يقدر أحوال الناس، ومناصبهم ووجاهاتهم، فلو أن في الهندي مروءة ـ على حد زعمهم ـ!! لكان في الشريعة عدل!! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، على أن المروءة لا يجوز حصرها في أمة دون أمة، أو منطقة دون منطقة»(٤)، أو لسان دون لسان، هذا من عمل أهل الجاهلية؛ إذ يجعلون العبرة باللون أو اللسان أو البلد، ويطّرحون الميزان الحق: التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، **قال ابن**

---

(١) «الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٧٢).
(٣) «عادات وألفاظ تخالف دين الله الحق» (ص١٢ ـ ١٣) للشيخ الدكتور محمد بن سعيد القحطاني.
(٤) المصدر نفسه (ص١٢ ـ ١٣).

كثير رَحِمَهُ اللهُ: «أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قيل للنبيِّ ﷺ: من أكرمُ الناسِ؟ **قال: أكرمُهُم أتقاهم**، قالوا: يا نبيَّ الله ليس عن هذا نسألك، **قال: فأكرم الناس يوسف نبيُّ الله ابنُ نبيِّ الله ابن خليل الله**، قالوا: ليس عن هذا نسألك، **قال: أفعن معادن العرب تسألونني؟** قالوا: نعم. **قال: فخيارُكم في الجاهلية خيارُكُمْ في الإسلام إذا فقهوا**[(١)]»[(٢)].

ومنها: قولهم: «أعطنا القانون واترك الكانون!! فهي من العبارات التي تنطق بها ألسنتهم منذ خروجهم من باب المحكمة الشرعية، والقانون هو عرف القبيلة وما يسمونه مذهباً، وأما الكانون فهو إناء الفحم، لذلك غمزوا حكم الله وسموه كانوناً وتجبروا ورفعوا حكم القبيلة فسموه قانوناً»[(٣)].

وقد تصدَّى بعض الخلفاء لبعض المجازفين وقد سئل واحد عمن قتل حائكاً فأجاب فقال: يلزمه غضارة غرًّا، أي: جاريةٌ شابة رَغْنَاءُ، فسمع الخليفة بذلك، فأمر بضرب عنق المجيب حتى مات، وقال: هذا جزاء من استهزأ بحكم الشرع؛ والاستهزاء بحكم من أحكام الشرع كفرٌ[(٤)].

وغير ذلك مِمَّا ذكره الشيخ علي القاري في شرح ألفاظ الكفر عن بعض الأمراء، ومواقفهم تجاه تعظيم الدين وشعائره، وإنزال العقوبة على من استخفَّ به.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب «أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت...»، برقم (٣٣٧٤)، «فتح» (٦/ ٤٧٧)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل يوسف عليه السلام، برقم (٢٣٧٨)، «نووي» (١٥/ ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤).

(٣) «عادات وألفاظ تخالف دين الله الحق» (ص١٢ ـ ١٣).

(٤) «شرح بدر الرشيد» (ص٧٢ ـ ٧٣).

أمّا الألفاظ المتعلقة بالصلاة والزكاة ونحوها، فقد ذكر العلماء ـ رحمهم الله ـ طرفاً من تلك الألفاظ، منها ما أشار إليه الشيخ علي القاري، قال: «.. وفي جواهر الفقه[١]... لو قيل لفاسق: صَلِّ حتى تجد حلاوة الإيمان، فقال: لا أصلي حتى نجد حلاوة الترك؛ كفر يعني حيث رجَّحَ حلاوة المعصية على حلاوة الطاعة أو ساوى بينهما...»[٢]، والأقرب في سبب الكفر أن اللفظ ظاهر في الاستهزاء بالصلاة.

«... وفي الفتاوى الصغرى والجواهر... ومن صلى إلى غير القبلة عمداً كفر. ينبغي أن يحمل على ما إذا اعتقد جوازها أو فعلها استهزاءً»[٣].

وفي اليتيمية.... من ترك صلاة تهاوناً أي استخفافاً لا تَكَسُّلاً فقد كفر...»[٤].

ومنها: لو «قال: كم من هذه الصلوات فإنه ضاق صدري منها أو ملَّ أي حصل الملالةُ عنها فإنه كفر للاعتراض على فرضية كمِّيةِ هذه الصلوات في كثرة الأوقات»[٥]، وظاهر اللفظ فيه تنقص واستخفاف بهذه الفريضة التي فرضها الله ﷻ من فوق سبع سماوات.

ومنها: لو «قال: من يقدر على تمشية الأمر أو على إخراجه يعني كفر فإنه يدُلُّ على أنه يعتقد أن الله كلَّفهُ فوق طاقته، وقد قال: تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أو قال: أصبر إلى مجيء شهر رمضان، يعني أنه كفر لاعتقاد عدم فرضية الصلاة في غيره أو لزعم أن

---

(١) قال في «كشف الظنون» (١/ ٦١٥): «جواهر الفقه» لنظام الدين ...بن برهان الدين المرغيناني الحنفي ولد صاحب «الهداية».

(٢) «شرح بدر الرشيد» (ص٥١) للشيخ علي القاري. وانظر: «الإعلام» (٢/ ٣٦٥).

(٣) المصدر نفسه (ص٥٢ ـ ٥٣).

(٤) المصدر نفسه (ص٥٤).

(٥) المصدر نفسه (ص٤٤ ـ ٤٥).

الصلاة فيه يَسُدُّ عنها في غيره، أو قال: العقلاء لا يدخلون في أمر لا يقدرون أن يمضوا (أي: في إتمامه)، وفيه ما سبق من اعتقاد التكليف فوق الطاقة، (وفيه ـ أيضاً ـ حسب المفهوم ـ أن المضي في عمل الصلاة من فعل المجانين، وكفى بذلك استخفافاً بها)، أو قال: إنّي لا أدخُلُ الابتلاء يعني كفر، فإنهُ عَدَّ الطاعة ابتلاء مع أنَّ المعصية هي الابتلاءُ بالبلاء...»[(١)].

ومن ألفاظ الاستهزاء بالصلاة: لو قيل لإنسان: «ألا تصلي؟ فقال: إني شبعت من الصلاة أو من فعل الصلاة؟ أو إلى متى أعمل هذا؟ أو العجائز يصلون عنَّا، أو الصلاة المعمولة وغير المعمولة واحدة، أو صليت إلى أن ضاق قلبي»[(٢)].

قال الهيتمي: «وفي الحكم بالكفر في جميع هذه المسائل نظر، والأوجَهُ خلافه ما لم يُرِدْ بقوله: «العجائز يصلون عنّا، أو بقوله: المعمولة وغير المعمولة واحد؛ عدم وجوبها عليه لِمَا مَرَّ أن إنكار الصلاة أو نحو سجدة منها كُفْر.

ولو أراد الاستخفاف بشيء ممَّا قاله في المسائل كلها كفَر»[(٣)]، وإلا فلا كفر، إن كان قَصْدُ المجيب ثِقَلَ الطاعات، وضعف نفسه عن تحملها من غير استخفاف[(٤)].

أمّا الألفاظ المتعلقة بالأذان، والاستهزاء به واحتقاره، مِنْ فعْل من لا خلاق لهم، فمنها: لو «قال: صوت طرفة حين سمع الأذان أو قراءة القرآن استهزاءً كَفَر، وقوله استهزاءً يفيدُ ما قررناه سابقاً حيث أطلقه»، «أو قال

(١) المصدر نفسه (ص٤٥ ـ ٤٦).
(٢) «الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٦٥).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٣٦٥).
(٤) انظر: المصدر نفسه (٢/ ٣٨٨).

لمؤذن يؤذن استهزاءً لأذَانِهِ: مَنْ هذا المخرومُ[١] الذي يؤذنُ؛ استهزاءً»[٢] كفر لاستخفافه بشعيرة الأذان.

وقد أشار الهيتمي إلى هذا بقوله: «ولو سمع أذان المؤذِّن[٣] فقال: إنه يكذب أو صوت جرس وناقوس ونحوه، كَفَر...، واعترض بأنَّ أبا حنيفة صح عنه أنه قال: لا أكفر أحداً من أهل القبلة بذنب[٤]، وهذا الاعتراض في غاية السقوط»، ثم أجاب رَحِمَهُ اللهُ بأجوبةٍ منها: فإنَّ كلام أبي حنيفة لا ينافي ذلك لِمَا مرَّ أن الاستخفاف بنحو أمره تعالى أو تصغير اسمه كُفرٌ عندهم، فأولى الاستخفاف باسمه، على أن قول أبي حنيفة المذكور ليس من خواص مذهبه، بل مذهبنا ذلك أيضاً، والتكفير هنا لم يأت من حيث ارتكاب الذنب بل من حيث استخفافه باسم الله المتضمن للاستخفاف به تعالى، وهذا لا يتوقف أحد في التكفير به[٥].

فبهذا يزول الإشكال والاعتراض السابق بكلام الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، إذ الاستهزاء وحده كافٍ في إلحاق التكفير بفاعله عند تحقق الشروط وانتفاء الموانع.

---

(١) قال في «مختار الصحاح»، مادة (خ ر م) (ص١٧٤): «والأخْرَمُ: الذي قطعت وترة أنفه أو طرف أنفه قطعاً لا يبلغ الجدع. وقيل: الأخرم: مثقوب الأذن».

(٢) «شرح بدر الرشيد» (ص١٣٤ ـ ١٣٥).

(٣) في الأصل: «لو سمع أذان المؤمن» وهو خطأ، والصواب ما أثبته.

(٤) هذه العبارة ذكرها الإمام الطحاوي، توفي سنة (٣٢١هـ) في عقيدته المشهورة، مقيدة بقوله: «... ما لم يستحله»، ثم شرحها الإمام ابن أبي العزّ الحنفي، توفي سنة (٧٩٢هـ)، في «شرح الطحاوية» (ص٣١٧)، فممَّا جاء قوله: «ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنّا لا نكفر أحداً بذنب، بل يقال: لا نكفرهم بكل ذنب، كما تفعله الخوارج، وفرّق بين النفي العام، ونفي العموم، والواجب إنما هو نفي العموم، مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب...». وانظر: «الفقه الأكبر مع شرحه» (ص١٣٦) للقاري.

(٥) «الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٦١). وانظر: (ص٣٦٥، ٣٨٨) من المصدر نفسه.

أمَّا ما يتعلق بالألفاظ في باب الزكاة فقد قال القاري:

«وفي الجواهر: من قيل له: لم لا تزكي؟ فقال: «إلام أعطي هذه الغرامة كفر، ولو قيل: لمن وجب عليه الزكاة أدِّ الزكاة، فقال: لا أؤدي. كفر؛ والصحيح التفصيل الذي ذكره بقوله: وقيل: إذا قال ذلك على وجه الرد أي رد حكم الله والجحود أي إنكار وجوبها كفر، وإلا فلا»[(١)]، ويحمل قوله: «إلام أعطي هذه الغرامة...» ما لو قاله استخفافاً واستهزاءً بفريضة الزكاة التي هي ثالث أركان الإسلام.

أمَّا الألفاظ المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد ذكر العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ طرفاً في مصنفاتهم المتعلقة بالمكفرات من الأقوال والأعمال، فمن ذلك ما ذكره الشيخ علي القاري: «وفي الخلاصة[(٢)]... أو قال لآمر بالمعروف: جيتم بالغوغا أو بالشَّغْب[(٣)]، يخاف عليه الكفر؛ أي إن أراد بنفس الأمر بالمعروف أنه غَوْغَاء، وشَغْبٌ بخلاف ما إذا أراد ما يترتب عليه من بلاءٍ وتعبٍ»[(٤)]، فلا يتوجه الكفر حينئذٍ.

ومنها: لو قال لآخر: «لِمَ لَمْ تأمر بالمعروف ولا تنه عن المنكر؟ فقال: إيش عُمِلَ بي، أو ما يجب أو قال: **هذا فَشَارٌ**، وهذيان على وجه الإنكار، أو قال: إيش فضولي أنا...»[(٥)].

---

(١) «شرح بدر الرشيد» (ص١٧٨ ـ ١٧٩).

(٢) قال في «كشف الظنون» (١/ ٧٢٠): «الخلاصة في الفروع» للقاضي وجيه الدين أسعد بن المنجا الحنبلي الدمشقي المتوفى سنة (٦٠٦هـ).

(٣) الشَّغْب ـ بالتسكين ـ: تهييج الشرِّ، ولا يقال: شَغَبٌ بالتحريك. انظر: «مختار الصحاح» (ص٣٤٠) للرازي.

(٤) «شرح بدر الرشيد» (ص١٨١ ـ ١٨٢).

(٥) «الإعلام بقواطع الإسلام» (ص٣٧١).

والذي يتجه في مسائل الأمر بالمعروف ـ **كما قال الهيتمي** ـ أنه لا كفر فيها إلا إن قال شيئاً من ذلك على وجه الاستهزاء كما مرَّ أن من سخر بحكم من أحكام الشريعة كفر، ولا شك أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حكم شرعي، فمن قال فيه شيئاً من ذلك استهزاءً لو سخرية كفر، وإلا فلا، وإن قال: ما يجب لأنه غير معلوم من الدين بالضرورة»(١).

ومنها: لو «رأى الغزاة الذين يخرجون للغزوِ، وقال: هؤلاء أكلة الأرُزّ. فقد قيل: يخشى عليه الكفر، يعني إن أراد به مجرد إهانتهم من جهة طاعتهم كَفَرَ، وأمَّا إن قال ذلك نظراً إلى عدم تصحيح نيتهم وتحسين طويتهم فلا يكون كفْراً»(٢)، ونظير هذا ما حدث في غزوة تبوك من قول بعض المسلمين: «ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرغب بطوناً...» فهي كقوله: «هؤلاء أكلة الأُرُزّ»، فهذان اللفظان يؤديان معنًى واحداً، هو تنقص أهل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسخرية بهم، وكفى بذلك إثماً مبيناً.

ومن ألفاظ الاستهزاء بالآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وعملهم الشريف في العصر الحاضر الذي به حفظ كيان الأمة من أن يعمَّها الله بعذاب من عنده: ما يتلفظ به بعض السفهاء عندما يرون العاملين في هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يأمرون بالصلاة، ويحثون الناس على فعلها جماعة في المساجد يقولون: «جاءكم أعضاء شركة صَلُّوا» أو «جاءت شركة صلُّوا»، ونحوها من ألفاظ تدور بين الكفر والكبيرة، فإن كان القصد العاملين في هذا المجال بذواتهم فهو دون الكفر، وإن كان المقصود العمل الذي يقومون به: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو أمر يفضي بصاحبه إلى الكفر والردة عن الإسلام، لأنه ظاهر في الاستهزاء بالدين،

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٣٧٢).
(٢) «شرح بدر الرشيد» (ص٣٥ ـ ٣٦).

وتنقصٌ لشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكفى بذلك قبحاً وسوءاً نسأل الله العافية.

ومن الألفاظ ما يتعلق بيوم القيامة، وما فيه من حشر وجنة ونار، وثواب وعقاب، فمنها: «لو قال ظالم لمن قال له: اصبر إلى المحشر، أي شيء في المحشر؟ وهو ظاهر إن أراد الاستخفاف»(١) أو إنكار المعاد.

ومنها: «لو قال: لا أخاف القيامة كفر... ومحله إن قصد الاستهزاء أمَّا إذا أطلق أو لمح سعة عفو الله تعالى ورحمته وقوة رجائه فلا يكفر»(٢).

وقد أوضح ابن حجر الهيتمي في موضع آخر متعلق التكفير: بإيش شغلي مع الحشر، إن قصد الاستخفاف به، وإلا فلا(٣).

ومن الألفاظ في هذا الباب ـ أيضاً ـ وهو مِمَّا يكثر عند الجُهَّالِ من العامة، «قال لمديونه: أعط دراهمي في الدنيا فإنه لا درهم في القيامة يعني يؤخذ من حسناتك، فقال: زدني تأخذ في يوم القيامة أو أطلب في القيامة، أو قال: زدني أعطيك كُلَّهُ أو جملة في القيامة كَفَرَ، أي لأن ظاهره إنكار يوم القيامة أو نفي خوف العقوبة أو استهزاءً بما ثبت في السنة من أخذ الحسنة(٤)»(٥).

ومنها: لو «قال: أعطني بُرًّا أعطيك يوم القيامة شعيراً، أو على العكس، كفر، أي لأنه صريحٌ في الاستهزاء»(٦).

---

(١) «الإعلام بقواطع الإسلام» (٢/ ٣٦٥).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٣٦١).

(٣) انظر: المصدر نفسه (٢/ ٣٧٦).

(٤) فيه إشارة إلى حديث أبي هريرة: «**أتدرون من المفلس...**»، وقد تقدم ذكره وتخريجه (ص٢٧٣) من هذه الرسالة.

(٥) «شرح بدر الرشيد» (ص٢١٢ ـ ٢١٣). وانظر: «الفقه الأكبر» (ص١٦٥).

(٦) المصدر السابق (ص٢١٣). وانظر: «الفقه الأكبر مع شرحه» (ص١٦٥).

ومنها: لو «قال لعابد: مهلاً أو اجلس حتى لا تتجاوز الجنة أو لا تقع وراء الجنة، أي بزيادة الطاعة والعبادةِ، كفر أي لاستهزائه»[١] بثواب الله تعالى لأهل طاعته وتوحيده، وهذا الذي أشار إليه العلماء ما نسمعه من بعض الجهلة من قولهم: «لا تسدوا علينا باب الجنة» أو «أخاف أن تقفوا على باب الجنة فتمنعونا من دخولها»، يقال هذا لأهل الاستقامة والطاعة من بعض المجازفين.

فمثل هذه الألفاظ يجب على عامة المسلمين الحذر منها، واجتنابها لأن الوقوع فيها مع العلم بما تؤدي إليه من نتيجة سيئة، تصل بصاحبها إلى الكفر والردة عن الإسلام ـ أعاذنا الله من ذلك ـ آمين.

ولو أخذت أتتبع مثل هذه الألفاظ لطال الكلام عليها جدّاً ولكن كما قال ابن تيمية كَلَّلَهُ: «والكلام على أعيان الكلمات لا ينحصر، وإن جماع ذلك أنّ ما يعرف الناس أنَّه سبٌّ فهو سبّ، وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال والاصطلاحات والعادات، وكيفية الكلام ونحو ذلك، وما اشتبه فيه الأمر أُلْحِقَ بنظيره وشبهه، والله ﷻ أعلم»[٢].

❑ المطلب السادس ❑

شبهات والرد عليها

سبق الكلام عن حكم الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ودين الإسلام، من خلال أدلة الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة، وكلام الفقهاء ـ رحمهم الله تعالى ـ وأنَّ ذلك كفر وردة عن الدين.

---

(١) المصدر نفسه (ص٦٨).

(٢) «الصارم المسلول» (ص٥٤٣).

لكن هناك آراء مخالفة لإجماع المسلمين، ولما تقرر من كلام الله ورسوله وأصول الشريعة، وهي عبارة عن شُبَه كلامية، وآراء شاذة لبعض الفقهاء أسوقها مناقشاً إياها رادّاً لما فيها من باطل يخالف ما تقدم تقريره، فإليك شبه المخالفين، والرّد عليها:

○ الشبهة الأولى:

أنَّ الجهمية والمرجئة رأوا أَنَّ الإيمان هو معرفة الرسول ﷺ أو تصديقه فيما أخبر به، ورأوا أنَّ اعتقاد صدقه لا ينافي السبَّ والشتم والاستهزاء بالذات.

فهؤلاء كما قال شيخ الإسلام: «لم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان، وظنوا أَنَّهُ قد يكون الإنسان مؤمناً كامل الإيمان بقلبه، وهو مع هذا يَسُبُّ الله ورسوله ويعادي الله ورسوله، ويعادي أولياء الله، ويوالي أعداء الله، ويقتل الأنبياء، ويهدم المساجد، ويكرم الكفار غاية الكرامة، ويهين المؤمنين غاية الإهانة، قالوا: وهذه كلها مَعَاصٍ، قالوا: وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار، لأن هذه الأقوال أمارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالإقرار والشهود، وإن كان في الباطن قد يكون بخلاف ما أَقَرَّ به وبخلاف ما شهد به عليه، فإذا أُورد عليهم الكتاب والسنة والإجماع على أنَّ الواحد من هؤلاء كافر في نفس الأمر معذب في الآخرة، قالوا: فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه، فالكفر عندهم شيء واحد وهو الجهل، والإيمان شيء واحد وهو العلم، أو تكذيب القلب وتصديقه، فإنهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم أم هو هو»[1].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٨٨ ـ ١٨٩، ٥٥٧ ـ ٥٥٨). قال ابن تيمية: «وهذا القول مع أنَّه أفسد قول قيل في الإيمان فقد ذهب إليه كثير من «أهل الكلام المرجئة»، وقد كفَّر السلف ـ كوكيع بن الجراح، وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد، وغيرهم ـ من يقول بهذا القول». المصدر نفسه (٧/ ١٨٩).

فالردُّ على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: «أنَّ الإيمان وإن كان أصلُه تصديق القلب فذلك التصديق لا بُدَّ أن يوجب حالاً في القلب وعملاً له، وهو تعظيم الرسول وإجلاله ومحبته، وذلك أمر لازم كالتألم والتنعم عند الإحساس بالمؤلم والمنعم، . . .»[١].

وقال ابن تيمية في موضع آخر في دحض هذه الشبهة: «فهؤلاء غلطوا في أصلين:

أحدهما: ظنهم أنَّ الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط، ليس معه عمل، وحال، وحركة، وإرادة، ومحبة، وخشية في القلب، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقاً، فإنَّ «أعمال القلوب» التي يسميها بعض الصوفية أحوالاً ومقامات أو منازل السائرين إلى الله، أو مقامات العارفين، أو غير ذلك لما فيها ممَّا فرضه الله ورسوله فهو من الإيمان الواجب، وفيها ما أحبَّه الله ولم يفرضه، فهو من الإيمان المستحبّ، فالأول لا بُدَّ لكلِّ مؤمن منه»[٢].

الوجه الثاني: «أنَّ الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأنَّ التصديق إنما يعرض للخبر فقط، فأمَّا الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أَمْر، وكلام الله خبرٌ وأمْرٌ؛ فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمرُ يستوجب الانقياد والاستسلام، وهو عمل في القلب جِمَاعُه الخضوع والانقياد للأمر. . . فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد؛ فقد حصل أصل الإيمان في القلب، وهو الطمأنينة والإقرار. . . وإذا كان كذلك فالسبُّ إهانة واستخفاف،

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٥١٩).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٩٠).

والانقياد للأمر إكرام وإعزاز، ومُحَالٌ أن يُهينَ القلبُ من قد انقاد له وخضع واستسلم أو يستَخِفَّ به. . . .»[(١)].

الوجه الثالث: أنهم «ظنّوا أنّ كل من حكم الشرع بأنه كافر مخلد في النار، فإنما ذاك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق، وهذا أمر خالفوا به الحسَّ والعقل والشرع، وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمي الفطرة، وجماهير النظّار»[(٢)].

الوجه الرابع: «أنَّا نعلم أنَّ من سب الله ورسوله طوعاً بغير كُرْه؛ بل من تكلم بكلمات الكفر طائعاً غير مكره، ومن استهزأ بالله وآياته ورسوله فهو كافر باطناً وظاهراً، وأنّ من قال: إنّ مثل هذا قد يكون في الباطن مؤمناً بالله، وإنما هو كافر في الظاهر، فإنه قال قولاً معلوم الفساد بالضرورة من الدين. وقد ذكر الله كلمات الكفار في القرآن وحكم بكفرهم واستحقاقهم الوعيد بها، ولو كانت أقوالهم الكفرية بمنزلة شهادة الشهود عليهم، أو بمنزلة الإقرار الذي يغلط فيه المقرّ، لم يجعلهم الله من أهل الوعيد بالشهادة التي تكون صدقاً، وقد تكون كذباً، بل كان ينبغي أن لا يعذبهم إلّا بشرط صدق الشهادة وهذا كقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ . .﴾ [المائدة: ٧٣]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ . .﴾ [المائدة: ٧٢] وأمثال ذلك»[(٣)].

وبهذا يتبيّن بطلان زعم الجهمية والمرجئة في أنَّ اعتقاد صدق الرسول لا ينافي الاستهزاء والشتم، فمجرد تصور هذا المذهب كافٍ في بطلانه لأنّ القوم انحرفوا عن تحكيم الكتاب والسنة على أنفسهم قولاً وعملاً، وركضوا وراء الذين كذّبوا بالكتاب، وبما أرسل الله به رسله، ونبذوا الكتاب وراء

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٥١٩ ـ ٥٢٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٩١).

(٣) المصدر نفسه (٧/ ٥٥٧ ـ ٥٥٨).

ظهورهم، اتباعاً لما تتلوه الشياطين[١].

○ الشبهة الثانية:

أنّ المرجئة والجهمية رأوا «أنَّ اعتقاد إيجاب طاعته لا ينافي معصيته ﷺ، فإن الإنسان قد يهينُ من يعتقد وجوب إكرامه، كما يترك ما يعتقد وجوب فعله، ويفعل ما يعتقد وجوب تركه...»[٢].

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: أنَّ من تكلَّم في اعتقادهم بالتكذيب والجحد وسائر أنواع الكفر من غير إكراه على ذلك فإنه يجوز أن يكون مع ذلك في نفس الأمر مؤمناً، ومن جوز هذا فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه.

الوجه الثاني: أنَّ الذي عليه الجماعة أنّ من لم يتكلم بالإيمان بلسانه من غير عذر لم ينفعه ما في قلبه من المعرفة، وأنّ القول من القادر عليه شرط في صحة الإيمان،... والإيمان قول وعمل هذا مذهب الصحابة والتابعين، وجماهير أئمة الإسلام، إلّا من ينسب إلى بدعة، فلا عبرة بخلافه، فكذلك من تكلم بكلمة الكفر طائعاً مختاراً فقد ضاد الإيمان، ونقضه.

الوجه الثالث: أنّ من قال: «إن الإيمان مجرد معرفة القلب من غير احتياج إلى النطق باللسان» يقول: لا يفتقر الإيمان في نفس الأمر إلى القول الذي يوافقه باللسان، لا يقول: إنَّ القول الذي ينافي الإيمان لا يبطله، فإن القول قولان: قول يوافق تلك المعرفة، وقول يخالفها، فهب أن القول الموافق لا يشترط، لكن القول المخالف ينافيها، فمن قال بلسانه كلمة الكفر من غير حاجة عامداً لها عالماً بأنها كلمةُ كُفر: «فإنه يكفر بذلك ظاهراً

---

(١) انظر: «الصارم المسلول» (ص٥٢٣).

(٢) المصدر السابق (ص٥١٨).

وباطناً»، ولأنَّا لا نُجَوِّزُ أن يقال: إنه في الباطن يجوز أن يكون مؤمناً، ومن قال ذلك فقد مرق من الإسلام، قال سبحانه: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦].

ومعلوم أنه لم يرد بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط، لأن ذلك لا يكره الرجل عليه، فعلم أن المراد من تكلم بكلمة الكفر، فينزَّل الحكم عليه، فيكفر ظاهراً وباطناً[1].

○ **الشبهة الثالثة:**

قول بعض الفقهاء: «إنه لا يكفر إلّا الساب والمستهزئ المستحل» وهذا الرأي الشاذ نقله القاضي أبو يعلى عن فقهاء العراق، كما قال ابن تيمية: «وذكر القاضي عن الفقهاء أنّ سابّ النبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ إن كان مستحلًّا كفَرَ، وإن لم يكن مستحلًّا فسق، ولم يكفر كسابِّ الصحابة»[2].

ونقل القاضي عياض مثل هذا عن فقهاء العراق أنهم أفتوا الخليفة هارون الرشيد، في رجل شتم النبي ﷺ بِجَلْدِه، وأنكر مالك رحمه الله على هارون، وقال له: «يا أمير المؤمنين! ما بقاءُ الأمة بعد شتم نبيِّها، إن من شتم الأنبياء قُتِل، ومن شتَم أصحاب النبيّ ﷺ جُلِدْ»[3].

وقد حكى ابن حزم الخلاف في حكم الساب والمستهزئ، **فذكر ثلاثة أقوال**: منهم: من يرى كفره وردَّته، ومنهم: من قال: ليس بكفر، ومنهم من توقف. ثم نقل بعد ذلك اتفاق الأئمة الأربعة، وإسحاق بن رَاهُويَه، وسائر

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٥٢٣ ـ ٥٢٤).
(٢) المصدر نفسه (ص٥١٤).
(٣) «الشفا» (٢/ ٩٥٤).

أهل الحديث على كفر المستهزئ وردّته، وهو إجماع بحمد الله وتوفيقه[١].

قال الهيتمي: «حكاية ابن حزم الخلاف لا معوّل عليها سواء أصدر منه جميع ذلك أو بعضه فيقتل، ولا تقبل توبته عند أكثر العلماء، وعليه جماعة أصحابنا، بل ادعى[٢] فيه الشيخ أبو بكر الفارسي الإجماع...»[٣].

أمّا ما حُكِيَ عن القاضي أبي يعلى رَحِمَهُ الله فقد نُقِلَ عنه خلاف ذلك في مواضع منها ما ذكره في «المعتمد»: من سبَّ الله أو سبَّ رسوله فإنه يكفر، سواء استحلَّ سبَّه أو لم يستحله، فإن قال: «لم أستحلّ ذلك»، لم يقبل منه في ظاهر الحكم، رواية واحدة، وكان مرتداً...»[٤].

ويزيد الأمر وضوحاً شيخ الإسلام رَحِمَهُ الله مبيناً سبب هذه الآراء الشاذة عن إجماع المسلمين فيقول: «وهذا موضع لا بُدَّ من تحريره، ويجب أنْ يعلم أنَّ القول بأن كفر السابِّ في نفس الأمر إنما هو لاستحلاله السبَّ زلَّة منكرة، وهفوة عظيمة... وإنما وقع من وقع في هذه المَهْوَاة بما تلقوه من كلام طائفة من متأخري المتكلمين ـ وهم الجهمية الإناث[٥] الذين ذهبوا مذهب الجهمية الأولى في أن الإيمان هو مجرد التصديق الذي في القلب، وإن لم يقترن به قولُ اللسان ولم يقتض عملاً في القلب ولا في الجوارح»[٦].

---

(١) انظر: «المحلى» (١١/٤٠٨ ـ ٤١٠).

(٢) في الحقيقة أن الإجماع في المسألة ثابت وصحيح كما سبق تقريره، وليس دعوى، وأما قبول توبة المستهزئ سواء كان مسلماً أو كافراً فسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام عن أقسام المستهزئين.

(٣) «الإعلام بقواطع الإسلام مع الزواجر» (٢/٣٨١). وانظر: نقل أبي بكر الفارسي الإجماع في «فتح الباري» (١٢/٢٩٣ ـ ٢٩٤).

(٤) «الصارم المسلول» (ص٥١٤).

(٥) وهم الأشاعرة.

(٦) «الصارم المسلول» (ص٥١٥).

ثم يلخص ابن تيمية الردّ على القائلين باشتراط الاستحلال في تكفير الساب المستهزئ في أربعة أوجه:

الوجه الأول: «أنَّ الحكاية المذكورة عن الفقهاء أنه إن كان مستحلًّا كفر، وإلّا فلا، ليس لها أصل، وإنما نقلها القاضي من كتاب بعض المتكلمين الذين نقلوها عن الفقهاء وهؤلاء ـ يعني: المتكلمين ـ نقلوا قول الفقهاء بما ظنوه جارياً على أصولهم، أو بما قد سمعوه من بعض المنتسبين إلى الفقه ممن لا يُعَدُّ قوله قولاً... فلا يظن ظان أن في المسألة خلافاً يجعل المسألة من مسائل الخلاف والاجتهاد، وإنما ذلك غلط، لا يستطيع أحد أن يحكي عن واحدٍ من الفقهاء أئمة الفتوى هذا التفصيل البتة»[(١)].

الوجه الثاني: «أن الكفر إذا كان هو الاستحلال فإنما معناه اعتقاد أَنَّ السبَّ حلال، فإنه لمَّا اعتقد أنّ ما حرمه الله تعالى حلال كَفَرَ، ولا ريب أَنَّ من اعتقد في المحرمات المعلوم تحريمها أنها حلال كَفَرَ، لكن لا فرق في ذلك بين سبِّ النبي وبين قذف المؤمنين والكذب عليهم، والغيبة لهم إلى غير ذلك من الأقوال التي علم أنَّ الله حرمها، فإنه من فعل شيئاً من ذلك مستحلًّا كفر، مع أنه لا يجوز أن يقال: من قذف مسلماً أو اغتابه كفر، ويعني بذلك: إذا استحلّه»[(٢)].

الوجه الثالث: «أنَّ اعتقاد حِلّ السبّ كفر، سواء اقترن به وجود السبِّ أو لم يقترن، فإذاً لا أثر للسبِّ في التكفير وجوداً وعدماً، وإنما المؤثر هو الاعتقاد، وهو خلاف ما أجمع عليه العلماء»[(٣)].

الوجه الرابع: «أنه إذا كان المكفر هو اعتقاد الحل فليس في السبِّ ما يدل على أنَّ السابَّ مستحل، فيجب أن لا يُكفَّر، لا سيما إذا قال: أنا

---

(١) المصدر نفسه (ص٥١٦). وانظر: «الشفا» (٢/ ٩٥٤ ـ ٩٥٥).
(٢) المصدر السابق (ص٥١٦ ـ ٥١٧).
(٣) المصدر نفسه (ص٥١٧).

أعتقد أنَّ هذا حرام، وإنما أقول غيظاً وسفهاً، أو عبثاً ولعباً، كما قال المنافقون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥].

فإن قيل: لا يكونون كفاراً، فهو خلاف القرآن، وإن قيل: يكونون كفاراً، فهو بغير موجب إذا لم يجعل نفس السبّ مكفراً... ولهذا قال ﷻ: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ..﴾ [التوبة: ٦٦]، ولم يقل: قد كَذَبْتُم في قولكم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فلم يكذبهم في هذا العذر كما كذبهم في سائر ما أظهروه من العذر الذي يوجب براءتهم من الكفر لو كانوا صادقين، بل بَيَّنَ أنهم كفروا بعد إيمانهم بهذا الخوض واللعب»[1].

○ **الشبهة الرابعة:**

وهي ما يزعمه المشركون، وطوائف المرجئة: أنّ من أدّى بعض واجبات الدين لا يكون كافراً ولو أتى بما ينافي التوحيد، وأنَّ من نطق بالشهادتين ولو أتى بما يناقضها لا يكفر.

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب: «فاعلم أنّ لهؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا، وهي من أعظم شبههم فاصغ سمعك لجوابها، وهي أنّهم يقولون: إنّ الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أنْ لا إلٰهَ إلّا الله ويكذِّبون الرسول وينكرون البعث، ويكذبون القرآن، ويجعلونه سحراً، ونحن نشهد أنَّ لا إلٰه إلّا الله وأنَّ محمداً رسول الله ونصدِّق القرآن، ونؤمن بالبعث ونصلّي ونصوم، فكيف تجعلوننا مثل أولئك؟[2]». ثم رد الشيخ رحمه الله على هذه الشبهة ردّاً شافياً يتلخص في أمور:

أحدها: أنه لا خلاف بين العلماء كلّهم أنّ الرجل إذا صدّق

(١) المصدر نفسه (ص٥١٧).
(٢) «كشف الشبهات»، للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب مع التعليقات (ص٦٩) للشيخ العلامة محمد بن عثيمين.

رسول الله ﷺ في شيءٍ وكذَّبَهُ في شيءٍ أنه كافرٌ لم يدخل في الإسلام، وكذا إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه، كمن أقرَّ بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة. أو أقرّ بالتوحيد والصلاة، وجحد الزكاة، أو أقرَّ بهذا كله وجحد الصوم، أو أقرّ بهذا كله وجحد الحج... ومن أقرَّ بهذا كله وجحد البعث كفر بالإجماع وحلّ دمه وماله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١]، فإذا كان الله قد صرح في كتابه أنّ من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقاً زالت هذه الشبهة[(١)].

الأمر الثاني: يقال لهم: هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وقد أسلموا[(٢)] مع النبي ﷺ وهم يشهدون أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلون ويؤذنون، فإن قال: إنهم يقولون: إنّ مسليمة نبيٌّ، قلنا: هذا هو المطلوب، فإن بني حنيفة كفروا بكلمة صوَّبوا فيها رأي مسيلمة ونبوته، فكذلك من نطق بكلمة الكفر وكفر بعد إيمانه، كالمستهزئ بالله تعالى، ورسله عليهم السلام، ودين الإسلام[(٣)].

الأمر الثالث: ما وقع في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه أنَّ بقايا بني حنيفة لمَّا رجعوا إلى الإسلام، وتبرؤوا من مسيلمة وأقروا بكذبه كبر ذنبهم في أنفسهم وتحملوا بأهلهم إلى الثغر لأجل الجهاد في سبيل الله لعلَّ ذلك يمحو عنهم تلك الردة... فنزلوا الكوفة، وصار لهم بها محلة معروفة فيها مسجد يسمى مسجد بني حنيفة، فمرَّ بعض المسلمين على مسجدهم ما بين المغرب والعشاء فسمع كلاماً معناه أَنَّ مسيلمة على حق وهم جماعة كثيرون

---

(١) المصدر نفسه (ص٧٠ ـ ٧٢).

(٢) أخرج خبرهم البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل من أبى قبول الفرائض، وما نسبوا إلى الردة، برقم (٦٩٢٤)، «فتح» (١٢/٢٨٨).

(٣) «كشف الشبهات مع التعليقات» (ص٧٣ ـ ٧٤) بتصرف. وانظر: «الدرر السنية» (٨/ ٢٠).

لكن الذي لم يقل لم ينكر على من قال، فرفعوا أمرهم إلى ابن مسعود فجمع من عنده من الصحابة ﷺ واستشارهم: هل يقتلهم، وإن تابوا أو يستتيبهم؟ فأشار بعضهم بقتلهم من غير استتابة وأشار بعضهم باستتابتهم، فاستتاب بعضهم، وقتل بعضهم ولم يستتبهم، وقتل عالمهم ابن النوّاحة.

فتأمل ـ رحمَك الله ـ إذا كانوا قد أظهروا من الأعمال الصالحة الشاقة ما أظهروا لما تبرأوا من الكفر وعادوا إلى الإسلام ولم يظهر منهم إلّا كلمة أخفوها في مدح مسيلمة، لكن سمعها بعض المسلمين ومع هذا لم يتوقف أحد في كفرهم كلهم المتكلم والحاضر الذي لم ينكر، لكن اختلفوا هل تقبل توبتهم أم لا؟[1]

فأين هذا مِمَّنْ يستهزئ بالدين وشرائعه وأحكامه، ويسخر من الله تعالى ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وَيُظْهِرُ ذلك كله، سواء كان قولاً أو فعلاً، فهل يقول عاقلٌ: إنَّهُ ما دام ينطق بالشهادتين، ويقوم ببعض فرائض الدين أنه لا يكفر؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

الأمر الرابع: ويقال لهم ـ أيضاً ـ: الذين حرَّقهم عليٌّ بن أبي طالب بالنار[2]، كلهم يدّعون الإسلام، وهم من أصحاب عليّ وتعلموا العلم من الصحابة، ولكن اعتقدوا في عليٍّ مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان[3] وأمثالهما.

فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم؟ أتظنون أنّ الصحابة يكفِّرون

---

(١) «الدرر السنية» (٨/ ٢٠ ـ ٢١، ٤٠).

(٢) أخرج خبرهم البخاري، كتاب الجهاد، باب لا يعذّب بعذاب الله، برقم (٣٠١٧)، «فتح» (٦/ ١٧٣)، وفي استتابة المرتدين، باب حكم المرتد والمرتدة، برقم (٦٩٢٢)، «فتح» (١٢/ ٢٧٩).

(٣) هما من الأشخاص الذين كان يعتقد فيهم أهل نجد كالبدوي والدسوقي في مصر حتى صاروا يُعْبَدُونَ من دون الله تعالى.

المسلمين؟...»[(١)]، أم أن الاستهزاء بالدين وشرائعه ليس من هذا الباب الذي يكفر صاحبه، ويحل ماله ودمه؟

الأمر الخامس: يقال لهؤلاء المشبهين على أهل الإسلام دينهم: هؤلاء بنو عُبَيْد القداح[(٢)] الذين ملكوا المغرب ومصر في زمان بني العبّاس كلّهم يشهدون أن لا إلٰه إلّا الله وأن محمداً رسول الله ويدّعون الإسلام، ويصلون الجمعة والجماعة فلمَّا أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم، وأنَّ بلادهم بلادُ حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين[(٣)].

الأمر السادس: ما وقع في زمن الصحابة، وهي قصة المختار بن أبي عبيد، وهو رجل من التابعين معاصر لعبد الله بن عمر ومظهر للصلاح، فظهر في العراق يطلب بدم الحسين وأهل بيته فقتل ابن زياد، ومال إليه من مال لطلبه دم أهل البيت مِمَّنْ ظلمهم، فاستولى على العراق وأظهر شرائع الإسلام ونصب القضاة والأئمة من أصحاب ابن مسعود، وكان هو الذي يصلي بالناس الجماعة والجمعة، لكن في آخر أمره زعم أنَّه يوحى إليه فسيَّر عليه عبد الله بن الزبير جيشاً فهزم جيشه وقتلوه، لأنّه أتى من القول ما يوجب كفره وردته، ووجوب قتاله وقتله لما ثبت في صحيح البخاري: **«من بَدَّل دينه فاقتلوه»**[(٤)].

---

(١) «كشف الشبهات مع التعليقات» (ص٧٥ ـ ٧٦) لابن عثيمين. وانظر: «الدرر السنية» (٢١/٨ ـ ٢٢).

(٢) انظر أخبارهم وكلام العلماء فيهم، والطعن في نسبهم الفاطمي كما يزعمون: «مجموع الفتاوى» (١٦٢/٤، ١٢٨/٣٥) لابن تيمية، وغيره.

(٣) «كشف الشبهات مع التعليقات» (ص٧٦ ـ ٧٧) لابن عثيمين. وانظر: «الدرر السنية» (٢٢/٨ ـ ٢٣).

(٤) «الدرر السنية» (٢٢/٨) بتصرف، والحديث سبق تخريجه (ص٣٨٣) من هذه الرسالة.

الأمر السابع: يقال لهم: إذا كان الأولون لم يكفروا إلا أنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول والقرآن، وإنكار البعث وغير ذلك، فما معنى الباب الذي ذكر العلماء في كل مذهب «بابُ حكم المرتدِّ» وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه، ثمَّ ذكروا أنواعاً كثيرة كل نوع منها يُكَفِّرُ ويحل دم الرجل وماله، حتى إنهم ذكروا أشياء يسيرةً عند من فعلها مثل كلمةٍ يذكرها بلسانه دون قلبه أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب[١].

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب: «وللمشركين شبهة أخرى[٢] يقولون: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال: لا إلـٰه إلّا الله، وقال له ﷺ: «**أقتلته بعدما قال: لا إلـه إلا الله**»[٣].

وكذلك قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إلـه إلا الله»[٤]، وأحاديث أخرى في الكفّ عَمَّنْ قالها، ومراد هؤلاء الجهلة أنَّ من قالها لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل»[٥].

«فيقال لهؤلاء الجهلة: معلومٌ أنَّ رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون: لا إلـٰه إلا الله، وأنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إلـٰه إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ويصلون ويدّعون

---

(١) «كشف الشبهات» (ص٧٧ ـ ٧٨). وانظر: «الإتحاف في الرد على الصحاف» (ص٤٦ ـ ٤٧) عبد اللطيف آل الشيخ.

(٢) هي في الواقع مستند الشبهة السابقة ودليلها.

(٣) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، برقم (٤٢٦٩)، «فتح» (٧/ ٥٩٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: «لا إلٰه إلا الله»، برقم (٩٦)، «نووي» (٢/ ٤٦١ ـ ٤٦٢).

(٤) رواه البخاري، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنّة رسول الله ﷺ، برقم (٧٢٨٤)، «فتح» (١٣/ ٢٦٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إلٰه إلا الله، برقم (٢١)، «نووي» (١/ ٣١٩ ـ ٣٢٠).

(٥) «كشف الشبهات مع التعليقات» (ص٨٢ ـ ٨٣) لابن عثيمين.

الإسلام، وكذلك الذين حرّقهم علي ابن أبي طالب بالنار»[١].

فأمّا حديث أسامة فإنَّه قتل رجلاً ادّعى الإسلام بسبب أنه ظنَّ أنه ما ادعى الإسلام إلا خوفاً على دمه وماله، والرّجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يُتبين منه ما يخالف ذلك، وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ...﴾ [النساء: ٩٤]، أي: تثبتوا، فالآية تدُلّ على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإذا تبيَّن منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾.

ولو كان لا يقتلُ إذا قالها لم يكن للتثبت معنى، وكذلك الحديث الآخر وأمثاله، معناها ما ذكرناه، وأَنَّ من أظهر التوحيد والإسلام وجب الكفّ عنه إلّا أن يُتَبيَّنَ منه ما يناقض ذلك، والدليل على هذا أنّ رسول الله ﷺ هو الذي قال: «**أقتلته بعدما قال: لا إله إلّا الله**»، هو الذي قال في الخوارج: **أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة**»[٢].

مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً وتسبيحاً، حتى إنَّ الصحابة يحقرون أنفسهم عندهم، وتعلموا العلم من الصحابة فلم تنفعهم «لا إلـٰه إلا الله» ولا كثرة العبادة، ولا ادّعاء الإسلام لـمّا ظهر منهم مخالفة الشريعة»[٣].

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب في رسالة «شرح ستة مواضع من السيرة»: «وأعظم من ذلك وأكبر تصريحهم بأن البوادي ليس معهم من

---

(١) وقد سبق تفصيل هذه الأدلة آنفاً.

(٢) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، برقم (٦٩٣٠)، «فتح» (١٢/ ٢٩٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الخوارج شرّ الخلق والخليقة، برقم (١٠٦٦)، «نووي» (٧/ ١٧٥).

(٣) «كشف الشبهات» (ص٨٣ ـ ٨٦) بتعليقات الشيخ ابن عثيمين.

الإسلام شعرة، ولكن يقولون: لا إلـٰه إلا الله، وهم بهذه اللفظة إسلام، وحرَّم الإسلام مالهم ودمهم مع إقرارهم أنهم تركوا الإسلام كله، ومع علمهم بإنكارهم البعث، واستهزائهم بمن أقرَّ به، واستهزائهم وتفضيلهم دين آبائهم مخالفاً لدين النبي ﷺ، ومع هذا كله يصرح هؤلاء الشياطين المردة الجهلة أنَّ البدو أسلموا، ولو جرى منهم ذلك كله، لأنهم يقولون: لا إلٰه إلا الله، ولزم قولهم أنّ اليهود أسلموا، لأنهم يقولونها، وأيضاً كفر هؤلاء أغلظ من كفر اليهود بأضعاف مضاعفة، أعني البوادي المتصفين بما ذكرنا»[١].

وقال الشيخ عبد الله ابن إمام الدعوة ـ رحمهما الله تعالى (المتوفى سنة ١٢٤٢هـ) ـ بعد أن ذكر جملة من أقوال أصحاب الأئمة الأربعة: «فهذه فصول وكلمات نقلتها من كلام العلماء المجتهدين... في بيان الأفعال والأقوال المكفرة للمسلم المخرجة له من الدين، وأنَّ تلفّظهُ بالشهادتين وانتسابه إلى الإسلام وعمله ببعض شرائع الدين لا يمنع من تكفيره وقتله وإلحاقه بالمرتدين»[٢].

ثم بيَّن الشيخ عبد الله سبب انحراف من ينتسب إلى العلم، من أهل زمانه ـ ومن غير زمانه ـ، وتأثرهم بفتنة «الإرجاء»، فقال: «والسبب الحامل على ذلك أنَّ بعض من ينتسب إلى العلم والفقه من أهل هذا الزمان غلط في ذلك غلطاً فاحشاً قبيحاً وأنكر على من أفتى به من أهل العلم والدين إنكاراً شنيعاً ولم يكن لهم بإنكار ذلك مستند صحيح لا من كلام الله ولا من كلام رسوله، ولا من كلام أئمة العلم والدين؛ إلّا أنه خلاف عادتهم وأسلافهم عياذاً بالله من الجهل والخذلان والتعصب،... [وذلك] لِمَا جُبِلُوا عليه من مخالفة الكتاب والسنة وعمل السلف والأئمة المهديين، وحب الرياسة

---

(١) «مجموعة التوحيد» (١/ ٣٥ ـ ٣٦). وانظر: «الدرر السنية» (٨/ ٨٥).

(٢) «الدرر السنية» (٨/ ١١٧).

وشهوات الدنيا، والطمع فيما في أيدي الناس والفسقة المعاندين...»[(١)].

ويزيد الأمر وضوحاً الشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن أبا بطين مفتي الديار النجدية (المتوفى سنة ١٢٨٢هـ) فيقول: «ومن أعظم المصائب إعراض أكثر الناس عن النظر في معنى هذه الكلمة العظيمة حتى صار كثير منهم يقولون: من قال: لا إلـٰه إلا الله ما تقول فيه شيئاً وإن فعل ما فعل، لعدم معرفتهم بمعنى هذه الكلمة نفياً وإثباتاً... فإذا ارتكب ما يناقضها وهو عبادة غير الله وهو الشرك الأكبر الذي هو أكبر الذنوب، قيل: هو يقول: لا إلـٰه إلا الله، ولا يجوز تكفيره لأنَّه يتكلم بكلمة التوحيد»[(٢)].

ويقول الشيخ حمد بن ناصر بن مُعَمَّر (المتوفى سنة ١٢٢٥هـ): «ولو تتبعنا الآيات والأحاديث وكلام العلماء في قتال من قال: لا إلـٰه إلا الله، إذا ترك بعض حقوقها لطال الكلام جداً فكيف بمن جحد الإسلام كله، وكذبه واستهزأ به على عمد إلَّا أنهم يقولون: لا إلـٰه إلا الله كهؤلاء البوادي، وفيما ذكرنا لمن طلب الإنصاف فقد ذكرنا من كلام الله، وكلام رسول الله ﷺ وإجماع الصحابة وإجماع العلماء بعدهم، فإن كان هذا الذي ذكرناه له معنى آخر غير ما فهمنا فبينوه لنا من كلام الله، وكلام رسوله ﷺ، وكلام الصحابة، وكلام العلماء»[(٣)].

وبهذا يتبيَّن أنَّ من دخل في دين الإسلام طائعاً مختاراً، وعمل بفرائض الدين، واستقام عليه، ثُمَّ بدر منه ما يخالف ويناقض دين الإسلام من الشرك الأكبر، أو دعاء الأموات والاستغاثة بهم، والطواف على الأضرحة والمشاهد؛ التي تُعْبدُ من دون الله، والاستهزاء بالدين وشعائره وشرائعه؛ مِمَّا يجب تعظيمه وتوقيره، فإنه قد بَدَّل دينه، وكفر بعد إيمانه

(١) المصدر نفسه (٨/ ١١٧).

(٢) «عقيدة الموحدين» (ص١٣) جمع وترتيب الشيخ عبد الله بن سعدي الغامدي.

(٣) «الدرر السنية» (٨/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ..﴾، وقوله ﷺ: **«من بدّل دينه فاقتلوه»**[١]، ولا ينفعه نطقه بكلمة التوحيد، أو الإتيان ببقية أركان الدين كالصلاة والزكاة والصوم والحج، لأنه قد نقض أساس الدين وقاعدته وهو التوحيد الذي عليه مدار الفوز والنجاح أو الخسارة والبوار يوم القيامة.

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨٣) من هذا البحث.



حكم الاستهزاء بالصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ وسائر المؤمنين

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حكم الاستهزاء بالصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ.

المطلب الثاني: حكم الاستهزاء بأمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهنَّ ـ.

المطلب الثالث: حكم الاستهزاء بالعلماء وسائر المؤمنين.

* * * * *

❑ المطلب الأول ❑

حكم الاستهزاء بالصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ

إن الاستهزاء والطعن على أصحاب محمد ﷺ جريمة عظيمة، وخطب كبير، واعتداء على خيرة هذه الأمة بعد نبيها ﷺ: الذين شهد الله لهم بالفضل والسابقة إلى الإسلام، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠] .

○ **قال القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فالصحابة كلهم عدول، أولياء الله وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، هذا مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه

الأمة. وقد ذهب شرذمة لا مبالاة بهم إلى أنّ حال الصحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم، ومنهم من فَرّق بين حالهم في بداءة الأمر، فقال: إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك، ثم تغيرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء، فلا بُدَّ من البحث، وهذا مردود، فإنَّ خيار الصحابة وفضلاءهم كعلي وطلحة والزبير، وغيرهم ﷺ ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضي عنهم وأرضاهم، ووعدهم الجنة...، وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لهم بذلك. وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم، إذا كانت تلك مبنية على الاجتهاد»[١].

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «وقد تواتر عن النبي ﷺ ما يدل على كمال الصحابة رضي الله عنهم خصوصاً الخلفاء الراشدون، فإنّ ما ذكر في مدح كل واحد مشهور بل متواتر لأنَّ نَقَلَةَ ذلك أقوام يستحيل تواطؤهم على الكذب، يفيد مجموع أخبارهم العلم اليقيني بكمال الصحابة وفضل الخلفاء»[٢].

قال ابن تيمية: «وهذا ممَّا لا نعلم فيه خلافاً بين أهل الفقه والعلم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان، وسائر أهل السنة والجماعة، فإنهم مُجْمعون على أنَّ الواجب الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والترحم عليهم، والترضي عنهم، واعتقاد محبتهم، وموالاتهم، وعقوبة من أساء فيهم القول»[٣].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٩٧).

(٢) «رسالة في الرد على الرافضة» (ص١٨)، وقد نص أهل الحديث في مصنفاتهم في السنّة على هذا، وما من كتاب من الأمهات الست وغيرها إلّا وفيه جملة غير قليلة في مناقب الصحابة وفضائلهم. انظر: «صحيح الإمام البخاري» مع «الفتح» (٧/ ٥ ـ ٣٢٤)، كتاب فضائل الصحابة، وكتاب مناقب الأنصار، بل أفردت مصنفات في فضائل الصحابة مثل «فضائل الصحابة» لإمام أهل السنّة والجماعة أحمد بن حنبل.

(٣) «الصارم المسلول» (ص٥٨٠).

أمّا حكم من استهزأ بالصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ وتنقُّصهم، فهو كبيرة من كبائر الذنوب؛ يؤدب صاحبه أدباً شديداً حتى يكف عن سبِّهم وعيبهم، روى أبو عروة قال: كنَّا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ..﴾ حتى بلغ: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ..﴾ [الفتح: ٢٩]، فقال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية[١].

قال القرطبي بعد أن نقل كلام الإمام مالك: «لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله. فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد ردَّ على الله رَبِّ العالمين، وأبطل شرائع المسلمين...»[٢].

هذا هو المشهور من مذهب مالك، وقد تقدم نقل كلامه فيمن شتم النبي ﷺ، وهنا يقول رحمه الله: «.. ومن سبَّ أصحابه أُدِّبْ»[٣]، وقال عبد الملك بن حبيب[٤]: «من غلا من الشيعة إلى بغض عثمان والبراءة منه أُدِّب أدباً شديداً، ومن زاد إلى بغض أبي بكر وعمر فالعقوبة عليه أشد، ويكرر ضربه، ويطال سجنه حتى يموت، ولا يبلغ به القتل إلّا في سبّ النبي ﷺ»[٥].

---

(١) «النهي عن سب الأصحاب» (ص٨٥ ـ ٨٦). وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/١٩٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (ص١٦ ـ ١٩٥).

(٣) «الشفا» (٢/١١٠٨)، و«الصارم المسلول» (ص٥٧١)، وهذا ليس على إطلاقه وعمومه بل على ما سيأتي تفصيل القول في المسألة قريباً (ص٤٥٤).

(٤) ابن سليمان بن هارون السلمي القرطبي أبو مروان، عالم الأندلس وفقيهها في عصره.. كان عالماً بالتأريخ والأدب، رأساً في فقه المالكية، توفي (٢٣٨هـ). انظر: «الأعلام» (٤/١٥٧).

(٥) «الشفا» (٢/١١٠٨)، و«الصارم المسلول» (ص٥٧١ ـ ٥٧٢).

وهذا الإمام أحمد يرى أن المتَنَقِّصَ بالصحابة يضرب وَيُنَكَّل وتوقف عن قتله وتكفيره، وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ عَمَّن شتم أصحاب النبي ﷺ فقال: القتل أجبن عنه، ولكن اضربه ضرباً نكالاً[1].

قال عبد الله: سألت أبي عمن شتم رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فقال: أرى أن يضرب. فقلت له: حَدّ؟ فقال: فلم نقف على الحد، إلّا أنَّه قال: يضرب، وقال: ما أراه إلّا على الإسلام[2].

وقال الإمام أحمد في رواية الاصطخري: «... لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساويهم، ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا نقص، فمن فعل ذلك وجب تأديبه وعقوبته، ليس أنْ يعفو عنه، بل يعاقبه ويستتيبه، فإن تاب قبل منه، وإن ثبت أعاد عليه العقوبة، وخَلَّده في الحبس حتى يموت أو يراجع»[3].

قال ابن تيمية بعد أن ذكر هذه النصوص: «وحكى الإمام أحمد هذا عَمَّنْ أدركه من أهل العلم، وحكاه الكرماني عنه وعن إسحاق والحميدي وسعيد بن منصور وغيرهم»[4].

وقال إسحاق بن رَاهُويه: «من شتم أصحاب النبي ﷺ يعاقب ويحبس»[5].

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٥٧٠).

(٢) «مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله» (٣/ ١٢٩٣). وانظر: «الصارم المسلول» (ص٥٧٠)، و«المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة» (٢/ ٣٦٣)، واختلف النقل عن الإمام في قوله: «ما أراه على الإسلام»، و«ما أراه إلا على الإسلام» وتخريج الأولى: أن هذا يجري مجرى الوعيد، أو يُحْمَلُ على ما إذا كان الطعن عليهم يفيد رد الشرائع، وإبطال الدين، أو إذا استحل السب، أو في المسألة روايتان عن الإمام. انظر: «الصارم المسلول» (ص٥٧٣).

(٣) «الصارم المسلول» (ص٥٧٠). وانظر: «مطالب أولي النهى» (٦/ ٢٨٧).

(٤) المصدر نفسه (ص٥٧٠).

(٥) المصدر نفسه (ص٥٧١).

قال الإمام النووي: «واعلم أن سب الصحابة ﷺ حرام من فواحش المحرمات سواء من لابس الفتن منهم وغيره لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون... قال القاضي: وسب أحدهم من المعاصي الكبائر ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يعزر ولا يقتل. وقال بعض المالكية: يقتل»[١].

أمَّا من استهزأ بالصحابة وتنقَّصهم مستحلاً لذلك فقد كفر، وإن لم يكن مستحلاً فَسَقَ ولم يكفر[٢]. ومن استهزأ بالصحابة، وطعن عليهم لكونهم صحابة، ولفضل الصحبة، فينبغي القطع بتكفيره لأن ذلك استخفاف بحق الصحبة وفيه تعريض بالنبي ﷺ...»[٣].

هذا ما عليه جمهور المحققين من أهل العلم والفقه غير أنَّ طائفة من الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم يقطع بقتل من سب الصحابة، وتكفير الرافضة، ولهم دلالات من الكتاب والسنة، وآثار عن الصحابة، أفاض في ذكرها شيخ الإسلام ـ عليه رحمة الله ـ في كتابه العظيم «الصارم المسلول على شاتم الرسول» في نحو ثمان صفحات، منها:

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ..﴾، إلى قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]... فمن غيظ بالصحابة فقد شارك الكفار.. ولا يشارك الكفَّار إلّا كافر[٤].

ومنها أحاديث في الصحيحين وغيرهما، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٦/٣٢٦ ـ ٣٢٧). وانظر: «فتح الباري» (٧/٤٤) حيث نقل الخلاف في المسألة بين قتله وتعزيره، و«الروضة الندية» (٢/٦٣٠ ـ ٦٣١) لمحمد صديق حسن خان.

(٢) «الصارم المسلول» (ص٥٧٢).

(٣) انظر: «الإعلام بقواطع الإسلام» (ص٣٥٣)، و«الصواعق المحرقة» (١/١٣٥ ـ ١٣٦) كلاهما لابن حجر الهيتمي.

(٤) «الصارم المسلول» (ص٥٨١ ـ ٥٨٢).

قال: «**آية الإيمان حُبُّ الأنصار، وآية النِّفاق بغضُ الأنصار**»[(١)]، وفي لفظ: «**الأنصار لا يحبهم إلّا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق...**»، وغيرها من الأحاديث في هذا الباب.

قالوا: فمن سبَّهم فقد زاد على بغضهم، فيجب أن يكون منافقاً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر[(٢)].

قلت: فمفهوم كلام هؤلاء العلماء أنَّ النفاق هنا نفاق اعتقادي وليس نفاقاً عملياً، **إذ النفاق عند المحققين من أهل العلم نوعان:**

أحدهما: نفاق اعتقاد: وهو الذي أنكره الله على المنافقين في القرآن وأوجب لهم به الدرك الأسفل من النار[(٣)].

وقد قسَّم العلماء هذا النوع إلى ستة أقسام: تكذيب الرسول ﷺ أو تكذيب بعض ما جاء به الرسول ﷺ، أو بغض الرسول ﷺ أو بغض ما جاء به الرسول ﷺ، أو المسرَّة بانخفاض دين الرسول، أو الكراهة لانتصار دين الرسول، فهذه الأنواع الستة صاحبها من أهل الدرك الأسفل من النار، نعوذ بالله من الشقاق والنفاق[(٤)].

الثاني: نفاق عملي[(٥)]: وهو خمسة أنواع: إذا حدَّث كذب، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف،كما ثبت

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار من الإيمان، برقم (٣٧٨٣، ٣٧٨٤)، «فتح» (٧/ ١٤١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أنّ حب الأنصار وعلي من الإيمان وعلاماته وبغضهم من علامات النفاق، برقم (٧٤، ٧٥)، «نووي» (٢/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).

(٢) انظر: «الصارم المسلول» (ص٥٨٣ ـ ٥٨٤).

(٣) انظر: «الصلاة وحكم تاركها» (ص٥٩) لابن القيم.

(٤) «الدرر السنية» (٢/ ٣٧) من كلام الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب.

(٥) «الصلاة» (ص٥٩).

ذلك في الصحيحين[١].

○ وخلاصة القول في المسألة:

«أن من اقترن بسبِّه واستهزائه دعوى أنّ عليّاً إلٰه، أو أنه كان هو النبي، وإنما غلط جبريل في الرسالة، فهذا لا شك في كُفْره، بل لا شك في كفر من توقف في تكفيره.

وكذلك من زعم منهم أنّ القرآن نُقص منه آيات وكُتمت، أو زعم أنَّ له تأويلات باطنة تسقط الأعمال المشروعة، ونحو ذلك، فهم كفَّار أيضاً.

ومن زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلّا نفراً قليلاً لا يبلغون بضعة عشر نفساً، أو أنَّ عامتهم فسقوا، أو اعتقد أحقية سَبِّهم، فهذا لا ريب ـ أيضاً ـ في كفره، لأنه كَذَّبَ لما نصه القرآن في غير موضع: من الرضى عنهم، والثناء عليهم، فإن مضمون هذه المقالة أنَّ نقلة الكتاب والسنة كفّار أو فُسَّاق، وأَنَّ قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، لا ينطبق مع الصحابة، فيمن يعتقد فسق عامتهم، لأن الآية تشهد للأمة بالخيرية، وأول من يدخل في هذا أهل القرن الأول، فكيف يكون سابِقو هذه الأمة هم شرارها، وكفر هذا مِمّا يُعْلَمُ بالاضطرار من دين الإسلام»[٢]. أو استهزأ بالصحابة لما معه من الديانة، وامتثلوه من الشريعة لا لذواتهم فهو كفر وردة عن الدين أيضاً.

قال ابن تيمية بعد ذكره الحالات المتقدمة في منتقص الصحابة «بتلك الاعتبارات: «ولهذا تجد عامة من ظهر عليه شيء من هذه الأقوال، فإنه

---

(١) «الدرر السنية» (٢/ ٣٧).

(٢) «الصارم المسلول» (ص٥٩٠) بتصرف يسير. وانظر: «فتاوى السبكي» (٢/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣)، و«مُعين الحُكَّام» (ص١٩٢) لعلاء الدين الحنفي، و«رسالة في الرد على الرافضة» (ص١٨ ـ ٢٠) لمحمد بن عبد الوهاب.

يتبين أنه زنديق، وعامة الزنادقة إنما يستترون بمذهبهم، وقد ظهرت لله فيهم مثُلات، وتواتر النقل بأنَّ وجوههم تمسخ خنازير في المحيا والممات»[١].

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب بعد أن ذكر جملة من حالات وصور يكون المستهزئ فيها بالصحابة كافراً كفراً مخرجاً عن الملة: «هذا وإني لا أعتقد كفر من كان عند الله مسلماً، ولا إسلام من كان عند الله كافراً بل أعتقد من كان عنده كافراً كافراً، وما صح عن العلماء من أنّه لا يُكَفَّر أهل القبلة فمحمول على من لم تكن بدعته مكفرة، لأنهم اتفقت كلمتهم على تكفير من كانت بدعته مكفرة، ولا شك أنَّ تكذيب رسول الله ﷺ فيما ثبت عنه قطعاً كفر؛ والجهل في مثل ذلك ليس بعذر والله أعلم»[٢].

❑ المطلب الثاني ❑

حكم الاستهزاء بأمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهنّ ـ

تقدم الكلام عن تفصيلات الأحكام فيمن استهزأ بالصحابة عموماً ﷺ وبقي أن نعرف الأحكام المتعلقة بتنقُّص زوجات النبي ﷺ والطعن فيهن على وجه الخصوص.

قال القاضي أبو يعلى ﷺ: من قذف عائشة بما برَّأها الله منه كفر بلا خلاف، وقد حكى الإجماع على هذه غير واحد، وصرح غير واحد من الأئمة بهذا الحكم[٣].

---

(١) المصدر نفسه (ص٥٩٠ ـ ٥٩١).

(٢) «رسالة في الرد على الرافضة» (ص١٩ ـ ٢٠)، ونسبة الكتاب للشيخ ثابتة، فقد سألت الشيخ عيسى السعدي ليسأل والده الشيخ عبد الله السعدي ـ حفظه الله ـ عن صحة نسبة الكتاب للإمام، فكان جواب الشيخ عبد الله بصحة نسبة الكتاب للإمام محمد بن عبد الوهاب.

(٣) «الصارم المسلول» (ص٥٦٨) لابن تيمية. وانظر: «مطالب أولي النهى» (٦/ ٢٨٥ ـ =

قال هشام بن عمَّار رَحِمَهُ اللهُ: سمعت مالكاً يقول: من سبَّ أبا بكر جُلِدَ، ومن سبَّ عائشة قُتِل، قيل له: لِمَ؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن[(١)].

قلت: مقصوده رَحِمَهُ اللهُ أنَّ الله تعالى أنزل براءتها في كتابه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾، إلى قوله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور: ١١ ـ ١٧].

فمن سب عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قُتِل، وقتله يكون ردة، لأنَّهُ مكذب للقرآن الذي أفصح عن براءتها، وحذَّر من العود لمثله، إلّا أن أصحاب الشافعي قالوا: «من سبَّ عائشة أُدِّب، كما في سائر المؤمنين، وليس في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ دليل على أنَّ ذلك كفر، **وإنما هو كما قال ﷺ: «لا يؤمن من لا يأمن جارُه بوائقه»**[(٢)]. ولو كان سلب الإيمان في سبّ عائشة حقيقة لكان سلبه في قوله ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»**[(٣)]، حقيقة[(٤)].

فالجواب عن قول الشافعية أن يقال لهم: ليس الأمر كما زعمتم، إنَّ

= ٢٨٦)، و«الإقناع» (٤/ ٣٠٠).

(١) «أحكام القرآن» (٣/ ١٣٥٦) لابن العربي، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٣٧) للقرطبي، و«الشفا» (٢/ ١١٠٩) للقاضي عياض، و«الصارم المسلول» (ص٥٦٨)، و«إعلاء السنن» (١٨/ ٢٥٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جارُهُ بوائقه، برقم (٦٠١٦)، «فتح» (١٠/ ٤٥٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، برقم (٧٣)، «نووي» (٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب الزنا وشرب الخمر، برقم (٦٧٧٢)، «فتح» (١٢/ ٥٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي...، برقم (١٠٠، ١٠١)، «نووي» (٢/ ٤٠١ ـ ٤٠٣).

(٤) «أحكام القرآن» (٣/ ١٣٥٦) لابن العربي.

أهل الإفك رموا عائشة المطهرة بالفاحشة، فبرأها الله، فكلٌّ من سبَّها بما برأها الله منه فهو مكذِّب لله، ومن كذَّب الله فهو كافر. فهذا طريق قول مالك، وهي سبيل لائحة لأهل البصائر، ولو أن رجلاً سبَّ عائشة بغير ما برّأها الله منه لكان جزاؤه الأدب[1].

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: «فاعلم أنه من قذفها بالفاحشة مع اعتقاد أنها زوجة رسول الله ﷺ، وأنها بقيت في عصمته بعد هذه الفاحشة فقد جاء بكذب ظاهر واكتسب الإثم واستحق العذاب، وظنَّ بالمؤمنين سوءاً وهو كاذب، وأتى بأمر ظنه هيناً وهو عند الله عظيم، وأتَّهَمَ أهل بيت النبوة بالسوء، ومن هذا الاتهام يلزم نقص النبي ﷺ ومن نقصه فكأنما نقص الله ومن نقص الله ورسوله فقد كفر، وهو بفعله هذا خارج عن أهل الإيمان ومتبع لخطوات الشيطان، وملعون في الدنيا والآخرة، ومكذب لله في قول تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦]، ومن كذّب الله فقد كفر.

ومن قذفها مع زعمه أنها زوجته أو لم تبق في عصمته بعد هذه الفاحشة فإن قلنا: إنه ثبت قطعاً أنها هي المرادة بهذه الآيات وهو الظاهر، يلزم من قذفها ما تقدم من القبائح، والحاصل أن قذفها كيفما كان يوجب تكذيب الله تعالى في إخباره عن تبرئتها عمّا يقول القاذف فيها.

وقد قال بعض المحققين من السادة العلماء: «وأمَّا قذفها الآن فهو كفر وارتداد؛ ولا يكتفى فيه بالجلد لأنه تكذيب لسبع عشرة آية من كتاب الله... فيقتل ردّة، وإنما اكتفى ﷺ بجلدهم ـ أي من قذفها في زمنه ـ مرة أو مرتين لأنَّ القرآن ما كان أنزل في أمرها فلم يكذبوا القرآن فأمَّا الآن فهو تكذيب للقرآن، أما نتأمل في قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ الآية [النور: ١٧]، ومكذب القرآن كافر، فليس له إلّا السيف وضرب العنق.

(١) المصدر السابق (٣/١٣٥٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/١٣٧) للقرطبي.

انتهى...»[١] إلى آخر ما ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب من كلام نفيس في هذا الباب.

أمَّا من استهزأ بغير عائشة ﵂ من أزواج النبي ﷺ، ففيه قولان:

أحدهما: أنَّهُ كسابِّ غيرهنّ من الصحابة على ما تقدم بيانه.

والثاني: أنَّ من قذف واحدة من أمهات المؤمنين فهو كقذف عائشة ﵂ وحكمه القتل[٢]، لأنَّ فيه غضاضة وعاراً، ونقيصة على رسول الله ﷺ وسبّاً له[٣]؛ فمن سبَّ زوجة الرجل فقد سبَّ الرجل، قال ابن تيمية عندما ذكر القولين: «وهو الأصح أنَّهُ من قذف واحدة من أمهات المؤمنين فهو كقذف عائشة ﵂»[٤]. وإليه ذهب القاضي عياض في الشفا حيث أورد القولين، ورجَّحَ أنّه كقذف عائشة ﵂ وعن أزواج نبيّه ﷺ[٥].

قلت: ولعلَّ الضابط في هذا: أنَّ من سبَّ إحدى زوجات النبي ﷺ بشيء فيه طعن على رسول الله ﷺ، أو بدين الإسلام، كمن شتم عائشة بما برَّأها الله ـ تبارك وتعالى ـ منه، فهذا كافر مرتدٌ عن الإسلام، ومن انتقص إحدى زوجات النبي ﷺ بما لا غضاضة فيه على النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا بدين الإسلام، وإنما بمشاتمة الناس بعضهم لبعض في ذواتهم وصفاتهم، وخلقتهم، فهذا لا يبلغ بصاحبه حدَّ الكفر والقتل، وإنما هو من العبث، وهو محرم من فواحش الذنوب، والله أعلم.

إذا تقرر حكم الإسلام في سابِّ أصحاب النبي وأمهات المؤمنين

---

(١) «رسالة في الردّ على الرافضة» (ص٢٥ ـ ٢٦).
(٢) «الشفا» (٢/١١١٣) للقاضي عياض، و«الصارم المسلول» (ص٥٦٩) لابن تيمية.
(٣) انظر: «الصارم المسلول» (ص٤٥ ـ ٥٤) حيث تكلم عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ...﴾ الآية [الأحزاب: ٥٧]، فبيَّن ﵀ أن أذية أزواجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أذية له.
(٤) «الصارم المسلول» (ص٥٦٩).
(٥) «الشفا» (٢/١١١٣).

ـ رضي الله عنهُنَّ وعن أصحاب نَبِيِّه ـ، بقي أنْ نعلم هل له توبة أم لا؟

فالجواب: ما قرره شيخ الإسلام عندما سُئل عن فرقة من المسلمين يقرون بالشهادتين، ويصومون ويحجون ويخرجون الزكاة، ويجاهدون أنفسهم في مرضاة الله، غير أنهم يكفّرون سَابِّي صحابة النبي ﷺ، ولم يرجوا لأحدٍ توبة إذا تاب وإن المصر على ذلك مخلد في النار...

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ: «قولهم: إنَّ توبة ساب الصحابة لا تقبل وأنه مخلد في النار خطأ، بل الذي عليه «السلف والأئمة»: كالأئمة الأربعة وغيرهم أنَّ توبة الرافضي تقبل كما تقبل توبة أمثاله، والحديث الذي يروى: «**سب أصحابي ذنب لا يغفر**»[(١)]، حديث باطل لم يروه أَحَدٌ من أهل العلم[(٢)].

ولو قُدِّرَ صحته فالمراد به من لم يتب، فإنَّ الله يأخذ حق الصحابي منه. وأمَّا من تاب فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا..﴾ [الزمر: ٥٣]، وهذا في حق التائب، أخبر أَنَّهُ يغفر جميع الذنوب»[(٣)].

ثمَّ قَسَّمَ رَحِمَهُ اللهُ ساب الصحابة إلى: مبتدع ضال يعتقد جواز ذلك، وإلى ظالم يُقِرُّ بالتحريم؛ كمن قذف غيرهم، ومظالم العباد تصح التوبة منها[(٤)].

وقال ـ أيضاً ـ: «وليس سَبُّ بعض الصحابة بأعظم من سَبِّ الأنبياء، أو سب الله تعالى، واليهود والنصارى الذي يسبون نبينا سِرّاً بينهم إذا تابوا

---

(١) انظر: «كشف الخفاء» (١/ ٥٣٧) للعجلوني، حيث نقل كلام ابن تيمية في كون الحديث موضوعاً كذباً. و«الفوائد المجموعة» (ص٣٣٥) للشوكاني.

(٢) وقال في موضع آخر: «... ولا هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة، وهو مخالف للقرآن». «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٩٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٥٤٠ ـ ٥٤١) أما من لم يتب فقال الله في حقه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٩٠ ـ ٢٩١).

(٤) انظر: المصدر نفسه (٤/ ٥٤١) لابن تيمية.

وأسلموا قُبِلَ منهم باتفاق المسلمين، . . . والشرك الذي يغفره الله لمن تابَ باتفاق المسلمين، وما يقال: إنَّ في ذلك حَقٌّ لآدمي، يجاب عنه من وجهين:

أحدهما: أنَّ الله قد أمر بتوبة السارق و المُلَقِّبْ، ونحوهما من الذنوب متى تعلق بها حقوق العباد، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٨ ـ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، ومن توبة مثل هذا أنْ يعوض المظلوم من الإحسان إليه بقدر إساءته إليه.

الوجه الثاني: أن هؤلاء متأولون، فإذا تاب الرافضي من ذلك واعتقد فضل الصحابة وأحبهم ودعا لهم فقد بدَّل الله السيئة بالحسنة كغيره من المذنبين[(١)].

❑ المطلب الثالث ❑

حكم الاستهزاء بالعلماء وسائر المؤمنين

إن للعلماء منزلة عظيمة في دين الإسلام، فهم ورثة الأنبياء، وحملة الوحي، وحماة الشريعة من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فتوقيرهم واحترامهم واجب شرعي، وخلق إسلامي رفيع، بل توقيرهم واحترامهم من السنة، قال طاوس بن كيسان رَحِمَهُ اللَّهُ: «من السنة أن يوقر أربعة: العالم، وذو الشيبة، والسلطان، والوالد»[(٢)].

وجاء في الحديث عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «إنّ

(١) «الفتاوى الكبرى» (٥/ ١٢٨ ـ ١٢٩). وانظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).
(٢) «شرح السنّة» (١٣/ ٤١) للبغوي.

من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه، وإكرامَ ذي السلطان المقسط»[١].

وقد كان السلف يعرفون لأهل العلم فضلهم، ويحترمونهم احتراماً كبيراً، ويظهر ذلك في التعامل معهم، فهذا ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن وابن عم رسول الله ﷺ مع جلالته وعلو شأنه ـ يأخذ بِركابِ زيد بن ثابت الأنصاري، ويقول: **«إنّا هكذا نفعل بكبرائنا وعلمائنا»**[٢].

ويبلغ الاحترام والتقدير بحبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «مكثت سنتين أريد أنْ أسأل عمر بن الخطاب عن حديثٍ ما منعني منه إلّا هيبته»[٣].

وهذا إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله يقول لأحد شيوخه: «لا أقعد إلّا بين يديك أُمِرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه»[٤].

هذا حال من أراد الله له السعادة والخير، أمَّا من انحرف عن سبيل المؤمنين واتخذ سبيل الضلالة بالطعن على أهل العلم وازدرائهم وتنقصهم، والسخرية بهم، فهو جرم عظيم، ودليل على فسق صاحبه، وضعف دينه وعقله.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، بابٌ في تنزيل الناس منازلهم، برقم (٤٨٤٣) (٥/ ١٧٤)، وقد حسّنه الذهبي والنووي، والحافظان العراقي وابن حجر، كما في «تخريج شرح السنة» (١٣/ ٤٢) للشيخ شعيب الأرناؤوط، وحسنه ـ أيضاً ـ العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٩١٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٧٨)، برقم (٥٧٨٥) وصححه، ووافقه الذهبي، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥١٤)، برقم (٨٣٢). وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٣٤٥): «... رجاله رجال الصحيح غير رزين الرُّماني وهو ثقة». وأورده الحافظ في «الإصابة» (٢/ ٤٩١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٥٦).

(٤) انظر: «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٨٧ ـ ٨٨) لابن جماعة.

قال الإمام الطحاوي في عقيدته: «وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين ـ أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر ـ لا يذكرون إلّا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير سبيل»(١).

وقال ابن عساكر الدمشقي رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته: أنَّ لحوم العلماء ـ رحمة الله عليهم ـ مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصهم معلومة؛ لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براءٌ أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم، والاختلاف على من اختاره الله لنعش العلم خلق ذميم»(٢).

وقد وقف السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ في وجه من طعن على العلماء وتنقصهم، قال الإمام أحمد: «إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام؛ فإنه كان شديداً على المبتدعة»(٣).

وقال يحيى بن معين رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيت الرجل يتكلم في حماد بن سلمة وعكرمة مولى ابن عباس فاتهمه على الإسلام»(٤).

ومن تحذير السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ من الاستخفاف بالعلماء ما قاله أمير المؤمنين في الحديث عبد الله بن المبارك: «حق على العاقل أن لا يستخفَّ بثلاثة: العلماء، والسلاطين، والإخوان؛ فإنَّ من استخفَّ بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخفَّ بالسلطان ذهبت دنياه، ومن استخفَّ بالإخوان

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٩١).
(٢) «تبيين كذب المفتري» (ص٢٩).
(٣) «السير» (٧/ ٤٥٠) للذهبي.
(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة» (٣/ ٥١٤) للالكائي، و«السير» (٧/ ٤٤٧، ٥/ ٣١). قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا محمول على الوقوع فيهما ـ يعني: حماد بن سلمة، وعكرمة ـ بهوى وحيف في وزنهما، أمَّا من نقل ما قيل في جرحهما، وتعديلهما على الإنصاف، فقد أصاب». «السير» (٥/ ٣١).

ذهبت مروءته»[(١)].

فالاستهزاء بأهل العلم والفضل، والقدح فيهم بما هم منه براء، إثم كبير قد يفضي بصاحبه إلى الكفر وهو لا يشعر لقد قال رجل من المسلمين في غزوة تبوك: «ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء»[(٢)]، فإذا بالقرآن ينزل في بيان جرم هذا المفتري ومن معه، موضحاً أنّ ذلك استهزاءٌ بالله وآياته، ورسوله، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ..﴾ [التوبة: ٦٥]، فلقد بيّن الله ﷻ أن الاستهزاء بالرسول وأصحابه استهزاء بالله تعالى، وذلك لبيان خطر الاستهزاء بالعلماء، فاحذر الاستخفاف بهم، وغيبتهم فإنه حرام، وكبيرة من كبائر الذنوب، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أتدرون ما الغيبة؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»**[(٣)].

قال ابن تيمية رحمه الله: «... ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تمسخر ولعبٍ، ليضحك غيره باستهزائه، ومحاكاته، واستصغار المستهزأ به»[(٤)].

○ وخلاصة القول في حكم الاستهزاء بالعلماء:

أنّ له حالتين:

الأولى: أن يكون قصد المستهزئ بالعالم: علمه، وفقهه، ودينه، لا

---

(١) «السير» (١٧/ ٢٥١) للذهبي.

(٢) سبق تخريجه (ص٢٨٤).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الغيبة، برقم (٢٥٨٩)، «نووي» (١٦/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

مجرد ذات العالم مجردة عن تلك الصفات التي اكتسبها من شريعة رب العالمين ﷻ، فهذا كفر أكبر.

قال الشيخ علي القاري: «... لأنَّهُ إذا أبغض العالم من غير سبب دنيويٍّ أو أخرويٍّ فيكون بغضه لعلم الشريعة فلا شك في كفر من أنكره فضلاً عمن أبغضه»[(١)].

وقال ـ أيضاً ـ: «... ونقل الأستاذ نجم الدين الكندي بسمرقند: من تشبه بالعلم على وجه السخرية، وأخذ الخشبة ويضرب الصبيان كفر، يعني لأنَّ معلم القرآن من جملة علماء الشريعة، فالاستهزاء به وبعلمه يكون كفراً... ولو جلس مجلس الشرب [يعني يشرب الخمر] على مكان مرتفع وذكر مضاحكاً يستهزئ بالمذَكِّر فضحك وضحكوا كفروا. يعني المذكر واعظ وهو من جملة العلماء، وخليفة الأنبياء»[(٢)].

قال العلَّامة مفتي الديار السعودية ـ سابقاً ـ الشيخ محمد بن إبراهيم عليه رحمة الله: «... ثمَّ نعلم هنا الذين شأنهم الاستهزاء بأهل الدين هذا قد يصل إلى الكفر الذي يكون ديدنه ـ لا يسمع بأحد من أهل الخير إلّا وتكلم فيهم ـ فهذا لا يكاد يصدر إلّا من منافق، ولهذا أشار الوالد الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن في حاشيته على التوحيد[(٣)] أَنَّهُ يخشى عليه أن يكون بذلك مرتداً، أمَّا كونه وقع في أمر عظيم، ووقع في نفاق بارز فهذا واضح، وليس المراد من يكون بينه وبينهم شحناء دون بقية أهل الخير، وهو من الأمور المحرمة»[(٤)].

---

(١) «شرح ألفاظ الكفر» (ص٥٥). وانظر: «الفقه الأكبر» (ص١٤٤) للقاري، و«العقود الدرية ـ فتاوى ابن عابدين» (١٠١/١).

(٢) المصدر نفسه (ص٥٧ ـ ٥٨). وانظر: «الفقه الأكبر» (ص١٤٥)، و«الفتاوى التاتاريخية» (٥٠٩/٥) لعالم ابن العلاء الدهلوي.

(٣) «فتح المجيد».

(٤) «فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم (١/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

وسئل الشيخ العلامة حمد بن عتيق رَحِمَهُ اللَّهُ [المتوفى سنة ١٣٠١هـ] عن معنى قول الفقهاء ومن قال: يا فُقيه، بالتصغير يكفر، ما المعنى بالاستهزاء هل هو بالشخص نفسه أو بما معه من العلم، وهل هذا كفر ينقل عن الملة؟

فأجاب: «كان عليك أن تذكر من قال ذلك من الفقهاء، واعلم أن العلماء أجمعوا على أنّ من استهزأ بالله أو رسوله أو كتابه أو دينه فهو كافر... وأمّا قول القائل: فُقيه أو عويلم، أو مطيويع، ونحو ذلك فإذا قصد القائل الهزل أو الاستهزاء بالفقه أو العلم أو الطاعة، فهذا كفر أيضاً ينقل عن الملة فيستتاب فإن تاب وإلّا قتل مرتداً، وأمّا قولك: هل هذا استهزاء بالشخص نفسه أو بما معه من العلم، فإن كنت تسأل عن مراد القائل فعجب منك، وإن كان السؤال عن علة الحكم، فإنَّا نقول: ظاهر هذا القول أن مراد قائله الفقه أو العلم أو الطاعة فيحكم عليه به، ولأنه يمكنه الاستهزاء بالشخص بدون هذه العبارات فلماً عدل إليها عما هو دونها أعطيناه حكمها، لكن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات»[1].

وقال الشيخ العلامة صالح الفوزان: «... ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله وعدم احترامهم أو الوقيعة فيهم من أجل العلم الذي يحملونه، وكون ذلك كفراً ولو لم يقصد حقيقة الاستهزاء...»[2].

وفي سؤال ورد على اللجنة الدائمة للإفتاء، وفيه: مسألة: «العذر بالجهل»، في الاستهزاء باللحية أو القميص أو المسلمين، ومسألة سب الدين هل فيهما عذر بالجهل أم لا؟

فأجاب أعضاء اللجنة[3] بقولهم: «... سب الدين والاستهزاء بشيء

---

(١) «الدرر السنية» (٨/ ٢٤٢).

(٢) «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» (ص٧١ ـ ٧٢).

(٣) وهم: سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز «رئيساً»، وفضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ «نائباً»، وفضيلة الشيخ عبد الله بن غديان «عضواً».

من القرآن والسنة، والاستهزاء بالمتمسك بهما نظراً لما تمسك به؛ كإعفاء اللحية، وتحجب المسلمة هذا كفر إذا صدر من مكلف، وينبغي أن يبين له أن هذا كفر؛ فإن أصرَّ بعد العلم فهو كافر، قال الله تعالى: ﴿.. قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[1].

○ الحالة الثانية:

إذا كان الاستهزاء والتنقص لأهل العلم لذواتهم وبشريتهم دون علمهم، وفقههم وديانتهم، فلا يصل في هذه الحالة إلى الكفر والقتل، بل هو من المحرمات والإثم الذي قال الله تعالى عنها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

قال ابن جرير: وقوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ يقول: فقد احتملوا زوراً وكذباً وفرية شنيعة، وبهتاناً: أفحش الكذب...»[2].

وقال القرطبي: «أذية المؤمنين والمؤمنات هي أيضاً بالأفعال والأقوال القبيحة، كالبهتان والتكذيب الفاحش المختلقِ، وهذه الآية نظيرُ الآية التي في النساء: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء: ١١٢]، كما قال هنا. وقد قيل: إنّ من الأذية تعييره بِحَسَبِ مذموم، أو حرفة مذمومة، أو شيء يثقل عليه إذا سمعه، لأن أذاه في الجملة حرام، وقد ميّز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسول ﷺ، وأذى المؤمنين فجعل الأول كفراً، والثاني كبيرة»[3]، «ولهذا كان سب آحاد المؤمنين موجباً للتعزير بحسب حالته وعلو مرتبته... وتعزير من سب

---

(١) «فتاوى اللجنة الدائمة» (٢/ ١٣ ـ ١٤).

(٢) «جامع البيان» (١٠/ ٣٣١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ١٥٤). وانظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٩٨)، ويشترك في هذا الحكم مع العلماء بقية المؤمنين.

العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم»[١].

وقد جاء تحريم عرض المسلم بغير حق في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، في شهركم هذا...»**[٢].

قال الحافظ: «وإنما شبّه حرمة الدم والعرض والمال بحرمة اليوم والشهر والبلد لأنّ المخاطبين بذلك كانوا لا يرون تلك الأشياء ولا يرون هتك حرمتها ويعيبون على من فعل ذلك أشدَّ العيب، وإنما قدم السؤال عنها تذكاراً لحرمتها وتقريراً لما ثبت في نفوسهم ليبني عليه ما أراد تقريره على سبيل التأكيد»[٣].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن...» (٦/ ١٢١) لابن سعدي.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، برقم (١٧٣٩)، «فتح» (٣/ ٦٧٠)، ومسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، برقم (١٢١٨)، «نووي» (٨/ ٤٣٠ ـ ٤٣١).

(٣) «فتح الباري» (٣/ ٦٧٣).




الفصل الثاني

أقسام المستهزئين

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: المستهزئ الكافر.

المبحث الثاني: الزنديق «المنافق».

المبحث الثالث: المستهزئ المسلم.

المبحث الرابع: حكم القعود مع المستهزئين، وموقف المسلم منهم.






المستهزئ الكافر

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المستهزئ الحربي.

المطلب الثاني: المستهزئ المعاهد أو الذميّ.

* * * * *

❑ المطلب الأول ❑

المستهزئ الحربي

الكفار إما أهل حَرْبٍ، وإما أهل عهد[(١)]، فالحربي نسبة إلى أهل الحرب: وهم الذين أمر الله ﷻ بقتالهم بعد أن لم يكن مأذوناً بقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢٢]، وما كان مثله ممَّا نزل بمكة[(٢)].

قال ابن القيم: «فلما استقرَّ رسول الله ﷺ بالمدينة، وأيَّده الله بنصره، وبعباده المؤمنين والأنصار، وألَّف بين قلوبهم بعد العداوة والإِحَنِ التي كانت بينهم، فمنعته أنصارُ الله وكتيبةُ الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأزواج، وكان أولى بهم من

---

(١) انظر: «أحكام أهل الذمة» (٢/ ٤٧٥) لابن القيِّم.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٣١) للقرطبي.

أنفسهم، رمتهم العربُ واليهودُ عن قوس واحدة، وشمَّروا لهم عن ساقِ العداوةِ والمحاربة، وصاحوا بهم من كُلِّ جانب، والله سبحانه يأمر بالصبر والعفو حتى قويت الشوكةُ، واشتد الجناحُ، فأذن لهم حينئذٍ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩][1].

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثُمَّ فرض بعد ذلك قتال المشركين كافَّة وكان محرماً، ثم مأذوناً به، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين[2]، والأدلة عليه كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿... وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣]. وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩][3].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/٦٩ ـ ٧٠)، وقد زعم طائفة أن هذا الإذن كان بمكة، والسورة مكية، وهذا غلط رَدَّهُ ابن القيم بنحو ستة أوجه. انظر: «زاد المعاد» (ص٧٠٣).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/٧١) لابن القيم.

(٣) انظر طرفاً من هذه الأدلة في: «الأم» (١٢/٥٨٧ ـ ٥٨٨) للإمام الشافعي، و«الروضة الندية» (٢/٦٢١) لمحمد صديق حسن خان.

قال ابن القيم: «ومقتضى هذا ألّا يقرَّ كافر على كفره، ولكن جاء النص بإقرار أهل الكتاب إذا أعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، فاقتصرنا بها عليهم، وأخذنا في عموم الكفار بالنصوص الدالة على قتالهم إلى أنْ يكون الدين كله لله»[1].

قال الإمام الشوكاني: «ولا خلاف في ذلك لأوامر الله ﷻ بقتل المشركين في مواضع من كتابه العزيز، ولما ثبت عنه ﷺ ثبوتاً متواتراً من قتالهم، وأنه كان يدعوهم إلى ثلاث، ويأمر بذلك من بعثه للقتال»[2]. فعن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَقَرَّ أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال «أو خلال»، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم ثمَّ ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إنْ فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلّا أنْ يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أَبَوْا فسلهم الجزية، فإنْ هم أجابوك فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم فإن هم أبوا، فاستعن بالله وقاتلهم...**» الحديث[3].

إذا تبيَّنَ هذا فاعلم أَنَّ الكافر الحربي إذا صدر منه طعن واستهزاء بالله

---

(١) «أحكام أهل الذمة» (١/٩ ـ ١٠، ٢/٨١١ ـ ٨١٢)، فلا يفهم من قوله ﷺ: «فاقتصرنا بها عليهم» أهل الكتاب وحدهم، بل أدخل المجوس في أهل الجزية بالسنّة والإجماع. انظر: المصدر نفسه (١/١ ـ ٦).

(٢) «الدرّة البهية» مع «الروضة الندية» (٢/٦٢١).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، برقم (١٧٣١)، «نووي» (١٢/٢٨١ ـ ٢٨٢).

ـ تبارك وتعالى ـ؛ أو برسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو بدين الإسلام فعليه القتل إلّا أن يسلم لعموم الأدلة الدالة على وجوب قتل الكفار وتقدم آنفاً تقريرها.

قال الإمام مالك: «من شتم الله من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفروا قُتِلَ ولم يستتب»، زاد ابن القاسم «إلّا أن يسلم»[(١)].

بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ . . .﴾ [الأنفال: ٣٨].

قال ابن القاسم: «ومن شتم من غير أهل الأديانِ الله تعالى بغير الوجه الذي ذكر في كتابه قتل إلّا أن يسلم»[(٢)].

وقال ابن أبي زيد[(٣)]: «من سبَّ الله تعالى بغير الوجه الذي به كفر قُتِلَ إلّا أن يسلم»[(٤)].

وقال ابن رشد: «. . . من سبَّ النبي ﷺ أو عابه أو نقصه بشيء من الأشياء يقتل ولا يستتاب مسلماً كان أو كافراً. . .»[(٥)].

هذا مذهب مالك وأصحابه، في قتل المستهزئ بشيء من دين الإسلام بالأذى لله تعالى، ولرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

---

(١) «الشفا» (١٠٨٧/٢) للقاضي عياض. وانظر: «دلائل الأحكام» (٧٨/٤ ـ ٧٩) لابن شداد.

(٢) المصدر السابق (١٠٨٨/٢).

(٣) أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن «المعروف بأبي زيد» القيرواني المالكي، يقال له: مالك الصغير، توفي سنة (٣٨٧هـ). انظر: «ترتيب المدارك» (٢٤٧/٢ ـ ٤٩٢) للقاضي عياض، و«السير» (١٠/١٧ ـ ١٣) للذهبي، و«شذرات الذهب» (١٣١/٣) لابن العماد.

(٤) «الشفا» (١٠٨٨/٢).

(٥) «البيان والتحصيل» (٣٩٨/١٦).

أمَّا مذهب الإمام أحمد فقد نص على ما نص عليه مالك، من قتل الكافر الحربي إذا نال من حرمة الدين باستهزاء وسخرية، فقال: «كُلُّ من ذكر شيئاً يعرضُ بذكر الربِّ تبارك وتعالى فعليه القتل، مسلماً كان أو كافراً، هذا مذهب أهل المدينة»[(١)]. **وقال أيضاً**: «كُلُّ من شتم النبي ﷺ أو تنقصه، مسلماً كان أو كافراً فعليه القتل»[(٢)]. **قلت**: لو اشترط الحربي مع دفع الجزية سبَّ الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أو دين الإسلام، فهل يقبل منه ذلك أم لا؟

أجاب عن هذا أحد أئمة المالكية في زمانه[(٣)]، فقال: «ولو بذل الحربيُّ الجزية على إظهار السب للأنبياء عليهم السلام لم نقبله، وحلَّ لنا دمه، فكذلك يَحِلُّ دَمُهُ بالسبِّ الطارئ، ويسقط القتل في السبِّ بإسلامه»[(٤)].

قال ابن القيم عند قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ...﴾ الآية [البقرة: ١٩٣]، فمدَّ قتالهم إلى أن ينتهوا عن أسباب الفتنة، وهي الشرك، وأخبر أنَّهُ لا عدوان إلا على الظالمين؛ والمجاهر بالسبِّ والعدوان على الإسلام غير منتهٍ، فقتاله واجب إذا كان مقدوراً عليه، وقتله مع القدرة حَتْمٌ، وهو ظالم فعليه العدوان الذي نفاه عمن انتهى، وهو القتل والقتال، وهذا بحمد الله في غاية الوضوح»[(٥)].

---

(١) «أحكام أهل الملل» (ص٢٢٥) لابن الخلّال، و«الصارم المسلول» (ص٢٥٩) لابن تيمية، و«أحكام أهل الذمة» (٢/ ٧٩٢) لابن القيم، و«لوامع الأنوار البهية» (١/ ٣٩٧) للسفاريني.

(٢) المصدر نفسه (ص٢٥٥ ـ ٢٥٦)، و«الصارم المسلول» (ص١٠) لابن تيمية، و«أحكام أهل الملل» (٢/ ٧٩٦) للخلال.

(٣) هو أبو سعيد عبد السلام بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة بن عبد الله التنوخي، الحمصي الأصل، المغربي القيرواني، المالكي، (ت٢٤٠هـ). انظر: «ترتيب المدارك» (١/ ٥٨٥ ـ ٦٢٦)، و«السير» (١٢/ ٦٣ ـ ٦٩)، و«العبر» (١/ ٣٤٠).

(٤) «الذخيرة» (١٢/ ٢٠) للقرافي.

(٥) «أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨٢٩).

❑ المطلب الثاني ❑

المستهزئ المعاهد أو الذمي

قال الإمام ابن القيِّم ـ رحمه الله تعالى ـ: «الكفار إمَّا أهل حرب، وإمَّا أهل عهد، وأهل العهد ثلاثة أصناف: أهل ذمة، وأهل هدنة، وأهل أمان... ولفظ «الذمة والعهد» يتناول هؤلاء كلهم في الأصل... فإن الذمة من جنس لفظ العهد والعقد، وقولهم: «هذا في ذمة فلان» أصله من هذا: أي في عهده وعقده»(١).

ويَعْضُدُ هذا التقسيم ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **«كان المشركون على منزلتين من النبي ﷺ والمؤمنين، كانوا مشركي أهل حربٍ يقاتلهم ويقاتلونه، ومشركي أهل عهد لا يقاتلهم ولا يقاتلونه...»** الحديث(٢).

إذا تقرر هذا الأصل فاعلم أن من طعن في دين الإسلام وسبَّ الله تعالى؛ وسب رسوله ﷺ(٣)، من أهل العهد والذمة فقد نقض عهده، وحَلَّ دمه وماله للمسلمين وبرئت منه الذمة.

---

(١) «أحكام أهل الذمة» (٢/ ٤٧٥) لكن قال ابن القيم: «صار في اصطلاح كثير من الفقهاء «أهل الذمة» عبارة عمن يؤدي الجزية، وهؤلاء لهم ذمَّة مؤبدة، وهؤلاء قد عاهدوا المسلمين على أن يجري عليهم حكم الله ورسوله: إذ هم مقيمون في الدار التي يجري فيها حكم الله ورسوله، بخلاف أهل الهدنة، فإنهم صالحوا المسلمين على أن يكونوا في دارهم، سواء كان الصلح على مالٍ أو غير مال: لا تجري عليهم أحكام الإسلام كما تجري على أهل الذمة، لكن عليهم الكف عن محاربة المسلمين. وهؤلاء يسمون أهل العهد وأهل الصلح وأهل الهدنة، وأمَّا المستأمن: فهو الذي يقدم بلاد المسلمين من غير استيطان لها؛ وهؤلاء أربعة أقسام: رُسُلٌ، وتُجَّار، ومستجيرون... وطالبوا حاجة من زيارة أو غيرها، وحكم هؤلاء ألا يهاجروا، ولا يقتلوا، ولا تؤخذ منهم الجزية...». «أحكام أهل الذمة» (٢/ ٣٧٦ ـ ٤٧٥) لابن القيم.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الطلاق، باب نكاح من أسلم من المشركات، وعِدَّتُهُنَّ، برقم (٥٢٨٦)، «فتح» (٩/ ٣٢٧).

(٣) قال ابن تيمية: «فأمَّا الذميّ فيجب التفريق بين مجرد كفره به (يعني الرسول عليه =

قال الإمام الشافعي: رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أراد الإمام أن يكتب كتابَ صلح على الجزية كَتَبَ... وعلى أنَّ أحداً منكم إنْ ذكر محمداً ﷺ أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به فقد بَرِئَتْ منه ذِمَّةُ الله ثُمَّ ذِمَّةُ أمير المؤمنين؛ وجميع المسلمين، ونقض ما أعطى عليه الأمان، وحلَّ لأمير المؤمنين ماله ودمُهُ كما يَحِلُّ أموال أهل الحَرْبِ ودماؤهم»[1].

والأدلة على هذا في الكتاب والسنة، قد تتبعها الإمام الجليل شيخ الإسلام ابن تيمية في «الصارم المسلول...» وتبعه تلميذه الإمام ابن القيِّم في «أحكام أهل الذِّمة»، بما لا مزيد على ما ذكراه، وسوف أورد بعض هذه الأدلة مبتدئاً بالآيات القرآنية ثم الأحاديث النبوية الصحيحة، مردفاً ذلك أيضاً بكلام الفقهاء ـ رحمهم الله تعالى ـ.

○ الأدلة من القرآن الكريم:

الدليل الأول:

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة: ٧ ـ ١٢].

والطعن في الدين: «أن ينسب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين، لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أصوله واستقامة فروعه»[2].

= الصلاة والسلام) وبين سبه، فإن كفره به لا ينقض العهد، ولا يبيح دم المعاهد بالاتفاق؛ لأنَّا صالحناهم على هذا، وأمَّا سبه له فإنه ينقض العهد ويوجب القتل». «الصارم المسلول» (ص٥٣٣).

(١) «الصارم المسلول» (ص١٣) لابن تيمية.

(٢) «أحكام القرآن» (٢/ ٩٠٥) لابن العربي، و«الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٥٣) للقرطبي.

فإذا صدر من الذميّ أو المعاهد، طعن في الدين، أو استخفاف برب العالمين، وتنقص بالأنبياء والمرسلين انتقض عهده في المشهور من مذهب مالك، وهو مذهب الشافعي وأحمد ـ وسيأتي نقل النصوص عن هؤلاء الأئمة ـ عدا أبي حنيفة فإنه لا ينقض العهد عنده، لأن ما هم عليه من الكفر والشرك أعظم.

قال القرطبي كَلَلهُ: «أكثر العلماء على أنَّ من سبَّ النبي ﷺ من أهل الذِمَّة، أو عرَّض أو استخفَّ بقدره أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به فإنه يقتل، فإنّا لم نعطه الذّمة أو العهد على هذا. إلّا أبا حنيفة والثوري وأتباعهما من أهل الكوفة فإنهم قالوا: لا يقتل، ما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يؤدَّب ويُعَزَّر»[(١)].

قال ابن تيمية كَلَلهُ: «وأمَّا من طعن في الدين فإنَّه يتعيَّنُ قتاله، وهذه كانت سنة رسول الله ﷺ؛ فإنه كان يُهْدِرُ دماء من آذى الله ورسوله وطعن في الدين وإنْ أمْسَكَ عن غيره»[(٢)].

ثم قال: «فإذا طعن الذميُّ في الدين فهو إمام في الكفر، فيجب قتاله لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ ولا يمين له؛ لأنَّه عاهدنا على أن لا يظهر عيب الدين وخالف، واليمين هنا المراد بها العُهود... فثبت أنَّ كلَّ من طعن في ديننا بعد أن عاهدناه عهداً يقتضي أن لا يفعل ذلك فهو إمام في الكفر لا يمين له، فيجب قتله بنص الآية»[(٣)].

ورحم الله الإمام ابن القيم إذ يقول: «... بل مجاهرتنا بسبِّ ربنا وكتابه وإحراق مساجدنا ودورنا أشدُّ علينا من مجاهرتنا بالمحاربة إن كنّا

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٥٥). وانظر: «معالم السنن» مع «سنن أبي داود» (٤/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩) للخطابي، و«دلائل الأحكام» (٤/ ٧٨ ـ ٧٩) لابن شداد.

(٢) «الصارم المسلول» (١٩)، و«أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨١٤) لابن القيم.

(٣) المصدرين السابقين (ص١٩، ٢/ ٨١٤).

مؤمنين: فإنه يجب علينا أن نبذل دماءنا وأموالنا حتى تكون كلمة الله هي العليا، ولا يجهر بين أظهرنا بشيء من أذى الله ورسوله، فإذا لم يكونوا مستقيمين لنا مع القدح في أهون الأمرين[١] فكيف يستقيمون لنا مع القدح في أعظمهما؟»[٢].

الدليل الثاني:

قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [التوبة: ١٣].

قال ابن القيم: «فجعل همَّهم بإخراج الرسول موجباً لقتالهم لِمَا فيه من الأذى له. ومعلوم قطعاً أنّ سبّه أعظم أذى له من مجرد إخراجه من بلده، ولهذا عفا ﷺ عام الفتح عن الذين همُّوا بإخراجه ولم يَعْفُ عمن سَبَّه[٣]: **فالذميُّ إذا أظهر سبَّه ﷺ فقد نكث عهده، وفعل ما هو أعظم من الهم بإخراج الرسول، وبدأ بالأذى؛ فيجب قتاله**»[٤].

الدليل الثالث:

قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥].

---

(١) هذا الذي تحدث عنه هو الأمر الثاني، والأول: هو نكث العهد من غير طعن في الدين، ولا شك أنه أهون من الطعن في الدين.

(٢) «أحكام أهل الذمة» (٢/٨١٣).

(٣) وهذا ليس على إطلاقه، بل إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عفا عن عبد الله بن أبي سرح يوم الفتح بشفاعة عثمان ـ رضي الله عنه ـ، وكان هذا خالص حقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ. انظر: (ص٣٨١) من هذه الرسالة.

(٤) «أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨٢١ ـ ٨٢٢)، و«الصارم المسلول» (ص٢٣) لابن تيمية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأمر سبحانه بقتال الناكثين الطاعنين في الدين، ورتب على ذلك ستة أشياء: تعذيبهم بأيدي المؤمنين، وخزيهم، والنصرة عليهم، وشفاء صدور المؤمنين، وذهاب غيظ قلوبهم، وتوبته على غيرهم، والتقدير: إن قاتلتموهم يحصل هذا. وإذا كانت هذه الأمور مرتبة على قتال الناكث والطاعن في الدين ـ وهي أمور مطلوبة ـ كان سببها المقتضي لها مطلوباً للشارع ـ وهو القتال، وإذا كانت هذه الأمور مطلوبة حاصلة بالقتال لم يجز تعطيل القتال الذي هو سببها مع قيام المقتضي له من جهة من يقاتله: وهو النكث والطعن في الدين.

فشفاء الصدور الحاصل من ألم النكث والطعن، وذهاب الغيظ الحاصل في صدور المؤمنين من ذلك مقصود للشارع مطلوب الحصول؛ ولا ريب أنَّ من أظهر سبَّ رسول الله ﷺ من أهل الذمة فإنه يغيظ المؤمنين ويؤلمهم أكثر من سفك دماء بعضهم وأخذ أموالهم، فإنَّ هذا يثير الغضب لله، والحمية له ولرسوله... بل المؤمن المسدد لا يغضب هذا الغضب إلّا لله ورسوله؛ والله ـ سبحانه ـ يُحِبُّ شفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم؛ وهذا إنما يحصل بقتل الساب...»(١).

وتوبة الله ـ تعالى ـ على من يشاء ليست مرتبة على شيء مِمّا ورد في الآية الكريمة على قراءة الرفع ﴿وَيَتُوبُ﴾، لأن التوبة من الله ـ تعالى ـ لا يكون سببها القتال، إذ قد توجد بغير قتال لمن شاء الله أن يتوب عليه(٢).

○ أما الأدلة من السنة النبوية فهي:

الدليل الأول:

ما رواه الشعبي عن علي رضي الله عنه **أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع**

---

(١) «أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨٢٢ ـ ٨٢٣). وانظر: «الصارم المسلول» (ص٢٣ ـ ٢٦).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٤/ ١٦٢ ـ شاكر)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٥٦).

فيه، فخنقها رجل حتى ماتت، فأبطل رسول الله ﷺ دَمَها[١].

وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أنّ أعمى كانت له أمّ ولد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، قال: فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فأخذ المغول[٢] فوضعه في بطنها، واتكأ عليها فقتلها... فقال النبي ﷺ: **«ألا اشهدوا أنَّ دمها هَدَرٌ»**[٣].

قال ابن تيمية رحمه الله: «فهذه القصةُ يمكن أنْ تكون الأولى، ويدلُّ عليه كلامُ الإمام أحمد؛ لأنه قيل له في رواية عبد الله: في قتل الذمي إذا سَبَّ أحاديث؟ قال: نعم، منها حديث الأعمى الذي قتل المرأة...»[٤].

فهذه الحادثة فيها دلالة ظاهرة على أنَّ تلك المرأة كانت ذمِّية معاهدة بدلالة رواية الشعبي عن علي: «أن يهودية...»، وأيضاً النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أبطل دمها، وهذا لا يكون إلّا بعد أن كان دمها معصوماً بالعهد والذمة، خلافاً لما ذهب إليه الإمام الخطابي[٥] من أنها مرتدة[٦].

الدليل الثاني:

ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ لكعب بن الأشرف، فإنَّه قد آذى الله ورسوله؟...»** الحديث[٧].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧٤ ـ ٣٧٥).
(٢) تقدم شرحه (ص٣٧٣).
(٣) تقدم تخريجه (ص٣٧٤).
(٤) «الصارم المسلول» (ص٧٣). وانظر: «أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨٣٣ ـ ٨٣٤) لابن القيم.
(٥) انظر: «معالم السنن» مع «سنن أبي داود» (٤/ ٥٢٨).
(٦) انظر: «الصارم المسلول» (ص٧٠ ـ ٧٢) لابن تيمية، و«أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨٤١ ـ ٨٤٢) لابن القيم.
(٧) متفق عليه، وتقدم تخريجه (ص٣٧٥).

قال الخطابي: قال الشافعي: «يقتل الذمي إذا سبَّ النبي ﷺ وتبرأ منه الذمّة»[١]، واحتج في ذلك بخبر قتل ابن الأشرف.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «لم يكن بحضرة النبي ﷺ ولا قُرْبَهُ أحدٌ من مشركي أهل الكتاب إلا يهود أهل المدينة، وكانوا حُلَفَاء الأنصار، ولم تكن الأنصارُ أَجْمَعَتْ أولَ ما قَدِمَ رسول الله ﷺ إسلاماً، فوادَعَتْ يهودُ رسول الله ﷺ، ولم يخرج إلى شيء من عداوته بقول يظهر ولا فعل حتى كانت وقعة بدْرٍ، فتكلَّم بعدها بعداوتِه والتحريض عليه، فَقَتَلَ رسول الله ﷺ فيهم»[٢].

قال ابن تيمية بعد أنْ نقل كلام الشافعي هذا: «ومعلومٌ أَنَّهُ إنما أراد بهذا الكلام كَعْبَ بن الأشرف»[٣].

ومعلوم أنَّ كعب بن الأشرف لم يكن ناقضاً للعهد ولا محارباً بتلك الزيارة التي قام بها إلى مكة ـ قد كانت دار حرب ـ وفضَّلَ دين المشركين على دين خاتم المرسلين ـ عليه الصلاة والسلام ـ ورجع إلى المدينة، فلم يَنْدُبِ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى قتله، حتى بلغه هجاء كعب بن الأشرف فندب لقتله. «والحكم الحادث يضاف إلى السبب الحادث، فعُلِمَ أنَّ ذلك الهجاء والأذى الذي كان بعد قُفُوله من مكة موجِبٌ لِنَقضِ عهدِهِ ولقتلِهِ، وإذا كان هذا في المُهادِنِ الذي لا يؤدِّي جِزيةً، فما الظنُّ بالذمِّيِّ الذي يُعطي الجزية، ويلتزم أحكام الملة؟»[٤].

---

(١) «معالم السنن» مع «سنن أبي داود» (٤/٥٢٩). وانظر: «الصارم المسلول» (ص٧٤) لابن تيمية، و«أحكام أهل الذمّة» (٢/٨٤٢) لابن القيِّم.

(٢) نقلاً عن «الصارم المسلول» (ص٧٤) لابن تيمية.

(٣) «الصارم المسلول» (ص٧٤).

(٤) «الصارم المسلول» (ص٧٩ ـ ٨٠) لابن تيمية. وانظر: «أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨٥١ ـ ٨٦٤) لابن القيم.

هذا ما يتعلق بالأدلة الشرعية، أمَّا مذاهب الأئمة في المسألة فكالتالي:

○ أولاً: مذهب الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ:

أمَّا أبو حنيفة وأصحابه فقالوا: «لا ينتقض العهد بالسبِّ، ولا يُقتلُ الذميُّ بذلك، لكن يُعَذَّر على إظهار ذلك، كما يُعَذَّر على إظهار المنكرات التي ليس لهم فِعلُهَا»(١).

لكن عندهم ينتقضُ العهد إذا كان لأهل الذمة مَنَعَةٌ، فيمتنعون من الإمام، ويمنعون الجزية، ولا يمكن الإمام إجراء الأحكام عليهم(٢).

«ومن أصولهم أنَّ ما لا قتل فيه عندهم مثل... سب الذميِّ لله ورسوله وكتابه ونحو ذلك إذا تكرر، فعلى الإمام أن يقتل فاعله تعزيراً، ويحملون ما ورد عن النبي ﷺ من القتل في مثل هذه الجرائم؛ من باب المصلحة ويسمونه «القتل سياسةً»... ولهذا أفتى أكثر أصحابهم بقتل من أكثر من سَبِّ النبي ﷺ من أهل الذِّمة وإن أسلم بعد أخذه، وقالوا: يقتل سياسةً، وهذا متوجه على أصولهم»(٣).

○ ثانياً: مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله:

قال الإمام مالك رحمه الله: «من سبَّ الله ـ سبحانه ـ من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي كفر به انتقض عهده بخلاف نسبة الصاحبة والولد والشركة مِمَّا هو دينُهم الذي أقروا عليه بالجزية»(٤).

وقال ـ أيضاً ـ: «... من شتم نبينا من أهل الذمة، أو أحداً من

---

(١) المصدر السابق (ص١٦).
(٢) انظر: «أحكام أهل الذِّمة» (٢/ ٨١٠) لابن القيِّم.
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٨١٠). وانظر: «الصارم المسلول» (ص١٦) لابن تيمية.
(٤) «الذخيرة» (١٢/ ١٨) للقرافي.

الأنبياء عليهم السلام قُتِلَ إلّا أن يُسْلِمْ»[١].

وقد نصَّ الإمام ابن القيِّم في «أحكام أهل الذمة» على مسائل في مذهب مالك رحمه الله إذا صدرت من الذميِّ ينتقض عهده، ويحلُّ دمه وماله، منها: «**قالوا: ومن سَبَّ منهم أحداً من الأنبياء وجب قتله إلّا أن يسلم**»[٢].

وهذا لا خلاف فيه في المذهب.

قال القاضي عياض رحمه الله: «فَأَمَّا الذميُّ إذا صَرَّح بسبِّه أو عرَّض، أو استخفَّ بقدْرِه، أو وصَعه بغير الوجهِ الذي كفر به، فلا خلافَ عندنا في قَتْلِه إنْ لم يُسْلِم؛ لأنا لم نُعْطِه الذمّة أو العَهْد على هذا؛ وهو قول عامة الفقهاء إلّا أبا حنيفة والثوري وأتباعهما من أهل الكوفة، فإنهم قالوا: لا يُقْتل، ما هو عليه من الشرك أعظم...»[٣].

○ ثالثاً: مذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ:

أمَّا مذهب الشافعيِّ فالمنصوص عنه أنَّ عهده ينتقِض بالطعن في الدين وسَبِّ الله تعالى ورسوله ﷺ وتبرأُ مِنْهُ الذمَّة، ويجب قتله.

قال رحمه الله بعد ذكر الشروط التي تكتب على أهل الذمة: «وعلى أنَّ أحداً منكم إنْ ذكر محمداً ﷺ أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يَذكُرَهُ به فقد بَرِئَتْ منه ذِمَّةُ الله ثم ذِمَّةُ أمير المؤمنين، وجميع المسلمين، ونقض ما أعطى عليه الأمان، وحلَّ لأمير المؤمنين مالُه ودمُه كما تَحِلُّ أموال أهل الحَرْب ودماؤهم»[٤].

---

(١) «الشفا» (٢/ ١٠٣٤) للقاضي عياض.
(٢) «أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨٠٩).
(٣) «الشفا» (٢/ ١٠٣٠ ـ ١٠٣١).
(٤) نقلاً عن «الصارم المسلول» (ص١٣) لابن تيمية، و«أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨٠٥) لابن القيم.

وقال ـ أيضاً ـ: «يقتل الذميُّ إذا سَبَّ النبي ﷺ وتبرأ منه الذمّة»[(١)].

ونص عليها ابن المنذر عندما حكى الإجماع عن أهل العلم، ومنهم الشافعي[(٢)].

أما أصحاب الشافعي فذكروا ـ فيمن ذكر الله أو كتابه أو رسوله بسوء ـ وجهين:

أحدهما: يُنْتقض بذلك مطلقاً، سواء شُرِط عليهم تركه أو لم يُشرَط، بمنزلة ما إذا قاتلوا المسلمين، وامتنعوا من التزام جريان الأحكام عليهم.

والثاني: أن السَّبَّ كالأفعال التي على المسلمين فيها ضررٌ من قَتْلِ المسلم والزنا بالمسلمة، وفي هذه الأمور وجهان:

أحدهما: أنه إن لم يشرط عليهم تركها بأعيانها لم ينتقض العهد بفعلها، وإن شرط عليهم تركها بأعيانها ففي انتقاض العهد بذلك وجهان.

والثاني: لا ينتقض العهد بفعلها مطلقاً، ومنهم من حكى هذه الوجوه أقوالاً، وهذه طريقة العراقيين من أصحاب الشافعي.

أما الخُرَاسَانيون: فالمراد بالاشتراط عندهم شرط انتقاض العهد بفعلها، لا شرط تركها، ولذلك ذكروا في تلك الخصال المضِرَّة ثلاثة أوجه:

أحدهما: ينتقض بفعلها.

والثاني: لا ينتقض.

والثالث: إن شُرط في العقد انتقاض العهد بفعلها انتقض، وإلّا فلا[(٣)].

---

(١) «معالم السنن» مع «سنن أبي داود» (٤/٥٢٩) للخطابي.

(٢) انظر: «الصارم المسلول» (ص٢٦٠) لابن تيمية، و«أحكام أهل الذمة» (٢/٨٠٧) لابن القيم.

(٣) «الصارم المسلول» (ص١٥ ـ ١٦) لابن تيمية. وانظر: «أحكام أهل الذمة» (٢/٨٠٧ ـ ٨٠٨) لابن القيِّم.

○ **رابعاً: مذهب الإمام أحمد بن حنبل** رحمه الله:

قال حنبل: وسمعت أبا عبد الله يقول: «كل من نقض العهد وأحدث في الإسلام حدثاً مثل هذا [يعني السب] رأيت عليه القتل، يقول: ليس على هذا أعطوا العهد والذمة»(١).

وسئل عن رجل من أهل الذمّة شتم النبي ﷺ: **ماذا عليه؟ قال: «إذا قامت البيّنة عليه يقتل من شتم النبي ﷺ مسلماً كان أو كافراً»**(٢).

وسئل أيضاً عن شتم النبي ﷺ قال: «يقتل، قد نقض العهد»(٣).

وفي رواية سئل رحمه الله عن رجل من أهل الذمّة شتم النبي ﷺ؟ **فقال: «يقتل إذا شتم النبي ﷺ»**(٤).

قال ابن تيمية بعد أن ساق الروايات السابقة عن الإمام أحمد: «فأقواله كلها نصٌّ في وجوب قَتْلِهِ وفي أنَّهُ قد نقض العهد، وليس عنده في هذا اختلاف.

وكذلك ذكر عامةُ أصحابه متقدمُهُمْ ومتأخرهم، لم يختلفوا في ذلك»(٥)، إلّا أن بعضهم كالقاضي أبي يعلى، وابن عقيل، وأبي الخطاب والحلواني، نقلوا في: «مثل سب الرسول وما مثله، روايتين:

إحداهما: ينتقض العهد بذلك، والأخرى: لا ينتقض عهده،... مع

---

(١) «أحكام أهل الملل»، كتاب الحدود، باب فيمن شتم النبي ﷺ (ص٢٥٦) للخلال. وانظر: «الصارم المسلول» (ص١٠) لابن تيمية، و«أحكام أهل الذمّة» (٧٩٦/٢) لابن القيم.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) «أحكام أهل الذمة» (٧٩٦/٢) لابن القيم.

(٤) «أحكام أهل الملل»، كتاب الحدود، باب فيمن شتم النبي ﷺ (ص٢٥٨) للخلّال. وانظر: «الصارم المسلول» (ص١٠) لابن تيمية.

(٥) «الصارم المسلول» (ص١١). وانظر: «أحكام أهل الذمة» (٧٩٧/٢) لابن القيم.

أنهم كلَّهم متفقون على أنَّ المذهب انتقاضُ العهْدِ بذلك»[١].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ إنَّ هؤلاء كلهم [يعني من نقل عن الإمام روايتين] وسائرَ الأصحاب ذكروا مسألة سَبِّ النبي ﷺ في موضع آخر، وذكروا أنَّ سابَّهُ يُقتَلُ وإن كان ذمياً، وأنَّ عهده ينتقض، وذكروا نصوص أحمد من غير خلافٍ في المذهب، **إلّا أن الحلواني قال**: «ويحتملُ ألّا يُقْتَلَ من سبَّ الله ورسوله إذا كان ذمياً»[٢].

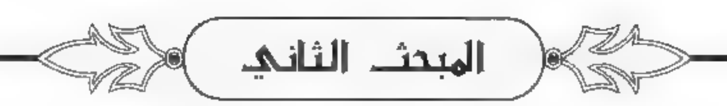
وقال القاضي أبو الحسين: «... وأمَّا ما فيه إدخال غضاضةٍ ونقصٍ على الإسلام ـ وهي ذكرُ الله وكتابه ودينه ورسوله بما لا ينبغي ـ فإنه ينتقضُ العهد، نص عليه [يعني الإمام أحمد] ولم يخرج في هذه روايةً أخرى كما ذكرها أولئك [يقصد ابن عقيل وأبي الخطاب وغيرهما] في أحد الموضعين»[٣].

○ وخلاصة القول:

أنَّ الواجب إقرار نصوص الإمام أحمد على ما هي عليه، وهي واضحة لا لبس فيها، في دلالتها على انتقاض عهد الذمِّي السابّ لله ورسوله ودين الإسلام.

---

(١) المصدر نفسه (ص١٢، ٢/٧٩٨ ـ ٧٩٩).
(٢) المصدر نفسه (ص١٢). وانظر: «أحكام أهل الذمة» (٢/٧٩٩) لابن القيم.
(٣) المصدر السابق (ص١٢، ٢/٧٩٩ ـ ٨٠٠).



المستهزئ الزنديق «المنافق»

الزنديق هو الذي يسميه الفقهاء: المنافق، وهو الذي يضمر الكفر اعتقاداً ويظهر الإيمان قولاً[(١)].

ويجمع الزنديق على زنادقة، وهم كما قال العلامة ابن القيم ﷺ: «... قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر، ومعاداة الله ورسوله، وهؤلاء هم المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار...»[(٢)].

فإذا ما وقع من الزنادقة المنافقين استهزاء وسخرية بالله تعالى وبرسوله ﷺ وطعن في دين الإسلام، أو تنقص لأصحاب رسول الله ﷺ لأجل حق الصحبة، وما هم عليه من اتباع لشرائع الإسلام، وسنة سَيِّدِ الأنام، فحكمهم عند المسلمين وفي شريعة رب العالمين القتل إذا أظهروا ذلك، لأن نفاقهم هنا نفاقٌ اعتقاديٌ[(٣)] يخرج صاحبه من الملة الإسلامية، وعلى هذا يدل كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

---

(١) انظر: «أحكام أهل الملل» (ص٤٦٠)، و«فتح الباري» (١٢/ ٢٨٣) لابن حجر، و«الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ١٣٢)، و«التعريفات» (ص٢٩٨) للجرجاني.

(٢) «طريق الهجرتين» (ص٦٦٢).

(٣) انظر تقسيم النفاق إلى: اعتقادي يخرج من الملة، وعملي لا يخرج عن الملة: كتاب «الصلاة وحكم تاركها» (ص٥٩) لابن القيم، و«الدرر السنية» (٢/ ٣٧) جمع العلامة عبد الرحمٰن بن قاسم.

○ أمَّا الأدلة من القرآن فهي:

الدليل الأول:

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)﴾ [التوبة: ٧٤].

قال الإمام البغوي ـ عليه رحمة الله ـ: «... ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾، أي: أظهروا الكفر بعد إظهار الإيمان والإسلام. وقيل: هي سب النبي ﷺ، وقيل: كلمة الكفر قول الجلاس: لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير، وقيل: كلمة الكفر قولهم: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ ...»(١).

فيلاحظ في الآية الكريمة أن الله ﷻ لم يحكم على قائل تلك الكلمة ـ على اختلاف في سبب نزول الآية(٢) ـ بالكفر بعد الإسلام إلا بعد إظهارها من المنافقين، «فدل هذا على أن المنافقين كفار، وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [المنافقون: ٣] دليل قاطع»(٣). وقال القرطبي في معنى آية المنافقين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾: «هذا إعلام من الله تعالى بأن المنافق كافر، أي: أقروا باللسان ثم كفروا بالقلب»(٤).

قال ابن تيمية: «فإنه دليل على أن المنافق إذا لم يتب عذبه الله في الدنيا والآخرة»(٥)، وعذاب الدنيا الذي توعد الله به المنافقين هو القتل إن

---

(١) «معالم التنزيل» (٢/ ٣١٢).

(٢) انظر: «أسباب نزول القرآن» (ص٢٥٦) للواحدي، و«أسباب النزول» (ص١٩٥ ـ ١٩٧) للسيوطي.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ١٣١) للقرطبي.

(٤) المصدر نفسه (١٧/ ٨١). وانظر: «معالم التنزيل» (٤/ ٣٤٧) للبغوي.

(٥) «الصارم المسلول» (ص٣٥٧).

هم أظهروا ما في صدورهم من الحقد على الإسلام وأهله[١].

الدليل الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: ٤٩ ـ ٥٢].

قال أهل التأويل: المراد بقوله: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ يعني: القتل[٢] إن أظهرتم ما في قلوبكم من الحقد والحسد، وتلفظتم بما يوجب الكفر والقتل بالسيف[٣].

ومما يدل على ذلك أيضاً: قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة: ١٠١].

ورد في تأويل قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بالقتل في الدنيا، والعذاب في البرزخ.

وقيل: القتل في الدنيا، وعذاب الآخرة[٤]، قال أبو جعفر الطبري:

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٦/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨) للطبري.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٦/ ٣٨٩)، عن ابن عباس برقم (١٦٨١٦)، وقتادة برقم (١٦٨١٧)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣٠٠) للبغوي، و«زاد المسير» (٣/ ٤٥١) لابن الجوزي، و«الدر المنثور» (٣/ ٤٤٦) عن ابن جريج وعزاه لابن المنذر.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٣٠٠) للبغوي، و«الصارم المسلول» (ص٣٥٣) لابن تيمية.

(٤) انظر: «جامع البيان» (٦/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨) للطبري، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣٢٣) للبغوي، و«الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ١٥٣) للقرطبي، و«الدر المنثور» (٣/ ٤٨٧) للسيوطي.

«وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر أنه يعذب هؤلاء الذين مردوا على النفاق مرتين ولم يضع لنا دليلاً يتوصل به إلى علم صفة ذينك العذابين، وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أنبئنا عنهم، وليس عندنا علم بأي ذلك من أي، غير أن قوله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ دلالة على أن العذاب في المرتين كلتيهما قبل دخول النار، والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر... ثم يرد هؤلاء المنافقون، بعد تعذيب الله إياهم مرتين، إلى عذاب عظيم، وذلك عذاب جهنم»[1].

الدليل الثالث:

قوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢].

يقول الله ـ تعالى ذكره ـ عن هؤلاء المنافقين أنهم: «مطرودين منفيين أينما ثقفوا، يقول: حيثما لُقُوا من الأرض أُخذوا وقُتِّلوا بكفرهم بالله تقتيلاً»[2].

وفي الآية معنى الأمر: «أي الحكم فيهم هذا ـ يعني القتل ـ على جهة الأمر به»[3].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر؛ أي: سن الله جل وعز فيمن أرجف بالأنبياء، وأظهر نفاقه أن يؤخذ

---

(١) «جامع البيان» (٦/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩).

(٢) «جامع البيان» (١٠/ ٣٣٤) للطبري. وانظر: «الصارم المسلول» (ص٣٥٦) لابن تيمية.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥٤٤) للبغوي، و«زاد المسير» (٦/ ٤٢٣) لابن الجوزي.

ويقتل...»[١].

○ **أما الأدلة من السنة النبوية على جواز قتل الزنديق إذا أظهر السب والاستهزاء فهي كالتالي:**

الدليل الأول:

ما ثبت في الصحيحين عن علي رضي الله عنه في قصة حاطب بن أبي بلعتة وفيه فقال عمر: إنه قد خان الله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه، فقال: - أي النبي ﷺ -: «**أليس من أهل بدر؟ فقال: لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو فقد غفرت لكم -: فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم**»[٢].

وفي رواية مسلم: «فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق».

قال ابن تيمية رحمه الله: «فدل على أن ضرب عنق المنافق من غير استتابة مشروع؛ إذ لم ينكر النبي ﷺ على عمر استحلال ضرب عنق المنافق، ولكن أجاب بأن هذا ليس بمنافق ولكن من أهل بدر المغفور لهم، فإذا أظهر النفاق الذي لا ريب أنه نفاق فهو مباح الدم»[٣].

الدليل الثاني:

حديث عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك وفيه: «**فاستعذر يومئذٍ من عبد الله بن أُبَيّ بن سلول، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: يا معشر المسلمين، من**

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً، برقم (٣٩٨٣)، «فتح» (٧/٣٥٥)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة، برقم (٢٤٩٤)، «نووي» (١٦/٢٨٧ - ٢٨٩).

(٣) «الصارم المسلول» (ص٣٥٨).

يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله وأنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك...» الحديث(١).

وقد استخرج الحافظ ابن حجر فوائد جمة من هذا الحديث، ذكر منها فائدة تبين وجه الاستدلال منه فقال: «**وفيه أن من آذى النبي ﷺ بقول أو فعل يقتل لأن سعد بن معاذ أطلق ذلك، ولم ينكره النبي ﷺ...**»(٢).

الدليل الثالث:

حديث جابر بن عبد الله ﵄ قال: «**كنا في غزاة فكسع(٣) رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فَسَمَّعَها الله رسوله ﷺ، قال: ما هذا؟ فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي ﷺ: دعوها فإنها منتنة**».

قال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر ثم كَثُرَ المهاجرون بعد، فقال عبد الله بن أُبَيّ: أَوَقد فعلوا؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر بن الخطاب ﵁: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، قال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»(٤).

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٥٨) من هذا البحث.

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٣٣٨).

(٣) وهي غزوة المريسيع أو بني المصطلق، ومعنى كسع: هو بسين مخففة مهملة أي ضرب دبره وعجيزته بيد أو رجل أو سيف وغيره. «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٣٧٤) للنووي. وانظر: «النهاية في غريب الحديث»، والأثر (٤/ ١٧٣ ـ ١٧٤) لابن الأثير الجزري.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ...﴾، برقم =

قال ابن تيمية كَلَّلَهُ: «ففي هذه الأحاديث دلالة على أن قتل المنافق كان جائزاً، إذ لولا ذلك لأنكر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ على من استأذنه فيقتل المنافق، ولأنكر على عمر...، ولأخبر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن الدم معصوم بالإسلام، ولم يعلل ذلك بكراهية غضب عشائر المنافقين لهم، وأن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، وأن يقول القائل: لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، لأن الدم إذا كان معصوماً كان هذا الوصف عديم التأثير في عصمة دم المعصوم، ولا يجوز تعليل الحكم بوصف لا أثر له، وترك تعليله بالوصف الذي هو مناط الحكم...»[(١)].

إذاً فما دام حكم المنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر أنه كافر ينبغي قتله، فلم لم يقم النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا الحكم في عبد الله بن أُبَي بن سلول وغيره من المنافقين؟

فالجواب من وجهين كما قال ابن تيمية ـ عليه رحمة الله ـ: **أحدهما**: أن عامتهم لم يكن ما يتكلمون به من الكفر مما يثبت عليهم بالبينة، بل كانوا يظهرون الإسلام، ونفاقهم يعرف تارة بالكلمة يسمعها الرجل المؤمن فينقلها إلى النبي ﷺ فيحلفون بالله أنهم ما قالوها أو لا يحلفون، إلى أن قال: فكان ترك قتلهم ـ مع كونهم كفاراً ـ لعدم ظهور الكفر منهم بحجة شرعية»[(٢)].

والحجة الشرعية في حق هؤلاء الزنادقة ـ من يظهر الإسلام ويبطن الكفر ـ تقوم ويثبت عليهم الحكم الشرعي وهو القتل، بتوفر ثلاثة أمور: **أحدها**: الشهود، **والثاني**: البينة، **والثالث**: الإقرار، على نفسه بذلك[(٣)].

= (٤٩٠٧)، «فتح» (٨/ ٥٢٠)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، برقم (٢٥٨٤)، «نووي» (١٦/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤).

(١) «الصارم المسلول» (ص٣٦٢).

(٢) المصدر نفسه (ص٣٦٢ ـ ٣٦٤).

(٣) انظر: المصدر السابق (ص٤٧٠ ـ ٥٣٣) قال مالك كَلَّلَهُ: «وإنما كف رسول الله ﷺ =

فمتى ما تحققت هذه الشروط في أحد وجب على الإمام إقامة حكم الله فيه وهو القتل.

الوجه الثاني: أنه عليه الصلاة والسلام كان يخاف أن يتولد من قتلهم من الفساد أكثر مما في استبقائهم، وقد بيَّن ذلك حين قال: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[(١)]... فإنه لو قتلهم بما يعلمه من كفرهم لأوشك أن يظن الظان أنه إنما قتلهم لأغراض وأحقاد، وإنما قصده الاستعانة بهم على الملك... وأن يخاف من يريد الدخول في الإسلام أن يقتل مع إظهاره الإسلام كما قتل غيره.

وقد كان ـ أيضاً يغضب لقتل بعضهم قبيلته وأناس آخرون فيكون ذلك سبباً للفتنة، واعتبر ذلك بما جرى في قصة عبد الله بن أُبَيّ لما عرض سعد بن معاذ بقتله خاصم له أناس صالحون، وأخذتهم الحمية حتى سكَّتهم رسول الله ﷺ[(٢)]»[(٣)].

وقال ابن تيمية: «فحيث ما كان للمنافق ظهور وتخاف من إقامة الحد عليه فتنة أكبر من بقائه عملنا بآية: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨] كما أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف عنهم والصفح، وحيثما حصل

= عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه، إذا لم يشهد على المنافقين» يعني من تقام بشهادته الحدود. «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٤٠) للقرطبي. وانظر: «الصارم المسلول» (ص٣٥٢).

(١) قطعة من حديث جابر في الصحيحين وتقدم آنفاً تخريجه.

(٢) يشير إلى حديث عائشة في الصحيحين في قصة الإفك وتقدم (ص٤٨٥)، وخرَّجته (ص٢٥٨).

(٣) «الصارم المسلول» (ص٣٦٥) لابن تيمية. وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٣٩ ـ ١٤٠) للقرطبي، وهناك وجه ثالث: «وهو أن الله تعالى كان قد حفظ أصحاب نبيه ﷺ بكونه ثبتهم أن يفسدهم المنافقون أو يفسدوا دينهم فلم يكن في تبقيتهم ضرر، وليس كذلك اليوم، لأنا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا». «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٤٠) للقرطبي.

القوة والعز خوطبنا بقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]»[١].

فهذه قاعدة عظيمة جليلة في كيفية التعامل مع الكفار والزنادقة والمنافقين في حال الضعف، وقلة الناصر، وفي حال العزة والتمكين في الأرض لأولياء الله الموحدين.

وحاصل هذين الوجهين: «أن الحد لم يقم ـ يعني زمن النبي عليه الصلاة والسلام ـ على واحد بعينه ـ أي من المنافقين ـ لعدم ظهوره بالحجة الشرعية التي يعلمه بها الخاص والعام، أو لعدم إمكان إقامته إلا مع تَنْفِير أقوام عن الدخول في الإسلام، وارتداد آخرين عنه، وإظهار قوم من الحرب والفتنة ما يربو فساده على فساد ترك قتل منافق، وهذان المعنيان حكمهما باق إلى يومنا هذا، إلا في شيء واحد وهو أنه ﷺ ربما خاف أن يظن الظان أنه يقتل أصحابه لغرض آخر مثل أغراض الملوك، فهذا منتف اليوم»[٢].

هذا ما يتعلق بحكم الزنادقة المنافقين في الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة، وبقي أن نعرف مسألة مهمة وهي: هل تقبل توبة المنافق: الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر، أم ليس له توبة؟

اختلف العلماء ـ رحمة الله عليهم ـ في ذلك على قولين:

أحدهما: أنه يقتل من غير استتابة ولا تقبل توبته وهو مذهب مالك، وأحد القولين عن أبي حنيفة والشافعي، وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد[٣].

---

(١) المصدر السابق (ص٣٦٦ ـ ٣٦٧).

(٢) المصدر نفسه (ص٣٦٥).

(٣) انظر: «أحكام أهل الملل» (ص٤٥٩) للخلال، و«الرد على الجهمية ضمن عقائد السلف» (ص٣٥٣ ـ ٣٥٦) للدارمي، و«أحكام القرآن» (٢/ ٩٧٩) لابن العربي، و«الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٤٠، ٨/ ١٣٢) للقرطبي، و«المغني» (١٢/ ٢٦٩) لابن قدامة.

قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «النفاق في عهد الرسول ﷺ هو الزندقة فينا اليوم، فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابة»(١).

وقال أيضاً عند شرحه لحديث: «**من بدل دينه فاقتلوه**»: «ومعنى حديث النبي ﷺ ـ فيما نرى والله أعلم: أنه من خرج من الإسلام إلى غيره مثل الزنادقة وأشباههم فإن أولئك يقتلون ولا يستتابون، لأنه لا تعرف توبتهم، وأنهم قد كانوا يسرون الكفر، ويعلنون بالإسلام، فلا أرى أن يستتاب هؤلاء، ولا يقبل قولهم»(٢).

الثاني: تقبل توبة الزنديق المنافق، وإليه ذهب الإمام أبو حنيفة والشافعي في أحد القولين عنهما، والرواية الأخرى عن الإمام أحمد(٣).

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في الزنديق: «يقبل قوله إذا رجع ولا يقتل»(٤).

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عندما سئل عن الزنديق: يستتاب ثلاثاً؟ قال: «نعم، يستتاب ثلاثاً، استتابه عثمان وعلي»(٥). وقال أيضاً: «الزنديق يستتاب، الناس فيه مختلفون، يستتاب ثلاثاً». وقال عندما سئل عن الزنديق: يستتاب؟ قال: «نعم»، وقال: «أنا أرى أن أستتيب الزنادقة وغيرهم»(٦).

واختار أبو بكر ابن العربي قول الإمام مالك بعدم قبول توبة المنافق،

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٤٠) للقرطبي.
(٢) «الرد على الجهمية» ضمن «عقائد السلف» (ص٣٥٣ ـ ٣٥٤) للدارمي.
(٣) «أحكام أهل الملل» (ص٤٦٠ ـ ٤٦٣) للخلال، و«الرد على الجهمية» ضمن «عقائد السلف» (ص٣٥٣ ـ ٣٥٦) للدارمي، و«أحكام القرآن» (٢/ ٩٧٩) لابن العربي، و«الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٤٠، ٨/ ١٣٢) للقرطبي، و«المغني» (١٢/ ٢٦٩) لابن قدامة.
(٤) «الرد على الجهمية ضمن عقائد السلف» (ص٣٥٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ١٣٢) للقرطبي.
(٥) «مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله (٣/ ١٢٨٩ ـ ١٢٩٠).
(٦) «أحكام أهل الملل» (ص٤٦٢) للخلال.

لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٠]، والزنديق لا يظهر منه علامة تبين رجوعه وتوبته، لأنه كان يظهر الإيمان ويسر الكفر فإذا وقف على ذلك، فأظهر التوبة، لم يزد على ما كان منه قبلها وهو إظهار الإسلام[1].

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... مفهوم كلام الخرقي، أنه إذا تاب قبلت توبته، ولم يقتل، أيُّ كفرٍ كان، وسواء كان زنديقاً يستتر بالكفر، أو لم يكن، وهذا مذهب الشافعي والعنبري، ويروى ذلك عن علي وابن مسعود وهو أحد الروايتين عن أحمد واختيار أبي بكر الخلال...»[2].

ويدل عليه صنيع الإمام أبي سعيد الدارمي في كتابه «الرد على الجهمية» حيث عقد في آخره «باب قتل الزنادقة والجهمية واستتابتهم من كفرهم» وصدَّره بحديث علي في قتل الزنادقة وتحريقهم بالنار ـ وسيأتي قريباً ـ ثم نقل مذهب مالك والشافعي ثم قال: «وأنا أقول كما قال الشافعي: إنه تقبل علانيتهم، إذا اتخذوها جُنَّة لهم من القتل، أسروا في أنفسهم ما أسروا فلا يقتلون، كما أن المنافقين ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢] فلم يؤمر بقتلهم والزنديق عندنا شر من المنافق[3]...»[4].

وحديث علي الذي أشار إليه الدارمي ـ هو نص في المسألة ـ روى البخاري بسنده عن عكرمة قال: «**أُتِيَ علي** رضي الله عنه **بزنادقة فأحرقهم، فبلغ ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله** ﷺ: **لا تعذبوا بعذاب الله، ولقتلتهم لقول رسول الله** ﷺ: **«من بدل...»**»[5]. وأورد الحافظ

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» (٢/ ٩٧٩)، و«المغني» (١٢/ ٢٦٩) لابن قدامة.

(٢) «المغني» (١٢/ ٢٦٩). وانظر عن اختيار الخلال: «أحكام أهل الملل» (ص٤٥٩ ـ ٤٦٣).

(٣) هناك فروق بين الزنديق والمنافق، فكل زنديق منافق وليس العكس. انظر: «فتح الباري» (١٢/ ٢٨٣) لابن حجر، و«المسائل والرسائل...» (٢/ ٨٩) للأحمدي.

(٤) «الرد على الجهمية ضمن عقائد السلف» (ص٣٥٥).

(٥) كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم، =

ابن حجر في «الفتح» إحدى روايات هذا الحديث التي تبين أن علياً استتابهم ثلاثاً فأبوا، قال: **قيل لعلي: إن هنا قوماً على باب المسجد يدعون أنك ربهم، فدعاهم فقال لهم: ويلكم ما تقولون؟ قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا، فقال: ويلكم! إنما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون، إن أطعت الله أثابني إن شاء، وإن عصيته خشيت أن يعذبني، فاتقوا الله وارجعوا؛ فأبوا، فلما كان في الغد غدوا عليه فجاء قنبر فقال: قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام، فقال: أدخلهم. فقالوا كذلك، فلما كان الثالث قال: لئن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث قتلة، فأبوا إلا ذلك، فقال: يا قنبر ائتني بفعله معهم مرورهم فَخَدَّ لهم أخدوداً بين باب المسجد والقصر، وقال: احفروا فأبعدوا في الأرض، وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخدود وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعوا، فأبوا أن يرجعوا فقذف بهم فيها حتى احترقوا، قال:**

إنــي إذا رأيــت أمــراً مــنــكــراً أوقـدت نـاري ودعـوت قـنـبـراً(١)

وهذا القول ـ أعني قبول توبة الزنديق ـ هو الأقرب للصواب، لخبر علي مع الزنادقة، واتفاق الصحابة على قتلهم؛ إلا ما كان من ابن عباس ﷺ من إنكاره على علي في كيفية قتلهم، وأنه لا يعذب بعذاب الله إلا الله.

واشترط العلماء ـ رحمة الله عليهم ـ لتوبة الزنديق المنافق: الإخلاص، واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٥ ـ ١٤٦]، فإذا أخلص التائب من النفاق لله تعالى، وأصلح ظاهره

= برقم (٦٩٢٢)، «فتح» (١٢/٢٧٩).

(١) «فتح الباري» (١٢/٢٨٢) وقال: وهذا سند حسن.

وباطنه واعتصم بالله فقد صدق في توبته، وإلا فليس بتائب[١].

هذا من حيث أحكام الدنيا، أما أحكام الآخرة، فإن صدق مع الله فمن يحجب عنه رحمة أرحم الراحمين، فهو يقبل التوبة من عباده حتى من الشرك الأكبر[٢]. والله أعلم.

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٣) للقرطبي، و«مدارج السالكين» (١/ ٣٦٣) لابن القيم.

(٢) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٣٣، ٩٠/ ٢١١) لابن تيمية.



المستهزئ المسلم

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: إمكان وقوع الاستهزاء من المسلم.

المطلب الثاني: كفر المسلم المستهزئ.

المطلب الثالث: من شروط تكفير المسلم المعيَّن.

المطلب الرابع: من موانع تكفير المسلم المعيَّن.

* * * * *

❑ المطلب الأول ❑

إمكان وقوع الاستهزاء من المسلم

لا بُدَّ لي قبل الدخول في تفصيلات أحكام المستهزئ من المسلمين من بيان حق المسلم على المسلم: وهو مبثوث في الشريعة «الوحي»، ولكن أقتصر منه هنا على جملة حقوق منها:

ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**حقُّ المسلم على المسلم خَمْسٌ: ردُّ السلام، وعيادةُ المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**»(١).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز، برقم (١٢٤٠)، «فتح» =

ومنها: التنفير عن سب المسلم وقتاله، لقوله ﷺ: «**سباب المسلم فُسوق وقتالُهُ كُفْر**»(١).

ومنها: الزجر عن قتل المسلم، وتحريم دمه وماله وعرضه، لِمَا ثبت في الصحيحين من حديث أبي بكرة ﷺ: **أنَّ رسول الله ﷺ خطب الناس، فقال: ألا تدرون أيُّ يومٍ هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم ـ قال: حتى ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمه ـ فقال: أليس بيوم النحر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: أيُّ بلد هذا؟ أليس بالبلد الحرام؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: فإنَّ دماءَكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلّغتُ؟ قلنا: نعم، قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهدُ الغائب، فإنَّه رُبَّ مُبَلغٍ يبلِّغه من هو أوعى له، فكان كذلك، فقال: لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»(٢).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، بعد أن ذكر خطبة النبي ﷺ كما رواها الإمام مسلم رَحِمَهُ اللهُ قال: «.. ثُمَّ خَصَّ بعد ذلك الدماء والأموال التي كانت تستباح باعتقادات جاهلية»(٣)، فأبطل الإسلام ذلك كله، لقوله ﷺ: «... **ألا كُلّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة، وإنَّ**

= (٣/ ١٣٥)، ومسلم، كتاب السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام، برقم (٢١٦٢)، «نووي» (١٤/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يُنهى عن السِّباب واللعن، برقم (٦٠٤٤)، «فتح» (١٠/ ٤٧٩)، وفي الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفَّاراً...**»، برقم (٧٠٧٦)، «فتح» (١٣/ ٢٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»، برقم (١١٤)، «نووي» (٢/ ٤١٣ ـ ٤١٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفَّاراً...**»، برقم (٧٠٧٨)، «فتح» (١٣/ ٢٩)، ومسلم، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، برقم (١٦٧٩)، «نووي» (١١/ ١٨٠ ـ ١٨١).

(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٣٠٦).

أوّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل...»[(١)].

ومع أنَّ الإسلام حرَّم سفك الدماء بغير حق كما كانت تفعل الجاهلية، شرع ﷻ شرائع وحدَّ حدوداً، ومن ذلك ما أشار إليه النبي ﷺ في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: **قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنّي رسول الله إلّا بإحدى ثلاث: النفسُ بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة»**[(٢)].

وجاء في بعض روايات هذا الحديث: **«أو يكفر بعد إسلامه»**، وفي أخرى: **«ارتدَّ بعد إسلامه»**[(٣)]، وهذا شاهد بأنَّ معنى قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«المفارق لدينه التارك للجماعة»**: تركهم بالارتداد عن الدين، فهو عام في كل مرتد عن الإسلام بأيٍّ ردة كانت فيجب قتله إن لم يرجع إلى الإسلام[(٤)].

وبهذا يتبيَّنُ لنا جلياً أنَّ المسلم الذي شهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأتى بفرائض الإسلام، واعتقده ظاهراً وباطناً، أنَّهُ قَدْ يكفر بعد إسلامه وَيَرْتد، إذا أتى بناقض من نواقض الإيمان، القولية أو الفعلية، أو الاعتقادية، كالاستهزاء بالدين كما حدث من بعض المسلمين الذين كانوا يجاهدون مع نبي الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندما تلفظوا بكلمة الكفر ـ وكفروا بعد إيمانهم ـ وهي قولهم في غزوة تبوك: **«ما رأينا**

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، برقم (١٢١٨)، «نووي» (٨/ ٤٣١).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٨٤) من هذا البحث.

(٣) «فتح الباري» (١٢/ ٢١٠) لابن حجر.

(٤) انظر: «الأمّ» (١٢/ ٥٨٧ ـ ٥٨٨) للإمام الشافعي، و«فتح الباري» (١٢/ ٢١٠) لابن حجر، و«شرح صحيح مسلم» (١١/ ١٧٧) للنووي.

مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء»[(١)]، فأنزل الله ـ جلَّ وعلا ـ في شأنهم قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ...﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وقول من يقول عن مثل هذه الآيات: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يصح[(٢)]، لأنَّ الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم، فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أُريدَ أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم، ما زالوا هكذا؛ بَلْ لَمَّا نافقوا وحذروا أَنْ تنزل سورة تبيِّنُ ما في قلوبهم من النفاق، وتكلموا بالاستهزاء، صاروا كافرين بعد إيمانهم، ولا يَدلُّ اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين...» إلى أن قال: «فدلَّ على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفراً، بل ظنوا أنَّ ذلك ليس بكفر، فبيَّن أنَّ الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فَدَلَّ على أَنَّهُ كان عندهم إيمان ضعيف، ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أَنَّهُ محرم، ولكن لم يظنوه كفراً، وكان كفراً كفروا به، فإنهم لم يعتقدوا جوازه...»[(٣)].

إذن فما دام الاستهزاء والسب يُتَصَوَّرُ وقوعه من المسلم: الذي اعتقد الإسلام ظاهراً وباطناً، فينبغي معرفة حكمه في شريعة الإسلام، وهو ما سوف أوضحه في المطلب التالي.

---

(١) تقدم تخريجها (ص٢٨٤) من هذا البحث.

(٢) وهذا حال المنافقين يؤمنون ظاهراً، ويخفون الكفر باطناً، فكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا يدلُّ على أنهم لم يكونوا منافقين، وإنما هم من المسلمين ضعفاءُ الإيمان.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٧٢ ـ ٢٧٤). وانظر: «فتح المجيد» (ص٥٢٢) للشيخ عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ.

❑ المطلب الثاني ❑

حكم المسلم المستهزئ

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ السابَّ إنْ كان مسلماً فإنَّهُ يَكْفُرُ ويقتل بغير خلاف، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم وقد تقدم مِمَّن حكى الإجماع على ذلك[١] إسحاق بن راهويه وغيره»[٢].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: «لا خلافَ أنَّ سابَّ الله تعالى من المسلمين كافرٌ حلالُ الدم...»، ثم نقل عن مالك قوله: «من سب الله تعالى من المسلمين قُتِلَ ولم يستتب»[٣].

وقال مالك: «من سَبَّ رسول الله ﷺ أو غيره من الأنبياء من مسلمٍ أو كافر قتل ولم يستتب»[٤].

ونص الإمام أحمد على ذلك في مواضع متعددة منها ما ذكره الخلَّالُ بسنده عن حنبل قال: سمعت أبا عبد الله قال: «كل من ذكر شيئاً يعرض به الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ فعليه القتل مسلماً كان أو كافراً». وهذا مذهب أهل المدينة[٥].

وقال ـ أيضاً ـ في رواية حنبل: «كل من شتم النبي ﷺ أو تنقصه مسلماً كان أو كافراً فعليه القتل»[٦].

---

(١) سبق أن ذكرت «إجماع السلف في المسألة» (ص٣٨٥ ـ ٣٩٠).

(٢) «الصارم المسلول» (ص١٠).

(٣) «الشفا» (٢/ ١٠٤٧).

(٤) المصدر السابق (٢/ ١٠٣٤). وانظر: «البيان والتحصيل» (١٦/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨) لابن رشد القرطبي.

(٥) المصدر السابق (ص٢٥٥ ـ ٢٥٦). وانظر: «الصارم المسلول» (ص١٠).

(٦) «أحكام أهل الملل» (ص٢٥٥). وانظر: «مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله» (٣/ ١٢٩١ ـ ١٢٩٢)، و«لوامع الأنوار البهية» (١/ ٣٩٧) للسفاريني.

ولو أخذت أتتبع الروايات عن الإمام أحمد وغيره في هذا الباب لخرجت عن المقصود، وفيما تقدم في الفصل الأول من هذا الباب «حكم الاستهزاء» كفاية إذْ بَيَّنْتُ الأدلة من الكتاب والسنة، وإجماع السلف، ونصوص العلماء من أئمة المذاهب الأربعة، وأتباعهم ما يَدُلُّ دلالة واضحة على كُفْرِ وَرِدَّة المستهزئ بالله ـ تبارك وتعالى ـ، ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ودين الإسلام.

❑ المطلب الثالث ❑

شروط تكفير المسلم المعيَّن

وإذا أردنا تنزيل هذا الحكم الواضح البيِّن على الأشخاص المعينين، فلا بُدَّ من التخلص من الهوى والعاطفة وطريق أهل الأهواء والبدع[1]، والاحتكام إلى منهج السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة، فهم أرحم الخلق بالخلق[2]، وأتقاهم لله ـ تبارك وتعالى ـ.

يقول العلامة محمد بن صالح بن عثيمين: «يجب على الإنسان أن يتقي الله رَبَّهُ في جميع الأحكام فلا يتسرع في البت بها خصوصاً في التكفير الذي صار بعض أهل الغيرة والعاطفة [يطلقونه بدون][3] تفكر ولا روية مع أنَّ

---

(١) وأعني بهم هنا الخوارج والمعتزلة من جهة، والمرجئة من جهة أخرى، فأهل السنّة والجماعة وسط بين هؤلاء وأولئك. انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٤٨٦)، و«فتاوى ورسائل سماحة العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ» (١/ ٧٥)، و«ضوابط التكفير عند أهل السنّة والجماعة» (ص٢٠٣ ـ ٢٢٤) للشيخ عبد الله القرني، و«وسطية أهل السنّة والجماعة بين الفرق» د. محمد باكريم، و«درء الفتنة عن أهل السنّة» للشيخ بكر أبو زيد.

(٢) انظر بيان هذا الجانب في: «الرد على البكري» (ص٢٥٧ ـ ٢٥٨) لابن تيمية.

(٣) في الأصل: «ويعلقون بد»، وهو خطأ مطبعي كما هو ظاهر.

الإنسان إذا كفَّر شخصاً ولم يكن الشخص أهلاً له عاد ذلك إلى قائله، وتكفير الشخص يترتب عليه أحكام كثيرة... وكذا يجب أن لا نَجْبُنَ في تكفير من كفَّره الله ورسوله، ولكن يجب أنْ نُفَرِّقَ بين المعيَّن وغير المعيَّن»[(١)].

فأهل السنة يفرقون بين المعيَّن وغير المعيَّن، فيقولون: من قال كذا أو فعل كذا أو اعتقد كذا فهو كافر، لكن لا يحكمون على قائل ذلك أو فاعله أو معتقده إلّا بتوفر شروط التكفير، وانتفاء موانعه، فحينئذٍ يحكمون بكفر هذا المعيَّن طاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ.

يقول ابن تيمية ـ عليه رحمة الله ـ: «وليس لأحدٍ أنْ يكفر أحداً من المسلمين، وإن أخطأ وغلط، حتى تقام عليه الحجة، وتُبيَّن له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين، لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلّا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة»[(٢)].

ويقول ـ أيضاً ـ: «إنَّ التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعيَّن، وإنَّ تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعيَّن، إلا إذا وجدت الشروط، وانتفت الموانع، يُبيّن هذا أنَّ الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات، لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه»[(٣)]، يعني الجهمية.

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «ومسألة تكفير المعيَّن مسألة معروفة إذا قال قولاً يكون القول به كفراً، فيقال: من قال بهذا القول فهو كافر، ولكن الشخص المعيَّن إذا قال ذلك، لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها»[(٤)].

---

(١) «القول المفيد على كتاب التوحيد» (٢/ ٢٧١).

(٢) «مجموع الفتاوى (الكيلانية)» (١٢/ ٤٦٦).

(٣) المصدر نفسه (١٢/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨). وانظر: نفس المصدر (٢٣/ ٣٤٥، ٣٥/ ١٦٥).

(٤) «الدرر السنية» (٨/ ٢٤٤) جمع العلامة عبد الرحمٰن بن قاسم.

وهذا التفريق عند أهل السنة والجماعة مبني على أصل وهو: أنَّ ثبوت الوعيد العام في حق العصاة والكافرين لا يلزم منه ثبوته في حق المعيَّنين.

يقول ابن تيمية: «لكن الشخص المعيَّن، لا يشهد عليه بالوعيد، فلا يشهد لمعيَّن من أهل القبلة بالنار لجواز أن لا يلحقه الوعيد لفوات شرط، أو ثبوت مانع، فقد لا يكون التحريم بلغه، وقد يتوب من فعل المحرم»(١).

وقد اشترط أهل العلم للحكم بتكفير المسلم شرطين لا بُدَّ من توفرهما:

أحدهما: أنْ يقوم الدليل على أنَّ هذا القول أو الفعل أو الاعتقاد ممَّا هو كُفْرٌ في شريعة الله تعالى.

أو بمعنى: ثبوت أنَّ هذه الخصلة التي قامت بالمعيَّن ممَّا يقتضي الكفر في دين الله تعالى(٢).

وعند تطبيق هذا الشرط على موضوع البحث «**الاستهزاء بالدين**» يتضح جلِياً ممَّا تقدم من الأدلة القاطعة على كفر ورِدَّة المستهزئ بالدين، وما يتبع ذلك من سخريةٍ بالله ـ جل وعلا ـ ورُسُلِه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، ولو لم يرد من الأدلة إلا قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦]. لكفى، ولكن قد قام من الأدلة الكثيرة غير هذا؛ ما يوجب القطع والتواتر، وقد أهدر ﷺ دماء أقوام طعنوا في الدين، واستهزءوا برسول رب العالمين.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٤٥، ١٠/ ٣٧٢). وانظر: «مجموع فتاوى ورسائل» (٢/ ١٥٢) للعلامة محمد بن عثيمين.

(٢) «القول المفيد» (٢/ ٢٧١)، و«مجموع فتاوى ورسائل» (٢/ ١٢٥، ١٣٤) كلاهما للعلامة محمد بن عثيمين.

الشرط الثاني: قيامُ الحجة في حق المسلم المعيَّن. أو بمعنى آخر: انطباق الحكم على الشخص المعيَّن بحيث تتمُّ شروط التكفير في حقِّه وتنتفي الموانع[(١)]، فقيام الحجة يحتاج إلى إيضاح من خلال معناه، وأدلته، وضابطه.

أمَّا معنى قيام الحجة: فهو بُلُوغُ دعوة الله التي جاء بها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الناس، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ...﴾ [الأنعام: ١٩].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به، سواء علم أو جهل، فكُلُّ من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه، فقصَّرَ عنه ولم يعرفه، فقد قامت عليه الحجة، والله سبحانه لا يعذبُ أحداً إلَّا بَعْدَ قيام الحجة عليه، فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه...»[(٢)].

أمَّا الأدلة على قيام الحجة، وإعذار الله تعالى إلى خلقه، فمنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

يقول العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ظاهر هذه الآية الكريمة**: أن الله ـ جل وعلا ـ لا يعذب أحداً من خلقه لا في الدنيا ولا في الآخرة، حتى يبعث إليه رسولاً ينذره ويحذره، فَيَعْصِي ذلك الرسول، ويستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار»[(٣)].

---

(١) «القول المفيد» (٢/ ٢٧١)، و«مجموع فتاوى ورسائل» (ص١٢٦، ١٣٤) لابن عثيمين.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢١٧). وانظر: «مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤١) لابن تيمية.
وهناك من يرى أن الحجة إن لم تقم على العبد بالشرع، فهي قائمة عليه بالعقل، وعليه فالحجة قائمة على من لم تبلغه الحجة الرسالية، وهذا خلاف مذهب السلف، وهو مذهب المعتزلة. انظر: «الجواب الصحيح» (٢/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧).

(٣) «أضواء البيان» (٣/ ٤٢٩). وانظر: «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» (ص١٧٨ ـ ١٨٥) للشنقيطي.

ومنها: قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة: ١١٥].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

ومنها: تصريحه ـ جل وعلا ـ في آيات كثيرة: بأَنَّهُ لم يُدخِلْ أحداً النار إلا بَعْدَ الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك: ٨ ـ ٩][(١)].

ومنها: حديث أبي هريرة ﷺ قال: **قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أَحَدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثُمَّ يموتُ ولم يؤمنْ بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»**[(٢)].

قال ابن حزم رحمه الله بعد أن ذكر جزءاً من هذه الأدلة: «فنَص تعالى على أنَّ النذارة لا تلزم إلّا من بلغته، لا من لم تبلغه، وأنَّهُ تعالى لا يعذب أحداً حتى يأتيه رسول من عند الله ﷻ...»[(٣)].

ويقول الشاطبي رحمه الله: «جرت سنته سبحانه في خلقه، أنَّه لا يؤاخذ بالمخالفة إلّا بعد إرسال الرسل، فإذا قامت الحجة عليهم، فمن شاء فليؤمن

---

(١) انظر طرفاً من هذه الأدلة في: «مجموع الفتاوى» (٤١/٢٢) لابن تيمية، و«الجواب الصحيح» (٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٧)، و«مدارج السالكين» (٢١٧/١) لابن القيم، و«أضواء البيان» (٤٢٩/٣ ـ ٤٣٠) للشنقيطي.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ، برقم (٢٤٠)، «نووي» (٥٤٦/٢).

(٣) «الفِصَلْ» (١٠٥/٤).

ومن شاء فليكفر، ولكل جزاءُ مثله...»(١).

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الكتاب والسنة قد دلَّت على أن الله لا يعذبُ أحداً، إلّا بعد إبلاغ الرسالة، فمن لم تبلغه جملةً لم يعذبه رأساً، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية»(٢).

ويقول الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا التكفير فأنا أُكَفِّرُ من عرف دين الرسول، ثُمَّ بعدما عرف سبَّهُ ونهى الناس عنه وعادى من فعله فهذا الذي أُكفِّره وأكثر الأمة ليسوا كذلك»(٣).

وقال ـ أيضاً ـ: «ولا نُكفِّرُ إلا من بلغته دعوتنا للحق ووضحت له المحجة، وقامت عليه الحجة، وأصرَّ مستكبراً معانداً كغالب من نقاتلهم اليوم يصرون على ذلك الإشراك، ويمتنعون من فعل الواجبات ويتظاهرون بأفعال الكبائر المحرمات...»(٤).

ومن خلال الأدلة الشرعية، والنقول عن العلماء الربانيين، يتبيَّن لنا أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يُعَذِّبُ أحداً من عباده إلا بعد النَّذارة وإقامة الحجة من حيث الثبوت والدلالة.

أمّا الضابط في قيام الحجة فيمكن معرفته من خلال كلام أهل العلم الذين بحثوا مثل هذه المسائل، وعايشوا في المجتمعات الإسلامية في وقتهم كثيراً من الانحرافات العقدية وغيرها.

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب: «فإن كان المعيَّن لا يُكفَّر إلّا إذا قامت عليه الحجة فمن المعلوم أنْ ليس معناه أنْ يفهم كلام الله ورسوله مثل

---

(١) «الموافقات» (٣/ ٣٧٧).
(٢) «مجموع الفتاوى (الكيلانية)» (١٢/ ٤٩٣).
(٣) «الدرر السنية» (١/ ٥٦، ٢٦١ ـ ٢٦٢).
(٤) المصدر نفسه (١/ ١٣٠ ـ ١٣١، ٢٦١).

فهم أبي بكر رضي الله عنه بل إذا بلغه كلام الله ورسوله وخلا من شيء يعذر به فهو كافر، كما كان الكفَّار كلهم تقوم عليهم الحجة بالقرآن، مع قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢](١).

ولا شك أنَّ هناك فرقاً بين قيام الحجة وفهم الحجة، يقول رحمه الله أيضاً: «... فهذا من العجب كيف تشُكُّون في هذا وقد أوضحته لكم مراراً(٢)، فإنَّ الذي لم تقم عليه الحجة هو الذي حديث عهد بالإسلام، والذي نشأ ببادية بعيدة أو يكون ذلك في مسألة خفية مثل الصرف والعطف(٣) فلا يكفر حتى يُعَرَّف؛ وأمَّا أصول الدين التي أوضحها الله وأحكمها في كتابه، فإنَّ حُجَّة الله هو القرآن فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحجة، ولكن أصل الإشكال أنكم لم تفرِّقوا بين قيام الحجة وبين فهم الحجة، فإنَّ أكثر الكفار والمنافقين من المسلمين لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقيام الحجة وبلوغها نوع، وقد قامت عليهم، وفهمهم إيَّاها نوع آخر، وَكَفَّرهُم ببلوغها إياهم وإن لم يفهموها»(٤).

ويقول العلَّامة عبد الله أبا بطين رحمه الله في الفرق بين بلوغ الحجة وفهم الحجة: «... وبلوغ حجج الله وبيِّناته وإن لم يفهمها من بلغته فحُجَّةُ الله قائمة على عباده ببلوغ الحجة لا بفهمها، فبلوغ الحجة شيء وفهمها شيء

---

(١) «الدرر السنية» (٨/ ٧٩، ١١٤). وانظر: المصدر نفسه (٨/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

(٢) يخاطب الشيخ بهذا الكلام بعض من استجاب لدعوته، ولم تتبين له بعض المسائل.

(٣) نوع من السحر، يزعمون أنَّهُ يحبب المرأة لزوجها فلا ينصرف عنها لغيرها، أو العكس.

(٤) «الدرر السنية» (٨/ ٩٠). وانظر: المصدر نفسه (٨/ ٢٤٥).

آخر ولهذا لم يعذر الله الكفار بعدم فهمهم بعد أن بلغتهم حجته وبيِّناته وهذا ظاهر بحمد الله»[(١)].

لكن هناك أمور ظاهرة في الشريعة الإسلامية، معلومة من الدين بالضرورة لأهل الإسلام، كالتوحيد، ووجوب الصلاة والصيام، وغيرها، فلا يتوقف في تكفير منكرها أو المستخف بها، ولا يشترط في حقه التعريف بحكم الله فيه.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: «ومسألة تكفير المعيَّن مسألة معروفة إذا قال قولاً يكون القول به كفراً، فيقال: من قال بهذا القول فهو كافر، لكن الشخص المعيَّن إذا قال ذلك لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها، وهذا في المسائل الخفية التي قد يخفى دليلها على بعض الناس... وأمَّا ما يقع منهم في المسائل الظاهرة الجلية، أو ما يعلم من الدين بالضرورة فهذا لا يتوقف في كفر قائله»[(٢)].

ويقول العلّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ: «إنَّ الذين توقفوا في تكفير المعيَّن، في الأشياء التي قد يخفى دليلها، فلا يكفر حتى تقوم عليه الحجة الرسالية من حيث الثبوت والدلالة، فإذا أوضحت له الحجة بالبيان الكافي كفر سواء فهم، أو قال: ما فهمت، أو فهم وأنكر، وليس كُفْرُ الكفَّار كله عن عناد، وأمَّا ما علم بالضرورة أنَّ رسول الله ﷺ جاء به وخالفه، فهذا يكفر بمجرد ذلك، ولا يحتاج إلى تعريف سواءً في الأصول أو الفروع[(٣)] ما لم يكن

---

(١) «الدرر السنية» (٨/ ٢١٠، ٢١٢). وانظر: المصدر نفسه (٨/ ٢٤٥).

(٢) «الدرر السنية» (٨/ ٢٤٤). وانظر: المصدر نفسه (٨/ ٩٠، ٢١٤).

(٣) لا فرق في ذلك بين الأصول والفروع، ومن قال بالتفريق بينهما من الفقهاء، فقد غلط، وتأثر بالمعتزلة وأمثالهم من أهل الأهواء والبدع، وهذا التفريق من حيث التكفير بها وعدمه، لا يعرف عن الصحابة والتابعين، ولا عن أئمة الإسلام وعلمائه، فهو تفريق باطل. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/ ١١٨، ١٩/ ٢١١، ٢٣/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧) لابن تيمية، و«منهاج السنّة» (٥/ ٨٧ ـ ٩٥)، و«مختصر الصواعق =

حديث عهد بالإسلام»[١].

فهذان قسمان ذكرهما الشيخ رحمه الله **أحدهما**: الأشياء التي قد يخفى دليلها وهي من المسائل الخفية، **والثاني**: ما عُلِم بالضرورة أن الرسول جاء به.

ثم ذكر رحمه الله **القسم الثالث** بقوله: «أشياء تكون غامضة فهذه لا يكفر الشخص فيها ولو بعدما أقيمت عليه الأدلة، وسواء كانت في الفروع أو الأصول»[٢].

وإمام الدعوة السلفية في نجد ألَّف مؤلفاً بعنوان: «**مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد**»[٣]، بيَّنَ فيه أنه لا محيد من تكفير المعيَّن إذا تحققت فيه الشروط ـ كما أوضحت سابقاً ـ وانتفت الموانع لما سيأتي بيانه في المطلب التالي.

❑ المطلب الرابع ❑

موانع تكفير المسلم المعيَّن

أمَّا موانع التكفير للمسلم الذي ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام كالاستهزاء بالله ورسله ودين الإسلام، فقد ذكر أهل العلم مسائل قد يعذر بها من أتى مُكَفِّراً، منها: الجهل، والخطأ، والإكراه، وغيرها.

وإليك تفصيل القول في هذه الأعذار (الموانع) واحدة تلو الأخرى:

○ أولاً: الجهل:

تعتبر مسألة العذر بالجهل من المسائل المهمة من ناحية (العقائد

= المرسلة» (ص٤٨٩ ـ ٤٩٠) للموصلي.

(١) «فتاوى ورسائل» (١/ ٧٤).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٧٤). وانظر: «الإتحاف في الرد على الصحَّاف» (ص٣٢) للعلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن آل الشيخ.

(٣) انظره في: «مؤلفات الشيخ» القسم الأول (ص٢٨١ ـ ٣٢٩)، فهو مؤلف عظيم كثير الفائدة جداً، من وقف عليه عَلِمَ سعة اطلاعه ورسوخه في العلم والدين.

والأحكام) إذ يَعْتَبِر أهل البدع ـ ومن تأثر بهم من الفقهاء ـ تسويغ العذر بالجهل في (الأحكام) ومنعه في (العقائد) وذلك مبني على أصل عندهم، وهو التفريق بين (الأصول والفروع)[١].

أمّا مذهب السلف ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ فإنهم يعذرون بالجهل في العقائد والأحكام سواءً بسواء، وليس ذلك بإطلاق في حقِّ كُلِّ أحد، بل هو مقيَّد بشرط، قال الهيتمي في بيان هذا الشرط: «المدار في الحكم بالكفر على الظواهر ولا نظر للمقصود والنيات[٢]، ولا نظر لقرائن حاله، نعم يعذر مدعي الجهل، إن عذر لقرب عهده بالإسلام أو بعده عن العلماء... ويعذر أيضاً فيما يظهر بدعوى سبق اللسان بالنسبة لدفع القتل عنه»[٣].

○ وأدلة مذهب السلف في هذه المسألة كالآتي:

١ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الرجل من بني إسرائيل الذي أمر أهله بإحراقه، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«كان رجل يسرف على نفسه، فلمَّا حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا متُّ فأحرقوني، ثمَّ اطحنوني، ثمَّ ذروني في الريح، فوالله لئن قَدِرَ قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً، فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له»**[٤].

---

(١) انظر: ما تقدم في المطلب السابق حول مسألة الضابط في قيام الحجة، فقد أشرت إلى كلام شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم في نقض هذا الأصل، وهذا التفريق. وانظر أدلة من لا يعذرون الجاهل في أصول الدين وخاصة مسائل الشرك: «نواقض الإيمان الاعتقادية» (١/ ٢٤٦ ـ ٢٨٦) د. محمد الوهيبي.

(٢) انظر تقرير هذا الأصل وأدلته رسالة: «نواقض الإيمان الاعتقادية» (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٨) د. محمد الوهيبي، و«ضوابط التكفير» (ص٢٠١ ـ ٢٢٤) للشيخ عبد الله القرني.

(٣) «الإعلام بقواطع الإسلام» مع «الزواجر» (٢/ ٣٨٢ ـ ٣٩٧).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٥٤)، برقم (٣٤٧٨)، «فتح» (٦/ ٥٩٣)، وفي مواضع أخر برقم (٦٤٨١، ٧٥٠٨)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في =

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا الرجل ظنَّ أنَّ الله لا يقدر عليه إذا تفرق هذا التفرق، فظنَّ أنَّهُ لا يعيده إذا صار كذلك، وكل واحد من إنكار قدرة الله تعالى وإنكار معاد الأبدان، وإن تفرقت كفر، لكنه كان مع إيمانه بالله وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلاً بذلك، ضالًّا في هذا الظنِّ مخطئاً، فغفر الله له ذلك، والحديث صريح في أن الرجل طمع أن لا يعيده إذا فعل ذلك، وأدنى هذا أن يكون شاكًّا في المعاد، وذلك كفر إذا قامت حجة النبوة على منكره حكم بكفره. . .»[1].

وقال الإمام الخطَّابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد يستشكل هذا فيقال: كيف يغفر له وهو منكر للبعث والقدرة على إحياء الموتى؟ والجواب: أنه لم ينكر البعث، وإنما جهل فظنَّ أنه إذا فعل به ذلك لا يعاد فلا يعذب، وقد ظهر إيمانه باعترافه بأنه إنما فعل ذلك من خشية الله»[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند ذكره لكفر الجحود، وإنكار شيء من الشرائع: «وأمّا من جحد ذلك جهلاً، أو تأويلاً يعذر فيه صاحبه، فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذي جحد قدرة الله عليه، وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح، ومع هذا فقد غفر الله له، ورحمه لجهله، إذا كان ذلك الذي فعل مبلغ علمه، ولم يجحد قدرة الله على إعادته عناداً وتكذيباً»[3].

وهناك تأويلات باطلة لمعنى هذا الحديث، منها: أنَّ معنى قوله: «لئن قدر الله علي»، أي: ضيق وهي كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]

= سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، برقم (٢٧٥٦)، «نووي» (١٧/٧٨).

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/٤٠٩). وانظر نصوصاً أُخر في هذا المعنى: المصدر نفسه (١/٤٩١، ٣/٢٣١، ٧/٦١٩، ٢٣/٣٤٨، ٢٨/٥٠١)، و«الرد على البكري» (ص٣٦) لابن تيمية.

(٢) «فتح الباري» (٦/٦٠٤) لابن حجر.

(٣) «مدارج السالكين» (١/٣٣٨ ـ ٣٣٩).

أي ضيق[١].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن تأول قوله: لئن قدر الله علي بمعنى قضى، أو بمعنى ضيّق فقد أبعد النجعة، وحرَّف الكلم عن مواضعه، فإنه إنما أمر بتحريقه وتفريقه لئلا يجمع ويعاد، وقال: إذا أنا مِتُّ فأحرقوني ثُمَّ اسحقوني ثم ذروني في الريح في البحر، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً، فذكر هذه الجملة الثانية بحرف الفاء عقيب الأولى يدل على أنه سبب لها، وأنه فعل ذلك لئلا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك، فلو كان مقرّاً بقدرة الله عليه إذا فعل ذلك كقدرته عليه إذا لم يفعل لم يكن في ذلك فائدة له، ولأن التقدير والتضييق موافقان للتعذيب، وهو قد جعل تفريقه مغايراً، لأن يقدر الرب، قال: فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين، فلا يكون الشرط هو الجزاء»[٢].

ومن التأويلات ـ أيضاً ـ: ما أشار إليه الحافظ ابن حجر ـ وَرَجَّحَهُ ـ حيث قال: «... وأظهر الأقوال أنه قال ذلك في حال دهشته وغلب الخوف عليه؛ حتى ذهب بعقله لما يقول، ولم يقله قاصداً لحقيقة معناه، بل في حالة كان فيها كالغافل، والذاهل، والناسي الذي لا يؤخذ بما يصدر منه»[٣].

وهذا المعنى الذي ذهب إليه الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ **عليه مأخذان**:

أحدهما: أن أولاده الذين أوصاهم بهذه الوصية قد نفذوا ما أراد، وما فهموا منه إلَّا ما فهمه السلف ـ من أنه أراد الوصية حقيقة من غير ذهول ولا دهش ـ لمّا نفّذوا أمره.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٦٠٤) لابن حجر، وانظر: «الشفا» (٢/ ١٠٨٢ ـ ١٠٨٣) للقاضي عياض، و«شرح صحيح مسلم» (١٧/ ٨٠) للنووي.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤١٠) وما بعدها.

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٦٠٤). وانظر: «الشفا» (٢/ ١٠٨٣) للقاضي عياض، وهناك تأويلات أُخرى وهي أوهى من بيت العنكبوت، انظرها في: «الشفا» (٢/ ١٠٨٤ ـ ١٠٨٥) للقاضي عياض.

الثاني: «أنّ هذا الحديث يذكر لبيان سعة رحمة الله ﷻ حيث غفر لهذا الرجل رغم هذا الجهل الكبير، فلو كانت المغفرة لرجل أخطأ في كلام قاله دون شعور منه ولا إدراك لما يقول لما كان للمغفرة في هذه الحالة مزية، ولصار في حكم من سقط عنه التكليف، وحينئذٍ لا يعتبر قد ارتكب خطأ، ولذا مِنْ فقهِ الإمام الزهري أنَّه لمَّا روى هذا الحديث الذي تتبين فيه سعة رحمة الله وفضله، روى بعده حديث المرأة التي دخلت النار لهرة حبستها (حديث من أحاديث الخوف والوعيد)، ثم قال: «ذلك لئلا يتكل ولا ييأس رجل»[(١)]»[(٢)].

فالذي يترجح، ويجب القطع به ما ذهب إليه الخطابي وابن تيمية وتلميذه ـ رحمهم الله تعالى ـ من أنَّ عُذْرَه كان بسبب جهله، وإلّا فإنه ارتكب ما يوجب الكفر، وهو إنكاره لقدرة الله تعالى أو شكُّه على إعادته بعد التحريق، وذلك جهلٌ منه، مع أنَّ أصل الإيمان واضح في الحديث، قال ابن تيمية: «... فلمَّا كان مؤمناً بالله في الجملة، ومؤمناً باليوم الآخر في الجملة، وهو أنَّ الله يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل صالحاً ـ وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه ـ غفر الله له بما كان فيه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح»[(٣)]. والله أعلم.

٢ ـ حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: **قال رسول الله ﷺ: «يدرس الإسلام كما يدرس وَشْيُ الثوب[(٤)]، حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليُسْرَى على كتاب الله ﷻ في ليلة، فلا يبقى منه في الأرض آية، وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير والعجوز، يقولون:**

---

(١) انظر: «شرح صحيح مسلم» (٧٨/١٧) للنووي.

(٢) «نواقض الإيمان الاعتقادية» (١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١) د. محمد الوهيبي.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٤٩١). وانظر: «نواقض الإيمان الاعتقادية» (١/ ٢٢٨).

(٤) أي: لونه، وحسنه، ونسجه. انظر: «لسان العرب» (١٥/ ٣٩٢).

أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إلٰه إلا الله فنحن نقولها»، فقال له صلة[1]: ما تغني عنهم لا إلٰه إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثمَّ ردها عليه ثلاثاً كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثمَّ أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صلةُ تنجيهم من النار ثلاثاً»[2].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوّات، حتى لا يبقى من يُبَلِّغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيراً ممَّا بعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر، ولهذا اتفق الأئمة على أنَّ من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام، فأنكر هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنَّه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول، ولهذا جاء في الحديث: «**يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة...**» الحديث»[3].

فهؤلاء وأمثالهم عذرهم الله ـ تبارك وتعالى ـ بجهلهم بفرائض الدين، ومبانيه العظام، غير أنَّ معهم أصل الإيمان: وهو النطق بالشهادتين، وذلك لأنَّ حُجَّة الله ورسوله لم تقم عليهم فيما جهلوه، والله أعلم.

٣ ـ حديث أبي واقد الليثي[4] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى**

---

(١) ابن زفر العبسي، أبو العلاء، أو أبو بكر الكوفي، تابعي كبير، ثقة جليل، مات في حدود السبعين. انظر: «تقريب التهذيب» (ص٤٥٥) لابن حجر.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم، برقم (٤٠٩٨) (٢/٣٩١ ـ ٣٩٢)، والحاكم، كتاب الفتن والملاحم، برقم (٨٦٣٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (٤/٥٨٧ ـ ٥٨٨) ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، رقم (٨٧) (١/١٢٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/٤٠٧).

(٤) اختلف في اسمه، فقيل: الحارث بن مالك، وقيل: ابن عوف، وقيل: عوف بن الحارث. قال ابن سعد: «أسلم قديماً، وكان يحمل لواء بني ليث، وضمرة، =

حنين ونحن حديثو عهد بكفر ـ وكانوا أسلموا يوم الفتح ـ قال: فمررنا بشجرة قلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، وكان للكفار سدرة يعكفون حولها ويعلقون بها أسلحتهم يدعونها ذات أنواط[(١)]، فلمَّا قلنا ذلك للنبي ﷺ قال: «الله أكبر قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، **لتركبن سَنَن من كان قبلكم»[(٢)].**

قال العلَّامة سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر ﷺ أنَّ هذا الأمر الذي طلبوه منه، وهو اتخاذ شجرة للعكوف عندها، وتعليق الأسلحة بها تبركاً، كالأمر الذي طلبه بنو إسرائيل من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ...﴾»[(٣)].

وذلك: «أنَّ كُلًّا طلب أن يجعل له ما يُأَلِّهُهُ ويعبده من دون الله، وإن اختلف اللفظان، فالمعنى واحد، فتغيير الاسم لا يُغيِّر الحقيقة»[(٤)].

ثُمَّ إن هؤلاء الذين طلبوا من النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يجعل لهم ذات أنواط، لو لم يستجيبوا لنهي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ

= وسعد بن بكر يوم الفتح، وحنين»، مات سنة (٦٨هـ)، وعمره (٨٥) سنة على الصحيح. انظر: «الإصابة» (٧/ ٣٧٠ ـ ٣٧١)، و«تهذيب التهذيب» (١٢/ ٢٤٣) كلاهما لابن حجر.

(١) اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم: أي يُعلِّقونه بها، ويعكفون حولها. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٥/ ١٢٨) لابن الأثير.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٨)، والترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء لتركَبُنّ سنن من كان قبلكم، برقم (٢١٨٠) (٤/ ٤١٢ ـ ٤١٣) وقال: حديث حسن صحيح، وعبد الرزاق في المصنف برقم (٢٠٧٦٣) (١١/ ٣٦٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» برقم (٧٦) (ص٣٧) واللفظ له، وقال الألباني: «إسناده حسن».

(٣) «تيسير العزيز الحميد» (ص١٨٢).

(٤) «فتح المجيد» (ص١٤٩).

لكفروا، لكنهم بعد نهيه لم يعودوا إلى طلبهم وتابوا إلى الله تعالى[(١)].

قال الإمام المجدد رَحِمَهُ اللهُ: «... لكن هذه القصة تفيد أنَّ المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها، فتفيدُ التعلُّمَ والتحرُّز ومعرفة أنَّ قول الجاهل: (التوحيد فهمناه) أَنَّ هذا من أكبر الجهل ومكايد الشيطان، ويفيد أيضاً أنَّ المسلم إذا تكلَّم بكلام كفرٍ وهو لا يدري فَنُبِّهَ على ذلك فتاب من ساعته أَنَّهُ لا يكفر كما فعل بنو إسرائيل والذين سألوا النبي ﷺ»[(٢)].

وبعد ذكر هذه الأدلة الصحيحة الصريحة، التي تنص على عُذْرِ الجاهل ومنع التكفير عنه إذا كان مِثْلُه يعذر:

- لكونه نشأ ببادية بعيدة عن الإسلام.
- أو لكونه حديث عهد بالإسلام.
- أو في بلد يكثر فيه الشرك، ويكون التوحيد غريباً.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عندما تحدث عن بعض أنواع الشرك: «... وإن ذلك من الشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ ممَّا يخالفه»[(٣)].

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: «وإذا كنّا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبر عبد القادر، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي،

---

(١) انظر: «كشف الشبهات» بتعليق الشيخ ابن عثيمين (ص٨٠).

(٢) المصدر نفسه (ص٨٠ ـ ٨١) وفي كلام الشيخ هذا ردٌّ على من زعم أن قول هؤلاء المسلمين شبيه بفعل بني إسرائيل، وليس مثله من الشرك الأكبر. انظر: «نواقض الإيمان الاعتقادية» (ص٢٣٣) هامش (٢) د. محمد الوهيبي.

(٣) «الرد على البكري» نقلاً عن «نواقض الإيمان الاعتقادية» (ص٢٤٢) د. محمد الوهيبي.

وأمثالهما، لأجل جهلهم وعدم من ينبههم، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا»(١).

ويقول الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: عن بعض من يأتي الشرك أنه لا يُكَفَّر: «العدم من يناضل في هذه المسألة في وقته بلسانه، وسيفه وسنانه، فلم تقم عليه الحجة ولا وضحت له المحجة...»(٢).

فحقيقة المسألة إذن أنَّ العذر بالجهل يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم الحجة على شخص دون آخر، وقد تقوم على أهل بلد لوضوح السنة، وبيان المحجة، ما لا يوجد مثله في بلد آخر، وكذلك في زمن دون غيره.

وبعد ذكر الأدلة على العذر بالجهل، ورفع الإثم والجناح بل والتكفير أيضاً عمن ارتكب مُكَفِّراً، أسوق جملة من كلام أهل العلم المتقدمين، والمتأخرين لزيادة الإيضاح في هذه المسألة.

قال الإمام الشافعي ـ عليه رحمة الله ـ: «لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر، وأمَّا قبل قيام الحجة فإنّه يعذر بالجهل، لأنَّ علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الروية والفكر»(٣).

وقال الإمام أبو بكر بن العربي المالكي رَحِمَهُ اللهُ: «الطاعات كما تسمَّى إيماناً، كذلك المعاصي تُسمى كفراً، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد عليه المخرج من الملَّة، فالجاهل والمخطئ من هذه الأمة ولو عمل من الكفر والشرك ما يكون صاحبه مشركاً أو كافراً فإنَّه يُعْذَرُ بالجهل والخطأ،

---

(١) مؤلفات الشيخ، القسم الثالث «فتاوى ومسائل» (ص١١).
(٢) «الهدية السنية» (ص٤٦، ٤٧) نقلاً عن «نواقض الإيمان الاعتقادية» (ص٢٤٢).
(٣) «فتح الباري» (١٣/٤١٨) لابن حجر.

حتى يتبين له الحجة التي يكفر تاركها بياناً واضحاً ما يلتبس على مثله، وينكر ما هو معلوم من دين الإسلام، ممَّا أجمعوا عليه إجماعاً قطعياً يعرفه كُلٌّ من المسلمين من غير نظر وتأمل، كما يأتي بيانه إن شاء الله، ولم يخالف في ذلك إلَّا أهل البدع»[(١)].

ويقول الشيخ محمد صديق خان القنوجي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا بُدَّ من شرح الصدر بالكفر وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه فلا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد الشرك لا سيما مع الجهل، بمخالفتها لطريقة الإسلام، ولا اعتبار بصدور فعل كفري لم يرد به فاعله الخروج عن الإسلام إلى ملَّةِ الكفر، ولا اعتبار بلفظ يلفظ به المسلم يَدُلُّ على الكفر وهو لا يعتقد معناه»[(٢)].

○ ثانياً: الخطأ:

سبق الكلام عن العذر بالجهل، وتفصيلات القول فيه، وهنا سوف أُبيِّنُ ما يتعلَّقُ بالخطأ الذي يقول الحافظ ابن رجب في تعريفه: «هو أن يقصِدَ بفعله شيئاً فيصادف فعلُه غير ما قصده، مثل: أن يقصد قتل كافر، فيصادف قتله مسلماً»[(٣)].

ويعرِّفه الجرجاني بقوله: «هو ما ليس للإنسان فيه قصد،... كما إذا

---

(١) «محاسن التأويل» (٢/ ٣٣٩) للقاسمي، وكلام ابن العربي هذا لعله في كتابه «النيرين في الصحيحين» لأن سياق القاسمي حول تبويب الإمام البخاري، باب كفران العشير وكفر دون كفر، فكأن تبويب البخاري وتعقيبه بكلام ابن العربي دليل على أنه في شرحه على البخاري: «النيرين...». انظر: «كشف الظنون» (١/ ٥٥٣)، و«شجرة النور الزكية» (ص١٣٦) لمخلوف، و«إتحاف القاري بمعرفة جهود وأعمال العلماء على صحيح البخاري» (ص٢٨٧).

(٢) «الروضة الندية» (ص٦٢٥).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٦٧).

رمى شخصاً ظنهُ صيداً أو حَرْبيّاً، فإذا هو مسلم، أو غرضاً فأصاب آدمياً وما جرى مجراه...»[١].

ثُمَّ إن مسألة الخطأ لها تعلق بعوارض الأهلية إذ هي مانع من موانع التكفير عند السلف ـ رضوان الله عليهم ـ في العقائد والأحكام، وهو مبني على الأدلة الشرعية التي أوضح الله سبحانه في كتابه العزيز أنه لا يؤاخذ بها من أخطأ أو نسي.

لكن بعض أهل الأهواء والبدع ـ كما سبق في مسألة العذر بالجهل ـ يفرقون بين الأصول والفروع (العقائد والأحكام) من حيث التكفير بها وعدمه، خلافاً لما ذهب إليه أئمة السلف والفتوى «كأبي حنيفة والشافعي والثوري وداود بن علي وغيرهم: لا يؤثمون مجتهداً مخطئاً لا في المسائل الأصولية ولا في الفروعية، كما ذكر ذلك عنهم ابن حزم وغيره، ولهذا كان أبو حنيفة والشافعي وغيرهما يقبلون شهادة أهل الأهواء، إلّا الخطَّابية[٢]، ويصححون الصلاة خلفهم والكافر لا تقبل شهادته على المسملين، ولا يُصلى خلفه.

وقالوا هذا هو القول المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين: إنهم لا يكفرون ولا يفسقون ولا يؤثمون أحداً من المجتهدين المخطئين، لا في مسألة علمية ولا عملية.

قالوا: والفرق بين مسائل الأصول والفروع إنما هو من أقوال أهل البدع من أهل الكلام من المعتزلة والجهمية، ومن سلك سبيلهم، وانتقل هذا

---

(١) «التعريفات» (ص١٣٤).

(٢) أتباع أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع، مولى بني أسد، وهي من فِرَق الشيعة الغلاة، تدعو إلى عقيدة الحلول، وتزعم حلول روح الإله في جعفر الصادق وبعده في أبي الخطاب المتوفى سنة (١٤٣هـ)، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. انظر: «الفرق بين الفِرَق» (ص٢٥٥) للبغدادي، و«الملل والنحل» (١/ ٢١٠ ـ ٢١٢) للشهرستاني.

القول إلى أقوام تكلموا بذلك في أصول الفقه، ولم يعرفوا حقيقة هذا القول ولا غوره.

قالوا: والفرق في ذلك بين مسائل الأصول والفروع كما أَنَّهُ بدعة محدثة في الإسلام، لم يدُل عليها كتاب ولا سنة ولا إجماع، بل ولا قالها أحد من السلف والأئمة، فهي باطلة عقلاً؛ فإنَّ المفرقين بين ما جعلوه مسائل أصول ومسائل فروع لم يفرِّقوا بينهما بفرق صحيح يُمَيِّزُ بين النوعين، بل ذكروا ثلاثة فروق أو أربعة كلها باطلة»[(١)].

ونعود إلى المقصود وهو ذكر الأدلة العامة من الكتاب والسنة على اعتبار العذر بالخطأ بصفةٍ عامة.

١ ـ قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ [الأحزاب: ٥].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وقد قيل: إنَّ قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم﴾ مجمل؛ أي: وليس عليكم جناح في شيء أخطأتم، وكانت فُتيا عطاء وكثير من العلماء على هذا...»[(٢)].

وقال ـ أيضاً ـ: «... ولذلك قال بعده: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: (غفوراً) للعمد، و(رحيماً) برفع إثم الخطأ»[(٣)].

وقال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابن التين: أجرى البخاري قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ في كل شيء.

---

(١) «منهاج السنّة» (٥/ ٨٧ ـ ٨٨). وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/ ١٢٥ ـ ١٢٦، ١٩/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨، ٢٣/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٨١).

(٣) المصدر نفسه (١٤/ ٨٠ ـ ٨١).

وقال غيره: هي في قصة مخصوصة وهي ما إذا قال الرجل: يا بُنَيَّ، وليس هو ابنه... ولو سُلِّمَ أن الآية نزلت فيما ذكر لم يمنع ذلك من الاستدلال بعمومها، وقد أجمعوا على العمل بعمومها في سقوط الإثم»[1].

٢ ـ قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ ...﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وفي حديث ابن عباس ما يدلُّ على أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ استجاب لدعاء المؤمنين في هذه الآية فقال: «**فقد فعلت**»[2].

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذهب كثير من العلماء إلى أنَّ الدعاء في هذه الآية إنما هو في النسيان الغالب، والخطأ غير المقصود، وهذا هو الصحيح عندي...»[3].

يقول العلامة السعدي ـ عليه رحمة الله ـ: «ويؤخذ من هنا قاعدة التيسير ونفي الحرج في أمور الدين كلها، وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ في العبادات وفي حقوق الله تعالى، وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم وتوجه الذمّ، وأمَّا وجوب ضمان المتلفات خطأً أو نسياناً في النفوس والأموال فإنه مرتب على الإتلاف بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان والعمد»[4].

إذاً فيمكن تقسيم الأشياء التي قد يعذر فيها بالخطأ من حيث الأحكام إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: لا يسقط فيه الحكم باتفاق، مثل: الغرامات والديات والصلوات المفروضات.

---

(١) «فتح الباري» (١١/٥٥٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنّه ﷺ لم يكلف إلّا ما يطاق، برقم (٢٠٠)، «نووي» (٢/٥٠٥).

(٣) «المحرر الوجيز» (١/٣٩٤).

(٤) «تيسير الكريم الرحمٰن...» (١/١٧٠).

الثاني: يسقط باتفاق كالقصاص، والنطق بكلمة الكفر (وهو المقصود هنا من البحث).

الثالث: يختلف فيه كمن أكل ناسياً في رمضان، أو حنِث ساهياً، وما كان مثله ممَّا يقع خطأً ونسياناً؛ ويعرف ذلك في الفروع[(١)].

٣ ـ ما ورد عن النبي ﷺ من العذر بالخطأ في الحديث الصحيح: **«إنَّ الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه»**[(٢)].

قال الحافظ ابن رجب بعد أن ذكر معنى الخطأ والنسيان: «وكلاهما معفو عنه، بمعنى أنه لا إثم فيه، ولكن رفع الإثم لا ينافي أن يترتب على نسيانه حكم» إلى أن قال: «ولو قتل مؤمناً خطأً، فإن الكفارة والدِّية بنص الكتاب، وكذا لو أتلف مال غيره خطأً يظُنُّه أنّه مالُ نفسه... والأظهر ـ والله أعلم ـ أن الناسي والمخطئ إنَّما عفي عنهما بمعنى رفع الإثم عنهما، لأنَّ الإثم مرتَّبٌ على المقاصد والنيات، والناسي والمخطئ لا قصد لهما، فلا إثم عليهما، وأما رفع الأحكام عنهما، فليس مراداً من هذه النصوص، فيحتاج في ثبوتها ونفيها إلى دليل آخر»[(٣)].

وقد ثبت في السنة ما يَدُلُّ على رفع حكم التكفير عن المخطئ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: **قال رسول الله ﷺ: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه**

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٢٧٨) للقرطبي، و«جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٦٧ ـ ٣٦٩) لابن رجب.

(٢) أخرجه ابن ماجه، أبواب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، برقم (٢٠٥٣) (١/ ٣٧٧)، وابن حبان، برقم (٧٢١٩) (١٦/ ٢٠٢). قال المحقق: إسناده صحيح على شرط البخاري، رجاله ثقات رجال الشيخين غير بشر بن بكر، فمن رجال البخاري، والحاكم (٢/ ٢١٦)، برقم (٢٨٠١) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١/ ١٢٣).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٦٧ ـ ٣٦٩).

وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدّة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»[١].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن هذا قول الواجد لراحلته بعد يأسه منها وإيقانه بالهلاك: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك**»، قال رسول الله ﷺ: «**أخطأ من شدَّةِ الفرح**»، ولم يكن بذلك كافراً لعدم قصده، وذكر النبي ﷺ ذلك تحقيقاً لشدَّة الفرح الذي أفضى به إلى ذلك..»[٢].

وقال الشيخ مصطفى السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣] في باب حكم المرتد عندما ذكر الأشياء التي يكفر فاعلها أو قائلها: «... ولا من جرى الكفر على لسانه سبقاً من غير قصد؛ لشدة فرح أو دهش أو غير ذلك كقول من أراد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك فقال غلطاً: «**أنت عبدي وأنا ربك**». لحديث: «**عفي لأمتي عن الخطأ والنسيان**»»[٤].

وأختم الكلام في هذا المانع من موانع تكفير المعين بما قاله شيخ الإسلام ـ عليه رحمة الله ـ: «والصوفية يوجد فيهم المصيب والمخطئ، كما يوجد في غيرهم وليسوا في ذلك بأَجَلّ من الصحابة والتابعين، وليس أحد معصوماً من كل ما يقوله إلا رسول الله ﷺ.

نعم، وقوع الغلط في مثل هذا يوجب ما نقوله دائماً: إنَّ المجتهد في

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، برقم (٦٣٠٨)، «فتح» (١١/ ١٠٥)، ومسلم (واللفظ له)، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، برقم (٢٧٤٧)، «نووي» (١٧/ ٦٩ ـ ٧٠).

(٢) «روضة المحبين» (ص١٦٨). وانظر: «القول المفيد على كتاب التوحيد» (٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٢) لابن عثيمين.

(٣) تقدمت ترجمته (ص٤٠٣).

(٤) «مطالب أولي النهى» (٦/ ٢٨٠). وانظر: «الإقناع» (٤/ ٢٩٧) لشرف الدين الحجاوي.

مثل هذا من المؤمنين إن استفرغ وسعه في جلب الحق، فإنَّ الله يغفر له خطأه، وإن حصل منه نوع تقصير، فهو ذنب لا يجب أن يبلغ الكفر»، إلى أن قال: «فمن أخطأ في بعض مسائل الاعتقاد، من أهل الإيمان بالله وبرسوله، وباليوم الآخر والعمل الصالح، لم يكن أسوأ من هذا الرجل (يعني الذي أوصى أهله إذا مات أن يحرقوه بالنار) فيغفر الله خطأه، أو يعذبه إن كان منه تفريط في اتباع الحق على قدر دينه، وأمَّا تكفير شخص عُلِمَ إيمانه بمجرد الغلط في ذلك فعظيم... وإن كان تكفير المعيَّن على سبيل الشتم كقتله، فكيف يكون تكفيره على سبيل الاعتقاد؟ فإنَّ ذلك أعظم من قتله، إذ كل كافر يُباح قتله، وليس كل من أبيح قتله يكون كافراً، فقد يقتل الداعي إلى بدعة لإضلاله الناس وإفساده، مع إمكان أنَّ الله يغفر له في الآخرة لما معه من الإيمان...»[1].

○ ثالثاً: الإكراه:

يعتبر الإكراه مانعاً من موانع التكفير عند السلف ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة، وهو إجماع من حيث قول كلمة الكفر من غير انشراح الصدر بها، أمَّا الفعل فمختلف فيه بين أهل العلم في قبوله في الإكراه واعتباره عذراً يمنع صاحبه من التكفير.

والأصل في هذا قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصُّر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به، أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عُدُولِهِمْ عنه، وأنَّ لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة، لأنهم استحبوا الحياة

---

(١) «الاستقامة» (١/ ١٦٣ ـ ١٦٦).

الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عمَّا يراد بهم، ... وأمَّا قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله»[(١)].

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع أهل العلم على أنَّ من أكره حتى خَشي على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر»[(٢)].

هذا ما يتعلق بمسألة النطق بكلمة الكفر تقيّةً عند الإكراه فهو مَحَلُّ إجماع واتفاق بين أهل العلم[(٣)]، **أما مسألة الفعل فقد اختلف أهل العلم فيها على قولين:**

أحدهما: ذهب طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت في القول دون الفعل، قال أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وأمَّا الكفر بالله فذلك جائز له بغير خلاف، على شرط أن يلفظَ بلسانه، وقلبه منشرح بالإيمان، فإنْ ساعد قلبُه في الكفر لسانه كان آثماً كافراً؛ لأنَّ الإكراه لا سلطان له في

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٩١١). وانظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١١٧٧) لابن العربي.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١١٩). وانظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٢٣) لابن عطية، و«فتح الباري» (١٢/ ٣٢٩) لابن حجر. وأجمع العلماء ـ أيضاً ـ على أنَّ من أكره على الكفر فاختار القتل أنَّهُ أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة. «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٢٤).

(٣) وَشَدَّد محمد بن الحسن فقال: هو كافر في الظاهر، تبين منه امرأته، ولا يرثه المسلمون، ولا يغسل وهو مسلم فيما بينه وبين الله تعالى. انظر: «شرح فتح القدير ـ التكملة» (٩/ ٢٤٦) لقاضي زاده، و«المغني» (١٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣) لابن قدامة.

الباطن، وإنما سلطته على الظاهر، بل قد قال المحققون من علمائنا: إنه إذا تلفظ بالكفر إنه لا يجوزُ له أن يجري على لسانه إلا جريان المعاريض[١] ومتى لم يكن كذلك كان كافراً أيضاً»[٢].

وهذا الذي نقله ابن العربي عن علماء المالكية في أنَّه إذا لم يُجْر كلمة الكفر مجرى التورية فهو كافر؛ فيه نظر، إذ الأدلة عامة في التقية والإكراه، ولا دليل على ما ذكروه من التخصيص، لكنَّه استنباط حسن «لأنَّ المعاريض لا سلطان للإكراه عليها، مثاله أن يقال له: اكفر بالله فيقول: باللاهي؛ فيزيد الياء»[٣]، لكن لو لم يستعمل المعاريض عند الإكراه لا يبلغ الكفر.

الثاني: وقالت طائفة من أهل العلم ـ وهو قول الجمهور ـ: إنَّ الإكراه في الأقوال والأفعال سواء، إذا أسرَّ الإيمان. مثل أن يكره على السجود لغير الله أو الصلاة لغير القبلة[٤].

وقيل في مسألة السجود للصنم: إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد ويكون نيته لله تعالى، وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه.

والصحيح أَنَّهُ يسجد وإن كان لغير القبلة، قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: «وما أحراه أن يسجد لله حينئذٍ حيثما توجه، وهذا مباح في السفر لتعب النزول عن الدابة في التَّنَفُّلْ، فكيف لهذا، وإذا احْتَجَّت فرقة المنع بقول ابن مسعود رضي الله عنه: «ما من كلام يدرأُ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنت

---

(١) المعاريض: التورية عن الشيء بالشيء. وانظر: «مختار الصحاح» (ص٤٢٥) للرازي.

(٢) «أحكام القرآن» (١١٧٨/٣). وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٢٠ ـ ١٢٣) للقرطبي، و«فتح الباري» (٣٢٦/١٢) لابن حجر، و«التحرير والتنوير» (١٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥) لابن عاشور.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢٣/١٠) للقرطبي.

(٤) المصدر نفسه (١٠/ ١٢٠). وانظر: «فتح الباري» (٣٢٦/١٢) لابن حجر، و«التحرير والتنوير» (١٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥) لابن عاشور.

متكلماً به» فقصر الرحمة على القول، ولم يذكر الفعل...

وليس هذا بحجة لأنه يحتمل أنْ جعل الكلام مثالاً وهو يريد أنَّ الفعل في حكمه»[١].

وخلاصة القول في المسألة:

أنَّ الإكراه معتبر في المكفِّرات القولية والفعلية[٢]، وضابطه هنا: «هو ما انتفى فيه الرضى بالكفر مع كون المكره مكلفاً مختاراً لما فعله قاصداً إليه غير ملجأ بحيث ينتفي قصده بالكلية.

وذلك أنَّ المكره مكلف ولا يكون مُكَلَّفاً إلا إذا كان مختاراً أن يفعل ما أُكره عليه أو لا يفعل، أمَّا إذا لم يكن مختاراً ولا يمكنه ذلك فإنَّه لا يكون مكلفاً ولا اعتبار لعمله الظاهر، ولا يدخل في أحكام التقية ابتداءً.

وعلى هذا فلا بُدّ من التفريق بين الرضى الذي حقيقته طمأنينة القلب وانشراحه، وبين الاختيار الذي حقيقته مجرد القصد إلى إيقاع الفعل الظاهر سواء رضي عنه الفاعل أم لا، فالرضى بالكفر هو مناط التكفير، وأمَّا الاختيار والقصد إلى الفعل الظاهر فهو مناط التكليف»[٣].

وهناك أدلة أخرى استدلَّ بها أهل السنة والجماعة على اعتبار الإكراه مانعاً من موانع التكفير، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٢٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٢٠) للقرطبي، و«التحرير والتنوير» (١٤/ ٢٩٥) لابن عاشور.

(٢) ويستثنى من الفعل ما هو محرم على التأبيد كقتل النفس بغير حق. قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي: انعقد الإجماع على أن المكره على القتل مأمور باجتناب القتل والدفع عن نفسه وأنه يأثم إن قتل من أكره على قتله. «فتح الباري» (١٢/ ٣٢٦). وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٢٠) للقرطبي.

(٣) «ضوابط التكفير...» (ص٢٧٦ ـ ٢٧٧) للشيخ عبد الله القرني. وانظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٢٠) لابن تيمية.

أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ..﴾ إلى قوله: ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

وهاتان الآيتان استدلَّ بهما الإمام البخاري في الصحيح وعقَّب بقوله: «فعذر الله المستضعفين الذين لا يمتنعون من ترك ما أمر الله به. والمكره لا يكون إلّا مستضعفاً غير ممتنع من فعل ما أمر به»(١).

ومنها ما أخرجه الحاكم بسنده عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه قال: «**أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبَّ النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير ثمَّ تركوه، فلمَّا أتى رسول الله ﷺ قال: «ما وراءك؟»، قال: شرٌّ يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك؟»، قال: مطمئن بالإيمان، قال: «إن عادوا فَعُدْ»**(٢).

وهذا الحديث واضح الدلالة في أنَّ المكره على كلمة الكفر بالله تعالى أو سب الرسول ﷺ أو دين الإسلام، يجوز له ذلك، لأن الله ـ جل وعلا ـ «سمح في الكفر به، وهو أصل الشريعة، عند الإكراه ولم يؤاخذ به، جعل العلماء عليه فروع الشريعة، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به، ولا يترتب

---

(١) «صحيح البخاري» «فتح» (١٢/٣٢٦) لابن حجر.

(٢) كتاب التفسير من المستدرك، عند تفسير سورة النحل، برقم (٣٣٦٢) (٢/٣٨٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وعزاه الزيلعي في «نصب الراية» (٤/٣٨١) إلى البيهقي في «المعرفة»، وأبو نعيم في «الحلية» وعبد الرزاق في «المصنف»، وإسحاق بن راهوية في «مسنده ـ مسند عمَّار بن ياسر».

وقال ابن حجر بعد أن عزاه لبعض المصادر منها الطبري: «... وهذه المراسيل تقوي بعضها ببعض». «فتح الباري» (١٢/٣٢٧).

حكم عليه...»[1].

لكن ذكروا للإكراه شروطاً لا بُدَّ من توفرها ليكون الإكراه معتبراً:

١ ـ أن يكون فاعله قادراً على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزاً عن الدفع ولو بالفرار.

٢ ـ أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

٣ ـ أن يكون ما هدده به فورياً، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غداً، ولا يُعَدُّ مكرهاً، ويستثنى ما إذا ذكر زمناً قريباً جداً، أو جرت العادة بأنَّه لا يخلف.

٤ ـ أن لا يظهر من المأمور ما يَدُلُّ على اختياره...»[2].

٥ ـ أن يكون المكره به أخطر من المكره عليه.

٦ ـ ألا يكون الإكراه في قتل نفس. لأنه لا معنى لأن ينقذ نفسه بإهلاك غيره.

٧ ـ ألا يكون المكره إماماً يقتدى به.

وبهذا يتم الكلام على حكم الاستهزاء وأقسام المستهزئين، وبقي معنا في خاتمة هذا الباب الكلام على حكم القعود مع المستهزئين، وموقف المسلم منهم، هذا ما سوف أبينه في المبحث التالي، إن شاء الله تعالى.

---

(١) «أحكام القرآن» (٣/ ١١٨٠ ـ ١١٨١) لابن العربي. وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١١٩) للقرطبي، و«شرح فتح القدير ـ التكملة» (٩/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧) لقاضي زاده.

(٢) «فتح الباري» (١٢/ ٣٢٦) لابن حجر.



حكم مجالسة المستهزئين وموقف المسلم منهم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حكم مجالسة المستهزئين.

المطلب الثاني: موقف المسلم من المستهزئين.

* * * * *

❏ المطلب الأول ❏

حكم مجالسة المستهزئين

بعد الحديث عن حكم الاستهزاء بالدين، وأقسام المستهزئين فيما مضى، يبقى الحديث عن حكم مجالسة أهل الخوض في آيات الله بالاستهزاء والسخرية، وقول الباطل والخنى سواء كان صدوره من الكفار أو من المشركين أو من المنافقين أو حتى من المسلمين، إذ «الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها، وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، فضد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم، وكذلك على اختلاف أنواعهم فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله لأنها لا تدل إلا على الحق ولا تستلزم إلا صدقاً..»[1].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن...» (٢/ ٩٣) للعلامة السعدي.

وهذه الأحكام كما أسلفت ـ المرجع فيها إلى المصدر المعصوم ـ كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ الذي لا يأتيه الباطل ولا يلتبس به مهما حاول أهل الباطل فعل ذلك.

وقد نص الله ـ تبارك وتعالى ـ على حكم مجالسة المستهزئين بنفسه وبيّن ذلك أوضح بيان كما فعل سبحانه في كثير من الأحكام الشرعية، قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها وأقررتموهم على ذلك، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ في المأثم...»[(١)].

والإشارة في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ ...﴾ إلى ما ورد في سورة [الأنعام: ٦٨] من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾[(٢)].

يقول شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ اللهُ عند آية النساء: «وفي هذه الآية، الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والفسقة، عند خوضهم في باطلهم.

وبنحو ذلك كان جماعة من الأئمة الماضين يقولون، تأولاً منهم هذه الآية أنه مراد بها النهي عن مشاهدة كل باطل عند خوض أهله فيه»[(٣)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٨٦١ ـ ٨٦٢).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٩١) للبغوي، و«زاد المسير» (٢/ ٢٢٨) لابن الجوزي، و«فتح القدير» (١/ ٥٢٦) للشوكاني، و«أضواء البيان» (١/ ٣٧٧) للشنقيطي.

(٣) «جامع البيان...» (٩/ ٣٢١).

وجاء في السنة ما يؤيد هذا من حديث ابن عمر مرفوعاً: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يدار عليها الخمر**»[(١)].

قال شيخ الإسلام تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «... ولهذا قال العلماء: إذا دعي إلى وليمة فيها منكر كالخمر والزمر لم يجز حضورها، وذلك أن الله تعالى قد أمرنا بإنكار المنكر بحسب الإمكان، فمن حضر المنكر باختياره ولم ينكره فقد عصى الله ورسوله، بترك ما أمره به من بغض المنكر[(٢)] والنهي عنه، وإذا كان كذلك فهذا الذي يحضر مجالس الخمر باختياره من غير ضرورة ولا ينكر المنكر كما أمره الله هو شريك الفساق في فسقهم فيلحق بهم»[(٣)].

والمماثلة المنصوص عليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ للعلماء فيها أقوال:

منها: المماثلة في الكفر، ومنها: المماثلة في العصيان، ومنها: المماثلة في الرضا بحالهم[(٤)].

والذي يظهر ـ والله تعالى أعلم ـ أن القاعد مع المستهزئين لا يكون مثلهم في الكفر إلا بتوفر أربعة شروط: **أحدها**: الرضى، **والثاني**: عدم الإنكار مع القدرة، **والثالث**: عدم القيام مع إمكانه، **والرابع**: أن يكون مختاراً غير مكره، فمن قعد مع أهل الاستهزاء والسخرية مع توفر هذه الشروط فيه، فهو مثلهم في الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، **يقول الإمام**

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/٢٦)، برقم (١٢٦)، والحاكم في «المستدرك» (٤/٣٢٠ ـ ٣٢١) وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألباني. انظر: «إرواء الغليل» (٧/٦ ـ ٨).

(٢) في الأصل: «من بغض إنكاره والنهي عنه»، ولعل الصواب ما أثبته.

(٣) «الفتاوى الكبرى» (٤/٤٧٨).

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (١/٤٩١) للبغوي، و«زاد المسير» (٢/٢٢٨ ـ ٢٢٩) لابن الجوزي، و«فتح القدير» (١/٥٢٧) للشوكاني، و«تيسير الكريم الرحمن...» (٢/٩٣) للعلامة ابن سعدي.

البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «... ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، أي إن قعدتم عندهم وهم يخوضون ويستهزئون ورضيتم به فأنتم كفار مثلهم»[(١)].

قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمعنى: أيها المنافقون أنتم مثل أولئك الأحبار في الكفر، قال أهل العلم: هذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكر يراه وخالط أهله وإن لم يباشر كان في الإثم بمنزلة المباشر بدليل أنه تعالى ذكر لفظ المثل هاهنا، هذا إذا كان المجالس راضياً بذلك الجلوس، فأما إذا كان ساخطاً لقولهم وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر ليس كذلك، ولهذه الدقيقة قلنا بأن المنافقين الذين كانوا يجالسون اليهود، وكانوا يطعنون في القرآن والرسول كانوا كافرين مثل أولئك اليهود، والمسلمون الذين كانوا بالمدينة كانوا بمكة يجالسون الكفار الذين كانوا يطعنون في القرآن فإنهم كانوا باقين على الإيمان، والفرق أن المنافقين كانوا يجالسون اليهود مع الاختيار، والمسلمون كانوا يجالسون الكفار عند الضرورة»[(٢)].

وهذه الآية التي بينت لنا حكم القعود مع المستهزئين الساخرين محكمة عند جميع العلماء إلا ما ورد عن الكلبي فإنه يرى أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦٩]، وهذا مردود بأمرين:

أحدهما: أنه قول مخالف لما عليه عامة المفسرين؛ كابن جرير وابن الجوزي وابن كثير وغيرهم.

الثاني: أن من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذي يكفرون بآيات الله تعالى ويستهزئون بها، وهو أمر موافق لأصول الشريعة وقواعد الدين[(٣)].

---

(١) «معالم التنزيل» (١/٤٩١).
(٢) «التفسير الكبير» (١١/٨١ ـ ٨٢).
(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/٢٦٨) للقرطبي، و«فتح القدير» (١/٥٢٧) للشوكاني.

يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيناً حكمة تحريم القعود والتدرج فيه: «وقد كان بعض المسلمين في المدينة يجلسون في مجالس كبار المنافقين ـ ذوي النفوذ ـ وكان ما يزال لهم ذلك النفوذ، وجاء المنهج القرآني ينبه في النفوس تلك الحقيقة... حقيقة أن غشيان هذه المجالس والسكوت على ما يجري فيها، هو أولى مراحل الهزيمة، وأراد أن يجنبهم إياها.. ولكن الملابسات في ذلك الحين لم تكن تسمح بأن يأمرهم بمقاطعتها حين يسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها.. وإلا فهو النفاق.. وهو المصير المفزع، مصير المنافقين والكافرين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾... ولكن قصر النهي على المجالس التي يكفر فيها بآيات الله ويستهزأ بها، وعدم شموله لكل علاقات المسلمين بهؤلاء المنافقين، يشي ـ كما أسلفنا ـ بطبيعة الفترة التي كانت تجتازها الجماعة المسلمة ـ إذ ذاك ـ والتي يمكن أن تتكرر في أجيال أخرى وبيئات أخرى، كما تشي بطبيعة المنهج في أخذ الأمر رويداً رويداً، ومراعاة الرواسب والمشاعر والملابسات والوقائع.. في عالم الواقع.. مع الخطو المطرد الثابت نحو تبديل هذا الواقع!»[1].

وقد يتصور بعض المفتونين ومن لا نصيب لهم من علم النبوة أن مجالسة هؤلاء المستهزئين هي من باب التسامح، أو من باب سعة الصدر والأفق، أو بدعوى حرية الرأي، أو ما يسميه دهاء وحكمة، وهذا كله من وساوس الشيطان وأول مراحل الهزيمة النفسية، وتمييع مبدأ الولاء والبراء والقضاء على الحاجز بين المؤمنين وبين المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، فالواجب «الحَمِيَّةُ لله، ولدين الله، ولآيات الله... وما تفتر هذه الحمية إلا وينهار بعدها كل سد، وينزاح بعدها كل حاجز، وينجرف الحطام الواهي عند دفعة التيار. وإن الحَمِيَّةَ لتكبت في أول الأمر عمداً، ثم تهمد ثم تخمد ثم تموت فمن سمع الاستهزاء بدينه في مجلس، فإما أن يدافع وإما أن

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ٧٨١).

يقاطع المجلس وأهله، فأما التغاضي والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة، وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق!»[١].

ومن هنا وبعد هذا العرض السريع لحكم القعود مع المستهزئين نَنْتَقِلُ إلى المطلب الثاني لنتعرّف على موقف المسلم منهم، وكيف يكون في حال الضعف وحال التمكين، هذا ما سأعرضه إن شاء الله.

❑ المطلب الثاني ❑

موقف المسلم من المستهزئين

إن موقف المسلم من المستهزئين بالله وآياته ورسوله ﷺ قد بُيِّنَ لنا في القرآن الكريم، وجاءت السنة العملية من واقع حياة المصطفى ﷺ واضحة وضوح الشمس في نحر الظهيرة، ولكن هذا الموقف يختلف ما بين العهد المكي وأول العهد المدني، وما بعد بدر وتبوك، ففي مكة كان المسلمون يؤمرون بكف أيديهم والصبر ولفت أنظارهم إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ . .﴾ [النساء: ٧٧].

يقول ابن كثير ـ عليه رحمة الله ـ: «كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات النصب، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها: قلة العدد بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها: كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام، أشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال، فلهذا لم يؤمروا بالجهاد إلا بالمدينة لَمَّا صارت لهم دار ومنعة وأنصار»[٢].

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٧٨٠ ـ ٧٨١).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٧٩٦).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أما قبل براءة وقبل بدر فقد كان مأموراً بالصبر على أذاهم (يعني: المشركين وأهل الكتاب) والعفو عنهم، وأما بعد بدر وقبل براءة فقد كان يقاتل من يؤذيه ويمسك عمن سالمه كما فعل بابن الأشرف[(١)] وغيره ممن كان يؤذيه، فبدر كانت أساس عز الدين، وفتح مكة كانت كمال عز الدين، فكانوا قبل بدر يسمعون الأذى الظاهر ويؤمرون بالصبر عليه، وبعد بدر يؤذون في السر من جهة المنافقين وغيرهم فيؤمرون بالصبر عليه، وفي تبوك أمروا بالإغلاظ للكفار والمنافقين، فلم يتمكن بعدها كافر ولا منافق من أذاهم، في مجلس خاص ولا عام، بل مات بغيظه، لعلمه بأنه يقتل إذا تكلم، وقد كان بعد بدرٍ استطالة وأذى للمسلمين إلى أن قتل كعب بن الأشرف»[(٢)].

وهذه القاعدة في التعامل مع أعداء الإسلام في حال الضعف وحال القوة لا تختص بعهد النبوة وصدر الإسلام فحسب بل هي عامة في كل زمان يجري على الأمة الإسلامية ظروف الذلة والهوان، وعلو شأن أعدائها، فتعود إذاً إلى ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، وكف الأيدي والصبر، ثم إذا مُكِّن لها عادت إلى ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣].

يقول ابن تيمية رحمه الله: «فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذي يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»[(٣)].

وقد جاء النهي في المدينة عن اتخاذ الذين اتخذوا ديننا هزواً ولعباً،

---

(١) انظر: تخريج حديثه (ص٣٧٥) من هذه الرسالة.

(٢) «الصارم المسلول» (ص٢٢٧ ـ ٢٢٨).

(٣) المصدر نفسه (ص٢٢٩، ٣٦٦ ـ ٣٦٧).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [المائدة: ٥٧].

يقول ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... لا تتخذوهم أيها المؤمنون أنصاراً أو إخواناً أو حلفاءَ، فإنهم لا يألونكم خبالاً، وإن أظهروا لكم مودة وصداقة..»[١].

وفي قوله: ﴿وَٱلۡكُفَّارَ﴾ قراءتان الأولى: بالنصب وهي قراءة الجماعة، والثانية: بالخفض على تقدير من؛ أي ومن الكفار، والقراءة الثانية أوضح وأبين في الإعراب والمعنى[٢].

والمراد بالكفار هنا: المشركون، وقيل: المنافقون[٣].

يقول الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الآية تحذير من موالاة اليهود والمشركين الذين بالمدينة، ولا مدخل للنصارى فيها، إذ لم يكن نصارى فيهزأوا بالدين وقد عدل عن لفظ اليهود إلى الموصول والصلة وهي: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا ...﴾ إلخ لما في الصلة من الدعاء من الإيماء إلى تعليل موجب النهي.

والدين هو ما عليه المرء من عقائد وأعمال ناشئة عن العقيدة، فهو عنوان عقل المتدين ورائد آماله وباعث أعماله، فالذي يتخذ دين امرئ هزواً فقد اتخذ ذلك المتدين هزواً ورمقه بعين الاحتقار، إذ عد أعظم شيء سخرية، فما دون ذلك أولى. والذي يرمق بهذا الاعتبار ليس جديراً بالموالاة، لأن شرط الموالاة التماثل في التفكير، ولأن الاستهزاء

---

(١) «جامع البيان...» (١٠/ ٤٢٩) ـ شاكر.

(٢) انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٥٥) لابن الجزري، و«الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٤٥) للقرطبي، و«فتح القدير» (٢/ ٥٤) للشوكاني.

(٣) انظر: «زاد المسير» (٢/ ٣٨٤) لابن الجوزي، و«الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٤٥)، و«فتح القدير» (٢/ ٥٤) للشوكاني.

والاستخفاف احتقار، والمودة تستدعي تعظيم المودود»[١].

إذاً فلا يجوز بحال اتخاذ المستهزئين بدين الله أولياءَ وأنصاراً من دون المؤمنين، فمن فعل هذا «دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء فكيف تدعي لنفسك ديناً قيماً وأنه الدين الحق وما سواه باطل وترضى بموالاة من اتخذه هزواً ولعباً وسخرية به وبأهله من أهل الجهل والحمق، وهذا فيه من التهيج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم»[٢].

وقد كان النبي ﷺ يسلك مع المستهزئين طرائق عدة في مقابلة شتمهم واستهزائهم، منها على سبيل المثال لا الحصر ما كان للشعر من أهمية بالغة لا تقل عن غيره من الأسلحة الفتاكة بالعدو، وقد اتخذ ـ عليه الصلاة والسلام ـ شعراء من أصحابه ينافحون عن الدين وعن الرسول ﷺ، وذلك لأن له ـ أي الشعر ـ: «من التأثير في الأذى والصد عن سبيل الله ما ليس للكلام المنثور، ولذلك كان النبي ﷺ يأمر حسان أن يهجوهم ويقول: «**لهو أنكى فيهم من النبل**»[٣] فيؤثر هجاؤه فيهم أثراً عظيماً، يمتنعون به من أشياء لا يمتنعون عنها لو سبوا بكلام منثور أضعاف الشعر»[٤].

ولأهمية الشعر ـ وبخاصة الهجاء ـ في الدفاع عن الدين والدعوة الإسلامية بوَّب الإمام البخاري في كتاب الأدب «باب هجاء المشركين» وساق فيه أربعة أحاديث، منها: حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لحسان: «**اهجهم ـ أو قال: هاجهم ـ وجبريل معك**»[٥] بصيغة الأمر،

---

(١) «التحرير والتنوير» (٦/ ٢٤١).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن...» (٢/ ١٤٦ ـ ١٤٧) للعلامة السعدي.

(٣) سيأتي تخريجه قريباً بلفظه عند مسلم.

(٤) «الصارم المسلول» (ص٨٨) لابن تيمية.

(٥) برقم (٦١٥٣)، «فتح» (١٠/ ٥٦٢).

ودعا لحسان فقال: «... اللهم أيده بروح القدس..»[١].

وروى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها **أن رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق بالنبل»**، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهجهم فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم فري الأديم، **فقال رسول الله ﷺ: «لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً حتى يلخص لك نسبي»** فأتاه حسان ثم رجع فقال: يا رسول الله قد لخص لي نسبك والذي بعثك بالحق لأَسُلَّنَّكَ منهم كما تسل الشعرة من العجين، قالت عائشة: **فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك، ما نافحت عن الله ورسوله»**، وقالت: سمعت **رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشفى وأشفى»**[٢].

قال النووي رحمه الله: «وفيه جواز هجو الكفار ما لم يكن أمان، وأنه لا غيبة فيه، وأما أمره ﷺ بهجائهم وطلبه ذلك من أصحابه واحداً بعد واحد ولم يرض قول الأول والثاني حتى أمر حسان، فالمقصود منه النكاية في الكفار من رشق النبل فكان مندوباً لذلك مع ما فيه من كف أذاهم وبيان نقصهم والانتصار بهجائهم المسلمين»[٣].

وهذا لا يتعارض مع النهي الوارد عن سب الكفار في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ..﴾ [الأنعام: ١٠٨]، لأن هذا محمول على البداءة به، لا على من أجاب منتصراً مقابلاً

(١) برقم (٦١٥٢)، «فتح» (١٠/ ٥٦٢).
(٢) كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت...، برقم (٢٤٩٠)، «نووي» (١٦/ ٢٨٢ - ٢٨٣).
(٣) «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٢٨١).

العدوان بمثله[١].

وهذا هو مقتضى أمر الرسول ﷺ حيث قال: **«جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»**[٢].

وقد درج السلف الصالح على منهج النبي ﷺ في الثبات على هذا الموقف الراسخ من المستهزئين الساخرين من أهل الشرك والكفر وغيرهم حتى كان واقعاً ملموساً في حياتهم فيما دون سب الله تعالى ودينه ورسوله ﷺ.

قال الإمام اللالكائي رحمه الله: بلغ علياً أن ابن السوداء ينتقص أبا بكر وعمر فدعا به ودعا بالسيف فهمّ بقتله فكُلم فيه فقال: «لا يساكنني ببلد أنا فيه، فنفاه إلى الشام [والصواب: المدائن]»[٣].

وروى اللالكائي بسنده عن المغيرة قال: «تحول جرير بن عبد الله وحنظلة وعدي بن حاتم من الكوفة إلى قرقيسيا وقالوا: لا نقيم ببلد يشتم أهله عثمان رضي الله عنه»[٤].

فماذا عسى أن أقول في هذا الزمان الذي أصبح فيه كثير من المسلمين يوادون من حاد الله ورسوله من المستهزئين، ويجعلونهم أصدقاء، ويهنئونهم في الأعياد والمناسبات، من المشركين وأهل الكتاب وأرباب الإلحاد

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٥٦٣) لابن حجر، و«شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٢٨١) للنووي.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب كراهية ترك الغزو، برقم (٢٥٠٤) (٣/ ٢٢)، والنسائي في كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، برقم (٤٣٠٤) (٣/ ٦)، وأحمد في «المسند» (٣/ ١٣٤) كلهم بهذا اللفظ، والحديث صحيح. انظر: «فيض القدير» (٣/ ٤٥٢)، و«صحيح الجامع» برقم (٣٠٩٠) (١/ ٥٩٣).

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة» (٧/ ١٢٦١، ١٢٦٤) برقم (٢٣٧٩، ٢٣٨٠).

(٤) المصدر نفسه (٧/ ١٢٦٥) برقم (٢٣٨١).

والزندقة، ولا أثر للموالاة والمعادات على أساس الدين والمعتقد بل ذاب هذا كله وبقي الاشتراك في الوطن والمواطنة هو الأساس، أو الرابطة اللغوية والعرقية والنسب دون الالتفات إلى الميزان الحق: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٧١]، ألم يسمع هؤلاء المفتونون ما جرى يوم بدر وأُحد من براءة أبي بكر من ابنه ودعوته له للقتال، وقتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام، وعلي وحمزة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ حين قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة فأنزل الله قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢][1].

---

(١) انظر: «أسباب نزول القرآن» (ص٤٣٤) للواحدي، و«أسباب النزول» (ص٣٧١) للسيوطي، و«الولاء والبراء» (ص٢٢٦ ـ ٢٢٩) لشيخنا الدكتور: محمد القحطاني.

الباب الرابع

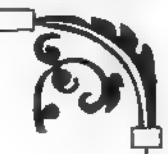
آثار الاستهزاء والمستهزئين

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أثر الاستهزاء على المستهزئين.

الفصل الثاني: أثر الاستهزاء على المجتمع المسلم.

الفصل الثالث: أثر الاستهزاء على الدعوة الإسلامية.

الفصل الأول

أثر الاستهزاء على المستهزئين

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الردّة.

المبحث الثاني: تعرضه لسخط الله تعالى وعقابه.






الردّة

وفيه مطالب:

المطلب الأول: إهدار دمه.

المطلب الثاني: حبوط عمله.

المطلب الثالث: إيقاف ملكه.

المطلب الرابع: تحريم ذبيحته.

* * * * *

❑ المطلب الأول ❑

إهدار دمه

أجمع العلماء ـ رحمة الله تعالى عليهم ـ على أنَّ المرتد كافر حلال الدم، وكفره أغلظ من الكافر الأصلي، وإجماعهم هذا مبني على الأصول الشرعية والدلائل من الكتاب والسنة[1]، وهذه الدلائل مثبتة في كتب أهل العلم سواء ما أُلِّفَ منها في دلائل الأحكام استقلالاً[2]، أو ما ذكره الفقهاء في كل مذهب في باب حكم المرتد وأحكامه[3].

---

(١) انظر: نقل الإجماع في «أحكام المرتد» (ص٨٣) للسامرائي، و«توضيح الأحكام» (٥/ ٢٦٤) للشيخ البسام، و«الفقه الإسلامي وأدلته» (٦/ ١٨٧) للزحيلي.

(٢) مثل: «دلائل الأحكام» لابن شداد، و«بلوغ المرام» لابن حجر، وغيرهما.

(٣) انظر: كتب الفقه عامة في كلِّ مذهب، فما من كتاب منها إلا وفيه كتاب حكم =

وإذا تنقلت في رياض تلك المراجع الإسلامية الضخمة، أول ما تجده من تلك الدلائل حديث ابن عباس ﵄ قال: **قال رسول الله ﷺ: «من بدَّلَ دينه فاقتلوه»**[١]، وحديث: **«لا يحل دمُ امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان...»**[٢].

قال الإمام الشافعي ﵀: «فلم يجز في قول النبي ﷺ: **«لا يحلُّ دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث»**، إحداهُنَّ الكفر بعد الإيمان إلا أنْ تكون كلمة الكفر تُحِلُّ الدم، كما يحلُّه الزنى بعد الإحصان، أو تكون كلمة الكفر تُحِلُّ الدَّمَ إلا أن يتوبَ صاحبه.

فدَلَّ كتابُ الله ﷻ، ثم سنةُ رسول الله ﷺ **أنَّ معنى قول رسول الله ﷺ: «كفر بعد إيمان»**، إذا لم يتب من الكفر وقد وضعت هذه الدلائل مواضعها»[٣].

ثم عقد الإمام الشافعي مقارنة بين المرتد والكافر الأصلي، فقال: «والمرتدُّ به أكبرُ حكماً من الذي لم يزل مشركاً؛ لأنَّ الله ﷻ أحبط بالشرك بعد الإيمان كل عملٍ صالح قدَّمَ قبل شِركه، وأنَّ الله جل ثناؤه كفَّر عَمَّنْ لم يزل مشركاً ما كان قبله، وأنَّ رسول الله ﷺ أبان أنَّ من لم يزل مشركاً ثمَّ أسلمَ كُفِّرَ عنه ما كان قبل الشرك.

وقال لرجل كان يقدِّمُ خيراً في الشرك: **«أسلمت على ما سبق لك من خير»**[٤]. وعند ذكر الإمام القرافي أحكام المرتد في النفس والولد

= المرتد، عدا كتب الأحناف، فيذكر حكم المرتد في كتاب «السير». انظر مثلاً: «المبسوط» للسرخسي، و«شرح فتح القدير» لابن الهمام.

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٨٤).

(٣) «الأم» (١٢/ ٥٨٧ ـ ٥٨٨)، و«الشرح الكبير» (١١/ ١١٢) للرافعي. وانظر: «أحكام أهل الملل» (ص٤١٥ ـ ٤١٦) للخلال، و«الإشراف على مذاهب أهل العلم» (٣/ ١٦٦) لابن المنذر.

(٤) المصدر السابق (٢/ ٥٨٨) والحديث أخرجه البخاري ومسلم، وسيأتي تخريجه في =

والمال... إلخ، قال: «**الأول**: نفسه، ففي الجواهر[١]: يهدر دمه إن لم يتب، فإن تاب عصَمَها، وتوبته رجوعُه وتغيُّر حاله برجوع المتظاهر عن التظاهر، بل يظهر ضدَّه من الإيمان... ولنا قوله ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**»، و«**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان...**»»[٢].

هذا ما يتعلق بالمرتد، أمَّا المرتدة فحكمها عند جمهور العلماء ـ مالك والشافعي وأحمد ـ أنها كالمرتدِّ، وخالف الحنفية فقالوا: تحبس ولا تقتل لعموم النهي عن قتل النساء في الحرب، وتقدم تفصيل المسألة في الباب الثالث (**حكم الاستهزاء**)[٣].

❑ المطلب الثاني ❑

حبوط عمله

إنَّ من الأصول الثابتة في منهج أهل السنة والجماعة أنَّه ليس هناك ذنبٌ يحبط جميع الأعمال سوى الردة. **قال ابن تيمية** رَحِمَهُ اللهُ: «والردة ضد التوبة، وليس من السيئات ما يمحو جميع الحسنات إلا الردة»[٤].

فالمرتد الذي تحققت فيه شروط الردة، وانتفت عنه موانعها، هو الذي يحكم عليه بالكفر، والخروج من الدين بالكلية لحديث ابن عباس رضي الله عنهما: **أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من بدَّل دينه فاقتلوه»**[٥].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وأمَّا الردة عن الإسلام بأن يصير الرجل كافراً

= المطلب الثاني (ص٥٥٠).

(١) لعلها من كتب المالكية.

(٢) «الذخيرة» (١٢/ ٣٧ ـ ٣٨) للقرافي.

(٣) انظر: قول الأحناف في «شرح فتح القدير» (٦/ ٩٧ وما بعدها) لابن الهمام، و«الفقه الإسلامي وأدلته» (٦/ ١٨٧) للشيخ وهبة الزحيلي.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٧٠٠). وانظر: «كتاب الصلاة» (ص٦٦) لابن القيم.

(٥) تقدم تخريجه (ص٣٨٤).

مشركاً، أو كتابياً، فإنَّه إذا مات على ذلك حبط عمله باتفاق العلماء، كما نطق بذلك القرآن الكريم في غير موضع»[(١)]. منها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٧]، وقوله ﷻ: ﴿... وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥]، وغيرها من الآيات القرآنية في هذا الباب.

قال الإمام ابن القيِّم ـ عليه رحمة الله ـ: «والحبوط نوعان: عام وخاص، فالعام: حبوط الحسنات بالردة، والسيئات كلها بالتوبة، والخاص: حبوط السيئات والحسنات بعضها ببعض، وهذا حبوط مقيد جزئي، وقد تقدم دلالة القرآن والسنة والآثار وأقوال الأئمة عليه، ولمَّا كان الكفر والإيمان: كلٌّ منهما يبطل الآخر ويذهبه، كانت شعبة كل واحد منهما لها تأثير في إذهاب بعض شعب الآخر، فإن عظمت الشعبة، أذهبت في مقابلتها شعباً كثيرة...»[(٢)].

إذن فمن مات على الردة والكفر ـ والعياذ بالله تعالى ـ حبطت جميع أعماله باتفاق العلماء؛ ولكن وقع النزاع بين الأئمة في مسألة: هل الردة تحبط العمل بمجردها أو لا يحبطه إلا الموت عليها؟.

فذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنَّ الأعمال تحبط بنفس الردة، وهذا رواية عن أحمد.

وقال الشافعي: لا يحبط عَمَلٌ إلا بالموافاة كافراً، ووافقه أحمد في

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/٢٥٧ ـ ٢٥٨).
(٢) «كتاب الصلاة» (ص٦٦).

أحد القولين عنه(١).

وصورة المسألة تظهر في الخلاف في المسلم إذا حجَّ ثمَّ ارتدَّ ثمَّ أسلم، فقال مالك: يلزمُه الحجُّ لأنَّ الأول قد حبط بالردة.

وقال الشافعي: لا إعادة عليه لأنَّ عمله باقٍ(٢).

واستدلَّ القائلون بحبوط العمل بالردة، بالآيات المطلقة من غير تقييد بالموت على الرّدة كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله: ﴿... وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقالوا: هذا خطابٌ للنبي ﷺ والمراد أمته لأنه ﷺ يستحيل منه الردة شرعاً.

وقال أصحاب الشافعي: بل هو خطاب للنبي ﷺ على طريق التغليظ على الأمة، وبيان أنَّ النبي ﷺ على شرف منزلته لو أشرك لحبط عملُه، فكيف أنتم؟(٣).

وأجاب علماء المالكية عن آية البقرة التي نصت على الموافاة على الردة ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾، فقالوا: «إنما الموافاة شرطاً هاهنا، لأنه علَّقَ عليها الخلود في النار جزاءً، فمن وافى كافراً خلده الله في النار بهذه الآية، ومن أشرك حبط عمله بالآية الأخرى، فهما آيتان مفيدتان لمعنيين مختلفين وحكمين متغايرين، وما خوطب به النبي ﷺ فهو لأمته حتى يثبت

---

(١) انظر: «أحكام أهل الملل» (ص٤٤٦ ـ ٤٤٧) للخلال، و«المعونة» (٣/ ١٣٦٠) للبغدادي، و«أحكام القرآن» (١/ ١٤٧) لابن العربي، و«الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٣٣) للقرطبي، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨، ١١/ ٧٠٠) لابن تيمية، و«الفتاوى التاتارخانية» (٥/ ٤٦١)، و«الزواجر عن اقتراف الكبائر» (١/ ٥٣ ـ ٥٤) لابن حجر الهيتمي، وحاشيته «الجمل» (٥/ ١٢١) سليمان الجميلي، و«فتح العلام بشرح مرشد الأنام» (٤/ ٥٣٩) وحاشيته للجرداني.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» (١/ ١٤٨) لابن العربي.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» (١/ ١٤٨) لابن العربي، و«الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٣٣) للقرطبي.

اختصاصه به...»[١].

وهذا الذي ذكره علماء المالكية من كون اشتراط الموافاة لأجل الخلود في النار لا لحبوط العمل فيه نظر، لأنَّ الآية إنما قيَّدتْ الإحباط بالموت على الردة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وفي الآيات الأخر أطلق ﷻ حبوط العمل بالردة، دون تقييد بالموت عليها، فحمل المحققون من أهل العلم المطلق على المقيد عملاً بالقاعدة الأصولية أنَّ «المطلق يحمل على المقيد»[٢].

قال الهيتمي: «... المطلق يحمل على المقيد لا يقال: التقييد بالموت على الردة في الآية الأولى إنما هو لأجل قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنّا نقول: كونه قيداً في إحباط العمل محقق، وأمَّا جعله قيداً لما بعده فهو محتمل فأخذنا بالمحقق وتركنا المحتمل، ....»[٣].

وقال العلامة السعدي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥]: أي ومن يكفر بالله تعالى وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع فقد حبط عمله بشرط أن يموت على كفره كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أي الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة

---

(١) «أحكام القرآن» (١/١٤٨) لابن العربي. وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٣/٣٣ ـ ٣٤) للقرطبي.

(٢) انظر: هذه القاعدة في «شرح الكوكب المنير» (٣/٣٩٢ ـ ٤١٢) لابن النجار، و«روضة الناظر» (٢/١٩١ ـ ١٩٧) لابن قدامة، و«شرح الورقات» (ص٩٥ ـ ٩٨) للشيخ عبد الله بن صالح الفوزان.

(٣) «الإعلام بقواطع الإسلام» مع «الزواجر» (٢/٣٦٦ ـ ٣٦٧). وانظر: «الشرح الكبير» (١١/١٢٢) للرافعي.

وحصلوا على الشقاوة الأبدية»[(١)].

وأختم الكلام في هذه المسألة بما ذكره الإمام ابن القيم في كتابه **«الوابل الصيب من الكلم الطيب»**، فقال: «ولم يزل في نفسي من هذه المسألة، ولم أزل حريصاً على الصواب فيها وما رأيت أحداً شفى فيها، والذي يظهر ـ والله تعالى أعلم وبه المستعان ولا قوة إلا به ـ أنَّ الحسنات والسيئات تتدافع وتتقابل ويكون الحكم فيها للغالب وهو يقهر المغلوبين ويكون الحكم له حتى كأن المغلوب لم يكن، فإذا غلبت على العبد الحسنات رفعت حسناته الكثيرة سيئاته، ومتى تاب من السيئة ترتب على توبته منها حسنات كثيرة قد تربي وتزيد على الحسنة التي حبطت بالسيئة، فإذا عزمت على التوبة وصحت ونشأت من صميم القلب أحرقت ما مرت عليه من السيئات حتى كأنها لم تكن، فإنَّ التائب من الذنب لا ذنب له.

وقد سأل حكيم بن حزام رضي الله عنه **النبي ﷺ عن عتاقة وصلة وبر فعله في الشرك هل يثاب عليه؟ فقال النبي ﷺ: «أسلمت على ما أسلفت من خير»**[(٢)]، فهذا يقتضي أنَّ الإسلام أعاد عليه ثواب تلك الحسنات التي كانت باطلة بالشرك، فلمَّا تاب من الشرك عاد إليه ثواب حسناته المتقدمة. فهكذا إذا تاب العبد توبة نصوحاً صادقة خالصة أحرقت ما كان قبلها من السيئات وأعادت عليه ثواب حسناته، يوضح هذا أنَّ السيئات والذنوب هي أمراض

---

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٢/ ١١٧ ـ ١١٨)، وقد سألت فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح بن عثيمين عن هذه المسألة ـ حبوط العمل بالردة أم بالموافاة عليها ـ فأجابني: بأن الموت على الردة شرط في حبوط العمل، واستدل بآية البقرة، فقلت له: هناك آيات مطلقة، فقال تحمل على هذه الآية المقيَّدة: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ...﴾.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب من تصدق في الشرك ثمَّ أسلم، برقم (١٤٣٦)، «فتح» (٣/ ٣٥٤) وأطرافه (٢٢٢٠، ٢٥٣٨ ـ ٥٩٩٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده، برقم (١٩٤)، «نووي» (٢/ ٤٩٩).

قلبية، كما أنَّ الحمى والأوجاع أمراض بدنية، والمريض إذا عوفي من مرضه عافية تامة عادت إليه قوته وأفضل منها حتى كأنه لم يضعف قط. فالقوة المتقدمة بمنزلة الحسنات، والمرض بمنزلة الذنوب، والصحة والعافية بمنزلة التوبة، وكما أنَّ المريض من لا تعود إليه صحته أبداً لضعف عافيته، ومنهم من تعود صحته كما كانت لتقاوم الأسباب وتدافعها ويعود البدن إلى كماله الأول، ومنهم من يعود أصح ممَّا كان وأقوى وأنشط لقوة أسباب العافية وقهرها وغلبتها لأسباب الضعف والمرض حتى ربما كان مرض هذا سبباً لعافيته كما قال الشاعر:

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل»[١]

❑ المطلب الثالث ❑

إيقاف ملكه

إنَّ من آثار الردة على المرتد ما يتعلق بماله من حيث زوال ملكه عنه أو بقاء مِلْكِيَّته، وما هي الأحوال التي يزول ملكه فيها عن ماله؟

فأقول: هناك مسائل اتفق عليها الأئمة ـ رحمهم الله تعالى ـ:

منها: قول ابن المنذر ـ عليه رحمة الله ـ: «أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أنَّ المرتدَّ إذا تاب ورجع إلى الإسلام: أنَّ ماله مردود إليه»[٢].

ومنها: ما ذكره ابن المنذر ـ أيضاً ـ قال: «أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أنَّ المرتدّ لا يزول ملكه عن ماله بارتداده»[٣]. ما لم

---

(١) «الوابل الصيب» (ص٢٢ ـ ٢٣).

(٢) «الإشراف على مذاهب أهل العلم» (٣/ ١٦٥). وانظر: «الفقه الإسلامي وأدلته» (٦/ ١٦٨) للدكتور وهبة الزحيلي.

(٣) المصدر نفسه (٣/ ١٦٤). وانظر: المصدر نفسه (٦/ ١٦٨)، ولا يتعارض هذا مع =

يقتل أو يموت على ردَّته، أو يلحق بدار الحرب؛ فهذه مسائل يأتي الكلام فيها قريباً إن شاء الله.

أمَّا من ارتد وبقي في دار الإسلام؛ ولم يقتل على ردَّته، **فقد قال الإمام الشافعي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا ارتدَّ الرجلُ وكان حاضراً بالبلد وله أمهات أولاد ومدبَّراتٌ ومدبَّرون، ومكاتبات ومكاتبون، ومماليكُ وحيوانٌ، ومالٌ سوى ذلك، وقف ذلك كُلُّه عنه، ومُنِعَ إصابة أمِّ ولده وجاريةٍ له غيرها.

والوقف: أنْ يوضع ماله سوى إناث الرقيق على يدي عَدْلٍ، ورقيقه من النساء على يدي عَدْلَةٍ من النساء، . . .»[1].

وعقد الإمام الخلال في كتابه «أحكام أهل الملل» باباً فقال: (بابُ ما روي عن أبي عبد الله أَنَّهُ قال: إذا ارتدَّ وُقِفَ ماله حتى يصح شيء من أمره).

وساق فيه روايات عن الإمام أحمد أنَّه سئل عن مال المرتد؟ فقال: من الناس من يقول: يوقف ماله ينظر لعلَّه يرجع. وقال ـ أيضاً ـ: المرتدّ يوقف ماله لعله يَتُوبُ ويراجع[2].

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يحكم بزوال ملك المرتد بمجرد ردّته، في قول أكثر أهل العلم، قال ابن المنذر: «أجمع على هذا كلُّ من نحفظ عنه من أهل العلم»[3]. فعلى هذا، إنْ قِتُلَ أَوْ مَاتْ، زال ملكه بموته، وإن

= قول كثير من الأئمة بأنَّ ماله يوقف، ويمنع من التصرف فيه حتى يتبيَّن أمره، ومن قال بزوال الملك بالردة كالحنفية، وبعض الشافعية فهو زوال مراعى: أي موقوفاً غير بات في الحال. انظر: «الشرح الكبير» (١١/ ١٢٢) للرافعي، و«شرح فتح القدير» (٦/ ٦٩ ـ ٧٠) لابن الهمام.

(١) «الأم» (١٢/ ٥٠٦). وانظر: «الشرح الكبير» (١١/ ١٢٢) للرافعي، و«حكم المرتد» (ص٦٦ ـ ٧٠)، و«أحكام المرتد» (ص١٩٧) للسامرائي، و«أحكام الردة والمرتدين» (ص٣٣٦) د. جبر محمود.

(٢) (ص٤٤٩). وانظر: «المغني» (١٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣) لابن قدامة.

(٣) «الإشراف على مذاهب أهل العلم» (٣/ ١٦٤).

راجع الإسلام فملكه باقٍ له...»[(١)].

وذهب محمد بن الحسن وأبو يوسف إلى أنَّ ملك المرتد لا يزول عن ماله؛ ولا يوقف حتى يتبين أمره، بل إنه ما يزال تحت تصرفه حتى يقتل على الردة[(٢)]، وبه قال المزني من الشافعية[(٣)].

وذهب فريق ثالث من العلماء إلى أنَّ زوال ملكه يكون بالردة، ونصره الإمام النووي حيث قال: «والقول الثاني: أنَّهُ يزول ملكه عن ماله وهو الصحيح...»[(٤)].

فهذه ثلاثة أقوال، منهم من يرى زوال الملك بالرّدة، ومنهم من يراه بالموت على الردة والكفر ـ عياذاً بالله تعالى ـ، ومنهم من يقول بزوال ملكه منذ ردته ولكنه زوال مراعى: أن يحجر على ماله ويوقف كما يفعل بمال الصبي، ولكل قول من هذه الأقوال حجج ومبررات أعرضت عن ذكرها خشية الإطالة ولأن هذا ليس موضع بسطه، ولكن أبين هنا القول الراجح ـ والعلم عند الله تعالى ـ وهو رأي الأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بأَنَّ مال المرتد موقوف حتى يتبيَّنَ حاله بأن يموت أو يقتل على ردَّته، أو يلحق بدار الحرب[(٥)].

---

(١) «المغني» (١٢/ ٢٧٢) لابن قدامة، و«شرح الزركشي» (٦/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩). وانظر: «أحكام الردة والمرتدين» (ص٣٣٦ ـ ٣٣٧) د. جبر محمود، و«أحكام المرتد» (ص١٩٨) للسّامرّائي، وهذا الذي ذهب إليه الإمامان الشافعي، وأحمد هو مذهب الإمامان أبو حنيفة ومالك. انظر: «شرح فتح القدير» (٦/ ٦٩ ـ ٧٠) لابن الهمام، و«الذخيرة» (١٢/ ٤٣ ـ ٤٥) للقرافي.

(٢) انظر: «شرح فتح القدير» (٦/ ٦٩ ـ ٧٠) لابن الهمام.

(٣) انظر: «المجموع» (١٧/ ١٦) للنووي.

(٤) المصدر نفسه (١٨/ ١٦) للنووي.

(٥) انظر: «أحكام الردة والمرتدين» (ص٣٣٦ ـ ٣٣٩) د. جبر محمود، و«الفقه الإسلامي وأدلته» (٦/ ١٨٩) د. وهبة الزحيلي.

ثم أعود إلى ما أشرت إليه في بداية هذا المطلب لأتحدث عن مسألتين مهمتين **الأولى**: إذا لحق المرتد بدار الحرب، **والثانية**: إذا قتل أو مات على الردّة.

أمّا الأولى: فأكتفي هنا بما ذكره ابن المنذر في الإشراف حيث عقد باباً، فقال: باب ذكر لُحُوق المرتدّ بدار الحرب...

ثم قال: «واختلفوا في مال المرتدّ اللاحق بدار الحرب:

فقالت طائفة: إذا قتل المرتد، أو مات فماله للمسلمين دون ورثته، لم يفرقوا في ذلك بين من مات منهم أو قتل في دار الحرب أو دار الإسلام، هذا قول مالك والشافعي[1].

وقال الأوزاعي: ماله بمنزلة دمه إذا لحق بدار الحرب.

وقال الثوري: ... فإن لحق بدار الحرب فماله للمسلمين.

وقال النعمان: يقسم ماله بين ورثته على سهام الله وفرائضه، مات أو لحق بدار الحرب[2].

وقال الحسن البصري: ما حمل معه من ماله فهو مغنم إذا أصيب، وما خلف فهو لورثته»[3].

والذي يترجح في هذه المسألة ـ والله أعلم ـ أنَّ مال المرتدّ اللاحق بدار الحرب، ولم يمت، فالحكم فيه كالذي بقي في دار الإسلام، يبقى تحت تصرف الحاكم حتى يهلك صاحبه أو يعود إلى الإسلام، إلا ما كان معه من مال فهو مباح لمن قدر عليه من المسلمين بمثابة دَمِه، **قال ابن**

---

(١) انظر: «الذخيرة» (١٢/ ٤٣ ـ ٤٥) للقرافي، و«المجموع» (١٨/ ١٩) للنووي.
(٢) انظر: «شرح فتح القدير» (٦/ ٧٤ ـ ٧٥) لابن الهمام.
(٣) «الإشراف» (٣/ ١٦٥) لابن المنذر، و«أحكام الردة والمرتدين» (ص٣٥٤ ـ ٣٥٥) د. جبر محمود.

قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «وإن لحق المرتدُّ ما كان معه من ماله، يصير مباحاً لمن قدر عليه[١]، كما أبيح دَمُه، وأمَّا أملاكُه، ومالُه الذي في دار الإسلام، فملكُهُ ثابت فيه، ويتصرَّفُ فيه الحاكم بما يرى المصلحة فيه، وقال أبو حنيفة: يورث ماله، كما لو مات؛ ولنا أَنَّهُ حَيٌّ فلم يورث كالحربي الأصلي، وَحِلُّ دَمِه وماله، لا يوجب توريث ماله، بدليل: الحربيّ الأصلي، وإنما حلَّ مَالُهُ الذي معه، لأنه زال العاصم له، فأشبه مال الحربي الذي في دار الحرب وأمّا الذي في دار الإسلام، فهو باقٍ على العصمة، كمال الحربيّ الذي مع مُضاربه في دار الإسلام، أو عند مُودَعِه»[٢].

أمَّا الثانية: وهي إذا مات المرتد أو قتل على الكفر ـ نعوذ بالله منه ـ فمن يرثه.

فأقول: في المسألة خلاف مشهور بين الأئمة الأربعة وغيرهم، فإذا قتل المرتد على ردته أو مات، فإنه يبدأ بقضاء دَينه، وضمان جنايته، ونفقة زوجته وقريبه؛ لأن هذه الحقوق لا يجوز تعطيلها.

وما بقي من ماله فيكون فيئاً لبيت مال المسلمين؛ وهذا مذهب المالكية[٣] والشافعية[٤] والحنابلة[٥]، وهو مذهب ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وابن المنذر[٦].

وذهب أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ إلى أن ما كسبه المرتد في إسلامه فلوريثه من

---

(١) انظر وقارن: «شرح فتح القدير» (٦/ ٧٤ ـ ٧٥) لابن الهمام، و«المبسوط» (١٠/ ١٠٣) للسرخسي.
(٢) «المغني» (١٢/ ٢٧٥) لابن قدامة.
(٣) انظر: «البيان والتحصيل» (١٦/ ٤٠٧ ـ ٤٠٩) لابن رشد الحفيد.
(٤) انظر: «مغني المحتاج» (٣/ ٢٤ ـ ٢٥) للخطيب الشربيني، و«حاشية الجمل» (٤/ ٢٥) للشيخ سليمان الجميلي.
(٥) انظر: «المغني» (٩/ ١٦٢) لابن قدامة، و«شرح الزركشي» (٦/ ٢٤٨).
(٦) «أحكام الردة والمرتدين» (ص٣٤٦) د. جبر محمود.

المسلمين، وما كسبه في حال ردّته لبيت مال المسلمين[١]، وبه قال الثوري وإسحاق.

وقال الصاحبان ـ أبو يوسف ومحمد بن الحسن ـ: مَالُ المرتد يكون لورثته من المسلمين[٢]، وبه قال ابن مسعود رضي الله عنه وعطاء والشعبي والأوزاعي، وعمر بن عبد العزيز.

والراجح ـ والله تعالى أعلم ـ ما ذهب إليه الجمهور ـ مالك والشافعي وأحمد ـ وهو الصحيح في المذهب كما قال القاضي، والسنة الصحيحة تشهد لهذا القول منها: حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه **أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»**[٣].

قال الإمام الشافعي رحمه الله بعد أن ذكر هذا الحديث: «وبهذا نقول، فكلُّ من خالف دين الإسلام من أهل الكتاب ومن أهل الأوثان، فإن ارتدَّ أحدٌ من هؤلاء عن الإسلام، لم يرثه المسلمُ، لقول رسول الله ﷺ، وقطَع الله، الولاية بين المسلمين والمشركين»[٤].

وقد اختلف النقل عن الإمام أحمد في هذا، فجاءت روايات متعددة عن أصحابه، منها: ما يشير إلى أنَّ ميراثه لأهل دينه، ومنها: ما يذكر أنه

---

(١) انظر: «شرح فتح القدير» (٦/ ٧٠ ـ ٧١) لابن الهمام، و«المبسوط» (ص١٠ ـ ١٠٠) للسرخسي، و«الفقه الإسلامي وأدلته» (٦/ ١٩١) للزحيلي، و«أحكام الردة والمرتدين» (ص٣٤٦) د. جبر محمود. وهناك أقوال أُخر: مثل من يقول من العلماء بأنَّ ميراثه لأهل دينه الذي انتقل إليه المرتد، ومثل هذا باطل لا تقوم له حجة.

(٢) انظر: المصدر نفسه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، برقم (٦٧٦٤)، «فتح» (١٢/ ٥١)، ومسلم، كتاب الفرائض، أول حديث فيه برقم (١٦١٤)، «نووي» (١١/ ٥٧).

(٤) «الأم» (٨/ ٢٢٩).

لورثته من المسلمين، ومنها: ما نصَّ فيه على أنه لعامة المسلمين ـ يعني لبيت المال ـ[١].

قال الخلال بعد أن ذكر هذه الروايات: «روى هذه المسألة عن أبي عبد الله جماعة كثيرون على التوقف، وعلى أنَّ ميراثه للمسلمين، وغير ذلك من المدافعات لقول يتقلده... ثم رأيت جماعة من أصحابه أيضاً قد حكوا عنه: أنَّ ميراثه لبيت المال وهو أشبه بقوله... وثبت على ميراث المرتد لبيت مال المسلمين. قال: لهذا القول أذهب، أعني القول الأخير وقد ثبت عنه»[٢].

وقال ابن قدامة بعد أن ذكر اختلاف الروايات عن أحمد في المسألة: «والمشهور الأول (يعني لبيت مال المسلمين) **لقول النبي ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم»، وقوله: «لا يتوارث أهل ملتين شتى»**[٣]، ولأنه كافر، فلا يرثه المسلم، كالكافر الأصلي، لأن حاله حالُ مرتدٍّ، فأشبه الذي كسبه في ردته، ولا يمكن جعله لأهل دينه، لأنَّهُ لا يَرِثُهُم، فلا يرثونه، كغيرهم من أهل الأديان، ولأنَّهُ مخالفهم في حكمهم؛ فإنه لا يُقرَّ على ما انتقل إليه، ولا تُؤكلُ ذبيحته، ولا يحلُّ نكاحهُ إن كان امرأةً، فأشبه الحربي مع الذّمّي.

فإن قيل: إذا جعلتموه فيئاً فقد ورثتموه للمسلمين، قُلنا: لا يأخذونه ميراثاً، بل يأخذونه فيئاً، كما يؤخذ مال الذميِّ إذا لم يخلف وارثاً...»[٤].

---

(١) انظر: «أحكام أهل الملل» (ص٤٥٢ ـ ٤٥٤) للخلال، و«المغني» (٩/ ١٦٢) لابن قدامة.

(٢) المصدر نفسه (ص٤٥٤).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الفرائض، باب هل يرث المسلم الكافر، برقم (٢٩١١) (٣/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩). قال العلامة الألباني: حسن صحيح. انظر: «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٥٦٣).

(٤) «المغني» (٩/ ١٦٣).

□ المطلب الرابع □

ذبيحة المرتد

اتفق الأئمة الأربعة ـ رحمة الله تعالى عليهم ـ على أنَّ ذبيحة المرتد حرام لا يجوز أكلها، لأنه لا يُقرّ على دينه الذي انتقل إليه؛ خلافاً للكافر الأصلي «الكتابي» فإنَّه يجوز أكل ذبيحته بنصّ قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عند شرح قول الخرقي**: «وذبيحة المرتد حرامٌ، وإن كانت رِدَّتُهُ إلى دين أهل الكتاب قال: «هذا قول مالك والشافعي، وأصحاب الرأي»[(١)].

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تؤكل ذبيحة المرتدّ إلى أيّ دينٍ ما ارْتَدَّ، لأنَّه إنما رُخِّصَ في ذبائح أهل الكتاب الذين يُقَرُّون على أديانهم»[(٢)].

وذهب إسحاق والأوزاعي إلى أن ذبيحة المرتد إذا ذهب إلى دين سماوي جائزة، قال إسحاق: «إن تديَّن بدين أهل الكتاب، حلَّتْ ذبيحته».

استدلوا بأن علياً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: من تولى قوماً فهو منهم.

والجواب عن هذا من وجوه:

الأول: أنَّ المرتدَّ كافر لا يقرُّ على دينه، فلم تَحِلَّ ذبيحته كالوثني.

الثاني: أنه لا تثبت له أحكام أهل الكتاب إذا تديَّن بدينهم، فإنَّهُ لا يُقَرُّ بالجزية ولا يُستَرقُّ، ولا يحلُّ نكاح المرتدة.

---

(١) «المغني» (١٢/ ٢٧٧). وانظر: «شرح فتح القدير» (٦/ ٧٧) لابن الهمام، و«المجموع» (٩/ ٦٩) للنووي، و«البيان والتحصيل» (١٦/ ٤٣٦) لابن رُشد الحفيد، و«أحكام المرتد» (ص٢٧٩) للسامرائي، و«أحكام الردة والمرتدين» (ص٤١٥) د. جبر محمود.

(٢) «الأم» (١٢/ ٦١٧).

الثالث: أمَّا قول علي «فهو منهم» فلم يرد به ﷺ أَنَّهُ منهم في جميع الأحكام، بدليل أنَّ علياً نفسه لم يكن يرى حلَّ ذبائح نصارى بني تغلب، ولا نكاح نسائهم[(١)]، مع توليتهم للنصارى، ودخولهم في دينهم، ومع إقرارهم بما صولحوا عليه، فلأن لا يعتقد ذلك في المرتدين أولى[(٢)].

هذه بعض المسائل المتعلّقة بالردَّةِ وبيان أَنَّ الوقوع في الاستهزاء بالدين يُؤَثرُ في العبد الواقع فيه ويخرجه من دائرة الإسلام ويدخله في دائرة الردَّة والمرتدين وأحكامهم وذلك حين تتحقق الشروط وتنتفي الموانع.

وهذا لا يعني أنه ليس هناك مسائل غير هذه ولكنِّي اقتصرت على أبرز ما ذكره الفقهاء ـ رحمهم الله تعالى ـ.

---

(١) أخرج خبرهم البيهقي في «السنن الكبرى»، كتاب الضحايا، باب ذبائح نصارى العرب (٩/ ٢٨٤)، وعبد الرزاق في «المصنف»، كتاب الطلاق، باب نصارى العرب (٦/ ٧٢، ٧/ ١٨٦).

(٢) انظر: «الإشراف على مذهب أهل العلم (٣/ ١٦٨) لابن المنذر، و«المغني» (١٢/ ٢٧٧) لابن قدامة.



المبحث الثاني

تعرضه لسخط الله تعالى وعقابه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: عقوبتهم في الدنيا.

المطلب الثاني: عقوبتهم في الآخرة.

* * * * *

□ المطلب الأول □

عقوبتُهم في الدنيا

إنّ من سنن الله تعالى في هذا الكون سنة المدافعة «الصراع بين الحق والباطل» التي أخبر عنها ـ جلَّ وعلا ـ في كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ومن حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يجعل الجولة الأولى للكافرين في معركة الصراع، ثم تكون العاقبة للمتقين، ويُنزِلُ الله عقابه الدنيوي على أهل الكفر والعناد والاستكبار، الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠]، «أي نزل بأممهم من العذاب ما أهلكوا به جزاء استهزائهم بأنبيائهم.

وحاق بالشيء يحيق حيقاً وحُيُوقاً وحيقاناً: نزل[1]، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]. و«ما» في قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟﴾ بمعنى: الذي، وقيل: بمعنى المصدر؛ أي: حاق بهم عاقبة استهزائهم»[2].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم؛ كقوم نوح؛ وعاد؛ وثمود؛ وقوم لوط؛ وأصحاب مدين؛ وقوم فرعون: في الدنيا، وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة؛ . . ولهذا يذكر الله في عامة سور الإنذار ما عاقب به أهل السيئات في الدنيا، وما أعدَّه لهم في الآخرة، وقد يذكر في السورة وعد الآخرة فقط؛ إذ عذاب الآخرة أعظم؛ وهي دار القرار»[3].

فكان من عقوبات الله ـ جل وعلا ـ الدنيوية التي حلَّت بأصحابها؛ ما نزل بقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد دعا قومه للتوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، فقوبل بالاستهزاء والسخرية، فأغرقهم الله تعالى بالطوفان، قال تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر: ٩ ـ ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الشعراء: ١١٩ ـ ١٢١]. فصار قوم نوح مثلاً وعبرة للأمم من بعدهم.

ومن عقوبات الله تعالى التي حلت بالمستهزئين ما نزَلَ بعاد قوم هود من اللعنة والريح التي فيها عذاب أليم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ

---

(١) وقيل: حَلَّ، وقيل: أحاط. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٢/٨٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٥٤). وانظر: «التحرير والتنوير» (٧/١٤٨).

(٣) «مجموع الفتاوى ـ الحسبة» (٢٨/١٣٩).

رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: ٥٩ ـ ٦٠].

وقال تعالى: ذاكراً جواب عاد لنبيهم هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢ ـ ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢].

وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾ [القمر: ١٨ ـ ٢١].

وقال ـ أيضاً ـ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٥ ـ ٨]، فصاروا كغيرهم من المستكبرين المستهزئين مثلاً وعبرة.

ومن العقوبات التي حاقت بالمستهزئين الساخرين ما نزل بثمود قوم صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك ما يُعبد من دون الله من الأوثان فقابلوه بالتكذيب والسخرية، وعقروا الناقة التي جعلها الله ﷻ لهم آية، فعاقبهم الله تعالى بالصيحة.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٧ ـ ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦٧ ـ ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧].

وقال ـ أيضاً ـ: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [النجم: ٥٠ ـ ٥١]. وقال تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر: ٢٩ ـ ٣١].

وقال ـ أيضاً ـ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥].

ومن العقوبات التي أحاطت بالمستهزئين من أهل قرية سدوم قوم لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد أعلنوا بالفاحشة وتكذيب نبي الله ورسوله إليهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨١ ـ ٨٣].

وقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٢ ـ ٧٤]، ونجّى الله نبيه ومن معه من المؤمنين استجابةً لدعاء لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الشعراء: ١٦٩ ـ ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا

كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤ ـ ٣٥].

ومن عقوبات الله تعالى للمستهزئين من أهل مدين: قوم شعيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما نزل بهم من الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ٩٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩١ ـ ٩٢]، فكانت نهاية أليمة للظالمين المستكبرين، الذين اتخذوا دينهم ونبيهم هُزُواً وسخرية.

ومن العقوبات التي حلت بالمكذبين المستهزئين ما نزل ببني إسرائيل لمَّا كذبوا نبي الله موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد عاقبهم الله تبارك وتعالى بعقوبات كثيرة، منها اللعنة: قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٨٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما **قال: «لُعِنُوا بكلِّ لسان: لُعِنُوا على عهد موسى في التوراة، ولُعِنُوا على عهد داود في الزبور، ولُعِنُوا على عهد عيسى في الإنجيل، ولُعِنُوا على عهد محمد ﷺ في القرآن»**[1].

«وهكذا يبدو أن تاريخ بني إسرائيل في الكفر والمعصية واللعنة عريق. وأن أنبيائهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم، هم في النهاية الذين تولوا

(١) «جامع البيان» (ص١٠، ٤٨٩ ـ شاكر)، برقم (١٢٢٩٨).

لعنتهم والدعاء عليهم؛ فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بني إسرائيل.

فهي المعصية والاعتداء، يتمثلا في كل صورها الاعتقادية والسلوكية على السواء. وقد حفل تاريخ بني إسرائيل بالمعصية والاعتداء... كما فَصَّل الله في كتابه الكريم. ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالاً فردية في مجتمع بني إسرائيل. ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها؛ وأن يسكت عنها المجتمع، ولا يقابلها بالتناهي والنكير»[1].

وانضاف إلى اللعنة والطرد من رحمة الله عقوبة أخرى، وهي المسخ قردةً وخنازير، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠].

وانضاف إلى ذلك ـ أيضاً ـ الذلة والمسكنة والصغار إلى يوم القيامة[2]، قال تعالى: ﴿... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

قال ابن كثير ـ عليه رحمة الله ـ: «هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم من الذلة، بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع، وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كفر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياء الله بغير حق، ولهذا جاء الحديث المتفق على صحته: **أن رسول الله ﷺ قال: «الكبر بطر الحق وغمط**

---

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ٩٤٧).

(٢) هذا في الأعم الأغلب، عدا بعض فترات التأريخ كالوقت الحاضر، فقد تمكنوا غاية التمكن، وذلك بحبل من الله وحبل من الناس والله المستعان، وعليه التكلان.

الناس»[(١)]، يعني رد الحق، وانتقاص الناس، والازدراء بهم، والتعاظم عليهم، ولهذا لمَّا ارتكبت بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله، وقتلهم أنبياءه، أحلَّ الله بهم بأسه الذي لا يُرَدّ، وكساهم ذلًا في الدنيا موصولاً بِذُلّ الآخرة جزاءً وفاقاً...»[(٢)].

ومن العقوبات لبني إسرائيل ما ذكره الله سبحانه في محكم كتابه من قسوة القلوب، وغلظ الأكباد، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

قال الدكتور: محمد أديب الصالح: «... ومن هنا كان التمادي في الضلالة: معاداة لرسل الله، ومظاهرة للباطل على الحق، وتعدياً لحدود الله، ونراهم أبداً ـ كما هو واقع أجيالهم القديم والجديد ـ سادرين في الغي، وفي طغيانهم يعمهون.. فعاقبهم الله بأن حجب عنهم رحمته ـ نسوا الله فنسيهم ـ كل هذا مع الخيانة الدائمة من أكثرهم للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ»[(٣)].

فقد جمع الله ـ ﷻ ـ لبني إسرائيل «اليهود» من العقوبات ألواناً كثيرة: «اللعن، وقسوة القلوب، وسخط الله تعالى، والطرد من رحمته، والذلة والمسكنة، والانحراف عن منهج الله تبارك وتعالى، وحبوط الأعمال في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [آل عمران: ٢٢].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الكبر وبيانه، برقم (١٤٧٠)، «نووي» (٢/٤٤٨ ـ ٤٥٠).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/١٥٤ ـ ١٥٥).

(٣) «اليهود في القرآن والسنّة» (٢/٧٣ ـ ٧٤) باختصار.

قال القاسمي: «أي بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات في الدارين، أمَّا الدنيا[(١)]: فإبدال المدح بالذمّ، والثناء باللعن والخزي، ويدخل ما ينزل بهم من القتل والسبي وأخذ الأموال منهم غنيمة، والاسترقاق لهم وغير ذلك من الذل والصغار الظاهر فيهم..»[(٢)].

ومن العقوبات التي حلت بالمستهزئين من اليهود ما ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣ ـ ١٣٦].

فكانت النهاية بين الحزبين حزب الرحمٰن وحزب الشيطان ـ إغراقاً لفرعون وجنده ـ قال تعالى: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ..﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

ومن العقوبات الإلهية الربانية التي أنزلها الله تبارك وتعالى بالمستهزئين ما لقيه صناديد الكفر من كفار قريش، بعد أن أخزاهم الله يوم بدر، ونصر عبده ورسوله محمداً ﷺ فعن أنس بن مالك ﷺ عن أبي طلحة ﷺ: «**أنّ نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليالٍ، فلما كان ببدر اليوم الثالث: أمر براحلته فشدت عليها رحلها، ثم**

---

(١) سيأتي في المبحث التالي: «عقوبة المستهزئين في الآخرة».
(٢) «محاسن التأويل» (٢/٤٨).

مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفى الركي[(١)] فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: (يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً).

قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لِمَا أقول منهم».

قال قتادة: «أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحسرة وندماً»[(٢)].

قال ابن تيمية: «... والقصة في إهلاك الله واحداً واحداً من هؤلاء المستهزئين معروفة، قد ذكرها أهل السير والتفسير، وهم على ما قيل نفر من رؤُوس قريش: منهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسودان ابن المطلب، وابن عبد يَغُوث، والحارث بن قيس..»[(٣)].

وذلك تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحجر: ٩٥]. وقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣].

«فكل من شَنَأَهُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأبغضه وعاداه فإنَّ الله يقطع دابره، ويمحق عينه وأثره، ... ومن الكلام السائر: «لُحُومُ العُلماءِ مَسْمُومةٌ» فكيف بلحوم الأنبياء ﷺ»[(٤)].

---

(١) أي: طرف البئر.. والركي ـ بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد آخره ـ: البئر قبل أن تطوى. انظر: «فتح الباري» (٧/ ٣٥٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، برقم (٣٩٨٧)، «فتح» (٧/ ٣٥٠ ـ ٣٥١)، ومسلم، كتاب الجنة...، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر، والتعوذ منه، برقم (٢٨٧٤ ـ ٢٨٧٥)، «نووي» (ص١٧ ـ ٢١٢).

(٣) «الصارم المسلول» (ص١٧٢). وانظر: «البداية والنهاية» (٣/ ٨٤ ـ ٨٥).

(٤) المصدر نفسه (ص١٧٢). وانظر: «الفرقان» (ص١٤٢) لابن تيمية.

قال الإمام ابن القيم ـ عليه رحمة الله ـ عند قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]: «عتبة بن أبي وقاص الذي كسر رباعية النبي ﷺ يوم أحد، قال بعض العلماء بالأخبار: إنه استقرئ نسله فلا يبلغ أحد منهم الحلم إلا أَبْخَرَ وأهتم[١] يعرف ذلك فيهم، وهو من شؤم الآباء على الأبناء.

واختلف فيما وقع للنبي ﷺ من هذا ونحوه[٢] فقيل: وهو قبل نزول قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾، وقيل: العصمة الموعود بها عصمة النفس من القتل لا عصمته من أذاهم بالكلية، بل أبقى الله تعالى لرسوله ثواب ذلك الأذى، ولأمته حسن التأسي به إذا أُوذِيَ أحدهم نظر إلى ما جرى عليه ﷺ فتأسَّى وصبر وللمؤذين الأشقياء الأخذة الرابية»[٣].

ومن العقوبات التي حلَّتَ بالمستهزئين ـ في صدر الإسلام ـ بسنة الرسول ﷺ والافتراء عليه: ما روى البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه **قال: «كان رجلٌ نصرانياً فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي ﷺ فعاد نصرانياً، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له، فأماتَهُ الله، فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه لمّا هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا: هذا فعلُ محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لمَّا هرب منهم فألقوه خارج القبر، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح قد لفظتْهُ الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس، فألقوه»**[٤].

---

(١) البَخَر: بفتحتين نَتْنُ الفَم... فهو أَبْخَر. «مختار الصحاح» (ص٤٢). والهتم: انكسار الثنايا من أصولها خاصة، وقيل: من أطرافها. «لسان العرب» مادة (هـ ت م) (١٢/٦٠٠).

(٢) يعني من الأذى الحسّي والمعنوي.

(٣) «بدائع التفسير» (٢/١١٦ ـ ١١٧) للإمام ابن القيم، جمع يسري السيد محمد.

(٤) تقدم تخريجه (ص٢٥٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يتبختر في بردين، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»، **فقال لي فتى، قد سمّاه، وهو في حلة له: يا أبا هريرة أهكذا كان يمشي ذلك الفتى الذي خسف به؟ ثم ضرب بيده، فعثر عثرة كاد ينكسر فيها، فقال أبو هريرة: للمنخرين وللفم**: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحجر: ٩٥][(١)].

ومن العقوبات التي نزلت بالطاعنين على أصحاب رسوله ﷺ: أن سلط الله عليه بعض البهائم فقتلته، قال عامر بن سعد[(٢)]: **بينما سعد ـ يعني ابن أبي وقاص رضي الله عنه ـ يمشي، إذ مرَّ برجل وهو يشتم علياً وطلحة والزبير ـ رضوان الله عليهم ـ فقال له سعد: إنك لتشتم قوماً قد سبق لهم من الله ما سبق، والله لتكفَّنَّ عن شتمهم، أو لأدعونَّ عليك، قال: يخوفني كأنَّه نبي، فقال سعد: اللهم إن كان هذا يسبُّ أقواماً قد سبق لهم ما سبق فاجعله اليوم نكالاً. قال: فجالت بُختيةٌ[(٣)] فأفرج الناس لها، فتخبطته، قال: فرأيت الناس يتبعون سعداً، ويقولون: استجاب الله لك أبا إسحاق**»[(٤)].

وقد جرى في فتراتٍ من تاريخ هذه الأمة أنْ وجد من أهل اللعب والمجون من يسخر بدين الله ـ تبارك وتعالى ـ وبرسول الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكان المجتمع بولاته من العلماء والأمراء، والعامة يغضبون إذا انتهكت محارم الله ـ جل وعلا ـ، وسرعان ما يُنَفَّذُ فيهم حكم الله بالقتل.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب من جرَّ ثوبه خيلاء، برقم (٥٧٩٠)، «فتح» (١٠/٢٦٩)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي، مع إعجابه بثيابه، برقم (٢٠٨٨)، «نووي» (١٤/٣٠٨).

(٢) ابن أبي وقاص الزهري المدني، ثقة، من الثالثة، مات سنة (١٠٤هـ). «تقريب» (ص٤٥٧).

(٣) البختية: الأنثى من الإبل. انظر: «مختار الصحاح» (ص٤٢).

(٤) «النهي عن سب الأصحاب» (ص٧٨)، وأخرج القصة اللالكائي (٧/١٢٥٣ ـ ١٢٥٤)، برقم (٢٣٦١). وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/١٥٤): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

ففي سنة (٧١٤هـ) رفع المحتسبون دعوى على المدعو: أحمد الروسي، ولقد شهدوا عليه بالعظائم: من ترك الواجبات واستحلال المحرمات واستهانته وتنقصه بالكتاب والسنة.

ولمّا ثبت عليه ذلك، حكم القاضي المالكي بإراقة دمه فاعتقل ثم قُتِل[١].

وفي سنة (٧٢٦هـ) ضربت عنق رجل بدمشق يقال له: ناصر بن أبي الفضل بن إسماعيل، بسبب ردته وكفره واستهتاره بآيات الله والتلاعب بدين الإسلام، والاستهانة بالنبوة والقرآن. وقد حضر القتل العلماء والأمراء، وأعيان الدولة، وقد شاهد العلامة ابن كثير تنفيذ الحكم، وذكر أنّ في قتله مصالح عظيمة وعزة للإسلام وأهله؛ وذلة للزنادقة وأهل الأهواء والبدع[٢].

وفي سنة (٧٤٤هـ) رفعت دعوى الحسبة ضِدَّ حسن السكاكيني على ما ظهر منه من الرفض الدالّ على الكفر والزندقة، وقد شهد عليه أهل الحسبة بشهادات كثيرة تَدُلُّ على كفره.

ومن ذلك أنَّه يكفّر خيار الأمة بعد نبيها ﷺ أبا بكر وعمر[٣] رضي الله عنهما وقذفه أُمَّ المؤمنين عائشة وحفصة رضي الله عنهما وكان مِمَّا زعمه أنَّ جبريل غلط فأوحى إلى محمد، وإنما كان مرسلاً إلى علي، وبناءً على ذلك حكم القاضي بإهدار دمه وقتله، فقتل صبيحة يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى من تلك السنة[٤]. فرحم الله من عظَّمَ دين الإسلام، وأخذ على أيدي الفسقة المستهزئين، غيرة على حرمات الله ـ تبارك وتعالى ـ.

---

(١) «الحسبة في العصر المملوكي...» (ص٣٤٧) د. حيدر بن أحمد الصائغ.
(٢) «الحسبة في العصر المملوكي...» (ص٣٤٨). وانظر: «شذرات الذهب» (٦/ ٧٤).
(٣) قال عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب: «ما أرى رجلاً يسبُّ أبا بكر وعمر تُيَسَّرُ له توبة أبداً». «النهي عن سبّ الأصحاب» (ص٧٠).
(٤) «الحسبة في العصر المملوكي» (ص٣٥٢).

هذا فيمن تمكن المسلمون من إقامة حكم الله تعالى فيه، وثبوت ذلك في حقه بإقرار أو بيِّنة.

أمَّا من لم يقدر المسلمون عليه، ولم يتمكنوا من إنفاذ حكم القتل فيه فإنَّ الله ينتقم منه، **قال ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن سنة الله أنَّ من لم يمكن المؤمنين أن يعذّبوه من الذين يؤذون الله ورسوله؛ فإنَّ الله سبحانه ينتقم منه لرسوله ويكفيه إيَّاه، كما قدمنا بعض ذلك في قصة الكاتب المفتري[1]، **وكما قال سبحانه**: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٤ ـ ٩٥][2].

فمن ذلك ما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عن أهل الثغور في المشرق والمغرب من بلاد الإسلام، قال: «ونظير هذا ما حدّثناه أعداد من المسلمين العدول أهل الفقه والخبرة عمَّا جَرَّبوه مراتٍ متعددة في حصر الحصون والمدائن التي بالسواحل الشامية، لما حصر المسلمون فيها بني الأصفر في زماننا، قالوا: كنّا نحن نحصر الحصن أو المدينة الشهر أو أكثر من الشهر وهو ممتنع علينا حتى نكاد نيأس إذ تعرض أهله لسب رسول الله ﷺ والوقيعة في عرضه، فعجلنا فتحه، وتيسر ولم يتأخر إلا يوماً أو يومين أو نحو ذلك، ثمَّ يفتح المكان عنوَة، ويكون منهم مَلْحَمة عظيمة، قالوا: حتى إنْ كُنَّا لنتباشر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه مع امتلاء القلوب غيظاً عليهم بما قالوه فيه.

وهكذا حَدَّثني بعض أصحابنا الثقات أنَّ المسلمين من أهل الغرب حالُهم مع النصارى كذلك، ومن سنة الله أنَّ يُعَذّب أعداءَه تارةٍ بعذابٍ من عنده، وتارةٍ بأيد عباده المؤمنين»[3].

---

(١) تقدم ذكره آنفاً، وخرَّجتهما (ص٢٥٦) من هذا البحث.

(٢) «الصارم المسلول» (ص١٧١ ـ ١٧٢).

(٣) «الصارم المسلول» (ص١٢٣، ١٧٣).

ومن العقوبات التي حلّت بالمستهزئين بالرسول ﷺ: ما رواه الطبراني بسنده عن السدي، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٨]، كان رجل من الأنصار بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي: «أشهد أن محمداً رسول الله» قال: «حُرِّق الكذاب!» فدخلت خادمه ذات ليلة من الليالي بنار وهو نائم وأهله نيام، فسقطت شرارة فاحترق هو وأهله(١).

ومنها ما ذكره ابن القيم عن زكريا عن يحيى الساجي، قال: كنّا نمشي في بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين فأسرعنا المشي، وكان معنا ماجنٌ متهم(٢) في دينه، فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ فما زال في موضعه حتى جفَّت رجلاه وسقط»(٣).

ومنها ما ذكره ابن القيم ـ أيضاً ـ قال أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة له: حدثنا زكريا بن عبد الرحمٰن البصري، قال: سمعت أحمد بن شعيب، يقول: كنّا عند بعض المحدّثين بالبصرة، **فحدثنا بحديث النبي ﷺ: «أنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»**(٤)، وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة فجعل يستهزئ بالحديث فقال: والله لأطرقنَّ غداً نعلي

---

(١) «جامع البيان» (١٠/ ٤٣٢ ـ شاكر). وانظر: «زاد المسير» (٢/ ٣٨٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥١)، و«تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١١٥)، و«فتح القدير» (٢/ ٥٦).

(٢) في الأصل: «منهم»، وهو خطأ يأباه السياق.

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٣)، برقم (١٨١٣)، والترمذي في الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار. . ، (٥/ ٥٠٩)، برقم (٣٥٣٥ ـ ٣٥٣٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الطهارة، باب التوقيت في المسح على الخفين للمقيم والمسافر (١/ ٩٢)، برقم (١٣٢)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١/ ٢٠٤)، برقم (٧٩٣)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٥٦ ـ ١٥٧) فالحديث صحيح بمجموع طرقه كما قال أبو الأشبال في تحقيقه لـ «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر.

بمسامير فأطأ بها أجنحة الملائكة ففعل ومشى في النعلين فجفت رجلاه جميعاً ووقعت فيهما الأكلة»[١].

ومنها ما نقله العلامة ابن كثير: أنَّ رجلاً يدعى أبا سلامة من ناحية بصرى، كان فيه مجون واستهتار، فذُكِرَ عنده السواك وما فيه من الفضيلة، فقال: والله لا أستاك إلا في المخرج ـ يعني دبره ـ فأخذ سواكاً فوضعه في مخرجه ثم أخرجه، فمكث تسعة أشهر (وهو يشكو ألم البطن والمخرج) فوضع ولداً على صفة الجرذان[٢]، له أربع قوائم، ورأسه كرأس السمكة، وله أربعة أنياب بارزة، وذنب طويل مثل شبر، وأربع أصابع، وله دبر كدبر الأرنب، ولمّا وضعه صاح ذلك الحيوان ثلاث صيحات فقامت ابنة ذلك الرجل فرضخت رأسه فمات، وعاش ذلك الرجل بعد وضعه له يومين ومات في الثالث، وكان يقول: هذا الحيوان قتلني وقطع أمعائي، وقد شاهد ذلك جماعة من أهل تلك الناحية وخطباء ذلك المكان، ومنهم من رأى ذلك الحيوان حيّاً، ومنهم من رآه بعد موته»[٣].

ومنها ما ذكره أبو عبد الله محمد بن إسماعيل التيمي، قال: قرأت في بعض الحكايات أنَّ بعض المبتدعة **حين سمع قول النبي ﷺ**: «**إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها فإنَّه لا يدري أين باتت يده**»[٤].

قال ذلك المبتدع ـ على سبيل التهكم ـ أنا أدري أين باتت يدي، في الفراش!! فأصبح وقد أدخل يده في دبره إلى ذراعه.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٦). وانظر: «بستان العارفين» (ص١٢٥ ـ ١٢٦).

(٢) نوع من أنواع الحيوانات.

(٣) «البداية والنهاية» (١٣/ ٢٦٣). وانظر: «بستان العارفين» (ص١٢٧) للإمام النووي.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب كراهة غمس المتوضئ وغيره يده المشكوك من نجاستها في الإناء قبل غسلها ثلاثاً، برقم (٢٧٨)، «نووي» (٣/ ١٨٢).

قال التيمي: فليتق المرء الاستخفاف بالسنن ومواضع التوقيف، فانظر كيف وصل إليه شؤم فعله[١].

هذه صور ونماذج لبعض ما أوقعه الله تعالى على المستهزئين من عقوبات في الدنيا، وما ينتظرهم وأمثالهم في الآخرة أَشَدُّ وأنكى، وهذا ما سأذكره في المطلب التالي.

❏ المطلب الثاني ❏

عقوبتهم في الآخرة

إنّ من سنن الله ـ تبارك وتعالى ـ أنْ جعل الجزاء من جنس العمل[٢]، فما من إنسان يعمل عملاً صالحاً إلا كان جزاؤه صالحاً، وما من آخر يعمل عملاً سيئاً إلا كان جزاؤه سيئاً، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١].

فكان من قدر الله الكوني الشرعي أن جعل جزاء المستهزئين في الآخرة من جنس صنيعهم بأهل الإسلام في الدنيا، فسوف يعاقبهم الله بنقيض قصدهم، ويخزيهم غاية الخزي، ويجعل كيدهم في تباب.

فَكُلُّ الساخرين والمستهزئين سوف يتعرضون للسخرية من رب العالمين، جزاءً وفاقاً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟

---

(١) «بستان العارفين» (ص١٢٦) للنووي. وانظر: «تعظيم السنّة» (ص٣٢ ـ ٣٣) تأليف عبد المقصود بن محمد السحيباني.

(٢) انظر: حول هذا الموضوع كتاب «الجزاء من جنس العمل» تأليف د. سيد حسين العفاني، فهو نافع في بابه، تتبع مؤلفه في أوله جزاء المكذبين المستهزئين من أعداء الرسل قديماً وحديثاً.

إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٤ ـ ١٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩].

قال ابن جرير الطبري عند تفسير آية البقرة: «اختلف في صفة استهزاء الله جل جلاله، الذي ذكر أنه فاعله بالمنافقين، الذين وصف صفتهم.

فقال بعضهم: استهزاؤه بهم، كالذي أخبرنا تبارك اسمه أنه فاعلٌ بهم يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ . .﴾ [الحديد: ١٣ ـ ١٤].

وكالذي أخبرنا أنَّهُ فعل بالكفار بقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فهذا وما أشبهه من استهزاء الله جلَّ وعز، وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به عند قائلي هذا القول. . . .

وقال آخرون: بل استهزاؤه بهم، وتوبيخُه إياهم ولومه لهم على ما ركبوا من معاصي الله والكفر به، كما يقال: «إن فلاناً ليُهْزَأُ منه منذ اليوم، ويسخر منه»، يُراد به توبيخُ الناس إياه ولومهم له، أو إهلاكه إياهم وتدميره بهم. . .

قالوا: فكذلك استهزاءُ الله جل ثناؤه بمن استهزأ به من أهل النفاق والكفر به: إمَّا إهلاكه إياهم وتدميرُه بهم، وإما إملاؤهُ لهم، ليأخذهم في حال أمنهم عند أنفسهم بغتةً، أو توبيخه لهم ولائمته إياهم، قالوا: وكذلك معنى المكر منه والخديعة والسخرية. . .

وقال آخرون: إنَّ معنى ذلك: أن الله جلَّ وعز أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا: إنّا معكم على دينكم في تكذيب محمد ﷺ، وما جاء به، وإنما نحن بما نظهر لهم ـ من قولنا لهم صدقنا بمحمد ـ ﷺ وما جاء به ـ مستهزؤون. يعنون: إنّا نظهر لهم ما هو عندنا باطل لا حقٌّ ولا هُدى. قالوا: وذلك هو معنى من معاني الاستهزاء، فأخبر الله أنه «يستهزئ بهم» فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا خلاف الذي لهم في الآخرة، كما أظهروا للنبي ﷺ والمؤمنين في الدين ما هم على خلافه في سرائرهم»[(١)].

ثم اختار ابن جرير ما يراه صواباً من تلك الأقوال فقال: «والصواب في ذلك من القول والتأويل عندنا: أن معنى الاستهزاء في كلام العرب: إظهار المستهزئ للمستهزأ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهراً، وهو بذلك من قِيلِه وفعله به مُورِثه مساءة باطناً... فإذا كان ذلك كذلك كان الله جلَّ ثناؤه قد جعل لأهل النفاق في الدنيا من الأحكام ـ بما أظهروا بألسنتهم، من الإقرار بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، المُدْخِلِهم في عداد من يشمله اسم الإسلام وإن كانوا لغير ذلك مستبطنين ـ أحكام المسلمين المصدقين إقرارهم بألسنتهم بذلك، بضمائر قلوبهم، وصحائح عزائمهم، وحميد أفعالهم المحققة لهم صحة إيمانهم ـ مع علم الله ﷻ بكذبهم، واطلاعه على خبث اعتقادهم، وشكهم فيما ادَّعوا بألسنتهم أنهم به مصدقون، حتى ظنوا في الآخرة إذ حشروا في عِداد من كانوا في عدادهم في الدنيا، أنهم واردون موردهم، وداخلون مدخلهم، والله جل جلاله ـ مع إظهاره ما قد أظهر لهم من الأحكام الملحقتهم في عاجل الدنيا وآجل الآخرة إلى حال تمييزه بينهم وبين أوليائه، وتفريقه بينهم وبينهم ـ معدٌّ لهم

---

(١) «جامع البيان» (١/ ٣٠١ ـ ٣٠٣ ـ شاكر)، وانظر طرفاً من هذه الأقوال وغيرها: «زاد المسير» (١/ ٣٥ ـ ٣٦)، و«تفسير القرآن العظيم» (١/ ٨٠)، و«مجموع الفتاوى» (٧/ ١١١ ـ ١١٢).

من أليم عقابه ونكال عذابه، ما أعدَّ منه لأعدى أعدائه وأشدِّ عباده حتّى ميز بينهم وبين أوليائه، فألحقهم من طبقات جحيمه بالدرك الأسفل، كان معلوماً أنه جل ثناؤه بذلك من فعله بهم، وإن كان جزاءً لهم على أفعالهم، وعدلاً ما فعل من ذلك بهم لاستحقاقهم إياه منه بعصيانهم له ـ كان بهم ـ بما أظهر لهم من الأمور التي أظهرها لهم: من إلحاقه أحكامهم في الدنيا بأحكام أوليائه وهم له أعداء، وَحَشْرِهِ إياهم في الآخرة مع المؤمنين وهم به من المكذبين ـ إلى أن ميَّز بينهم وبينهم ـ مستهزئاً وبهم ساخراً، ولهم خادعاً، وبهم ماكراً. إذ كان معنى الاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة ما وصفنا قبل، دون أن يكون ذلك معناه في حالٍ فيها المستهزئ بصاحبه له ظالم، أو عليه فيها غير عادل، بل ذلك معناه في كل أحواله، إذا وُجدت الصفات التي قدمنا ذكرها في معنى الاستهزاء وما أشبهه من نظائره»[1].

قلت: هذا الذي اختاره ابن جرير ورآه صواباً في تأويل الآية مبني على أنَّ الآية نزلت في المنافقين، وهذا الذي ذكره إنما هو شأن عقوبة المنافقين الذين أظهروا الإسلام؛ فنالوا الأمن بسببه في الدنيا، وأبطنوا الكفر؛ فنالوا بسببه الدرك الأسفل من النار، فكان عقابهم في الآخرة من جنس صنيعهم في الدنيا، كما في آية الحديد والتحريم، أمَّا الكافرين فعقوبتهم من لون آخر كما ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ في الأقوال المتقدمة.

قال الحافظ: «وأمَّا نسبة السخرية إلى الله تعالى فهي على سبيل المقابلة»[2].

وقال ابن تيمية: «وكذلك ما ادعوا أنَّهُ مجاز في القرآن كلفظ: «المكر» و«الاستهزاء» و«السخرية» المضاف إلى الله، وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله عن طريق المجاز، وليس كذلك بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت

---

(١) «جامع البيان» (١/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤ ـ شاكر).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٤٥٢).

بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلماً له، وأمَّا إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة له بمثل فعله كانت عدلاً، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٦].. ولهذا كان الاستهزاء بهم فعلاً يستحق هذا الاسم،...»[1].

ومن استهزاء الله ـ تبارك وتعالى ـ بالمجرمين المكذبين يوم القيامة: أن الله ـ جلَّ وعلا ـ يعطي المنافقين نوراً كما يعطي أهل الإيمان نوراً، ثم يمكر الله بأهل النفاق والزندقة فينطفئ نورهم، ويبقون في ظلمات فهم لا يبصرون ويمضي أهل الإيمان في نورهم ليوصلهم إلى الجنة بإذن الله تعالى، كما ورد في الكتاب العزيز: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٣ ـ ١٤].

قال غير واحد من السلف: إن المنافق يعطى يوم القيامة نوراً ثم يطفأ، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

قال المفسرون: إذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ، سألوا الله أن يتم لهم نورهم ويبلغهم به الجنة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نوراً يوم القيامة؛ فأمَّا المنافق فيطفأ نوره، وأمَّا المؤمن فيشفق ممَّا رأى من إطفاء نور

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١١١).

المنافق، فهو يقول: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾[(١)].

ويشهد لخبر ابن عباس ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة، وجابر، وابن مسعود، وأبي موسى في الحديث الطويل الذي يذكر فيه أنه ينادي يوم القيامة: «**لتتبع كل أمة ما كانت تعبد؛ فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، وهذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه**».

وفي رواية: «فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساقه، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه، فتبقى ظهورهم مثل صياصي البقر فيرفعون رؤوسهم فإذا نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ويطفأ نور المنافقين فيقولون ذرونا نقتبس من نوركم»[(٢)].

قال ابن تيمية بعد أن ذكر هذا الحديث: «فبيّن أنَّ المنافقين يحشرون

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) وأثر ابن عباس أخرجه الحاكم، والبيهقي كما في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل السجود، برقم (٨٠٦)، «فتح» (٢/ ٣٤١ ـ ٣٤٢)، وكتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، برقم (٦٥٧٣)، «فتح» (١١/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤)، وكتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾، برقم (٧٤٣٩)، «فتح» (١٣/ ٤٣١ ـ ٤٣٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طرق الرؤية، برقم (٢٩٩)، «نووي» (٣/ ٢١ ـ ٧٢)، وفي نفس الكتاب والباب، برقم (٣٠٢)، «نووي» (٣/ ٣٠ ـ ٣٦). وانظر: «مجموع الفتاوى» (ص٧، ٢٧٥)، فقد ذكر الحديث وعزاه للصحيحين غير أن قوله ﷺ: «**فيرفعوا رؤوسهم فإذا نورهم بين أيديهم...**» إلخ لم أجده فيهما، فالله أعلم.

مع المؤمنين في الظاهر، كما كانوا معهم في الدنيا ثم وفت الحقيقة هؤلاء يسجدون لربهم، وأولئك لا يتمكنون من السجود، فإنهم لم يسجدوا في الدنيا له، بل قصدوا الرياء للناس، والجزاء في الآخرة من جنس العمل في الدنيا، فلهذا أعطوا نوراً ثم طفئ، لأنهم في الدنيا دخلوا في الإيمان ثم خرجوا منه..»[(١)].

ومن عقوبة الله ـ تبارك وتعالى ـ للمستهزئين المكذبين: دعوة رسلهم عليهم الصلاة والسلام، ما أخبرنا به ـ جل وعلا ـ في كتابه العزيز، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٨].

قال المفسرون: المراد بقوله: ﴿بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾. **أربعة أمور:**

أحدها: ما كان يخفيه بعضهم عن بعض، قاله الحسن.

الثاني: بدا بنطق الجوارح ما كانوا يخفون من قبل بألسنتهم، قاله مقاتل.

الثالث: بدا لهم جزءُ ما كانوا يخفونه، قاله المبرد.

الرابع: بدا للأتباع ما كان يخفيه الرؤساء، قاله الزجاج[(٢)].

هذا مجمل ما ذكره أهل التأويل في معنى الآية، وبعضه أقرب إلى الصواب من بعض، إلا أنَّ **الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ** يرى أنّ أكثر المفسرين حام حول معنى الآية وما ورده، ويتعقب هؤلاء بقوله:

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

(٢) «زاد المسير» (٣/ ٢٣ ـ ٢٤). وانظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٢١ ـ ٣٢٢ ـ شاكر)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٦٤).

«فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ بما أراد من كلامه، أن هؤلاء المشركين لمّا وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها، تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته، ولا يكذبون رسله، فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك، وأنهم ليس في طباعهم، وسجاياهم الإيمان، بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب، وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله، وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها تبين معنى الإضراب بل وتبين معنى الذي بدا لهم والذي كانوا يخفونه، والحامل لهم على قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا، فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا في الدنيا على باطل، وأن الرسل صدَقُوهم فيما بلغوهم عن الله وتبينوا ذلك وتحققوه، ولكنهم أخفوه، ولم يظهروه بينهم بل تواصوا بكتمانه، فلم يكن الحامل لهم على تمني الرجوع والإيمان، معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل، وأنَّ الرسل على الحق، فعاينوا ذلك عياناً بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان، ولعادوا إلى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذٍ أنه هو الحق وأن الشرك باطل، وإنَّما تمنوا لمَّا عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله...»[1].

ومن عقوبة الله ـ تبارك وتعالى ـ للمستهزئين: وقد كانوا يضحكون من المؤمنين ساخرين بهم، أن يعاقبهم الله تعالى بمثل صنيعهم فيسخر منهم المؤمنون في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص١٨٧).

حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإنَّ الكفار كانوا إذا مَرَّ بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم... فقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم»(١).

فلا شك أنها عقوبة وخيمة على أصحابها وفضيحة بين الخلائق يوم القيامة، «لأن المستهزئ مقصوده إخزاء غيره عند الناس، وهذا فيه إخزاء نفسه عند الله وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام، فلو تفكرت في حسرتك وجنايتك وخيبتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار، لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك!.

ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك، فإنك سخرت به عند نفر قليل وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار، مستهزءاً بك وفرحاً بخزيك ومسروراً بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسليطه على الانتقام منك»(٢).

ومن عقوبة الله تعالى للساخرين من المؤمنين والطاعنين فيهم بما هم منه براء: أن الله ﷻ يحبسهم على جسر جهنم عقوبة لهم ونصرة لأوليائه، روى أبو داود بسنده عن سهل بن معاذ بن أسد الجهني، عن أبيه، **عن النبي ﷺ قال: «من حمى مؤمناً من منافق»** أراه قال: **«بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً بشيء يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مِمَّا قال»**(٣).

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٣٢ ـ ٣٣).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٥٠) بتصرف يسير.
(٣) كتاب الأدب، باب من رد عن مسلم غيبة، برقم (٤٨٨٣) (٥/ ١٩٦) وقال الألباني =

قال في عون المعبود: (من رمى مسلماً) أي: قذفه، (بشيء) أي من العيوب، (يريد شينه) أي عيبه، (به) أي بذلك الشيء... (حبسه) أي وقفه (حتى يخرج مِمَّا قال) أي من عهدته، والمعنى حتى ينقى من ذنبه ذلك بإرضاء خصمه أو بشفاعة أو بتعذيبه بقدر ذنبه»[1].

قلت: هذا الوعيد في حق من طعن على المسلمين وسخر منهم، أمَّا من استهزأ بالله وآياته ورسوله فوعيده ـ إن مات غير تائب ـ النار وبئس القرار.

ومن عقوبة الله تعالى للمستهزئين في الآخرة: ما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة **عن النبي ﷺ قال: «إنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنَّم»**[2].

قال الحافظ في شرح هذا الحديث: والمراد بالكلمة التي يهوي بها في النار: قال ابن وهب: أنّ المراد بها التلفظ بالسوء والفحش ما لم يرد بذلك الجحد لأمر الله في الدين، وقال القاضي عياض: يحتمل أن تكون تلك الكلمة من الخنا والرفث، وأن تكون في التعريض بالمسلم بكبيرة أو مجون، أو استخفاف بحق النبوة والشريعة وإن لم يعتقد ذلك»[3]، إذا تقرر ما تقدم

= في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٩٢٤): حديث حسن.

(١) «عون المعبود» (١٣/ ٢٢٧).

(٢) كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، برقم (٦٣٧٧ ـ ٦٤٧٨)، «فتح» (١١/ ٣١٤ ـ ٣١٥٤)، ومسلم، كتاب الزهد والرقاق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، برقم (٢٩٨٨)، «نووي» (١٨/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣١٧)، وهناك أقوال أُخر في معنى الحديث، منها: ما ذكره ابن عبد البر، قال: الكلمة التي يهوي بها صاحبها بسببها في النار هي التي يقولها عند السلطان الجائر، وزاد ابن بطال: بالبغي أو السعي على المسلم فتكون سبباً لهلاكه...». انظر: المصدر السابق (١١/ ٣١٧).

من مصير المستهزئين، وعاقبتهم في الدنيا والآخرة، وأنهم سيحصدون جزاء أعمالهم السيئة، جزاءً وفاقاً، وسيتعرضون لسخط الله، ومكره واستهزائه بهم، فما أبأس من يستهزئ به جبار السموات والأرض، وما أشقاه! وأنهم معذبون بعذاب الله تعالى إن ماتوا على جرمهم هذا من غير توبة نصوح.

فعلى المسلم العاقل أن يحذر مواطن الهلاك والعطب، ومزالق الطريق التي تفضي به في بعض الأحيان إلى التلفظ بكلمة الكفر، وهو لا يشعر، فتهوي به في النار كذا وكذا، فالواجب على المسلم حفظ أقواله وأفعاله وتصرفاته، وأن يضبطها بضابط الشرع، وأن يتورع عن الخوض في الباطل ويكون مِمَّنْ قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، ومِمَّنْ يدعون الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٥ ـ ٦٦].




الفصل الثاني

أثر الاستهزاء على المجتمع المسلم

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: مقومات المجتمع المسلم.

المبحث الأول: هدم القيم وتشويه الحقائق الشرعية والأخلاق السامية.

المبحث الثاني: هدم قداسة الدين وهيبته وعظمته في النفوس.

المبحث الثالث: زوال الأمم والدول.




❑ التمهيد ❑

مقومات المجتمع المسلم

المقوم الأول: التوحيد.

المقوم الثاني: الشريعة الربانية.

المقوم الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المقوم الرابع: العدل.

* * * * *

إن المتأمل في تاريخ الأمم والشعوب عبر التاريخ يجد أن هناك أمماً قامت، وشعوباً تجمعت: فمنها ما كان يقوم على أسس ومقومات بشرية أرضية، مثل الإمبراطورية الرومانية واليونانية والفارسية، وعندما جاء الإسلام، وظهر في مكة، ثم استقر في المدينة عاصر ثنتين من تلك الإمبراطوريات وهي فارس والروم، فكانت مثل هذه الأمم تقوم على أساس اللون أو الجنس أو اللغة أو الأرض، فسرعان ما تذبل وتزول هذه المقومات الأرضية كما قال تعالى: ﴿أَمْ مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

ومنها ما كان يقوم على أساس متين كالمجتمعات التي قامت على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهي تستمد مقومات مجتمعها من تعاليم الرسالات السماوية التي عرفتها عن طريق الوحي، لأن طاقة البشر وعقولهم في أي مجتمع لا يمكن أن تستقل بمصالحها، وما يعود على مجتمعها بالنفع والفائدة إلا إذا آمنت بالله ـ تبارك وتعالى ـ واستجابت لتعاليم الرسل والرسالات، فحينئذٍ تقوم على أسس ثابتة، ومقومات معتبرة شرعاً قال

تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

فعلى هذا الأصل العظيم قام المجتمع الأول ـ مجتمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ـ ويقوم عليه كل مجتمع يريد السعادة في الدنيا والآخرة.

وعندما نريد الحديث عن أثر الاستهزاء بالدين على المجتمع المسلم، فلا بد من إلماحة يسيرة حول مقومات المجتمع المسلم، ليتبين أن التعرض للدين بالسب والاستهزاء، وسكوت الأمة عن هذا الجرم العظيم يعرض المجتمع للفساد والزوال، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩].

وسوف أعرض أهم مقومات المجتمع المسلم كالتالي:

❑ المقوم الأول ❑

التوحيد

الذي دعت إليه جميع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأنزلت من أجله الكتب، وجرِّدت في سبيله سيوف الجهاد، وافترق الناس فيه إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، فما من نبي من الأنبياء ولا رسول من الرسل إلا ودعا قومه إلى كلمة الإخلاص التي هي أساس التوحيد «لا إله إلا الله»، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال تعالى عن المسيح: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقلل تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ

أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فأول واجب على العبد معرفته والإيمان به: التوحيد[١] لحديث ابن عباس ﷺ قال: «**لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى نحو أهل اليمن قال له: إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى...**»[٢]، وفي رواية مسلم: «.. **فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله...**»، وفي رواية أخرى عند مسلم أيضاً: «... **فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله** ﷻ..»، ووجه الجمع بين هذه الروايات كما قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «... أن المراد بالعبادة: التوحيد، والمراد بالتوحيد: الإقرار بالشهادتين، والإشارة بقوله ذلك إلى التوحيد، وقوله: فإذا عرفوا الله، أي عرفوا توحيد الله، والمراد بالمعرفة: الإقرار والطواعية، فبذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة في القصة الواحدة وبالله التوفيق»[٣].

وهذا التوحيد الذي دعت إليه الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ نوعان، **قال الإمام ابن القيم ـ عليه رحمة الله ـ**: «التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد، ونوع في الإرادة والقصد، ويسمى الأول: التوحيد العلمي، والثاني: التوحيد القصدي الإرادي، لتعلق الأول: بالإخبار والمعرفة. والثاني بالقصد والإرادة، وهذا الثاني أيضاً نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الألوهية، فهذه ثلاثة أنواع»[٤].

---

(١) هذا مذهب السلف، أما عامة المتكلمين فيرون أول واجب هو: النظر، أو القصد، أو الشك، أو المعرفة. انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٨/٣، ٤، ٥ ـ ١٧، ٣٥٠) لابن تيمية، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤)، و«فتح الباري» (١٣/ ٣٦١ ـ ٣٦٦) لابن حجر.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، برقم (٧٣٧٢)، «فتح» (١٣/ ٣٥٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، برقم (٢٩ ـ ٣١)، «نووي» (١/ ٣١٠).

(٣) «فتح الباري» (١٣/ ٣٦٧).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٢٤ ـ ٢٥).

وقال في موضع آخر بعد أن ذكر معاني التوحيد عند المبتدعة: «وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله، ونزلت به كتبه، فوراء ذلك كله وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في القصد والطلب...»(١).

فلا بد من إقامة المجتمع المسلم على أساس شهادة إن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومعنى قيام المجتمع المسلم على هذه العقيدة الصافية كما يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «أنه يقوم على احترام هذه العقيدة وتقديسها، ويعمل على تثبيتها في العقول والقلوب، ويربي ناشئة المسلمين عليها، ويرد عنها أباطيل المفترين، وشبهات المضلين، ويجلّي فضائلها وآثارها في حياة الفرد والمجتمع، عن طريق الأجهزة التوجيهية التي تؤثر في سير المجتمع، من المساجد والمدارس والصحافة والإذاعة والتلفزيون.. والأدب بكل فنونه، من شعر ونثر وقصص..»(٢).

وفي المقابل، فالمجتمع المسلم ليس مجتمعاً ينتشر فيه الكفر والإلحاد والزندقة، «فليس مجتمعاً مادياً، ولا مجتمعاً علمانياً (لا دينياً) ولا مجتمعاً وثنياً، ولا مجتمعاً يهودياً أو نصرانياً، ولا مجتمعاً لبرالياً رأسمالياً، ولا مجتمعاً اشتراكياً، إنما هو مجتمع يدين بعقيدة التوحيد عقيدة الإسلام، وعقيدة الإسلام تَعْلُو ولا تُعْلَى.. عقيدة الإسلام لا تقبل أن تكون على هامش الحياة في المجتمع، وأن تزاحمها عقيدة أخرى تبدل نظرة الناس إلى الله والإنسان، والكون والحياة»(٣).

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ٤٤٩). وانظر: «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٤٣) لابن القيم، وقسّم رحمه الله تقسيماً غير هذا فقال: «فهما توحيدات لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول». انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٨٧).
وخلاصة القول: أن التوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات (علمي خبري)، وتوحيد الألوهية (قصدي طلبي) والله أعلم.
(٢) «ملامح المجتمع المسلم» (ص٢٣ ـ ٢٤).
(٣) المصدر السابق (ص٢٤).

❏ المقوم الثاني ❏

الشريعة الربانية

إن مسالة التشريع من أعظم المسائل التي وقع فيها الجدال والصراع ـ وذلك بالطبع بعد مسألة الصراع بين الشرك والتوحيد ـ بين الجاهلية والإسلام.

ففي الجاهلية المشرع هو العقل أو مجموعة عقول ممثلة في المجالس التشريعية كما يسمونها في المجتمعات الجاهلية.

يقول الشيخ محمد قطب: «حَكَّمَتِ الجاهلية المعاصرة عقلها في قضية التشريع.. بحجة أن الإنسان قد شب عن الطوق ولم يعد في حاجة إلى وصاية الله. وبحجة أن الأمور قد تطورت، بينما التشريع السماوي جامد لا يتحرك ولا يواكب التطور[(١)]...

فالواقع أن العلمانية بمعنى: فصل الدين عن الدولة، والتشريع بغير ما أنزل الله أمر عميق الجذور في التربية الأوروبية،.. أما العلمانية التي أبرزتها الجاهلية المعاصرة وأكدتها فهي إقصاء كل أثر للتعاليم الدينية في التشريع، وإقامة التشريع على مبعدة من الدين ـ إن لم يكن على عداء صريح مع الدين ـ ويبدو ذلك واضحاً في تحليل الربا، وإباحة الفاحشة، وعدم اعتبارها جريمة ما دامت برضى الطرفين[(٢)].. إلى غير ذلك من ألوان التحدي الصارخ لأوامر الله»[(٣)].

---

(١) وكذبوا في ذلك، بل شريعة الله ثابتة وشاملة، وصالحة لكل زمان ومكان. انظر: كتاب «الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية» رسالة دكتوراه للشيخ عابد السفياني.

(٢) انظر نصوصاً عن القوانين في بعض البلدان الإسلامية! في هذا المعنى في كتاب: «حكم الزنا في القانون وعلاقته بمبادئ حقوق الإنسان في الغرب»، للشيخ عابد السفياني.

(٣) «رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر» (ص٣٧ ـ ٣٨).

ونتيجة لهذه الجرأة من الجاهلية المعاصرة، فقد نتج عنها أمرين اثنين:

أحدهما: التمرد على حق الله ﷻ في التشريع، وانتزاع خاصية تفرده بالأمر ـ كما أنه تفرد بالخلق ـ قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال العلامة السعدي: «أي له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها. والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية»[(١)].

الثانية: «هو التمرد على حكم الله الحكيم الخبير، الذي خلق الإنسان ويعلم دخائله ويعلم ما يصلحه وما يصلح له، ويحيط بالزمن كله ماضيه وحاضره ومستقبله، ويعلم ما يمكن أن يؤدي إليه كل تشريع من التشريعات، لا في الحاضر وحده، ولكن في الزمن المقبل كله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بينما علم الإنسان قاصر،..»[(٢)].

ولكن في ظل التشريع الرباني الذي جعل الله لكل أمة منه سبيلاً فقال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، جاء في تفسيرها عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة رحمه الله: «شرعة ومنهاجاً قالا: سبيلاً وسنة[(٣)]. **ثم قال ابن جرير** رحمه الله: «فمعنى الكلام: لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يؤمه، وسبيلاً واضحاً يعمل به»[(٤)].

فأصل دين الأنبياء واحد هو: التوحيد، والشرائع تختلف من أمة إلى أخرى، والشريعة الإسلامية جاءت لتحرير العبد من داعية الهوى ليكون

---

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٣/١٩ ـ ٢٠). وانظر: «مجموع الفتاوى» (١١/٢٥١ ـ ٢٧١) لابن تيمية.

(٢) «رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر» (ص٣٨) محمد قطب.

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٠/٣٨٣ ـ ٣٨٩ ـ شاكر) لابن جرير.

(٤) انظر: المصدر نفسه (١٠/٣٨٤ ـ شاكر).

عبداً لله تعالى يعيش في ظل شريعة ربانية تسيطر على المجتمع المسلم كله ليكون الدين والتشريع جميعه له تبارك وتعالى، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: «المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد الله اضطراراً، والدليل على ذلك النص الصريح الدال على أن العباد خلقوا للتعبد لله، والدخول تحت أمره ونهيه لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧]... إلى غير ذلك من الآيات الآمرة بالعبادة على الإطلاق، وبتفاصيلها على العموم، فذلك كله راجع إلى الرجوع إلى الله في جميع الأحوال، والانقياد إلى أحكامه على كل حال. وهو معنى التعبد لله»(١).

وقد وصف الله هذه الشريعة بقوله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨﴾ [الجاثية: ١٨].

فالواجب على المسلم تحكيم الشريعة في العبادات والمعاملات، والأخلاق والسلوك، والحدود، والاقتصاد، والسياسة والإعلام، والفنّ، وكل مجالات الحياة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

فكل مجالات الحياة لا بد أن تستظل بظل «لا إله إلا الله» إيماناً وتعبداً، وتشريعاً وأخلاقاً، وفكراً وحضارة(٢)، فكل هذا يعتبر من مقتضيات هذه الكلمة التي متى تخلفت عنها مقتضياتها أصبحت كلمة لا روح فيها: ولا ثقل لها في نفوس المسلمين ـ ولو قالوها مئات المرات ـ ولا أثر لها في واقع المجتمع المسلم والأمة المسلمة.

---

(١) «الموافقات» (٢/١٦٨ ـ ١٦٩).

(٢) انظر: كتاب «لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة» لمحمد قطب.

❑ المقوم الثالث ❑

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو أحد معايير خيرية هذه الأمة المباركة، فلأجل الإيمان بالله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والشهادة على الأمم الأخرى أخرج الله هذه الأمة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وجعل الفلاح من أخص خصائص القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وجاء في الحديث عن حذيفة بن اليمان ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه، فلا يستجاب لكم»**(١).

فالمجتمع المسلم هو الذي تَغَلَّبَ فيه المعروف، وقوي أمره، وصارت له الدولة والظهور، ولأهله العز والتمكين والسلطان، وإن كان هذا المجتمع لا يخلو من الشر والأشرار بل ولا يخلو من الآمرين بالمنكر والناهين عن المعروف.

فقد وصف الله تعالى مجتمع الإسلام الأول بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع سائر الأعمال الصالحة، قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١]،

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، برقم (٢١٦٩) (٤/٤٠٦)، وأحمد في «المسند» (٥/٤٥٤)، وحسّن الحديث الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/٢٣٣).

فهم أولياء متناصرون على هذا لا على غيره، ولذلك صاروا مؤمنين، واستحقوا رحمة الله وثناءه عليهم.

هذا هو الأمر الذي يجب على المجتمعات الإسلامية المعاصرة أن تسعى إلى تحقيقة في واقع حياتها، خلافاً لما هي عليه من تَبَدُّلِ الأوضاع، وانعكاس المفاهيم، حتى أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ـ إلا ما رحم ربي ـ كما وصف الله حال المنافقين فقال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧]، يقول العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... ثم ذكر وصف المنافقين العام الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ وهو الكفر والفسوق والعصيان ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو الإيمان والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب الحسنة..»[(١)].

ويقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بهما، ويفعلون ذلك دساً وهمساً، وغمزاً ولمزاً، لأنهم لا يجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون»[(٢)]. أما حين يكون المجتمع كله ولاة ورعية علماء وعامة، محتسبين وغير محتسبين، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فسوف يحصل لهم من الثمرات المترتبة على هذه الشعيرة من شعائر الدين ما لا يقدر قدره إلا الله، ومن أعظمها: زوال الخبث من المجتمع المسلم، والأمن من عقوبة الله ـ تبارك وتعالى ـ وعذابه العام الشامل، والألفة ووحدة الأمة، والظهور على الأعداء، وفرض الجزية عليهم، واستجابة الله ﷻ لدعاء المؤمنين، وغيرها مما تحقق للمجتمع الأول، مجتمع الصحابة رضي الله عنهم، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن...» (٣/١٢٣).

(٢) «في ظلال القرآن» (٣/١٦٧٣).

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥].

❏ المقوم الرابع ❏

العدل

الذي هو من القيم الأساسية في المجتمع المسلم، حتى إن القرآن الكريم جعله هدفاً من أهداف الرسالات السماوية كلها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال أهل التفسير: المراد بالميزان: العدل، وقيل: هو ما يوزن به، أي ووضعنا الميزان كما قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ بأن وضع ﴿وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾، أي: ليتعاملوا بينهم بالعدل(١).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقيقته ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرسل كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواريث وغير ذلك، وذلك ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ قياماً بدين الله وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدها، وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع وهو القيام بالقسط وإن اختلفت صور العدل

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٤/ ٢٩٩) للبغوي، و«زاد المسير» (٨/ ١٧٤) لابن الجوزي، و«تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٩٠) لابن كثير.

بحسب الأزمنه والأحوال»[١].

ومما يدل على شمولية العدل في حياة المسلم والمجتمع كله، وروده في كتاب الله تعالى في مواضع مختلفة، وصوراً وأشكال متنوعة[٢].

منها ما ورد خطاباً لعموم المؤمنين، مثل قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يأمر الله عباده المؤمنين أن يكونوا قوَّامين بالقسط، أي: العدل، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ولا عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين فيه،...» إلى أن قال: «فقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ﴾، أي: فلا يحملكم الهوى والمعصية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال»[٣].

ويؤكد هذا ويسانده ما في سورة المائدة [آية: ٨] قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾، أي: «بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة والباطنة، وأن يكون ذلك القيام لله وحده لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط الذي هو العدل لا الإفراط ولا التفريط في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا

---

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن...» (٨/ ٨٥).

(٢) وأكتفي هنا بنوع واحد وهو الخطاب العام للمؤمنين، دون ما ورد في قضايا خاصة مثل العدل مع الزوجات والأولاد، والميراث ونحوها، فلها مجال آخر يطول المقام بتتبعها.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٨٥٩).

بذلك على القريب والبعيد، والصديق والعدو..»[١].

وقد عاش الرعيل الأول في ذاك المجتمع النقي في ظل العدل الرباني المتمثل في الصورة الواقعية التي عاشها المصطفى ﷺ وورثها من بعد خلفاؤه الراشدون، وبقية الصحابة ﷺ الأمر الذي شهد به الأعداء فضلاً عن الأصدقاء، فلا بد من وقفة مع صورة من صور العدل الإسلامي وهي كثيرة جداً ـ في الصدر الأول للإسلام، ليس مع المسلمين فيما بينهم بل مع الأعداء الصرحاء «اليهود»، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «أفاء الله ﷻ خيبر على رسول الله ﷺ **فأقرهم رسول الله ﷺ كما كانوا، وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبد الله بن رواحة فخرصها عليهم، ثم قال لهم (يعني ابن رواحة): يا معشر اليهود: أنتم أبغض الخلق إليّ، قتلتم أنبياء الله ﷻ، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فلي، فقالوا: بهذا قامت السمٰوات والأرض، قد أخذنا، فاخرجوا عنا»**[٢].

ومن ثمار هذا الأصل العظيم، مَا تَنَعَّمَ به المجتمع المسلم في القرون المفضلة ومن بعدهم، فقد يدفع الله بالعدل عذاباً يوشك أن يقع ولو كان هذا العدل من أفراد، روى عبد الرزاق بن همام.. أن جيشاً [من المسلمين] مروا بزرع رجل من أهل الذمة، فأرسلوا فيه دوابهم، وحبس رجل منهم دابته فقال: كفانيك الله ـ أو قال: كفاني الله بك ـ فلولا أنت كفيت هؤلاء، ولكن إنما يدفع عن هؤلاء بك»[٣].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن...» (٢/ ١٢٢) للعلامة السعدي.

(٢) «المسند» (٣/ ٤٥٠). قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١٢١): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٣) «المصنف» (٦/ ٩١ ـ ٩٢).

فهل يعي المسلمون وأهل السنة والجماعة منهم على الخصوص مثل هذه الآثار والتطبيقات، فيقوا مجتمعاتهم المعاصرة عاقبة الظلم والافتراء، لا أقول لأهل الذمة، بل لإخوانهم المسلمين الذين يتكلمون بألسنتهم، فرُب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

إذا عرف هذا عن المجتمع المسلم وبعض مقوماته الربانية الثابتة التي تصلح لكُلِّ زمان ومكان، وأنها ـ إضافة إلى غيرها من المقومات ـ سبب في ترابط المجتمع وبقاء كيانه منيفاً شامخ الأركان، بقي أن نقف على بعض آثار الاستهزاء على المجتمع المسلم الذي سبق الحديث عن شيء من ملامحه ومقوماته، فإليك الحديث عن الآثار النكدة المُدَمِّرة، وقانا الله وجميع المسلمين شرَّها.



المبحث الأول

هدم القيم وتشويه الحقائق الشرعية والأخلاق السامية

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في العقائد.

المسألة الثانية: في التشريع.

المسألة الثالثة: في العبادات والسنن.

المسألة الرابعة: في الجهاد.

المسألة الخامسة: في الأخلاق.

* * * * *

هذا مطلب خبيث يسعى لتحقيقه أعداء الإسلام ـ من وثنيين، وأهل كتاب، ومنافقين ـ ولأجل تحقيقه يبذلون الغالي والنفيس، ويبرمون الخطط والمؤامرات، ويحيكون الدسائس والتشويه، وذلك لأنهم لم يستطيعوا هدم هذا الدين بالسيف والسنان عبر ساحات المعارك التي خاضوها مع المسلمين، فلجأوا إلى «الدّس والتشكيك، ونشر الشبهات، وتدبير المناورات. كانوا يعمدون أولاً إلى عقيدتها الإيمانية التي انبثق منها كيانها، ومنها قام وجودها فيعملون فيها معاول الهدم والتهوين، وذلك أنهم كانوا يدركون، ـ كما يدركون اليوم ـ أنَّ هذه الأمة لا تؤتى إلّا من هذا المدخل، ولا تَهِنُ إلا إذا وهنت عقيدتها، ولا تُهزم إلّا إذا هُزِمَتْ روحها، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئاً وهي ممسكة بعروة الإيمان مرتكنة إلى ركنه، سائرة على

نهجه، حاملة لرايته منتسبة إليه، معتزة بهذا النسب وحده»[١].

«وهم من أجل ذلك يوجهون إليه جهوداً لا تَكِلّ، وحملات لا تنقطع ويستخدمون في تحريفه عن وجهته، وفي تمييع طبيعته، كل الوسائل وكل الأجهزة، وكل التجارب».

وتبعاً لذلك فإنهم «يسحقون سحقاً وحشياً كل طلائع البعث والحيوية الصلبة الصامدة في كل مكان على وجه الأرض. وهم يسلطون المحترفين من علماء هذا الدين عليه يحرفون الكلم عن مواضعه، ويُحلون ما حرم الله، ويميعون ما شرعه، ويباركون الفجور والفاحشة، ويرفعون عليها رايات الدين وعناوينه»[٢].

كُلُّ هذا وأضعافه لأن أعداء الدين الحق يعلمون أنَّ قيام الإسلام والتمكين له في الأرض يهدد كيان الباطل وصولته، وبعبارة أخرى: إنَّ قيام شريعة الله على الوجه الذي أراده الله، وفهمه الجيل الأول من أصحاب النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ورضي الله عنهم وأرضاهم ـ؛ يعني ذلك حرمان أهل الشهوات والشبهات، وأهل الكفر والنفاق مِمَّا كانوا يتمتعون به، ولذا فإن جهود هؤلاء الأعداء ـ من وثنيين وأهل كتاب ومنافقين ـ تتظافر وتتعاون لتقف صفاً واحداً في وجه الإسلام والمسلمين، وهدم قيمه وتشويه حقائقه، وتدمير أخلاقه الفاضلة.

ولأجل إتمام البحث على وفق الخطة المرسومة لا بُدَّ من التركيز على آثار الاستهزاء النكدة التي أثرت في حياة الأمة من جوانب كثيرة، وأخص منها هنا ما يتعلق بالدين في عقائده وشرائعه وعباداته وأخلاقه وغير ذلك.

وسأُفصل الكلام في المسائل التالية مبيناً أثر الاستهزاء والمستهزئين فيها.

---

(١) «طريق الدعوة في ظلال القرآن» (ص١٠٣ ـ ١٠٤) جمع وإعداد أحمد فايز.
(٢) المصدر نفسه (ص١١٦).

❑ المسألة الأولى ❑

في العقائد

سبق أن تحدثت في أول هذه الرسالة عن مسلّمة من مسلّمات ديننا الحنيف وأصل من أصوله الراسخة وهو تعظيم هذا الدين وإكرامه، وتنزيله المنزلة التي جعلها الله له؛ وذلك من حيث عقائده وشرائعه وأخلاقه، ولكن سبق في علم الله تعالى وقدره أن أقواماً يقعون في ضِدِّ ذلك فينتقصون ويسخرون من الدين، ومن ذلك ما يَخُصُّ العقائد التي مبناها على الإيمان بالغيب، قال تعالى مادحاً عباده المتقين: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ١ ـ ٣].

فنصيب هذه العقيدة الربانية ـ التي هي أساس الفوز والنجاة من النار في الدار الآخرة ـ الاستهزاء والسخرية ممن لا خلاق لهم، ومن ذلك الحملة الشرسة التي شنَّها دُعَاةُ العلمنة، والمدنية الغربية عبر موجات الإلحاد والزندقة في هذه العصور المتأخرة قاصدين بذلك هدم عقائد المسلمين.

يقول الدكتور محمد محمد حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد فاضت الصحف في هذه الفترة التي نُؤرخها بالمقالات التي تشكك الناس في كل ما يخرج عن دائرة المحسوس. وكان معظم ما يذاع من ذلك يذاع باسم العلم والعلمانية، وباسم حرية الفكر والتحرر من العبودية والتقليد.

«ثُمَّ نقل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما كتبه رئيس مجلة «الهلال المصرية» تحت عنوان «حرية الفكر» حيث قال: «إنَّ الناس واهمون حين يتخيلون أنهم أحرار في تفكيرهم. فهم يخضعون عن وعي أحياناً، وعن غير وعي في كثير من الأحيان، لقيود ثلاثة، وهي: قيود الوراثة، وقيود البيئة بكُلِّ ما فيها من عقائد وعادات ونظم وقوانين، وقيود النفس بما فيها من ميول وعواطف وما لها من مصالح. فكُلُّ الأنبياء والمصلحين، كانوا أحرار الذهن مُعْتقي الفكر. كُلُّ الأنبياء كانوا من أعداء القديم البالي. كل الأنبياء والمصلحين

تمردوا على النظم السارية والآراء الشائعة. كُلّ الأنبياء والمصلحين كانوا أعداءً لأنفسهم. وقد كان أسهلَ عليهم أن لا يُنَدِّدُوا ولا يُبَشِّرُوا لو أنهم خافوا التحقير والاضطهاد وارتضوا مسايرة الناس..»، ويختم المقال بقوله: «حرِّر فكرك واتّبعه حينما يذهب بك»[1].

إنّ هذا الكاتب وقع في أمر عظيم خطير وهو أنه قرن بين الأنبياء والمصلحين، وجعلهم في مرتبة واحدة، وهو يعتبر الدين والعقائد الإسلامية التي تسود بين المسلمين قيوداً يرغب إليهم في حَلِّها والتخلص منها، ثُمَّ هو كذلك يسحب القارئ من حيث يدري أو لا يدري إلى إنكار الوحي، وجعل الأنبياء، كالمفكرين والفلاسفة، فيصبح ما جاء به الرسل والأنبياء من عقائد وشرائع، أمراً قابلاً للنقد والتعديل، أو التنقيح والتهذيب. وبهذا يمكن هدم عقائد المسلمين بأمثال هذا الكاتب وغيره وهم كُثرٌ في زماننا هذا يحاولون إقناع المسلمين بأن البشرية لم تعد بحاجة إلى وصاية السماء أو هداية الرسالات السماوية فقد بلغت ـ كما يزعمون ـ سِنَّ الرشد: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

ونجد كاتباً آخر يسخر من إيمان المسلمين باليوم الآخر وما فيه من أمور كالجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين، وذلك على رؤوس الأشهاد لتحقيق غرضهم المنشود وهو هدم هذه العقائد الراسخة. **فيقول**: «لو كان جميع الناس يعتقدون كما اعتقدنا أن هذا الفردوس الوحيد يعني به الحياة الدنيا الذي ليس بعده فردوس آخر لَوَجَّهُوا كُلَّ قواهم إلى تحسينه ليصبح فردوساً حقيقياً بِكُلِّ معنى الكلمة. أمَّا وهم يؤمنون بوجود فردوس آخر أفضل، وأنَّ الإنسان نزيلٌ فانٍ على هذه الأرض، فهم يُحَرِّضُون كُلَّ واحد على احتقار الحياة، وعلى تصويريها بأبشع صورها، حتى تصبح جحيماً لا يطاق»[2].

(١) «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» (٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٢٩٣).

ومن أسوأ من كتب من المفكرين الذين تشبّعوا بثقافة الغرب ومدنيته عميد الأدب العربي!! طه حسين، حيث جاء كتابه «في الشعر الجاهلي» لتحقيق الغرض نفسه: هدم عقائد المسلمين، وإبطال الوحي والشرائع، والرسل والرسالات، وقد تحدثت عنه في الباب الثاني عند الكلام عن صور الاستهزاء في العصر الحاضر، فلا داعي لتكرار الحديث عنه وعن مخازيه وكفرياته.

وعندما يتأمل المسلم في الوقت الحاضر يجد أن أصناف المستهزئين ما زالوا يواصلون مشوارهم الذي بدأه أسلافهم في هدَم القيم ومن أعظمها عقيدة الإسلام.

يقول أدونيس(١): «ومن أعقد مشكلاتنا مشكلة الله، وما يتصل بها مباشرة في الطبيعة وفيما بعدها، ونعرف جميعاً ماذا يهيئ للذين يعالجونها بأقلّ ما يمكن من الصراحة والجرأة.

ومن أعقد مشكلاتنا ـ أيضاً ـ وأكثرها إلحاحاً وحضوراً، «مشكلة القيم والتراث»(٢).

تعالى الله وتقدس عن أن يكون مشكلة كما يقول هذا الضال الذي هو نتاج لموجات الإلحاد في ديار الإسلام، إذا كان وجود الله ـ تبارك وتعالى ـ وأنه الإله الحق الذي لا إله غيره، يعتبر عند الحداثيين مشكلة، فهو بالنسبة لنا نحن المسلمين عقيدة راسخة رسوخ الجبال كما أوضحها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ..﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) هو شاعر نصيري كان اسمه علي أحمد سعيد، ثم ترك النصيرية واعتنق الشيوعية، وتسمَّى بأحد أصنام الفينيقيين (أدونيس). انظر: «الحداثة في ميزان الإسلام» (ص٩٨).

(٢) «الحداثة في ميزان الإسلام» (ص١٠٠).

ومن أمثلة هدم القيم والأصول عند أرباب الحداثة ما كتبه أحدهم في مجلة اليمامة فيقول: «ينبغي أن نخلع جبة الأصول وقلنسوة الوعظ، لنترك للشاعر حرية مساءلة التجربة، ونقض الماضي وتجاوزه، ولنترك لأنفسنا فسحة لنصغي لتجربته الجديدة، وما تقترحه من أسئلة، ليس هذا من حق الشاعر فحسب، ولكنه حقُّ حياتنا المعاصرة علينا»[١]، بحجة إتاحة الحرية للشعراء الذين يسعون لتدمير وهدم كُلّ ما هو قديم، ومن ذلك عقيدة التوحيد والإيمان التي يدين بها جميع أهل الإسلام، كُلُّ هذا ـ وغيره كثير ـ يقرأُه المسلمون على صفحات جرائدنا ومجلاتنا، ويروج عليهم ويتأثرون به من حيث يشعرون أو لا يشعرون، ويضعف بذلك تمسكهم بدينهم وقيمهم شيئاً فشيئاً، حتى لا يبقى منه شيء ولا حول ولا قوة إلا بالله، والله المستعان.

أقول لا غرابة من هؤلاء وأمثالهم في ديار الإسلام ممن يتسمَّوْن بأسمائنا، ويتكلمون بلغتنا، فلهم سلف من المستشرقين تتلمذوا على أيديهم، وتربوا في أحضانهم، وتشربوا بأفكارهم، فها هو تيومان يتحدث عن العالم الإسلامي، وعن المسلمين والإسلام، **فيقول**: «فقد تطور العالم خلال القرون، بينما ظلَّ الإسلام واقفاً في مكانه لا يتحرك. فإذا أمكن للمبادئ الإسلامية أن تتطور مع الزمن المتطور، بدلاً من الارتباط بعالم خيالي لا يسمح للتطور الزمني أن يتطرق إليه، وقد تراكم عليه نسج العنكبوت من فرار محمد (صلوات الله وسلامه عليه) من مكة، عند ذلك، سوف تصبح يقظة الشرق حقيقة واقعة، وليست أضغاثُ أحلام. وعند ذلك سوف يتحرر ملايين البشر من هذه العقائد الأثرية الشيباء ليأخذوا مكانهم بين الحركات الحديثة»[٢].

واتخذ أعداء الإسلام ـ من وثنيين وأهل كتاب ومنافقين ـ وسائل شتَّى لهذا الهدم المنشود، فنفذوا من خلال التعليم، وقطعوا مشواراً كبيراً في كثير من ديار

---

(١) المصدر السابق (ص٥٣).

(٢) «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» (ص٣٠٧ ـ ٣٠٨) محمد محمد حسين.

الإسلام، ودخلوا كذلك من ناحية الإعلام وحاز هذا الجانب قصب السبق في هدم العقائد وتشويهها، وتربية أجيال فارغة جوفاء لا تعرف عقيدة الإسلام ولا تريد التعرُّفَ عليها، ودخلوا كذلك من ناحية الفن والثقافة وإحياء التراث، وبه تُحيى القوميات، وتهدم وحدة الأمة بهدم أعظم مقوماتها وهي العقيدة، ونفذوا كذلك من باب الاقتصاد فأدخلوا على أهل الإسلام الربا وغيره من أبواب الشر، وهدموا نظام الاقتصاد الإسلامي ونفذوا من نواحي عديدة: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨]، وسوف يظهر الله دينه ويعلي كلمته، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٩].

❑ المسألة الثانية ❑

في التشريع

إنَّ هدم الشريعة الإسلامية حلم كبير لأعداء الإسلام المستهزئين به ـ من وثنيين وأهل كتاب ومنافقين ـ يسعون منذ فجر الإسلام لتحقيقه، ولكن الأمة الإسلامية في عهود مضت كانت قوية بإيمانها وتمسكها بدينها، فلم يستطع الأعداء المتربصون النيل منها ومن شريعتها، حتى جاءت عصور الجهل والتخلف في أواخر عهد الخلافة العثمانية، وتَسَلُّط الكماليين على عاصمة الخلافة والعمل مع اليهود حتى تمكنوا من القضاء على الخلافة، وبالتالي القضاء على الشريعة الربانية، وإحلال قوانين البشر محلها.

وقد فرح الغرب بهذا الإنجاز فرحاً شديداً حتى إن المستشرقين منهم كانوا يسخرون من التشريع الإسلامي، ويسمون الحكومة التي تحكم بالشريعة الإسلامية حكومة دينية.

يقول ولفرد سمث (المستشرق الحقود): «رأينا تركيا في سبيل رفعة شأنها، وَخَلْقِ مثل عليا جديدة لم تتردد في سحق السلطات الدينية، وألغت

تعاليمها وحررت الإسلام وكشفت النقاب عن الدين الحق القويم(!!!)»[١].

هذا نصيب من يهدم شرائع السماء مُسْتَخِفًّا بها وبتعاليمها من أولئك الكفرة، ويبني مكانها زبالة أذهان الغرب وفتات موائدها، واصفاً هذا الذي هو أدنى بأنه الدين الحق القويم، إمعاناً في السخرية بأهل الإسلام، وتشويهاً للدين الحق، وتلبيساً على أهل الإسلام دينهم.

يقول مصطفى كمال أتاتورك: «نحن لا نريد شرعاً فيه قال وقالوا، ولكن نريد شرعاً فيه قلنا ونقول»، **ويقول أيضاً**: «إنَّ التشريع في أُمَّةٍ عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لأحوال الزمان لا للمبادئ والتقاليد»[٢].

إنَّ هذا الأسلوب من كبير العلمانيين الذي علمهم التمرد على الدين والشريعة في مضمونه هدم لهذه الشريعة الربانية، ولذلك سار من جاء بعده إلى اليوم على هذا النهج يصفون الشريعة بالتقاليد البالية التي عفا عليها الزمن، بل زاد المتأخرون منهم أنهم حكموا على شريعة الإسلام أنها غير صالحة للقرن العشرين لأنَّ هذا القرن وصلت فيه البشرية إلى مدى بعيد في التقدم الصناعي والتِّقني، وإنما الزمن الذي يصلح لتطبيق الشريعة هو العصور الأولى البدوية.

وزاد الطين بِلةً أنَّ موجات الإلحاد، والمتمثلة هذه المرَّه في الحداثة أنهم استهزءوا بهذه الشريعة وعملوا على هدمها.

يقول أُدونيس: «تجاوز الواقع أو ما يمكن أن نُسمِّيه اللاعقلانية. و«اللاعقلانية» تعني الثورة على قوانين المعرفة العقلية، وعلى المنطق، وعلى الشريعة من حيث هي أحكام تقليدية تُعنى بالظاهر... هذه الثورة تُعنى ـ بالمقابل ـ بالتوكيد على الباطن، أي على الحقيقة مقابل الشريعة»[٣].

---

(١) «العلمانية» (ص٥٧١).

(٢) المصدر نفسه (ص٥٧١).

(٣) «الحداثة في ميزان الإسلام» (ص١٠١) للشيخ عوض القرني.

هذا مُعَلِّم الحداثيين الأول، وهذا نصيب الشريعة الإلهية منه، وهذا ليس بمستغرب منه ومن أمثاله، ولكن الغريب أن يشاد به في الصحف التي تنتمي إلى بلد الإسلام ومعقله الأخير في هذا العصر، لماذا؟ ليكون هذا الملحد وكلامه مثلاً يحتذى لشباب المسلمين في سبيل هدم القيم والتشريعات، وإضعاف هيبتها وتعظيمها عند أهل الإسلام.

إن ما ينادي به أعداء هذه الشريعة، المستهزئين بها، الساخرين منها، بأنها وحشية، وتحمل في تشريعاتها وبخاصة في الحدود قسوة على أفراد المجتمع المسلم.

فعلى سبيل المثال يقولون عن حَدِّ السرقة، وحدِّ الزاني المحصن بأنَّ فيه قسوة ووحشية، **فنقول لهم نحن أبناء الإسلام:**

أولاً: نحن نؤمن بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا نخوض في هذا بعقولنا، بل نتلقاه بالتسليم المطلق.

وثانياً: أنكم يا من تقولون هذا الطعن والتشويه، تؤمنون بأنه لا بُدَّ لهذه الجرائم من عقوبة، وتسندون ذلك للقوانين التي هي من صنع البشر الذين لم يحيطوا بكُلِّ شيء علماً.

وثالثاً: إن المجتمعات التي تقولون بأنها مجتمعات حضارية ليس فيها شيء من الوحشية والقسوة، نرى نحن وترون أنتم زيادة نسبة الجريمة فيها على الرغم من الوسائل الحديثة التي تكشف الجريمة، إلا أن الأمر عكس ما توقعتم.

ورابعاً: إن المجتمعات التي لا تخضع لشريعة الله قد اهتمت بالمجرمين وعاملتهم على أنهم مرضى هم في حاجة إلى العلاج أكثر من حاجتهم إلى العقوبة، وألقيتم باللائمة على عوامل الوراثة والبيئة والفساد الاجتماعي، وهذا صحيح إلى حدٍّ مَّا، وذلك أنَّ بعض الأعضاء في المريض تحتاج أحياناً إلى قطع واستئصال، لأن المصلحة تكون في ذلك حتى لا

يسري إلى بقية الجسد، وكذلك الفرد إذا فسد فساداً يستحق معه القتل فإنَّهُ يقتل حماية لبقية الأفراد[(١)].

ولنأخذ مثالاً آخر في هذا الباب، فإننا نجد من كثير من أصحاب الأفكار المشبوهة من علمانيين وحداثيين من يقول: إنَّ المرأة تستحق من الميراث مثل الرجل سواءً بسواء، وقصدهم بذلك الطعن في هذا الحكم الشرعي، وجعله ظلماً للمرأة، وعن طريق هذا الاتهام يحصل لهم المقصود، وهو هدم هذه الشريعة، وخلخلتها، في نفوس أهل الإسلام.

وللرد على هذا الطعن أُورد ما **ذكره الإمام الشنقيطي** رَحِمَهُ اللَّهُ **حيث قال:** «لا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها: تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث الذي ذكره الله تعالى، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ﴾ (أي وهو الرجال)، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤] أي وهو النساء.

قوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وذلك لأنَّ الذكورة كمال خلقي، وقوة طبيعية، وشرف وجمال، والأنوثة نقص خلقي وضعف طبيعي، كما هو محسوس مشاهد لجميع العقلاء، لا يكاد ينكره إلا مكابر في المحسوس»[(٢)].

وقد عاب الله ـ تبارك وتعالى ـ على من نسب له الأنثى من المشركين فقال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١ ـ ٢٢].

«وإنما كانت هذه القسمة ضيزى ـ أي غير عادلة ـ لأنَّ الأنثى أنقص من الذكر خِلقةً وطبيعة»، فجعلوا هذا لله: «إذا علمت ذلك فاعلم أنه لَمَّا كانت الحكمة البالغة، تقتضي أن يكون الضعيف الناقص مقوماً عليه من قبل

---

(١) انظر: طرفاً من هذه الردود: «تلبيس مردود» (ص٨٩ ـ ٩١) للشيخ صالح بن حميد.

(٢) «أضواء البيان» (ص٣، ٣٨٠ ـ ٣٨١).

القوي الكامل، اقتضى ذلك أن يكون الرجل مُلزَماً بالإنفاق على نسائه، والقيام بجميع لوازمهن في الحياة،... فاقتضت حكمة الحكيم الخبير أن يؤثر الرجل على المرأة في الميراث وإن أدليا بسبب واحد، لأنَّ الرجل مترقب للنقص دائماً بالإنفاق على نسائه، وبذل المهور لهُنَّ، والبذل في نوائب الدهر». **إلى أن قال**: «واعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه: أنَّ هذه الفكرة الكافرة، الخاطئة الخاسئة، المخالفة للحسِّ والعقل، وللوحي السماوي، وتشريع الخالق الباري: من تسوية الأنثى بالذَّكَرْ في جميع الأحكام والميادين، فيها من الفساد والإخلال بنظام المجتمع الإنساني ما لا يخفى على أحدٍ إلّا من أعمى الله بصيرته... فعادت النتيجة (يعني في مساواة المرأة بالرجل) في حافرتها على أنَّ خروج المرأة وابتذالها فيه ضياع المروءة والدين»[(١)].

❑ المسألة الثالثة ❑

في العبادات والسنن

تعتبر العبادات من صلاة وزكاة وصيام وحج وغيرها جزءاً لا يتجزأ من دين الإسلام، ولا فرق ـ من حيث المصدر ـ بين التوحيد والإيمان، وبين العبادات والمعاملات، قال تعالى: ﴿.. كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، وجاء من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما **قال: قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله؟ وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»**[(٢)]. هذا لفظ البخاري. وفي رواية مسلم: «... على أن يوحدوا الله...» الحديث، فلا فرق بين العقائد والشرائع، والعبادات والمعاملات، فهي بمجموعها تُسَمَّى **«دين الإسلام»**.

---

(١) المصدر نفسه (ص٣، ٣٨١ ـ ٣٨٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب دُعاؤكم إيمانكم، برقم (٨)، «فتح» (٢/ ٦٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، برقم (١٩)، «نووي» (١/ ٢٩٠ ـ ٢٩١).

ولكن هذه العبادات التي هي جزء من دين الإسلام قوبلت منذ القدم بالسخرية والاستهزاء، والتنقص والإزدراء من أعداء الإسلام على مختلف مشاربهم، فأهل الإلحاد والزندقة، تحلَّلوا من العبادات بعد أن هدموا العقائد، فها هم الدروز[1] لا يهتمون بالمساجد ولا بالصلاة، وقراهم لا تكاد تجد فيها مسجداً لولا جهود بعض الولاة في الدولة الأيوبية والعثمانية، فقد قاموا ببناء المساجد، ولكن سرعان ما تعاد خراباً، ويُحولونها إلى حظائر للمواشي، حتى إنَّ من مرَّ من المسلمين بقراهم، وأتى تلك المساجد فنادى بالأذان فيها، يقولون له: «لا تنهق علفك يأتيك»[2].

وفي طائفة «الإسماعيلية»[3] نجد أهل الإلحاد والزندقة قد سخروا من العبادات الشرعية، حتى وصل الحال بشعرائهم أن يتباهوا بإباحة المحرمات كالأخوات والبنات، وتعطيل الفرائض؛ كالصلاة والصيام والحج والزكاة.

يقول علي بن الفضل[4]:

خذي الدف يا هذه والعبي ... وغني هزاريك ثُمَّ اطربي
تولى نبي بني هاشم ... وهذا نبيٌّ بني يعرب
لكُلِّ نبي مضى شرعة ... وهذي شريعة هذا النبي
فقد حطّ عني فروض الصلاة ... وحط الصيام ولم يتعب

---

(١) إحدى فرق الشيعة الغلاة، ينسبون إلى محمد بن نصير النميري الذي كان مولى للحسن العسكري.

(٢) «دراسات عن الفرق في تاريخ المسلمين ـ الخوارج والشيعة» (ص٣٣٠) د. أحمد جلي.

(٣) إحدى فرق الشيعة الغلاة، ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وهم في مقابل الاثني عشرية الذين ينتسبون إلى موسى الكاظم بن جعفر الصادق.

(٤) الجدني: أصله من جيشان باليمن، وكان على مذهب الاثني عشرية، وقع في براثن الدعوة الباطنية الإسماعيلية عندما زار الكوفة، هلك سنة (٣٠٣هـ). انظر: «دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين...» (ص٢٨٦) د. أحمد جلي.

إذا الناس صلوا فلا تنهضي وإن صوّموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا ولا زورة القبر في يثربِ[(١)]

إلى آخر ما قال، ويا بئس ما قال، فقد تجرأ هؤلاء الزنادقة على الفرائض واستهزءوا بها مِمَّا أثر على التحلل منها، وهدمها والقضاء عليها، ولأجل جذب الناس لهذا المذهب، يرفعون أولاً راية التشيّع لأهل البيت.

هذا بالنسبة لجذب أهل الخير والصلاح، أمَّا أرباب الشهوات، فيغرونهم بإباحة الخمر والفواحش من زِناً ولواطٍ حتى بالنسبة للأقربين، فمن فيه شهوة لهذه المعاصي يرغب في مذهبهم لا ديانة بل لأجل تحقيق نزواته، **ومن تمام قصيدة علي بن الفضل**:

ولا تمنعي نفسك المعرسين من الأقربين ومن أجنبي
فكيف حللت لهذا الغريب وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربَّه وروّاهُ في الزمن المجدب
وما الخمر إلّا كماء السماء حلالٌ فقدّست من مذهب[(٢)]

وقد سبق الحديث في الباب الأول عن شيء من صور الاستهزاء بالدين، ومن ذلك ما كان يفعله بعض أهل الأهواء والبدع، وذكرت هناك ما نقله ابن قتيبة عن ثمامة بن الأشرس يوم أن رأى الناس يسعون يوم الجمعة خشية فوات الصلاة، فقال لبعض أصحابه: انظروا إلى البقر، انظروا إلى الحمير، **ثم قال (متعجباً)**: ما صنع هذا العربي (وفي نسخة القرشي) بالناس[(٣)].

ولا شك أنَّ مثل هذا الكلام الساقط يُؤَثِّرُ في نفوس المسلمين وخاصة العوام منهم، فإذا كان أمثال هذا المفتري يطعن على نبي الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويسخر منه، فإنَّ ذلك قد يؤدي إلى ترك هذه الشعيرة من

---

(١) «دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين» (ص٢٨٧).
(٢) المصدر نفسه (ص٢٨٧).
(٣) «تأويل مختلف الحديث» (ص٣٦). وانظر: (ص٢٣٩) من هذه الرسالة.

شعائر الإسلام، والتهاون بها، وعدم تربية الأجيال القادمة على تعظيمها، وعُلوِّ شأنها في نفوسهم، وخاصة إذا كان أهل الاعتزال ممن يُنْظَرُ إليهم نظرة انبهار على أنهم أصحاب العقول والعقلانية، وأصحاب السنة والاتباع حشوية نوابت، نصوصيون رجعيون، يعيشون في العصور الأولى، ولا يتكيفون مع الواقع المعاصر، كُلُّ هذا مجرد دسٍّ وتشويه يسعى لتحقيقه أهل الكلام المذموم، وما نقموا منهم إلا أنهم اتبعوا ما جاء في كتاب الله تعالى وعلى لسان رسول الله ﷺ ولم يُعْمِلوا فيه معاول الهدم والتعطيل والتحريف، فاستحقوا بذلك ثناء الله تعالى عليهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

إن كثيراً من العلمانيين والحداثيين يصفون العبادات الشرعية بأنها وثنية جديدة لا تصلح للقرن العشرين، إنما هي صالحة للعصور البدوية البدائية، حتى بلغ بهم الحال بأن يسخروا من اللباس الشرعي الذي ليس فيه إسبال، ومن الأكل باليمين وغيرها، يقول أحد الحداثيين في محاضرة له: «... ينسلخ عن الجوهر بما فيه من المثل والقيم والمبادئ، ليغرق في هامشيات، وأقول يغرق لأنَّهُ للأسف ما زال غريقاً حتى اليوم، يغرق في ماذا؟! في تحريم أو استكراه لبس الجلباب وتقصيره إلى ما فوق الكعبين، وضرورة الأكل باليمين، وكراهة استعمال الملعقة والشوكة والسكين، واستحباب لعق الأصابع، وكراهة الشرب واقفين، وكراهة أو تحريم الأكل على منضدة وهذا إضافة إلى مسائل أخرى، منها الاحتفال بمولد النبي (صلوات الله وسلامه عليه)، والتوسل بالأولياء والصالحين»(١).

أقول هذا الذي حشده المحاضر من السنن النبوية الثابتة عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كتقصير الثوب إلى فوق الكعبين، والأكل باليمين ـ وضدُّ

---

(١) صحيفة «اليوم»، عدد (٤٧٧٦)، في (٦/١١/١٤٠٦هـ)، نقلاً عن «الحداثة في ميزان الإسلام» (ص٧٣ ـ ٧٤) للشيخ عوض القرني.

ذلك عمل الشيطان ـ، وسنة لعق الأصابع للحصول على البركة سواء في أول الطعام أو آخره، فهذه لا يشك مسلم في أنها من هدي النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فمن تنقصها واستهزأ بها كما فعل هذا المحاضر في محاضرته، وكما فعلت تلك الصحيفة التي يقرأها المئات، فقد أعظم على الله الفرية، كُلُّ هذا يؤثر تأثيراً بالغاً في أهل الإسلام، ثم في هذه السنن والآداب، فيضعف التمسك بها، لأنَّ من فعل ذلك سوف يكون أضحوكة تلوكه الألسن، وبهذه الطريقة يتمكن أعداء الإسلام من القضاء على العبادات والسنن والآداب الشرعية.

❑ المسألة الرابعة ❑

في الجهاد

للجهاد مكانة عظيمة في الإسلام، ومنزلة رفيعة، ولذا عدَّه بعض العلماء أحد أركان الإسلام.

يقول الشيخ محمد بن عبد اللطيف (ت١٣٣٩هـ): «والجهاد ركن من أركان الإسلام الذي لا استقامة للإسلام ولا قوام لشرائعه إلَّا به»[(١)]. وقد عَدَّه النبي ﷺ ذروة سنام الإسلام، روى الحاكم بسنده عن معاذ بن جبل ﷺ **قال: «كُنَّا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال لي: «إن شئتَ أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه»، قال: قلت: أجل يا رسول الله، قال: «أمَّا رأس الأمر فالإسلام، وأمَّا عموده فالصلاة، وأمَّا ذروة سنامه فالجهاد»**[(٢)].

وللجهاد في سبيل الله فضائل كثيرة مبثوثة في كتاب الله تعالى وفي دواوين السنة ليس هذا محل تفصيلها وبيانها.

---

(١) «الدرر السنية» (٧/١٢) جمع العلامة عبد الرحمٰن بن قاسم.

(٢) كتاب الجهاد، برقم (٢٤٠٨) (٢/٨٦). وقال الذهبي في «التلخيص»: على شرط البخاري ومسلم.

ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أهداف الجهاد في الإسلام، فببيانها يتضح لنا موقف المستهزئين منه، وأثر هذا الموقف في تعطيل هذه الفريضة، فمن أهداف الجهاد:

أولاً: تعبيد الناس لله وحده وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد، وإزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً، وتقليل الفساد في الأرض(١).

ثانياً: دفع الأذى والفتنة عن المؤمنين التي كانوا يُسَامُونَها، ليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، وقرر ذلك المبدأ العظيم ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ﴾ [البقرة: ١٩١]، فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها وفتنة أهلها عنها أشدُّ من الاعتداء على الحياة ذاتها(٢).

ثالثاً: إقامة الدولة الإسلامية وحمايتها من شرِّ الكفار، لتتمكن من إقامة نظام الإسلام في الأرض بدون معارضة، وبذلك تسعد البشرية جمعاء(٣).

إن هذه الأهداف ـ وغيرها كثير ـ هي التي حدت بالغرب الصليبي إلى الوقوف في وجه الجهاد وتشويهه، والعمل على هدمه لأنهم يعرفون أن قوة المسلمين في الإسلام، وقوة الإسلام بالجهاد لإعلاء كلمة الله في الأرض. يقول أشعياء بومان في مقال نشره في مجلة «العالم الإسلامي» التبشيرية (التنصيرية): «.. من أسباب الخوف أنَّ هذا الدين من أركانه الجهاد»(٤).

---

(١) «أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية...» (ص١٥٨ ـ ١٧٢) للشيخ الدكتور علي العلياني.

(٢) «طريق الدعوة في ظلال القرآن» (١/٢٨٨)، و«أهمية الجهاد» (ص١٧٢ ـ ١٧٥).

(٣) «أهمية الجهاد في نشر الدعوة» (ص١٧٥ ـ ١٧٨). وانظر: «طريق الدعوة في ظلال القرآن» (ص١ ـ ٢٨٩ ـ ٢٩١)، و«الجهاد والقتال في السياسة الشرعية» (١/ ٢٨٥ ـ ٣٢١) د. محمد خير هيكل.

(٤) «قادة الغرب يقولون...» (ص٥٢) لجلال العالم.

وقد سعى أعداء الإسلام منذ سنين عديدة إلى العمل على هدم هذه الفريضة ـ التي بإقامتها إقامة الدين ـ فأثاروا حولها الشبهات، فمنها: الطعن في شريعة الجزية، واعتبروها دليلاً على الظلم والقهر والاضطهاد(١)، وغفلوا أو تغافلوا عن أنَّ الإسلام جعل للكفار من أهل الكتاب وغيرهم، البقاء على دينهم مقابل دفع الجزية، وكلَّفَ المسلمين الدفاع عنهم مع عدم مشاركتهم في القتال، فأي قانون من قوانين البشرية اليوم يكفل أقليَّاته مثل ما فعل الإسلام بأهل الذمة.

ومنها ـ أيضاً ـ: تشويه الجهاد نفسه حيث قالوا بأن الإسلام انتشر بالسيف والقوة، وإرغام المخالفين على الدخول فيه، وأنَّ الإسلام إنَّما انتشر ذاك الانتشار بسبب القوة والسيف، ولم يكن بقوة الحجة ولا بالكتاب الهادي كما يزعم أهل الإسلام، وقد أشار العلَّامة ابن القيم إلى هذا في مقدمة كتابه الذي ردَّ به على النصارى في مسائل أوردوها على بعض العامة، **فقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان انتهى إلينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين فلم يصادف عنده ما يشفيه، ولا وقع دواؤه على الداء الذي فيه، وظنَّ المسلم أنَّه بضربه يداويه فسطا به ضرباً، وقال: هذا هو الجواب! فقال الكافر: صدق أصحابنا في قولهم: إنَّ دين الإسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب.

فتفرقا وهذا ضارب وهذا مضروب، وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب»(٢). وفي الوقت الحاضر نجد الكيد أكثر، والهدم والتشويه أكبر أثراً في أهل الإسلام بسبب التخلف العقدي والإيماني الذي تعيشه الأمة، فقد أصبح هذا الأمر ـ أعني تشويه الجهاد وهدمه ـ في وسائل أكثر شيوعاً من ذي قبل، فعبر وسائل الإعلام في بلاد الغرب تكال التهم للإسلام زوراً

(١) انظر: «الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية» (ص٢٢ ـ ٢٣) أحمد أبو زيد.
(٢) «هداية الحيارى» (ص٣١).

وبهتاناً عبر الأفلام التي يصورون فيها الجهاد الإسلامي والمسلمين بأنهم إرهابيون وسفاكو دماء وأنهم يحملون سيوفهم لنشر الإسلام بالسيف والقوة، فها هي بريطانيا منذ سنوات تقوم بإعداد فيلم بعنوان «سيف الإسلام» بقصد تنفير الغربيين من الإسلام، وإعطائهم صورة مشوهة عنه، وخاصة إظهار المسلمين بأنهم أناس متخلفون ومتأخرون نتيجة تمسكهم بدينهم(١).

بل وصل الحال إلى وصف الإسلام جملة بأنه جذام وخطر على البشرية.

يقول المستشرق «كيمون» في كتابه «باثولوجيا الإسلام»: «الإسلام جذام فشا بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه من الخمول والكسل إلا ليدفعه إلى سفك الدماء، والإدمان على معاقرة الخمور، وارتكاب جميع القبائح، وما قبرُ محمد (صلوات الله وسلامه عليه) إلّا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين، فيأتون بمظاهر الصرع والذهول العقلي إلى ما لا نهاية ويعتادون على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ككراهة لحم الخنزير، والخمر والموسيقى، إنَّ الإسلام كُلَّه قائم على القسوة والفجور في اللذات».

إلى أن يقول: «أعتقد أنَّ الواجب إبادة خُمس المسلمين، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر»(٢).

---

(١) انظر: «الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية» (ص٢٤) أحمد أبو زيد.

(٢) «الاتجاهات الوطنية...» (٣٤٩/١) لمحمد محمد حسين، و«قادة الغرب يقولون...» (ص٦٠ ـ ٦١) لجلال العالم، إنه الحقد والحسد والبغضاء كما قال الله ـ تعالى ـ عن أسلافهم، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ...﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]. =

ولذا نجد أعداء الإسلام يتبنون الحركات الزائغة عن منهج الإسلام؛ كالصوفية، والرافضة، والبابية والبهائية، والقاديانية وغيرها ممن لا يهتم بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيفتح المجال لهذه الحركات الهدامة في المجتمع المسلم ـ كما نراه في كثير من ديار المسلمين اليوم ـ فتنخر فيه، وتقلب موازينه ومفاهيمه، وتعمل على تشويه القيم الإسلامية الصحيحة كالجهاد(١).

وفي المقابل نجد موقف أعداء الإسلام؛ وبخاصة المستشرقين منهم يهاجمون الدعوات الإصلاحية السلفية التي تأخذ هذا الدين بشموله وترفع راية الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مثل دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب.

يقول الشيخ عابد السفياني: «وقد شنَّ المستشرقون هجوماً عنيفاً... وخاصة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ ذلك لأمر تميزت به هذه الدعوة ـ.. وقد تمثل ذلك في شدَّةِ حيطتها للحفاظ على تقديم هذا الدين دون تغيير ولا تبديل فرفضت مذهب «التصوف» رفضاً مطلقاً، ورفضت مذهب «العقلانية» رفضاً مطلقاً، و«التصوف» و«العقلانية» هما مطيتان للفكر الاستشراقي يتمتع بركوبها والتنقل عليهما في كُلِّ مناحي العالم الإسلامي

= إن هذا المستشرق كابر وعاند وقلب الحقائق، وضرب بأصول البحث العلمي والموضوعية عُرض الحائط، وأنكر فضل دين الإسلام والحضارة الإسلامية على أوروبا، وكونها ما عرفت النور إلّا عن طريق أبناء المسلمين، وقد كان أسلافك في القرون الوسطى المظلمة يعيشون تخلفاً في جميع المجالات حتى جاء أبناء الغرب الجاهل آنذاك إلى الأندلس وتعلموا من أبناء المسلمين، ونهلوا من حضارتهم، وأنت أيها المستشرق الحقود تصف دين الإسلام بأنه جذام وجنون، وتلمز نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام وتحكم على أساتذة الغرب، وهم أبناء المسلمين، بإبادة الخمس منهم والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، أليس هذا هو الجهل والحمق والسفه ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

(١) انظر: «أهمية الجهاد...» (ص٤٧٤، ٥٠١، ٥٠٧).

ليصل إلى أهدافه في تغيير العقيدة والشريعة»[١].

وبهذا تمكن أعداء الإسلام من زعزعة شرائع الإسلام عند أصحابها، فخف ميزانها، وخاصة فريضة الجهاد التي أشار النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ إليه في كثير من الأحاديث ودلَّ الأمة على فضله، وحضَّ عليه، حتى أصبح من ينادي للجهاد من أبناء المسلمين، ويسعى إلى تحقيقه، ودفع الذُلِّ عن المسلمين به، يوصفون بأنهم أصوليون وصوليون، أصحاب مطامع دنيوية، يتسترون بالدين، ويستخدمونه لأجل تحقيق أغراض دنيوية، قد أصابهم داء حب الرئاسة، والعلو في الأرض، فهم يجعلون الدين وبخاصة الجهاد وسيلة للوصول إلى سُدَّة الحكم، لأجل الاستبداد ونهب الخيرات: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

يقول أحمد محرم:

ذهب العصر الذي شيبنا ... وأتى عصر الشباب الملحدين
عَيَّرونا أن عبدنا ربنا ... وحفظنا عهده في الحافظين
وأعدوها لنا رجعية ... جعلوها سُبَّة للمؤمنين
للمصلين إذا ما سجدوا ... من حديث السوء ما للصائمين
نسخ الأخلاق في شرعتهم ... أنها من تُرَّهات الجامدين
إن نقل دين يقولوا فتنة ... هاجها في مصر بعض المفسدين
فسد الأمر فهل من مصلح ... أصلحوه يا شباب المسلمين[٢]

وبهذا الطريق الذي سلكه أعداء الإسلام من المستشرقين والمنافقين، تحقق لهم ما يصبون إليه من صدِّ الأمة عن دينها ومصدر عِزِّها وعُلُوِّ شأنها فأصبح كثير من المسلمين يتخلى عن قيمه ومبادئه، ويحرص كُلَّ الحرص

---

(١) «المستشرقون...» (ص٨١).
(٢) «الاتجاهات الوطنية...» (٢/ ٣٣٠) محمد محمد حسين.

حتى لا يوصف بالأصولية أو الإرهاب، فيتخلَّى عن دينه خشية تلك الألقاب، وما يضُرُّ أهل الإسلام ـ إذا كانوا على المنهج المستقيم المبني على الكتاب والسنة، ومنهج سلف هذه الأمة ـ، كيد الأعداء فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وعداوتهم وقتالهم لأهل الإسلام باقية، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

❏ المسألة الخامسة ❏

في الأخلاق

يعتبر كثير من الناس اليوم مسألة الأخلاق قاصرة على التعامل بين المسلم وأخيه المسلم، أو بين إنسان وإنسان آخر، بينما جاء الإسلام يقرر أنَّ مسألة الخلق ليست قاصرةً على هذا فحسب، بل كُلُّ ما يأتي به المسلم من الأوامر ويجتنب من النواهي داخل في هذا المصطلح، ولأجل ذلك مدح الله نبيه ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنَّك يا محمد لعلى أدب عظيم، وذلك أدبُ القرآن الذي أَدَّبَهُ الله به، وهو الإسلام وشرائعه»(١).

وجاء عند مسلم بسنده عن عائشة، في حديث طويل، **وفيه: «.. قال سعد بن هشام: يا أُمَّ المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ قالت: ألست تقرأ القرآن، قلت: بلى، قالت: فإنَّ خلق نبي الله ﷺ كان القرآن..»**(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا الخلق العظيم الذي وصف الله به محمداً ﷺ فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً، هكذا قال

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ١٧٩).

(٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، برقم (٧٤٦)، «نووي» (ص٢٧٢).

مجاهد وغيره، وهو تأويل القرآن، **كما قالت عائشة** رضي الله عنها: **«كان خلقه القرآن»** وحقيقة المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر»(١).

ولذا يجدُ المسلم هذا المعنى الشمولي للخلق في عقائد السلف ومصنفاتهم.

يقول أبو إسماعيل الصابوني رحمه الله: «ويتواصون بقيام الليل للصلاة بعد المنام، وبصلة الأرحام على اختلاف الحالات، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والرحمة على الفقراء والمساكين والأيتام، والاهتمام بأمور المسلمين، والتعفف في المأكل والمشرب والملبس، والمنكح والمصرف والسعي في الخيرات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبدار إلى فعل الخيرات أجمع، واتقاء شرِّ عاقبة الطمع، ويتواصون بالحق والصبر»(٢).

ويقول شيخ الإسلام في آخر «العقيدة الواسطية»: ثُمَّ هم مع هذه الأصول: يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، على ما توجبه الشريعة، ويرون إقامة الحج والجهاد، والجُمع والأعياد مع الأمراء أبراراً كانوا أو فُجاراً، ويحافظون على الجماعات، ويدينون بالنصيحة للأئمة،.. ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا عند القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى **قوله** ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»**(٣).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٥٨).

(٢) «عقيدة السلف أصحاب الحديث» (ص٨٦).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب السنّة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، برقم (٤٦٨٢) (٥/٦٠)، والترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، برقم (١١٦٢) (٣/٤٦٦)، وقال: حديث حسن صحيح. وتبعه في هذا الحكم العلامة الألباني فقال: حسن صحيح. انظر: «صحيح سنن أبي داود» (٣/٨٨٦)، برقم (٣٩١٦).

ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك؛ ويأمرون ببرِّ الوالدين وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، والرفق بالمملوك، وينهون عن الفخر والخيلاء، والبغي، والاستطالة على الخلق بحقٍّ أو بغير حق؛ ويأمرون بمعالي الأخلاق، وينهون عن سفاسفها. وكُلُّ ما يقولونه، أو يفعلونه من هذا وغيره: فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة»[(١)].

أقول هذا المعنى الشامل الكامل للخلق الإسلامي قد ضعف عند المتأخرين في هذه الأمة، واختلَّ مفهومه، هذا عند أهل الإسلام، الَّذِين يدينون بشرائعه، ويمتثلون أوامره ونواهيه.

أمّا موقف المستهزئين أعداء الإسلام من الأخلاق فقد اتخذوها سخرية واستهزاءً، فمنذ أن اتَّجه العالم الإسلامي نحو الغرب، وفُتِنَ بثقافته، ومدنيَّته، وما وصل إليه من تقدم صناعي وتقني، لكنه من الناحية الخلقية قد وصل إلى درجة لا يحسدون عليها.

يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولست أنسى أنَّ أحد «الدكاترة» في التربية العائدين من أمريكا، كان يتحدث معي عن المجتمع الأمريكي، فقلت: إنَّ لهذا المجتمع مزاياه. ولكن الذي أنكره عليه هو أنه ينفي العنصر الأخلاقي من حسابه جملةً، ويعدُّه عنصراً دخيلاً على الحياة. فانتفض في حماسة وأستاذية يقول: «إذا كُنَّا سنتحدث عن الأخلاق، إذن فلنرجع إلى عيشة الخيام»»[(٢)].

فهَبَّ أقوام من هذه الأمة فتلقفوا حضارة الغرب بخيرها وشرها، فانتقل إلى المسلمين الانحلال الخلقي، والعهر والدعارة باسم التقدم والتطور تارة، وباسم علم النفس والدراسات النفسية تارة أخرى.

---

(١) «مجموع الفتاوى ـ العقيدة الواسطية» (٣/١٥٨ ـ ١٥٩).
(٢) «أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب» (ص١٧٩) د. صلاح عبد الفتاح الخالدي.

وفي المقابل يقوم أعداء الإسلام بنشر المخدِّرات وترويجها، «كالكوكائين» ومشتقاته، و«الهيروين» وغيرها كثير، صُدِّرت لديار الإسلام لكي تقضي على الشباب؛ وبالتالي يَتِمُّ للغرب السيطرة على العالم الإسلامي ومقدراته وخيراته.

يقول الدكتور محمد محمد حسين رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومع كُلِّ هذه الأدواء التي تفتك بأجسام الناس، كانت هناك أدواء تفتك بعقولهم، وتلوث كل الغذاء الثقافي الذي تتناوله الأجيال الناشئة.

فانتشرت الصور العارية في المجلات، من مجلة الهلال فنازلاً ـ أو فصاعداً إن شئت، لا أدري ـ تعرض الأوضاع المثيرة المغرية باسم الفن، فتارة هي من معرض رسّام أو مثّال، وتارة هي صورة لممثلة أو راقصة مما يسمى «نجوم» المسرح أو السينما في هذا البلد أو ذاك، . . . وتارة هي صورة لمسابقة في جمال السيقان أو الصدور أو تناسق الأجسام، أو ما يسمونه «ملكات الجمال»، وتارة هي إعلان عن قصة في إحدى دور الخيالة[1]، أو لونٍ من ألوان البضائع، إلى آخر هذه الأعذار والذرائع التي لا تَنْفَدُ ولا تبلى.

وتجاوز هذا الداء المجلات إلى أشرطة الخَيَالَة، ثُمَ اقتحم المعاهد الحكومية فدخل مدرسة الفنون الجميلة، ولكنَّه لم يدخل هذه المرة في شكل صورة أو تمثال، وإنما دخل جسماً حيّاً، فتاةً في مقتبل الشباب تقف عارية كما ولدتها أُمَّها أمام شباب مراهق، جاء من أعماق الريف الخجول أو الصعيد المحافظ بعد أن أتمَّ دراسته الثانوية، فتميل يَمنة ويَسرة وإلى أمام وإلى خلف، وتنبطح على بطنها أو ترقد على جنبها، ليتيسر لهذه الضحايا البريئة من الشباب دراستُها في كُلِّ وضع، ثُمَّ تدفع الدولة لهذه التعسة الشقية

---

(١) هي السينما. انظر: «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٣٥٤).

ثمن ما بذلته من حيائها[١]، وما استهلكته عيون الشباب المراهق من جسدها.

هل يمكن أن يكون ذلك كُلُّه إلّا صوراً متعددة لمكيدة واحدة تأتمر بالقيم الأخلاقية، وتستهدف تدمير كيان الشباب الذي يتكون من الجيل القادم»[٢].

هذا ما كانت تدعو إليه وسائل الإعلام العلمانية، لكي يصبح الممثلين والممثلات، والراقصين والراقصات، والمغنين والمغنيات؛ مثلاً يحتذى، ونجوماً تسطع في ميدان هدم الأخلاق والقيم الإسلامية السامية.

ومن أمثلة ما كان ينشر على الناس في تلك الفترة[٣] ما نشرته «مجلة الهلال»[٤] المصرية، عن مذهب العري ونشأته.

يقول الدكتور محمد محمد حسين: «إذ عرضت مذهب العراة عرضاً مغرياً يصور مجتمعهم السعيد، وما يحقق من مزايا صحية وخلقية؟! وختمت مقالها الطويل في ذلك بقولها: «هذه خلاصة موجزة لحالة جماعات العري في أوربا في هذا العصر. ومع أنَّ أنصار هذه الجماعات آخذون في الازدياد، فإننا لا نزال نعتقد أنَّ في هذه البدعة خطراً كبيراً على الآداب».

وقد كانت هذه الكلمات الثلاث الأخيرة هي كُلُّ ما قالته المجلة في استهجان هذا الفسق الهدّام الصريح، الذي يردُّ الإنسانية إلى الهمجية الأولى وإلى أحط الدركات»[٥].

---

(١) وهو ما يسمى «بدل حياء» على وزن «بدل السفر» و«بدل الخطر» في الوظائف الحكومية.
(٢) «الاتجاهات الوطنية...» (٢/٣٥٠ ـ ٣٥١).
(٣) أي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري.
(٤) عدد شهر محرم، عام (١٣٥٠هـ).
(٥) «الاتجاهات الوطنية...» (٢/٣٥١ ـ ٣٥٢).

وكان من أهداف دولة الصهاينة «اليهود» في أرض فلسطين المسلمة، إفساد المرأة وإشاعة الانحراف الجنسي، **حيث جاء في كتاب «قادة الغرب يقولون»**[1]: «حكى قادم من الضفة الغربية أن السلطات الصهيونية تدعو الشباب العربي بحملات منظمة وهادئة إلى الاختلاط باليهوديات وخصوصاً على شاطئ البحر، وتتعمّدُ اليهوديات دعوة هؤلاء الشباب إلى الزنا بهن، وإنَّ السلطات اليهودية تلاحق جميع الشباب الذين يرفضون هذه العروض، بحجة أنهم من المنتمين للحركات الفدائية.

كما أنها لا تدخل إلى الضفة الغربية إلَّا الأفلام الجنسية الخليعة جداً، وكذلك تفتح على مقربة من المعامل الكبيرة التي يعمل فيها العمال العرب الفلسطينيون دوراً للدعارة مجانية تقريباً، كُلُّ ذلك من أجل تدمير أخلاق أولئك الشباب، لضمان عدم انضمامهم إلى الحركات المقاومة في الأرض المحتلة».

وفي السنوات الأخيرة، وبالذات في مطلع القرن الرابع عشر الهجري ابتليت الأمة الإسلامية بأخطر سلاح يهدد كيانها وعقيدتها وقيمها وأخلاقها، هو سلاح الفضاء والأقمار الصناعية، ولذا نجد الكاتب «ماليز روثفن» صاحب كتاب «الإسلام في العالم» يكتب مقالاً في صحيفة «الصنداي تايمز»، **جاء فيه قوله**: «سلاح الغرب السرِّي ضد الإسلام ليس سلاح الدبابات، وإنما هو سلاح الفضاء والأقمار الصناعية...»[2].

إنَّ مصداقية قول هذا الكاتب ماثلة للعيان: «لقد أصبح الفضاء العربي ميداناً لتنافس شرس بين عشرات من قنوات التلفزيون الفضائية».

في أقل من عشر سنوات ارتفع عدد تلك القنوات إلى ما يزيد على

---

(١) (ص٨٤).
(٢) مجلة «الأسرة» (ص٣٢)، عدد ٥٠، جمادى الأولى (١٤١٨هـ).

[٥٠ قناة]، ويبشرنا رئيس مؤسسة الاتصالات الفضائية العربية «عربسات» بأنَّ العدد سيصل إلى [١٠٠ قناة] قبل عام [٢٠٠٠م].

وفي إحصائية نشرت مؤخراً عن الأطباق الفضائية اللاقطة التي تعلوا أسطح المنازل في ديار الإسلام، وهي ما يعرف بـ(الدش)، بلغ عددها في دول مجلس التعاون حوالي مليون وثلاثمائة ألف طبق، يتمتع بمشاهدتها حوالي (٤٠٪) من سكان الخليج.

وفي مصر (٥٠٠) ألف طبق يشاهد قنواتها مليون مشاهد[(١)]، ويغني عن هذه القنوات، وعن تلك الأطباق التي تعلو أسطح المنازل ـ وما أكثرها اليوم ـ تفتك بالعقائد والقيم والأخلاق الفاضلة، ما يهدد كيان هذه الأمة من البث المباشر القادم، الذي لا يحتاج إلى كلفة كالأطباق، بل يمكن مشاهدة أي قناة من قنوات العالم بمجرد تحريك مفتاح التلفاز، فينتقل المشاهد المسلم من قناة فرنسا مثلاً إلى قناة بريطانيا إلى أمريكا إلى لبنان، وهكذا دواليك بدون أي رسوم تدفع، كُلُّ هذا العرض الرخيص يبذل لأمة القرآن، والفضائل الكبيرة لا لمحبة هذه الأمة بل لأجل إفساد أخلاقها وتشويه قيمها الربانية.

وإن الأمة اليوم لتعيش وضعاً حرجاً، ومنعطفاً خطراً إن لم يتداركها الله ـ تبارك وتعالى ـ برحمته، **وصدق فيها قول نبينا ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كُلِّ أفق كما تَدَاعى الأَكَلَةُ على قصعتها»، قالوا: قلنا: يا رسول الله أَمِنْ قِلَّةٍ بنا يومئذٍ؟ قال: «أنتم يومَئذٍ كثير، ولكن تكُونون غُثاءً كغثاء السيل يَنْتَزِعُ المهابة من قلوب عدُوِّكم ويجعلُ في قلوبكم الوهن»، قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهيةُ الموت»**[(٢)].

---

(١) المصدر نفسه (ص٢٩ ـ ٣٠) عدد (٥٠) جمادى الأولى، عام (١٤١٨هـ).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٢٨/٥)، برقم (٢٢٤٥٩)، وأبو داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، برقم (٤٢٩٧) (٤/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤). =

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

يقول العلَّامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة التي يردّون بها الحق وهي لا حقيقة لها بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، أي قد تكفَّل الله بنصر دينه وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإظهار نوره في سائر الأقطار ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراهته كل ما قدروا عليه مِمَّا يتوصلون به إلى إطفاء نور الله، فإنهم مغلوبون، ومثلهم كمثل من ينفخ عين الشمس بفيه ليطفئها فلا على مرادهم حصلوا ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها.

ثُمَّ ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي الحسِّي والمعنوي، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، بالعلم الذي يهدي إلى الله، وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة، ودين الحق، أي الدين الذين يدان به، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق لا نقص فيه، ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح وراحة الأبدان، وتركوا نواهيه سلامة من الشرِّ والفساد، فما بعث به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق أكبر دليل وبرهان على صدقه وهو برهان باق ما بقي الدهر كلَّما ازداد به العاقل تفكراً ازداد به فرحاً وتبصراً، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، أي ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان، فأمَّا نفس الدين فهذا وصف ملازم له في كُلِّ وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه وصار له الظهور والقهر، وأمَّا المنتسبون إليه فإنهم إذا قاموا به واستناروا بنوره واهتدوا بهديه في مصالح دينهم ودنياهم فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بُدَّ أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه

لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا من استقرأ الأحوال والنظر في أول المسلمين وآخرهم»[١].

ومن لم يقتنع من أبناء المسلمين في العصر الحاضر بأن قوة المسلمين وعزتهم في التمسك بهذا الدين الحق، ولا يكفيه الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، فأورد له ما قال «مرماد يوك باكتول»، **حيث يقول**: «إنَّ المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم الآن بنفس السرعة التي نشروها بها سابقاً، بشرط أن يرجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول، لأنَّ هذا العالم الخاوي لا يستطيع الصمود أمام روح حضارتهم»[٢].

يقول الدكتور محمد محمد حسين رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأنا أعلم أنَّ كثيراً من الناس لا يقع منهم الدليل موقع الاقتناع إلّا إذا نُسِبَ إلى الغرب، وإلى هؤلاء أسوق بعض ما نقلته صحف لا تُتَّهَمُ عندهم بالرجعية عن علماء الغرب وهيئاته.

فمن ذلك ما نقلته «المصور»[٣] عن الأستاذ بيتريم ساروكين مدير مركز الأبحاث بجامعة «هارفارد» في كتاب له صدر أخيراً بعنوان «الثورة الجنسية» حيث يقرر أن أمريكا سائرة بسرعة إلى كارثة في الفوضوية الجنسية، كما يقرر أنها متجهة إلى الاتجاه نفسه الذي أدَّى إلى سقوط الامبراطورية الإغريقية ثُمَّ الامبراطورية الرومانية في الزمان القديم، ويقول في ذلك الصدد: «إننا محاصرون من جميع الجهات بتيار مطرد من الجنس يغرق كل

= وقال الشيخ الألباني: صحيح. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٦٨٣)، برقم (٩٥٨)، و«الجامع الصغير» (٢/ ١٣٩٥)، برقم (٣٢٥٧).

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن...» (٨/ ١١٩ ـ ١٢٠).

(٢) «قادة الغرب يقولون» (ص٧٠) لجلال العالم.

(٣) عدد (١٦٨٩) (ص٤).

غرفة من بناء ثقافتنا وكل قطاع من حياتنا العامة، وهذه الثورة تعبر بنا آخذة في تغيير حياة كُلِّ رجل وكُلِّ امرأة في أمريكا أكثر من أي ثورة أُخرى في هذا العصر...

ومن شاء المزيد فليرجع إلى تقرير لجنة الكونغرس الأمريكية لتحقيق الأحداث في أمريكا، الذي نقلته مجلة «التحرير»(١)، وهو يشير إلى ارتفاع نسبة تعاطي المخدرات بين الأحداث، وانتشار الحانات التي تقدم الخمور وكتب الجنس، وقصص الجنس وأفلام الجنس، وانتشار نوادي العراة بكثرة مخيفة على الشواطئ الشرقية خاصة.

ومن شاء فليرجع كذلك إلى تقرير اللجنة التي شكَّلها مجلس العموم البريطاني للتحقيق في «مشكلة الشذوذ الجنسي»، فانتهت من بحثها إلى اقتراح إباحته بعد الواحدة والعشرين، وقد نشرته صحيفة «الأخبار» أخيراً(٢).

وسوف يتحقق فيهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

---

(١) عدد (٢٣٤) تحت عنوان «أخلاق المجتمع الأمريكي منهارة».
(٢) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص٨٤ ـ ٨٥).



المبحث الثاني

هدم قداسة الدين وهيبته وعظمته في النفوس

إنَّ هذا الدين الذي اختاره الله سبحانه ليكون آخر الرسالات السماوية وأرسل به خاتم الأنبياء ـ عليهم جميعاً الصلاة والسلام ـ وجعل هذه الشريعة الربَّانية خير الشرائع لأنها تملك من الخصائص ما لا يوجد في شريعة سماوية قبلها، فهي صالحة لِكُلِّ زمان ومكان، وهي ثابتة وشاملة، وفيها من التوازن والعدل والتوسط ما لا يوجد في سواها، وهي قائمة على حفظ مصالح العباد في الدنيا والآخرة.

وعندما ننظر في ذلك الجيل الفريد تتملّكنا الدهشة، ونتساءل: كيف وصل إلى ما وصل إليه من المثالية في تطبيق هذا الدين وامتثال أوامره ونواهيه؟ أقول: كان لهذا أسباباً أجملها فيما يلي:

أولاً: أنَّ ذلك الجيل صدق في إيمانه، وجدَّ في أخذه بالكتاب والسنة، وصدق الجهاد في سبيل الله.

ثانياً: أنَّهُ حقق معنى الأمة الواحدة التي إذا اشتكى منها عضو تداعى له سائر الأعضاء.

ثالثاً: أنَّه حقق العدل الربّاني في الأرض سواءٌ بين أفراد ذلك المجتمع المسلم، أو مع الأعداء.

رابعاً: أنَّ ذلك الجيل امتثل أخلاقيات لا إلٰه إلا الله[1].

---

(١) انظر: «واقعنا المعاصر» (ص٣٢ ـ ٣٣) للشيخ محمد قطب.

فلمَّا توفر هذا كُلُّهُ في ذلك الرعيل الأول، أثمر ثماراً كثيرة من أعظمها أن هذا الدين كان عزيزاً منيعاً لأن المسلمين كانوا على ذلك المستوى الرفيع في إقامة هذا الدين في نفوسهم ومجتمعاتهم.

ولكن عندما ضعف أهل الإسلام، وفرطوا في دينهم الحق اتخذه أعداء الإسلام سخرية واستهزاءً، وهذا لا يعني أنه لا يوجد في ذلك الجيل من استهزأ بالدين من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، ولكن لم يكن بهذه الصورة التي نشاهدها في الوقت الحاضر، وسرعان ما يهب المسلمون وحكَّامُهُم نصرةً لدينهم، فيقام حكم الله على المستهزئين الساخرين.

واليوم ضعفت قداسة الدين وهيبته وما يجب له من التعظيم والتوقير وما يجب لله سبحانه من الإجلال والتعظيم، وما يجب لرسوله ﷺ من التعزير والتوقير، وذلك بسبب جهود أعداء الدين ـ من مشركين وأهل كتاب ومنافقين ـ وقد تكالب هؤلاء جميعاً على دين الله تعالى وطعنوا فيه، ولاكوه بألسنتهم، وعرَّضُوه للسخرية والاستهزاء.

ونجد هذا هو هدف المستشرقين عامة، **يقول المستشرق: «جب» في كتاب «وجهة الإسلام»**: كانت النتيجة الخالصة لهذه الحركة التعليمية أنها حررت ـ بقدر ما كان لها من تأثير ـ نزعة الشعوب الإسلامية من سلطان الدين دُون أن تُحِسَّ الشعوب بذلك غالباً، وهذا وحده تقريباً هو جوهر كل نزعة غربية فعَّالة في العالم الإسلامي»[1].

وفي موضع آخر يزيد هذا الهدف وضوحاً فيقول: «إبعاد سلطان الدين عن النفوس «ولأجل تحقيق هذا» تحاول الدراسات الاستشراقية الحديثة التركيز على أهمية القوانين الوضعية وتطبيقها على المسلمين بدلاً من شريعة القرآن..»[2].

---

(١) (ص٢١٧) نقلاً عن «المستشرقون» (ص١) د. عابد السفياني.
(٢) المصدر نفسه (ص١).

وقد سعت وسائل الإعلام في ديار الإسلام التي يتربع على عروشها تلامذة المستشرقين إلى هذا المطلب وهو هدم قداسة الدين وهيبته وعظمته في النفوس، ومن أمثلة ذلك ما نشرته صحيفة «كويت تايمز» ـ وقد تقدم في صور الاستهزاء في العصر الحاضر ـ من الكاركاتير الآثم عندما صور الذات الإلهية بصورة بشعة على شاشة التلفزيون في إحدى المسابقات الثقافية(١)، فيا تُرى هل يبقى بعد هذا هيبة للخالق المالك المتصرف في شؤون العالم كله، لدى المشاهدين؟ لا شك أنَّ هذا الأسلوب الماكر يهدم قداسة الدين وعقيدة المسلم في الله ـ تبارك وتعالى ـ.

وفي صورة أخرى نجد أنَّ أسماء الله تعالى الحسنى تُتَّخَذْ سخرية في فندق «هيلتون» فيزخرف بها فستان فاسقة ماجنة ليكون عرضاً للناظرين في هذا الفندق(٢)، سبحان الله عمَّا يقول الملحدون الساخرون علواً كبيراً، فأي قداسة تبقى بعد هذا لأسماء الله الحسنى التي قال عنها في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

هذا جانب يسير جدّاً مِمَّا ينشر على المسلمين عبر وسائل الإعلام بقصد هدم قداسة عقيدة المسلم في الله ـ تبارك وتعالى ـ وأسمائه الحسنى، كما قصد هؤلاء الهدّامون شخص الرسول ﷺ، ففي صحيفة المساء القاهرية عرض كاركاتير يصور ديكاً كبيراً وتحته تسع دجاجات، وكتب تحت تلك الصورة باللهجة المصرية: «أهوه ده يا سيدي محمد أفندي اللي متجوز تسعة»(٣).

فماذا يبقى في نفوس المسلمين من تعظيم وتوقير لخاتم الأنبياء ـ عليه

---

(١) انظر: مجلة «المجتمع» عدد (١١٦٣) في ٢٥ ربيع الأول (١٤١٦هـ).
(٢) انظر: مجلة «المجتمع» عدد (٤٦٧) عام (١٤٠٠هـ).
(٣) «مجموع فتاوى ومقالات...» (٦/ ٢٣٥ ـ ٢٦٤) لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز.

الصلاة والسلام ـ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦].

وقد سار أعداء الإسلام في نفس الخط ساخرين بالدين والقيم التي شرَّفنا الله تعالى بها، **فهذا محمد السعدني يتبجح ويقول**: «الدين واللغة والتقاليد ثلاثة أمراض اجتماعية»[١]، وهو يردد من حيث يشعر أو لا يشعر مقالة المستشرق «كيمون» ـ ولكن بصورة أخرى ـ **إذ يقول**: «إنَّ الديانة المحمدية جذام تفشَّى بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هي مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي...»[٢].

يكتب مثل هذا الدس والتشويه والهدم في مثل تلك الجريدة لهدف وهو طرق أسماع الشباب المولع بقراءة ما يكتب في تلك الجريدة لكي يتسنَّى لهم إضعاف الإيمان والدين في قلوب شباب المسلمين، وإذا فسد الشباب فلا رجاء في عودة الأمة إلى مجدها وعزِّها وتمكينها.

وكذلك من وسائل هدم قداسة الدين وهيبته في نفوس الأجيال ما نشرته جريدة الوطن المصرية[٣] تحت عنوان «عذاب القبر على شرائط فيديو!!»، سخرت فيه بعذاب القبر وأهوال يوم القيامة، فإذا شاهده المسلمون ضعف ذلك الأمر الغيبي في نفوسهم، وضعف بذلك الخوف عندهم فيتجرؤون على حدود الله ومحارمه.

وعندما ننظر في أدب الحداثة والحداثيين نجده يسعى لتحقيق هذا الهدم المنشود لأعداء الإسلام، فهذا كبير الحداثيين الذي عَلَّمَهُمْ الزندقة يبحث في الأدب القديم عن مثل: أبو نُواس، وعمرو بن أبي ربيعة، وسبب

---

(١) جريدة «الرياضية» عدد (١٥٣٢). وانظر: (ص٣١٥) من هذه الرسالة.

(٢) انظر: (ص٣١٦) من هذه الرسالة.

(٣) بتاريخ (٨/ ١٢/ ١٩٨٤م). وانظر: (ص٣٢٠) من هذه الرسالة.

إعجاب الحداثيين بشعرهما فيقول: «إن الانتهاك ـ أي تدنيس المقدسات ـ هو ما يجذبنا في شعرهما والعلة في هذا الجذب؛ أننا لا شعورياً نحارب كُلَّ ما يحول دون تفتح الإنسان، فالإنسان من هذه الزاوية ثوري بالفطرة، الإنسان حيوان ثوري»[(١)].

ويتحدث حداثي آخر وهو عبد الحميد جيده عن روافد الحداثة فيقول: «الرافد الصوفي صُبَّ في دائرة الشعر العربي المعاصر، ولوَّنه بلونه الخاص، إن النفري والحلَّاج، وذا النون، وابن عربي، وغيرهم، أَثَّرُوا في أدونيس والسيّاب والبياتي ونازك الملائكة، وصلاح عبد الصبور، ومحمد عفيفي مطر، ولذا فإن القيم التي يضفيها الشعر العربي الجديد إنّما يستمدُّها من التراث الصوفي»[(٢)]. فماذا يبقى إذن من عظمة لهذا الدين في النفوس بعد وصفه بالجذام الذي إذا انتشر في الجسد فتك به، ووصفه كذلك بأنه مرض اجتماعي يجب القضاء عليه، لا بوسائل الطب الحديث ولكن بوسائل الأعداء عبر مجالات كثيرة في المجتمع المسلم فتارة عن طريق الإعلام، وتارة عن طريق التعليم، وأخرى عن طريق النظريات التي يسمونها علمية، وهي في الحقيقة نظريات زندقة وإلحاد وفجور وعهر.

ومهما حاول المفسدون في الأرض القضاء على الدين سواء في النفوس أو في واقع المجتمع، فلن يستطيعوا بإذن الله تعالى لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾، ومن لوازم حفظ هذا الدين حفظ عقيدته وشريعته، وقيمه وأخلاقه.

ومن لوازمه أيضاً حفظ الأمة التي تقوم به وهي أمة الإسلام الحقيقية: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

(١) «الحداثة في ميزان الإسلام» (ص٢٨) للشيخ عوض القرني.
(٢) المصدر السابق (ص٢٩).



زوال الأمم والدُّوَل

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: زوال الأمم.

المطلب الثاني: زوال الدُّوَلْ.

* * * * *

❑ المطلب الأول ❑

زوال الأمم

سبق أن تحدثت في الباب الثاني «صور الاستهزاء» وفي الفصل الأول منه عن «صور الاستهزاء في الأمم الماضية» وتبين هناك أنَّ هذا الإثم الكبير أمر مشترك بين جميع الأمم المكذبة لرسلهم ـ إلا من رحم ربك ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: ١٠ ـ ١١]، وقال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ [الزخرف: ٦ ـ ٧].

وتعرضت في الفصل الأول من هذا الباب إلى العقوبات الدنيوية التي حاقت بهؤلاء المستهزئين المكذبين بما لا مزيد عليه، إلا ما يتعلق بهذا

الموضع الذي سوف أتحدث فيه عن أثر عظيم من آثار الاستهزاء على المجتمع وهو تعرضُه للزوال كما حصل في تاريخ البشرية لأمم ماضية.

قال شيخ الإسلام ـ عليه رحمة الله ـ: «وقد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم؛ كقوم نوح؛ وعاد؛ وثمود؛ وقوم لوط؛ وأصحاب مدين؛ وقوم فرعون: في الدنيا، وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة؛ ولهذا قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ ...﴾ [القلم: ٣٣]، وقال: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١]... ولهذا يذكر الله في عامة سور الإنذار ما عاقب به أهل السيئات في الدنيا وما أعدَّه لهم في الآخرة، وقد يذكر في السورة وعد الآخرة فقط؛ إذ عذاب الآخرة أعظم؛ وثوابها أعظم؛ وهي دار القرار»(١).

وسأقف هنا مع نماذج من عقوبة الله تعالى لبعض الأمم بالزوال بالكلية لعلمه سبحانه بأنهم لا خير فيهم، ولا ترجى هدايتهم واستجابتهم لأنبيائهم، ومن ذلك ما حدث لقوم نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندما قابلوا دعوة نبيهم «نوح» بالتكذيب والاستهزاء، قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ ...﴾ [هود: ٣٨]، أي يستهزؤون به استبعاداً لوقوع ما توعدهم به»(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣٩/٢٨).
(٢) «قصص الأنبياء» (ص١٠٠) لابن كثير.

فكان من رحمة الله تعالى أنْ نجّى نبيَّهُ ومن آمن معه، وأهلك أعداءه وأعداء رسله، وكتب عليهم الزوال لأنهم لا يستحقون البقاء على هذه الأرض؛ فلا صلاح فيهم لعمارتها بذكر الله وعبادته، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٣٩ ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: ٣٧]، وقد بيّن الله ـ جلَّ وعلا ـ في موضع آخر من كتابه تفصيل هذا الغرق فقال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ١١ ـ ١٣][(١)].

وعقوبة الغرق هذه أزال الله بها ملك فرعون وقومه مستكبرين عن دعوة نبي الله وكليمه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وذلك أنهم تمادوا في الباطل، وتكذيب الرسول والاستهزاء به، ولم ينفعهم ما أقام الله لهم من «الحجج العظيمة القاهرة، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار، وحيَّرَ العقول، وهم من ذلك لا يرعوون ولا ينتهون، ولا ينزعون ولا يرجعون»[(٢)].

وعندما أيقن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنَّ فرعون وقومه لا خير فيهم، ولا يريدون الهداية، دعا عليه وعلى قومه غضباً لله تعالى، «لتكبره عن اتباع الحق، وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده، واستمراره على الباطل، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي، والبرهان

---

(١) انظر مثلاً: «قصص الأنبياء» (ص٨٣ ـ ١١٦) لابن كثير ففيه تفصيلات قصة نوح مع قومه، و«سنّة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم» (ص١٢٥ ـ ١٢٩) عبد السلام الشريف.

(٢) «قصص الأنبياء» (ص٤٣٥) لابن كثير.

القطعي»[١]. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٨ ـ ٨٩].

ثمَّ خرج نبيُّ الله موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن آمن معه من بني إسرائيل، وكان معه «أخوه هارون، ويوشع بن نون، وهو يومئذٍ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبَّادهم الكبار، وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون عليهما السلام... ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون...»[٢]، قال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٨].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾: «أي في إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد، آية عظيمة، وبرهان قاطع في قدرته تعالى العظيمة، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة، والمناهج المستقيمة»[٣].

---

(١) المصدر نفسه (ص٤٣٧).
(٢) المصدر نفسه (ص٤٣٩ ـ ٤٤٠).
(٣) المصدر نفسه (ص٤٤٢).

فاختار الأشقياء ـ ويعلمهم يشقون ـ البوار والزوال، على البقاء في مصر، تلك البلاد التي جاء وصفها في كتاب الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٧].

فمن سكن الديار بعد أهلها؟ وماذا كان مصير ذلك المقام الرفيع، والجنات والعيون؟

يخبرنا ـ تبارك وتعالى ـ عنها فيقول: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ۝٢٩﴾ [الدخان: ٢٨ ـ ٢٩].

هذا كان نوع من عقاب الله تعالى لأُمَم عتت عن أمر ربها، وقابلت الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بالتكذيب والاستهزاء، والسخرية والتَّنقُّص، فأخذهم الله ﷻ أخذ عزيز مقتدر، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

❑ المطلب الثاني ❑

زوال الدُّول

يرى ابن خلدون(١) ـ من دراسته للتأريخ ـ أنَّ هناك «سُنّة» تدول الدول بمقتضاها، هي سنة «الشيخوخة». فالدول في رأيه تولد ضعيفة ثمَّ تقوى ويشتدّ عودها وتعظم سطوتها، ثمَّ تهرم كما يهرم الفرد، فتذبلُ مَلَكَاتُها وتتلاشى طاقاتها، فتصير إلى الزوال، ويردد المؤرِّخ الإنجليزي المعاصر «توينبي» ذات الفكرة ناقلاً عن ابن خلدون(٢).

---

(١) انظر: «المقدمة» (ص١٦ ـ ١٧٠).

(٢) انظر: «واقعنا المعاصر» (ص١١٤) للشيخ محمد قطب.

قد يكون هذا الذي ذهب إليه ابن خلدون صحيحاً بالنسبة للدول الجاهلية التي تقوم على مقومات بشرية كالعرق واللون واللسان ونحوها، أمَّا الدول التي تقوم وتنشأ على أسس ومقومات شرعية ربَّانيَّةٍ، فالأمر فيها مختلف تماماً؛ إذ تجري عليها سنّة أخرى تختلف عن «سنّة الشيخوخة» وهي التي أوضحها الله ـ تبارك وتعالى ـ في كتابه العزيز، فقال: ﴿...وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، فيوم تنحرف الدول عن الأسس الصحيحة التي تقوم على أساس الدين والعقيدة، ويَدِبُّ فيها داء الترف، ويتسلط عليها المترفون: الذين يجرون الدولة والأمة إلى الزوال؛ بإشاعة الفساد في الأرض التي طهرها الله ببعثة الرسل وإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال القاشاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ لكلِّ شيء في الدنيا زوالاً، وزواله بحصول استعداد يقتضي ذلك. وكما أنَّ زوال البدن بزوال الاعتدال، وحصول انحراف يُبْعِدُهُ عن بقائه وثباته، فكذلك هلاك المدينة وزوالها بحدوث انحراف فيها عن الحياة المستقيمة التي هي صراط الله وهي الشريعة الحافظة للنظام، فإذا جاء وقت إهلاك قرية، فلا بُدَّ من استحقاقها للهلاك، وذلك بالفسق والخروج من طاعة الله. فلما تعلقت إرادته بإهلاكها، تقدمه أولاً بالضرورة فسق مترفيها من أصحاب الترف والتنعُّم بطراً وأشراً بنعمة الله، واستعمالاً لها فيما لا ينبغي. وذلك بأمر من الله وقدرٍ منه، لشقاوة كانت تلزم استعداداتهم. وحينئذٍ وجب إهلاكهم»[1].

وقد لحظ هذا الإمام ابن القيم ـ عليه رحمة الله ـ وهو يتحدث عن دخول علوم «المعطلة» على بني إسرائيل، وهذه الأمة ـ فكانت ضمن أسباب

---

(١) «محاسن التأويل» (٤/٥٨١). وانظر: «السنن الإلهية» (ص١٨٧) د. عبد الكريم زيدان.

الزوال للدول ـ فقال: «ثمَّ استمرَّ الأمر على عهد نبوة موسى كليم الرحمٰن، على التوحيد وإثبات الصفات، وتكليم الله لعبده موسى تكليماً، إلى أن تُوُفِّي موسى عليه السلام ودخل الداخل على بني إسرائيل، ورفع التعطيلُ رأسه بينهم، وأقبلوا على علوم المعطلة، أعداء موسى عليه السلام وقدموها على نصوص التوراة، فسلط الله تعالى عليهم من أزال ملكهم، وشرَّدهم من أوطانهم، وسبَى ذراريهم، كما هي عادته سبحانه وسُنَّتُه في عباده إذا أعرضوا عن الوَحْي، وتعوَّضوا عنه بكلام الملاحدة والمعطلة من الفلاسفة وغيرهم، كما سلَّط النصارى على بلاد المغرب لمَّا ظهرت فيها الفلسفة والمنطق، واشتغلوا بها، فاستولت النصارى على أكثر بلادهم، وأصاروهم رعيَّة لهم. وكذلك لمَّا ظهر ذلك ببلاد الشرق، سلَّط عليهم عساكر التتار، فأبادوا أكثر البلاد الشرقية، واستولوا عليها. وكذلك في أواخر المائة الثالثة، وأول الرابعة، لمَّا اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الإلحاد سَلَّط عليهم القرامطة الباطنية، فكسروا عسكر الخليفة عِدَّة مرات، واستولوا على الحاجِّ، واستعرضوهم قتلاً وأسراً، واشتدَّت شوكتهم، واتُّهم بموافقتهم في الباطن كثير من الأعيان، من الوزراء والكتَّاب، والأدباء وغيرهم، واستولى أهل دعوتهم على بلاد المغرب، واستقرت دار مملكتهم بمصر(١)، وبنيت في أيامهم القاهرة، واستولوا على الشام والحجاز واليمن والمغرب، وخُطِبَ لهم على منبر بغداد»(٢).

وجاء في شعر بعض المتكلمين في هذا المعنى قوله:

فكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتِها ... رجالٌ فزالوا والجبال جبال(٣)

---

(١) وهم العبيديون المدعون كذباً وزوراً أنهم فاطميون، وحتى لو كانوا كذلك فهل يغني عنهم ما ارتكبوه من كفر وضلال.

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/٢٦٩ ـ ٢٧٠).

(٣) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٠٨).

وقد أزال الله دولة الأكاسرة بسبب استهزاء «كسرى» ملكهم، برسول الله ﷺ.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كتب النبيُّ ﷺ إلى كسرى وقيصر، وكلاهما لم يُسْلِمْ[1] لكن قيصر أكرم كتابَ النبي ﷺ وأكرم رسوله، فثبت ملكه، فيقال: إنَّ الملك باقٍ في ذريته إلى اليوم، وكسرى مزَّق كتاب رسول الله ﷺ، واستهزأ برسولِ الله ﷺ فقتله الله بعد قليل، ومزَّق ملكه كُلَّ ممزق، ولم يبق للأكاسرة مُلكٌ، وهذا ـ والله أعلم ـ تحقيق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣]، فكُلُّ من شَنأه وأبغضه وعاداه فإنَّ الله يقطع دابره، ويمحق عينه وأثره»[2].

فهذا الأمر: وهو زوال الدول بسبب الاستهزاء بالله تعالى ورسوله ﷺ ودين الإسلام، أمره ظاهر للعيان، إذ لا خير في أمة تبقى ودينها منتهك مستهان، وقد كان المسلمون زمن شيخ الإسلام ـ عليه رحمة الله ـ يتباشرون بالنصر على الأعداء في حالة استعصاء الحصون والقلاع ـ إذا سمعوا الأعداء يقعون في عرض المصطفى ﷺ لعلمهم أنَّ هذا الأمر ـ وهو الاستهزاء والتنقص ـ له أثر كبير في زوال تلك القلاع والمدائن، فينقل ابن تيمية عن أهل العلم والخبرة قولهم: «إنْ كُنّا لنتباشر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه ـ أي: الرسول ـ مع امتلاء القلوب غيظاً عليهم بما قالوه فيه»[3].

---

(١) تقدم ذكره (ص٢٥٥).

(٢) «الصارم المسلول» (ص١٧٢).

(٣) انظر: «الصارم المسلول» (ص١٢٣) وهذه التجارب زمن شيخ الإسلام حدثت مع أهل المشرق والمغرب، مِمَّا يدُلُّ على شهرتها وكثرتها عند المسلمين.




الفصل الثالث

أثر الاستهزاء على الدعوة الإسلامية

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: الدعوة إلى الله تعالى أهميتها وحكمها.

المبحث الأول: لبس الحق بالباطل.

المبحث الثاني: تنفير الناس من الدين وصدِّهم عنه.

المبحث الثالث: إعاقة مسيرة الدعوة الإسلامية.




❑ التمهيد ❑

الدعوة إلى الله تعالى أهميتها وحكمها

«الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشرّه، والدعوة إلى أن يَعْبُدَ العبد ربه كأنّه يراه»(١).

وقد عُنِيَ القرآن الكريم عناية كبيرة بأمر الدعوة إلى الله تعالى وتعليم الناس ما يجب عليهم من فروض الأعيان كالتوحيد، وأمور الصلاة والصوم، والزكاة لمن تجب عليه وكذلك الحج، وأوجب على طلبة العلم والعلماء ما لا يجب على العامة، فإذا قامت الأمة بهذا الواجب تعلُّماً وتَعْلِيماً، وعرفت الأمة ـ رجالاً ونساءً ـ ما يجب فعله، وما يجب تركه، يسعد المجتمع المسلم، ويترابط حتى يصبح كالجسد والواحد، ويظهر الخير والصلاح، ويقل الشر والفساد كما حصل للمجتمع المسلم الأول الذي قام في المدينة النبوية، وكان يرعاه ويقوم على مصالحه نبي الرحمة محمد بن عبد الله ﷺ وقام به خُلَفَاؤه من بعده، وبقية الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ وتعاقبت على ذلك الأجيال من حملة راية العلم والسنة عبر تاريخ هذه الأمة الطويل حتى يوم الناس هذا، مصداقاً لحديث الطائفة المنصورة الذي رواه تسعة عشرة صحابياً، فمن تلك الروايات **قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتّى يأتي**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/١٥٧ ـ ١٥٨) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

أمر الله وهم كذلك»[١].

والحكمة في بقاء هذه الطائفة التي تملك من الخصائص ما لا يوجد في غيرها من الطوائف، هي أنَّ الله سبحانه لا يمكن أن يُعْبد كما أَمَرْ إلّا عن طريق العلم الموروث عن النبوة، وهذا لا يوجد إلّا في تلك الطائفة لِمَا ورد في رواية معاوية لحديث الطائفة المنصورة، **عن النبي ﷺ قال: «لا يزال من أُمَّتِي أُمَّةٌ قائمة بأمر الله، ما يضرهم من كذَّبهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»**[٢].

فالمتأمل لحديث الطائفة المنصورة يجد في كثير من رواياته وصف الطائفة بأنها تقاتل في سبيل الله، وفي أخرى قائمة بأمر الله، وهذا له دلالة واضحة، وهي أنه قد يَمُرُّ على الأمة فتراتٌ يُعَطَّلُ فيها الجهاد في سبيل الله، فتتجه هذه الطائفة إلى نوع آخر من الدعوة إلى الله، وإلى رسوله عن طريق نشر السنة، ومحاربة البدعة، ومهمَّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. مع عدم إغفالها لِمُهِمَّة الجهاد وفضله، بل هي إذا قامت بواجب الدعوة في جميع المجالات لا شك أن ثمرة هذه الدعوة، عودة الأمة إلى دينها، ومنه الجهاد في سبيل الله ﷻ.

وهنا حقيقة يجب أن يعيها الدعاة إلى الله تعالى في كُلِّ مكان، وهي: «أنَّ الداعية، داعية إلى الله (وداعياً إلى الله)، لا إلى دنيا، ولا إلى مجد، ولا إلى عِزَّة قومه، ولا إلى عصبية جاهلية، ولا إلى مغنم، ولا إلى سلطان أو جاه، ولكن داعياً إلى الله في طريق واحد يصل إلى الله بإذنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق»، برقم (١٩٢٠)، «نووي» (١٣/٧٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ ...﴾، برقم (٧٤٦٠)، «فتح» (١٣/٤٥١)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين...»، برقم (١٠٣٧)، «نووي» (١٣/٧١).

مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦]، فالدعوة: دعوة إلى الله.. دعوة خالصة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، دعوة إلى الله لا لقومية ولا لعصبية، ولا لأرض ولا لراية، لا لمصلحة ولا لمغنم، ولا لتملق هوى، ولا لتحقيق شهوة، ومن شاء أن يتبع هذه الدعوة على تجردها فليتبعها، ومن أراد غيرها معها فليس هذا هو الطريق... ومن يعتنقوها ليحققوا بها الأطماع، وليتجروا بها في سوق الدعوات تشترى منهم وتُباع. إنَّما تقوم الدعوات بالقلوب التي تتجه إلى الله خالصة له، لا تبغي جاهاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً، إنما تبغي وجهه وترجو رضاه.

ويجب أن لا نغفل عن هذه الحقيقة البسيطة التي كثيراً ما ننساها وهي أنَّ الناس هم الناس والدعوة هي الدعوة والمعركة هي المعركة. إنها أولاً وقبل كُلِّ شيء معركة مع الضعف والنقص والشح والحرص في داخل النفس. ثم هي معركة مع الشر والباطل، والضلال والطغيان في واقع الحياة، والمعركة بطرفيها لا بُدّ من خوضها»[(١)]. لَعَل بهذا تتضح أهمية الدعوة إلى الله تعالى وأن صلاح البشرية مرتبط بقيامها تُرْشِدُ السائرين إلى الله تعالى على وفق منهج الرسول ﷺ قولاً وعملاً واعتقاداً.

وهنا تجدر الإشارة إلى حكم الدعوة إلى الله تعالى، وهل هي فرض عين على جميع الأمة، أو هي من فروض الكفايات إذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين؟

فالجواب: أن الدعوة إلى الله تعالى واجبة على الأمة، ولكنها من فروض الكفايات.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلك مِمَّا أوجبه الله على المؤمنين، فهذا واجب على الكفاية منهم»[(٢)]. **وقال في موضع آخر**:

---

(١) «طريق الدعوة في ظلال القرآن» (ص١٤٨) جمع وإعداد أحمد فائز.

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٥١).

«وقد تبيَّن بهذا أنَّ الدعوة إلى الله تجب على كُلِّ مسلم؛ لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره»، ثمَّ ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثمَّ قال: «. . . وقد تبَّين أنهما واجبان على كُلِّ فرد من أفراد المسلمين، وجوب فرض الكفاية، لا وجوب فرض الأعيان، كالصلوات الخمس، بل كالجهاد»[1].

والأدلة على هذا كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]، **ومنها:** قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومنها: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ . .﴾ [يوسف: ١٠٨].

يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز معلِّقاً على هذه النصوص: «فبيَّن سبحانه أنَّ أتباع الرسول ﷺ هم الدعاة إلى الله وهم أهل البصائر، والواجب كما هو معلوم هو اتباعه والسير على منهاجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، وصرَّح العلماء أنَّ الدعوة إلى الله ﷻ فرض كفاية بالنسبة إلى الأقطار التي يقوم فيها الدعاة، فإن كُلَّ قُطرٍ وكُلَّ إقليم يحتاج إلى الدعوة وإلى النشاط فيها، فهي فرض كفاية إذا قام بها من يكفي سقط عن الباقين ذلك الواجب، وصارت الدعوة في حق الباقين سنة مؤكدة وعملاً صالحاً جليلاً.

وإذا لم يقم أهل الإقليم أو أهل القطر المعين بالدعوة على التمام صار الإثْمُ عاماً، وصار الواجب على الجميع، وعلى كُلِّ إنسان أن يقوم بالدعوة

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/١٦٦ ـ ١٦٧).

حسب طاقته وإمكانه، أمَّا بالنظر إلى عموم البلاد فالواجب أن يوجد طائفة منتصبة تقوم بالدعوة إلى الله ـ جَلّ وعلا ـ في أرجاء المعمورة تبلغ رسالات الله، وتبيّن أمر الله ﷻ بالطرق الممكنة، فإن الرسول ﷺ قد بعث الدعاة وأرسل الكتب إلى الناس وإلى الملوك والرؤساء ودعاهم إلى الله ﷻ»(١).

وهذا لأنّ البشرية في حاجة ماسّةٍ إلى تعاليم الرسالة السماوية، فحاجتها إليها أشد من حاجتها إلى الطعام والشراب، وحاجة البدن إلى تعاليم الإسلام أشدُّ من حاجته إلى الروح، فهي روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور(٢)، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالواجب على الدعاة إلى الله تعالى والجماعات الإسلامية التي تدعو إلى الله تعالى الدعوة إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ دعوة كاملة وشاملة، في العقائد والشرائع والأخلاق والآداب، ونحوها، لا دعوة إلى فضائل الأعمال مع التقصير في غيرها، ولا دعوة إلى الحاكمية وإقامة الدولة المسلمة ـ حسب زعمهم ـ دون بقية فرائض الدين، وخاصة ما يتعلق بالإيمان والاعتقاد، فالدعوة المقصود منها هداية الخلق وتعبيدهم لله تعالى، وإقامة الحجة على الناس، وإقامة منهج الله ـ تبارك وتعالى ـ في أرضه، اللهم اسلك بنا سبيل الصالحين من الأنبياء والحواريين والأصحاب، واحشرنا في زمرتهم وتحت لوائهم، واجمعنا بهم في دار كرامتك: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

---

(١) «الدعوة إلى الله ـ سبحانه ـ وأخلاق الدُّعاة» (ص١٢ ـ ١٣).
(٢) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٦٩) لابن القيم.

المبحث الأول

لبس الحق بالباطل قديماً وحديثاً

إن من آثار الاستهزاء والسخرية بالدين على الدعوة الإسلامية، لبس الحق بالباطل، فيختلط على المسلمين فلا يفرقون بين الحق والباطل، أو يعتقدون الباطل حقاً وهذا أشد أنواع لبس الحق بالباطل.

ولكي نعرف حقيقة اللبس والمقصود به فلا بد من بيان معناه في لسان العرب أولاً.

يقول ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: «واللبس: اختلاط الأمر. لبس عليه الأمر يلبسه لبساً فالتبس إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته... والتلبيس كالتدليس والتخليط، شدد للمبالغة.. وربما شدد للتكثير»[١].

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأصل اللبس: ستر الشيء، ويقال ذلك في المعاني، **ويقال**: لبست عليه أمره[٢]. **وقال ابن القيم**: «لبس الحق بالباطل وهو خلطه به بحيث لا يتميز الحق من الباطل»[٣].

وقال الطاهر ابن عاشور: «واللبس خلط بين متشابهات في الصفات يعسر معه التمييز أو يتعذر..»[٤].

---

(١) «لسان العرب» (٦/ ٢٠٤) مادة (ل ب س). وانظر: «جامع البيان» (١/ ٥٦٦ - ٥٦٧) لابن جرير «شاكر».

(٢) «المفردات» (ص٧٣٥) مادة (ل ب س).

(٣) «هداية الحيارى» (ص١٠١).

(٤) «التحرير والتنوير» (١/ ٤٧٠).

وجاء في التنزيل ما يشير إلى هذا المعنى، خلط الحق بالباطل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧١].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عند آية البقرة: «فإنه من لبس الحق بالباطل فغطاه به فغلط به لزم أن يكتم الحق الذي تبين أنه باطل إذ لو بينه زال الباطل الذي لبس به الحق»[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فنهى عن لبس الحق بالباطل وكتمانه. ولبسه به خلطه به حتى يلتبس به أحدهما بالآخر، ومنه التلبيس، هو التدليس والفحش الذي يكون باطنه خلاف ظاهره، فكذلك الحق إذا لبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق، وتكلم بلفظ له معنيان: معنى صحيح ومعنى باطل، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ومراده الباطل، فهذا من الإجمال في اللفظ»[٢].

وعند التأمل في مسألة «لبس الحق بالباطل» يمكن إرجاع أسبابه إلى: «فتنة الشبهات» و«فتنة الشهوات».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والفتنة نوعان: فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات، وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما.

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة، وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد، وحصول الهوى، فهناك الفتنة العظمى، والمصيبة الكبرى، فقل ما شئت في ضلال سيء القصد الحاكم عليه الهوى لا الهدى،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ١٩٤). وانظر: «هداية الحيارى» (ص١٠١ ـ ١٠٢) لابن القيم، و«إظهار الحق» (٤/ ١٠٨٣ ـ ١٠٨٤) لرحمة الله الهندي.
(٢) «الصواعق المرسلة» (٣/ ٩٢٦).

مع ضعف بصيرته وقلة علمه بما بعث الله به رسوله.. وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع، على حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال».

إلى أن قال: «وأما النوع الثاني من الفتنة: ففتنة الشهوات. وقد جمع الله سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟...﴾ [التوبة: ٦٩]، أي تمتعوا بنصيبكم من الدنيا وشهواتها، والخلاق هو النصيب المقدر، فهذا الخوض بالباطل هو الشبهات.

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصلُ به فساد القلوب والأديان، من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل، لأنَّ فساد الدين إمّا أنْ يكون باعتقاد الباطل والتكلُّمِ به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح.

فالأول: هو البدعُ وما والاها، **والثاني:** فِسْقُ الأعمال.

فالأول: فسادٌ من جهة الشبهات، **والثاني:** من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: «احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دُنيا أَعْمَتْهُ دُنياه».

وكانوا يقولون: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإنّ فتنتهما فتنةٌ لكُلِّ مفتون»....»[1].

فظهور التلبيس من أهل العلم أعظم خطراً على الدين، وأَشَدُّ ضرراً على المسلمين: «وكذلك كذبهم في العلم من أعظم الظلم. وكذلك إظهارهم للمعاصي والبدع التي تمنع الثقة بأقوالهم، وتصرف القلوب عن اتباعهم،

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦٥ ـ ١٦٧).

وتقتضي متابعة الناس لهم فيها؛ هي من أعظم الظلم، ويستحقون من الذمِّ والعقوبة عليها ما لا يستحقُّه من أظهر الكذب والمعاصي والبدع من غيرهم؛ لأنَّ إظهار غير العالم ـ وإن كان فيه نوع ضرر ـ فليس هو مثل العالم في الضرر الذي يمنع ظهور الحق، ويوجب ظهور الباطل؛ فإنَّ إظهار هؤلاء للفجور والبدع بمنزلة إعراض المقاتلة عن الجهاد، ودفع العدو؛ ليس هو مثل إعراض آحاد المقاتلة؛ لما في ذلك من الضرر العظيم على المسلمين»(١).

○ وسائل لبس الحق بالباطل:

أمّا الحديث عن وسائل لبس الحق بالباطل فيمكن إجماله في ثلاثة أمور موضِّحاً كل واحد من هذه الوسائل مع ذكر صورٍ ونماذج قديماً وحديثاً من لبس الحق بالباطل، وخلطه به، وكونه أثراً من آثار الاستهزاء على الدعوة الإسلامية، فمن ذلك ما يلي:

أولاً: كتمان الحقِّ وإخفاؤه، مع إظهار الباطل وإعلانه.

هذا الأمر ظهر قديماً في الأمم السابقة، فهذا فرعون عندما أرسل الله ﷻ له موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كذَّبه وسخر به، واتهمه بالسحر والشعوذة، وأنَّ الذي جاء به ما هو إلّا تدليس وتلبيس، أراد موسى أن يبدِّل به ديانة قومه التي زرعها فيهم فرعون عندما ادعى لنفسه الربوبية فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، فاسْتَخَفَّ قومه بهذا الزعم الكاذب، الذي ادعى فيه أنه رَبُّ العالمين الذي أتقن، العوالم، وموسى مفتري!! يريد تبديل الدين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٦﴾ [غافر: ٢٦].

---

(١) «مجموع الفتاوى ـ الحسبة» (٢٨/١٨٨) لابن تيمية.

وحقيقة أمر هذا المفتري قد بيّنها الله ـ تبارك وتعالى ـ وكشف زيف دعواه فقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤] ففي قول فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦]، استخفاف بموسى عليه السلام أو تنقُّصٌ بالله ـ تبارك وتعالى ـ وأنَّهُ ـ في نظر فرعون ـ لا يقدر على نصرة موسى ودفع القتل عنه.

وهذا الأسلوب التنفيري الذي سلكه فرعون لينفِّر الناس عن دعوة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو نفسه ما تمارسه وسائل التضليل ـ الإعلام ـ في العالم؛ بوصفها الدعوات الإسلامية[1] في العالم الإسلامي بأنهم أُصُوليُّون وصوليون متطرفون ـ غلاة ـ أصحاب مطامع دنيوية، يريدون الوصول إلى الرياسة، وأصابهم داء حب السلطة والرياسة، يريدون الخروج على الأنظمة القائمة، ليبدلوا دين الناس ـ الدين الذي تسمح به العلمانية على كره المتمثل في الشعائر التعبدية ـ وما اعتادوه من أوضاع اقتصادية وسياسية واجتماعية وإعلامية وأدبية، ونحوها، كل ذلك تشويهاً لصورة الدعوة الإسلامية والدعاة إلى الله تعالى استخفافاً بالدعوة والدعاة وحسداً من أعداء الإسلام قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

ثمَّ أرشد الله ـ تبارك وتعالى ـ أهل الحق المفترى عليهم الذين يوصفون بأقبح الأوصاف، وأشدِّها أثراً عليهم، مع ما في كلامهم السابق

---

(١) أقول: ليس كُلُّ من رفع راية الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ يكون على منهج سلفي صحيح، بل هناك من يدعو إلى الله ـ تعالى ـ عن طريق مذهب الرافضة، وآخرون عن طريق مناهج علم الكلام المذموم، وآخرون عن طريق التصوف والمذاهب الهدامة كالإسماعيلية، والنصيرية والدروز ونحوهم، فهؤلاء يصدق عليهم ذلك، أما أصحاب دعوة التوحيد، والتجديد الصحيح فهم بُرآء منها براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام.

من شتم وتَنَقُّصٍ واستخفاف، بأنْ يلفت أنظارهم إلى الزاد الذي يكون بعون الله تعالى من وسائل ثباتهم، على الحق فيقول ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة: ١١٠].

وبقوله تعالى: ﴿... وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وستكون عاقبة هذا الصبر ـ الذي يقترن به عمل جادٌّ لنشر العلم والدين ـ نصراً لأولياء الله المتقين، وخذلاناً لأعدائه المفترين، قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ومن صور كتمان الحق وإخفاؤه: ما فعلته يهود المدينة بعد الهجرة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ـ **أنَّهُ قال: «إنّ اليهود جاءُوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أنَّ رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إنَّ فيها الرَّجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرَّجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرَّجم، قالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرَّجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فَرُجِمَا، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة»**[١].

وجاء في رواية مسلم بأوضح من هذا، بزياداتٍ توضح خبث اليهود ومكرهم، وجرأتهم على كتمان الحق، فعن البراء بن عازب قال: مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمّماً[٢] مجلوداً فدعاهم ﷺ فقال: **«هكذا تجدون حد**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٣٠) من هذه الرسالة.

(٢) أي: يسودون وجهه بالفحم. انظر: «شرح صحيح مسلم» (١١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

الزاني في كتابكم»، قالوا: نعم. فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «**أنشدك بالله الذي أنزل التوارة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟**»، قال: لا ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم؛ ولكنَّه كثر في أشرافنا فكنَّا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. **فقال رسول الله ﷺ**: «**اللهم إني أول من أحيا أمرك إذا أماتوه**»، فأمر به فرجم فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١]، يقول: ائتوا محمداً ـ ﷺ ـ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ . . . وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . . . وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٧]، في الكفَّار كلها»[1]، ففعلهم هذا ما صدر عنهم إلا لأنهم يحتقرون الدين الذي أنزله الله تعالى على موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإخفائه ولم يكونوا معظمين له كما كان يعظِّمُه موسى ومن آمن به من الحواريين. ولذلك انتهكوا حرمة هذا الدين بالتبديل والاستخفاف، وكتمان النور الذي جاء من عند الله ـ تبارك وتعالى ـ.

ومن صور كتمان الحق التي مارستها يهود في المدينة: أنَّهم كانوا يخفون نبوة محمد ﷺ، قال الشيخ عبد الرحمٰن الدوسري رَحِمَهُ اللهُ: «وقد كان من تلبيس أحبار اليهود أنهم يلبسون الأمر على العامة في شأن محمد ﷺ بأنَّه من الكذابين استناداً لما جاء في التوارة من نبوغ أنبياء كذَّابين، ومِنْ بَعْثِ رسول من بني إسماعيل موصوف بأوصافه الحسية الصحيحة التي

(١) في الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، برقم (١٧٠٠)، «نووي» (١١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

يعرفونها، فهم يكتمون ما في التوارة من الحق وهو الإخبار ببعثة محمد ﷺ ويزعمون أنَّهُ من الكذابين الذين جرى التحذير عنهم في التوراة، وهذا من أشنع أنواع الخلط والتلبيس. ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]، فهم يكتمون الحق بطريقة الخلط الذي يحصل فيه الالتباس.

وبعضهم يلبس الحق بطريق النفاق، فيظهر الإيمان بمحمد ﷺ ولكن يزعم أنَّهُ نبيُّ العرب خاصة تلبيساً منه على العامة لئلا يشكوا في التوراة.. فزعمهم أنَّ محمداً ﷺ مبعوث إلى غيرهم، وهو مبعوث إلى الناس كافة هو من لبسهم الحق بالباطل ليخلط الأمر»[1]، ففي فرية اليهود هذه استخفاف بالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونسبته إلى الكذب كما فعلت كفَّار قريش من نسبته ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى السحر والكهانة.

ومن لبس الحق بالباطل عند يهود ما ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ في كتابه فقال: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢]، كل هذا استخفافاً بهذا الدين، وبرسول ربِّ العالمين ﷺ إمعاناً منهم في لبس الحق وخلطه على المسلمين، وخاصةً ضعفاء الإيمان، ومن في قلوبهم مرض، ومنْ هُمْ سمَّاعون لأهل الكتاب ولشبهاتهم ودسائسهم.

ثانياً: إظهار الباطل في صورة الحق، مع كتمان الحق وإخفاؤه:

---

(١) «صفوة الآثار والمفاهيم» (٢/١٠٨ ـ ١٠٩). وانظر: عن فرية اليهود هذه بأنّ محمداً بعث للعرب خاصة: «مجموع الفتاوى» (٤/٢٠٣ ـ ٢٠٧) حيث قال: «... فإنّه كما يعلم علماً متواتراً أنه دعا المشركين إلى الإيمان، فقد علم بمثل ذلك أنه دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به، وأنّه جاهد أهل الكتاب كما جاهد المشركين؛ فجاهد بني قينقاع، وبني النضير، وقريظة، وأهل خيبر، وهؤلاء كلهم يهود، وسبى ذريتهم ونساءهم، وغنم أموالهم، وأنّه غزا النصارى عام تبوك بنفسه، وبسراياه... وكذلك خلفاؤه الراشدون من بعده...»، فكيف يفعل بهم ذلك كله وهم غير مخاطبون بهذه الدعوة؟.

فمن صور لبس الحق بالباطل: إظهار الباطل في صورة الحق.

قال ابن عاشور: «فلبس الحق بالباطل ترويج الباطل في صورة الحق. وهذا اللبس هو مبدأ التضليل والإلحاد في الأمور المشهورة، فإنَّ المزاولين لذلك لا يروج عليهم قَصْدُ إبطالها فشأن من يريدُ إبطالها أن يَعْمَدَ إلى خلط الحق بالباطل حتى يوهم أنَّه يريد الحق، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام: ١٣٧]، لأنهم أوهموهم أنَّ ذلك قربة إلى أصنامهم، . . .»[1].

وقال في موضع آخر ـ عند تفسير آية الأنعام: ١٣٧ السابقة: «ومعنى تزيين ذلك هنا أنَّهم خيَّلوا لهم فوائد وقُرَباً في هذا القتل، بأن يُلقُوا إليهم مضرَّة الاستجداء والعار في النساء، وأنَّ النساء لا يرجى منهُنَّ نفع للقبيلة، . . . ونحو هذا من الشبه والتمويهات، فيأتونهم من المعاني التي ترُوجُ عندهم، فإنَّ العرب كانوا مفرطين في الغيرة، والجموح من الغلب والعار. . .»[2]. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، «أي يخلطون عليهم دينهم فيوهموهم الضلال رشداً وأنَّه مراد الله منهم، فهم يتقرَّبون إلى الله وإلى الأصنام لتُقَرِّبُهُمْ إلى الله، ولا يفرِّقون بين ما يرضاه الله وما لا يرضاه، ويخيلون إليهم أنَّ وَأْدَ البنات مصلحة. . . فمعنى: ﴿وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أنَّهم يُحْدِثُونَ لهم ديناً مختلطاً من أصناف الباطل، . . . **وقيل**: المراد ليدخلوا عليهم اللبس في الدين الذي كانوا عليه وهو دين إسماعيل عليه السلام، أي: الحنيفية، فيجعلون فيه أشياء من الباطل تختلط مع الحق»[3].

---

(١) «التحرير والتنوير» (١/ ٤٧١).

(٢) المصدر نفسه (٨/ ٩٩) للطاهر ابن عاشور.

(٣) المصدر نفسه (٨/ ١٠٤). وانظر: «محاسن التأويل» (٣/ ٤٣٤) للقاسمي.

ومن صور كتمان الحق وإظهار الباطل في صورته عند يهود ما رواه الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ بيت المدْراس[١] على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو[٢] والحارث بن زيد: على أيِّ دين أنت يا محمد؟ فقال: «**على ملة إبراهيم ودينه**»، فقالا: فإنَّ إبراهيم كان يهوديّاً! فقال لهما رسول الله ﷺ: «**فهلمُّوا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم!**» فأبيا عليه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ[٣] لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]»[٤]. فهؤلاء اليهود لم يعظِّموا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل نسبوه إلى الديانة اليهودية المحرفة، وهذا فيه من لبس الحق بالباطل، حيث إنهم اعترفوا بأنَّ إبراهيم رسول من عند الله تعالى ولكنهم أظهروا هذا الحق في صورة الباطل الذي هم عليه متمثلاً بالدين المحرَّف المُبدَّل الذي لم يشرعه الله سبحانه في رسالة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكفى بذلك استهزاء وتنقُّصاً بنبيِّ الله وخليله إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في نسبته إلى الباطل.

والدليل على كذب اليهود في دعواهم أن إبراهيم كان يهودياً وأنهم ما أرادوا إلا التلبيس، ما جاء في سفر التكوين في الإصحاح/١٢، العدد: ١٤، من نسبة اليهود خليلُ الرحمٰن إلى الدياثة ـ نعوذ بالله ـ حيث أنَّه قدَّم امرأته إلى فرعون لينال الخير بسببها.

---

(١) البيت الذين يدرسون فيه. «النهاية» (٢/١١٣) لابن الأثير.

(٢) وقيل: نعيمان بن عمرو... واختلاف في أسماء يهود كثير مشكل، «محمود شاكر». **قلت**: وفي دينهم أيضاً.

(٣) اختلف أهل التأويل في الكتاب فقيل: المراد به التوراة؛ وهذا عن ابن عباس. وقيل: المراد به القرآن؛ هذا عن قتادة وابن جريج. انظر: «جامع البيان» (٦/٢٨٨ ـ ٢٩١ ـ شاكر)، ورجَّحَ أبو جعفر قول ابن عباس أنَّه التوراة.

(٤) «جامع البيان» (٦/٢٨٨ ـ ٢٨٩ ـ شاكر). وانظر: «أسباب نزول القرآن» (ص١٠٢) للواحدي، و«أسباب النزول» (ص٧٤ ـ ٧٥) للسيوطي.

ومن صور لبس الحق بالباطل، وإظهار الباطل في صورة الحق ـ قديماً وحديثاً ـ: ما كشف عنه الإمام ابن القيم عندما تحدث عن التأويل والفرق الكلامية وجنايتها على الشريعة فقال: «فأصلُ خراب الدين والدنيا إنما هو من التأويل الذي لم يُرِدْهُ الله ورسوله بكلامه، ولا دَلَّ عليه أنَّهُ مراده، وهل اختلقت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل؟ وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل؟ فمن بابه دخل إليها، وهل أريقَتْ دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل؟» إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: «والمتأولون أصنافٌ عديدة، بحسب الباعث لهم على التأويل، وبحسب قصور أفهامهم ووُفورها، وأَعْظَمُهُم توغلاً في التأويل الباطل منْ فَسَدَ قَصْدُه وفهمه، فكلَّما ساء قصده وقصر فهمه كان تأويلهُ أشدَّ انحرافاً، فمنهم من يكون تأويله لنوع هوًى من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق، ومنهم من يكون تأويله لنوع شبهة عرضت له أَخْفَتْ عليه الحق، ومنهم من يجتمع له الأمران الهوى في القصد، والشبهة في العلم».

إلى أن **قال** رَحِمَهُ اللهُ: «قال أبو الوليد بن رشد المالكي في كتابه المسمَّى بـ «الكشف عن مناهج الأدلة» وقد ذكر التأويل وجنايته على الشريعة... إلى أن قال: ومثال من أوّل شيئاً من الشرع وزعم أنَّ ما أوّلَه هو الذي قصده الشرع مثال من أتى إلى دواء قد ركَّبه طبيب ماهر ليحفظ صحة جميع الناس أو أكثرهم فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء الأعظم لرداءة مزاجٍ كان به ليس يعرض إلا للأقلِّ من الناس، فزعم أنَّ بعض تلك الأدوية التي صرَّح باسمها الطبيب الأول من ذلك الدواء العام المنفعة لم يرد به ذلك الدواء العام الذي جرت العادة في اللسان إنْ يُدَلَّ بذلك الاسم عليه، وإنما أراد به دواء آخر ممَّا يمكن أن يدلَّ عليه بذلك باستعارة بعيدة، فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك المركب الأعظم، وجعل فيه بدله الدواء الذي ظنَّ أنَّه قصده الطبيب، وقال للناس: هذا هو الذي قصد الطبيب الأول، فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول، ففسدت أمزجة كثير من الناس، فجاء آخرون فشعروا بفساد أمزجة الناس من ذلك

الدواء المركب، فراموا إصلاحه بأن بَدَّلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول؛ فعرض من ذلك للناس نوع من المرض غير النوع الأول. فجاء ثالث... وجاء رابع... فلمَّا طال الزمان بهذا الدواء المركب الأعظم، وسلط الناسُ التأويل على أدويته، وغيروها وبدَّلوها عرض منه للناس أمراض شتى، حتى فسدت المنفعة المقصودة بذلك الدواء المركب في حق أكثر الناس، وهذه حال الفِرَقِ الحادثة في هذه الشريعة مع الشريعة»[١].

ففي تأويل المتأولين وزعمهم أنَّ ما تأولوه هو مراد الله ﷻ ومراد رسوله ﷺ استخفاف بالحق الذي قصده الله ورسوله، كما فعلت اليهود في قصة الرجل والمرأة اللذين زنيا منهم، فجاؤوا إلى الرسول ﷺ فأخفوا آية الرجم من التوراة، وزعموا أنّ حكم الله هو الجلد والتحميم.

فحال هذه الفرق الكلامية، والمناهج العقلية، ومن تأثر بها من أهل هذه العصور، قد أظهروا للناس ـ المَدْعُوِّينَ ـ أنَّ هذا هو الحق، وهو مراد الله ـ تبارك وتعالى ـ ومراد رسوله ﷺ وفي المقابل أَخْفَوا الحق ـ بطريق التلبيس ـ الذي هو متمثل في منهج السلف وطريقهم في فهم الكتاب والسنة، وقالوا عنه: منهج حشوي أوْ مُتَحَجِّر، أو نَصِّيُّون حَرْفِيُّون. أو كما يزعم عَامَّةُ العلمانية في العصر الحاضر حيث يقول سلفهم الأول «أتاتورك»: «نحن لا نريد شرعاً فيه قال وقالوا، ولكن شرعاً فيه قلنا ونقول»[٢].

وهذا هو مرتكز دُعَاة العصرنة والعقلانية في العصر الحاضر قَدّموا عقولهم وأهوائهم على شريعة الله تبارك وتعالى، فأظهروا للناس نتاج تفكيرهم وعبقريتهم!! وجعلوه شرعاً يحكم أبشار الناس ودماءهُم وأعراضهم، زاعمين بأن الشريعة الربانية لا تصلح للقرن العشرين فضلاً عن القرن الحادي والعشرين الذي يستقبله العالم هذه الأيام.

---

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥٣).

(٢) انظر: «العلمانية...» (ص٥٧١).

المبحث الثاني

تنفير الناس من الدين الحق وصدُّهم عنه

إن من طبيعة الدعوة الإسلامية التي دعا إليها الرسل من نوح عليه السلام إلى آخر الأنبياء محمد ﷺ ودعا إليها أتباع الرسل من حواريين وأصحاب، وعلماء في كل زمان ومكان، أن تقابل من المجرمين ـ مشركين ومنافقين ـ بالصد والتكذيب والاستهزاء، وقد ذكر الله ـ جل وعلا ـ هذه الطبيعة فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١]، فهذا الابتلاء للرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بهذه العداوة هو لأتباعهم من العلماء والمصلحين الذين ورثوا علم النبوة، فابتلوا بعداوة أهل الباطل، **قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن** رحمه الله: «فأعداء الحق وأهله من زمن قوم نوح إلى أن تقوم الساعة هذه حالهم وطريقتهم، فمن حكمة الرب تعالى أنه ابتلى عباده المؤمنين الذين يدعون الناس إلى ما دعا النبي ﷺ من الدين بثلاثة أصناف من الناس، وكل صنف له أتباع:

الصنف الأول: من عرف الحق فعاداه حسداً وبغياً كاليهود فإنهم أعداء الرسل والمؤمنين.

الصنف الثاني: الرؤساء أهل الأموال الذين فتنتهم دنياهم وشهواتهم لما يعلمون أن الحق يمنعهم من كثير مما أحبوه وألفوه من شهوات الغي فلم يعبؤوا بداعي الحق ولم يقبلوا منه.

الصنف الثالث: الذين نشأوا في الباطل وجدوا عليه أسلافهم يظنون

أنهم على الحق وهم على الباطل، فهؤلاء لا يعرفون إلا ما نشؤوا عليه، وكل هذه الأصناف الثلاثة وأتباعهم هم أعداء الحق من زمن نوح إلى أن تقوم الساعة...»[(١)].

فأعداء الرسل المكذبون المستهزؤون يسلكون أساليب شتى لأجل التنفير من الرسل وأتباعهم، فها هو نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ يصفه قومه بالضلال المبين: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٦٠]، وقالوا عن أتباعه: ﴿... مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وها هو نبي الله هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ يصفه قومه بالسفه، والكذب، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف: ٦٦]. وقالوا عنه ـ أيضاً ـ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود: ٥٤].

وهذا نبي الله شعيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ يلقى من قومه المجرمين ما لقي إخوانه من قبل: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧].

كل هذا الافتراء والكذب بهؤلاء الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لتحقيق هدف عظيم عند المجرمين، وهو تشويه صورة هذا الداعي إلى سبيل الرحمٰن، وصد الناس عن دعوته، ولن يضره شيئاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [محمد: ٣٢].

---

(١) «الدرر السنية» (١/٢٢١ ـ ٢٢٢) جمع العلامة عبد الرحمٰن بن قاسم.

وعندما نقف مع دعوة خاتم الرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي ظهرت في مكة في ذلك المجتمع القبلي الذي كانت تعج فيه العصبيات القبلية، ويتسلط عليه الملأ من قريش، نجد هؤلاء السادة المستكبرين قد واجهوا الدعوة الجديدة بكل حزم وقوة سواء على مستوى أفراد كل قبيلة، أو على مستوى قبائل العرب عَامَّة، حيث صدت قريش الناس عن دعوة محمد ﷺ فالعرب حول مكة ـ سواءً ما جاورها كالطائف أو بعُد عنها كالمدينة ـ وعامة الجزيرة ترقب الأحداث، وتتبع أخبار الدعوة الجديدة، وموقف قومه منه، فإن آمن به قومه تبعتهم عامة العرب، لأن قوم الرجل أدرى به وبدعوته، وبخاصة أن قريشاً كانت تحتل مركزاً مرموقاً بين قبائل العرب، ففيها السقاية ورعاية الحجيج، والقيام على شؤون المسجد الحرام، فمارست قريش صدها لبقية العرب عن الدعوة الجديدة وصاحبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فلقد كان زعماء قريش يجتمعون ليتدارسوا ما يقولون في شأن هذا القرآن وما يقابلون به وفود العرب القادمين إلى مكة في الموسم، ويحاولون أن يتفقوا على كلمة واحدة في شأن هذا القرآن وشأن هذا الرسول ﷺ وكانوا ـ أي كفار قريش ـ يترصدون القادم إلى الحرم من أهل البوادي، ففي ذات يوم قدم الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه إلى مكة، فقابلته قريش بالتحذير، وصده عن الدعوة الجديدة، وما زالوا حتى استجاب لمطالبهم بعدم الاستماع إلى محمد فإنه ساحر يفرق بين المرء وأبيه، وأخيه، وزوجه! فصدقهم فوضع في أذنيه شيئاً حتى لا يسمع من محمد شيئاً من القرآن، ويأبى الله إلا أن يدخل الإيمان قلب الطفيل فيسلم[1] رغم شدة الحملة الإعلامية التي كانت تسلطها قريش على القادمين إلى البيت من العرب.

---

(١) انظر خبره في: «السيرة النبوية» مجلد (١/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣)، و«الاستيعاب» (٢/ ٣١٢ ـ ٣١٣).

ولم يكتف القوم بهذا الكيد داخل مكة، بل طاردوا الدعوة وصاحبها خارج الحرم عندما كان المصطفى ﷺ يأتي أسواق العرب ويدعوهم للإسلام وشهادة الحق، عن ربيعة بن عباد الديلمي(١)، قال: رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: «**أيها الناس: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»، إلا أن وراءه رجلاً أحول، وضيء الوجه، ذا غديرتين، يقول: إنه صابئ، كاذب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبد الله، وهو يذكر النبوة، قلت: من هذا الذي يكذبه؟ قالوا: عمه أبو لهب.

قلت ـ القائل هو الراوي عن ربيعة وهو أبو الزناد ـ: «إنك كنت يومئذٍ صغيراً؟ قال: لا والله إني يومئذٍ لأعقل»(٢).

ومن الأذى والصد التي كانت تصنعه قريش مع النبي ﷺ ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما **أن النبي ﷺ لبث عشر سنين، يتبع الناس في منازلهم، في الموسم، ومجنة، وعكاظ، ومنازلهم من منى: من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالات ربي، فله الجنة، فلا يجد أحداً ينصره ولا يؤويه، حتى إن الرجل ليرحل من مضر أو من اليمن، إلى ذوي رحمه، فيأتيه قومه، فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز وجل يشيرون إليه بالأصابع...**»(٣).

إن هذه الأحداث داخل مكة وخارجها، داخل كل قبيلة وخارجها،

---

(١) من بني الدبل بن بكر بن كنافة، مدني، كان جاهلياً فأسلم، توفي في خلافة الوليد. انظر: «الاستيعاب» (٢/ ٧٢) لابن عبد البر، و«الإصابة» (٢/ ٣٩٠ ـ ٣٩١) لابن حجر.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٥٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ورواته عن آخرهم ثقات أثبات، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، كتاب التأريخ (٢/ ٦٨١ ـ ٦٨٢) وقال عنه: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي في «التلخيص».

يقوم بها أفراد تارة، وجماعات تارة أخرى، لهي مؤشر واضح على طبيعة العداوة بين أهل الإيمان، وأهل العدوان، والرسول ﷺ يقول لهم: قولوا: **«لا إله إلا الله تفلحوا»**، وهم يقولون: كذاب، ودجال، ويرمونه بالحجارة فيدمون قدميه، ويحثون التراب على رأسه استهزاءً منهم، وإمعاناً في تكذيبه، وخاصة عندما كان يصدر هذا الأذى من الأقربين أبي لهب، وأبي جهل وأضرابهما، فهو أشد في صد الناس عن دعوة التوحيد.

يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]: «وهي قولة ساخرة مستنكرة، أكان ذلك عن اقتناعٍ منهم بأن شخصه الكريم يستحق منهم هذه السخرية، وأن ما جاءهم به يستحق هذا الاستهزاء؟ كلا. إنما كانت تلك خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة، ومن أثر هذا القرآن الذي لا يقاوم، وكانت وسيلة من وسائل مقاومة الدعوة الجديدة التي تهددهم في مراكزهم الاجتماعية وأوضاعهم الاقتصادية، وتجردهم من الأوهام والخرافات الاعتقادية التي تقوم عليها تلك المراكز وهذه الأوضاع»(١).

فلم تكن الوثنية وحدها في هذا المضمار بل شاركها في الصد عن سبيل الله أهل الكتاب وبخاصة يهود، الذين لهم معرفة بالكتب السماوية، يعرفون محمداً ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ولكن الكبر والحسد قد أعمى اليهود وأصمَّهُمْ عن اتباع الرسالة الخاتمة وصاحبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فهذا زعيم من زعماء يهود يتآمر مع الوثنيين كفار قريش، روى الطبري بسنده عن عكرمة: أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش، فاستجاشهم على النبي ﷺ وأمرهم أن يغزوه، وقال: إنا معكم نقاتله، فقالوا: إنكم أهل كتاب، وهو صاحب كتاب!! ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم! فإن أردت أن نخرج معك، فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما،

(١) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٥٦٥).

ففعل، ثم قالوا: نحن أهدى أم محمد؟ فنحن ننحر الكوماء[١] ونسقي اللبن على الماء ونصل الرحم، ونقري الضيف، ونطوف بهذا البيت، ومحمد قطع رحمه، وخرج من بلده؟ قال: بل أنتم خير وأهدى! فنزلت فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝٥١﴾ [النساء: ٥١][٢].

قال أبو جعفر رَحِمَهُ اللَّهُ: «... ومعنى الكلام: أن الله وصف الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من اليهود، بتعظيمهم غير الله بالعبادة والإذعان له بالطاعة، في الكفر بالله ورسوله ومعصيتهما، بأنهم قالوا: «إن أهل الكفر بالله أولى بالحق من أهل الإيمان به، وأن دين التكذيب لله ولرسوله، أعدل وأصوب من دين أهل التصديق لله ولرسوله..»[٣].

أفلا يرى أهل البصيرة أن ما يفعله اليهود اليوم من سلوك السبل الضالة كلها ومنها التزوير الفكري في مجال الثقافة والتعليم، وفي مجال الإعلام، وفي مجال الفن، والأدب، وفي مجال السياسة، وعلى كل الأصعدة والميادين، وقلب الحقائق والافتراءات الكاذبة، كل ذلك ذو نسبٍ أصيل إلى ما كان أجدادهم يفعلون بالأمس ولكن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٤][٤].

إن الواقع المعاصر للأمة الإسلامية، وهي تعيش مرحلة الذل

---

(١) هي الناقة المشرفة السنام، خير النوق وأسمنها وأعزها عليهم.

(٢) «جامع البيان» (٨/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨ ـ شاكر)، و«الدر المنثور» (٢/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧) للسيوطي. وانظر: «أسباب نزول القرآن» (ص١٦٠ ـ ١٦١) للواحدي، فقد نسب القصة إلى أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس، وأبو عمار الوائلي. انظر: «السيرة النبوية» مجلد (٢/ ٢١٤ ـ ٢١٥)، و«الدر المنثور» (٢/ ٣٠٧)، و«تفسير القرآن العظيم».

(٣) «جامع البيان» (٨/ ٤٤٦ ـ شاكر).

(٤) انظر: «اليهود في القرآن والسنّة» (٤/ ٧ ـ ٨) محمد أديب الصالح.

والاستضعاف والتسول على موائد الشرق والغرب ليؤكد لنا أن هذا الوضع الراهن للأمة ما هو إلا نتيجة جهود عظيمة ومكر كبار من أهل الكتاب ـ كما رأينا مثله في العصور الأولى من الإسلام ـ وسوف أتعرض لبعض الأمثلة والصور المتعددة لسخرية أهل الكتاب وصدهم أمة الإسلام عن دعوة الحق ففي جانب التعليم والتربية ها هي «اللجنة الثقافية» بجامعة الدول العربية والتي كان يرأسها «أحمد أمين» ثم ورثها «طه حسين» حيث قامت هذه اللجنة بنشر أعمالها من: البحوث والمحاضرات، والكتب المترجمة، والمؤتمرات، فيتلقفها القوميون العرب بكل فرح وسرور.

يقول الدكتور محمد محمد حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هل يعقل عاقل منصف أن يلجأ العرب إلى السفارة الأمريكية مثلاً لتختار لهم ما تراه نافعاً للعرب ومحققاً لنهضتهم، ومعيناً على طرد اليهود وإجلائهم، وتصفية شركات البترول وخرابها، لقد فعلت اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ذلك! استوحت السفارة الأمريكية في بعض ما اختارته مما ترجمته، واستوحت اليونسكو[1] في بعضه الآخر. وهي نفسها تعترف بذلك حيث تقول في نشرتها الثقافية التي عرضت فيها نشاطها بين سنتي ١٩٤٦ ـ ١٩٥٦م: «كذلك اتفقت الإدارة الثقافية بعد موافقة المكتب الدائم على أن تتولى نشر بعض الكتب الهامة المترجمة بمعرفة القسم الثقافي بالسفارة الأمريكية وقد قدمت فعلاً إلى الطبع على هذا الأساس أصول كتاب مترجم إلى العربية، ويشتمل على مقالات للكاتب الأمريكي (!!!) إيمرسون».

وتقول كذلك ـ أي: اللجنة الثقافية ـ: «اتصلت الإدارة الثقافية ببعض الهيئات العالمية المختصة[2]، وحصلت منها على كشوف بأسماء الكتب التي

(١) فرع من فروع هيئة الأمم المتحدة خاصة بالتربية والتعليم.
(٢) المقصود بها هيئة «اليونسكو» التي تسيطر عليها ـ كما هو الشأن في أكثر مؤسسات الأمم المتحدة ـ الصهيونية العالمية الهدامة. انظر: «حصوننا مهددة من داخلها» (ص١٣٩) هامش (٢).

تراها تلك الهيئات داخلة في إطار هذا البرنامج»[١].

ومن ضمن الكتب التي تلقتها إدارة الثقافة بالجامعة العربية كتاب «قصة الحضارة» لول ديورانت. وقد تناول فيه مؤلفه النبيين الكريمين عيسى ومحمد ـ صلى الله وسلم عليهما ـ بالاستهزاء والسخرية وكذلك إيمرسون في مختاراته ينال من الأنبياء ومن دين الإسلام وقيمه وآدابه، كل هذا واليهود وتلاميذهم في البلاد العربية، ينقلون هذا الغثاء والعبث ليصدوا المسلمين عن سبيل الله تعالى، ومنهجه القويم الذي هو أساس لِكُلِّ تربية جادة تثمر مجتمعاً مسلماً متماسكاً في عقيدته وعبادته، وأخلاقه، وقيمه.

هذا ما يتعلق بإدارة الثقافة بجامعة الدول العربية، أما مؤتمر التربية العربي فقد جاء في إحدى نشراته المسماة: «الحلقة الدراسية العربية الأولى للتربية وعلم النفس»: «يجب أن تعمل التربية العربية على خلق خصائص جديدة في الشخصية العربية الناشئة بحيث تستأصل منها رواسب العصر التركي (يقصد الدولة العثمانية) والاستغلال الاستعماري وتصنع بدلاً منها خصائص مضادة تتحقق بها القومية العربية الشاملة في المستقبل القريب. فالمواطن العربي يجب أن يكون شخصاً تقدمياً يؤمن بفلسفة التغير والتطور، يجب أن يعتبر نفسه مسؤولاً عن المستقبل لا عن الماضي، ومسؤولاً أمام الأجيال القادمة لا أمام رفات الموتى..»[٢].

فما هو نصيب التربية الإسلامية التي أسماها تقليدية وهو يتحدث عنها باحتقار وازدراء فيقول: «كان الطفل يشتري من أسواق النخاسة.. ثم يدخل القلعة وتتبع معه طريقة التلقين الدقيق فيخرج منها بعد أعوام قليلة مسلماً متعصباً لإسلامه، ومملوكاً يعتقد أنه ملك للأمير الذي اشتراه ورباه..» إلى

---

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص١٣٨ ـ ١٣٩).

(٢) من كلمة «أبو الفتوح رضوان» في المؤتمر (٧٧) من النشرة، نقلاً عن «العلمانية» (ص٦٠٠).

أن يقول: «لهذا كانت طريقة التلقين سيئة السمعة كطريقة تربوية، لأنها تؤدي إلى تعصب حيواني عاطفي غير قائم على الفكر والاقتناع»[١].

وجاء في خطاب متحدث آخر في المؤتمر نفسه وهو يتحدث عن التربية الدينية فيقول: «الدين أداة الفكر يسند المجتمع عن طريق القدوة والتعليم والإرشاد والترغيب والترهيب.. والتربية الدينية الخاطئة قد تعلم في تزييف الأهداف وفي جعلها أداة للشر الغريزي، وكثيراً ما يستغل الدين لأغراض السياسة الحزينة، وربما نتج عن هذا الارتباط بين الدين والسياسة أخطر ما يهدد العلاقات والروابط القومية.

ويرى الكثيرون أن الكتب السماوية ليس من أغراضها أن تكون موسوعات يبحث المؤمن فيها عن مشاكل العصر كي يجدوا فيها أداة تلهم المؤمن لاستعمال الفكر في حل مشاكله الطارئة»[٢].

هذا جانب يسير جداً ـ مما يصنعه أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود وعملائهم المنافقون في صد أمة الإسلام عن مصدر عزها ومجدها «الإسلام» بكل وسيلة ممكنة ووفق قاعدتهم الخبيثة «الغاية تبرر الوسيلة»، كما فعل أسلافهم الأوائل ـ كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب ـ الذين أخبرنا الله تبارك وتعالى عن مكرهم وكيدهم فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩]. وحذر أسلافهم أيضاً عن الصد عن سبيل الله فقال: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ . . .﴾ [الأعراف: ٨٦].

هذا جانب من الصد عن سبيل الله ـ تبارك وتعالى ـ في ميدان التربية

---

(١) المصدر نفسه (ص٦٠٠ ـ ٦٠١).

(٢) من كلام «التجاني الماحي» في المؤتمر، (١٨٠) من النشرة، نقلاً عن المصدر السابق (ص٦٠١).

والتعليم، أما الجانب الآخر وهو ما يتعلق بالإعلام وهو صاحب السبق في هذا الميدان، فقد درج الإعلام الغربي الصليبي الصهيوني على الصد عن الدعوة والدعاة: وهم الذين تسميهم الكنيسة «رجال الدين» وتأثر بهذا الإعلام في البلاد العربية، وشن حملة لا دينية على الدين، وعلماء المسلمين، مما أدى إلى السخرية بهم، وتحقير الناس لمنزلة الدعوة والدعاة التي قال الله عنها: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

فظهر في الغرب رواية «طرطوف» من تأليف «موليير» كلها سخرية برجال الدين في الغرب، والغريب في الأمر أن هذه الرواية ترجمت للعربية على نفقة وزارة المعارف المصرية، ووزعت على الطلاب في كل أرجاء مصر، في مختلف المراحل، ثم مثلت على المسرح، تحت اسم: «الشيخ متلوف» وغاية اهتمام الباحث بهذه المسرحية، أن الأفكار التي جاءت فيها عن شخصية الداعية المضحكة أصبحت دستوراً لأجهزة الإعلام لبث سمومها ضد الدعاة، وكثير من المسرحيات التي ألفها كتّاب مصريون، جاءت بعد ذلك على هذا المنهج، مثل: مسرحية «بحبها شوية» و«حلمك يا شيخ علام» و«الشيخ لعبوط» وغيرها كثير»[1].

وفكرة رواية «طرطوف» تدور حول قيام أحد النبلاء الفرنسيين بالعطف على أحد رجال الدين!! وأخذه إلى منزله بعد أن عرف حاله، وأنه ليس له مأوى، فقام بإكرامه ومنحه صلاحيات في بيته، مما جعله كأحد أفراد الأسرة، ولكن الغريب في الأمر أن رجل الدين مشغولاً بالأكل والشرب، ومتابعة ربة المنزل، وبقية النساء، حتى وصل به الأمر إلى مراودة صاحبة المنزل عن نفسها، فامتنعت فأخذ يبرر لها هذا الأمر من وجهته الشرعية وأنه

---

(١) انظر: «أثر الظروف النفسية والاجتماعية في سلوك الداعية» (ص٦٦) د. محمد محمد أبو زيد.

لا بأس به إلى آخر أحداث تلك الرواية المليئة بالسخرية من رجال الدين في الغرب، والمقصود بها عندما تُعرض على أبناء المسلمين في الإعلام: المشاهد أو المسموع أو المقروء: السخرية بعلماء المسلمين والدعاة إلى الله تعالى وأهل الوعظ والإرشاد، لكي يتحقق للعلمانيين هدفهم المنشود وهو صد الناس عن الدعوة والدعاة، وذلك بتلطيخ سمعتهم، وإلصاق التُّهم الأخلاقية بهم، ومن ثم يصبحوا أضحوكة عند العامة والخاصة: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨]، لأن من هو واقع في الوحل ومتلطخ به من كل ناحية، إذا رأى أهل الطهر والنقاء، والعفاف، من زَكَّى الله بواطنهم بالتوحيد والإخلاص، وظواهرهم بالشرف والحشمة، والوقوف عند حدود الله، لا يهدأ لهم بال حتى يغمسوهم معهم في الوحل الذي هم فيه كما فعل أهل قرية سدوم، قوم لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وواضح من رواية «الشيخ متلوف» أو «طرطوف» أن القضية ليست مسألة «طرطوف» كما يحكي «موليير» ولا «مسألة الشيخ متلوف» كما أراد تلاميذ الحملة الفرنسية»[(١)]، بل المقصود دعاة الإسلام وحملة العلم الشرعي، وورثة النبوة، الذين يريدون هداية الخلق، واتباع منهج الله تعالى والسير على وفق منهج الإسلام في جميع شؤون الحياة، ولكن ذلك لا يعجب رواد التغريب في بلاد الإسلام بل يقض مضاجعهم، ويهدد كيانهم ووجودهم، ولأجل دفع هذا الخطر عنهم!! قاموا بحملتهم المسعورة ضد الدعاة والدعوة في مثل رواية «الشيخ متلوف» التي جمعت من الأوصاف القبيحة ما أوضحه الدكتور محمد محمد أبو زيد فقال: «يجب تحديد الصفات التي جاءت في رواية «الشيخ متلوف» أو «طرطوف» لأن ذلك سيساعد على الكشف عنها في إنتاج أجهزة الإعلام، **وهذه الصفات هي:**

(١) المصدر السابق (ص٧٠).

١ ـ أن طرطوف ـ الشيخ متلوف ـ نصاب.

٢ ـ ناكر للجميل.

٣ ـ فاسق زنديق.

٤ ـ مشغول طول الوقت بالأكل والجنس.

٥ ـ سافل، وحقير، ووغد.

٦ ـ يسخر من الدين.

٧ ـ يستخدم الدين لصالحه.

٨ ـ يحارب الناس بسلاح الدين المقدس، ولا يخاف منه... إلخ.

وبعد أن اتصف الداعية بهذه الصفات كما جاءت في مسرحية «طرطوف» الشيخ متلوف ـ يدور في الذهن سؤال، ماذا بقي للداعية بعد ذلك من صفات يقف بها واعظاً ويحترمه عليه الناس؟

الواقع أن الداعية في هذه الرواية قد اتصف بصفات يمثلها الشيطان نفسه، وواضح أن المطلوب بمثل هذه الأعمال الفنية، هوان الداعية في دعوته وأن ينفر الناس من الداعية ومبادئه، هذا مقصودهم وقد حدث، ولإنقاذ هذا الموقف، مطلوب من الدعاة الآن، ومن الأزهر (وكل المؤسسات العلمية والجامعات) ومن الحكومة المصرية وكل حكومات المسلمين كل البلدان من كل صاحب ضمير في جهاز الإعلام، مطلوب أن يقف الجميع صفاً واحداً ضد هذه الحملة المسعورة في أجهزة الإعلام، حتى يعود للداعية وقاره ونوره الذي يمشي به بين الناس[1].

ومن الوسائل التي استخدمت للصد عن الدعوة الإسلامية والدعاة في العصر الحديث ما كتبه الشاعر المصري: حزين عمر في قصيدة له بعنوان

---

(١) المصدر السابق (ص٧٠ ـ ٧١).

«المضللون» ويقصد بهم علماء بلده، وعلى رأسهم الشيخ: حافظ سلامة، رئيس جمعية الهداية الإسلامية[١]، وقد كان يسعى لمقابلة الرئيس المصري ومطالبته بتطبيق الشريعة الإسلامية، حيث قام بمسيرة من مسجد النور بالعباسية إلى قصر الحكم، فقامت الصحافة المصرية بشن حملة على الدعاة، لِتُعَبِّر بذلك عن حقدها على الدعوة الإسلامية والشريعة الإسلامية لتبقى بلاد المسلمين تعيش أخلاق الحملة الفرنسية إلى الأبد كما يريد دعاة التغريب، حيث جاء في تلك القصيدة:

بين الضجيج وهوجة الغوغاء ... دس الحقود بنفسه السوداء
ومضى يرتب أمره في خفية ... يسعى بخبث دونما إبطاء
وكأنه داعي الصلاح أو التقى ... وكأن في أيديه برء الداء
وكأن موسى قد حباه عصاته ... ليحول بين الفقر والفقراء
ويحول اليمّ الأجاج عذوبة ... ويغمر الصحراء بكل نماء
وكأن سيدنا المسيح سعى له ... بالمعجزات الغر ذات مساء
أو أن سيدنا النبي المصطفى ... أورثه حمل الراية العصماء
لكنني أدركت من سيمائه ... وجه المسيح ولفتة الرقطاء
ولقد رأيت السم يقطر من فمه ... كذباً وتلفيقاً بغير حياء
ومضى يشكك في الصباح ... وفي الضحى وبكل إنجاز وكل رجاء
ويقول لا حرية في أرضنا ... لا عزة ترجى بغير بلاء
قد راح يهتف للشريعة بينما ... أعضاؤه تلتذ في الظلماء
ورأيته بعد الضجيج بحانة ... في شلة من صبية ونساء
قد ظل يرقص نشوة من سكره ... يهتز مثل النخلة الهيفاء
ويدور حول الجالسين بكأسه ... مترنماً في شيمة بلهاء

(١) من علماء مصر، كان له جهود كبيرة في خدمة الإسلام وقضاياه، وقد بلغ عدد القضايا التي رفعها ضد الدولة والنظام هناك ما يزيد على العشرين قضية.

فبصقت فوق جبينه ولعنته ولعنت كل تصرف الجهلاء[١]

إن الأوصاف المؤذية التي وردت في هذه القصيدة لا تقتصر فقط على عالم بعينه ولا على أفراد من دعاة الإسلام في بلد معين، بل فيها إزراء على أهل دعوة الإسلام، ودعاة تطبيق منهج الله ﷻ في الأرض، فإن وصف الشيخ: حافظ سلامة[٢] بأنه بدعوته هذه سوف يطرد الملح من ماء البحر، وأنه كالمسيح الدجال، والحية الرقطاء، وأن السم يقطر من فمه لأنه كذاب، وأنه يدعو للشريعة ويمارس الدعارة في الظلام، ويتردد على الحانات مع النساء والأصدقاء، وأنه يرقص ويدور من أثر السكر، ويستحق اللعن والبصاق في وجهه، كل ذلك كما هو ظاهر المقصود منه تنفير الناس عن الدعوة والدعاة إلى الله تعالى والمقصود أيضاً الدين والدعوة التي يحملها هو وبقية دعاة الإسلام.

وهذه الحملة الشرسة المتمثلة في السخرية والطعن في العلماء ليست مقصورة على الروايات فحسب بل امتدت إلى الإذاعة والتلفاز والسينما والمسرح والصحافة ورسم الكاريكاتير وغير ذلك، حتى تركز الأمر في السنوات الأخيرة حول «المأذون الشرعي» الذي يتولى عقد الزواج، وهذا تقريباً ما بقي لهم من مظاهر دين الإسلام في البلدان العربية.

أقول: إن مثل هذه الصور والنماذج التي يصد بها عن سبيل الله تعالى ودعوته، وأمثالها كثير وكثير في واقع المسلمين في شرق البلاد وغربها ـ إلا ما رحم ربي ـ لا تعدو أن تكون عقبات ـ وإن كانت كبيرة ـ في وجه الدعوة

---

(١) جريدة «الجمهورية»، بتاريخ (٢٨/٧/١٩٨٥م) (ص٦) نقلاً عن المصدر السابق (ص٨٠ ـ ٨١).

(٢) وإن لم يذكر صراحة في الرواية، لأمر يراد، فإنه لو صرَّح باسم الشيخ لكان مآله السجن قانوناً، لكنه ورّى بذلك ليحقق غرضه دونما حساب، وهذا المكر يشاهد اليوم هنا وهناك..

الإسلامية، موضعها ومكانها هذه الحياة الدنيا، وهي سرعان ما تنقضي، ويعود الجميع إلى الله تبارك وتعالى، وعنده وحده تجتمع الخصوم يوم القيامة، ويجد المسرفون المستهزؤون ما عملوا حاضراً، وعند ذلك يعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، ويعلم المظلومون أن الله على نصرهم لقدير، وقد قص الله ﷻ لنا في كتابه العزيز عن مشهد من مشاهد يوم القيامة وهو خاص بالمستهزئين والمستهزئ بهم فقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١ ـ ١١١].

قال العلامة السعدي رحمه الله عند تفسيره لهذه الآيات: ﴿.. قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾، وهذا لقول ـ نسأل الله تعالى العافية ـ أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب والتوبيخ والذل والخسارة والتأييس من كل خير والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم أشد عليهم وأبلغ في نكايتهم من عذاب الجحيم، ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب وقطعت عنهم الرحمة فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾، فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة والتوسل إليه بربوبيته ومنته عليهم بالإيمان والإخبار بسعة رحمة الله وعموم إحسانه، وفي ضمنه ما يدل على خضوعهم وخشوعهم وانكسارهم لربهم وخوفهم ورجائهم، فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أيها

الكفرة الأنذال ناقصوا العقول والأحلام ﴿سِخْرِيًّا﴾ تهزؤون بهم وتحتقرونهم حتى اشتغلتم بذكر السفه ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر اشتغالهم بالاستهزاء بهم كما أن نسيانهم للذكر يحثهم على الاستهزاء فكل من الأمرين يمد الآخر فهل فوق هذه الجرأة جرأة ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ على طاعتي وعلى أذاكم حتى وصلوا إلى ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم والنجاة من الجحيم...»[(١)].

فيا ترى هل يعي هذا الدرس القرآني الذي لا يتطرق إليه الشك والاحتمال «العلمانيون» اللادينيون، الذين يتربعون على عروش الصحافة والإعلام وينفذون بكل دقة ما رسمه الاستعمار ضد الإسلام ودعاة الإيمان من وصفهم بالإرهاب والتطرف[(٢)] والأصولية، وأنهم دعاة فتنة وَشَغَبْ!! ليهونوا من أمرهم ويحقروا من شأنهم، ويجعلونهم سخرية لمن يشاهد ويتابع هذه الحملات المسعورة ضد عباد الله المؤمنين، وما ذاك إلا للتنفير من الشريعة الإسلامية، وتعاليم القرآن والسنة.

إن مثل هذا البلاء الذي يصب على أهل الإسلام اليوم لهو من قدر الله ﷻ ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ولينقي نفوسهم من شوائب حظوظ الدنيا لتخلص لله ﷻ.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن...» (٥/١٩٨). انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤١٣ ـ ٤١٤) لابن كثير.

(٢) قد يكون من بين الإسلاميين من يحمل أفكاراً فيها غُلُوٌّ وتطرف، فيصدق عليها بعض هذه الأوصاف، وتكون موضعاً للذم، إلا أن الحملة الشرسة ضد الدعاة إلى الله قد عمت الصالح والطالح، بل في بعض الأحيان تصب هذه التهم على المصلحين والمجددين لأمر هذا الدين، الذين يعتقدون عقدية السلف الصالح، وينهجون منهج الكتاب والسنّة وهذا هدفهم الأول لاعتقادهم أن الدين لا يظهر إلا بأمثال هؤلاء.

قال **الإمام ابن القيم** ـ عليه رحمة الله ـ: «فما جاءت به الرسل ليس لشيء من المصائب، ولا تكون طاعة الله ورسوله سبباً لمصيبة قط، بل طاعة الله ورسوله لا توجب إلا خيراً في الدنيا والآخرة، ولكن قد يصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم وتقصيرهم في طاعة الله ورسوله كما لحقهم يوم أُحُد ويوم حنين، وكذلك ما امتحنوا به من الضراء وأذى الكفار ليس هو بسبب نفس إيمانهم ولا هو موجبه، وإنما امتحنوا به ليخلص ما فيهم من الشر فامتحنوا بذلك كما يمتحن الذهب بالنار ليخلص من غشه.

والنفوس فيها ما هو مقتضى طبعها، فالامتحان يمحص المؤمن من ذلك الذي هو من موجبات طبعه، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤١]، وقال: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فطاعة الله ورسوله لا تجلب إلا خيراً ومعصيته لا تجلب إلا شراً...»(١)، وقال سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ـ مفتي الديار السعودية سابقاً ـ: «... ولا نظن أنه لا يمكن تسلط أهل الشر في هذه الأزمان، فإنه بسبب إضاعته (أي: الدين)، وإلا فدين رب العالمين محفوظ حتى إنه يحفظ من يقوم به.

ولا نظن أنه (لا) يرد عليه إدالة أهل الباطل بعض الأحيان فإنه تمحيص ورفعة لأهل الحق، وغرور لأهل الباطل»(٢).

فلعل أن يكون في كلام الله تعالى ثم في كلام هذين الإمامين ـ ابن القيم وابن إبراهيم ـ حافزاً ومقوياً لبعض من يضعف أو ينقطع في طريق الدعوة إلى الله تعالى، لما يرى من كثرة المصائب والأذى والسخرية

---

(١) «شفاء العليل» (ص٣٣٧). وانظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٥١) جمع يسري السيد.
(٢) «فتاوى ورسائل» (١/ ٢٠٠).

والاستهزاء بالدين وأتباعه الذين يلتزمون بأحكامه، ويدينون بفرائضه، فلهم فيمن سلف من أصحاب محمد ﷺ قدوة حسنة، فلا بد من الصبر والتقوى، والصبر على الاستهزاء من الفسقة المعاندين، والتقوى لله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فهما مقومات ثبات المؤمن في مثل هذه المواطن بعد الله تعالى، ولأهمية الصبر والتقوى جاءت الوصاية بهما في آخر سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

«فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة: هي مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة.

والمصابرة: هي حال في الصبر مع خصمه.

والمرابطة: هي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ...﴾»[1].

وقال الله ﷻ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ...﴾ [آل عمران: ١٢٠].

(١) «عدة الصابرين» (ص٢١). وانظر: «مدارج السالكين» (٢/١٥٩ ـ ١٦٠).



المبحث الثالث

إعاقة مسيرة الدعوة الإسلامية

إنَّ الحديث عن إعاقة مسيرة الدعوة الإسلامية بمفهومها الواسع الشامل ـ كما تحدثت عنه في المطلب الأول من هذا الفصل ـ يستدعي الحديث عن أصناف المعوقين للدعوة الإسلامية، وأساليبهم في الإعاقة[1]، **وأهمهم ثلاثة أصناف:**

○ الصنف الأول: الوثنيون المشركون:

وقد استخدم هذا الصنف وسائل كثيرة لصدِّ دعوة الرسول ﷺ وإعاقتها.

منها: اتهام الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالسحر، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ [ص: ٤].

يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... ومن جهلهم أنهم أظهروا التعجب من أن جاءهم منذر منهم، أن يجيء بالكلام المموَّه الذي يخدع به الناس، وقيل: يفرِّق بسحره بين الوالد وولده، والرجل وزوجه، أي في دعوة النبوّة»[2].

ومنها: وصف الرسول ﷺ بأنه مسحور، قال تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء: ٤٧].

---

(١) انظر: «المعوِّقون للدعوة الإسلامية...»، رسالة دكتوراه، بجامعة أمِّ القرى عام (١٤٠٧هـ)، د. سميرة محمد جمجوم.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٩٩).

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخبر تعالى نبيَّهُ محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش حين جاؤوا يستمعون قراءته سراً من قومهم بما قالوا من أنَّه رجل مسحور... له رئيٌ يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه»[١].

ومنها: اتهام الرسول ﷺ بأنه شاعر، وكاذب، ومجنون، وكاهن، وأنَّ القرآن أساطير الأولين، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾ [الفرقان: ٩].

أمَّا وصفهم بأنه شاعر ففي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ [الصافات: ٣٦]، **أي**: «أنترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عند قول هذا الشاعر المجنون، يعنون بذلك الرسول ﷺ»[٢].

أمَّا وصفهم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالجنون ففي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

قال ابن إسحاق: «ثمَّ قريشاً اشتدَّ أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم، فأغروا برسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ سفهاءهم، فكذَّبوه وآذوه، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفي به، مُبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إيَّاهم على كفرهم. وقد نفى الله عن نبيِّه هذا الوصف فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾ [الطور: ٢٩]»[٣].

ومنها: الاستهزاء والسخرية واللغو عند سماع القرآن، قال تعالى عن نبيِّه نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨﴾ [هود: ٣٨].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٧٣).
(٢) المصدر السابق (٤/ ١١).
(٣) «السيرة النبوية» مجلد (١/ ٢٨٩) لابن هشام.

وقال عن نبيِّه محمد ﷺ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: أي تواصوا فيما بينهم لا يطيعوا للقرآن ولا ينقادوا لأوامره، (و)إذا تلي لا تسمعوا له كما قال مجاهد.

واللغو فيه: يعني بالمكاء والتصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله»[١]. وهذا كُلُّهُ أسلوب العاري عن الحجة يلجأ إلى الصخب والمهاترة والتخليط على الخصم.

ومنها: محاولة إعاقة الأتباع ووعدهم بأنهم سوف يحملون خطاياهم وأوزارهم عنهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ . . .﴾ [العنكبوت: ١٢].

يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: «وقد كان الذين كفروا يقولون هذا تمشياً مع تصورهم القبلي في احتمال العشيرة للديات المشتركة والتبعات المشتركة. يحسبون أنهم قادرون على احتمال جريرة الشرك بالله عن سواهم وإعفائهم منها. ذلك إلى التهكم على قصة الجزاء في الآخرة إطلاقاً»[٢]. ويأتي الرد عليهم من الجبار ـ جلت قدرته ـ فيقول: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣].

ومنها: المكر والكيد بالرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، وهذا إشارة إلى اجتماع رؤساء قريش في دار الندوة[٣]، لينظروا في أمر محمد ﷺ فمنهم من قال: يحبس ويُشدّ وثاقه،

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٤٧).

(٢) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٧٢٤).

(٣) هي دار بناها قُصَيّ بن كلاب ليصلح فيها بين قريش، ثُمَّ صارت لمشاورتهم. انظر: «السيرة النبوية» مجلد (١/ ٤٨٠).

وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: ليحبسوك ويوثقوك. **ومنهم:** من أشار إلى نفيه وطرده من مكة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾، **ومنهم من قال:** ينتدب من كل بطن شاباً جلداً فيقتلوا محمداً ﷺ فيتفرق دمه بين القبائل فلا يقدر قومه بنو هاشم الأخذ بثأره، وهو قوله تعالى: ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾(١). فكان أن نجّاه الله من مكرهم وكيدهم، وأذن الله لنبيه بالهجرة على ما هو معلوم في دواوين السنة، وكتب السيرة النبوية.

ولم تقف محاولة الوثنيين ضدّ الدعوة وصاحبها ﷺ، وهذه المحاولات من المشركين ما زالت إلى اليوم يواجهون بها دعوة الحق، فيكيلون لها التهم والافتراءات في نفس تلك القوالب القديمة، ولكنها مغلفة بأحدث الوسائل التقنية الحديثة، فمن يراهم في وقتنا الحاضر ويقرأ ما حدث في الماضي يجده يخرج من كير واحد: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٣]، فالواجب الإعراض عن كيد هؤلاء مع مواصلة طريق الدعوة، وتوطين النفس على العقبات الكثيرة: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

○ الصنف الثاني: أهل الكتاب «يهود ونصارى»:

فأبدأ أولاً بذكر وسائل اليهود في إعاقة انتشار الإسلام:

فمنها: إسلام بعض أحبارهم نفاقاً واستهزاءً برسول الإسلام ﷺ وبدينه.

قال ابن إسحاق: «وكان ممن تعوّذ بالإسلام، ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو مُنافق، من أحبار يهود. من بني قينقاع: سعد بن حُنيف، ونعمان بن أوفى بن عمرو، وعثمان بن أوفى، وزيد بن اللُّصيت، الذي قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسوق بني قينقاع، وهو الذي قال: حين ضلّت ناقةُ رسول الله ﷺ يزعم محمدٌ (صلوات الله وسلامه عليه) أنّه يأتيه خبرُ السماء

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» مجلد (١/ ٤٨٠ ـ ٤٨٤) لابن هشام.

وهو لا يدري أين ناقتُه!... وجاء الخبر بما قال عدوّ الله... ودلَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ﷺ على ناقته، «... **وإني والله ما أعلم إلَّا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، فهي في الشِّعب، قد حبستها شجرة في زمامها**»، فذهب رجالٌ من المسلمين، فوجدوها حيث قال رسول الله ﷺ وكما وصف»[١].

ومنها: قصدهم الفتنة برسول الله ﷺ قال ابن إسحاق: وقال كعب بن أسد، وابن صَلُوبا، وعبد الله بن صُوريا، وشأس بن قيس، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نَفْتِنُهُ عن دينه، فإنما هو بشر، فَأَتَوه، فقالوا له: يا محمد، إنك قد عرفت أنَّا أحبارُ يهود وأشرافُهم وسادتُهم، وأنَّا إن اتبعناك اتبعتك يهود، ولم يخالفونا، وأنَّ بيننا وبين بعض قومنا خُصومة، أفنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك، ونصدّقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ[٢].

ومنها: الدخول في الإسلام ثُمَّ الرجوع إلى الكفر، حيث اجتمع نفر من اليهود فقالوا: «تعالوا نؤمن بما أُنزِلَ على محمد وأصحابه غُدوةً، ونكفر به عشيَّة، حتى نَلْبِسَ عليهم دينهم لَعلَّهم يصنعون كما نصنع، ويرجعون عن دينه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧١، ٧٢][٣]، وقصدهم بهذا التنقيص بهذا الدين، ولفت أنظار الآخرين إلى النقص والعيب الذي تزعمه اليهود في هذا الدين، والله حَسِيبُهُم ﴿.. وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ومنها: السخرية والاستهزاء به ـ عليه الصلاة والسلام ـ **قال تعالى**:

---

(١) «السيرة النبوية» مجلد (١/ ٥٢٧) لابن هشام.

(٢) المصدر السابق، مجلد (١/ ٥٦٧).

(٣) المصدر السابق، مجلد (١/ ٥٥٣). وانظر: (ص٢٥٠) من هذه الرسالة.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

ففي قولهم هذا استهزاء وسخرية؛ حيث كانوا يُحَيُّون رسول الله ﷺ فيقولون: «السَّام عليك»[(١)]، ويعنون به «الموت».

قال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «... ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، أي: من التناجي المذموم، أو من التحريف في التحيّة؛ استهزاءً وسخرية»[(٢)].

وكانوا أيضاً يسخرون من الرسول ﷺ فيقولون له: «راعنا» فيوهمون أنهم يقولون: «راعنا سمعك»، بقولهم: راعنا، وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي ﷺ[(٣)].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هي كلمة كانت اليهود تقولها على وجه الاستهزاء والمسبة»[(٤)].

ثُمَّ ثانياً: وسائل النصارى في إعاقة انتشار الدعوة الإسلامية. فمنها: محاولة تشويه عقيدة الإسلام.

قال ابن إسحاق: «.. **وقال أبو رافع القرظي** حين اجتمعت الأحبارُ من اليهود، والنّصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريدُ مِنَّا يا محمد أن نَعْبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم (صلوات الله وسلامه عليه)؟ وقال رجلٌ من أهل نجران نصراني، يقال له الرئيس: أَوَ ذاك تريد منَّا يا محمد وإليه تدعونا؟ أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ: **«معاذ الله أن أَعْبُدَ غير الله أو آمر بعبادة غيره، فما بذلك بعثني الله، ولا أمرني»**[(٥)]. كُلُّ

(١) انظر: (ص٢٥٠) من هذه الرسالة ففيها تخريج الحديث في تحية اليهود.

(٢) «محاسن التأويل» (٧/ ٥٠).

(٣) انظر (ص٢٥٢) من هذه الرسالة.

(٤) «جامع البيان...» (٨/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤ ـ شاكر).

(٥) «السيرة النبوية» مجلد (١/ ٥٥٤) لابن هاشم، و«زاد المعاد...» (٣/ ٦٣٠ ـ ٦٣١).

هذا يريدون به خلط عقيدة التوحيد الصافية بعقيدة النصارى، حيث اتخذوا عيسى ابن مريم ﷺ إلٰهاً مع الله تعالى، أو هو الله أو ابن الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وهيهات أن يستجيب لندائهم إمام من أئمة الحنفاء، وخاتم الأنبياء والمرسلين ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

○ الصنف الثالث: المنافقون:

وخطر هذا الصنف على أهل الإسلام أعظم من الصنفين السابقين، لأن أولئك أعداءٌ صرحاء، وهؤلاء مستترون يعيشون بيننا ويتكلمون بألسنتنا وربما سبقونا إلى بعض الفرائض والطاعات، ولكن قلوبهم مع شياطينهم من اليهود والنصارى كما قال تعالى عن المنافقين الأوائل: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤].

فمن وسائلهم الخبيثة لإعاقة الدعوة الإسلامية: الإيذاء للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وللمؤمنين، فمن ذلك رميُ رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ الصديقة بنت الصديق بالفاحشة، وذلك مرجع الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق، حتى خطب النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ خطبة قصد بها رأس المنافقين فقال: **«يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلّا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلّا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلّا معي..»** الحديث[1].

ومن ذلك ـ أيضاً ـ قول ابن أُبيّ في نفس الغزوة ـ وتسمّى غزوة المريسيع ـ: «... والله ما مثلنا ومثل محمد إلّا كما قال القائل: «سَمِّنْ كلبك يأكلك»، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل.. ثُمَّ أقبل على من حضره من قومه، فقال: «هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا

---

(١) تقدم تخريجه، والكلام عنه بشيء من التفصيل (ص٢٥٨) من هذه الرسالة.

إلى غير داركم..»(١).

فهذا الأسلوب الذي استخدمه المنافقون في الطعن في رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفي أتباعه له أثره البالغ في تنفير الناس عن الدعوة وصاحبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وإعاقة دعوته وتأخيرها ولو يوماً واحداً وهو مكسب عند القوم لا يستهان به. ونجد أمثال هذا الطعن يوجه اليوم لدعاة الإسلام في أنفسهم تارة، وفي أعراضهم تارة أخرى؛ بقصد تشويه سمعتهم لدى عامة الناس، فلا يستجيبون لنداء الحق الذي ينادون به، فتتعثر الدعوة أمام هذه العقبة الكؤود، ويضعف الداعية عن المضي قُدُماً، وربما انحرف عن دعوته، وذلك تحت ضغط السخرية والاستهزاء به؛ إن لم يعصمه الله ـ تبارك وتعالى ـ ويتسلح بسلاح الصبر، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ومنها: التثبيط والتخذيل وإشاعة الفشل بين المؤمنين، وقد ذكر الله ـ سبحانه ـ طرفاً من هذا، فقال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا...﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٨]، «أي: لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل...»(٢).

وفي موقف آخر يتكرر الموقف نفسه من المنافقين تجاه الداعية الأول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفي موقف عصيب جداً ـ غزوة الأحزاب ـ يقول الله ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا

---

(١) انظر: (ص٢٥٩) من هذه الرسالة.
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/٦٣٨) لابن كثير.

غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ١٢ ـ ١٣]، «فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل، والشدّة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد؛ وفرصة للتهوين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون، فالواقع بظاهره يصدّقهم في التوهين والتشكيك. وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم؛ فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل، وَرَوَّعَ نفوسهم ترويعاً لا يثبت له إيمانهم المهلهل! فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير متقين ولا متجمّلين!

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كُلِّ جماعة؛ وموقفهم في الشدَّةِ هو موقف إخوانهم هؤلاء. فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان»[١].

وما خبر عبد الله بن أُبيّ بن سلول عنّا ببعيد عندما رجع بثلث الجيش يوم أُحد.

قال ابن إسحاق: «حتى إذا كانوا بالشَّوْط بين المدينة وأُحدْ، انخذل عنه عبد الله بن أُبيّ بن سلول بثُلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتلُ أنفسنا ها هنا أيها الناس، فرجع بمن اتَّبعه من قومه من أهل النفاق والرَّيب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام[٢]، أخو بني سلمة، يقول: يا قوم أذكِّركم الله ألَّا تخذلوا قومكم ونبيَّكم عندما حضر من عدوِّهم؛ فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنَّا لا نرى أنَّه يكون قتالٌ... قال: فلمَّا استعصوا عليه وأبوا إلا الإنصراف عنهم، قال:

---

(١) «في ظلال القرآن» (٥/٢٨٣٨) لسيد قطب.

(٢) ابن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غُنْم بن سلمة الأنصاري يكنَّى أبا جابر، استشهد يوم أُحد. انظر: «الاستيعاب» (٣/ ٨٤ ـ ٨٥) للقرطبي.

أبعدكم الله أعداء الله، فسيُغْنِي الله عنكم نبيه»[1]. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٧].

إذن فالسخرية والاستهزاء من أعظم أسلحة «أعداء الإسلام من كُفَّار (مشركين) وأهل كتاب ومنافقين، (وهي من أساليبهم في الحرب النفسية ضِدَّ الرسول ﷺ والمسلمين، قاصدين بذلك القضاء على الإسلام في مهده. لأنهم يدركون أن السخرية والاستهزاء ذاتُ أثرٍ بالغ في النفوس والتهوين من الشأن، فاتخذوا هذا الأسلوب سلاحاً عِدائياً ضِدَّ الدعوة والرسول ﷺ وضِدَّ المسلمين والمؤمنين»[2].

وهذا الشأن العظيم للسخرية والاستهزاء والأثرُ الفعَّال «لأن أهمَّ ما تعتمدُ عليه قُوَّة الروح المعنوية والثقة بالنفس، والسخرية من أقوى الأشياء التي تزعزعُ الثقة بالنفس وإضعاف الروح المعنوية، لأنها تُشَكِّكُ من وُجِّهَتْ إليه في نفسه، وفي موقفه وتحمله على أن يُفكِّرَ، ومجرد التفكير في ذلك نوع من الوهنِ في موقفِ من وُجِّهَتْ إليه السخرية، بَلْ إنَّ السخرية تَهُزَّ كيان من وُجِّهَتْ إليه هزّاً عنيفاً وتزلزلُ ثقته زلزلة شديدة»[3].

وعندما يتأمل المسلم في وسائل الإعلام العالمية والعربية ـ إلّا ما رحم ربي ـ يجد أنها تمارس أسلوب الاستهزاء والسخرية على شكل رسوم كاريكاتيرية، وأفلام ومسلسلات ومنشورات، تُبْرِز مظاهر تبعث على السخرية والاستهزاء بدعاة الإسلام من فقهاء ومحدثين وغيرهم، وتلمز المطوِعين من المؤمنين في الصدقات وفعل الخيرات، وكُلٌّ من يلتزم بهدي الإسلام

---

(١) «السيرة النبوية» مجلد (٢/٦٤) لابن هشام.
(٢) «الحرب النفسية» (ص٤٠٤) د. محمد المخلف.
(٣) المصدر السابق (ص٣٩٤ ـ ٣٩٥).

وتعاليمه، وسنن النبي ﷺ وهديه، يبثُّ ذلك أعداء الإسلام في الغرب الصليبي الكافر، ويتبعه المنافقون في ديار الإسلام واصفين المتمسكين بالكتاب والسنة بالأصوليين المتطرفين، وهذا الوصف «الأصولية» نشأ في الغرب حيث كان يطلق على بعض الجماعات النصرانية، ثم انتقل هذا المصطلح من الغرب إلى المسلمين ووصموا به طائفة من المسلمين، ويمكن تحديد الفترة الزمنية التي انتقل فيها هذا المصطلح تحديداً تقريبياً بالفترة ما بعد عام ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م، حيث زخرت هذه الفترة بأحداث كثيرة منسوبة إلى من يعلنون الإسلام، ويدعون إليه ـ بغض النظر عن صدق تلك الدعوى ـ حيث اندلعت الثورة الإيرانية، وازدادت سطوة المنظمات الشيعية في لبنان، وحدث اغتيال السادات، وحدث من المنظمات تهديد للمصالح الغربية، ولذلك فإنَّ الخبراء الغربيين في شؤون الشرق الأوسط يعترفون بأنَّ هذه الحركات الإسلامية ما شغلت اهتمام الحكومات ولا الشعوب إلا حينما حدثت تصرفات إرهابية ضدَّ الغربيين[(١)].

يقول الدكتور باتريك رايان (خبير أمريكي متخصص في دراسات الشرق الأوسط): «إطلاق اسم الأصوليين على العديد من الناس قد أصبح شائعاً في الكتابات السياسية والصحفية في السنوات الأخيرة، ومع نهاية عام ١٩٨٠م [١٤٠٠ ـ ١٤٠١هـ] كانت الصحف الأمريكية تنشر الكثير عمَّا نسميه المد النامي من الأصولية الدينية».

كما أنَّ هذه الفترة شهدت تنامي الصحوة الإسلامية، وظهور المظاهر الإسلامية كالحجاب واللحية والدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، هذا كُلُّهُ جعل الغرب يعيش في حالة من القلق إلى درجة دفعت بعض الباحثين إلى

(١) انظر: ما قاله بعض الخبراء الأمريكيين في ندوة الكونغرس التي نشرها مترجمة إلى العربية د. أحمد خضر، مجلة «المجتمع» عدد (٩٣٧) (ص٣٢)، وعدد (٩٧٣) (ص٥٠)، وعدد (٩٨٩) (ص٤٩).

وصفها بأنها حالة مرضية»[(١)].

ويقابل هذا المصطلح «الأصولية» مصطلح آخر هو «التطرف» حيث نشأ أول ما نشأ في «إسرائيل عندما بدأ المسلمون يَعُونَ ذاتيتهم ويعودون للإسلام مصدراً للعزة وطريقاً للنصر». ويؤيد هذا ما نشر في دراسةٍ وثائقية عام ١٤٠٦هـ بعنوان: «عداء اليهود للحركة الإسلامية». وفيها بعض ما نشر في الصحف اليهودية وأذيع في الإذاعة الإسرائيلية من مقالات وأخبار تعكس التَّخَوُّف الكبير من المتمسكين بالإسلام ووصفهم جميعاً بالتطرف»[(٢)].

وهذا الخوف من المدّ الإسلامي المتنامي عبَّر عنه **الرئيس الأمريكي السابق «نيكسون» بقوله**: «إنّ صراع العرب ضد اليهود يتطور إلى نزاع بين الأصوليين الإسلاميين من جانب وإسرائيل والدول العربية المعتدلة من جانب آخر». **ويقول ـ أيضاً ـ**: «في العالم الإسلامي من المغرب إلى أندونيسيا ورثت الأصولية الإسلامية مكان الشيوعية باعتبارها الأداة الأساسية للتغيير العنيف». **ويقول ـ أيضاً ـ**: «يجب على روسيا وأمريكا أن تعقدا تعاوناً حاسماً لضرب الأصولية الإسلامية»[(٣)].

هذا مكر أعداء الإسلام وكيدهم ضدَّ أهل الإسلام، فما الواجب على المسلمين اتخاذه حيال هذه الهجمات الشرسة من الأعداء؟

إن الواجب سَهْلٌ لمن سهَّلَهُ الله عليه ويتمثل في الأمور التالية:

أولاً: العودة الصادقة إلى كتاب الله ـ سبحانه ـ وسنة نبيِّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ

---

(١) «الغلو في الدين...» (ص١٧٤) د. عبد الرحمٰن اللويحق. وانظر: (ص٢٧٧) من هذه الرسالة «صور الاستهزاء في العصر الحاضر».

(٢) المصدر السابق (ص١٧٥).

(٣) «القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى» (ص٤٠).

وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

ثانياً: التأمل الشديد لما ورد في كتاب الله من الحديث عن السخرية والاستهزاء واستنباط المنهج القرآني في مواجهة الساخرين بالرسل وأتباعهم، وكيف تعامل الرسول ﷺ ـ وأصحابه ـ ﷺ مع هذا الأسلوب، وهذا يظهر في الأمر التالي.

ثالثاً: التحلي بالصبر وهو «أعظم قوة يُمكِن أن يتصف بها الإنسان لأنه يتضمن التحكُّم في قوةِ الاحتمال وقوةِ الإرادة، وذلك منبعه قوة الإيمان، فكان الدفاع والتضحية، ولكن الدفاع والتضحية من أجل العقيدة والإيمان بها، في حاجةٍ إلى حوافز معنوية وروحية، ومن هنا جاء دور القرآن الكريم في مواجهة أساليب الأعداء في حربهم النفسية وتدعيم مركز المسلمين في مواجهة هذا لأسلوب، فكان القرآن أقوى سلاح معنوي اعتصم به المسلمون في مواجهة صِراعهم الرهيب مع الأعداء، حيث واجه من سخر واستهزأ بالرسول والمسلمين بسخرية واستهزاء أَشَدَّ من سخريتهم واستهزائهم، مدافعاً ومواسياً للرسول ﷺ ومقللاً من شأنهم وشأن سخريتهم، وكاشفاً لأحوالهم كما قال تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنعام: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١] والله تعالى أعلم.

الخاتمة

جرياً على عادة الباحثين وأصول البحث في الرسائل الجامعية في هذا العصر، من ذكر أهم النتائج التي توصَّلُوا إليها، فإني أسجل هنا **وفي نهاية أبواب هذا البحث** ـ وبعد حمد الله تبارك وتعالى على إتمامه ـ أهم النتائج والتوصيات.

○ أولاً: أهم النتائج:

١ ـ أنَّ دين الإسلام مبني على أصلين عظيمين «التعظيم والمحبة»، فمتى ما وقع أحدٌ في الاستهزاء بالدين وشعائره وشرائعه بطل هذان الأصلان من أساسهما عنده، فالاستهزاء ما هو إلّا ناقض من نواقض المحبة والتعظيم، فلو كان المستهزئ بالله وآياته ورسوله ودين الإسلام مُحِبّاً لهذه الأصول العظيمة، معظماً لرب العالمين ما فعل هذا الأمر الخطير الذي هو أحد نواقض الإسلام، بل أخطرها.

٢ ـ أن الباعث على الاستهزاء والسخرية بالدين قد يكون ناتجاً عن أمور نفسية؛ كالحقد والحسد والكبر، والنفاق والجهل، وضعف الإيمان والعقل، وحب المال، وقد يكون الباعث إليه أموراً خارجية كالتقليد للأمم السابقة، والانحراف العقدي، في حياة الأمة المسلمة، والضعف في أوساط العلماء والمحتسبين، وجرأة المشرعين من دون الله ـ تعالى ـ على تعطيل الحدود الشرعية ومنها حدّ الردة على المستهزئين والمرتدين.

٣ ـ أنَّ هذا الناقض من نواقض الإيمان والإسلام ليس وليد الساعة في

حياة الأمة الإسلامية، بل هو قديم قِدَمُ الحق الذي جاءت به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومنذ عهد نوح ﷺ ومروراً بإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثُمَّ موسى وعيسى ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٤ ـ أن الاستهزاء بالدين والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أمر مشترك بين جميع أعداء الرسل، قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: ١٠ ـ ١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ [الزخرف: ٦ ـ ٧].

٥ ـ إذا كان الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهم صفوة الله من خلقه لم يسلموا من هذا الأسلوب التنفيري من أساليب الصدِّ عن دعوة الحق.

فكيف بأتباعهم من علماء ومجددين ومصلحين، بل وعامة أهل الإسلام، فمواجهتهم بمثل هذا سنة ماضية منذ عهد نوح إلى ما شاء الله، قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

٦ ـ عندما بعث الله خاتم رسله محمد بن عبد الله ﷺ على حين فترةٍ من الرسل ـ قُوبِل بالاستهزاء والسخرية من أعداء الرسل وهم أهل الشرك والوثنية، وأهل الكتاب، والمنافقين، ثُمَّ واجه أتباعه من بعده صنفاً رابعاً لم يكن موجوداً في زمنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهم أهل الأهواء والبدع؛ من رافضة وجهمية وصوفية وغيرهم.

٧ ـ أنَّ الاستهزاء بالله ـ تبارك وتعالى ـ ودينه، ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ردَّةٌ صريحة، وكفر بواح؛ بدلائل الكتاب والسنة الظاهرة البيِّنةِ،

وأقاويل سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة الذين يعتقدون الإيمان: قولٌ وعمل.

٨ ـ أنَّهُ لا عبرة بأقوال أهل البدع؛ من المرجئة والجهمية وغيرهم، مِمَّنْ يرى الإيمان مجرد المعرفة أو التصديق، والكفر هو الجحود فقط، وما عدا ذلك فلا يبلغ الكفر، وعليه فتكون مظاهر الشرك من عبادة الأموات والطواف بقبورهم وتقديم القربات لهم، والاستهزاء بالدين وبالرسول ﷺ لا يكون رِدَّةً وكُفْراً؛ لأنها من الأعمال ـ على حَدِّ زعمهم ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ونُنَزِّهُ دينه ورسله عن اعتقاداتهم الباطلة.

٩ ـ المنهج الحق الوسط الذي يدُلُّ عليه كتابُ الله ـ تعالى ـ وسنة نبيه ﷺ هو ما عليه أهل السنة والجماعة في أبواب الاعتقاد كُلِّها عموماً، وما يتعلق بالإيمان والكفر على الخصوص، فهم أُمَّةٌ وسط، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فهم وسط بين المرجئة والجهمية من جهة، وبين الوعيدية ـ الخوارج والمعتزلة ـ من جهة أخرى.

١٠ ـ أَنَّهُ لا عبرة بالأقوال الشاذة وإن وردت عن بعض الفقهاء؛ كفقهاء العراق وابن حزم وغيرهم؛ من أنه لا يكفر إلا المستهزئُ والسابّ المستحِلُّ، وهذا الرأي الشاذ عن إجماع العلماء إنما دَخَلَ على الفقهاء من كلام متأخري المتكلمين، فلا يَظُنُّ أقوام أنَّ المسألة خلافية لِما يراه من تلك الأقوال الشاذة بعد أن تبيَّن الحق بدليله، ونقل إجماع العلماء فيه.

١١ ـ أنَّ من تنقّص أصحاب النبي ﷺ ـ رضي الله عنهم ـ حكمه يختلف عمَّن تنقص الأنبياء والمرسلين، فلا يبلغ القتل، بل يجلد ويحبس طويلاً حتى يقلع عن سَبِّهم والاستهزاء بهم، إلا إذا كان استهزاؤه وتنقصه لدينهم فهذا كفر، وبخاصة الشيخان، إلّا ما كان في حق عائشة رضي الله عنها فيما برَّأها الله منه، وبقية أزواجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على القول الراجح أنَّهُ

كَسَبِّ عائشة لأنَّ فيه إلحاق العار والعيب للرسول ﷺ فمن سَبَّ زوج الرجل فقد سَبَّ الرجل ذاته.

١٢ ـ ينبغي للمسلم الوقوف عند حدود الله، والغضب حين تنتهك محارم الله ـ تبارك وتعالى ـ فإن ذلك طريق الخلاص من تبعة السكوت على المنكرات ـ ومن أعظمها نواقض الإسلام ـ فضلاً عن الرضى بها ومشاركة أصحابها في المجالس والمنتديات وغيرها، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ . . .﴾ [النساء: ١٤٠]، وأمَّا مخالفة هذا التوجيه الربَّاني فهي أول مراحل الهزيمة النفسية، وما يتبعه من الآثار أكبر.

١٣ ـ أنَّ موقف المسلم من المستهزئين لا يخلو من حالين:

أحدهما: في حال الاستضعاف وقِلَّةِ الناصر والمعين، فالواجب الصبر على الأذى، وكفُّ الأيدي، وإقامة الصلاة وتربية النفس والأمة على الفضائل واستكمالها ريثما تعود الأمة إلى دينها، ويمكن لها في الأرض وترفع راية الجهاد في سبيل الله، وإقامة حكم الله على المستهزئين، وتكون كلمتهم هي السفلى وكلمة الله هي العليا.

وثانيهما: في حال التمكين وقوة أهل الإسلام؛ فالواجب جهاد الكفار والمنافقين عملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم: ٩].

١٤ ـ أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يغار على أوليائه، ويغضب حين يستهان بدينهم، وينتقم ممَّن فعل ذلك؛ تارة بجنده وعباده المؤمنين يعذب بهم أعداءه المستهزئين، وتارة يسلط الله عقوبته على الساخرين في صور كثيرة؛ من أمراض فتَّاكةٍ، ومصائب مُهْلِكَةٌ، وآفات مُحْدِقَةٌ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وما يُعِدُّه لهم من عذاب الآخرة أكبر.

١٥ ـ المتأمل لحال هذه الأمة في الوقت الحاضر يجد أنَّ أعداءها قد أجلبوا بخيلهم ورجلهم، وأتوا من كُلِّ حدبٍ ينسلون ليجهزوا على هذه الأمة ودينها، وقد بذلوا في سبيل تكالبهم هذا كُلَّ ما يملكون من وسائل الإفساد في كُلِّ المجالات سياسيةٍ أو اجتماعيةٍ أو ثقافيةٍ أو تعليميةٍ، أو في مجال الإعلام والفن، كُلُّ ذلك لإطفاء نور الله، وإماته روح الجهاد في سبيل الله، والاعتزاز بهذا الدين، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ⑧﴾ [الصف: ٨].

١٦ ـ أنَّ أعداء الإسلام ـ من اليهود والنصارى والمشركين ـ قد انتقوا من بني جلدتنا ومِمَّن يتكلمون بألستنا، أقواماً جرفهم سيل الإلحاد، وموجات الزندقة، والعلمنة في ديار الإسلام من أمثال: طه حسين، ونجيب محفوظ، وعلاء حامد، وعلي عبد الرازق، وغيرهم كثير ـ لا كثّرهم الله ـ فصاروا يهدمون القيم والعقائد، ويشوهون الشرائع والشعائر، ويفسدون الأخلاق الفاضلة، وقد يكون ذلك كُلّه باسم العلم أو الوطنية أو الدراسات النفسية، أو الحرية والمساواة، وغير ذلك من الشعارات الزائفة: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

١٧ ـ أنَّ أعظم شيء حققه المستهزئون: هدم قداسة الدين وهيبته وعظمته في نفوس كثير من أبناء الإسلام، فصار فِئَامٌ منهم يعتقدون أنَّ سبب تخلفهم هو الإسلام، ودَبَّ إلى نفوسهم الهزيمة النفسية، والانبهار بتقدم الغرب في المجالات العلمية والصناعية والحربية وغيرها، وأنه ما تحقق هذا إلا بعد أن نبذت أوروبا الدين وتعاليمه وقيمه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

١٨ ـ أن الدعوة الإسلامية لا ينبغي أن تخضع لتلك الآثار النكدة التي نتجت عن السخرية والاستهزاء بالدين، بل ينبغي أن تجعل تلك الصور المقيتة من أعداء الدين الحق علامة على صحة الطريق وسلامة المنهج، فلو

نجا أحدٌ من ذلك لكان أفضل الخلق ﷺ أولهم، ولكنه لقي من المكذبين المستهزئين في مكة والطائف والمدينة، ليكون ذلك تسلية لأتباعه من بعده: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠، والأنبياء: ٤١].

○ ثانياً: التوصيات والمقترحات:

١ ـ على الأمة الإسلامية اليوم أن تعيد الاحترام والتعظيم والإجلال إلى الله ـ تعالى ـ وكتابه المبين ولنبيه الكريم، ولشرعه المتين ـ بدلاً من السخرية والاستهزاء ـ لتنال رضى الله ﷻ وتعود لها كرامتها وعِزَّها.

٢ ـ وعلى الأمة ـ أيضاً ـ أن تعود إلى دين الإسلام؛ عقيدة وشريعة قولاً وعملاً، في جميع مجالات الحياة الخاصة والعامة، بدلاً من الاعتقاد الباطل في أنَّ سبب تخلف المسلمين هو تمسكهم بهذا الدين ـ وليتحقق للأمة وعد الله لها بالتمكين في الأرض، ورفع الذلة والهوان عنها، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

٣ ـ وعلى الأمة ـ أيضاً ـ أن تحفظ حرمة النبي ﷺ في خاصَّةِ نفسه؛ وفي آل بيته وبقية أصحابه، وأزواجه أمهات المؤمنين، وفي سُنَّتِه وهديه، وتقديم ذلك على آراء الأشخاص، وعصبيَّات المذاهب، وحزبيَّات الطوائف والجماعات والفرق، حتى تصبح الأمة أمة واحدة بحق، وما ذلك على الله بعزيز.

٤ ـ يجب على علماء أهل السنة والجماعة ـ ويتبعهم في ذلك طلبة العلم ـ بيان الحق والدعوة إلى الله ـ تعالى ـ في جميع المجالات، ومع كُلِّ

الطوائف، والطبقات في المجتمعات الإسلامية، مع التركيز على التوحيد وبيان أهميته، ونشر المفاهيم العقدية الصحيحة، وبيان ضدِّ ذلك من الشرك بكافة صوره وأشكاله، سواءً في العبادة أو في الطاعة والتشريع،حتى تتحقق العبودية الكاملة لله ـ تعالى ـ.

٥ ـ يجب توحيد صفوف أهل السنة والجماعة في جميع أنحاء العالم، وذلك تقدمة لتوحيد صفوف الأمة كلها على منهج السلف الصالح.

كما يجب التعاون على خطط دعوية وعلمية مثمرة لنشر هذه العقيدة مع تجنب إثارة الخلافات الفقهية التي يسوغ فيها الاختلاف، وذلك بمراعاة أدب الخلاف كما كان بين السلف، لأن الهجمة الشرسة من أصناف المستهزئين، تعامل المسلمين كجبهة واحدة، فالواجب توحيد الجهود لا تبديدها، لصد هذا العدو المشترك.

٦ ـ على الدعوة الإسلامية والمتمثلة في هذا العصر في الصحوة المباركة مضاعفة الجهد والالتفاف حول العلماء الربانيين والتعاون في فضح سبيل المجرمين وإنكار المنكرات والاحتساب على كُلِّ من يتجرَّأُ على الدين بالسخرية والاستهزاء، وعلى الحرمات بإشاعة الفاحشة عبر وسائل الإعلام والقنوات الفضائية، وبذل النصحية في ذلك بطرقها المشروعة إبراءً للذِّمة وإقامة للحجة.

٧ ـ إحياء رسالة المسجد، وإعادة بيوت الله إلى مجدها وعِزِّها، ووظيفتها في الإسلام، فتقام فيها الصلوات، وتفتح حلقات الوعظ والتعليم للعلماء والدعاة والمصلحين، ليبثوا علم الكتاب والسنة، فيتذكر الغافل، ويتعلَّم الجاهل ويتعظ العاصي، وتتهذب النفوس، وتَسْمُوا الأخلاق، ويُقبل الناس على الطاعة، وتعود الأمة لخيريتها ومجدها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ...﴾ [الرعد: ١١]. وذلك لمقاومة هجمات المستهزئين الحاقدين في كُلِّ المجالات.

٨ ـ ينبغي للمختصصين في الدراسات الشرعية، من أهل السنة والجماعة، وبخاصة في الجامعات تكثيف الدراسات والبحوث المتخصصة لأجل بيان أصناف المستهزئين؛ كأهل العلمنة والحداثة، وأرباب الفرق الباطنية، والصوفية، والعصرانيون أرباب العقلانية، الذين يحاربون الله ورسوله، ويطعنون في الدين ويسخرون من رب العالمين، فيتصدون لهؤلاء مجاهدين بألسنتهم ذابّين عن دين الله، مراغمين لأعداء الله: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

والله تعالى أعلم، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الفهارس

* فهرس المراجع العلمية.
* فهرس الموضوعات.

فهرس المراجع

- أ -

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة: تأليف الشيخ الإمام أبو عبد الله عبد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، ت٣٨٧هـ، تحقيق ودراسة رضا نعسان، ط. دار الراية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٣ ـ الإتحاف في الرد على الصحَّاف: تأليف الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ، تحقيق عبد العزيز آل حمد، ط. دار العاصمة، الرياض، الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٤ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية: تأليف الإمام ابن القيم الجوزية، صححه وضبطه جماعة من العلماء بإشراف، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٥ ـ أحكام أهل الملل من الجامع لمسائل الإمام أحمد بن حنبل: تأليف الإمام أبي بكر أحمد بن محمد الخلال، ت٣١١هـ، تحقيق سيد كسروي حسن، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٦ ـ الأحكام السلطانية: للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي، ت٤٥٨هـ، تعليق محمد حامد الفقهي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٧ ـ الإحكام شرح أصول الأحكام: تأليف العلامة عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، ت١٣٩٢هـ، ط. الثانية، ١٤٠٦هـ، بدون معلومات أخرى.

٨ ـ أحكام القرآن: تأليف أبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، ت٥٤٣هـ، تحقيق علي محمد البجاوي، ط. دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٩ ـ أحكام المرتد في الشريعة الإسلامية: تأليف نعمان عبد الرزاق السامرائي، الناشر دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ط. الثانية، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٠ ـ إحياء علوم الدين: تأليف الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ت٥٠٥هـ، الناشر دار المعرفة، بيروت، بدون معلومات أخرى.
١١ ـ إخلاص الناوي: تحقيق الشيخ عبد العزيز عطية زلط، القاهرة، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، بدون معلومات أخرى.
١٢ ـ الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد: تأليف الشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.
١٣ ـ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: لأبي العباس أحمد بن محمد العسقلاني، ت٩٢٣هـ، دار الفكر، ط. السادسة، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق، مصر، سنة ١٣٠٤هـ.
١٤ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: تأليف الشيخ العلّامة محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، الثانية، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
١٥ ـ أزمة الحوار الديني: تأليف جمال سلطان، الناشر دار الوطن، الرياض، ١٤١٢هـ.
١٦ ـ أسباب النزول: تأليف جلال الدين السيوطي، ت٩١١هـ، طبع بعناية بديع السيد اللحام، دار الهجرة، دمشق، الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
١٧ ـ أسباب نزول القرآن: تأليف الإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، ت٤٦٨هـ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
١٨ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب: تأليف أبي عمر يوسف بن عبد البر، ت٤٦٣هـ، تحقيق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
١٩ ـ الاستقامة: تأليف شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ت٧٢٨هـ، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الثانية، ١٤٠٩هـ.
٢٠ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة: تأليف أبي الحسن علي بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير، ت٦٣٠هـ، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور، ومحمد عبد الوهاب فايد، ط. الشعب، بدون معلومات أخرى.
٢١ ـ أسنى المطالب شرح روضة الطالب: للقاضي أبي يحيى زكريا الأنصاري الشافعي، ت٩٢٦هـ، ط. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٢٢ ـ الإشراف على مذاهب أهل العلم: تأليف الإمام أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري الشافعي، ت٣٠٩هـ، قدم له وخرّج أحاديثه عبد الله عمر البارودي، الناشر مكتبة مصطفى أحمد الباز، مكة المكرمة، بدون معلومات أخرى.

٢٣ ـ الإصابة في تمييز الصحابة: تأليف الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ، دراسة وتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٤ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: تأليف العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، ت١٣٩٣هـ، ط. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٥ ـ الاعتصام: تأليف العلامة المحقق أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، وبه تعريف العلامة المدقق السيد محمد رشيد رضا، ط. مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، بدون معلومات أخرى.

٢٦ ـ إعلاء السنن: للعلامة ظفر أحمد التهانوي، ت١٣١٠هـ، الناشر إدارة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، كراتشي، باكستان، بدون معلومات أخرى.

٢٧ ـ الإعلام بقواطع الإسلام: تأليف أبي العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر المكي الهيتمي، ت٩٧٤هـ، المطبوع مع «الزواجر عن اقتران الكبائر» له، ط. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٨ ـ إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ﷺ: تأليف الإمام محمد بن طولون الدمشقي، ت٩٥٣هـ، تحقيق محمد الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الثانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٩ ـ أعلام السنّة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة: تأليف الشيخ العلامة حافظ بن أحمد الحكمي، ت١٣٧٧هـ، تخريج وتعليق مصطفى أبو النصر الشلبي، مكتبة السوادي للتوزيع، ط. الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

٣٠ ـ الإعلام «قاموس تراجم للعرب والمستشرقين»: تأليف خير الدين الزركلي، ط. دار العلم للملايين، بيروت، الثامنة، ١٩٨٩م.

٣١ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين: تأليف العلامة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ت٧٥١هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٣٢ ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: تأليف الإمام ابن القيم، ت٧٥١هـ، تحقيق محمد حامد الفقي، ط. دار الفكر، بدون معلومات أخرى.
٣٣ ـ الأغاني: تأليف أبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، ت٣٥٦هـ، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٧م.
٣٤ ـ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: تأليف شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ت٧٢٨هـ، تحقيق د. ناصر بن عبد الكريم العقل، ط. مكتبة الرشد، الرياض، الثانية، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
٣٥ ـ الإقناع: للإمام أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر، ت٣١٨هـ، تحقيق د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، ط. مطابع الفردوس، الرياض، الأولى، ١٤٠٨هـ.
٣٦ ـ الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل: تأليف أبي النجا شرف الدين موسى الحجاوي المقدسي، ت٩٦٨هـ، تصحيح وتعليق عبد اللطيف محمد موسى السبكي، الناشر دار الباز، ودار المعرفة، بيروت، بدون معلومات أخرى.
٣٧ ـ الأم: تأليف الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ت٢٠٤هـ، تحقيق د. أحمد بدر الدين حسون، ط. دار قتيبة، الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
٣٨ ـ الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارها في حياة الأمة: تأليف علي بن بخيت الزهراني، الناشر دار الرسالة، بدون معلومات أخرى.
٣٩ ـ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل: تأليف شيخ الإسلام العلامة الفقيه المحقق علاء الدين أبي الحسن علي سليمان المرداوي الحنبلي، ت٨٨٥هـ، تحقيق محمد حامد الفقي، ط. الأولى، مكتبة السنّة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م.

ـ ب ـ

٤٠ ـ بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم الجوزية: جمع يسري السيد محمد، ط. دار ابن الجوزي، الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
٤١ ـ البداية والنهاية: أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، ت٧٧٤هـ، وثّقه الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
٤٢ ـ براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة: تأليف الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، ط. الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٤٣ ـ بلوغ المرام من أدلة الأحكام: تأليف الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ، طبع بعناية محمد حامد الفقي، ط. مؤسسة الكتب الثقافية، الأولى، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٤٤ ـ البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة: تأليف العلامة أبو الوليد بن رشد القرطبي، ت٥٢٠هـ، تحقيق د. محمد حجي، الناشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

ـ ت ـ

٤٥ ـ التاج والإكليل لمختصر خليل: تأليف العلامة عبد الله بن محمد بن يوسف العيدوي الشهير بالمُوَّاق، ت٨٩٧هـ، بدون معلومات أخرى.

٤٦ ـ تاج العروس.

٤٧ ـ تاريخ بغداد: لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، ت٤٦٣هـ، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٤٨ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية: لبروكلمان.

٤٩ ـ تأويل مختلف الحديث: تأليف الإمام ابن قتيبة الدينوري، ت٢٧٦هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون معلومات أخرى.

٥٠ ـ تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام المطبوع بهامش فتح العلي المالك: للقاضي برهان الدين بن فرحون المالكي، ت٧٩٩هـ ـ ١٣٩٧هـ، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

٥١ ـ تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري: تأليف أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، ط. دار الفكر، دمشق، الثانية، ١٣٩٩هـ، ودار الفكر المعاصر، بيروت.

٥٢ ـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: تأليف الدكتور محمد محمد حسين، الناشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الثامنة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

٥٣ ـ تجديد الفكر الإسلامي: تأليف جمال سلطان، الناشر دار الوطن، الرياض، ط. الأولى، ١٤١٢هـ.

٥٤ ـ تحذير المسلمين عن السخرية والاستهزاء بالدين: تأليف الشيخ عبد الله بن جار الله الجار الله، الناشر دار الثقة، مكة المكرمة، بدون معلومات أخرى.

٥٥ ـ التحرير والتنوير: تأليف العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط. الدار التونسية، والدار الجماهيرية الليبية، بدون معلومات أخرى.

٥٦ ـ تحريف النصوص من مآخذ أهل الأهواء في الاستدلال: تأليف الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر دار العاصمة، الرياض، ط. الأولى، ١٤١٢هـ.

٥٧ ـ تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس: تأليف الشيخ العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ، ت١٢٩٣هـ، تحقيق عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم، ط. الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٥٨ ـ التدمرية تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع: تأليف شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ت٧٢٨هـ، تحقيق محمد بن عودة السعوي، ط. الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٥٩ ـ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم: تأليف الشيخ بدر الدين بن جماعة الكناني، ت٧٣٣هـ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، بدون معلومات أخرى.

٦٠ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: تأليف أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، ت٥٤٤هـ، تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود، ط. مكتبة الحياة، بيروت، ودار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا، بدون معلومات أخرى.

٦١ ـ تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة: تأليف أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون معلومات أخرى.

٦٢ ـ التعريفات: تأليف علي بن محمد بن علي الجرجاني، ت٨١٦هـ، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، الثانية، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٦٣ ـ تعظيم السنّة: عبد المقصود السحيباني.

٦٤ ـ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد: تأليف الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ت١٣٣٣هـ، ط. المكتب الإسلامي، السابعة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٦٥ ـ تفسير القرآن العظيم: تأليف الإمام أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، ت٧٧٤هـ، تخريج حسين إبراهيم زهران، ط. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٦٦ ـ تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم، ت٣٢٧هـ، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط. الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٦٧ ـ التفسير الكبير: تأليف الفخر الرازي، الناشر دار الكتب العلمية، ط. الثانية، بدون معلومات أخرى.

٦٨ ـ تقريب التهذيب: تأليف الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ، تحقيق أبي الأشبال صغير أحمد شاغف الباكستاني، ط. دار العاصمة، الرياض، الأولى، ١٤١٦هـ.

٦٩ ـ تلبيس مردود: تأليف الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، ط. الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٧٠ ـ تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة: تأليف أبي الحسن علي بن محمد بن عراق الكناني، (ت٩٦٣هـ)، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، وعبد الله محمد الصديق، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٧١ ـ تهذيب التهذيب: للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٧٢ ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال: تأليف الحافظ المتقن جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي، ت٧٤٢هـ، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، ط. مؤسسة الرسالة، الثانية، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٧٣ ـ تهذيب اللغة: تأليف أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، ت٣٧٠هـ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ومحمود فرج العقدة وآخرون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، مع دار القومية العربية للطباعة، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

٧٤ ـ توضيح الأحكام من بلوغ المرام: تأليف الشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام، الناشر مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط. الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٧٥ ـ التوضيح: للمقدسي.

٧٦ ـ تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان: تأليف العلامة عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، ط. مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، مكة المكرمة، توزيع الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ١٣٩٨هـ، بدون معلومات أخرى.

ـ ث ـ

٧٧ ـ الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية: تأليف الشيخ عابد السفياني، ط. مكتبة المنار، مكة المكرمة، الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

- ج -

٧٨ ـ جامع بيان العلم وفضله: تأليف أبي عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق أبي الأشبال الزهري، ط. دار ابن الجوزي، الدمام، الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٧٩ ـ جامع البيان عن تأويل القرآن: تأليف الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت٣١٠هـ، تحقيق محمود محمد شاكر، مراجعة أحمد محمد شاكر، ط. دار المعارف بمصر، الثانية، بدون معلومات أخرى.

٨٠ ـ جامع البيان في تأويل القرآن: تأليف الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت٣١٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٨١ ـ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم: تأليف الإمام الحافظ أبي الفرج عبد الرحمٰن بن رجب البغدادي الحنبلي، ت٧٩٥هـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٨٢ ـ الجامع لأحكام القرآن: تأليف الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ت٦٧١هـ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٨٣ ـ جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام: تأليف أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، الناشر دار القلم، دمشق، ط. الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٨٤ ـ الجهاد والقتال في السياسة الشرعية «رسالة دكتوراه»: تأليف الدكتور محمد خير هيكل، دار البيارق، بيروت، ط. الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٨٥ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: تأليف شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ت٧٢٨هـ، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر، د. عبد العزيز العسكر، ود. حمد الحمدان، ط. دار العاصمة، الرياض، الأولى، ١٤١٤هـ.

٨٦ ـ الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية: تأليف محيي الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد القرشي الحنفي، ت٧٧٥هـ، تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلو، ط. هجر، الثانية، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

- ح -

٨٧ ـ حاشية البيجوري علي بن القاسم: للشيخ إبراهيم البيجوري، الناشر دار الفكر.

٨٨ ـ حاشية التحفة: للعلامة عبد الحميد الشرواني، بدون معلومات أخرى.

٨٩ ـ حاشية الجمل: للشيخ سليمان بن عمر بن منصور الأزهري المعروف بالجمل، ت١٢٠٤هـ، الناشر دار إحياء التراث العربي.
٩٠ ـ حاشية الدسوقي: لابن عرفة.
٩١ ـ حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع: جمع الشيخ عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم النجدي، ت١٣٩٢هـ، ط. الثالثة، ١٤٠٥هـ، بدون معلومات أخرى.
٩٢ ـ الحداثة في ميزان الإسلام: تأليف الشيخ عوض القرني، الناشر هجر، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، بدون معلومات أخرى.
٩٣ ـ الحدود والتعزيرات عند ابن القيم: تأليف الشيخ العلامة بكر أبو زيد، الناشر دار العاصمة، الرياض، ط. الثانية، ١٤١٥هـ.
٩٤ ـ الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام: تأليف العلامة محمد ناصر الدين الألباني، ط. الدار السلفية، الكويت، الثالثة، ١٤٠٠هـ.
٩٥ ـ الحسبة في العصر المملوكي وواقعنا المعاصر «دراسة تحليلية نقدية»: د. حيدر أحمد الصافح، دارالإعلام الدولي، القاهرة، ط. الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
٩٦ ـ حصوننا مهددة من داخلها: تأليف د. محمد محمد حسين، الناشر دار الريان، مكة المكرمة، ط. الثانية عشر، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
٩٧ ـ حول تطبيق الشريعة: تأليف الشيخ محمد قطب، ط. مكتبة السنّة، الدار السلفية لنشر العلم، القاهرة، الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
٩٨ ـ حكم الإسلام في جرائم سلمان رشدي: تأليف د. علاء الدين خروفة، بدون معلومات أخرى.

ـ خ ـ

٩٩ ـ خصائص التصور الإسلامي ومقوماته: تأليف سيد قطب، دار الشروق، ط. العاشرة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

ـ د ـ

١٠٠ ـ الدرر السنية في الأجوبة النجدية: جمع عبد الرحمٰن بن قاسم العاصمي النجدي، طبع بأمر الملك فيصل رَحِمَهُ اللَّهُ في مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، الثانية، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.
١٠١ ـ دراسات في السيرة النبوية: تأليف محمد سرور نايف زين العابدين، الناشر دار الأرقم، ط. الثانية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٠٢ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: تأليف الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ، بدون معلومات أخرى.

١٠٣ ـ الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة: تأليف الإمام جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي، ت٩١١هـ، تحقيق محمد لطفي الصباغ، ط. مكتبة الوراق، الرياض، الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

١٠٤ ـ الدُّر المنثور في التفسير بالمأثور: تأليف الإمام جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، ت٩١١هـ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

١٠٥ ـ الدرة البهية في المسائل الفقهية: تأليف محمد بن علي الشوكاني، ت١٢٥٠هـ، المطبوع مع «الروضة الندية» لمحمد صديق حسن خان، ط. مكتبة الكوثر، الرياض، الرابعة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٠٦ ـ الدعوة إلى الله ﷺ وأخلاق الدعاة: بقلم سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٠٧ ـ دعوة التوحيد أصولها، الأدوار التي مرت بها، مشاهير دعاتها: تأليف د. محمد خليل هراس، ط. مكتبة الصحابة، بدون معلومات أخرى.

١٠٨ ـ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: تأليف العلامة الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي، ت١٣٩٣هـ، ط. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، بدون معلومات أخرى.

١٠٩ ـ دلائل الأحكام من أحاديث الرسول ﷺ: تأليف بهاء الدين أبي المحاسن يوسف بن رافع بن شداد الحلبي الشافعي المقرى، ت٦٣٢هـ، تحقيق المهري وشيخاني والأيوبي، ط. دار قتيبة، الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١١٠ ـ دليل الطالب لنيل المطالب: للشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي، ت١٠٣٣هـ، تحقيق عبد الله عمر البارودي، ط. مؤسسة الكتب الثقافية، الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١١١ ـ ديوان ديك الجن: تأليف عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن تميم، ت٢٣٦هـ، تحقيق أنطوان محسن القوال، الناشر دار الكاتب العربي، ط. الأولى، ١٤١٢هـ.

ـ ذ ـ

١١٢ ـ الذخيرة: للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، ت٦٨٤هـ، تحقيق محمد بو خبزة، ط. دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤م.

- ر -

١١٣ ـ الرحيق المختوم: تأليف فضيلة الشيخ صفي الرحمٰن المباركفوري، الجامعة السلفية، الهند، ط. مكتبة المؤيد، الرياض، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
١١٤ ـ الرد على البكري: تأليف شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ت٧٢٨هـ، ط. دار أطلس، الرياض، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.
١١٥ ـ الرد على الجهمية: تأليف الإمام أبي سعيد الدارمي، ت٢٨٠هـ ضمن «عقائد السلف»: جمع علي سامي النشار وعماد جمعي الطالبي، ط. منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧١م.
١١٦ ـ الرسالة: تأليف الإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي، ت٢٠٤هـ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، ط. مكتبة دار التراث، القاهرة، الثانية، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
١١٧ ـ رسالة الإصلاح: تأليف الشيخ عبد الرحمٰن بن عبد الله الجبرين، مطبوع بالآلة الراقمة.
١١٨ ـ رسالة الرد على الرافضة: تأليف الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، تحقيق د. ناصر بن سعيد الرشيد، الناشر دار طيبة، الرياض، بدون معلومات أخرى.
١١٩ ـ رفع الملام عن الأئمة الأعلام: تأليف شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ت٧٢٨هـ، تحقيق زهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، الثانية، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
١٢٠ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين: تأليف الإمام ابن القيم، ت٧٥١هـ، تحقيق ودراسة د. السيد الجميلي، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، الثانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
١٢١ ـ الروضة الندية شرح الدرة البهية: تأليف محمد صديق حسن خان القنوجي البخاري، تحقيق محمد صبحي حسن حلاق، ط. مكتبة الكوثر، الرياض، ودار الهجرة، صنعاء، الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
١٢٢ ـ رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر: للشيخ محمد قطب، دار الوطن للنشر، الرياض، ط. الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

- ز -

١٢٣ ـ زاد المحتاج بشرح المنهاج: للعلامة الشيخ عبد الله ابن الشيخ حسن الحسن الكوهجي، اعتنى به الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، طبع على نفقة الشؤون الدينية بدولة قطر، ط. الأولى.

١٢٤ ـ زاد المسير في علم التفسير: تأليف الإمام أبي الفرج عبد الرحمٰن ابن الجوزي، ت٥٩٧هـ، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، الرابعة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٢٥ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط. الرابعة عشر، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

١٢٦ ـ الزندقة والزنادقة: تأليف عاطف شكري أبو عوض، دار الفكر، الأردن، عمان، بدون معلومات أخرى.

ـ س ـ

١٢٧ ـ سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: تأليف الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، ت٩٤٢هـ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

١٢٨ ـ السراج الوهاج على متن المنهاج: لمحمد الزهري الغمراوي، ط. مكتبة البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م.

١٢٩ ـ السلسبيل في معرفة الدليل «حاشية على زاد المستقنع»: تأليف الشيخ صالح إبراهيم البليهي، الناشر مكتبة المعارف، الرياض، ط. الرابعة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

١٣٠ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة: تأليف الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة المعارف، الرياض.

١٣١ ـ السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي: تأليف الشيخ مصطفى السباعي، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، الرابعة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٣٢ ـ السنن الكبرى: تأليف الإمام المحدث أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، ت٤٥٨هـ، الناشر دار صادر، بيروت، ط. الأولى، بمطبعة مجلس دائرة المعارف بالهند، ١٣٤٤هـ.

١٣٣ ـ السنن الكبرى: تأليف الإمام أبي عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١٣٤ ـ السنن الكبرى: لإمام المحدثين الحافظ الجليل أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، ت٤٥٨هـ، الناشر دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط. الأولى، ١٣٥٤هـ.

١٣٥ ـ سير أعلام النبلاء: للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت٧٤٨هـ، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف والدكتور محيي هلال السرحان، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، التاسعة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٣٦ ـ السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ط. مؤسسة علوم القرآن.

١٣٧ ـ السيد البدوي «دراسة نقدية»: تأليف د. عبد الله صابر ضمن «الغزو الفكري» في المناهج الدراسية، ط. دار الوفاء، مصر، ١٩٩١م.

١٣٨ ـ السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني: تأليف وليد الأعظمي، ط. دار الوفاء، مصر، الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٣٩ ـ السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار: تأليف العلامة محمد بن علي الشوكاني، ت١١٧٣هـ، تحقيق محمود إبراهيم زايد، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

ـ ش ـ

١٤٠ ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: تأليف الشيخ محمد بن محمد مخلوف، ط. دار الفكر، بدون معلومات أخرى.

١٤١ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، ت١٠٨٩هـ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، بدون معلومات أخرى.

١٤٢ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة: تأليف أبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي، ت٤١٨هـ، تحقيق د. أحمد سعد حمدان، ط. دار طيبة، الرياض، بدون معلومات أخرى.

١٤٣ ـ شرح بدر الرشيد في ألفاظ الكفر: تأليف الشيخ العلامة علي سلطان القاري، مصور عن مكتبة الشيخ المحدث حماد الأنصاري ـ رحمه الله تعالى ـ.

١٤٤ ـ شرح الزركشي على مختصر الخرقي: شمس الدين محمد بن عبد الله الزركشي المصري الحنبلي، ت٧٧٢هـ، تحقيق الشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن الجبرين، مكتبة العبيكان، الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

١٤٥ ـ شرح السنّة: تأليف الإمام المحدث الحسين بن مسعود البغوي، ت٥١٦هـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٤٦ ـ شرح صحيح مسلم: تأليف الإمام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي، ت٦٧٦هـ، راجعه الشيخ خليل الميس، ط. دار القلم، بيروت، الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٤٧ ـ الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك: للعلامة أبي البركات محمد الدردير، الناشر مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، بدون معلومات أخرى.

١٤٨ ـ شرح العقيدة الطحاوية: لعلي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، ت٧٩٢هـ، تخريج العلامة محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، الثامنة، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٤٩ ـ شرح الفقه الأكبر: تأليف الإمام الملّا علي بن سلطان بن محمد القاري، ت١٣٩٩هـ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، بدون معلومات أخرى.

١٥٠ ـ شرح منتهى الإرادات: للشيخ العلامة منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، ت١٠٥١هـ، الناشر دار الفكر، بدون معلومات أخرى.

١٥١ ـ شرح منح الجليل على مختصر العلامة خليل: تأليف الشيخ محمد عليش، الناشر مكتبة النجاح، طرابلس، ليبيا، بدون معلومات أخرى.

١٥٢ ـ الشعر الجاهلي: طه حسين.

١٥٣ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى: تأليف القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، ت٥٤٤هـ، تحقيق علي بن محمد البجاوي، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٥٤ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل: تأليف الإمام ابن قيم الجوزية، ت٧٥١هـ، تحرير الحساني حسن عبد الله، ط. مكتبة دار التراث، القاهرة، بدون معلومات أخرى.

ـ ص ـ

١٥٥ ـ الصارم المسلول على شاتم الرسول: تأليف شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ت٧٢٨هـ، تحقيق وتعليق عصام فارس الحرستاني، وتخريج محمد إبراهيم الزغلي، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١٥٦ ـ صحيح ابن حبان: ط. مكتب التربية العربي لدول الخليج، المكتب الإسلامي، الثالثة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٥٧ ـ صحيح سنن أبي داود: للشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الأولى، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

١٥٨ ـ صحيح سنن النسائي: للإمام الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة التربية العربي لدول الخليج، الأولى، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.
١٥٩ ـ صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم: تأليف الشيخ عبد الرحمٰن بن محمد الدوسري، ط. مكتبة دار الأرقم، الكويت، الأولى، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

ـ ض ـ

١٦٠ ـ الضعفاء والمتروكين من المحدثين: تأليف الإمام محمد بن حبان، تحقيق محمد إبراهيم زايد، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع.
١٦١ ـ ضوابط التكفير عند أهل السنّة والجماعة: تأليف عبد الله بن محمد القرني، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

ـ ط ـ

١٦٢ ـ طبقات الحنابلة: تأليف القاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى مع الذيل للحافظ ابن رجب الحنبلي، الناشر دار المعرفة، بيروت، بدون معلومات أخرى.
١٦٣ ـ طبقات الشافعية الكبرى: تأليف تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي السبكي، ت٧٧١هـ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناحي، ط. دار إحياء التراث العربي، بدون معلومات أخرى.
١٦٤ ـ الطبقات الكبرى المسماة بـ«لوائح الأنوار في طبقات الأخيار»: تأليف عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي المصري، الناشر دار الجيل، بيروت، ط. الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
١٦٥ ـ الطبقات الكبرى: تأليف الإمام محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري المعروف بابن سعد، ت٢٣٠هـ، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
١٦٦ ـ الطرق التي يعلم بها صدق الخبر من كذبه: تأليف شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ت٧٢٨هـ، تحقيق الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان، ط. مكتبة السنّة، دمنهور، ودار الفنون، جدة، بدون تاريخ الطبعة.
١٦٧ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين: تأليف الإمام ابن القيم، ت٧٥١هـ، ضبط وتعليق عمر بن محمود أبو عمر، ط. دار ابن القيم، الدمام، الأولى، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

- ع -

١٦٨ ـ العبر في خبر من غبر: تأليف الحافظ شمس الدين الذهبي، ت٧٤٨هـ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، بدون معلومات عن الطبعة.

١٦٩ ـ عقائد السلف للأئمة: أحمد بن حنبل والبخاري وابن قتيبة والدارمي، جمع علي سامي النشار وعمار الطالبي، الناشر: المعارف بالإسكندرية، ١٩٧١م.

١٧٠ ـ عقد الفرائد وكنز الفوائد: نظم شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد القوي المقدسي، ت٦٩٩هـ، الناشر المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، ط. الأولى، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

١٧١ ـ العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون: تأليف علي بن حسن علي الحلبي الأثري، الناشر مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط. الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٧٢ ـ العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية: تأليف الشيخ محمد أمين الشهير بابن عابدين، ت١٢٥٢هـ، الناشر دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط. الثانية.

١٧٣ ـ عقيدة الموحدين والرد على الضلال والمبتدعين: جمع وترتيب الشيخ عبد الله بن سعدي الغامدي العبدلي، تقديم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، ط. مكتبة الطرفين، الطائف، الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١٧٤ ـ على هامش السيرة: تأليف طه حسين، الناشر دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.

١٧٥ ـ عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر، بدون معلومات أخرى.

١٧٦ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود: تأليف العلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم أبادي مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، ضبط وتحقيق عبد الرحمٰن محمد عثمان، ط. دار الفكر، بيروت، بدون معلومات أخرى.

- غ -

١٧٧ ـ الغاية القصوى: للقاضي عبد الله بن عمر البيضاوي، ت٦٨٥هـ، الناشر دار صادر، الدمام.

١٧٨ ـ غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى: تأليف الفقيه العلامة الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي، ت١٠٣٣هـ، الناشر المؤسسة السعدية بالرياض، ط. الثانية، بدون معلومات أخرى.

- ف -

١٧٩ ـ الفتاوى التاتارخانية: للعلامة عالم ابن العلاء الأنصاري الأندلسي الدهلوي الهندي، ت٧٨٦هـ، تحقيق القاضي سجاد حسين، ط. دار القرآن والعلوم الإسلامية، بدون معلومات أخرى.

١٨٠ ـ فتاوى السبكي: تأليف الإمام أبي الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، ت٧٥٦هـ، ط. مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٥هـ.

١٨١ ـ فتاوى سماحة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله: جمع عمر بن محمد بن عبد الرحمٰن القاسم، دار القاسم للنشر، الرياض، ط. الأولى، ١٤١٨هـ.

١٨٢ ـ الفتاوى الكبرى: للإمام شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ت٧٢٨هـ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ودار الريان للتراث، القاهرة، الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٨٣ ـ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: جمع وترتيب الشيخ أحمد بن عبد الرزاق الدويش من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية مع دار أولي النهى، ط. الأولى، ١٤١١هـ.

١٨٤ ـ فتاوى ورسائل سماحة العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ: جمع وترتيب وتحقيق محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم، طبع بمطبعة الحكومة بمكة المكرمة، ١٣٩٩هـ.

١٨٥ ـ فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري: تأليف الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ، ط. دار الريان للتراث، القاهرة، الثانية، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

١٨٦ ـ فتح العلام بشرح مرشد الأنام: تأليف محمد عبد الله الجرداني، الناشر دار السلام، ط. الثالثة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٨٧ ـ فتح القدير: تأليف الإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بابن الهمام الحنفي، ت٦٨١هـ، تعليق وتخريج الشيخ عبد الرزاق غالب المهدي مع «التكملة» لقاضي زادة، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٨٨ ـ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: تأليف الشيخ عبد الرحمٰن بن حسين آل الشيخ، ت١٢٨٥هـ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ط. مكتبة المؤيد، السعودية، ومكتبة دار البيان، سوريا، الثالثة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١٨٩ ـ الفرقان بين الحق والباطل: تأليف الإمام شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ت٧٢٨هـ، تصحيح ومراجعة الشيخ خليل الميس، ط. دار القلم، بيروت، بدون معلومات أخرى.

١٩٠ ـ الفرق بين الفِرق: تأليف عبد القادر بن طاهر بن محمد البغدادي، ت٤٢٩هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. دار المعرفة، بيروت، بدون معلومات أخرى.

١٩١ ـ الفِصَل في الملل والأهواء والنحل: تأليف الإمام أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، ت:٤٥٦هـ، تحقيق د. محمد إبراهيم نصر، ود. عبد الرحمٰن عميرة، ط. دار عكاظ، جدة، الأولى، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

١٩٢ ـ الفقه الإسلامي وأدلته: تأليف د. وهبة الزحيلي، الناشر دار الفكر، ط. الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٩٣ ـ الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي: تأليف د. مصطفى الخِنّ، ود. مصطفى البُغا وعلي الشربجي، الناشر دار القلم، دمشق، ط. الثانية، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

١٩٤ ـ الفكر الإسلامي المعاصر «دراسة وتقويم»: تأليف غازي التوبة، الناشر دار القلم، بيروت، ط. الثانية، ١٩٧٧م.

١٩٥ ـ الفواكه البهية في تراجم الحنفية: تأليف أبي الحسنات محمد بن عبد الحي اللكنوي الهندي، مع التعليقات السنية على الفوائد البهية: للكنوي نفسه، ط. دار المعرفة، بيروت، بدون معلومات أخرى.

١٩٦ ـ الفواكه الدواني: للشيخ أحمد بن غنيم النفراوي المالكي الأزهري، ت١٢٢٠هـ، الناشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط. الثالثة، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.

١٩٧ ـ في ظلال القرآن: تأليف الأستاذ سيد قطب، ط. دار الشروق، القاهرة، الخامسة عشر، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٩٨ ـ في الأدب الجاهلي: تأليف طه حسين، الناشر دار المعارف، مصر، ط. الرابعة عشرة.

- ق -

١٩٩ ـ القاموس المحيط: تأليف العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ت٨١٧هـ، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٢٠٠ ـ القرآنيون وشبهاتهم حول السنّة: تأليف خادم حسين إلهي بخش، الناشر مكتبة الصديق، الطائف، ط. الأولى، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٠١ ـ قلائد الخرائد وخرائد الفوائد: للفقيه عبد الله بن محمد باقشير الحضرمي الشافعي، ت٩٥٨هـ، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٢٠٢ ـ القول المفيد على كتاب التوحيد: شرح فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، الناشر دار العاصمة، الرياض، ط. الأولى، ١٤١٥هـ.

ـ ك ـ

٢٠٣ ـ الكافي في مذهب أهل المدينة المالكي: تأليف الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر، ت٤٦٣هـ، تحقيق د. محمد محمد أحيد ولد ماديك المروتاني، ط. مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٠٤ ـ كتاب الزهد: تأليف شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك المروزي، ت١٨١هـ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون معلومات أخرى.

٢٠٥ ـ كتاب الشريعة: تأليف الإمام المحدث أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، الناشر دار الوطن، الرياض، ط. الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٠٦ ـ كتاب الصلاة وحكم تاركها: تأليف الإمام ابن قيم الجوزية، ت٧٥١هـ، تحقيق تيسير زعيتر، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، الثانية، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢٠٧ ـ كتاب الفروع: للإمام شمس الدين المقدسي أبي عبد الله محمد بن مفلح، ت٧٦٣هـ، الناشر دار مصر للطباعة، ط. الثانية، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م.

٢٠٨ ـ كتاب الكفاية في علم الرواية: تصنيف الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي، ت٤٦٣هـ، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٠٩ ـ كتاب المبسوط: لشمس الدين السرخسي، ط. دار المعرفة، بيروت، لبنان، الثانية.

٢١٠ ـ كتاب مواهب الصمد في حَلِّ ألفاظ الزبد: تأليف الشيخ أحمد بن حجازي الفشني، الناشر قسم الشؤون الدينية بدولة قطر، بدون معلومات أخرى.

٢١١ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: تأليف الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني، ت١١٦٢هـ، تصحيح وتعليق أحمد القلاش، ط. مؤسسة الرسالة، الخامسة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
٢١٢ ـ كشف الشبهات: تأليف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، ت١٢٠٦هـ، مع التعليقات: لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ط. دار المعالي، بيروت، الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.
٢١٣ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: تأليف العلامة مصطفى بن عبد الله القسطنطين الرومي الحنفي المعروف بحاجي خليفة، ت١٠١٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
٢١٤ ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: تأليف العلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ت٥٣٨هـ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، الناشر مكتبة العبيكان، الرياض، ط. الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.
٢١٥ ـ كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار: للإمام تقي الدين أبي بكر بن محمد الحسيني الحصيني الدمشقي الشافعي، ط. الثالثة، طبع على نفقة الشؤون الدينية بدولة قطر.
٢١٦ ـ الكفاية في علم الرواية: للخطيب، الناشر دار التراث، ط. الثانية، بدون معلومات أخرى.

ـ ل ـ

٢١٧ ـ لباب التأويل في معاني التنزيل: تأليف علاء الدين بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، ت٧٢٥هـ، ضبطه وصححه عبد السلام محمد علي شاهين، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
٢١٨ ـ لسان العرب: تأليف العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط. دار الفكر ودار صادر، بيروت، الثالثة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
٢١٩ ـ لسان الميزان: للإمام شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن علي بن أحمد الشهير بـ: ابن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط. الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.
٢٢٠ ـ لوامع الأنوار: للعلامة محمد السفاريني الحنبلي، ت١١٨٩هـ، ط. المكتب الإسلامي، الثالثة، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

- م -

٢٢١ ـ ما يجب أن يعرفه المسلم عن عقائد الروافض الإمامية: تأليف أحمد بن عبد العزيز الحمدان، ط. مكتبة وهبة، القاهرة، الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٢٢ ـ متن القصيدة النونية والميمية: تأليف العلامة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت٧٥١هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٢٣ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: تأليف الحافظ نور الدين بن علي بن أبي بكر الهيثمي، ت٨٠٧هـ، بتحرير الحافظين الجليلين العراقي وابن حجر، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، بدون معلومات أخرى.

٢٢٤ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ت٧٢٨هـ، جمع الشيخ عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم النجدي، ط. دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٢٢٥ ـ مجموع فتاوى ومقالات متنوعة: لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، بدون معلومات أخرى.

٢٢٦ ـ مجموعة التوحيد: بشير محمد عيون، راجعه الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، ط. مكتبة دار البيان، دمشق، ومكتبة المؤيد، الرياض، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٢٧ ـ محاسن التأويل: تأليف محمد جمال الدين القاسمي، ت١٣٢٢هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٢٨ ـ المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل: تأليف الشيخ الإمام مجد الدين أبي البركات ابن تيمية، ت٦٥٢هـ، ط. مكتبة السنّة المحمدية، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م.

٢٢٩ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: تأليف القاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ت٥٤٦هـ، تحقيق عبد السلام بن عبد الشافي محمد، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٣٠ ـ المحلى: تأليف الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، ت٤٥٦هـ، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط. دار التراث، القاهرة، بدون معلومات أخرى.

٢٣١ ـ مختار الصحاح: تأليف محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ت٦٦٦هـ، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٢٣٢ ـ مختصر اختلاف العلماء: للإمام أبي بكر أحمد بن علي الجصاص الرازي، ت٣٧٠هـ، تحقيق د. عبد الله نذير أحمد، ط. دار البشائر الإسلامية، الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٣٣ ـ مختصر الصواعق المرسلة على غزو الجهمية والمعطلة: تأليف الإمام ابن قيِّم الجوزية، اختصره الشيخ الفاضل محمد بن الموصلي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢٣٤ ـ مدارج السالكين بين منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾: تأليف الإمام ابن قيم الجوزية، ت٧٥١هـ، تحقيق محمد حامد الفقي، ط. مكتبة السنّة المحمدية، توزيع مكتبة ابن تيمية، القاهرة، بدون معلومات أخرى.

٢٣٥ ـ مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله: تحقيق ودراسة د. علي بن سليمان المهنا، ط. مكتبة الدار، المدينة المنورة، الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٣٦ ـ المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة: تأليف عبد الإلٰه بن سلمان الأحمدي، ط. دار طيبة، الرياض، الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٢٣٧ ـ المستدرك على الصحيحين: تأليف الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ت٤٠٥هـ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٢٣٨ ـ المستشرقون ومن تابعهم وموقفهم من ثبات الشريعة وشمولها «دراسة وتطبيق»: تأليف الشيخ عابد بن محمد السفياني، الناشر مكتبة المنارة، مكة المكرمة، ط. الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٣٩ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ): رقّم أحاديثه محمد عبد السلام عبد الشافي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٤٠ ـ المصنف: تأليف الحافظ الكبير أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، الثانية، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٢٤١ ـ مطالب أولي النهى: تأليف الفقيه العلامة الشيخ مصطفى السيوطي الرحيباني، ط. الثانية، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٤٢ ـ معالم التنزيل: تأليف الإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي، ت٥١٦هـ، تحقيق خالد عبد الرحمٰن العك، ومروان سوار، ط. دار المعرفة، بيروت، الثانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٤٣ ـ معالم السنن: تأليف الإمام حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، ت٣٨٨هـ، المطبوع بهامش سنن أبي داود: إعداد وتعليق عزت عبيد الله الدعاس وعادل السيد، ط. دار الحديث، بيروت، الأولى، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.

٢٤٤ ـ معجم البلدان: تأليف ياقوت الحموي، تحقيق مزيد عبد العزيز الجندي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، بدون معلومات أخرى.

٢٤٥ ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: تأليف عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، تحقيق مصطفى السقا، ط. دار عالم الكتب، بيروت، الثالثة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٤٦ ـ معجم مقاييس اللغة: تأليف أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت٣٩٥هـ، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء الكتب العربية، ط. الأولى، ١٣٩٦هـ، القاهرة.

٢٤٧ ـ معجم المؤلفين: تأليف عمر رضا كحالة، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٤٨ ـ المعرفة والتاريخ: تأليف أبي يوسف يعقوب بن سفيان البسوي، ت٢٧٧هـ، رواية عبد الله بن جعفر بن رستوية، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، ط. الثانية، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٢٤٩ ـ معونة أولي النهى شرح المنتهى «منتهى الإرادات»: تأليف تقي الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي الحنبلي الشهير بابن النجار، ت٩٧٢هـ، تحقيق د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط. دار خضر، بيروت، الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٥٠ ـ المعونة على مذهب عالم المدينة الإمام مالك بن أنس: تأليف القاضي عبد الوهاب البغدادي، ت٤٢٢هـ، تحقيق د. حميش عبد الحق، الناشر مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط. الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٥١ ـ المعيار المعرب: للإمام أحمد بن يحيى الونشريسي، ت٩١٤هـ، الناشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، بدون معلومات أخرى.

٢٥٢ ـ معين الحكام فيما تردد بين الخصمين من الأحكام: لعلاء الدين الطرابلسي الحنفي، ط. الحلبي، بمصر، ١٣٩٣هـ.

٢٥٣ ـ المغني: تأليف موفق الدين أبي محمد عبد الله بن قدامة المقدسي الحنبلي، ت٦٢٠هـ، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ود. عبد الفتاح محمد الحلو، ط. هجر، مصر، الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٥٤ ـ مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج: تأليف الخطيب محمد الشربيني، الناشر مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.

٢٥٥ ـ مفاهيم ينبغي أن تصحح: للشيخ محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط. السابعة، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٥٦ ـ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: للإمام العلامة ابن قيم الجوزية، ت٧٥١هـ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٥٧ ـ مفردات ألفاظ القرآن: تأليف الراغب الأصفهاني، ت٤٢٥هـ، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط. دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٥٨ ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: تأليف العلامة الشيخ محمد بن عبد الرحمٰن السخاوي، ت٩٠٢هـ، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشب، ط. دار الكتاب العربي، الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢٥٩ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: تأليف الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، ت٣٢٤هـ، عني بتصحيحه هلموت ريتز. الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. الثالثة، بدون معلومات أخرى.

٢٦٠ ـ مقدمة ابن خلدون: تأليف عبد الرحمٰن بن خلدون، الناشر دار الفكر، بدون معلومات أخرى.

٢٦١ ـ الملل والنِحل: تأليف أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، ت٥٤٨هـ، تحقيق عبد الأمير علي مهنا، وعلي حسن فاعور، ط. دار المعرفة، بيروت، الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٢٦٢ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف: تأليف الإمام ابن قَيِّم الجوزية، ت٧٥١هـ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط. مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، الثالثة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٦٣ ـ المنتخب من أدلة الشريعة: تأليف أحمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، ط. الأولى، ١٤٠٥هـ، بدون معلومات أخرى.

٢٦٤ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: تأليف أبي الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي، ت٥٩٧هـ، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٦٥ ـ منظومة الذهب المنجلي في الفقه الحنبلي: نظم وشرح موسى محمد شحادة، ط. دار الفكر، دمشق، الأولى، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
٢٦٦ ـ منهاج السنّة النبوية: تأليف شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد السلام بن تيمية، ت٧٢٨هـ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود، الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٢٦٧ ـ الموافقات في أصول الشريعة: تأليف الإمام أبي إسحاق الشاطبي، ت٧٩٠هـ، بعناية الشيخ عبد الله دراز، ط. دار المعرفة، بيروت، بدون معلومات أخرى.
٢٦٨ ـ مواهب الجليل من أدلة خليل: تأليف الشيخ أحمد بن أحمد المختار الجكني الشنقيطي، من مطبوعات إدارة إحياء التراث الإسلامي بقطر، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٢٦٩ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال: تأليف أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت٧٤٨هـ، تحقيق علي محمد البجاوي، ط. دار المعرفة، بيروت، بدون معلومات أخرى.

ـ ن ـ

٢٧٠ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي، ت٨٧٤هـ، تقديم وتعليق محمد حسن شمس الدين، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
٢٧١ ـ النشر في القراءات العشر: تأليف الحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري، ت٨٣٣هـ، بعناية محمد علي الصباغ، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون معلومات أخرى.
٢٧٢ ـ نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية: تأليف العلامة جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي، تحقيق أحمد شمس الدين، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
٢٧٣ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر: تأليف الإمام مجد الدين المبارك بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير، ت٦٠٦هـ، ط. دار الفكر، بيروت، بدون معلومات أخرى.
٢٧٤ ـ نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: تأليف شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة بن شهاب الدين الرملي المنوفي المصري الأنصاري الشهير بالشافعي الصغير، ت١٠٠٤هـ، الناشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.

٢٧٥ ـ النهي عن سبّ الأصحاب وما فيه من الإثم والعقاب: تأليف الإمام الحافظ محمد بن عبد الواحد ضياء الدين المقدسي، ت٦٤٣هـ، تحقيق د. محمد أحمد عاشور، وجمال عبد المنعم الكومي، الناشر الدار الذهبية، القاهرة، بدون معلومات أخرى.
٢٧٦ ـ نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف: تأليف د. محمد بن عبد الله الوهيبي، ط. دار المسلم، الرياض، الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
٢٧٧ ـ نيل المآرب في تهذيب شرح عمدة الطالب: تهذيب الشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن آل بسام، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، بدون معلومات أخرى.
٢٧٨ ـ نيل المرام بنظم متن الزاد: للعالم الفقيه المحدث الشيخ سعد بن حمد بن عتيق، ت١٣٤٩هـ، وتتمته للفقيه القاضي عبد الرحمٰن بن عبد العزيز سحمان، الناشر دار الهداية، الرياض.

ـ هـ ـ

٢٧٩ ـ الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية: تأليف أحمد أبو زيد، كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، السنة الثالثة عشرة، محرم ١٤١٥هـ، العدد ١٤٥.
٢٨٠ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: للإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق مصطفى أبو النصر الشلبي، مكتبة السوادي، جدة، ط. الثانية، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٢٨١ ـ هذه هي الصوفية: تأليف عبد الرحمٰن الوكيل، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الرابعة، ١٩٨٤م.

ـ و ـ

٢٨٢ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب: تأليف الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت٧٥١هـ، دراسة وتحقيق محمد عبد الرحمٰن عوض، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
٢٨٣ ـ وسطية أهل السنّة والجماعة بين الفرق: تأليف د. محمد باكريم، ط. دار الراية، الرياض، الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

ـ ي ـ

٢٨٤ ـ اليهود في القرآن والسنّة «بعض من خلائقهم»: تأليف الدكتور محمد أديب الصالح، ط. دار الهدى، الرياض، الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

فهرس الموضوعات

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

الباب الثالث: حكم الاستهزاء وأقسام المستهزئين

وفيه فصلان

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة